دومينيك لابيير
لاري كولينز

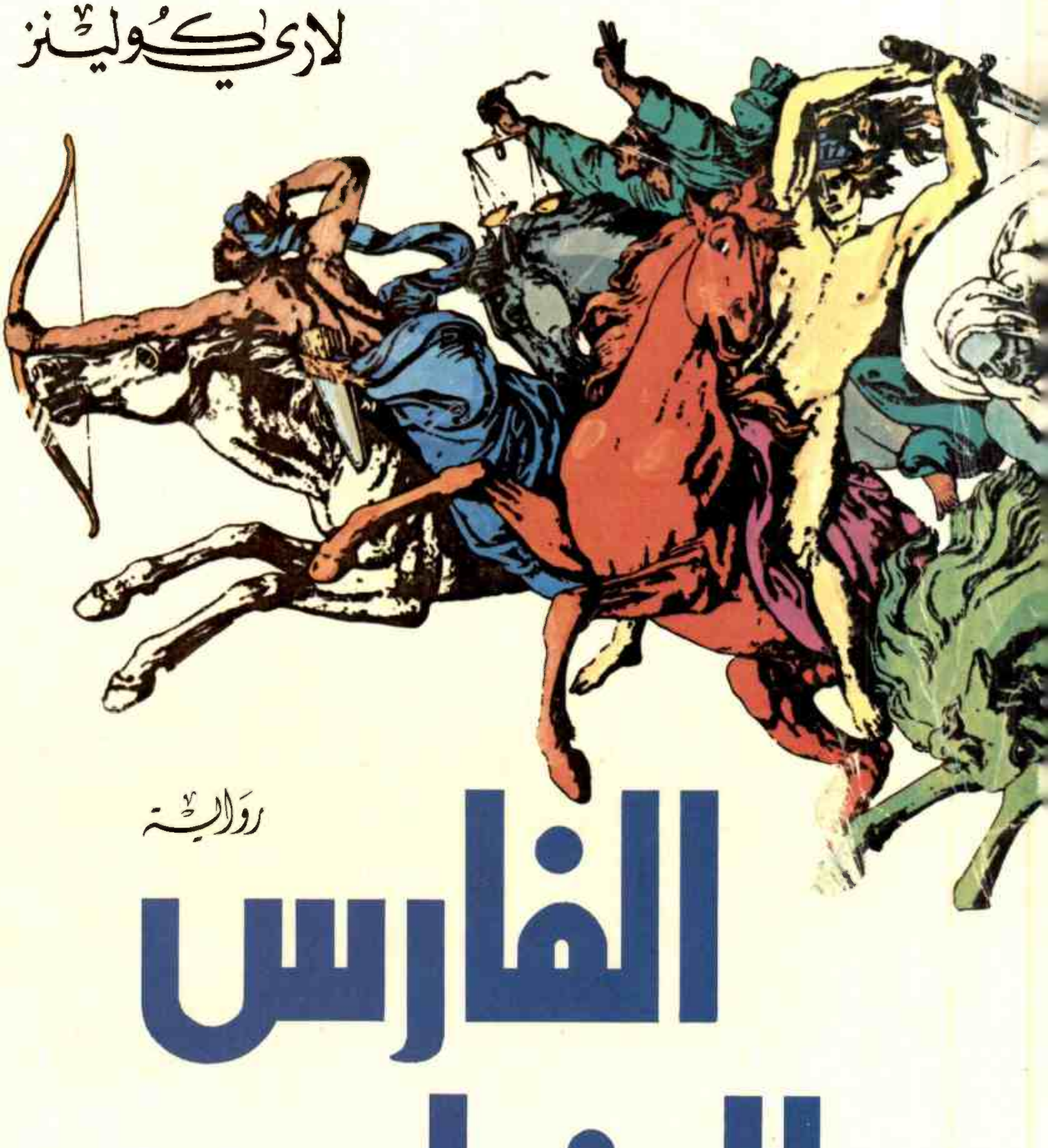

رواية

الفارس الخامس

دار الآداب - بيروت

خالد أبو رقيق

خالد علي بورقيـــع

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الفارس الخامس

خالد علي بورقيح

الفارس الخامس

تأليف

دومينيك لابيير

ولاري كولينز

ترجمة المحامي جلال مطرجي

منشورات دار الآداب

LE CINQUIEME CAVALIER
PAR
DOMINIQUE LAPIERRE ET LARRY COLLINS
(C) LARRY COLLINS AND PRESSINTER
S . A . 197X .

حقوق الطبعة العربية
محفوظة لدار الآداب

الطبعة الاولى
كانون الثاني (يناير)١٩٨٣

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

مقدّمة الناشر العربي

« الفارس الخامس » هو ، في رأي المؤلفيْن دومينك لابيار ولاري كولنز ، العقيد معمر القذافي الذي يترأس فرسان القديس يوحنا الأربعة المعروفين في « سفر الرؤيا » منبثقاً من أحشاء الجحيم ليصعق العالم » .

وهذه الرواية ، التي هي مزيج من الوقائع والتخيّلات ، تدور خلال ست وثلاثين ساعة « علّقت أنفاسَ العالم » . وقد ذكر المؤلفان أنهما انصرفا طوال اربعة أعوام للقيام « بتحقيق هائل عبر اميركا وآسيا واوستراليا وافريقيا واوروبا والشرق الأوسط . تحقيق شديد السّرّيّة . . وقضينا مئات الساعات بين معظم شخصيات « الفارس الخامس » ومع الذين يعيشون قربهم ، سواء أكانوا وزراء كارتر أو بيغن او جيسكار ديستان ، جنرالات اميركيين أو اسرائيليين ، علماء ذرة أميركيين أو فرنسيين ، أطباء نفس هولنديين ، أعضاء مكتب الشرطة الاتحادية الاميركية او وكالة الاستخبارات الأميركية أو الموساد ، أو مخبرين سريين فرنسيين او ليبيين ، او شرطة نيويورك ، أو طيارين في القوات النووية الاسرائيلية ، او إرهابيين فلسطينيين ، او متعصبين دينيين من جميع الأجناس . او قوّادين او نشّالين . . . وقد حلّلنا شخصيتهم ، وشرّحنا دوافعهم ، وتفحّصنا ماضيهم لتصوّر المسلك الذي يسلكون في الموقف التاريخي الذي نرويه» .

ويستطرد المؤلّفان الى القول : « وجميع الأماكن التي تجري فيها أحداث « الفارس الخامس » هي حقيقية . وقد كرّسنا شهوراً من العمل في زيارة معظم هذه الأماكن لإعادة خلق جوّها الحقيقي ، ووصف أدقّ تفاصيلها . وهذه الأماكن هي في وقت واحد أشهر أماكن العالم واشدّها خفاءً : الأركان العامة للبيت الأبيض ، تحت الأرض ، قيادة البانتغون النووية ، مختبر لوس ألاموس الذري ، طيّارة البوينغ « كاتاستروف »،أنفاق القوة الاسرائيلية الضاربة ، مفوضية مانهاتن السادسة ، ثكنة الخدمات السرية الفرنسية ، القمر الصناعي المنسيّ « أوسكار » القيادة العامة للعمليات الخاصة التابعة للقذافي ، المستعمرات الاسرائيلية « المتوحشة » في يهودا والسامرة ، أحواض بروكلين ، صحراء سرت الليبية . . . اروقة اكبر جريدة في العالم الخ . . وقد قضينا اكثر من عام لإعادة كتابة التحقيق البوليسي الذي سيجري إذاأخذ القذافي حقاً عشرة ملايين نيويوركي رهائن . وبمعونة مئات من عملاء الاستخبارات والجمارك والهجرة ، أعدنا تأليف القصة ساعة فساعة ، من القمة حتى القاعدة . بل لقد وظّفنا مديراً كبيراً متقاعداً من مديري مفرزة نيويورك الجنائية ليساعدنا في تحقيقنا عبر غابات « ووترفرونت » وشوارع نيويورك المحرقة ، حيث أخفى الارهابيون الفلسطينيون هذه القنبلة التي كانوا ينذرون بتفجيرها بعد ست وثلاثين ساعة » .

***

واذن ، فقد أخذ المؤلفان على عاتقهما المهمة التالية : اذا امتلك العرب القنبلة الهيدروجينية ،

وقرروا استعمالها كوسيلة ضغط لاسترداد حقهم في فلسطين ، فكيف يواجه العالم قرارهم هذا ؟ كيف تتصرف الولايات المتحدة الاميركية اذا وضع ثلاثة فلسطينيين في أحد أحياء نيويورك قنبلة هيدروجينية كلفهم قائد ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة معمر القذافي بنقلها ، وأنذر الرئيس الاميركي بتفجيرها اذا لم يمارس ضغطه على الدولة الصهيونية من أجل حملها على اخلاء مستعمراتها التي أقامتها بصورة لا شرعية على الأرض التي اغتصبتها من الأمة العربية واخلاء رعاياها الذين يسكنون القطاع الشرقي من القدس ، بما فيه المسجد الأقصى ، واعلان نيتها بأن تسمح لجميع الفلسطينيين الراغبين بالعودة الفورية الى وطنهم وان يتمتعوا فيه بجميع حقوقهم كشعب سيد ».

ومن الطبيعي أن يحاول المؤلفان أن يعرضا وجهات نظر الأطراف عرضا موضوعيا ، ولكن هل استطاعا حقا ان يكونا موضوعيين ؟

إن هذا أمرٌ مشكوك فيه ، فإن « الروح » التي تسري في أوصال هذه الرواية التاريخية ، هي روح تتغلغل تأثيرات الغرب وافاقه ومعطياته وعدائيته للشرق العربي في جميع ثناياها . وبالرغم من ان الرواية تحاول أن تحكم بأن العرب على حقّ في الدفاع عن حقوقهم ، فإن قارئها يخرج بأنّ العرب يستحقون ان يُدانوا حين يلجأون الى « الإرهاب » و« الابتزاز » باللجوء الى التهديد باستعمال القنبلة الهيدروجينية .

ومع ذلك ، فهل يكفي ان يكون المرء غير موضوعي حتى نمتنع عن الاستماع اليه ؟

لقد ترددت « دار الاداب » طويلاً ، قبل ان تعتزم ترجمة هذه الرواية ونشرها . وكان ترددها قائماً على عدة مآخذ :

١ ـ تصوير المطالبة بالحق العربي ، ولو بالتهديد الذي يلجأ اليه العرب بعد ان أعجزتهم جميع الوسائل لاقرار حقهم ، بأنها « إرهاب ». وحين يستعمل الغربي او الصهيوني هذا النعت بصورةٍ تحقيرية وبلهجة دينونة واضحة ، ينسيان دائماً أنهما اقاما سلطتهما الامبريالية او الاستعمارية او الاغتصابية على أبشع أنواع « الارهاب » .

٢ ـ بالرغم من أن الصورة المرسومة للعقيد القذافي صورة إيجابية ، في كثير من جوانبها ، وأن المؤلفين يصفانه ، على لسان بعض الأبطال ، بأنه داهية ، فان النعوت التي يطلقها عليه أبطال آخرون (هتلر جديد ، قاتل ، متعصب ، مجنون ، متأله ، طاغية ، مجرم ، ابن . .) هي نعوت جارحة . . وان كانت تنضح بحقد أصحابها ولؤمهم ونظرتهم العدائيّة المتعصبة ضد الأمة العربية .

٣ ـ ان الصورة التي تبقى من شخصيات الفلسطينيين الثلاثة ، هي صورة « كمال » القاتل ، قاتل أخيه خاصة ، فكأنه بذلك رمز للفلسطينيّ ، بشكل عام . لأن أخاه « وليد » الذي هو خائن في نظره ونظر كل عربي ، ذو وجه إنساني يطفو على السطح ليجعله شخصا « محبوبا » لا سيما عند القارىء الأجنبي . وأما أختهما « ليلى » فان صورتها كفتاة حرة تُقبل على الشراب والجنس تجعل صفتها الثورية باهتة . وهكذا تحمل الرواية صورة « مشوَّهة » و« مشوِّهة » للفلسطيني .

٤ ـ تحاول الرواية ، في نهايتها ، الايحاء بان « كامب ديفيد » مرشّح للاستمرار ، بل للتمخُّض عن « حل نهائي » للقضية الفلسطينية ، بالرغم من ان الاقتراح السرّي الصادر عن رئيس الولايات المتحدة بعقد كامب ديفيد جديد لا نرى للعقيد القذافي موقفاً منه ، هل قبله ام رفضه . والجبهة العربية التي رفضت وتصدّت حتى الآن لـ « كامب دايفيد » لن تُقرَّ امتداداً له ، ولا بديلاً عنه غير التحرير الكامل من النهر الى البحر .

٥ ـ في الرواية حكايات وقصص عديدة هي في الحقيقة مزاعم وترّهات تصلح للتندُّر والتفكُّه ، ولكنها تشوِّه الحقائق المشرِّفة للأمة العربية وبعض قادتها والانسان العربي ، وهي من قبيل الدسّ والافتراء .

هـذه بعض المآخذ التي تُسجَّل على الرواية . ولكن هل تكون كافية لحجبها عن القراء العرب ؟

نحن من الذين يعتقدون أن العرب مقصِّرون غاية التقصير في سياستهم بعدم الاطلاع على ما يرسمه او يبيِّته او يوحيه الأجانب ، لا سيا اذا كانوا من الأعداء .

وسواء أكان مؤلفا « الفارس الخامس » يُصنَّفان في عداد أولئك الأعداء ، ام كانا يحاولان الموضوعية في طرح المشكلة ، فان اطلاع القراء العرب على عملهم يحمل فائدة لا شك فيها .

ان الدرس الذي يرشح من هذه الرواية هو التالي : حين يملك العرب سلاحاً هيدروجينياً مماثلاً للسلاح الذي يملكه أعداؤهم من الاميركيين والصهيونيين ، فانهم يستطيعون ، من موقع القوة المتكافئة ، ان يُسمعوا صوتهم وينفذوا به الى أعدائهم فيقسروهم قسراً ولو بدافع « توازن الإرهاب »، على التفكير باعادة حقوقهم المغتصبة .

ويبقى ان « الفارس الخامس » تفضح مواقف الأعداء ، حين يمتلك العرب سلاحـاً متكافئـاً مع سلاحهم .

وقد يكون في « الفارس الخامس » دعوة للعرب ان يتمثّلوا وينفّذوا الأمر الإلَهي « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم » .

ولا بدّ لنا أخيراً من أن نوضّـح أن الرواية ، وإن اعتمدت بعض أحداثها على بعض الوقائع التي حدثت فعلاً ، هي في مجملها رواية يضرب فيها خيال المؤلفين بحظ كبير ، وأن التقارير والوثائق والمقابلات التي يتناولها الحديث في بعض المواقف غير حقيقية ، وإنما هي اجتهادات من قبل المؤلفين .

وربما زار المؤلفان الجماهيرية من قبل ، ووقفا على ما تـم فيها من تحوّلات جذرية ، غير أن كتابتهما تصدر عن رؤية خاصة محدودة في إطار الاجتهاد الشخصي ، بعيداً عن أية مقابلة تمت أو وثيقة حصـلا عليها .

إن النّـص على هذه التحفظات ضروري جداً هنا ، حتى لا يعتقد القارىء أن ما جاء في هذه الرواية حقيقة لا يرقى اليها الشك .

***

وفي ختام هذه المقدمة ، نودّ ان نورد ما نشرته مجلة « شترن » الألمانية من مقابلة أجراها صحفيان ألمانيان مع العقيد القذافي في شهر نوفمبر ١٩٨٠ .

« شترن : ـ هل قرأتم ، سيدي الرئيس ، كتابـاً يتحـدث عن ليبيا ويحمـل عنـوان « الفـارس الخامس » ؟

القذافي : ـ لا .

شترن : ـ ومع ذلك ، فأنتم شخصياً البطل الرئيسي في هذا الكتاب الذي يصوّركم وأنتم تكلّفون

شبّاناً فلسطينيين بوضع قنبلة هيدروجينية في نيويورك ، لإجبار الاميركيين على إرغام اسرائيل على إعادة الأراضي العربية المحتلة الى الفلسطينيين .

وابتسم القذافي قائلاً : ـ انها فكرة ممتازة .

شترن : ـ فكرة فقط ؟

فأخذ الرئيس الليبي يضحك بانطلاق .

القذافي : ـ على كل حال ، اذا تحققت هذه الفكرة يوما ، فانتم الذين ستكونون مسؤولين عنها ، لأنكم تكونون انتم الذين وضعتموها في رأسي ! »

الناشر

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

ولما فضَّ الختم الرابع ، سمعتُ صوت الحيوان الرابع الذي كان يقول : « تعالَ ».وظهر لي جواد أكدر اللون . والذي كان يمتطي صهوته كان يُدعى الموت ، وكان الجحيم يتبعه . وقد أُعطيا سلطةً على القسم الرابع من الأرض ، ليقتلا بالسيف والجوع والوفيات وحيوانات الأرض المفترسة .

« سِفْر الرؤيا ٦ ، ٧ ، ٨ »

القسم الأول

« ان هذا سيغيّر العالم »

كان موظف الجمرك ينظر الى المطر يجلد زجاج النافذة راسماً عربسات عاصفة . فأخذ يرتعش . ولم يكن الوقت ملائماً للتواجد على ظهر البحر . وفي الليل ، كانت عيناه المحمرتان تتبيّنان منظر مرفأ نيويورك الشامل المألوف وأنوار الأرصفة المتلألئة في « الهدسون » ورأس جزيرة « غوفرنورز » وشريطيّة جسر « فرازانو » الساطعة في البعيد .

وطقطقت مُبرقةُ كاتبة خلفه . ونظر الى ساعته ، فإذا بها تشير الى منتصف الليل . وكانت السفينة ـ الشاحنة الأولى التي سوف ترسو في نيويورك تلك الجمعة في ٤ كانون الأول قد مرّت أمام مركب ـ فنار « امبروز » واجتازت الحدود البحرية الأميركية . وعاد الرجل الى مقر عمله . وكان عليه ، من هذا المرقب المختبيء في الطابق السادس من « وُرد تريد سنتر » ، عند رأس « منهاتن » تقريباً ، ان يُراقب المدى الجمركي لأكبر مرفأ في العالم حتى الثامنة صباحاً . وقد فتح سجلّه عند صفحة لما تزل بيضاء ليوم جديد . واقتلع الرسالة التي طبعتها المبرقة الكاتبة . ثم دوّن المعلومات المتعلقة بالسفينة السبعة آلاف واربعمئة واثنتين وعشرين التي دخلت المرفأ منذ اول السنة ، وكان منكبّاً على عمله كأنه كاتب من القرون الوسطى ينسخ مزموراً .

الاسم : ديونيسوس . العَلَم : بانامّي . مكان الوصول : رصيف « بروكلين اوستين ترمينال رقم ٣ » . الوكيل البحري : « هلياس ستيفادور كومباني » .

وبعد ان أنجز تلك المعاملة ، ضرب اسم الباخرة على ملامس طرفيْ ناظمة آلية موضوعة على منضدة مجاورة . وكان هذا الجهاز مرتبطاً بالمركز القومي للتحقيق الجنائي . وخلال بضع ثوان سوف يظهر سجلّ السفينة «ديونيسوس» العدلي . وأية مخالفة مسجّلة في مجرى حياتها ، سواءً أكان إكتشاف كيْس هيروين تحت أرضية قعر المركب الإضافية او مشاجرة بحار ثمِل ، سوف تظهر بصورة آلية على الشاشة . وقد راقب الجمركي رقص الأعواد الصغيرة الخضر التي ألّفت بالنتيجة ثلاث كلمات : « لا شيء يُذكر » . وبدا عليه الارتياح ، فسجّل هذه الكلمات في الخانة المختصّة من سجله ، مؤكداً بذلك ان الجمارك الأميركية لا ينبغي ان تقلق من وصول السفينة الصغيرة القديمة التي كانت تَمْثُلُ عند مدخل ممرّ « امبروز » .

***

وكانت « الديونيسوس » أحدى أواخر سفن الحرية العائدة للحرب العالمية الثانية الملقّبة بشاحنات المحيطات ، التي كانت لا تزال تمخر البحار . وخلال اربعين سنة تقريباً ، ومنذ الإنزال في « النورماندي » حتى تلك الليلة من كانون الأول ، كانت تنقل السلع والبضائع المهرّبة الى أرجاء العالم ، رافعة نصف دزينة من الأعلام المختلفة . والشركة التي استأجرتها في ذلك الحين والمعروفة بإسم « ترانس اوسيان شيبرز » ، كانت قد تأسّست قبل ستة اشهر بموجب عقد مسجل برقم ٥٦٧١ لدى وزارة التجارة في مدينة باناما . وكان العنوان المدوّن على شهادة التسجيل هو عنوان مكتب مجهول لمحامين قائم في

« مركادو » في باناما.وكما يحدث غالباً في قضايا النقل البحري ، سواءً فيما يتعلق بناقلات البترول العملاقة أو بمراكب الصيد المتناهية الصغر ، فإن كل أثر للمالكين الحقيقيين « للديونيسوس » كان يغيب في غُفْلَيّة صندوق بريد في مدينة « لوسرن » في سويسرا حيث يوجد عنوان مركز الشركة .

وبعد ان تركت السفينة امواج الأطلسي الصاخبة ، كانت تصعد الطريق الملكية نحو قلب نيويورك . وقد اجتازت منطقة الـ « نرّوز » تحت التخريم المعدنيّ لجسر « ڤرازوانو » . وفجأةً ، وعند الفجر الذي كان يشرق ، ظهر أمام مُقدّمها البالي ، المظهرُ المذهل الذي كانَ قد أثار الفرح والأمل لدى ملايين الرجال ، منظر الصورة الظلّيّة المّتشحة بالخضرة لتمثال الحرية ، ثم أبراج « مانهاتن » المضيئة خارقةً الضباب ، وكأنها جذوع مشتعلة لحرج من الزجاج والفولاذ ينتصب مقتحماً السماء .

وكان الراكب الوحيد على متن سفينة الشحن يتأمّل المنظر الشامل من قمّة الطبقة العليا ، غير مكترث بالمطر . وكان الفلسطيني كمال دجاني ، الضامر وذو العضل والقامة المعتدلة ، يبدو في الثلاثين من عمره . وكان يرتدي بنطالاً ضيقاً من نوع « الجنز » وقميصاً من الجلد ذا ياقة مرفوعة. وكانت عمْرَة ذات مربعات تنزل فوق عينيه . وكان قد أبحر لدى توقُّف السفينة في الـ « بيره » .

وبداعي دوار البحر الذي لا تمكن مدافعته ، كان قد قضى أيام الرحلة الستة عشر منزوياً في قمريته مع ذخيرة من الروايات البوليسية . غير أنه كان يتسلل كل صباح عند الفجر الى الجسر الأعلى مرتدياً ثوباً دافئاً . وخلال عشرين دقيقة ، وأياً كانت حالة البحر ، كان يتظاهر فوقه بهجمات « جودو »،وكان يضرب حاجز السفينة ضربات « كراته » ، قاصداً من وراء هذه التمارين المحافظة على سيطرته على الفنون العسكرية .

ومزّقت صفارة السفينة الهواء الرَطْب . وبعد أن ابتعدت عن ناطحات السحاب في « مانهاتن » انعطفت «الديونيسوس » يميناً باتجاه الخط الواطىء لأعمدة جسر « بروكلين » ، محاذية المستودعات حيث كان زعماء المافيا قد أقاموا إحدى امبراطورياتهم الأسطورية على رصيف « ستايت ستريت » المهجور الذي كان المهرِّب « جوني ديو » قد أدخل عَبْره جبالاً من الهرويين ، ووصلت امام ثلاثة ارصفة عائمة ذات أوتدة خشبية مغطاة بالطحالب والأصداف .

من هذه الأرصفة المنخورة لمستودع « بروكلين » العسكري القديم ، كان قد انطلق جيلان من ذوي الارادات الفولاذية نحو خنادق « الأرغون » وشواطيء « النورماندي » . واليومَ وقد تغيّر اسمها الى « بروكلين اوشين ترمينال » ، فإنها كانت ترمز أيضاً الى مـاضٍ آخر . فلقد كانت بين أرصفة نيويورك القلائل الممتدة في البحر التي كانت تتولى صنع خليط من البضائع : صفائح زيت الزيتون اليوناني واكياس جوز الكاجو الهندي والتوابل اليمنية والبن الكولومبي . لقد كانت بقايا ذلك الزمن حيث كان عمال الأحواض والأرصفة يتجمعون امام رجال المافيا ليلتمسوا منهم يومَ عمل . وعلى السقف كانت لا تزال آثار الصليبية الكبرى التي كانت قد ابتدأت وانتهت هنا : تلك الآثار التي كانت تتجلى بكلمات الترحيب الموجّهة لملايين الجنود العائدين من اوروبا . وكانت آنذاك مطليةً بأزرق ساطع مثل سعادة العودة ، اما اليوم فإن لونها الرمادي لا يقل قذارة وحزناً عن صف أرصفة « بروكلين » .

وقد امكن الراكب الوحيد ان يقرأ : اهلاً بكم في وطنكم ، في الوقت الذي كانت فيه « الديونيسوس » تدور نحو مركز رسوُها .

***

وسرعان ما حضر أمام فتحة السفينة مفتش في الجمارك الأميركية وضابط من دائرة الهجرة . وقد قادهما القبطان ، وكان يونانياً مُكرِشاً ، الى مطعم نوتية المركب ليعرض عليهما المفتاح السرِّي المحتَّم لكل تجارة بحرية ، أعني البيان الذي يغطّي البضاعة المنقولة .

وبسبب العبارة « لا شيء يذكر » المسجّلة الليلة الماضية ، فقد اكتفى التفتيش الجمركي بقراءة هذا المستند .

وكان العريف البحري ، من جهته ، قد جمع نوتية المركب ، فقدّم كل بحار دفتره الى ضابط الهجرة وتسلّم إيصالاً نموذج ٩٥ ـ ١ ـ يسمح له بمغادرة السفينة والتجول بحرّية اثناء فترة التوقف . وقبل ان يأخذ توقيعه على الكشف البحري ، طرح الضابط على القبطان السؤال التقليدي :

ـ أليس معكم ركاب ؟

فقهقه اليوناني وعرض صور الفتيات الجميلات شبه العاريات وقد علاها الغبار وازدان بها مطعمه البئس الذي كانت تنبعث منه رائحة الزيت الزنخ :

ـ مهلاً ! أتتصورون ان سفينتي ـ الهيكل هي « الكوين اليزابيت » ؟

***

كان كمال دجاني يترصّد رحيل الموظفين الأثنين خلف كوّة قمريته . ولما رآهما يطآن الأرض ، أستلَّ من حزامه المحفظة وفتح سحّاب الجُيَيْب الداخلي المنتفخ بعدة رزمات من أوراق المئة دولار ، فأخذ منها خمساً ودسّها في أحد اعداد « البلاي بوي » . كان ملقى ارضاً . وعندما رأى صورة المتحشّم « بنجامان فرانكلين » المطبوعة على الأوراق النقدية تستريح بين نهدي غاوية ، أخذته نوبة من الضحك . ووضع الصحيفة بشكل ظاهر على فراشه وفتح مزلاج قمريته وانزوى في المغسل .

وبعد بضع لحظات ، كان الباب يُقرع ، فصاح بالانكليزية :

ـ من هناك ؟

فأجابه صوت :ـ انني أحمل اليك غلافاً من ليلى .

ـ ضعه في « البلاي بوي » على الفراش ، ولك في داخلها شيء ما . خذه وانصرف .

فتح المجلة شاب طويل مُلتحٍ في العشرين من عمره موسوم بندبة على صدغه الأيسر ، واخذ المال ووضع الغلاف وانصرف .

وقد انتظر كمال دجاني عدة دقائق قبل ان يخرج من الحمام ويأخذ الغلاف . وقد وجد فيه رخصة نزول الى اليابسة نموذج ٩٥ ـ ١ وكذلك ورقة تتضمن عنواناً ورقم هاتف . وفي الأسفل قرأ عبارة « أهلاً بكم » . فابتسم : لأن هذه الكلمة كانت تعبر هذه المرة عن معناها الكامل .

***

وعند المساء ، كان راكب « الديونيسوس » يغادر المستودعات مع البحارة المنطلقين للتنزّه . ولم

يكنّ ثمّة من يراقب هويّتهم .واختفى كمال دجاني في ليل « بروكلين » .

***

وبعد تسعة ايام ، كان يوم احد جليدي من شهر كانون الأول يقترب من نهايته . ونتيجةً للعاصفة الثلجية التي كانت قد ضربت شرقي الولايات المتحدة الخميس السابق ، كان ركام الثلج يسدّ شوارع واشنطن . وكانت الحرارة القطبية قد ابقت في منازلهم اكثر سكان العاصمة الأميركية البالغين /٧٢٦٠٠٠/ نسمة . وكغيرها من العائلات الكثيرة ، كانت العائلة التي تشغل المقر الشهير الكائن في شارع « بنسيلفانيا » ١٦٠٠ تستعد لعشاء حميمي . وكانت نغمات « فنيلانديا » الارتسامية وقصيدة « سيبليوس » السيمفونية تملأ أجنحة البيت الأبيض الخاصة ، وكانت هذه الحفلة تذكّر بميل رئيس الولايات المتحدة للموسيقى الكلاسيكية . وكان اشتعال حطبات السندر في الموقد يضفي على غرفة الطعام مظهر الرّغد الحار . كما انه كان يرفع الحرارة بضع درجات ، تلك الحرارة التي حددها المثبت الرئاسي بسبع عشرة درجة سنتغراد ، بغية إعطاء المثل في توفير الطاقة .

وفي تمام الساعة السابعة ، جلس الرئيس وزوجته حول طاولة الأكاجو (المبرنقة) . وكان ثاني أولادهما وزوجته يتعشيان معهما وكذلك آخر اولادهما الثلاثة ، وهي فتاة صغيرة شقراء في الثانية عشرة من عمرها . كانوا يشكلون الرمز الكامل للعائلة الأميركية . وكان الرئيس يرتدي بنطالاً أزرق وقميصاً من الصوف ذا مربعات ، وكانت زوجته ترتدي بنطالاً من المخمل وصدرية من الصوف .

وكعادتها كل احد ، كانت سيدة الولايات المتحدة الأولى قد صرفت الخدم وأعدّت بنفسها العشاء الأحدي المتواضع الذي كان زوجها يحبّه والذي كان عبارة عن حساء الفاصولياء الحمراء وبعض شرائح جانبون فرجينيا المجمّرة وقشدة بالسكر المحروق . وقبل الجلوس دعا الرئيس زوجة ابنه الى تلاوة الصلاة .

وتماسك الخمسة بالأيدي طالبين ان يبارك الله طعامهم . وكان هذا الدعاء احدى الصلوات العديدة التي كان يتلوها كل يوم الرجل الورع الذي كان يحكم الولايات المتحدة . ووحدها الخدمة الدينية لكنيسة واشنطن المعمدانية الأولى كانت قد أخرجته من منزله في ذلك اليوم البارد . وبعد ان ارتدى ثوب الشمّاس الإنجيلي ، كان قد قرأ على الألف وأربعمئة مؤمن من رعيته مزامير الأحد الثالث لمقدمات عيد الميلاد وشرح ، بورع ، رسالة الحب والإصلاح التي كان يقدمها لبني الأنسان مجيء المسيح القريب .

وابتسم الرئيس لزوجته وشرع بتناول الحساء . ومنذ ان اقام في هذا المقر كانت التجاعيد قد ظهرت في زاوية عينيه الزرقاوين،وكان شعره الأشقر والمجعّد قد ابيضّ ومظهره الفتوي قد توارى . وبعد اربع سنوات في السلطة ، بقي هذا الرجل البالغ اربعة وخمسين عاماً أحجية بالنسبة لأغلب مواطنيه،كما كان احد رؤساء الدولة في العصر الحاضر الأقل حباً وفهماً من مواطنيهم . واذا كان القدر قد أراد ان تتميز رئاسته ببعض تلك الأزمات الكبرى التي تجمع الأمة موقتاً حول رئيسها ، فإن عهده قد اشتهر على الأخص بوابل من المعضلات الكئيبة : التضخم المالي ، انخفاض الدولار ، تدهور النفوذ الأميركي في الخارج .

ولما كان قد تعذّر عليه إثارة وطنية مواطنيه في سبيل فتح بعض الحدود الجديدة او إعلان برنامج حكومي ضخم ، فقد كان عليه الاكتفاء بأن يقدم لهم الحقائق المرّة حول تخفيضات الموازنة والتوفيرات في الطاقة وعدم سير العالم على إيقاع الطبول الأميركية . وقد كانت حملاته الصليبية المرتبكة في سبيل حقوق

الإنسان وتحديد نفقات الدولة والإصلاحات الضريبية والاجتماعية ومناظراته غير الموفقة مع الكونغرس وتردداته واخطاؤه وتقلبات سياسته الخارجية ، كل ذلك كان قد اعطى اميركا والعالم صورة زعيم كان يتلمّس طريقه اكثر مما كان يحكم ، ويتأثر بالأحداث اكثر مما كان يحوِّل اتجاهها .

على ان الأمة التي كان يقود ظلّت الأقوى والأغنى والأكثر تبذيراً وحسداً وتقليداً من الغير على هذا الكوكب . فقد كان إنتاجها القومي الإجمالي ثلاثة اضعاف إنتاج الاتحاد السوفييتي ويفوق إنتاج فرنسا والمانيا الغربية وبريطانيا العظمى واليابان مجتمعة . وكانت المنتج الأول العالمي للفحم والفولاذ والأورانيوم والغاز الطبيعي ، وقد ظلّت زراعتها آية في الإنتاجية التي بوسعها ان تغذّي في آن معاً سكانها وسكان الاتحاد السوفياتي .

وكانت تسعة أعشار الناظمات الآلية في العالم وجميع الأجهزة المصغرة التابعة للناظمات الآلية تقريباً وثلاثة أرباع الطائرات المدنية وثلث السيارات ، تخرج من مصانعها .

وكانت تواكب هذه الطاقة الصناعية قوة عسكرية تمثّل ـ على الرغم من اتفاقات « سالت » لنزع السلاح ـ قوة تدمير فريدة في تاريخ البشرية . وخلال ثلاثين سنة كانت الولايات المتحدة قد انفقت معدّلاً سنوياً مقداره ثلاثون مليون دولار لإنشاء هذه القوة وتجهيز نفسها بترسانة حرارية نووية ذات فعالية مرعبة لدرجة أن الرئيس ، بوصفه القائد الأعلى للجيوش ، كان بإمكانه ان يدمِّر ما يعادل مئة مرة الاتحاد السوفياتي وان يمحو كل اثر للحياة من الكوكب ، في حين ان سلامة الأرض الأميركية كانت مضمونة بنظام السهر الألكتروني والإنذار بواسطة الأقمار الصناعية ، ذلك النظام الأكثر تعقيداً بين ما انتجته التكنولوجيا الحديثة . وكانت سبع شبكات كشف تراقب محيط هذا النظام المكاني بدقة ، وتستطيع ان تكتشف على مسافة مئات الأميال من الشواطىء مجرد مرور بلبول رحّال .

ولما كانت حماية الأميركيين تستند الى القيمة الردعية لطاقتهم النووية ، فقد كان بإمكانهم إعتبار أنفسهم طبقة مميّزة . ومن بين جميع سكان الأرض ، كانوا اولئك الذين يستهدفون اقل من غيرهم للإبادة الذرية .

كان رئيس الدولة قد انتهى من تناول الحساء عندما رنّ جرس الهاتف في الصالون المجاور .

وكان هذا الجرس قليلاً ما يرّن في أجنحة البيت الأبيض الخاصة . وعلى العكس من أسلافه ، كان الرئيس يفضل قراءة تقرير على المحادثات الهاتفية ، وكان لدى معاونيه أوامر بإن يقتصر استعمال خطّه الهاتفي على الرسائل ذات الضرورة القصوى دون سواها . وقد توجهت زوجته للإجابة ورجعت قلقة :

ـ إنه جاك أيسمان . وهو يوّد ان يراك حالاً .

كان جاك ايسمان مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي . وهذا اللواء في الطيران البالغ ستة وخمسين عاماً ، ذو الشعر الأشيب الواقف ، كان قد حلَّ محل زيغنيو بريزنسكي ، في المكتب الزاوية من الجناح الغربي للبيت الأبيض ، الذي جعله « هنري كيسنجر » شهيراً .

اعتذر الرئيس وخرج . وبعد دقيقتين دخل الى مكتبه في أجنحته الخاصة . وما ان القى النظرة الأولى على معاونه ، حتى أدرك خطورة زيارته . وكان « ايسمان » مقتصداً في كلماته وحركاته ، فسلّم الرئيس فوراً ملفاً من الورق المقوّى .

ـ حضرة الرئيس ، أعتقد انه ينبغي ان تطّلع على هذا الملف . إنه ترجمة اسطوانة مسجّلة باللغة

العربية أودعت بإسمك في مستهلّ بعد الظهر في مركز الحراسة الرئيسي .

فضّ الرئيس الملف وقرأ صفحتيه المطبوعتين على الآلة الكاتبة :

مجلس الأمن القومي

المرجع : ١٣٦٢٨١ - ٤١٢٤٧١ .

سرّي جداً

الوصف : تسليم غلاف مختوم ، هذا الأحد في ١٣ كانون الأول عند الساعة ١٥,٣١ ، الى ضابط الحراسة عند باب « مديسون » للبيت الأبيض من قبل امرأة مجهولة الهوية . وكان هذا الغلاف يتضمن :

١ - رسماً بيانياً محدّداً وفق المقياس الصناعي لآلة ذات طبيعة مجهولة .
٢ - ملفاً مؤلفاً من أربع صفحات تتضمن حسابات رياضية وفيزيائية .
٣ - اسطوانة مدتها ثلاثون دقيقة ، تتضمن تسجيلاً لصوت رجل يتحدث بالعربية .

ترجمة الأسطوانة ، قام بها أ . ف . شيهن من نظارة الخارجية :

« اليوم السادس من شهر جمادى الأولى سنة ١٤٠١ للهجرة .

« احييك يا حضرة رئيس الولايات المتحدة الأميركية .
واتمنى ان تجدك هذه الرسالة ممتعاً ، بفضل الله ، ببركات صحة جيدة .

« إنني أتوجه اليك لأنك رجل رحمة ، تشعر بآلام الشعوب البريئة والشهيدة .

« إنك تؤكد أنك تريد اقامة السلام في الشرق الأدنى ، وأسأل الله ان يبارك جهودك هذه ، لأنني انا ايضاً رجل سلام ، ولكن لا يمكن ان يكون ثمّة سلام بلا عدل ، ولن يكون عدل بالنسبة لإخوتي ، عرب فلسطين ، طالما ان الصهيونيين ، بمباركة بلدك ، مستمرّون في سلب أرض إخوتي ليقيموا عليها مستوطناتهم غير الشرعية .

ولن يكون عدل بالنسبة لإخوتي عرب فلسطين طالما ان الصهيونيين ينكرون عليهم ، بمباركة بلدك ، حق العودة الى وطن آبائهم . ولن يكون عدل بالنسبة لإخواني الفلسطينيين طالما ان الصهيونيين يحتلّون موقع مسجدنا المقدس في القدس .

وبفضل الله ، فإنني اليوم أمتلك سلاح التدمير المطلق . وإنني إرسل لك مع هذه الرسالة الدليل العلمي على تأكيداتي .

« إنني ، بقلب مثقل بالأسى ، ولكن بوعي بيّن لمسؤولياتي تجاه إخوتي الفلسطينيين وجميع الشعوب العربية ، قد وجدتني مضطراً لتقرير نقل هذا السلاح الى داخل جزيرتك في نيويورك حيث توجد الآن . وسأكون مضطراً لتفجيرها في فترة ست وثلاثين ساعة إعتباراً من هذا المساء عند منتصف الليل ، اي عند الساعة الثانية عشرة بعد غد ، الثلاثاء في ١٥ كانون الأول حسب توقيت نيويورك ، إذا لم تُلزم ، خلال تلك الفترة ، حليفك الصهيوني بما يلي :

١ - إخلاء مستوطناته المقامة . بصفة غير شرعية على الأراضي المسلوبة من الأمة العربية خلال حربه العدوانية عام ١٩٦٧ .

٢ - إخلاء رعاياه المقيمين في المنطقة الشرقية من القدس وقطاع مسجدنا المقدس .

٣ - إبلاغ العالم رغبته في السماح الى جميع أشقائي الفلسطينيين الذين يرغبون في ذلك ، العودة فوراً الى وطنهم وان يتمتعوا فيه بجميع حقوقهم كشعب سيّد .

ويجب عليّ ، فضلاً عن ذلك ، ان أحذِّرك بأنك اذا أذعت مضمون هذا الاتصال او شرعت بأية طريقة كانت بإخلاء نيويورك ، فسأكون مضطراً الى التفجير الفوري لسلاح الإبادة الموضوع في المدينة .

وأسأل الله ان يسكب عليك ، في هذه الساعة العصيبة ، رحمته وحكمته .

معمر القذافي »

« رئيس الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية »

اعترى الرئيس الذهول فسأل معاونه :

- جاك ، هل هذا مزاح ؟

- فلنأمل ذلك . اننا لم نتمكن حتى الآن من التثبُّت مما اذا كانت هذه الرسالة صادرة فعلاً عن القذافي أم أنها من صنع بعض المزّاحين المشؤومين . على أن ما يقلقنا هو ان دائرة الطوارىء النووية في نظارة الطاقة تشير بأن الرسم البياني الملحق بالأسطوانة هو مستند محضّر بعناية فائقة . ولقد أُرسل الى مختبر « لوس الموس » ليكون موضع اختبار عميق . ونحن ننتظر النتيجة . ولقد دعوت لجنة الأزمة بعد عشرين ساعة لاجراء ما يلزم . وكنت اود ان اطلعك على ذلك .

هز الرئيس رأسه ، وقد بدا عليه الوجوم . لقد كان اول رئيس دولة لبلد كبير ، في العصر الذرّي ، يمتلك معلومات صحيحة عن أسرار الفيزياء النووية . ولم تُثر في نفسه أية منطقة من العالم من الهموم والرأفة ، مثل الشرق الأدنى .

ولقد كان سلام الشرق الأدنى هاجسه شبه الدائم منذ ان اقام في البيت الأبيض . ذلك انه كان يعرف ويحب ، بصورة غريبة تكاد تكون رمزية ، الجبال والسهول الصخرية ، في تلك المنطقة ، بقدر الهضاب الطباشيرية تقريباً في جورجيا مسقط رأسه . وكان ينتقل اليها ، كل يوم ، على جناح الخيال بقراءة التوراة .

- جاك ! لا استطيع ان افكر بأن مثل هذا التهديد يصدر عن القذافي . .

قال ذلك بينما كان يضغط بسبابته على غمازة ذقنه ، وأضاف :

- ان القضية تتناول عملاً بعيداً جداً عن المعقول . وما من رئيس امة سيِّدة يجرؤ على ان يوجِّه الينا هذا الإبتزاز بواسطة القنبلة الذرية في نيويورك . . وحتى لو نجح في قتل ثلاثين الف شخص ، فليس باستطاعته أن يجهل أننا لن نتردد ، بتدابير إنتقامية ، في إبادته هو وسكان بلاده عن بكرة ابيهم . يجب ان يكون قد أصبح معتوهاً لكي يُقدم على مثل هذه المكيدة الجنونية .

- هذا هو رأيي ايضاً . وانني شخصياً اميل الى الاعتقاد بان القضية عبارة عن مزحة مبتذلة ، او ،

في أسوأ الحالات ، عن تمثيلية مكّارة نظّمتها جماعة من الإرهابيين يختفون وراء القذافي .

وكان « ايسهان » يشاهد أنوار شجرة الميلاد المغروسة فوق مرجة البيت الأبيض ، أشبه بباقة من النجوم المتعددة الألوان المتلألئة في ليل كانون الأول المظلم . وقد اقتلعه جرس الهاتف من هذا المشهد ، فاعتذر قائلاً :

ـ هذه المخابرة لي ، لقد أخطرت المقسم الهاتفي بأنني كنت معك .

وفيما كان المستشار يهمّ باستلام المخابرة،كان الرئيس يقترب من النافذة وينظر بأسى الى أضواء السيارات القلائل التي كانت تصعد شارع « بنسلفانيا » . لم يكن أول رئيس للولايات المتحدة يواجه ابتزازاً إرهابياً نووياً في مدينة اميركية . فقد كان لجرالد فورد هذا الامتياز المؤسف سنة ١٩٧٤ ، وكان ذلك في معرض نزاع الشرق الأدنى . وكان بعض الفلسطينيين قد هدّدوه بتفجير قنبلة ذريّة في قلب مدينة بوستون ، اذا لم يُطلق سراح احد عشر رفيقاً لهم من السجون الإسرائيلية .

وقد اتضح ان القضية كانت خداعاً ، شأنها شأن خمسين عملية مماثلة كانت قد تلتها . ولكن كان على جرالد فورد ان يواجه ، خلال عدة ساعات ، أمر إخلاء عاصمة « مساشوست » . ولم يعرف سكان بوستون شيئاً من ذلك قط .

ـ حضرة الرئيس ؟

فالتفت رئيس السلطة التنفيذية ولاحظ أن مستشاره كان قد أصبح شاحباً تماماً .

ـ لقد ناداني مختبر « لوس ألموس » . وبموجب التحليل الأولي يبدو أنّ الرسم البياني يمثّل فعلاً سلاحاً ذرياً .

***

وفي تلك اللحظة كانت امرأة شابة أنيقة ترتدي معطف ذئب ، تدخل غرفة المغسل في محطة واشنطن المركزية . وقد نزعت الشعر المستعار الأشقر الذي كانت قد اعتمرته لإيداع مغلّف العقيد القذافي لدى البيت الأبيض ، واعادت بعناية تسريح شعرها الأسود ، جاعلةً منه جديلة في مؤخر رأسها . ودسّت الشعر المستعار داخل حقيبتها ثم خرجت مسرعة الى المرأب المستدير الضخم المطوّق بالقبب المنقولة عن حمامات « ديو كلسيان » الرومانية .

كانت ليلى دجاني شقيقة راكب «الديونيسوس» ، وقد انحرفت نحو اليسار متجهة الى قاعة عرض وجدت فيها ما كانت تبحث عنه : المربّعات المعدنية للمستودع الآلي . ففتحت أحدها كيفما اتفق ثم وضعت داخلها مغلفاً ، وأدخلت في الشق قطعتين كل منهما بخمسة وعشرين سنتاً ثم سحبت المفتاح . واجتازت البهو ثانية لتدخل غرفة للهاتف ولتؤلّف رقماً . ولما رفع مخاطبها السماعة اكتفت بأن تمتمت مراجع المفتاح التي كانت تمسكها بيدها : « ك ـ ٦٠٢ » .

وبعد ثلاث دقائق ، كانت تصل مهرولة الى الرصيف رقم ٦ فصعدت الى آخر قطار «مترولينر» قاصدة نيويورك .

***

كانت مخابرة الفلسطينية الشابة قد دوت في غرفة هاتف عند زاوية برودواي والشارع الثاني والأربعين في نيويورك . وبعد ان دُوِّن مرجع المفتاح ، وضع شاغل غرفة الهاتف اربع قطع من ذوات الخمسة والعشرين سنتاً في الجهاز وألَّف شارة الدلالة ٢٠٢ ثم الرقم ١٤ ـ ١٤ ـ ٤٥٦ . وكان ذلك رقم البيت الأبيض . وتكلَّم بضع لحظات مع عاملة الهاتف ثم أقفل الخط ، وسوّى طاقيته « الأستراكان » وخرج ليتلاشى في موج الساهرين في « تيمس سكوار » .

كان وليد دجاني في الأربعين من عمره ، بديناً وذا مظهر مثقف رصين ووجه نضر وشارب رفيع اسود ونظارتين باطار ضخم . وكان العضو الثالث في ذلك الثلاثيّ العائلي الفلسطيني الذي كانت الظروف قد وضعته في خدمة القذافي لإنجاز تهديده ضد نيويورك .

وقد أعجب وليد دجاني بمنظر « برودواي » .واذ كان يتأمل الواجهات البرّاقة وتوشيات الإعلانات الكهربائية الملوّنة الجبّارة وهي ترتفع لمهاجمة جدران الليل ، كان يفكر بأن لا أزمة للطاقة على « الطريق الساطع الكبير » الذي يؤلف سحابة رائعة من الأنوار . وقد ادهشه ايضاً منظر الأرصفة . وعند زاوية الشارع الثالث والأربعين ، كان مرتّلو جيش الخلاص يغنون بعزم : « تعالوا اليَّ يا أبناء الربّ » وهم يرتجفون في بزّاتهم النظامية الكحلية ، على بعد بضعة امتار من جماعة من البغايا كنّ يعرضن مفاتنهنّ ، مرتديات سراويل مغرية ذات لآلىء صغيرة وقطع من الذهب . وكان الإنسان يجد في ذلك الجمهور خليطاً غريباً من العينات البشرية . فهناك السواح الثملون وساهرو النخبة في ألبسة المساء الرسمية يتوجهون الى المسرح او الى الحانة ، والقوادون في معاطفهم الجلدية وجزماتهم ذات الأكعاب العالية ، وفتيان ضاحية الصفائح في أعلى المدينة وقد أتوا يحلمون في ذلك الفيض من الأنوار ، والمتسكعون ذوو العُمرة المفتوحة ، ورجال الشرطة المُكَرِشون يقومون بدورياتهم والمطارق بأيديهم ، والنشالون واللصوص الساعون وراء طرائدهم ، والجنود والبحارة وهم يغنّون بأعلى اصواتهم .

وعند زاوية الشارع السادس والأربعين ، كان رجل يرتدي سترة طويلة سوداء يعظ المارّة مهدداً : « ان نار جهنم والهلاك الأبدي ينتظرانكم يا سكان سدوم وعمورة ! » . وعلى مسافة قليلة من اعلى برودواي كان « بابا نويل » يهزّ جُرَيْساً أمام قِدْرٍ كانت تنهال فيه الصدقات . وكان نحيلاً حتى ان الحشوة لم تجعل مظهره يوحي بمهنته . وكان وراءه متنكران يعتمران شعراً مستعاراً جعله الأوكسيجين اشقر ، وكانا يصطادان زبائنهما الى فُتحة باب ، دون ان يترك صوتاهما الحادّان أيَّ شك في جنسهما . كانت تلك البشرية متحركة ، صاخبة ، جذّابة ، متعددة العناصر ، تصبّ بين جبلين من الأنوار ، وتكوّن فسيفساء عجيبة . كان الفلسطيني يدرك ، عند كل خطوة ، افراطها المؤثر . وعندما اجتاز وليد دجاني الشارع ، شعر فجأة وكأن طعنة خنجر أصابت تجويف معدته . إنها قُرحته ! واندفع نحو أول مشرب للحليب وطلب كوباً من الحليب . فالتهمه بشراهة الكحولي يشرب اول قدح ويسكي في النهار . ثم تابع سيره بمحاذاة برودواي .

وبعد قليل ، دلّه صدى صوت « فرانك سينترا » مغنّياً إحدى أغنياته القديمة الرائجة ، على موقع الدكان الذي كان يبحث عنه . ودخل الى محلٍ لأجهزة الراديو والأسطوانات مضاءٍ بفيضٍ من الأنوار ، مارّاً أمام معارض « الألبومات » والأسطوانات ، وتوقف امام معرض الأسطوانات الجديدة . وفتّش في خزائن الأدراج حتى عثر على أسطوانة من ثلاثين دقيقة من نوع « باسف » .

لفتَهُ البائع قائلاً :

ـ ايها الصديق ! اننا نشجع مبيعات أصناف الـ « سوني » : ثلاث اسطوانات بأربعة دولارات وتسعة وتسعين سنتاً .

أجاب وليد دجاني : ـ شكراً،ولكنني أفضل اسطوانات « باسف » .

ولما خرج لفتت نظره ساعة دقّاقة في لافتة عملاقة لمدخّن سكائر « ونستون » وهو يرسل حلقات من الدخان . وكان لديه اكثر من ساعتين يتلهّى خلالها قبل أن يحين موعده ، فتابع نزهته في الشارع الأسطوري ، المزدحم بفيض من مخازن الجنس وصالونات التدليك وقاعات السينما الخلاعية . ولقد اختار فيلماً حمله اسمه الخلاّب « ملائكة الشيطان » على الابتسام .

***

وبعيداً عن بعض الكتل لأبنية « تيمس سكوير » الضخمة ، كانت فتيات الإحسان لأخوية « سان فنسان ده بول » في مركز « كندي » للطفولة المعاقة ، يتهيّأن لتقديم مشهد من نوع مختلف تماماً . وكنّ يَقُدن ، بلطف وحنان ، جماعةً من الأولاد نحو شجرة الميلاد المنتصبة ، كمشعل أمل ، وسط قاعة الاحتفالات .

وكانت مِشيتهم المهتزة ونظراتهم المائلة وأفواههم المشوّهة تنمّ عن اللعنة التي كانت قد أصابتهم . لقد كانوا معاقين .

ولقد أجلست الأم الرئيسة محمّييها على شكل نصف دائرة حول شجرة الميلاد . ولدى رؤيتهم اكاليل المصابيح التي كانت تضيء الشجرة ، انفجر فرح الأولاد في ثرثرة مؤثرة ونشاز . وهنا خاطبت الرئيسة الأهالي الحاضرين :

ـ ان « ماريا روكيا » هي التي ستفتتح حفلتنا وتغنّي : « لقد وُلِد الولد الإلهي » .

ثم توجهت وأمسكت بيد فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها ، ذات ضفائر طويلة سود معقودة بشرائط وردية . وقد شلّ الخوف الصغيرة فظلّت مسمّرة . وأخيراً صدر عنها صوت لم يكن الا انيناً أجشّ . وقد اعترتها رعدة عنيفة ، فأخذت تركل بقدميها الأرض ، وكان جسدها الصغير يهتز كنه كأنه يتعرّض لصدمات كهربائية .

كان يجلس في الصف الأول رجل في الخمسين من عمره ، يرتدي ثوباً رمادياً ضيّقاً ، وكان يجّفف عرقه . وكانت كل انتفاضة للبنت الصغيرة وكل صوت مُشوّش يخرج من شفتيها ، يضربانه بألم . لقد كانت ابنته الوحيدة . ومنذ أن ماتت أمها بسرطان الدم قبل ثلاث سنوات ،كانت تعيش لدى الراهبات .

كان « انجيلو روكيا » يحدّق بإبنته بحب مشبوب العاطفة . وما لبثت العاصفة التي كانت تهز الشبح الهزيل ان هدأت . فصدرت عن الفتاة كلمة اولى متردّدة ، ثم أخرى وثالثة .

وكان الصوت لا يزال أجشّ ، إلا أن نغم الأنشودة كان جلياً في رنّة الصوت .

لقد ولد الطفل الإلهي .
فلنرتّل جميعاً لمجيئه

ومسح « انجيلو » صدغيه الأشيبين وفكّ ازرار سترته متنهّداً وهو يشعر بالعزاء . وظهرت عندئذ على وركه الأيمن إحدى خاصّيات مهنته . كانت عبارة عن مسدس أميري ماركة « سميث وداسون » عيار ٣٨ . كان والد الفتاة الصغيرة الذي كان يتصارع مع مقاطع نشيد الميلاد ، مفتشاً اول في المفرزة الجنائية لشرطة نيويورك .

***

في مركز القيادة ، في ماري لاند ، الواقع تحت الأرض ، في جوار « جارمانتون » وعلى مسافة اربعين كيلومتراً من البيت الأبيض ، كان ثمة رجل يرفع جهاز التلفون ، مساء ذلك الأحد . انه « جيم دايفس » ، ضابط الحراسة في مركز القيادة للطوارىء النووية في نظارة الطاقة ، احد المعاقل العديدة السرية التي ستحكم منها اميركا في حال نشوب حرب ذرية .

وبناء على الأمر الذي كان قد اصدره جاك إيسهان ، مساعد رئيس الولايات المتحدة لشؤون الأمن القومي ، بعد وصول التقرير الأولي للمختبر الذري في « لوس ألموس » ببضع دقائق ، كان دايفس سيحرّك الجهاز الأكثر فعّالية الذي اوجدته الحكومة الأميركية لمواجهة أيّ تهديد نووي إرهابي . وكان هاتفه يتيح له منفذاً مباشراً الى الجهاز المحميّ للمخابرات العسكرية « اوتودين اوتوفون » ، وهو عبارة عن شبكة كانت أرقامها المؤلفة من خمسة أعداد تُدرَج في فهرس ضمن كتاب أخضر من اربع وسبعين صفحة ربما كان الدليل السنوي الأكثر سرِّية في العالم .

ـ مركز القيادة العسكرية القومية ، الرائد ايفنز .

هذا ما اعلنه صوت كان يجيب من مركز آخر للقيادة تحت الأرض ، مخبأ تحت « البنتاغون » .

فقال دايفس : ـ هنا مركز عمليات الطوارىء لنظارة الطاقة . لدينا حالة نووية عاجلة اولوية : « السهم المكسور » .

وقد حبس رعشة لدى ذكره هذا الاسم من مجموعة الرموز كان يعني الأفضلية المطلقة التي كانت الحكومة الأميركية تعطيها لأزمة نووية وقت السلْم .

وتابع قائلاً : ـ موقع العجلة : مدينة نيويورك . إننا نطالب بوسائل النقل الجوي اللازمة لتسيير موظفينا الإختصاصيين كافة مع معدّاتهم .

كان هذا الطلب سيُلقي في المعركة أحد تنظيمات الدولة الأميركية الأكثر سرِّية ، أعني مجمع العلماء والفنيين المستنفرين في حالة تأهبّ ليلاً ونهاراً في مركز نظارة الطاقة وفي عدة مختبرات ذرية عبر الولايات المتحدة . وكانت تعرف رسمياً بهذه الأحرف الأولى : ن . أ . س . ت . : مفارز البحث عن المتفجرات النووية . وكانت تلك المفارز ، وما كانت مجهزّة به من كاشفات للكهيربات المحايدة ومن أشعّة غاما المفرطة في الحساسية ومن تقنيات للبحث محُضرّة بمنتهى الدقّة ـ كانت تلك المفارز تشكل الامكانية العلمية الوحيدة لإحباط التهديد الموجَّه بعد ظهر ذلك اليوم الى رئيس الولايات المتحدة .

وفي مركز قيادته في « البنتاغون » الّف الرائد « ايڤنز » سلسلة صيغ مرموزة على ملامس القسم النهائي من الناظمة الآلية . وبظرف ثانية واحدة ظهرت على الشاشة لائحة العمليات التي كان يجب ان يقوم بها لمعالجة المهمة التي كانت قد أسندت اليه . وكان عليه تأمين النقل الجوي لمئتي رجل مع معداتهم انطلاقاً من قواعد « كيركلاند » (المكسيك الجديدة) و « ترافيس » (كاليفورنيا) . ولهذا كانت قيادة النقل الجوي لقاعدة « سكوت » (إيلينوا) تحجز اربع « ستارليفتر » س ـ ١٤١ في حالة تأهب دائم . وكانت الناظمة الآلية تحدد اخيراً بأن جميع الموظفين ومعداتهم يجب انزالهم سراً في قاعدة « ماك غير » في « نيوجرساي » وكانت تلك القاعدة اقرب القواعد الى نيويورك التي بوسعها استقبال طائرات الشحن « ستارليفتر » ولم تكن تبعد عن « مانهاتن » سوى ساعة بالسيارة .

وضرب « إيڤانز » تكراراً على ملامسه فظهرت تعليمات جديدة على الشاشة .

وبعد ثانية واحدة أمكنه ان يحدد لضابط نظارة الطاقة الذي كان قد تحدث اليه بالهاتف ، ان اولى طائراته كان بإمكانها ان تحط في « كيركلاند » عند الساعة ١٨/٣٠ حسب التوقيت المحلي .

وفي سماء « كانساس » كانت طائرة شحن من طراز « ستارليفتر » تنقل محركات غيار بإتجاه احدى قواعد « تكساس » تغيّر فجأة اتجاهها وتسرع نحو الجنوب الغربي في « المكسيك الجديدة » لتنقل عناصر مفارز ف . ن . س . ت . الأولى . وكان ربّانها مُكباً على خرائطه في الظل الخفيف لمقصورته ، يُعِدّ خطته للطيران نحو نيويورك .

***

في تمام الساعة العشرين ، دخل رئيس الولايات المتحدة الى قاعة اجتماعات مجلس الأمن القومي الواقعة تحت الأرض في الجناح الغربي للبيت الأبيض . فوقف الجميع . وكان حضور الرئيس ، في الظروف العادية ، يثير دوماً فضولاً حاداً . وحتى بالنسبة لوزرائه الأكثر فتوراً ، كان نوع من الهالة يحيط بشخص رئيس الدولة . وقد كان ثقل مسؤولياته واتساع سلطاته والقوة التي يجسدها ، تجعل منه كائناً مستقلاً فضلاً عن كونه انساناً مكتملاً . وكما في كل أزمة كان ينضاف ذلك المساء الى هذا الشعور المألوف ثِقلُ الغمِّ واندفاع أملٍ خفيٍ كان لا يمكن الا ان يتركّز عليه .

ـ اشكركم ايها السادة لوجودكم هنا ، واطلب اليكم ان تصلّوا معي لكي لا تكون القضية التي تجمعنا سوى مزحة بغيضة .

كانت قاعة مجلس الأمن القومي للولايات المتحدة تشبه ، بطاولتها العادية البيضاوية وكراسيها المغطاة بالجلد الأحمر ، قاعة اجتماع مصرف صغير في الأقاليم . على أنه ضمن هذه الجدران ذات اللون الأخضر الباهت ، كان جون كندي قد واجه نشوب الحرب العالمية الثالثة اثناء ازمة صواريخ كوبا ، وكان جونسون قد أمر بإرسال نصف مليون اميركي الى ڤيتنام ، وكان نيكسون قد اعتزم إسقاط « سلفادور أللندي » والاعتراف بالصين . والرئيس نفسه كان ، في هذه القاعة ، قد ناقش نتائج إسقاط شاه ايران وجواب اميركا على التحدّيات المثيرة الصادرة عن خلفه .

ولم يكن إبتذال القاعة سوى مظاهر مضلّلة . فقد كانت سلسلة من الأزرار توجّه إنتشار شاشات عرض عملاقة وخرائط العالم . وكان ثمّة أمام كل كرسي دُرج يتضمن هاتفاً مزوّداً بجهاز تشويش آلي ،

ولما كانت القاعة المذكورة تجاور ، خاصّة ، مركز المواصلات المسافية لرئاسة الولايات المتحدة ، فإنها كانت مرتبطة ، بواسطة صفوف من مناضد الإرسال المجهّزة بشاشات تلفزيونية ، بجميع مراكز القيادة في الدولة : نظارة الحربية ، وكالة الاستخبارات المركزية ، نظارة الخارجية ، وكالة الأمن القومي ، قيادة القوات الجوية الستراتيجية .

وكان بإمكان التعليمات الصادرة عن هذه القاعة ان تُنقل على هذا النحو الى جميع الانشاءات الأميركية عبر العالم ، سواءً الى ضابط الرماية على متن حاملة الطائرات « كيتي هوك » المتمركزة أمام مضيق هرمز ، مقابل المنشآت البترولية الايرانية ، أو الى جميع وحدات القوات الجوية الأميركية التي تجوب سماوات الكرة . وفي احدى الزوايا كان يوجد الهاتف الأحمر الشهير الذي يربط البيت الأبيض بالكرملين ، والذي لم يكن ، في الحق ، هاتفاً بل مبرقة كاتبة .

اشار رئيس الدولة الى معاونيه بالجلوس . والغريب انهم كانوا يوحون بأنهم فريق لاعبي غولف عائدين من مباراة ، اكثر من كونهم أركان حرب أزمة لدى حكومة الولايات المتحدة . وكان ناظرا الدفاع والطاقة ومديرو الوكالة المركزية للاستخبارات ومكتب التحقيقات الاتحادي ، والأمن الاتحادي الأميركي ، ورئيس لجنة رؤساء أركان الحرب ومساعد ناظر الخارجية ، يرتدون لباس الأحد المسترخي الذي فاجأتهم به دعوة اللواء « إيسمان » : سراويل الجنز ، وقمصان رعاة البقر ، وسترات الرياضة وحتى الألبسة الدافئة التي تُلبس بين المباريات .

وأجال الرئيس في الحضور نظره الحادّ الأزرق ، وركّز بصره على « إيسمان » :

ـ جاك ، لماذا غاب « جايمس » ؟

في الساعات العصيبة ، يتوق كل انسان الى الشعور أن بجانبه كائناً ما ، رجلاً أو امرأة ، يكون من القرب بحيث يحلّ محله وينصحه كصديق أبان الساعة العصيبة للقرارات .

وعلى الرغم من أن الرئيس كان مُحاطاً بأجدر أدمغة الأمة ، فانه كان يشعر بهذه الحاجة . ولذلك فانه كان قد أحضر معه من مسقط رأسه « جورجيا » زمرة صغيرة من المخلصين ، شركاء وأتباعاً أسكنهم في البيت الأبيض . وكان « جايمس ميلز » البالغ اربعة وثلاثين عاماً والطالب السابق في العلوم السياسية احد هؤلاء .

كان الرئيس كلما جابه معضلة ، بدأ بتحليل اهم عناصرها ، وهذا الأسلوب في العمل ، وان كان بطيئاً ، فهو منهجيّ ، وكان يتحلى به من جرّاء ثقافته العسكرية ، وقد طلب من اللواء « إيسمان » أن يقرأ الرسالة التي تلقّاها من القذافي بعد ظهر ذلك اليوم ثم تدخّل فوراً :

ـ أعتقد أيها السادة أنه قبل ان نفكر بالاقدام على أيّ عمل ما ، يقتضي أن نجيب على سؤال أولي : هل هذا التهديد جدّي حقاً ؟

وفيما كان اقتراحه يُقابل بهمسة موافقة ، كان صوت ينفجر من المكبّر المركّز في وسط طاولة الاجتماع .

كانت المخابرة صادرة عن « المكسيك الجديدة » وكان عند طرف الخط « هارولد وود » مدير مختبر « لوس الموس » الذري .

***

وكان الرجل الذي يتهيأ للتحدث مع رئيس بلاده يشبه ، بشعره الكث الأشقر والمخطط بالشيب وكتفيه الرياضيتين العريضتين ، حطـاباً أسوجياً أكثر مما يشبه بحّاثة مختبر . ومع ذلك فقد كان « هارولد وود » أحد أواخر من بقي على قيد الحياة من فريق العلماء الرائع الذي أدخل العالـم ، ذات مساء من شتاء ١٩٤٢ ، في العصر الذرّي . وكان رفاقه : انشتين ، أوبنهيمر ، بور ، فرمي ـ قد ولّـوا ولكن صورهم كانت هناك على جدران مكتبه ، تعبيراً عن الوَلاء الصادق لذكرى روّاد الملحمة النـووية . وكان مركز « موس ألموس » الذي يتولىّ قيادته ، معبد العلم الذرّي الأميركي . وهناك في قلب صحراء « المكسيك الجديدة » الصخرية الكبرى وعند سفح منحدرات هضبة « باجاريتو » المدوَّخة ، قام « وود » ورفاقه عام ١٩٤٥ بصنع أول قنبلة ذرية .

وبعد ست وثلاثين سنة.وفي المكان نفسه.كان يشعر بأن أعماله التي توخّى من ورائها خير أميركا ، كانت تهدَّد بالانقلاب عليها . وكان قد عمد ، طيلة بعد ظهر ذلك اليوم ، يحيط به كامل فريقه ، الى تمحيص المستندات الفنّية الملحقة باسطوانة القذافي ، مدقّقاً صيغ الجداول الـرياضـية والثقـل النوعي للكهيربات المحايدة والعوامل الحرارية وانحنـاءات العدسـات ، وكلما كانـت النـاظمات الآلية تقـذف نتائجها ، كانت تُظهر الحقيقة المحتومة . والآن ، وقد اختنق حلقه من الجَـزَع ، كان « هارولد وود » على أهبة نقل نتيجة دراسته الى المرجع الأعلى في بلده ، وكان يشاهد من مكتبه أنوار « لـوس الموس » وداراتها الجميلة ذات الطراز المكسيكي وكنيستها التي تتميز ببرج الجرس ومدارسها المزهرة ، تلك المدينة الأنيقة التي كان سبب وجودها الوحيد هو صنع اسلحة الموت النووي .

وكان صوت عالم الفيزياء ، الذي كادت المسافة ان تشوُّهه ، يمـلأ قاعـة المحـاضرات في البيت الأبيض . وكانت الوجوه تبدو رصينة ومتنبّهة . وكان الرئيس قد شبك يديه على الطاولة ، شأنه إبّـان اللحظات الاحتفالية . كان يصغي ، متوتر الأعصاب ، مُركَّز الذهن .

ـ حضرة الرئيس ، أن الرسم البياني والايضاحات المدوّنة في المستندات التي أُرسِـلت الينا لا تطابق قنبلة ذرية . . . (وهنا صدرت عن الحضور صرخة « أف » عامة تعبِّر عن الارتياح الذي غطّى لفتـرة قصيرة صوت المتحدث) ، ان الرسم هو في الواقع رسم قنبلة هيدروجينية . . . (وتنحنح العالم) قنبلة هيدروجينية وزنها ثلاثة ملايين طن . مئة وخمسون مرة قنبلة « هيروشيما » .

***

كان كمال دجاني ، راكب سفينة الـ « ديونيسوس » الذي نزل سراً في نيويورك قبـل ثلاثـة أيام ، يتفحص بعناية المساكن المحيطة به . لم تكن ثمّة أية نافذة مضاءة . فأطمأن وقرفص وزحف على يديه وقدميه على السقف المصقوع . وكان يجرّ كيس « غولف» يتضمّن اجزاء هوائي تلفزيون وهوائيّ راديو ذي حساسية خاصة لأنه كان مركباً من مزيج من البرونز الفوسفوري . ولما بلغ المدخنة التي غُيِّر تخصيصها وحُدِّد موقعها بعد ظهر ذلك اليوم ، ركز عليها الهوائيين بَسمْت ١٨٠ درجةS.S.E .

وكان الشخص الذي اختار هذا المستودع القديم عند أسفل « مانهاتن » ، قد نفَّـذ تعليماتـه بكل دقّة . وما من عائق كان يمكن ان يُعاكس إستلام أية إشارة .

وتفحّص الفلسطيني بعناية ما أقامه . وقد طمأنه وميض قصير من مصباحه . لقد كان كل شيء على ما يرام .

وعاد أدراجه وهو ما زال يمشي على يديه وقدميه . ساحباً وراءه الكبل الذي كان قد وصله لتوّه الى

قاعدة الهوائي . وفجأة علت قهقهات في الشارع السفليّ . كانت مجموعة من الساهـرين يخرجـون من المشرب المجاور .فحبس كمال أنفاسه وبقي دون حراك ممدداً على حافة السقف حتى اضمحلـت آخـر ضحكة في غياهب تلك الليلة الشتوية .

***

على بعد بضع شوارع من هناك ، جلس رئيس تحرير « النيويورك تايمز » يتأمل رزمة المسـودّات السميكة الموضوعة على مكتبه . وبالرغم من أن أخبار هذا الأحد كانت قليلة ، فإن « النيويورك تايمز » ستبقى وفيةً لشعارها ، وسيتضمن عدد الغد في صفحاته المئة والأربع والعشرين « كل الأخبار التي تستحق الطبع » . وهذا يعني معلومات أكثر من أية صحيفة أخـرى في العالـم ، وتعليقـات أكثـر ومقابـلات وتحقيقات ونتائج واحصائيات ونصائح وبرقيات أكثر من أماكن اكثر في العالم ، من البيت الأبيض الى الحدود الروسية ـ الصينية،ومن ممرات « وول ستريت » الى قصور امراء البترول،ومن حجرات الثياب في « اليانكي ستاديوم » الى مداخل الكرملين .

وكانت تلك الصحيفة اليومية التي تولد كل مساء في الطوابق الأربعة عشر من البناية الوقور التي تحتل زاوية « برودواي » والشارع رقم ٤٣ ، مؤسسة فريدة من نوعها : فلقد كانت ضمير اميركا ومرآة عالمية لتاريخ الانسان ، حتى أنه « اذا لم يُذكر نبأ في صفحات « النيويورك تايمز » فهذا يعنى « أنه لم يحدث » كما كان يقال .

وكان « ميرون بيك » المحرر الرياضي السابق ، يتولّى قيادة محرّري نيويورك الذين كانوا يؤلفون فريقاً من سبعمئة صحفي ينتشرون في قاعة لا تقل اتساعاً عن جناح كتدرائية . وكان يسيطر عليهم ، بصورته الظلّية العالية الخيطية الشكل ، من كُثَيْب عالٍ يشرف على عدة مكاتب معدنية مزدحمة بالآلات الكاتبة واجهزة الهاتف والمبرقات الكاتبة . وكان الجو ، على غرار نيويورك ، مضطرباً وصاخباً ومزدحماً . وكانت حواجز زجاجية تقسم القاعة الى فسيفساء من الاقطاعيات أطلِقـت عليهـا اسماء : « الأخبـار العامة » و« الاقتصاد » و« الاجتماعيات » و« العلوم » و« الألعاب » و« الفنون والمسارح » و« القضايا العقارية » و« ركن التسلية » و« الوفيات » . وكان « بيك » قد قضى سنوات لتحديد هوية شاغليها : مخبرون رياضيون ذوو حضور عابر ، نقّاد مسرح يداومـون كطيور الليل ، مُدوِّنـو أخبـار الشطرنـج الرسميون كالكتّاب العدول ، متعوِّدو الأخبار الخاصة ، محرّرو صفحات الوفيات،محترفو الصحافة المتشائمون والعاملون لحساب الوكالة المركزية للاستخبارات ، الفتيان الطموحـون المتعطشـون للسبـق الصحفي ، محررو الأعمدة الخاصة ، المخبرون ، المحقّقون ، محررو الصفحات الخاصة ، المنقحون ، بعض القابعين في المؤخرة وراء الأعمدة او بعض المختبئين بعيداً،لدرجة ان اسلاف « بيك » كانوا يراقبونهم قديماً بالمنظار . كل اولئك كانوا يؤلفون عالماً متبايناً ، هو أيضـاً على صورة نيويورك ، عالماً مزيجـاً من العباقرة والفنانين والشذّاذ والأغبياء .

وكان اهتياج حادّ يسبق دوماً عمليات الختام . وكانت روحات الصحفيين وغدواتهم ورنين اجراس الهاتف وطقطقة الآلات الكاتبة ، تتكاثر . وكان « بيك » ومعاونوه يجوبون صفوف المقاعد لاستنهاض همم المتأخّرين ومراقبة تصوير المقالات الأخيرة . وبعد بضع دقائق ستدور الأسطوانـات وتبـدأ بطبـع الصحيفة . ولن تنقطع هذه العصبية ليلاً ، لأن الطبعات ستتوالى حتى الفجر،وسيتوالى بدون انقطاع فردْ الورق الذي يلتهم كل سنة اكثر من خمسة ملايين شجرة .

- « غريس نولاند » مدعوة الى مكتب السيد بيك » كان مكبّر الصوت ، الذي كان قد جعل اجيالاً من الصحفيين ترتجف ، لا يزال يعمل . وقد لبّت النداء فتاة طويلة القامة ترتدي بنطالاً وسترة من « التويد » . وكانت « غريس نولاند » البالغة الخامسة والثلاثين تعمل منذ ست سنوات كمخبرة « للتايمز » ، وكانت قد ارتقت درجة درجة المرتبة الصعبة التي كانت تُلزِم المنتسبين الجدد بأن يجلسوا في القاع لاستلام بعض فتات المحليات وانقطاع شبكة في «بروكلين» وولادة « بندا » في حديقة الحيوانات في « برونكس » أو العيد القومي في « اوكرانيا » وقد اكتملت تجربتها فيا بعد بقضائها سنة في ركن « الأخبار الخاصّة » في مفوضية « مانهاتن الجنوبية » ، فتقدّمت بعض صفوف المقاعد . وفي وواتاها الحظ في معرض مصرع امرأة شابّة على رصيف حيّ هادىء في المنطقة الشرقية . وخلال التحقيق الذي قامت به ، كانت قد اكتشفت ان ثمانية وثلاثين شخصاً كانوا قد سمعوا اصوات الاستغاثة الصادرة عن الضحية . فلم يتحرك احد منهم . وقد هزّت مقالتها قراء « التايمز » ودفعت بها الى الصف الثالث . وكانت هذه الفتاة الطويلة المنقبة والرصينة والناجعة نموذج المخبرين الذين كان « ميرون بيك » يحتاج اليهم لتحقيق الأفكار التي كان عقله المُبدع يزدحم بها . وكان يجب ان ينتدبها لسبرغور حقائق « نيويورك » : التلوّث ، النقليات ، المستشفيات ، نظام التربية العامة ، الصراعات العرقية ، الناشرون ، الفساد البلدي . وكانت مقالتها التي تفضح فيها عجز البلدية عن تنظيف شوارع « نيويورك » إثر العاصفة الثلجية الأخيرة ، قد أثارت فيضاً من الرسائل والمكالمات التي كانت تحبذ انتقاداتها .

وكان « ميرون بيك » يتميز بأسلوب شبه مغناطيسي للاتصال بصحافييه . فأحاط عنق المرأة الشابّة بذراعه وأخذها الى الرواق ليهمس شيئاً ما في أذنها . وكانت لهجة المُسارّة هذه تُعطي دوماً بروزاً خاصاً لما كان يود أن يقوله .

- يبدو ان ثمة ذعراً في قصر البلدية بسبب مقالتك . وقد أعلن رئيس البلدية بأنه سيعقد مؤتمراً صحفياً غداً الساعة التاسعة صباحاً لينظف دوائر مصلحة الطرق من اتهاماتك . يجب ان تُغطي ذلك يا صديقتي (وأصبح اكثر فأكثر وديّاً) لأنك تعلمين أن هذه الأمور تستهوي الناس .

***

في « البيت الأبيض » كان صمتٌ مشوب بالغمّ قد استولى على أعضاء لجنة الأزمة . وكانوا جميعاً يعانون من الصدمة التي سبّبتها لهم استنتاجات المختبر الذّري في « لوس ألموس » . لقد كانت القنبلة الهيدروجنية تمثل أوج التفنن الذي اكتشفه الانسان في سباقه الذي لا يتعب نحو دماره . وخلافاً للقنبلة الذرية العادية التي تنتج عن التطبيق العملي لنظرية علمية معروفة عالمياً ، « فإن صنع القنبلة الهيدروجنية يتوقف على سرّ ، هو أضخم سرّ خرق حجبه الانسان منذ أن روّض النار سكانُ الكهوف في عهد ما قبل التاريخ .

ذلك السر الذي يحُافظ عليه بلا ريب بضراوة على سطح الكرة . وهناك عشرات الألوف من علماء الفيزياء المؤهّلين يعرفون مبدأ القنبلة الذرية . في حين أن ثلاثمئة فقط ، وربما أقل ، يمتلكون الصيغة السحرية للقنبلة الهيدروجينية .

وما لبث صوت « هارولد وود » الرّنان ان ملأ القاعة من جديد :

- نحن بصدد سلاح يُشبه « مايك » ، قنبلتنا الهيدروجينية الأولى ، التي جرت تجربتها عام ١٩٥٢ على جزيرة « انيوتوك » المرجانية . وقد صُمّمت لتوضع في أسطوانة بحجم برميل من البترول ، ونحن

نقدّر بأنها تزن حوالي الطن الواحد . ويسمح منشب كهربائي أنثوي مُثبت على القسم الأعلى من السلاح بربطه بجهاز اشتعال . وهذا الجهاز المستقل يعمل على الأرجح بتأثير ذبذبات ردكهربائية ، وكانت دهشة تزداد حدة تبدو في نظرات أكثر الجالسين حول الطاولة . وحده الرئيس لم يَبْدُ أنه شعر بأي وَجَل . وقد اغتنم فرصة توقّف فسأل :

- هل بامكانك ، يا سيِّد « وود » أن تشرح لنا أي نوع من القنبلة الذرية يجب ان يفجِّر هذه القنبلة الهيدروجينية ؟

كان هذا السؤال ينمّ عن خبرة الرئيس بشؤون التسلّح النووي .

- قنبلة البلوتونيوم ٢٣٩ يا حضرة الرئيس . الأمر بسيط وكلاسيكي . نصفا كرة من البلوتونيوم تزن ٢,٤٧٣٦ كيلو غراماً . وهذا كافٍ لايجاد كتلة لا يستهان بها من الجزيئات الذرية .

- وما هو المتفجِّر الذي يشعل القنبلة الذرية ؟

- إنه « تساردلوف ٦ ». مُنتَج روسي ممتاز .

- والعدسات ؟

كان الرئيس يُشير بذلك الى الأجهزة البصرية الصغيرة جداً المخصّصة لتحويل الذبذبات العديدة التي يحدثها انفجار « التساردلوف » الى مجموعة رزم كاملة التناسق يمكنها بصدمة واحدة ان تسحق البلوتونيوم في قلب القنبلة الذرية .

- انها البديلة للعدسات القديمة « غرين غلاس » وهي بدائية لكنها فعّالة .

وكان كل جواب يحُدِث تقطيباً خفيّاً على وجه الرئيس . وسأل الرئيس ايضاً وهو يحدِّق بمكبر الصوت بحدة مؤلمة :

- والمواد لصنع القنبلة الهيدروجينية يا سيد وود ؟ هل يعقل ان يكون العقيد القذافي قد استطاع الحصول عليها ؟

- ان الأمر على غاية السهولة . لا بد أنه بدأ باستعمال « كلورور الليتيوم » وهو منتج كيماوي يوجد في الأسواق . ويستعمل في بعض الحاشدات الكهربائية، وسعره اقل من دولار لليبرة الواحدة . ولا بد أن العقيد القذافي احتاج ايضاً لبعض الماء الثقيل . ولكن أية تغطية علمية او طبية تسمح له بشراء هذا المنتج .

وأصبحت لهجة الفيزيائي رزينة لا بل ارتسامية .

- المشكلة ، يا حضرة الرئيس ، أنه ليس من الصعب تركيب القنبلة الهيدروجينية اذا كانت الصيغة معروفة . يكفي لذلك ان تملك قنبلة ذرية وبعض المنتجات الكيماوية المألوفة جداً .

وتردّدت هذه الكلمات وقتاً طويلاً في الجوّ العابق لقاعة المحاضرات . وطرح رئيس الدولة ، وهو يبذل الجهد ليبقى هادئاً ومتجرداً ، السؤال الرئيسي الذي كان يلازم الجميع :

- لنفترض ان الجهاز الذي وصفته لنا موجود حقاً ، ولنفترض انه فعلاً مخبأ في نيويورك. ولنفترض

أيضاً أنه سينفجر ، فماذا سيكون مفعوله ؟

بقي مكبر الصوت صامتاً بضع ثوان لا متناهية ، ثم ملأ القاعة من جديد صوت هارولد وود وكأنه انفصل فجأة عن جسده وصدر عن كوكب آخر :

ـ سوف تمحى نيويورك من الخارطة .

***

كان المفتش « روكيا » يلاحظ بعُجْبٍ حركة الرؤوس البطيئة : كان الرجال يلتفتون دوماً لدى مرور تلك الفتاة الطويلة المرتدية البنطال وسترة « التويد » ، وذات الشعر الأشقر ووشاح « الموهير » المتطاير على كتفيها ، والتي كانت تندسّ ، بمشية رشيقة ومظهر حازم ، بين طاولات الحانة الصغيرة ، وكانت عيناها الضاحكتان ولون وجهها الساطع وأنفها الصغير الثائر ، كما في رسوم « رينولدس » ، تُنسي نهائياً ان الصحفية « غريس نولاند » كانت في الخامسة والثلاثين من العمر ولها ولد في الثانية عشرة وأن ماضيها كان الى حدما مضطرباً .

ـ مرحباً ، يا ملاكي .

قالت ذلك وطبعت قبلة عابرة على جبين المفتش ، فيما كان ينهض واقفاً .

واندسَّت الى جانبه على المقعد المخملي ، تماماً تحت لوحة جون « نابولي » والـ « ڤزوف » التي كان يحبها ، وفيما كانت تشعل لفافة ، استدعى « انجيلو » الخادم .

حتى مساء الأحد ، كان مطعم « فورليني » يغصّ بالروّاد . وكما كان يقول رجل الشرطة كان المطعم ذلك المكان « حيث الأشياء تُعرف والأخبار تنتشر » . وكان قربه من قصر العدل قد جعل منه الملتقى المُفضَّل لرجال الشرطة والقضاة والمحامين والصحافيين وعدد من صغار رجال المافيا .

وقدَّم « انجيلو » الى « غريس » كأساً من الـ « كامباري » مع السودا ورفع نحوها كأساً من الـ « شيڤا » بلا ماء . كان يشرب قليلاً ، ولكن كان يتذوّق الوسكي المعتّق ونبيذ « توسكان » . وقال لها :

ـ أشرب نخبك .

ـ وأنا ايضاً ! كيف حال ماريا ؟ آمل ان الأمر لم يكن شاقاً كثيراً .

ـ انتِ تعلمين ان الأمور تجري كل مرة على المنوال نفسه ، يحسب المرء نفسه ثملاً و . . . ـ

ثم قشرَّ حبة من فستق العبيد وأشاح بنظرة وتابع :

ـ إنه لقاس ان نُسلِّم بأن لا أمل في القضية .

وقالت « غريس » وهي تتكلف الابتسام :

ـ لنطلب شيئاً ، فإني اكاد أموت من الجوع .

ـ طاب مساؤك يـا حضرة المفتش ، إني أنصحك بأكلة الـ « بيكات » بالنبيذ فهي حقاً لذيذة .

ورفع « انجيلو » عينيه ، لقد عرف صوت أحد مخبريه الرسميين ، وكان رجلاً بديناً من صقليا يرتدي ثوباً بترولياً أزرق وربطة عنق من الحرير الأبيض ، وتفرّس فيه بتسامح مُتعجرف وقال :

ـ كيف تسير الأمور ، يا « سلڤاتور » ؟ الا تلتزم الهدوء في هذه الأيام ؟

أدهشت خشونة اللهجة المرأة الشابة . وكانت تتحيّر دوماً كيف يستطيع أن يستردّ بسرعة ردود فعله كشرطي . مع أن ما كان قد قادهما الى اللقاء كان يتعلق بأسباب مهنية . وكانت قد دخلت ذات يوم الى مكتب « جماعة القتل » في « مانهاتن » ، بداعي التحقيق الذي كانت تقوم به بشأن الدرجة القصوى للاجرام . وكان المفتش الذي استقبلها جعلها تفكر بسيِّد من المافيا اكثر من رجل شرطة ، وذلك بسبب مظهره الجانبي لإمبراطور روماني وشعره الأشيب المتموّج وشاربه من طراز « ڤيتوريو ده سيكا » وميله الى التلفّظ بالراء على غرار مغنّي الـ « متروبولتيان اوبرا » . وكانت قد لاحظت زرّ الحداد الأسود الذي كان يزيّن طيّة سترته والطريقة العصبية التي كان يقصم بها حبّات فستق العبيد . وكان قد علّل ذلك برغبته في عدم التدخين .

كان قد دعاها لتناول الغداء . وكانت قد لبّت الدعوة ، لأن الاتصالات الوديّة مع رجل شرطة عالي المقام لم تكن غير مفيدة للصحفي . ولم تلبث بعض الظروف الخاصة ان أضفت على علاقاتهما طابعاً شخصياً . ذلك أن « روكيا » كان قد فقد زوجته منذ امد بعيد ، وكانت هي قد طلقت زوجها وأخذا يلتقيان غالباً أكثر فأكثر . ثم توجها ، ذات مساء حارّ من شهر آب ، لتناول العشاء في مطعم يقدّم القشريّات في « شيبهاد باي » . وكانت « غريس » ترتدي ثوباً من القطن المزركش بالرسوم ، مكشوف الرقبة والكتفين . وكان بهاء لونها يغنيها غن المساحيق ما عدا ظلاً فيروزياً على الأجفان ، وصباغاً احمر لابراز الخط المنحني لشفتيها .

وكان « انجيلو » قد تأملها ذلك المساء بحنان جديد . وكان نسيم البحر والمرح الناعم وهناء ليلة الصيف تلك ، قد وضّحت ما غمض من عواطفهما . وكانت « غريس » قد أخذت ذراعه وشدّت نفسها اليه . كانت في العطلة وكان ابنها عند جدّته ، وكانت تشعر بأنها حرة لأول مرة منذ طلاقها . وكانا قد رجعا بالسيارة على مهل ، سالكين طريق شاطىء البحر . وكان « انجيلو » يسكن قريباً من هناك ، عند رأس « كوناي ايلند » مقابل المحيط ، في عقار كبير من « اتلنتيك اڤينيو » وكانا قد استمعا الى بعض الأسطوانات الكلاسيكية وشربا قدحاً أو قدحين من السوكي وقضيا بكل بساطة الليل معاً .

على أن سعادة تلك الليلة الأولى لم تشعل هوىً مضنياً بين ذينك الكائنين اللذين كانت جراحهما لا تزال قريبة العهد . ولكن السعادة الهادئة والمفعمة التي كانا يشعران بها كلما التقيا ، كانت طريقتهما في تبادل الحب .

واطلقت « غريس » صرخة فرح لدى مشاهدتها « البيكات » بالنبيذ التي احضرها الخادم . وكانت طريقتها المفرطة بالحيوية في اظهار سرورها تفتن « انجيلو » ، وقد استنشقت بملذة عِطر نبيذ الـ « مارسالا »(١) .

ـ هو ذاك ما سيمنحني القوة لمواجهة رئيس البلدية ذاك البذّاخ . الا تعلم ماذا في الأمر ؟ لقد دعا الصحافة غداً صباحاً الساعة التاسعة ، وذلك للردّ على حملات النقّاد ضد دوائر مصلحة الطرق البلدية ، وعلى الرغم من مرور اربعة ايام على عاصفة الخميس الثلجية لا تزال بعض الشوارع مسدودة ولا يزال بعض الناس يتعذر عليهم الخروج من المرأب . ولدى أقل حادث تصبح هذه المدينة شركاً هائلاً !

(×) مرفأ في صقلية شهير بالنبيذ (ملاحظة المترجم) .

وكان الحب نفسه لمدينتهما يثيرهما . وكانا يعرفان كيف يتفحصان نبضها ويستنشقان روائحها ويترصدان اصواتها ويرقبان روحها . كانت نيويورك تجري في عروقهما كما يجري نهر الكانج المقدس في عروق « بناريس » .

كان الخادم قد قدّم القهوة . وكانا قد تحدثّا طويلاً . وكانت قد شربت كثيراً الى حد ما من « سوآف بولاً ».وكانت تشعر بدوار خفيف ، وهي تسحق لفافتها في المنفضة .

وقد أبلغته أنها لن تستطيع تناول الغداء معه يوم الثلاثاء . فسألها قائلاً :

ـ هل لديك تحقيق صحفي ؟

كانت تنظر اليه بحنان ، وقد ظلّلت اهدابها الطويلة خديّها ، واسندت وجهها بين يديها ، وأجابت :

ـ لا ، بل عليَّ أن أُجري عملية جراحية بسيطة . ليس من شيء خطير .

وكانت تبدو متضايقة . وقد أدهشها مظهر « انجيلو » القَلِق واستثارها .

ـ إن هذا شيء سخيف ،في عمري .وقد كان ينبغي ألاّ يحدث (وظلَّت لحظة صامتة) أنا حامل .

***

رفع الرئيس يده ليسكت معاونيه ، وقد استفاقوا من ذهولهم . إن كل مناقشة ، حسب تقديره ، كان من شأنها ان تشوِّش الوضع . وبعد أن سيطر على تأثّره ، أعلن :

ـ أيها السادة ، يجب ان ننتقل حالاً الى السؤال الثاني : هذا الابتزاز بواسطة القنبلة الهيدروجينية ، هل صدر حقاً عن العقيد القذافي ؟

وكان الجواب من صلاحية ثلاثة تنظيمات ذات وسائل غير محدودة تقريباً ، كانت تجعل من اميركا ، نظرياً ، الأمة المجهّزة بأحسن إعلام في العالم . والتفت الرئيس نحو زميله في المدرسة البحرية الذي كان قد عيّنه على رأس الوكالة المركزية للاستخبارات . ومنذ الثورة الايرانية ، كانت مظاهر ضعف تلك الوكالة احدى مشاغله الدائمة . وقد بدأ الأميرال « تاب بنينغتون » ، وكان في السابعة والخمسين من العمر ، يثير الارتباك .

وقد اعترف قائلاً : ـ لم نتمكن بالتأكيد من أن نحدِّد اذا كان صوت الأسطوانة هو نفسه صوت القذافي ، فالتسجيلات التي نملكها عنه قد أجريت في ظروف مختلفة جداً ، بحيث لا يمكن ان تكون التجربة المقارَنة مُقْنعة .

وظهر الجزع على الرئيس فقال : ـ لا بدّ ان يتواجد في « واشنطن » دبلوماسي ليبي يستطيع ان يُصدِّق ذلك الصوت وان يقول لنا ما اذا كان هو صوت القذافي ام لا .

وهنا تدخَّل المدعي العام السابق الذي كان يتولّى قيادة مكتب التحقيقات الاتحادي فقال بلهجة « لويزيانا » المُغَنِّية :

ـ يؤسفني ان أعلمك يا حضرة الرئيس ، بأننا لم نُوفَّق في العثور على أيّ منهم ، لا هنا ولا في نيويورك . يبدو انهم تبخَّروا جميعاً .

هذا ما صرّح به « جوزف هولبورن » ، وقد بدا عليه الارتباك .

فدمدم الرئيس بشتيمة لم يلتقطها الا جيرانه الأقربون .

ـ على أن لدينا أسباباً للاعتقاد بأن المستندات التي وُجِّهت اليكم لم تحضَّر في الولايات المتحدة . ولقد أثبت مختبرنا منذ قليل أن الآلة الكاتبة التي استعملت لتحرير الحسابات الرياضية هي سويسرية ، وطراز « اولمبيك » المصنوع بين ١٩٦٥ و١٩٧٠ ، لم يجرِ بيعه مطلقاً في الولايات المتحدة . وفق ما عرفنا . والورق الذي استُعمِل للمخطَّط من أصل فرنسي . ويبدو أنه يُباع فقط في فرنسا . والأسطوانة هي من صنع ألمانية الغربية ، طراز « باسف » وهو طراز معروف جداً ، ومتوفر في اميركا في معظم المحلات التي تبيع لوازم الراديو . أما غياب الأصوات في العمق وانعدام التشويش فيدلّان على أن التسجيل تمّ في الأستوديو . ولم نتمكن ، لسوء الحظ ، من ملاحظة أية بصمات أصابع .

ـ أهذا كل شيء ؟

ـ نعم ، حتى الآن .

تناول الرئيس قلماً عن الطاولة وأومأ الى ممثل نظارة الخارجية .

ـ وماذا يقول موظّفونا في طرابلس ؟

كانت الانارة « بالنيون » تؤكد على الكآبة الطبيعية المرتسمة على وجه أمين الخارجية « لاري ميدلبرغر » الذي كان يؤمّن عمل وزيره الغائب بمهمة رسمية في اميركا الجنوبية . وكان هذا الدبلوماسي قد قضى خمساً وعشرين سنة في الشرق الأدنى وعاد منه بقرحة وحذرٍ شديد إزاء العرب .

ـ من الطبيعي أن اكون قد أخطرت القائم بأعمالنا فور علمي بالأمر ، فاتصل حالا بالوزير الليبي للشؤون الخارجية وأمانة سر الرئاسة ولكنه لم يتمكن من التحدّث الى أي مسؤول . إنه منتصف الليل في طرابلس ، ويبدو ان احداً لم يكن مطلعاً على شيء . حتى أنه توجَّه الى ثكنة « باب عزيزة » حيث يقيم عادة العقيد القذافي واكثر وزرائه . وقد رفض الحرس ان يسمحوا له بالمرور . وطلبوا اليه ان يرجع غداً . إنه ، وعلى أي حال ، حاسم : فطرابلس تبدو هادئة تماماً هذه الليلة.وكل شيء فيها عاديّ .

ـ متى شوهد القذافي علانيةً للمرة الأخيرة ؟

ـ الخميس الماضي ، في ساحة « الكستل » الكبرى في طرابلس ، بمناسبة تظاهرة من أجل التنمية الريفية . وكان ، على ما يبدو ، على أحسن حال .

ـ ألم تكن تبدو عليه أية عصبية أو توتّر ؟

ـ على العكس ، فقد كان ، حسب القائم بأعمالنا ، مرتاحاً ومبتهجاً بصورة استثنائية .

ـ هل لديك تأكيد أنه لا يزال في طرابلس ؟

ـ لا حتى الآن ، يا حضرة الرئيس .

***

كان رئيس الدولة الليبية ذو التصرفات غير المتوقعة ، قد عوَّد العالم على اختفاءاته التي كانت تدوم بضعة أيام ، وأحيانا أكثر . وكان ستار من السرِّية يكتنف تنقلاته بحيث لم يكن أحد ليعرف أسبابها أو

وجهتها . ولا ريب في أن رئيس الولايات المتحدة ومستشاريه سيكونون شديدي الدهشة اذا عرفوا ان العقيد الشاب كان تلك الليلة ، في ١٣ كانون الأول ، على بعد أربعمئة كيلو متر جنوبي شرقي طرابلس ، تحت خيمة بسيطة من شعر الماعز مغروسة في صحراء « سرت » الكبرى .

وعلى الرغم من أنه كان رئيس بلد نفطي تبلغ وارداته مليارات الدولارات ، فان أياً من منجزات « تكنولوجيا » القرن العشرين ، لم يضف شيئاً الى تخييمه الاسبرطي . فلا تلكس يطقطق ولا مناضد ذات شاشة « كاتودية » ، ولا اجهزة راديو مُرسلة ومستقبلة ولا أجهزة تلفون . حتى ولا جهاز ترانزيستور عادي . لا شيء من شأنه ان يعكر صمت الصحراء ، كان يربط تلك الليلة ، معمر القذافي بعاصمته ولا بباقي العالم .

وكانت بقعة رمادية كبيرة تمحو الظلمات في الأفق ، وكان الفجر يبزغ على الصحراء الشاسعة الفراغ ، وكان اتباع النبي يطلقون اسم « الفجر الأول » على تلك اللحظة التي تسبق ظهور القرص الشمسي ، وهي لا تدوم سوى دقائق قليلة ، أي الوقت الكافي لتلاوة أولى الصور الخمس التي تشكل الصلوات اليومية المفروضة في القرآن .

خرج العقيد الليبي من خيمته . وكان يرتدي مشلح الرعاة المصنوع من صوف سميك ذي رقع سمراء وبيضاء ويعتمر كوفية بيضاء يثبتها حول الجبين شريط أسود . وتمشّى العقيد قليلاً ومدَّ على الرمل سجادة الصلاة . ثم استدار نحو الشمس المشرقة وذكر اسم الله مرتِّلا : « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم » ، وركع العقيد ثم سجد مرتين ملامساً في كل مرة الأرض بجبهته ومسبحاً بالله وبنبيّه . وبعد ان انتهى من الصلاة جلس القرفصاء على السجادة وهو ينظر الى الشمس تُضرِم القبة الزرقاء فوق صحرائه . كان هذا المشهد يتيح له اعادة الاتصال بالقيم الحقيقية للوجود ، وفي خشونة هذا اللامتناهي الأجرد كان يلتقي وجهاً لوجه مع نفسه ، فقد كان ابناً للصحراء .

لقد ولد القذافي قبل اثنتين واربعين سنة في خيمة من جلد الماعز كتلك التي أمضى ليلته تحتها . وكانت ولادته قد استقبلت بلعلعة التراشق المدفعي الذي شنّه تلك الليلة مدفعيو « الأفريكا كوربس » التابعون لرومل ومدفعيو الجيش الثامن التابعون لمونتغمري . وكان قد أمضى طفولته مع قبيلته تائهاً في الصحراء ، مترعرعاً مع تواتر الرياح القِبْلية وامطار الشتاء الخيّرة ، وتجدّد المراعي .

ومن ساحل « سرت » الى بساتين النخل في فزّان ، لم يكن أيّ دغل شائك أو أيّة طاقة من العشب أو أيّ غدير في وادٍ ، تفلت من نطاق نظره المنقِّب بحثاً عن مرعى لقطيعه . وكان جسمه الضامر والبارز التقاطيع قد تغذّى من حليب الناقة والتمر ، كما تغذّى عقله من حكايات قبيلته البطولية ومن البغض العميق للأجانب الذين كانوا خلال ثلاثة آلاف سنة قد دنّسوا طهارة صحرائه بقرقعة اسلحتهم .

وكانت حياة البدوي هذه القاسية قد منحت هذا العربي الصبر وصلابة لا تُقهر للتغلّب على طبيعة مُعادية وإرادة عاتية تتشبث بالبقاء تحت سماء وفي بيئة يذبل فيهما كل شيء ويموت ، ما عدا رجال قومه . ولكنه هنا ـ على الأخص ، كان قد وجد الله ضمن اطار عُزْلة الصحراء الفظة .

وبعد أن تأمل تعاليم القرآن بشأن هذا الكون يمحى فيه الانسان أمام اللانهاية ، كان قد حسِب انه سمع صوت الله ، وعلى غرار المرابطين الذين كانوا قد جابوا قديما الصحراء من الخليج الفارسي الى المحيط الأطلسي في سبيل دعوة المسلمين الى الالتزام في حياتهم بحقائق دينهم ، كان يودّ ان يناضل من أجل احياء

الاسلام المتفسّخ وانتشال راية النبي من الوحل وبعث وحدة اشقائه العرب وإعادة كرامتهم وحقوقهم اليهم . وكان هذا البدوي الشاب ، وقد اصبح رئيساً قوياً ، يريد ان ينتزع من آية الله الكهل القابع في « قم » سيف جند الله . وكان قد وضع موارد بلده الخيالية في خدمة طموحه كصاحب رؤى ، وأجبر أمم الغرب على أن تقدّم له احدث الأسلحة وتقنيّتهم الأكثر سرِّية ، مقابل نفطه الثمين الذي لا تستطيع أن تحيا بدونه .

نهض العقيد وتفحّص بامعان الأفق الذي كان قد أخذ في الأحمرار . وكانت هذه الحركة الغريزية التي ورثها عن طفولته ، هي حركة جميع البدو الرُحَّل الذين يرقبون العلامة النذير بوصول عدوّهم الأبدي ، القِبْلي ، تلك الريح الجافّة القادمة من أحشاء الصحراء . وعندما يهبّ القِبْلي ، تنتشر أجنحة الموت على الصحراء ، فيتزاحم البشر والحيوانات ليحتموا من أعاصير الرمل التي تستطيع ان تبتلع قبائل برمّتها . ولكن سماء ذلك الفجر في الرابع عشر من كانون الأول ، كانت ذات زرقة مشتعلة .

وبعد أن اطمأنّ ، أجال طرفه في تلك المساحات الشاسعة المنبسطة حتى اللانهاية ، وكم من المرات ، إبّان اقامته بوصفه ضابطاً شاباً في انكلترا ، اعترته الدهشة فتساءل كيف ان الأوروبيين يستطيعون ان يُكَوِّنوا افكاراً واضحة والغيوم الكثيرة تعلو رؤوسهم والأشجار والهضاب تحجب عنهم رؤية الآفاق البعيدة .

ثم اتجّه نظره الثاقب ، وكأنه نظر صقر ، باتجاه الجنوب ، نحو بحر الرمل حيث كان ينساب النسيم . وهناك وراء الأفق ، على بعد اربعمئة او خمسمئة كيلومتر ، ربما كانت بئره قائمة.ذلك الينبوع الذي لا ينضب والذي كان قد سار نحوه بلا كلل ، منذ ان كان الله قد عهد اليه بتحطيم قيود أشقائه المضطهدين .

قَدِم خادم حريص على عدم تعكير تأملات سيّده ووضع الى جانبه طبقاً عليه قصعة من نحاس ملأى بلبن وفير القِشدة ممخوض من حليب الماعز ، وكأساً من التمر الداكن . وكان هذا الطعام الفطور التقليدي للبدو . ولكن العقيد الشاب لم يمسّه .

كان معمر القذافي يحدّق في المساحة الشاسعة وينتظر .

***

أعلن رئيس الولايات المتحدة قائلا :

- لنفترض ان العقيد القذافي هو حقاً صاحب هذا الابتزاز ، فهل يثبت هذا أنه قادر على تنفيذ تهديده ؟ إن السؤال الأخير الذي يجب أن نطرحه على انفسنا إذن هو الآتي : هل لدينا أقل دليل على أن العقيد القذافي يمتلك السلاح الذرّي ؟

كان هذا السؤال هو المفتاح الذي يتوقف عليه في الواقع كل شيء آخر .

وقد أجاب الاميرال « بنينغتون » رئيس الوكالة المركزية للاستخبارات :

- إننا لا نملك تأكيداً قاطعاً بهذا الشأن . ولكننا نعلم فقط أن العقيد القذافي يحاول منذ أمد بعيد ان يدخل نادي الدول النووية . واليك يا حضرة الرئيس مستنداً سوف يثيرك بشأن هذه النقطة .

وقدّم لرئيس الدولة مذكرة من أربع صفحات . فضبط الرئيس نظارتيه على أنفه وركّز نفسه في مقعده وقرأ ما يلي :

الوكالة المركزية للاستخبارات

التصنيف : سرّي .

الموضوع : حصيلة الجهود المبذولة من رئيس الجمهورية العربية الليبية في سبيل تجهيز ليبيا بصناعة نووية .

صيف ١٩٧٢ : مفاوضات مع « وستنغهوس » في سبيل شراء مُفاعِل بالماء الخفيف قوة/ ٦٠٠/ مليون واط . نقض الحكومة الأميركية .

أوائل ١٩٧٣ : محاولة شراء مفاعل تجريبي طراز « تريغا » من شركة « غولف جنرال اتوميك » في « دان دياغو » . نقض نظارة الخارجية .

اواخر ١٩٧٣ : بداية اعمال انشاء مدينة العلوم جنوبي طرابلس . اغراء مهندس تونسي يعمل في مختبر القرن الذري في « سكلاي » ليتولى قيادة برنامج ليبيا النووي الذي اطلق عليه اسم « سيف الاسلام » .

١٩٧٤ : ضم اقليم عند حدود التشاد يحتوي على مناجم الأورانيوم.ترخيص بالتنقيب مُنح الى مُنقبين أرجنتنيين . انشاء معمل لتكرير الأورانيوم الخام .

١٩٧٥ : اتفاق سرِّي مع الباكستان بقصد شراء البلوتونيوم منها .

١٩٧٦ شباط : شراء مفاعل بالماء الخفيف من فرنسا بقوة / ٦٠٠/ مليون « واط »

١٩٧٦ نيسان : محاولة التعاقد مع خمسة فيزيائيين نوويين اوروبيين ذوي كفاءات دولية .

١٩٧٦ كانون الأول : تملّك ١٠٪ من رأسمال شركة « فيات »

١٩٧٨ : **مفاوضات مع الاتحاد السوفياتي** في سبيل شراء مفاعل بقوة/ ٤٠٠/مليون « واط » .

١٩٧٩ كانون الثاني : بدء عمل المفاعل الفرنسي تحت مراقبة الوكالة الدولية للطاقة الذرية(١) .

•

وكانت عيون الرجال السبعة الجالسين حول الطاولة مُركَّزة على رئيس الدولة المستغرق في قراءته . وكان قد وصل الى خاتمة المذكرة . فقرأها مرة اولى ، ثم مرَّة ثانية واخيراً مرة ثالثة . وكانت هذه الخاتمة تقول :

« على الرغم من جهود العقيد القذافي المستمرة لانشاء صناعة نووية في ليبيا ، فلا شيء يسمح حالياً بالتأكيد على وجود مواد قابلة للانشطار لغايات عسكرية .

« وعليه ، فان الوكالة المركزية للاستخبارات تعتبر ان العقيد القذافي لن يستطيع التصرف بالسلاح النووي قبل فترة ثلاث الى خمس سنوات . »

ووضع الرئيس التقرير على مرفقة الورق ونزع نظارتيه وتأمل في وجوه من كانوا حوله . وكانت القراءة قد زادت ازرقاق عينيه الشديد . وعضعض على شفتيه . وكان يبدو وكأنه تخفف من قلقه .

- نأمل ، يا عزيزي تاب ، ان تكون استنتاجاتك في محلها .

وفجأة تصلَّب وجهه . فأعاد نظارتيه الى مكانها وتفحّص مجدداً النص .

---

(١) الوكالة الدولية للطاقة الذرية هي أحد أجهزة الأمم المتحدة المقيمة في فينا والمكلفة بتفتيش ومراقبة المنشآت النووية في البلاد الموقعة على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية للتثبت من أن هذه البلاد لا تحول المواد القابلة للانشطار لغايات عسكرية .

ـ ان اكثر الناس علماً بشأن وضع منهاج ليبيا النووي الحالي هم الفرنسيون ، أليس كذلك ؟ فهم الذين باعوا القذافي مفاعله الأول . ولا بد ان ثمة اشخاصاً من قبلهم يعملون حتى الآن هناك .

ثم استدار نحو رئيس الوكالة المركزية للاستخبارات :

ـ تاب ، هل اتصلت بباريس ؟

***

كان الشخص الذي دخل قاعة مجلس البيت الأبيض يُشبه طالباً رافضاً اكثر مما كان يشبه موظفاً كبيراً تابعاً لمجلس القيادة الشخصي لرئيس دولة ، وذلك بسبب شعره المُفرط الطول وقميصه المُخطّط ذي الكمين القصيرين وبنطاله القابل للطي كالأكورديون وحذائيه الرياضيين نصف المربوطين .

وكانت غطرسة الأمين العام للبيت الأبيض وإحتقاره للمؤسسة الواشنطونية ، وخشونته ووقاحته قد خلّفت عدداً من الأعداء لجيمس ميلز ابن جورجيا البالغ أربعاً وثلاثين سنة . على أنه وراء هذا المقاوم للأعراف العدواني ، كان يختبىء شغّال عنيد ودقيق ومتحمّس لسيِّده حتى التعصّب ، وصورة عن « مزارين » الكليّ الوجود والقدرة .

وحين دخل « ميلز » الى القاعة ، شعر بجو الأزمة يتموّج كرائحة فاسدة . وكانت كلمات فيزيائيّ « لوس ألموس » قد شلّت من الذهول الرجال الذين كانوا يحيطون بالرئيس . كانت الوجوه متوتّرة وقلقة . وكانت قواعد اللعبة قد تغيّرت لتوهّا . فلقد كان سلام العالم قائماً حتى الآن على توازن الرعب بين العملاقين ، اميركا وروسيا . « أقتلك ، تقتلني » ، هذا الشعار للهزلية الروسية القديمة، حيث يموت الجميع، كان يحول دون المواجهة .

ولم تكن الأزمة التي أثيرت في تشرين الثاني ١٩٧٩ عقب دعوة الخميني للجهاد المقدّس ، الا مُزاحاً إزاء تهديد القذافي الذي كان يقلب مأساوياً استراتيجية التوازن هذه . وكان هذا التهديد يعني فشل سياسة عدم انتشار الأسلحة النووية التي دافع عنها بحرارة الرئيس واكثر رؤساء الدول المسؤولين . كما كان يرفع الى مستوى الدول اللجوء الى الإرهاب بوصفه سلاحاً للفتح ، مكلّلاً سياسة العنف بهالة رفيعة . وكان الرئيس يفكّر بمرارة انه لو كانت تلك القنبلة موجودة حقاً ، فإن بلداً كان منذ أقل من جيل يعيش تحت خيمة الرحّل ، سوف يملك القدرة على إزالة أكبر مدينة في الولايات المتحدة والمنطقة الحضارية الأكثر كثافة في العالم ، وقتل ثلاثة أضعاف تعداد بلده من السكان . وهذا يشكل أعظم عمل إرهابي في التاريخ : إنه بمثابة خطف عشرة ملايين شخص والتشبُّث بفدية هي في الواقع مطالب خارقة لرجل متعصب .

ثم استدار نحو اللواء « إيسمان » .

ـ جاك ، ما هي الخطّة المتوفّرة لدينا لمجابهة مثل هذا الوضع ؟

كان « إيسمان » يتوقّع هذا السؤال . وكانت غرفة مصفحّة في الجناح الغربي للبيت الأبيض تحتوي على أكداس من الملفّات صُنعت من مادّة تشبه الجلد ، ونُقِش على غطائها أحرف ضخمة مذهّبة . وكانت هذه الملفّات تتضمّن خطط العمل المعدّة من الحكومة الأميركية تحسُّباً لجميع المخططات المسرحية لما يمكن تخيُّله من أزمات ، بدءاً بنشوب حرب بين روسيا والصين ، الى أخذ رهائن من سفارة أميركية في بلد عربي .

هزَّ « جاك إيسهان » رأسه واعترف بأسف :

ـ ليست لدينا أية خطة لمعالجة أزمة مماثلة .

وقد رافقت هذا التأكيد جوقة من التنهُّدات . ومالت عينا الرئيس الزرقاوان الى لون سنجابيّ . وعندئذ شوهد « جيمس ميلز » ينتصب فجأة على حذائيه الرياضيين . ويصرخ قائلا :

ـ يا حضرة الرئيس ، ان هذه القنبلة غير موجودة . هذه خدعة . خدعة هائلة . (واستشهد بالحاضرين) . لنفكر ايها السادة ، كيف تريدون ان يمتلك عربيّ كالقذافي التكنولوجيا والأدمغة ومجرَّد المعرفة العلمية لتصوُّر وصنع مثل هذا السلاح ؟

اعترض « هربرت غرين » ، الرجل النيويوركي القويّ البالغ اربعاً وخمسين سنة الذي كان يتولّى منصب امين الدفاع ، فضلا عن أنه كان دكتوراً في الفيزياء النووية ، وقال :

ـ وماذا تعملون بالوثائق التي ارسلها الينا ؟

فأجاب « ميلز » بخشونة :

ـ يجب ان تعلم يا استاذ « غرين » ان ثمة هوةً تفصل النظرية عن التطبيق . كم لزم من السنين للروس والأنكليز والفرنسيين . . . والصينيين لتفجير قنبلتهم الهيدروجينية الاولى ؟ إنكم ستقرُّون انه على الصعيد الصناعي يختلف الاتحاد السوفياتي وانكلترا عن ليبيا ، أليس كذلك ؟

والتفت مجددا نحو رئيس الدولة . وارتجّ صوته فأصبح قاطعاً :

ـ اننا بالتأكيد ازاء تهديد اكثر تهذيباً واكثر تحضيراً مما سبقه . ولقد استفاد من صدر عنهم هذا التهديد ، على الأرجح ، من مساعدات علمية مؤهّلة بل من تواطؤ البعض ، ولكن صدِّقني يا حضرة الرئيس اذا ما اكّدت انه لن يكون ابداً بوسع عربي من مستوى القذافي ان يصنع قنبلة هيدروجينية . وهذه القضية هي بدون ادنى ريب خِدعةٌ جديدة .

***

على بعد ثلاثمئة متر من البيت الأبيض ، وعند زاوية شارع « بنسيلفانيا » والشارع العاشر ، كان مبنى مكتب التحقيقات الاتحادي الحصين غارقاً في الأنوار . وفي الطابق السادس كانت مصلحة الطوارىء النووية تعمل ليل نهار . وقد أُحدِثت عام ١٩٧٤ ، عندما أُعطي مكتب التحقيقات الاتحادي أفضلية مطلقة للإبتزاز الذري ، دون ان تعطى مثل هذه الأفضلية الا لبعض الأحداث الحيوية كاغتيال الرئيس . وكانت هذه المصلحة قد عالجت اكثر من خمسين قضية من هذا النوع .

وقد تبينَّ أن اكثرها لم تكن الا هذيان مجانين او ايديولوجيين معتوهين ، من نوع : « اذا مسستم « توندرا »(×) الألسكا ، فإننا سنضع قنبلة ذرية في شيكاغو » . ولكن بعض التهديدات ، كحادثة بوسطن ، حُمِلَت على محمل الجدّ ، وعلى الأخص تلك التهديدات التي كانت تقترن ببعض الرسوم

(×) سهب روسي مجلّد جزئياً يتميز بوجود بعض الأعشاب فيه .

لأسلحة نووية أعتبرت ، من قبل مهندسي « لوس ألموس » قابلة للتفجير . وعندئذ كان مكتب التحقيقات الاتحادي يوفد محلياً بعض مئات من المأمورين والفنيين . ولم يطلع الجمهور مطلقاً على أي تدخل من هذا النوع .

وكان مكتب التحقيقات الاتحادي ، منذ ان وُضِع في حالة التأهُّب ، قد أوفد عدة مأمورين وفنّيين الى « كارياج هوس ابارتمانتز » ، وهو بناء سكني من أربع طبقات يقع عند زاوية الشارع « ل » وشارع « همشَيْر » ويجاور مبنى السفارة الليبية في واشنطن . وقد دُعيت عائلتان للإقامة في « هلتون » على نفقة الدولة ، طيلة الوقت اللازم لتغطية جدران منازلهم الملاصقة للسفارة بالميكروفونات . وقد أجريت العملية نفسها في نيويورك قرب مقر الوفد الليبي لدى الأمم المتحدة . فوضعت الخطوط الهاتفية لجميع الدبلوماسيين الليبيين المعتمدين لدى الولايات المتحدة والأمم المتحدة ، تحت المراقبة .

وعند الساعة الثامنة والنصف ليلاً ، ومنذ أن أكّد الفيزيائي هارولد وود من « لوس ألموس » ان التصاميم المرفقة برسالة القذافي تعود فعلاً لقنبلة هيدروجنية، وضع مركز الاشارات في مكتب التحقيقات الاتحادي جميع مكاتبه في حالة تأهّب عام . وقد تلقّت جميع الفرق على الأرض الأميركية وعبر البحار الأمر بأن تكون مستعدة « لعمل طارئ يتطلب أولوية مطلقة وتعبئة لجميع الموظفين الجاهزين أو الاحتياطيين » ، وهكذا ، فإن رجالاً كانوا يصطادون سمك أبو منقار على شاطئ الباسيفيك او يشاهدون مصارعة ثيران عند الحدود المكسيكية او مباراة كرة القدم في « دنفر » أو يدخلون السينما مع اولادهم في شيكاغو او ينظفون آنية المائدة للعشاء العائلي في منزلهم في «أورليان الجديدة » ، تلقّوا أمراً بالتوجه حالاً الى نيويورك مع تعليمات مشدَّدة باحاطة سفرهم بأقصى التكتُّم .

وقد طلِب الى ضباط الارتباط في مكتب التحقيقات الاتحادي لدى المخابرات الاسرائيلية والفرنسية والبريطانية والألمانية الغربية ، بأن يفرزوا جميع مجموعات البطاقات المتوفرة لديهم وأن يرسلوا هوية جميع الارهابيين العرب المفهرسين في العالم وأوصافهم وعند الاقتضاء بصمات اصابعهم وصورهم .

وكان عملاق ذو شعر أشيب مُمشط بعناية يرتدي ثوباً ضيقاً كُحليّ اللون ، قد وصل لتوّه الى مكتبه في الطبقة السابعة ليتولى قيادة العمليات .

كان « كانتن دوينغ » . وهو في السادسة والخمسين من عمره،قد أصبح مديراً مساعداً للتحريات في مكتب التحقيقات الاتحادي . وقد قرّر أن يُركِّز عمله في ثلاثة اتجاهات ، فتقصّى أثر جميع الفلسطينيين المعروفين بآرائهم المتطرفة والمشتبه بأن لهم مثل هذه الآراء وراقبهم كما راقب جميع اعضاء المنظمات الثورية كجبهة التحرير البورتوريكي المتهمة بالتعاطف مع جبهة التحرير الفلسطينية . وفي نيويورك ، وفي عدة مدن من الشاطىء الشرقي ، انتشر مأمورو مكتب التحقيقات المركزي في المنابذ السود(×) والأحياء التي ترتفع فيها نسبة الاجرام ، في سبيل حث مخبريهم من قوّاد ومهرّبين ومتشرّدين ومخبّئي المسروقات على جمع أية معلومات تتعلق بالعرب : العرب الباحثين عن السلاح او عن مخبأ ما أو أوراق ، أي شيء ، المهم ان يكون متعلقاً بالعرب .

وفي الوقت نفسه شنّ « دوينغ » مطاردة جبّارة للقنبلة وللذين أدخلوها الى البلاد . وكان عشرون مأموراً من مكتب التحقيقات الاتحادي قد شرعوا باستنطاق الناظمات الآلية العائدة لدوائر الهجرة

(×) منبذ : مكان تقيم فيه اقلية منبوذة « غيتو » (المنهل) .

والتجنّس ، مُنقّبين بدقّة ومنهجيّة جميع البطاقات نموذج ٩٤ ـ ١ المتعلّقة بالعرب الذين دخلوا الولايات المتحدة خلال الأشهر الستة الأخيرة . وكانوا يبرقون حالاً بواسطة « التلكس » العنوان المأخوذ عن البطاقة الى أقرب مكتب . وكان مأمورون آخرون يتفحصون محفوظات الجمعية البحرية لمرفأ نيويورك ، بحثاً عن السفن التي كانت قد توقفت ، خلال الفترة نفسها ، في طرابلس او بنغازي او اللاذقية أو بيروت او البصرة او عدن والتي كانت فيما بعد قد انزلت بضائع على شاطئ الأطلسي . وكانت الاستقصاءات نفسها تُتابَع في دوائر الشحن التابعة لجميع المطارات الدولية الواقعة على بعد الف كيلو متر حول نيويورك .

وأخيراً أمر « دوينغ » ان يُستجوب بصورة مُنتظمة جميع الأميركيين الحاملين او الذين كانوا قد حملوا ترخيصا من طراز « كوسميك توب سكـرِت » الذي يسمح بدخول منشآت صنع القنابل الهيدروجنية.بناء عليه وقبل الساعة الحادية والعشرين بقليل كانت سيارة ملأى بمأموري مكتب التحقيقات الاتحادي تتوقف أمام الـ « ١٨٢٢ أولد سنتافي ترايل » ، ذلك المُنطلق القديم لغزو الغرب الذي اصبـح ضاحية سكنيّة لعاصمة المكسيك الجديدة . وكانت علبة الرسائل ذات اللون الفضّي ودرج الصحف المدهون باللـون الأصفر ، تجعل من البيت الصغير المُطيَّن وسط الجنينة الرمزَ الأصيل لأميركا المتوسطة . ولكن ساكنه لم يكن مع ذلك مواطناً عادياً .

وكان عالم الرياضيات « ستانلي أولهام » ، ذو الأصل البولوني،الدماغ الذي اكتشف سرّ القنبلـة الهيدروجنية . وقد شاءت السخرية ، صباح ذلك اليوم بالذات الذي أنجز فيه اكتشافه المشـؤوم ، أن يكون مُكبّاً أمام لوحه الأسود على إقامة الدليل على استحالة تحقيق مثل تلك القنبلة . وكاد يُنهي إثباته ، عندما انتابه ادراك فجائي خاطف . وكان بامكانه ان يمحوَ كل شيء بضربة خِرقة ، ولكنه لو فعل لكان تنكّر لكونه عالِماً . وبعد أن أشعل على التوالي علبة لفائف « بول مول » بكاملها وبعد أن رقص بانفعال أمام لوحه الأسود وطباشيره ، كان في أقل من ساعة من الحسابات المحمومة ، يُـميـط اللثام نهائيا عن السر الرهيب .

وقد أنفق مأمورو مكتب التحقيقات الاتحادي وقتاً أقل بكثير لينفوا عن أبي القنبلة الهدروجينية أي اشتراك في الفاجعة التي كانت تهدد نيويورك . وفيما كان ينظر من عتبة بيته الى رجال مكتب التحقيقات الاتحادي يبتعدون عنه ، كان « اولهام » لا يستطيع ان يمتنع عن التفكير بما كان قد قاله لزوجته صبيحة اكتشافه : « إن هذا سيُـغيّر العالم » .

***

كان بحّـار شاب يتأمل مغتبطاً ذلك الجمال الأسمر الذي هبط من القطار الذي كان قد دخل لتوّه الى محطة نيويورك . وكانت ليلى دجاني معتادة على نظرات الرجال : كانت تجذبهم منذ نعومة أظفارها بعينيها الكبيرتين الداكنتين ، وفمها الشبيه بفـم غاوية شرقية . وابتسمـت بلـطف للمعجـب بهـا وأسرعـت الخطى . وكانت قد تركت وراءها ، تحت مقعد المقصورة ،الشعر المستعار الأشقر الذى اعتمرته عندما نقلت الى البيت الأبيض رسالة العقيد القذافي .

وارتقت السلّم الآلي واجتازت بهو المحطة وهي تتلفّـت بحذر للتأكد من أن احداً لم يكن يتبعها وخرجت . وكانت سيّارة الكاديلاك بالاستئجار التي كانت تستعملها بانتظام منذ وصولها الى نيويورك . تنتظرها،وقد توقفت بمحاذاة الرصيف . وكان يجلس وراء المقود عبد سمين يعتمر عـمْرة كحلية .

ـ هل قمت برحلة موفقة يا سيدتي ؟

ـ ممتازة . شكراً .

وفتح السائق الباب فأندسّت ليلى في المقعد الناعم الذي كان لما يزل ينشر رائحة الجدّة . وهبطت السيارة المنحدر نحو الشارع . وأخرجت الشابّة مرآةً من حقيبتها وتظاهرت بأنها تعيد تسريح شعرها وكانت تتثبّتُ من أن أحداً لا يتتبع خطاها . كانت تلك الليموزينة[1] الفخمة وسائقها المهذب نتيجة احدى القواعد الذهبية التي أوصى بها الارهابي الفنزويلي الشهير كارلوس : « ان الارهابي الذكيّ لا يسافر الا في الدرجة الأولى » . وكان يؤكد ان اسلم طريقة للسفر عبر العالم دون ان يُلاحظ المرءُ من أحد ، هي أن يتبنّى عادات البورجوازية الميسورة التي يعتزم فعلاً تدميرها .

وكان السبب الذي اختير لتغطية إقامة ليلى في الولايات المتحدة لتهيىء فيها مهمة شقيقيها ، يتفق تماماً مع هذا المعيار . فكانت حاضرة في نيويورك بناء على رحلة مشتريات كانت تقوم بها لحساب « الضفة اليسرى » ، أحد المحلات الفخمة لبيع الملابس في شارع الحمراء في بيروت ، التي صمدت ، شأنها شأن بعض المحلات المماثلة ، بعد الاضطرابات الناجمة عن الحرب الأهلية اللبنانية . وقد كان الحصول على جواز سفر مُزوَّر لعبة أولاد : ففي بيروت كان الحصول على جواز سفر مسروق لا يقل سهولة عن شراء طابع بريدي . ولم تُلاقِ ليلى صعوبة اكثر في الحصول على تأشيرة من بين المئتي الف تأشيرة اميركية الممنوحة كل سنة لمواطنين من الشرق الأدنى . وكان القنصل مرهفاً لدرجة أنه لم يكلف نفسه عناء التثبُّت من هويّتها . فقد اكتفى بكتاب التوصية المعنون في اعلاه باسم « الضفة اليسرى » .

وهكذا اتخذت ليلى دجاني اسم ليندا نهر وادّعت انها لبنانية مسيحية تنتمي للمجتمع البيروتي الراقي ، فأصبحت وجهاً مألوفاً من وجوه صالونات الخياطة حاملة اسماء « بيل بلاس » و« كلفين كلاين » و« اوسكارده لارنتا » . ولم تلبث بجمالها وفتنتها أن أصبحت أحد الوجوه الذائعة الصيت في « التنقل الصاروخي » النيويوركي . فكانت تقضي عطلها الأسبوعية في « لونغ - أيلندا » وتتناول طعام الغداء في الـ « كرافان » وترقص حتى الفجر في مرقص الستوديو ٥٤ ، ذي الاشراق الخارق .

وانسابت سيارة « الكاديلاك » هادئة بمحاذاة « سنترال بارك سوّث » وتوقفت امام مظلة « همبسْدهوس » . فتقدّم البوّاب الذي كان يرتدي ثوب الخيالة الأحمر ذا الأزرار المذهبة وفتح باب السيارة . حيّته ليلى وتمنّت ليلة سعيدة للسائق وأخذت مفتاحها وثلاث رسائل من مكتب الاستقبال ودلفت الى المصعد . وبعد دقيقتين ، دخلت الى شقّتها الفاخرة التي كانت قد استأجرتها في فندق يقع في الطابق الثاني والثلاثين ، ونعمت فيها بالفوضى المحبَّبة . وكان بساط الموكيت مُغطّى بلوازم مشاغلها المزعومة : مساطر أقمشة وأعداد من مجلات « فوغ » و« هاربز بزار » و« غلامور » و« ومنز واردايلي » . وكانت صورتها في ثوب صيني نشرتها مجلة « ومنزوار » بمناسبة عرض أزياء أقيم لصالح « متروبولتيان اوبرا » ، قد أثارت قلقها في احدى اللحظات . ولكن لحسن الحظ بالنسبة لها ، لم تكن تلك الصحيفة بين الصحف التي ينقب بها مختصو الشؤون الفلسطينية لدى الوكالة المركزية للاستخبارات .

ألقت بمعطفها على أحد المقاعد وصبّت لنفسها قدحاً من الويسكي وتقدّمت بضع خطوات نحو الفُتحة المزججّة التي كانت تشرف على « سنترال بارك » . كانت تلك الحديقة ترقد تحت معطفها من الثلج النديّ ، وقد احتواها صفّ متلألئ من المباني المضيئة ، كما لو كانت ماسات في علبتها . وقد سحرها جمال المنظر كما لو أنه التقفها فارتعشت غير قادرة على اشاحة نظرها عنه . وشربت بضع جرعات من

(١) سيارة الستة ركاب .

الويسكي وهي تفكّر بكارلوس . لقد كان هذا الأخير على حق . فالارهابي الحقيقي يجب ان لا يهتم مطلقاً بنتائج أعماله . وأفرغت كأسها جرعةً واحدة ونشرت الستار أمام الزجاج مسرعةً نحو قاعة الحمام . صبّت بضع قطرات من زيت « روجيه وغاليه » في قعر المغطس وفتحت الصنابير الى النهاية فانبعثت منها دفعة قوية من الزَبَد الحار ذي الرائحة الحلوة .

وقبل ان تدخل ليلى في الماء ، تأملت نفسها في المرآة ، فبدا عليها الارتياح . فعلى الرغم من حياة السهر التي أجبرتها عليها نيويورك ، فإن هندامها لم يفقد شيئا من نضارته . وقد جسّت بأصابعها الطويلة فخذيها ذاتي الخطوط المكتملة الرشاقة والانحناء ، وردْفيها وبطنها،وداعبت برفق جلد نهديها الناعم الصلب . ثم تمدّدت في الماء المُرْغي ، وتركت الحرارة تجتاحها بلذّة .. وكانت تلتقط بملء يديها الزَبَدَ المُعطَّر وتدلك برفق عنقها وأذنيها وكتفيها ونهديها ثانيةً حتى تُيبِّس حلمتهما . ورفعت بارتخاء ساقها خارج الرغوة . وقد ابتسمت لدى مشاهدتها الطلاء القرمزي الذي كان يُزيِّن أظافر قدميها فتساءلت : هل شوهدت من قبل إرهابية تطلي أصابع رجليها ؟ ثم انقلبت الى الوراء وأغمضت عينيها وغطت كالهرِّ متمتعةً بالدفء الناعم الذي كان يتسلّل الى أعماق كيانها . وقد انتشلها جرس الهاتف البلوري المعلّق على الحائط فوق رأسها من حالة النيرفانا التي كانت فيها . التقطت جَلَبَة بعيدة وعرفت صوت ميشال ، فصرخت بشيء من الخشونة :

- اين أنت ؟

- لقد انتهينا من العشاء عند « الين » وسنذهب بعد ذلك لتناول كأس في الستوديو ٥٤ . لماذا لا توافيننا الى هناك ؟

- هل لك أن تمنحني ساعة ؟

- ساعة يا عزيزتي ؟ بل أعطيك كل الحياة اذا شئت !

***

على الرغم من جهاز التهوية القوي ، فإن سحابة كثيفة من دخان اللفائف كانت تتموّج في قاعة محاضرات البيت الأبيض . وكانت الأقداح وصحون الكارتون المحتوية على بقايا حساء الفاصوليا الحمراء وبقايا السندويشات مبعثرة على الطاولة والمقاعد الخالية .

وكان ثلاثة ضباط من قوات الولايات المتحدة الجوّية قد أنهوا عرضهم على أحد الجدران لمجموعة من اللوحات والخرائط . وتولىّ الكلام عندئذ عقيد شابّ ذو شعر أصهب . وكان قد كُلِّف من قبل وزارة الحربية بأن يقدِّم للرئيس تقريراً حول الوسائل الفنِّية التي كان يمكن ان يستعملها رئيس ليبيا او جماعة من الارهابيين ليفجروا عن بُعْد سلاحاً نووياً مُخبَّأً في مدينة نيويورك . وكان عليه أيضاً ان يبيّن الامكانات المُتاحة للتصدي لعمل من هذا الطراز .

- حضرة الرئيس ، أيها السادة ، يتبيّن من الرسم البياني الذي سُلِّم الينا أن السلاح المبحوث فيه قد صُمِّم بحيث يُربط بجهاز يمكنه ، بناءً على الطلب ، ان يُعطي شحنة كهربائية بقوة خمسة « فولت » من شأنها ان تُطلق اشعال النار . ويوجد إجمالاً ثلاث وسائل لاحداث هذا الدفع . وفي الحالة الحاضرة ينبغي ان لا نستبعد بشكل أوّلي وسابق للتجربة الوسيلة الأولى ، وان لم تكن على جانب من الأهمية . وبموجب هذه الوسيلة يتولىّ رجل انتحاري مهمّة الحاضن الى جانب القنبلة حتى ساعة التنفيذ ويضغط بنفسه على جهاز الاشعال . وتلك الطريقة لا تخطئ اذا كان الرجل مستعداً للتضحية بنفسه .

هزّ رئيس الوكالة المركزية للاستخبارات غليونه بجلبة واعترض قائلا :

ـ ايها العقيد ، إذا كان القذافي هو حقاً صاحب هذا الابتزاز الذي نحن بصدده ، فإن هذه الوسيلة ي ، بالتأكيد ، آخر ما يختاره ، لانه يود أن يبقى حتى النهاية المسيطر الوحيد على مشروعه ، وأن يظلّ حده قادراً على احداث التفجير أو على العكس الغائه .

أعرب العقيد عن موافقته بانحناءة من رأسه وأسرع يُتابع :

ـ لا تبقى عندئذ سوى وسيلتين : الهاتف او الراديو . وإن ربط جهاز الاشعال في القنبلة بخط هاتفي عاديّ هو على جانب كبير من السهولة الصبيانية . فإذا ما وصلنا سلكين ، كما هو الحال في المجاوب لآلي العادي ، فيمكن نقل رسالة مرموزة تُحدِث الانفجار . واذا ما كانت هذه الرسالة مطابقة لبرمجة جهاز الاشعال ، فإن الانفجار يحدث فوراً . وإن أي ترتيب خاطىء لا يمكنه ان يُحدث الانفجار . تلك هي لضمانة المطلقة لهذه الوسيلة . وبعبارة أخرى فإن القذافي يمكنه ، لتفجير قنبلته ، ان يُتلفِن من أية بقعة في العالم وأن يرسل إشارته .

سأل الرئيس والاضطراب باد عليه :

ـ أتعتقد ان الأمر سيكون بهذه السهولة ؟
ـ نعم يا حضرة الرئيس ، أخشى ذلك .

وهنا سأل أمين الدفاع :

ـ أيّ نوع من الاتصالات المسافيّة تملك ليبيا ؟
ـ إن ليبيا تستخدم كسائر البلدان قمراً اصطناعياً من نوع « انتلسات » . وتملك محطّات أرضية هنا (وأشار العقيد بعصاه القصيرة الى مكان على خارطة نصفـيْ الكرة الأرضية) ، وهناك ، كان اليابانيون قد أنشأوها .

ولفت الانتباه رئيس لجنة رؤساء أركان الحرب الى ما يلي :

ـ إن غارة جوِّية تُدمِّر هذه المحطات في أقل من عشر ثوانٍ ، فتُقطَع ليبيا عندئذ عن سائر العالم ، أليس كذلك ؟
ـ نعم،من الناحية الهاتفية .
وهنا استفسر رئيس الدولة :

ـ ألا يمكن التفكير بالأحرى بعزل نيويورك ومنع وصول أيّ اتصال خارجي بها ؟

أجاب العقيد جازماً :
ـ كلا،يا حضرة الرئيس ! إن هذا مستحيل فنياً .

ثم تابع قائلاً :

ـ نحن نعتبر على كل حال أنه في مثل هذا الوضع فإن الرئيس الليبي أو أية جماعة ارهابية أخرى سيفضلون الاستعانة بالراديو . لان هذه الوسيلة تقدِّم مرونة أعلى وتمتاز باستقلالها عن جميع شبكات الاتصال الموجودة . وإذا كان امر إشعال النار يجب ان يجتاز مسافة كبيرة فإن الاشارة سوف تُبثّ على موجات طويلة ، وهذه تقفز على الطبقة العليا للجوّ قبل ان تعود للأرض . وهذا يعني ان التواتر سيكون منخفضاً .

سأل الرئيس :
- ما هو عدد التواترات التي ستكون بتصرّف القذافي لبثٍ من هذا النوع ؟

- من طرابلس الى نيويورك ، مليون هرتز : أي مليون دورة .

فـفَرَك الرئيس ذقنه وقال :

- مليون ! وهل باستطاعتنا تشويهها جميعاً ؟
- لو فعلت ذلك لقُطعتْ في الوقت نفسه جميع اتصالاتنا : الشرطة ومكتب التحقيقات الاتحادي ، والجيش ومصالح الاطفاء ، وستُشلّ جميع الاتصالات التي لا غنى عنها في حالات الطوارىء .
- لنفترض مع ذلك أنني اعطيت مثل هذا الأمر . فهل يكون ذلك قابلاً للتحقيق ؟
- كلا ! يا حضرة الرئيس .
- لماذا ؟
- ببساطة لاننا لا نملك جميع وسائل التشويش اللازمة .
- وجميع منشآتنا في أوروبا ؟
- سوف تكون غير مجدية في هذه الحال ، لانها بعيدة جداً .
وتدخّل رئيس الوكالة المركزية للاستخبارات :
- لكي يمكن التقاط رسالة القذافي في نيويورك ، ألا ينبغي ان يكون هذا الأخير قد ركّز تجهيزاً مناسباً أو على الأقل هوائيا وحيد الاتجاه ؟
- بالتأكيد ، ولكن يكفي ان يُثبّت هذا الهوائي على هوائي تلفزيون عادي مع مُكبِّر .

وسأل الرئيس :
- ألَن يكون بالامكان كَنْس جميع التواترات التي يمكن ان يستعملها القذافي ، وذلك باطلاق اسطول كبير من الطائرات المروحية فوق نيويورك ؟ ألا يمكن سؤال محيط الراديو الذي يستعمله وتحديد موقعه انطلاقاً من أجوبته ؟ بطريقة التثليث ؟ أو التوجيه الاشعاعي ؟
- لدينا فعلاً الوسائل لمحاولة مثل هذه العملية . ولكنها لن تكون فعَّالة الا اذا كان جهاز الراديو الليبي قد صُمِّم للبثّ . أما اذا كان لاقطاً فقط ، فلن نحصل على أيّ جواب .

وعندئذ صرخ امين الطاقة ، « دالبير كرانديل » ابن التكساس قائلا :

- لدينا طريقة أخرى لحل المسألة . فلنرسل دزينة من الصواريخ ولنفجّرها فوق سماء ليبيا . إني أضمن لكم بأن هذا سوف يلف كل البلد بحزام مغنطيسي كهربائي يقطع جميع المواصلات هناك خلال فترة من الوقت لا يستهان بها .

وتغطرس الوزير وضرب بقبضته على الطاولة . وفتح « جيمس ميلز » احدى عينيه منتصباً على مقعده وقال :

- حضرة الرئيس ، إنني أتابع التفكير بأن التهديد لا يأتي من القذافي . على أنه في حال صدور هذا التهديد عنه ، وهذا بعيد الاحتمال ، فيجب علينا ان نواجه عدداً من الافتراضات . (وتوقّف فترة ثم استأنف بانتظام) الافتراض الأول هو أنه لو كانت لديه الوسائل لتنفيذ مثل هذه الضربة ، لكان لديه ايضاً الخيال بأن يُعدَّها اعداداً حسناً ، ولما كان سيعرّض نفسه لأعمال ثأرية بمثل هذه السهولة . وسيجد بالتأكيد

طريقة لا تخطىء كأن يلجأ مثلاً الى أي مركب في عرض الأطلسي ، يستطيع منه ، هو أو أحد العاملين لحسابه ، أن يُطلق انفجار قنبلته في نيويورك ، وذلك في حال قيامنا بهجوم وقائي على بلاده . . .

وكان « ميلز » لا يزال يتكلم ، عندما توقَّدت إشارة مُنبِّهة حمراء على هاتف « جاك ايسهان » . لقد كان صف الضابط المسؤول عن المقسم الهاتفي في البيت الأبيض. فأصفرَّ وجه « ايسهان » ، وأعلن بصوت واضح :

ـ حضرة الرئيس ، إن مراسلاً مُغَفْلاً طلبنا لتوّه . وقد أقفل الخط قبل أن نتمكن من معرفة المكان الذي كان يتلفن منه . ولقد صرّح بأن رسالة ثانية موجَّهة لك اودعت في خزانة المستودع الآلي رقم ك ٦٠٢ التابع لمحطة واشنطن المركزية .

***

كان صف من رجال الشرطة يُبقي على بعد بضع عشرات من المسافرين المتأخرين . وكان بعض مأموري مفرزة المتفجرات في مكتب التحقيقات الاتحادي يتقدمون وراء دروعهم نحو المستودع الآلي ، وقد اعتمروا الخوذ وارتدوا البزّات مانعة الاحتراق ، وقد تفحَّصوا باحتراس الحاجز المعدني الطويل بواسطة عدادات « جيجر »(١) . وبما أنهم لم يكتشفوا أيّ أثر لاشعاع ذاتي ، فقد استحضروا ثلاثة كلاب بوليسية مدرّبة على شمّ المتفجرات . وأخيراً ، وبحيطة الجرّاحين عندما يفتحون القلب ، اقدم اثنان من صانعي الأسهم النارية المجهّزين بعتاد اللصوص ، على تفكيك باب الخزانة ك ٦٠٢ .

وفي جوّ من الانفراج الكبير ، لم يكتشفوا الا ظرفاً مودعاً على جانب القعر الداخلي ، وكانت هويَّة المرسل اليه مطبوعة عليه بالآلة الكاتبة :

« الى رئيس الولايات المتحدة الأميركية » .

وكانت الرسالة موجزة . وكانت تنبىء أنه عند منتصف الليل حسب توقيت واشنطن ـ الساعة السابعة حسب توقيت طرابلس ـ وفي مكان يقع على بعد ٢٤٩ كيلو متراً شرقي تقاطع الدائرة الخامسة والعشرين الموازية لخط الأستواء ، مع الدرجة العاشرة من خط العرض ، وعند الطرف الجنوبي لبحر الرمل في « عوبري » ، في الجنوب الغربي من ليبيا ، سوف يقدِّم معمر القذافي الدليل القاطع على مقدرته على تنفيذ التهديد الوارد في رسالته السابقة .

ولأجل تسهيل ملاحظة إقامة الدليل على التجربة ، كان رئيس ليبيا يقترح ممراً جوياً محدداً بعناية من البحر المتوسط حتى الموقع المشار اليه ، سوف تتمكن طائرات الاستكشاف الأميركية من سلوكه دون ان يعترضها احد .

***

كان بواب « همشيرهوس » المرتدي ثوب الخيالة الأحمر ، يوقف أول سيارة تاكسي كانت تمرّ أمام « سنترال بارك سوْث » . وفتح الباب وأوضح للسائق :

ـ الستوديو ٥٤ .

---

(١) عداد جيجر يستعمل للاستدلال على وجود اشعة ذرية (المترجم) .

وكانت ليلى دجاني ترتدي طاقماً باذخاً من نسيج تجلّله خيوط سود وذهبية من صفيح المعادن ، طراز « أيف سان لوران » ، وتنّورة ضيقة ذات شق عالٍ جداً وفرواً للكتفين مزركشاً بالريش . ودلفت الى السيارة ، فألقى السائق نظرة في المرآة الارتدادية وأبدى إعجابه قائلاً :

ـ انتِ اذن ، يجب ان تلاقي نجاحاً .

وشكرته المرأة الشابة بابتسامة .

وفيما كانت سيارة التاكسي تقترب من المرقص النيويوركي الشهير ، انحنت ليلى الى الأمام وقالت :

ـ لقد غيَّرت رأيي . خُذني بالأحرى الى زاوية « بارك افنيو » والشارع الاثنين والثلاثين .

وبعد بضع لحظات ، كان التاكسي يتوقَّف أمام المنعطف المحدَّد . وقد دفعت ليلى الأجر وتمنت للسائق ليلة سعيدة ، ولما اختفت انوار السيارة الخلفية ، نادت سيارة تاكسي كانت تجوب منصة « بارك افنيو » ببطء سعياً وراء الركاب وطلبت من سائقها ان يوصلها الى وجهتها الحقيقية .

***

التقى الشقيقان دجاني واختهما ليلى ، وكان الضوء الخافت المصفرّ المنبعث من المصباح الوحيد الذي سوّده ونيم الذباب ، يُبقي في الظل القسم الأكبر من المرأب . وعند نهاية المبنى ، كانت مصطبة من الأسمنت تُفضي الى مستودع مهجور كان ينبعث منه صوت غريب . فأرهفت ليلى السمع وصاحت مذعورة :

ـ جرْذان !

كان شقيقها كمال ، راكب « الديونيسوس » الخفي ، جالساً وسط المصطبة فوق سرير ميدان الى جانب عربة رافعة . وكانت تنتشر حوله عدة علب ملأى ببقايا « البيزا » وزجاجات الكوكاكولا والبيرة الفارغة والقرون التي ما زالت ملأى بالبطاطا المقلية الباردة وبقايا « الهمبرغر » وكان يُمسك باحدى يديه مسدساً بالهواء المضغوط وبالأخرى مصباح جيب كهربائياً . والى جانب الجدار كانت ترقد ضحاياه الأخيرة . جُرذان بحجم الهررة تقريباً . أما كبير الأشقاء من آل دجاني ، فقد بدا عليه الألم ولواه الى اثنين ، وكان يذرع المصطبة مُمْسِكا بطنه . وكانت قطرات العرق تتصبب من جبينه . وقد نصحته شقيقته قائلة :

ـ وليد ، خذ أحد الأقراص التي أحضرتها لك .

فتأوه قائلاً :

ـ لقد تناولت خمساً منها . تلك هي الجرعة التي لا يجوز تجاوزها .

وانشلّت حركة وليد . وكان البرميل الضخم البالغ ١,٦٠ م من العلو والذي يبلغ قطره ٨٠ سنتمتراً ، ينتصب أمامه ، اسود مهدداً . وكان مربوطاً باللوح الذي كان قد نُقل عليه . وكان اسم وعنوان الشركة التي استوردته ترسم حوله عقداً من الأحرف البيضاء عند منتصف علوّه . وتأمل الفلسطيني هذه الكتلة وتساءل كيف ان هذا القدر من الفظاعة والدمار وموت ملايين الناس الكامن ، كان يمكن ان تكون مخبأة في هذه الجدران المعدنية . ومسح جبينه بمنديله . على انه ، في طرابلس ، كان قد أُعدَّ بقساوة لهذه الفكرة : « لا تفكر بشيء ، لا تفكر بشيء ما عدا مهمتك » ولكن كيف لا يفكر ؟ كيف

يطرد من عينيه وجوه أهالي نيويورك الذين التقاهم منذ يومين ، ذلك البحر من الوجوه الفتية والكهلة والجميلة والقبيحة والفقيرة والغنية ، وجوه حزينة ولا مبالية وسعيدة ، وجوه تنطق بالحب والوحشة . كيف كان بامكانه ان ينسى وجوه هذه الفتيات الصغيرات الزالقة على مزلج فوق ثلج « سنترال بارك » ، وهذا الشرطي الأسود وهو يُسهِّل مرور سيدة عجوز عند زاوية الشارع الخامس ، وبائع الصحف السمين في ناحية « تايمس سكوير » وهو يصرخ « صباح الخير » والسيكار عند زاوية فمه ؟ كيف لا يستعيد ، بالعكس ، كما في فيلم بطيء ، رؤية الجماهير المُسرِعة وصفوف السيارات والواجهات المضاءة والمباني الصاعدة حتى السماء ، وجميع تلك الصور التي كانت تمثّل ذلك القدر الهائل من الحياة ؟

سمع وليد صرير سرير الميدان . وصرَّح كمال وهو ينهض :

- انني اشعر بالعطش .

وفتش في قعر احدى العلب فأخرج منها زجاجة ويسكي « بلاّنتين » نصف ملأى وقدّمها لشقيقه .

- ربما كنت بحاجة لمثل هذا الدواء . فقد كنت سابقاً تتخذه علاجاً محترماً

دمدم وليد قائلاً :

- لقد انتهى الأمر منذ ان اصبت بتلك القُرْحة المشؤومة .

وكان صبر ليلى قد نفد . وكانت أبراق ثوبها المُعَد للمرقص تتألق في الظل الخفيف كالحباحب . وكان البرميل يسحرها هي كذلك ، ولكنها ، خلافاً لشقيقها البكر ، لم تكن تتخيَّل تماماً الجحيم الذي سينبعث عنه ، وسألت :

- كم يبقى لنا من الوقت ؟

اجاب كمال ، وهو ينحني ليتناول علبة من الورق المقوّى تحتوي قطعة من « البيزا » :

- ثلاثون دقيقة .

ولاحظت ليلى وجود ختم أحد المطاعم على ورق الصرّ ، فقالت بلهجة قلقة :

- هل أنت متأكد أن احداً لن يكتشف هويتك عندما تذهب لجلب هذه المؤن ؟

فرشقها كمال بنظرة مُنزَعِجة : إنها دائماً نفسها وينبغي ان تتدخل في كل شيء ! وراقب شقيقه لفترة ، وقال في نفسه : إنه يبدو عصبيّ المظهر . وهذا طبيعي . فالسلاح بالنتيجة سلاحه . واذا ما فشل ، فلن يبقى أمامه الا ان يُطلق النار على نفسه .

ونظر الفلسطيني الشاب الى ساعته وقال :

- اذهب يا وليد فأشعل الجهاز . فسوف ترسل طرابلس الاشارة بعد عشرين دقيقة .

وكانت الاشارة المعنيّة ، هي التحريك المرموز المخصّص لاحداث تفجير القنبلة . وكان القذافي قد نظم تجربة مع موفديه الثلاثة الى نيويورك . للتثبّت من أن الاشارة سوف تصل بدقة في اللحظة التي سوف يقرّر فيها تنفيذ تهديده .

اتجه وليد دجاني نحو صندوق معدنيّ صغير رماديّ اللون بحجم حقيبة اوراق كبيرة مغطّى بسمات مختلفة تعود للخطوط الجوّية عبر العالم ولوفتهانزا وفنادق اوروبية كبيرة فخمة . ولم يكن اي شيء ليبدو اقل ايذاءً واكثر براءةً من هذا المتاع .

وكان وليد ، لدى وصوله الخميس الماضي الى مطار كندي ، قد قدَّم جواز سفر لبنانياً باسم ابراهيم خالد ، مهندس الكتروني . ولما أبصر موظف الجمرك الصندوق الصغير كان قد طلب اليه ان يفتحه . وكان الفلسطيني قد شرح قائلاً :

ـ هذه آلة لمراقبة الأجهزة المصغَّرة التابعة للناظمات الآلية ، من شأنها ان تكتشف أعطال هذه الناظمات .

وكان الجمركي المُعجَب قد سمح له بالمرور بعد أن قال مازحاً :

ـ هذا كثير التعقيد بالنسبة لي .

وهذا الجمركي لم يكن بوسعه ان يتخيل الى أية درجة كان الجهاز الذي شاهده معقداً في الواقع . وفي الأساس كان الصندوق الصغير فعلاً مجرَّد آلة لمراقبة الأجهزة المصغَّرة التابعة للناظمات الآلية ، آلة من طراز « تستلين اديت ١٠٠٠ » صنع اميركي . وقبل سبعة اشهر كان احد كبار الموظفين في وزارة المواصلات المسافية في ليبيا ، قد استدعى الى مكتبه في طرابلس المهندس « هيده كماغوشي » ، ممثل « اورينتال الكتريك » ، الشركة اليابانية التي كانت قد انشأت الشبكة الهاتفية الهرتزية الجديدة في ليبيا . وكان قد شرح له ان حكومته كانت ترغب في شراء آلة تستطيع ان تُطلق عن بُعد وبواسطة الراديو شحنة كهربائية . وكان ينبغي ان تكون هذه الآلة في الوقت نفسه معصومة من الخطأ ومنيعة يتعذر انتهاكها . وبعد ستة اسابيع ، كان « كماغوشي » يُحضر الى ليبيا الصندوق الصغير وفاتورة بقيمة مئة وخمسة وستين الف دولار .

وكانت عبقرية اليابانيين في فن النمنمة وحدها تستطيع ان تبتكر ترسانة من الأجهزة من شأنها وضع تلك الآلة في منأى عن كل محاولة تحييد . فثمّة شاشة داخلية كانت تحمي اجهزتها من الأشعة فوق البنفسجية ، كي لا يتمكن احد من حرق المعلومات المبرمجة والمختزنة في ناظمتها الآلية المصغرة . واذا ما حاول احد ان يُتلِف ذاكرتها بواسطة قطع ممغنطة ، فإن كاشفاً للمجال المغناطيسي سوف يُنشِّط آلياً مدار الاشعال ، وكانت مصافٍ ضدّ التشويش تعمل على منع أي تشويش في جهاز الراديو المُستَقبل . واخيراً كانت ثلاثة انابيب صغيرة مُفرِطة الحساسية بتقلبات الضغط تجعل تدمير الصندوق الصغير بواسطة القذائف او المتفجرات ضرباً من المستحيل . واذا ما وُصِلت المدارات فإن تغيير الضغط وحده الناجم عن سقوط علبة ثقاب على الآلة سيكفي لاحداث التحريك القاتل .

وأدار وليد قفلاً ذا تركيبة مُثلّثة ، ونزع رِتاج الغطاء . فظهر لوح ذو اطار شاحب الزرقة وعلى جانبه شاشة صغيرة مَهبطية(١) وملامِس يتألف من ستة عشر ملمساً تحمل الأرقام والحروف والرموز العائدة لمختلف العمليات،وهي الانطلاق والمعطيات والذات والنهاية والمراقبة . وفي وسط اللوح كانت توجد مِقرأة اسطوانات لا تُفتح الا بأمر مرموز فقط يُضرَب على الملامِس .. وفي الداخل رُكِّزت اسطوانة ب. أ. س. ف من ثلاثين دقيقة تتضمن التعليمات المبرمجة في طرابلس والموجهة الى الناظمة الآلية المصغَّرة . وكان كبلان كهربائيان قد لُفَّا في تجويف الغطاء . وكان احدهما مُعداً ليوصل بالقنبلة والآخر بسلك الهوائي الذى كان كمال قد ثبَّته على السقف . وأية محاولة لقطعهما بعد تركيزهما في مكانهما سينشِّط آلياً جهاز الاشعال . وأخيراً كان قد خُبِّىء في قلب الصندوق الصغير جهاز راديو مُستقبل وجهاز مصغَّر تابع للناظمة الآلية وناظمة آلية مصغَّرة وسلسلة من الحاشدات القوية بالليتيوم ذات الأمد الطويل .

---

(١) مهبطي : يتعلق بالقطب السالب (كهرباء ـ ملاحظة المترجم) .

أخرج وليد من بطانة سترته صحيفة من الورق طُويت برفق ، وكانت عبارة عن لائحة المراجعة المتضمنة العمليات المرموزة الست عشرة التي كان ينبغي ان يقوم بها لمراقبة حسن سير الصندوق الصغير ولتسيير جهاز الاشعال استعداداً للأمر النهائي الذي سوف يصدره القذافي . وضغط على ملمس « الانطلاق » فتوقّدت كلمة « تطابق » على الشاشة المهبطية ، ثم ركّب الفلسطيني ، وقد ابتلّت أصابعه من التأثر ، على الملامس الرمز « أ ـ ١ ـ س-٢٠ » ، فتسجلت على الشاشة كلمة « صحيح » . ولو كان وليد قد ركّب كلمة مغلوطة لكانت ظهرت كلمة « غير صحيح » ولن يكون لدى الفلسطيني الا ثلاثون ثانية لتصحيح خطأه ، والا فان الصندوق الصغير سوف يتلف نفسه بنفسه .

وعندئذ ارتسمت على الشاشة اشارة « تخزين المعطيات » . فراجع وليد لائحته وضرب على الملامس : « ف . ١-٩- أ » . ورأى ، من نافذة مَقرأة الأسطوانة ، الشريط الممغنط يتتابع. وقد ظلّ يتتابع طيلة دقيقة واحدة تماماً ، وهو الوقت اللازم لنقل البرنامج المسجّل الى ذاكرة الناظمة الآلية المصغّرة . وقد اشارت الكلمات التالية : « تخزين المعطيات : موافق » الى أن العملية كانت مطابقة .

كانت هذه الناظمة الآلية دماغ الصندوق الصغير الألكتروني . والآن وقد اصبحت مُبرمجَة ، فإنها ستتولى مراقبة المدارات وأجهزة الحماية وتعبئة البطاريات كما أنها ستعطى الأمر عند الضرورة الى الآلة بأن تُدمر نفسها بنفسها . ولكنها ستقرأ ، على الأخص ، الرسالة بالراديو المنتظرة من طرابلس وتتثبتّ من صحتها وتقرر شنّ التفجير ، عند ساعة التنفيذ وعندما سيكون الصندوق الصغير فعلاً مربوطاً بالقنبلة .

أعلن وليد وهو يجفّف جبينه بعصبية : ـ كل شيء على ما يرام . . وكل شيء يسير بطريقة صحيحة . ولم يبقَ الا التثبّت من طريقة الاشعال اليدوية .

لأنه اذا كانت الآلة قد صُمّمت لتفجير قنبلة استجابة لاشارة بالراديو ، فإنها كانت تتضمن أيضاً جهازاً للاسعاف كان بإمكان الأشقاء دجاني أن يستعملوه في حال حصول حادث ما .

وضرب وليد بعناية الأرقام الأربعة :/ ٦٠٣٠٦٠٠/ على الملامس . وكان هذا العدد قد اختير كرمز للاشعال اليدوي لأن أحداً من الفلسطينيين الثلاثة لن يستطيع ابداً ان ينساه . فقد كان تاريخ معركة اليرموك حيث كان جنود عمر ، خليفة الرسول ، قد هزموا البيزنطيين بالقرب من بحيرة طبرية ، ووطّدوا السيطرة العربية على وطنهم الضائع اليوم . وفيما كان إصبع وليد يضغط على الرقم الأخير ، اختفى النور الأخضر وتلوّنت خلفية الشاشة بنور أحمر طيلة ثانيتين . ثم أضاءت الاشارة التالية : « الاشعال اليدوي : موافق » .

ـ هذا يسير ! (ونظر وليد الى ساعته) يبقى لدينا سبع عشرة دقيقة قبل ان تنادينا طرابلس .

وفي مكان ما من الفضاء اللامتناهي ، كانت تدور كُرَة من المعدن تحت قُبة السماء . « اوسكار » عصفور مهجور ، قمر اصطناعي صغير تائه وسط مَجَرَّة من أشقّائه الكبار ، المختصّين بالمواصلات المسافية والأرصاد الجوية والمراقبة العسكرية والملاحة والرصد من كل نوع ، الذين يملأون المدار الأرضي . وكان « اوسكار » قد أُطلِق بمعرفة وكالة الأبحاث الفضائية الأميركية (ناسا) عام ١٩٦١ لحساب مجموعة من هواة الراديو . ولما لم يكن خاضعاً لأية مراقبة دولية ، فإنه سرعان ما نُسِيَ . وقد نُسِيَ بالفعل حتى أن اسمه غير وارد في جردة الأقمار الصناعية المتناهية في السرّية التي تحرص الحكومة الأميركية على بقائها كاملة .

ولن يكون أمام القذافي ، في سبيل تدمير نيويورك ، إلاّ أن ينقل إشارته بواسطة هذا القمر

الصناعي المهجور الذي سوف يوجّهها عبر الفضاء حتى الهوائيّ المثّبت على سقف المرأب . لقد كان الأمر على هذه الدرجة من السهولة .

وكان قرض الجرذان وحده يُعكّر الصمت . وقد كان الأشقاء دجاني الثلاثة ينتظرون دون ان يتكلموا ، جالسين القرفصاء على مصطبة الأسمنت الرطبة ، وكلٌّ منهم تائه في خضم افكاره . وكانت ليلى تتساءل : هل أعيش حلماً أم كابوساً ؟

وكان وليد يراقب الصندوق الصغير ، بينما كان عقرب الثواني في ساعته يُسرع نحو الساعة ٢٢,١٥ . وبصوت منخفض يكاد لا يُسمع ، عدَّ الثواني الأخيرة . « ثلاثة ... اثنتان ... واحدة » ... وما كاد يقول « صفر » حتى سُمعت اشارة « مورس » صوتية ، بينما كان ينطفىء وميض شاشة المراقبة المُخضرّ ، ليحل محلّه فورا وميض آخر إستجابة للاشارة الواصلة من طرف العالم الآخر . وكان هذا الوميض نوراً أحمر مماثلاً لذلك الذي كان قد ظهر قبل ربع ساعة .

كانت ليلى تنظر ، وقد توقف تنفُّسها ، وانحنى وليد نحو الآلة ، وكان مُرتاحاً ومروّعاً في آن . أما كمال فوحده كان قد بقي هادئ الأعصاب . وانطفأ الوميض الأحمر وتوقدت الكلمات التالية : « مراقبة الراديو الاجمالية : موافق » واختفت تلك الكلمات بدورها لتحل محلها كلمة « تفريغ » ولمّا كانت جميع التجارب قد أجريت بنجاح ، فسيقول المرء ان الصندوق الصغير الرّمادي سيتولى بنفسه ادارة العمليات ، مستبعداً من الآن فصاعداً ، اللجوء المتغير لأيّ تدخّل انساني .

عندئذ وصل وليد المأخذ ذا الأربعة وخمسين ساعداً للكبْل الكهربائي الخارج من الصندوق الصغير ، بالمأخذ الأنثوي القابل الاغلاق ذاتياً والمركّز على جدار القنبلة . وفي المرة القادمة ، عندما تتّقد الشاشة بالوميض الأحمر نفسه ، فان تفريغاً كهربائياً ناجماً عن حاشدات الليتيوم سوف يتدفق عبر هذه السواعد لتفجير السلاح النووي الحراريّ .

كان وليد يتأمل الكتلة السوداء المدهشة . وكان يفكّر بآلاف الساعات التي قضاها في تصميمها ورسمها وجمعها . لقد كان أباها . وكانت له ، له وحده . ولم تكن للقذافي ولا لشقيقه أو أخته أو زملائه الفيزيائيين في مدينة العلوم في طرابلس . وإذا ما وصلت اليها شحنة كهربائية ، فسيكون هو ، وهو وحده ، المسؤول عن جميع الأهوال التي سوف تُحدثها . يا الله ! ايها الربّ ، لماذا أعطيتني مثل هذا السلطان ؟

ودمدم كمال قائلاً :

ـ ما بك ؟

فانتفض وليد كتلميذ داهمه استاذه وهو يحلم . وكان لا يزال يمسك ساعته بيده ، وتمتم قائلاً :

ـ ان النور الأحمر لم يبق مشتعلاً طيلة ثانيتين كاملتين ، هل أنت متأكّد بأنك وصلت الهوائي على السقف بطريقة صحيحة ؟

ـ بالطّبع .

ـ اعتقد انه على كل حال يجب التثبت من ذلك

وأضاء وليد مصباح الجيب : ـ سأصعد وإيّاك وسأضيء لك بينما تتفحّص انت الوصل .

واتجه الرجلان نحو السُلّم . وفجأة حمل وليد يديه الى بطنه وهو يئنّ من الألم وقال وهو يناول شقيقته المصباح :

ـ يا للقرحة الملعونة ! إصعدي بدلاً مني .

ولما هبط كمال وليلى من السقف ، تحققا أن أزمة وليد كانت قد انقضت . كان شقيقهما يبدو وقد هدأ فجأة ، وأعلن كمال :

ـ كل شيء ، فوق ، على ما يرام .

وتمكن وليد عندئذ من الضغط على ملمس « النهاية » من ملامس الصندوق الصغير . وكان الجهاز قد أُقفل حالياً . واقترح كمال قائلاً :

ـ وليد ! من الأفضل ان تقضي الليل هنا الى جانبي ، سيكون ذلك اكثر فطنة .

ـ لا ، لا ! أشعر أنني الآن بخير .

ـ وأنت ، يا ليلى ؟

ـ لا تقلَق عليَّ . فلن يخطر ببال أحد أن يبحث عني حيث سأذهب .

****

توجّه الرئيس ومعاونوه نحو سيارة « الفورد » التي كانت ستنقلهم الى وزارة الحربية ، وسلكوا النفق الذي يربط البيت الأبيض بوزارة المالية ، بغية إحاطة تنقُّلهم بالسرِّيَّة التامة . وكانت حماية الرئيس قد اقتصرت قصداً على مأمورين فقط ، وهذا حَدَث نادر جداً .

كانت الساعة قد بلغت الثالثة والعشرين والنصف ، عندما انحرفت السيارتان بمحاذاة الـ « بوتوماك » ودخلت سور وزارة الحربية ، ومرَّ الزائرون أمام سقيفة لجنة رؤساء أركان الحرب وقدّموا انفسهم أمام باب عاديٍّ ابيض يحمل الرقم « ٢ ب٨٩٠ » . وقد تفحّص هويتهم خفيران مسلّحان وبطارية آلات تصوير آليّة ثم انفتح الباب . فدلف رئيس الدولة ومعاونوه الى المصعد الذي غاص بهم خمسين متراً تحت الأرض .

إن مركز القيادة العسكرية القومية هو احد مركزي القيادة للعمليّات لرئيس الولايات المتحدة في حالة التأهُّب العظمى . وكان حقاً مغارة علي بابا للعصر الألكتروني ويتضمن مجموعة في منتهى السرِّيَّة من أجهزة الاتصالات التي تُتيح للرئيس ان يرى العالم بأجمعه ويستمع اليه وهو جالس في مقعده ، وأن يتتبّع مباشرة أيّ حدث بواسطة شبكة الأقمار الصناعية « ك هـ ـ ١١ » ، وان يصدر أوامره الى جميع مراجع السلطة الأميركية المنتشرة في زوايا العالم الأربع . والصور التي تنقلها الأقمار الصناعية على شاشات السينما الست التي تغطي القاعة ، هي من الوضوح والدقّة بحيث ان الرئيس يستطيع ان يميّز بقرة من « جرساي » عن بقرة من « غرنساي » في مرج من الـ « سوسكس » ، وأن يحدد لون أية سيارة تجتاز ابواب « الكرملين » وأن يتتبع مسار صاروخ يقذفه ربّان طائرة « ف ١٥ » تحلّق فوق البوسفور . وبوسعه ان يستمع ، بواسطة أجهزة التنصُّت العائدة للوكالة المركزية للاستخبارات ، الى الحوار بين ربّان روسي لـ « ميغ ٢٣ » ومراقبه الجوّي في « سيبستبول » ، ووقع أقدام القادة الشيوعيين في أروقة وزاراتهم في موسكو او برلين الشرقية أو براغ ، ومحادثاتهم الأكثر صميمية ورنين كؤوسهم التي يجرعون فيها الفودكا . وسيتمكّن الرئيس ، اخيراً ، وهو في مقعده ، من ان يكون مشاهداً وفاعلاً في المأساة النهائية . وسوف يستطيع ان يأمر باطلاق صاروخ « مينوتمان » من سيلة (×) مطمورة في داكوتا الجنوبية وأن يتأمل ، فيما بعد كأي مشاهد عادي في صالة سينما ، مشهد الهول النووي الحراري ، وهو يجتاح سكان أية مدينة سوفياتية وشوارعها ومنازلها .

وعند طرف طاولة المؤتمر كانت ثمة ثلاثة مقاريء جلس وراءها ضباط إشارات ، ووراء الرابع ـ وكان اكثر إرتفاعاً بقليل ـ كان يجلس قائد المركز .وكان عميداً بحرياً يرتدي ثوباً أبيض ناصعاً لا تشوبه شائبة ، كما لو كان مُتوجِّهاً الى حفلة راقصة .

وانطفأت أنوار القاعة وأرسل الأميرال على الشاشات الستّ سلسلة من العروض تبيِّن تشكُّل القوات

(×) سيلة : حفرة تحفظ فيها الغلال (المترجم) .

السوفيتية ، كما كانت مُنتشِرة في تلك اللحظة بالذات : الغواصات النووية القائمة بمهمة ، وكان كل منها ممثّلاً بوميض نور أحمر على خارطة نصفي الكرة الأرضية ، ومواقع الصواريخ عابرة القارات المصوَّرة بدقّة متناهية حتى أنه امكن مشاهدة الخفراء القائمين بدورياتهم حول نطاقها ، ومرائب المصفحات ، وقاذفات القنابل الذرية من طراز « باكسفير » في نخاريبها على قواعد المانيا الشرقية والبحر الأسود ، وبطاريات الصواريخ النووية من طراز سام بمحاذاة الـ « اودر » .

واختفت الصور واشتعلت الأنوار من جديد وأشار الأميرال قائلاً :

ـ لا توجد ، يا حضرة الرئيس ، أية إشارة تسمح بالاستنتاج بأن القوات المسلحة السوفيتية هي في حالة تأهُّب .

وانحنى فوق مِقرئه لتحريك سلسلة جديدة من المقابض . وانطفأت الأنوار ثانية . وظهرت على احدى الشاشات رقعة محمرَّة من الصحراء إبّان شروق الشمس . وفي الوسط كان يرتفع شيء كالبرج المعدني ، يكاد لا يُرى .

ـ هذا هو الموقع المشار اليه في الرسالة التي أُودعت في محطة واشنطن .

وأظهرت شاشة ثانية ، مشهداً مكبَّراً للبرج المعدني ، وكان يشبه الهيكل المعدني الذي يقام فوق بئر بترول . وعند القمة ، كان يمكن مشاهدة حدود وعاء كبير أسطواني الشكل كان يُذكّر بذلك النوع من برميل البترول المشار اليه على الرسم الملحق باسطوانة العقيد القذافي .

وأوضح الأميرال أن أي قمر صناعي لم يكن فوق ليبيا ساعة وصول الغلاف الى البيت الأبيض . وبما أن مدار الأقمار الصناعية كان يجُدَّد مرة كل شهر من قبل مجلس الأمن القومي ، فقد كانت تُستعمل كلها تقريباً لمراقبة الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية . ومنذ الاستنفار الأول كان مدار الأقمار الصناعية الثلاثة « ك هـ ـ ١١ » قد بُدّل ووجِّه فوق ليبيا . وفي تلك اللحظة ظهرت على شاشة أخرى صور قمر صناعي ثانٍ . وكانت تلك الصور تبيِّن مجموعة من المباني حول طرابلس ، تتألف منها ثكنة « باب عزيزة » التي لم يتمكن القائم بالأعمال الأميركي من الدخول اليها قبل بضع ساعات . وأمام بوابة المدخل ، كان الرئيس ومعاونوه يمُيِّزون خيالات كانت تروح وتجيء ، وقد كانت دون ريب صُوَر الخفراء الذين كانوا قد إعترضوا الديبلوماسي ، وبدا عندئذ مجموع المخيَّم ، ثم أخذت الصورة تتضخم حتى انها لم تعد تُبيِّن سوى سلسلة من المباني الصغيرة المُنعزِلة . وحرَّك الأميرال دائرة بيضاء على تشابك السقوف وأوقفها على مستطيل .

ـ هذا مقر العقيد القذافي . إننا لم نتبيَّن داخله أيّ نشاط خاص ، حتى ولا علامة تشير الى أنه مسكون حالياً .

واستعلم الرئيس قائلاً :

ـ ما الذي يسمح لك بالاعتقاد ان الموقع المعنيّ هو حقاً مقر العقيد ؟

غيَّر الأميرال قليلاً مكان الصورة . فظهر عندئذ أمام المنزل فناء داخلي ، كانت قد زُرِعت في وسطه خيمة بدويّ راحِل . والى جانبها كان يبرز خيال بعير وحيد السَّنام .

ـ حسب معلوماتنا ، تقوم هذه الخيمة مقام صالون العقيد الخاص ، ويزوِّده الحيوان المذكور بالحليب الذي يستسيغه الى حد بعيد .

وعندئذ برزت بوضوح على شاشة ثالثة صورة الشاطىء الليبي . وكان نور خافت أحمر يومض وسط خليج « بدره » بين طرابلس وبنغازي . وأوضح الأميرال بأن هذا النور كان يُشير الى المُدمِّرة الأميركية « ألن » ، وهي سفينة كبيرة للمراقبة الألكترونية شبيهة بتلك التي نسفها الاسرائيليون عام ١٩٦٧ في عرض بحر غزة لانها كانت تتجسس على مخابراتهم بالراديو . وكانت مُزوَّدة بأجهزة غاية في التعقيد بوسعها

التقاط جميع اذاعات الراديو الليبية وفك رموزها ومعالجتها ، وكذلك الاستماع الى محادثات أي مشترك مرتبط بهاتف الشبكة الهرتزية للمواصلات الليبية المسافية . وكانت وزارة الحربية قد نقلت قبلاً الى المدمِّرة نماذج عن صوت القذافي وخمسة من المسؤولين الرئيسيين الليبيين . وستتولى ناظمة آلية مقارنة آلاف الاتصالات الملتقطة بهذه النماذج وسوف تُعزَل فوراً جميع نداءات القياديين الليبيين .

ثم اختفى شاطىء البحر المتوسط ليحلَّ محلَّه منظر عام للأراضي الليبية . وعلى القسم الجنوبي الغربي من الصورة، كان يتراكض الخطَّان الأحمران المتوازيان للممر الجوي الذي اقترحه القذافي في رسالته الثانية . وكان نور أحمر يتنقل نحو الجنوب ضمن محور هذا الممر . وشرح الأميرال قائلاً :

ـ لقد طلبنا من احدى طائرات « بلاك بارد » في موقع « أضنه » إن تزوّدنا بمعلومات اضافية .

وطائرات « بلاك بارد س/ ـ ٧١ » هي نسخة حديثة لطائرة التجسس القديمة « يوـ٢ » . وهي تطير على علو ثلاثين الف متر وبسرعة تتجاوز ثلاثة أضعاف سرعة الصوت ، وهي مُزوَّدة بآلات حسَّاسة للغاية لكشف الاشعاعات والحرارة ، مُخصَّصة لمراقبة التجارب النووية الفرنسية والصينية ، وكذلك بآلات تصوير متعدّدة الأحجام تستطيع ان تعمد الى التقطيع الفوتوغرافي الكامل لأرض ما .

ركَّز الرئيس انتباهه على الشاشتين اللتين تُظهران موقع التجربة المُفترض . وحول الهيكل المعدني ، كان المرء يشاهد بوضوح ، في تلك اللحظة ، آثار عجلات على الرمل .

ـ ما رأيك في ذلك ، يا غرين ؟

فأوضح أمين الدفاع قائلاً :

ـ ان هذا يُشبه موقع « ترينتي » القديم ، الأمر سهل وفعَّال .

و « ترينتي » هو الاسم المرموز للتجربة الذرية الأولى التي أجريت في صحراء « المكسيك الجديدة » في تموز سنة ١٩٤٥ .

كان أمين الدفاع يتفحّص الشاشة ، مقطّب الحاجبين كما لو كان استاذاً يبحث عن خطأ في تصميم تلميذه . وقال قلِقاً :

ـ يجب أن نشاهد في مكان ما أيّ مركز للقيادة .

فتدخَّل الأميرال وقال :

ـ لقد مشَّطنا كل القطاع ، ولكننا لم نجد شيئاً .

فانفجر « جيمس ميلز » وقال :

ـ من الطبيعي ان لا تعثروا على شيء ، لعدم وجود مثل هذا الشيء ، إني اكرر لكم بأن هذا كله ليس إلاّ خدعة كبرى !

فتمتم الرئيس بشيء من الانزعاج :

ـ فليسمع الله منك ، ولكنك اذا اخطأت فان العالم بأجمعه يوشك ان يعلم ذلك معنا .

واعترض « غرين » قائلاً :

ـ ليس بالضرورة . فهذه الصحراء تقع حقاً عند طرف العالم . وأوّل تجمُّع سكني يجب ان يكون على بعد عدة مئات من الكيلو مترات . . .

وقاطعه الأميرال موضحاً :

ـ على بعد ثلاثمئة وأربعة عشر كيلومترا بالضبط . وهذا التجمّع هو قرية « سيدي ولفي »

وهزَّ الرئيس رأسه وقال :

ـ نأمل ان لا يكون للانفجار في حال حدوثه شهود عديدون ، ما خلا بعض الرحَّل . ولكن الاسقاطات الاشعاعية ؟

وظهرت عندئذ على احدى الشاشات خريطة افريقيا الشمالية الشرقية وشبه الجزيرة العربية . وبالاضافة الى ذلك ، وبموجب طباعة فوقية(×) بدا قوس بشكل مقانق منطلقا جنوبي ليبيا وهو يُلامس صحراء التشاد وينحرف نحو الشرق ، بإتجاه السودان وطرف العربية السعودية . وأوضح الأميرال قائلاً :

ـ هذا هو محور الاسقاطات الاشعاعية المُحتمل حسب الرياح السائدة التي تهُبُّ هذا الصباح في العُلُوّ فوق الموقع .

وشرع امين الدفاع في الابتسام وقال :

ـ ممتاز ! إنه لا توجد أجهزة لقياس الاشعاعات في ذلك القطاع . وستسجل آلات تسجيل الزلازل في أوروبا وفي الشرق الأدنى هزَّة بقوة اربع او خمس درجات حسب مقياس « ريتشر » . وستكون الهزَّة عنيفة ولكنها لن تستنفر العالم .

وكان الوقت منتصف الليل الا اربع دقائق . ولم يبقَ إلا الانتظار . وكانت أرقام الثواني المضيئة تطقطق فوق الساعات الدقَّاقة التي في أقصى القاعة . وعاد نظر الرئيس الى صورة مقر القذافي المحاط بدائرة بيضاء مع فنائه وخيمته المختصة بالرحَّال ونخيله وجمله وحيد السَّنام . وكان يفكّر : هل يمكن لرجل يعيش في بيت بهذه البساطة ، رجل عميق الايمان ورب عائلة ، أن يواجه مثل هذه الجريمة النكراء ؟

وهل يمكن للكراهية وشهوة السلطان والرغبة في الانتقام للمصائب التي لم يعانِ منها لا هو ولا شعبه ، ان تدفعَه للقيام بمثل هذا العمل غير المسؤول ؟ واذا ما كان قد وضع حقاً هذه القنبلة في نيويورك ، فكيف يمكن التناقش مع امثال هذا المتعصِّب ؟

الساعة ٢٣/٥٩ . وكانت رقّاصات الساعات ، بركضها المحتوم ، تُوقِّع الخرير المخنوق لأجهزة التكييف . وما عدا ذلك لم يكن أي صوت آخر ليعكِّر ذلك الصمت المعذِّب . وكان العسكريون أنفسهم يحبسون أنفاسهم وراء مقارئهم على الرغم من تعوُّدهم على الأزمات . ولم يشاهد أحدُ الاصفار الأربعة تصطفُّ عند منتصف الليل على موانىء الساعات . وكانت جميع الأنظار مشدودة نحو البرج المعدنيّ المزروع في رمل الصحراء ، كأنه بقايا مُتحجرة لغابة ابتلعتها الأرض .

خمس ثوانٍ ، عشر ثوانٍ ، لا شيء . منتصف الليل وثلاثون ثانية : دائماً ، لا شيء. وجاء أول صرير لأحد المقاعد يحُدِث بعض الانفراج في الجو ، منتصف الليل وخمس واربعون ثانية : كان البرج المعدني دائماً هناك وكأنه المشعل الجافِل للأمل المُتجدِّد .

منتصف الليل ودقيقة . وسُمع سعال خفيف وتنهُّدات وأصوات أقدام . وكان نوع من العزاء المادي يُنعِش الحضور رويداً رويداً . وقد أعربت لهجة « جايمس ميلز » الفاترة ، مرة أخرى ، عما كان الكثيرون يفكرّون به . واضحى ابن جورجيا قرمزيّاً وتهلّل قائلاً :

ـ لقد كنت قد قلت لكم ذلك . إن هذا الليبي ابن الزنا ليس الا خداعاً جديراً بالرثاء . وكل ما يستحقه هو . . .

وحسم رئيس الوكالة المركزية للاستخبارات قائلاً :

ـ إنه يستحق درساً قاسياً . إنني أقترح يا حضرة الرئيس أن ندرس فوراً صيغ عمل عسكري ضد ليبيا .

وقاطع « ميدلبورغر » مُساعد ناظر الخارجية ، قائلاً :

ـ على رسلكم ! فليس لدينا أيُّ تأكيد على أن القذافي هو فعلاً وراء كل ذلك .

(×) طباعة صورتين او اكثر على سطح حسّاس (المترجم) .

فانفجر « ميلز » ، وقد بلغ به الغضب أقصاه قائلاً :
ـ لن ندع هذا الكلب يتخلص من ورطته لأنه غير قادر على تفجير . . .

ولم يُكمِل جملته . فقد تدفّق نورٌ أبيض من شاشات القاعة « ٢ب ٨٩٠ ». وكان اللمعان شديداً والبريق مُعمياً لدرجة ان كل واحد اضطُر لحماية عينيه بيديه . وعلى بعد مئة وخمسين كيلو متراً ، كانت آلات التصوير في القمر الصناعي تمتصُّ الكرة النارية التي كانت تهدر فوق بحر الرمال الليبي وتقذف بها على شاشات « البنتاغون » ، قطراً من الغاز المُذاب يحوّم في اعصارٍ حلزوني من النور والنار المتعدّد الألوان .

ومرّت عندئذ أمام عينيْ الرئيس المُرَوَّعتين الرؤيا ـ الكابوس لفرسان القديس يوحنا ، زارعي الموت والدّمار . وكان على رأسهم هذه المرة « فارس خامس » معمر القذافي ، مسرعاً وقد انبجس من أحشاء الجحيم ، ليصعق العالم .

وتأمل الرئيس وصحبه ، وقد ضربهم الذهول خلال ثوان طويلة ، المشهد الذي لا يُصدَّق . وأوّل صوت عكّر الصمت التام كان يصدر عن الطائرة « بلاك بارد س/ـ٧١ » التي كانت تطير على علو اثنين وثلاثين الف متر فوق موقع الانفجار . وكان الطّيار غير عابئ بسحابة الموت التي كانت تنتشر تحت أجنحته . وكان ينقل بيانات آلات طائرته وعدد أشعة « غاما » وجزيئات « بتّا » التي كانت تضرب كاشفاته وقوة الكُهَيْربات المحايدة والمفعول الحراري للأشعة السينيَّة . وهذه المعلومات لم تعد لها أية أهمية بالنسبة لمشاهدي القاعة « ٢ب ٨٩٠ » . فالأهمية انحصرت برؤية الهول وحدها التي كانت بادية على الشاشة : تلك الكرة النارية التي كانت تصعد من الرمال .

كان الرئيس شديد الشحوب . وقد أمسكت اصابعه بكُمّ وزير الدفاع . وتعجَّب قائلا :
ـ يا الهي ! كيف فعل ليصنع هذه القنبلة ؟

وبذل جُهداً لينهض ، وقد لاحظ الكل وجهه الشاحب ، وتكلّم بصوت نقيّ :
ـ أحب أن ينضمَّ اليّ كل اولئك الذين يشعرون بالحاجة لذلك لنضرع الى الله كي يمدّنا بعونه وأنواره في هذه المحنة التي تنقضّ علينا .
وما كاد الرئيس يتلفّظ بهذه الكلمة حتى خرَّ راكعاً وشرع في الصلاة .

- القسم الثاني -
« سنمكّن أخيراً العدل من الانتصار »

إن الجواب على السؤال المقلق الذي كان رئيس الولايات المتحدة قد طرحه على وزيره ، كان عبارة عن رواية مغامرات كانت قد ابتدأت ذات صباح من كانون الثاني . قبل ثلاث سنوات الا قليلاً ، على احد الجسور الضيقة المستقبلية في مطار « شارل ده غول » قرب باريس . في ذلك اليوم ، كان كمال دجاني ، راكب « الديونيسوس » الخفيّ ، ينزل من الرحلة ٧٨٣ لشركة الطيران « ايرفرانس » قادماً من « فيينا » . وكان لونه الشرقي الكامد يحتمل ان يكون ثمرة اقامة طويلة على مواطىء التزلج في « التيرول » .

وقدّم لرجل الشرطة المختص بالمراقبة ، جواز سفر نمساوياً باسم المدعو « فره‌دي مولر » من « لينز » وكيل آلات زراعية . واجتاز ممّر الوصول بهدوء قاصداً أقرب المغاسل ، وتردّد لحظة قبل الدخول الى الحجرة الأخيرة ثم أقفل الباب واضعاً حقيبته على الأرض . وفي اللحظة نفسها تقريباً كانت يدٌ تجتذب الحقيبة الى الحجرة المجاورة وتعطيه ثانية حقيبة مماثلة ، وفتحها كمال وتفحّص مضمونها الذي كان عبارة عن مسدس آلي من طراز « والترب ٣٨ » وثلاثة أمشاط وقنبلتين يدويتين متشظّيتين صنع الولايات المتحدة ومدية ذات فرضة للتوقيف وخارطة باريس ، وأخيراً تلاعب آخر في اوراق الهويّة يُعطيه الجنسية الجزائرية وهوية طالب في جامعة باريس ، الدائرة العاشرة . وكانت الحقيبة تحتوي ايضاً على اوراق نقدية بقيمة الفي فرنك فرنسي وقطع نقدية مختلفة .

وبعد أربعين دقيقة ، كان ينزل من سيارة أجرة امام مبنى يقع في شارع « اسّا » في الدائرة السادسة وكان يقرع باب شقة في الطبقة الأولى . وتمتم بالعربية قائلاً :

ـ هذا أنا كمال .

وانفتح الباب وظهرت امرأة شابة سمراء ، وخنقت ليلى صرخة فرح مُلقيةً نفسها بين ذراعي شقيقها . كانت ليلى تقطن باريس منذ ثلاث سنوات وتعمل كمضيفة جوّية لدى شركة طيران الشرق الأوسط ـ الخطوط الجوية اللبنانية.وكانت أداة اتصال بين عملاء المقاومة الفلسطينية وأوربّا وعلبة بريد لهم . قالت مُتعجّبة :

ـ سنتان ، لماذا هذا الغياب الطويل ؟

اجاب :

ـ لم يكن باستطاعتي ان افعل غير ذلك .

وأدخلته . وقبل ان تغلق الباب القت نظرة على السلم للتأكد من أن شقيقها لم يتبعه أحد ، ثم أقفلته اقفالاً مزدوجاً .

وقادته الى البهو وهي تسأله :

ـ أرني ماذا فعلوا بك .

ونزع كمال قميصه الرياضي وصدريته الصوفية . فبدت ندبة كانت تمتد من عنقه حتى كتفه وتشكّل أخدوداً بشعاً من اللحم المرضوض يُشبه ضربة مخلب نمْر .

كانت على علم بمجرى الحياة الخطر الذي اختطه لنفسه ثاني أشقائها ، غداة حرب الأيام الستة ،

عند ما زحف تحت وابل من طلقات الرشاشات من معسكرٍ للفدائيين الفلسطينيين التابعين لجبهة الرفض ، فوق هضبة مقفرة تُـطِل على دمشق .

وقالت بتأثر :

- بل لقد قيل لي انك قضيت نحبك .

- هذا مااعتقده الرفاق عندما تركوني فوق ارض المعركة .

كان كمال دجاني قد قام بست هجمات فدائية داخل اسرائيل،وهاجم بالصواريخ المستوطنات في الجليل،لغم الطرق ونصب الكمائن . وفي المرة السابعة ، واثناء محاولة غير مُثمرة لقصف مصافي البترول في حيفا بصواريخ الكاتيوشا ، كانت دورية اسرائيلية قد اعترضت سبيل جماعته .

وكان رمي محكمَ بالقنابل اليدوية قد أصابه بجرح خطير وفرَّق رجاله .

تنهّدت ليلى قائلة :

- لقد وافاك الحظ ، اذ لم يُـجهز اليهود عليك عندما وجدوك .

- لا دخل للحظ في هذا الأمر . فانهم لم يُـجهـزوا عليَّ ، لأنه لا يمكن استجواب فدائي ميت .

وبعد ثلاثة أشهر ، وبعد أن نجح في الانسحاب من بين الجرّاحين اليهود الذين كانوا قد انقـذوا حياته ، هرب تحت حمولة برتقال من يافا باتجاه عمان ، وعاد والتحق بصفوف الفدائيين .

سأل كمال :

- هل بوسعي الحصول على قليل من الشاي ؟

تعذَّر على ليلى الكلام من شدة التأثر ، فانقلبت نحو المضجع ـ المطبخ وأشعلت الغاز .

وأعلن قائلا :

- لقد جئت اراك ، لأنني بحاجة الى مساعدتك .

واستدارت المرأة الشابة فجأة ، وعود الثقاب لا يزال مشتعلاً عند طرف أصابعهـا . وكانـت قد استعادت صوتها ، فقالت باعتزاز :

- لقد كنت دوماً في خدمة القضية .

- أعرف ذلك ولكننا هذه المرة بصددمهمة أساسية . ومن المحتمل ان تكون صعبة (وتوقف كمال). لقد جئت اليك لأطلب منك اقناع وليد بأن يساعدنا لتحقيق عملية حاسمة .

أجابت متعجِّبة :

- وليد ؟ ولماذا اخترتني ؟ لماذا لا تذهب اليه وتطلب منه ذلك بنفسك ؟ إنه أخوك ، كما هو أخي ، أليس كذلك ؟

- تعلمين جيداً انني ووليد لا نستطيع أن نتبادل الكلام،ليس بوسعنا إلا أن نتشاجر ، والحال أن ما يهـمني اليوم هو ان احصل على مساعدته.لا أن يكون الحق بجانبي في نقاش ما .

ونهض كمال واتـجه نحو النافذة . ولاحظت ليلى ، وهي تتبعه بنظرها ، إن في مشيته شيئـا من رشاقة الهرّ . فتساءلت : أهكذا اصبح أخي بعد كل هذه السنين : حيوان غابة ؟

بعد هربه من اسرائيل ، كان قد اختفى مدة ستة أشهر ، ثم بلغها ، ذات يوم ، أنه كان في طرابلس حيث كان يعمل مع نواة صغيرة من الفلسطينيين جمعهم الارهابي الفنزويلي كارلوس . وبعد ذلك لم تعد تعرف عنه شيئاً .

ـ سيكون وليد غير قادر على فهم ما أعمل . . (وكان كمال ينظر من النافذة ، حزيناً) بالنسبة لي ، فأنت تعلمين جيداً ان الغاية تبرر الواسطة . وليس الأمر كذلك بالنسبة له . الا في مختبراته اللعينة ، حيث كل شيء ليس الا تجريداً . (وأضاف مشيراً باصبعه الى الناس والشارع) : ولكن ليس ابداً ، حيث يُحسَب للأشياء حسابها . سوف يعتبرني قاتلاً . وأنا سأعتبره جباناً . وبعد خمس دقائق لن نجد ما يقوله أحدنا للآخر .

ولاحظت ليلى قائلة :

ـ لم يكن لدى أحدكما قط ما يقوله للآخر . وذلك قبل ان يسلك طريق المختبرات بزمن طويل وقبل ان تصبح انت . . .

وتوقفت باحثة عن كلمة . فقدمها لها كمال :

ـ . . . إرهابياً . . أو وطنياً . والفرق بين الكلمتين غير واضح في بعض الأحيان .

وكانت عيناه قد اكفهرّتا. وكانتا شديدتي الزرقة حتى أن افراد العائلة كانوا يتمازحون دوماً بأنهما إرث نتج عن علاقات احد الفرسان الصليبيين الطائشة باحدى أسلاف عائلة دجاني . وذكر شقيقته قائلاً :
ـ كان المفروض ان تحضّري الشاي .

ولم يكن كمال يتمتع بذرابة اللسان التي يتميَّز بها العرب عادة ، فعاد فوراً الى نقطة الانطلاق وقال :
ـ ينبغي أن يقنعه أحد ما بمساعدتنا . وأنت مؤهلة لذلك . أما أنا فلا .

وضعت ليلى المِغلاة على الغاز وعادت تجلس أمامه .
ـ انت تعرف أنه قد تغيَّر ، لقد أصبح فرنسياً أكثر من الفرنسيين . فلسطين . . . المنفى . . . أهلنا . . . كل ذلك يبدو أنه انحلَّ في ذاكرته . كما لو أنه لم يعش سابقاً حياته تلك . إنه مثل جميع الناس . عمله ، زوجته ، أولاده ، سيارته ، منزله . . . رجل سعيد أفهمت ؟
وأجاب كمال بصوت هادىء ، يكاد يكون صافياً :
ـ نحن لا نطلب منه ان يتخلَّ عن كل ذلك . ولكنه ليس ككل الناس ، على كل حال ، بالنسبة الينا .

ونظرت ليلى الى شقيقها بقلق . وكانت هذه الكلمات تؤكد ما كانت تظن منذ اللحظة التي كان قد تكلم فيها عن شقيقهما البكر .
ـ انك تهتم بعمله ؟

فهزّ كمال رأسه موافقاً وقال :

ـ إنه يستطيع الوصول الى بعض الأشياء ذات الأهمية الأولى بالنسبة لنا . ينبغي ان يعطينا بعض المعلومات . وليس من أحد سواه نثق به ويستطيع ذلك .

وكانت المِغلاة تصفر . فنهضت ليلى . وتوجّهت ببطء نحو المطبخ ، مستغرقة بأفكارها . وكانت تفكر : الأمر هكذا اذن . بعد كل هذه السنوات وكل هذه المناقشات وكل هذه الوعود ، سوف ينتقل لعرب حقاً الى العمل .

ورتّبت الفناجين على الطاولة الى جانب مقعد شقيقها . وكان شعاع من شمس الشتاء يُلمّع شعرها الأسود الذي عقدته جديلة فوق رقبتها . وغمرتها ضخامة المهمّة التي كانت تنتظرها ، فلم تستطع كبح قشعريرة شعرت بها .

ـ يا الهي ! كيف سأتمكن من إقناع وليد ؟

***

بعد أن وجّهت برقية الى شقيقها البكر ، كانت ليلى دجاني ، صباح اليوم التالي ، تنزل في مطار مرسيليا ـ مارينيان . واندفعت بعد أن شاهدت طيف شقيقها المعتاد يشقّ الجمهور . وكان وليد يحتفظ بمشيته القديمة المترنحة . وخلال الأشهر الستة التي لم تَره اثناءَها ، كان وزنه ، على ما يبدو ، قد زاد عدة كيلو غرامات . وصرخت وهي تعانقه :

ـ بعد قليل ، سوف تشبه فاروق !

أجاب وهو يقودها نحو سيارته « رينو ١٦ » التي ركنها في الموقف المخصص للمطار مقابل ردهة الوصول :

ـ سيكون هذا ممكناً حقاً .

وكان يتمتّع بهذا الامتياز بسبب الفراشة الصفراء والخضراء المُلصقة في الزاوية اليسرى من زجاج سيارته الأمامي . وكان الأمر يتعلق باجازة المرور التي تسمح بالدخول الى مركز الدروس النووية في « كداراش » ، أحد المراكز الرئيسية للأعمال الذرية الفرنسية . والواقع أن وليد دجاني كان فيزيائياً ذرياً . وكان اختصاصه يتناول « البلوتونيوم » أحد العناصر الأكثر نفاسة والأكثر خطراً على الأرض . وبعد أن حصل على الدكتوراه في الهندسة النووية من جامعة « بركلاي » في « كاليفورنيا » ، كان قد سُمّي كأحد الفيزيائيين الشباب الأكثر تألقاً بين جيله ، وكانت مخابرة هاتفية بمناسبة معرض باريس في تشرين الثاني ١٩٧٣ قد حثّت مفوضية الطاقة الذرية الفرنسية على ان تُسنَد اليه وظائف هامة في برنامج تطوير آلات « سوبر ـ فنيكس » الفائقة المستعملة لتجديد حرارة الأفران الاسترجاعية . وكان الفيزيائي الفلسطيني قد قبل هذا العرض . ومنذ ذلك الحين كان يعمل في « كداراش » .

سلك وليد دجاني طريق « اكس ان بروفنس » السيّار وتحوّل بعد مسيرة بضعة كيلومترات الى طريق « مايرارغ » . وبعد فرحة اللقاء ساد صمت مرتبك بين الأخ والأخت .

وانتهى وليد الى القول :

ـ كانت برقيتك تقول انك كنت تودّين محادثتي حول شيء عاجل .

كانت ليلى تفكّر بأن السيارة ، اثناء سيرها ، ليست المكان الصالح لمحادثة رصينة . بل كان ينبغي ان تتحدث اليه ، وهيَ تحدّق في عينيه وجهاً لوجه . وانتشت بينما كانا يجتازان احدى القرى وقالت :

ـ ما أجمل هذا المكان ! ما رأيك لو توقفنا لنشرب شيئاً ما ؟

ركن وليد السيارة وجلسا حول طاولة على سطح احد المقاهي . وطلب وليد مشروباً معطّراً

بالأنيسون . وتردَّدت ليلى ، ثم قالت ، فيما كانت تبحث في حقيبتها عن علبة الـ « ونستون » :
- قدح من الليمونية(×) .
وأشعلت لفافة . وسأل وليد فيما كان يُدني كأسه من شفتيه :
- ماذا ؟ هل تريدين ان تحدثيني بشأن كمال ؟ أنت تعلمين مع ذلك اننا ، هو وأنا - لم يعد لنا . . .
وقاطعته قائلة :
- لم آت لأحدثك عن كمال ، بل عنك أنت يا وليد .
- عني ؟
- عنك . الاخوان يحتاجون الى مساعدتك .
وشعر وليد فجأة بتشنج في معدته ، وصمت لحظة قبل ان يجيب :
- الاخوان ؟ (وكنس الهواء بيده) ليلى ، إن كل ذلك أصبح من الماضي . (كان يتكلم برقّة وبغير احتداد) ، انتِ تعلمين أني صنعت حياتي هنا . لم يكن ذلك سهلاً ، ولكن لديَّ اليوم عائلة وامرأة وأولاد وأصدقاء ، وبكلمة بلد . وأقوم بعمل مثير للاهتمام . ولن أقدِمَ على التضحية بكل ذلك ، لا من أجل الاخوان ولا من أجل أحد .

كانت ليلى تشرب منقوعها ببطء . . وكانت تنظر الى الكهول الذين كانوا يتدفأون بأشعة الشمس على مقاعد الساحة الخشبية .

- مهما تكن جهودك لتخلق لنفسك حياة جديدة وعائلة جديدة ، فلن تستطيع ابداً ، يا وليد ، ان تتخلَّص من ماضيك . فبلدك الحقيقي هو فلسطين ، وبيتك الحقيقي القدس .

لم يجب وليد . وظلَّ الشقيق والشقيقة جالسين جنباً الى جنب خلال فترة ، يجمعهما في صمت رباط الآلام التي تقاسماها في الماضي . ولم يكن كلاهما قد عرف هَوْل معسكرات اللاجئين . ولكن محنة المنفى لم تكن أقل قسوة ، وكانا يجسِّدان جانباً من المأساة الفلسطينية ، التي قلَّما تُتاح الفرصة لمن تحسَّسَ بمصائب المعسكرات فقط ، ان يستشفَّها : مأساة ذلك البلد ، فلسطين ، الذي كان قد أنجب سابقاً نخبة العالم العربي ، تلك النخبة التي تضمُّ البحَّاثين والأطباء والعلماء والتُّجار . وكان آل الدجاني الذين تمتدُّ جذورهم في تلال القدس منذ خمسة وأربعين جيلاً ، قد قدَّموا الى المدينة المقدَّسة سلسلة مُتَّصلة من الرؤساء والمفكرين . غير انهم طُرِدوا من ديارهم مرتين سنة ١٩٤٧ ثم سنة ١٩٦٨ . وفي عام ١٩٦٨ كانت الجرَّافات اليهودية قد حوّلت منزل اجدادهم الى كومة من الأنقاض حلَّ محلها مبنى سكنه الاسرائيليون .

أخذ وليد يد شقيقته وداعبها برفق قائلاً :
- انتِ تعرفين ان قلبي ، مثل قلبك ، يقطر دائما بالدم ، اذا ما فكَّرت ، بكل ما حدث لنا . ولكن اذا كانت فلسطين هي القضية الوحيدة التي تحسبان حسابها حالياً، أنت وكمال ، فإن الأمر لم يعد كذلك بالنسبة لي .
ولزمتْ ليلى الصمت متأملة بما كان شقيقها قد قاله لتوِّه . وسألت بعد ان شربت جرعة جديدة من الليمونية :

(×) شراب قشر الليمون (المترجم)

ـ وليد ! هل تذكر آخر يوم اجتمعنا فيه جميعاً في بيروت ؟

وهزّ وليد رأسه . . .

ـ لقد قلت ذلك المساء شيئاً لم أنسه قط . وكان كمال يعتزم السفر الى دمشق ليلتحق بالاخوان ويقاتل وينتقم لشعبنا . وكان يريد ان تذهب معه ولكنك رفضت ، وشرحت قائلاً : « اذا كان الاسرائيليون أقوياء الى هذه الدرجة ، فذلك لأنهم يدركون اهمية العلم » ، وكنت قد قُبلت لتوّك في مباراة الدخول الى جامعة كاليفورنيا . وقد قلت لنا إن « باركلاي » ستكون دمشق بالنسبة لك،وان الحصول على أحسن ثقافة علمية سيكون وسيلتك ، أنت ، في مساعدة شعبنا وقضيتنا .

ـ أذكر ذلك ، وبعد ؟

أشارت ليلى الى الساحة والى لاعبي الكرات والنساء المُتَّشِحات بالسواد اللواتي كُنَّ يثرثرن وقد امسكن كيس الزاد بأيديهن .

ـ أين القضية وأين شعبك في كل ذلك ؟

أجاب وليد بحدّة :

ـ هنا ، في قلبي ـ وضرب وليد صدره ـ حيث كانا دوماً .

رافعت بحنان قائلة :

ـ أرجوك ، لا تغضب . كنت أودّ فقط ان أقول بأنك كنت على حق ذلك المساء . فعلى كل منا ان يخدم القضية بطريقته . وقد لا تُشكّل طريقتي بأن أكون علبة بريد أو بتمرير الرسائل بين بيروت وباريس في رافعة نهديّ ، سوى اسهام ضعيف ، ولكن هذا على الأقل ما بوسعي ان افعله . وكمال يقاتل . وتلك طريقته ، هو . . إلا أنت يا وليد، فانك محايد . ويوجد آلاف بل مئات الآلاف من جماعتنا الذين يستطيعون حمل رشيش « كلاشينكوف » . ولكن قد لا يكون في العالم سوى فلسطيني واحد يستطيع ان يصنع لشعبه ما تستطيع انت ان تفعله .

ارتعش وليد خفيةً ـ ومنذ اللحظة التي كان قد تلقّى فيها البرقية ، كان قد اشتبه بالداعي لتلك الزيارة المُلِحَّة . وأفرغ جرعةً واحدة كأس الأنيسون وألقى على شقيقته نظرة باردة وهو يقول :

ـ وما هو هذا الشيء الخاص الذي ينتظره الاخوان مني ؟

ـ ان تساعدهم في الحصول على البلوتونيوم ، لحساب الأخ الأكبر في طرابلس .

وضع وليد كأسه على الطاولة . وعلى الرغم من ان ليلى كانت قد تكلّمت بالعربية ، فقد تطلّع حولهما للتثبّت من أن أية أُذُن لم تتمكن من التقاط كلماتها على غِرّة . وكانت الاشاعات العديدة التي كانت تسري في وسط الجماعة العلمية ، قد أطلعته على جهود القذافي النووية ، وقد أمرَّ يده على جبينه ، وقال مُتهكماً :

ـ أفترض أن الاخوان يتخيلون أن بوسعي أن استحضر بكل بساطة بضع كيلوغرامات منالبلوتونيوم ذات أحد بعد الظهر ، وأن أكدسها فوق مقعد سيارتي ؟

ابتسمت ليلى بتشنُّج وقالت :

ـ يا عزيزي وليد ، الاخوان ليسوا مجانين . لقد سبق ان فكروا بالعملية ودرسوها في أدق تفاصيلها . وكل ما يريده الاخوان منك هو بعض المعلومات . مثلاً ، المكان الذي يجمَّع فيه « بلوتونيوم » « كداراش »وكيفية حمايته وعن الأشخاص الموَلجين بمراقبته وكيف سيكون بامكانهم إخراجه من المركز .

وربّت وليد على كأسه بعصبية ، وقال :
- وماذا يريد القذافي ان يصنع به ؟ ليس من شأن قنبلة ذرية ان يجعل القضية العربية تنتصر !

- ان تفجير قنبلة واحدة عربية في الصحراء سوف يُظهِر لشعبنا ان ثمّة بديلاً لمساومات السادات والأميركيين واستعباد شعبنا من قبل الاسرائيليين . وستثبت لهم انه يوجد رئيس عربي بوسعه ان يُقاتِل حتى ينتصر العدل في نهاية المطاف .
وفتحت حقيبتها وأخذت منها غلافاً أبيض كثيفاً وقالت :
- كل ما يحتاج الاخوان الى معرفته مُعدَّدٌ داخله . وإنني مأذونة بأن اعدك شيئا : وهو أنه لن يعرف أحد ابداً مصدر المعلومات التي تقدِّمها .
- وإذا رفضت ؟

- لن ترفض !

واخرجت هذه الكلمات ، بلهجتها الحاسمة والمثيرة ، وليد عن طوره ، فصرخ قائلاً :

- لن أرفض ؟ بلى ، حقاً ! وفوراً ! وسأقول لك لماذا . (وأخذ علبة اللفائف عن الطاولة) أنا أؤمن بما أفعل يا ليلى . وأؤمن به بشغفٍ كما آمنت بفلسطين (وتوقف ، وسحب ببطء مجّة من لفافته . وكانت لهجته رصينة ومعتدلة) . قالت « فلورانس نَيْتِنيغال »[1] : « إن أول شيء يجب أن لا يعمله المستشفي ، هو انتشار الجراثيم » . وإذن ! فأول شيء يجب ان لا يعمله الفيزيائي النووي . هو نشر المعرفة المُرعِبة التي يمتلكها ، خشية ان يستعملها الناس للتقاتل عوضاً عن أن يستعملوها في سبيل بناء عالم أفضل .

وكان دور شقيقته هذه المرّة ان تنفجر ، فضحكت هازئة وقالت :

- عالم أفضل ! لماذا تظن ان القذافي يريد القنبلة ؟ لأن الاسرائيليين يمتلكونها . وأنت تعلم جيداً أنهم يمتلكونها . وهل تعتقد أنهم صنعوها ، هم ، في سبيل بناء عالم أفضل ؟ كلا ، أبداً ! لقد صنعوها ليلقوها فوقَ رؤوسنا ، عندما يخطر ذلك ببالهم .

وظلّ شقيقها هادئ الأعصاب ، وقال :
- أنا أعلم أنهم يمتلكونها .

- أنت تعلم أن اليهود يمتلكون القنبلة ، وتبقى هنا على هذه الكرسي وتقول لي انك ترفض مساعدة شعبك بالذات لكي يحصل عليها ، ذلك الشعب الذي ديس بالاقدام ، كما لم يُدَس قبله أيّ شعب آخر ؟

- نعم ، بالطبع . وذلك لأنني أشعر بأنني مرتبط اليوم بشيء أسمى من فلسطين وأسمى من القضية .

- أسمى من لحمك بالذات ومن دمك بالذات ؟ ومن أمواتك ؟ ومن جميع أهلك الذين يحاول اليهود تصفيتهم ؟ وليد ! إن القذافي لن يكون مُلزما باستعمال قنبلته . ولكننا ضعفاء . ولا عدل من أجل

(١) المؤسسة الانكليزية لهيئة المرضات العسكريات .

الضعفاء . هذا ترف للأقوياء . بدون القنبلة لن يكون أيُّ زعيم عربي من القوة بحيث يستطيع ان يقف في وجه الاسرائيليين . وسنظل كما كنا من ستين سنة الضحايا ، ضحايا الجلاّدين الدائمين .

ظلّ الشقيق والشقيقة ملازمين الصمت خلال فترة .

ـ يبقى جوابي لا ، يا ليلى .

واستولى على المرأة الشابة شعور باليأس . وانتابها غثيان واخز شنَّـج حلقها ، يا إلهي ، ساعدني على ايجاد الكلمات العادلة ، يجب أن أقنعه ، هذا امر واجب !

ووضعت يدها على رُسْـغ وليد الأيسر.وسألت وهي تشير الى الثعبان والقلب المخروق بخنجر اللذين كانامَوْشومين فوقه :

. ـ وهذا ؟

وتخلّص بغضب . كـان هذا الوشم يمثّل إحدى اللحظات الأكثر ايلاماً في حياته ، لحظة موت والده بعد نفيهم من القدس . عام ١٩٦٨ ، ويومَ الدفن كان قد توجَّه هو وكمال الى اسواق بيروت . وكان واشم سعودي قد نقش على لحم الشقيقين قلباً مخروقاً يُمثّل الأب الفقيد وثعباناً يُمثّل الكراهية المنصبة على اولئك الذين كانا يعتبرانهم مسؤولين عن وفاته،وخنجراً يُمثّل الانتقام الذي اقسما على السعي اليه . وكانا كلاهما قد اقسما على تنفيذ وصية السورة الرابعة من القرآن وعلى تكريس حياتهما في سبيل الانتقام لموت والدهما تحت طائلة خسارة حياتهما بالذات اذا ما اخلاّ بهذا التعهُّد .

ورأت ليلى ملامح وليد تتصلَّب . وكانت تفكر : لقـد اعـطيت ، على الأقـل ، وجهـاً لشعبنـا وللقضية التي جئت ارافع عنها . وقالت :

ـ لقد خرجت من المأزق ، يا وليد ! (وكانت لهجتها رقيقة ولا يشوبها ايّ لوم) . لقد تمكنت ، انت ، من النسيان ، هنا ، بفضل حياتك الجديدة وعائلتك الجديدة . أما اولئك الذين لم يتمكنوا من النسيان ؟ هل سيظلّون الى الأبد شعباً بلا وطن ؟ بلا عنوان ؟ ووالدنا ، ألن يستطيع ابداً ان يرتاح بهدوء في أرضه ؟

ـ ماذا تريدين ان تفعلي بي يا ليلى ؟ (وكان صوت وليد صرخةً مُغتاظة) هل ينبغي أن أتصرَّف ضد عقلي وضد جميع الأشياء التي اؤمن بها ، لا لسبب الاّ لاني وُلدت منذ ثمانٍ وثلاثين سنة في مكان يُدعى فلسطين ؟

وبقيت ليلى تفكّر فترة طويلة ، ثم قالت :

ـ نعم يا وليد ، هذا واجب عليك ، وواجب عليَّ ايضاً ، وواجب علينا جميعاً .

***

بعد الغداء ، عاد الشقيق والشقيقة ، بصمت الى المطار . وتوجَّهـت ليلى الى مكتـب التسـجيل لتثبيت عودتها جواً الى باريس . ثم اجتازت الردهة حتى كُـشْك الصحف حيث كان وليد ينتظرها وهو يلقي نظرة على عناوين صحف المساء اليومية . وكانت عيناه المظلمتان تبدوان حزينتين وبعيدتي الغور ، كما لو كانتا مُصوَّبتين على رؤيا عالم داخلي ما . وفكَّرت ليلى : لقد فهم ، إنه معذَّب ولكنه يعلم ان لا خيار لديه . وأمسكت ذراعه بحنان ، وقالت :

ـ سأقول لهم إن كل شيء يسير على ما يرام وإنك ستفعل ما يطلبونه منك .

وتصفَّح وليد بعصبية صفحات مجلّة معروضة في الكُشك ، مُؤخِّرا هكذا بضع ثوان الجواب الذي

كان عليه ان يُعطيه لشقيقته ، وأطلق اخيراً هذه الكلمات :
ـ لا ، يا ليلى ! قولي لهم إن جوابي سلبيّ .
وتضرَّعت قائلة :
ـ وليد ، يجب ان تفعل ذلك ، ينبغي ان تفعله !

كان وليد يهزّ رأسه . وكانت رنَّة صوته بالذات ، وهو يقول لا ، قد وطَّدت عزمه .

ـ لقد قلت لا ، يا ليلى . ان هذا لا يقبل المراجعة .

كان وجهها قد شحب . وفكَّرت بألم : لم يفهم . واذا كان قد فهم ، فإنه حقاً لا يكترث بالأمر . ومن العبث ان أُلحّ . لقد فشلت .

فتحت عندئذ حقيبتها وأخرجت منها مغلّفاً ثانياً أصغر من الأول ، وقالت :

ـ لقد طلبوا اليَّ تسليمك هذا في حال رفضك .

وقدَّمت المغلّف الى شقيقها . وقد أراد وليد ان يفتحه فوراً ، ولكن شقيقته منعته من ذلك ، قائلة :
ـ انتظر حتى أنصرف .

وطبعت قبلةً على خدِّه . وتمتمت : « مع السلامة » وتلاشت في الجمهور .
ومن أعلى سطح المطار ، كان وليد ينظر الى شقيقته تمشي نحو الطائرة . ولم تلتفت . ولما اختفت داخل « البوينغ ٧٢٧ » فتح الغلاف .

وما ان وقع نظره على الرسالة القصيرة ، حتى انتفض ، كما لو كان قد أُصيب بضربة خفيَّة . وكان في الحال قد عرف الخطّ والآية الواردة في السورة الرابعة من القرآن . وقرأ :

« . . . فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم . . . » (×) .

***

يومَ الأحد الواقع فيه ٣ اذار سنة ١٩٧٧ ، وبعد أربعة أسابيع ، كان وليد يشرح لزوجته أنه كان عليه ان يتوجّه الى باريس لأسباب مهنية . ثم استقلَّ قطار « الميسترال » . وفي داخل محفظة الوثائق ، بين منامته وحقيبة الزينة ، كان ثمة مغلف يتضمّن سلسلة من الصور وتقريراً من اثنتي عشرة صفحة .
وكانت المعلومات التي جمعها الفيزيائي الفلسطيني تجيب عن جميعَ الأسئلة التي طرحها الإخوان . وكان من شأن ما تفشيه ان يورِّط بشكل خطير المسؤولين عن حماية المنشآت الذرية الفرنسية .

كان مركز « كداراش » النووي يضمّ أكبر مستودع للبلوتونيوم في اوروبا وأحد اهم تلك المستودعات في العالم بلا ريب ، فضلاً عن المباني العائدة للأبحاث ولإنشاء المفاعلات وكذلك معمل صنع محركات الغواصات الذرّية التابعة للقوة الضاربة القومية . والحال ان موقع هذا المخزون كان يُشار اليه ، جهاراً بواسطة لوحة وسهم . ولم يكن أي خفير يحرس مدخله . وكانت مؤازرة فنيين اثنين فقط كافية لفتح النباب المصفّح الذي كان البلوتونيوم مخزوناً خلفه ، وذلك بطريقة جهاز عن بُعد . وكان احد

(×) قرآن كريم ـ سورة النساء (المترجم) .

هذين الفنيين أباً لستة أولاد ، وكان سيبلغ سن الإحالة على التقاعد بعد عام واحد . وبعد التمكّن من فتح الباب وتعطيل آلتي التصوير للمراقبة الألكترونية ، يصبح نقل مئتي صندوق من البلوتونيوم المخزون في المخبأ مجرّد عملية تفريغ ونقل . وكان في تلك الأوعية كمية من البلوتونيوم كافية لإن تمحو من الخريطة جميع المدن الأميركية التي يتجاوز سكانها مئة الف نسمة .

كان تقرير الفلسطيني يبين أن الدخول والخروج من « كداراش » كانا لعبة اولاد تقريباً . وكانت عشرات الشاحنات التابعة للمشاريع الخاصة تدخل الى المركز كل يوم وتخرج من دون ان تخضع لتفتيش حقيقي . حتى أن بعض السيارات ، التي اتخذت قاعدة لها في ذلك الموقع ، كالمقطورات الخالية من الدواليب والتابعة لمختبر الحماية من الإشعاعات ، لم تكن لتتوقف امام مركز المراقبة عند المدخل الرئيسي . وكان يكفي ان تُستعمَل شاحنة مماثلة لأخذ البلوتونيوم ، حتى يكون الناقل مضموناً بمغادرة المكان دون ان يزعجه احد . وخلف ذلك المكان وفي الريف المُقْفِر كانت عدة طرق تسمح بنقل البضاعة ، في منأى عن أعين الرقباء ، على متن الشاحنات الصغيرة السريعة . وفي أقل من ثلاث ساعات كان البلوتونيوم يصبح بأمان في إيطاليا . وهناك حظّ إضافي ، لأن الإنذار لن يُنقل على الأرجح الا مُتأخراً ، فالخط الهاتفي الوحيد التابع لمركز الدرك في « بيرول » (وقوامه سبعة دركيين) المكلف بتأمين حماية المركز النووي في « كداراش » ، كان يصل الى المبنى من كوة في الطبقة الأرضية . وكان بوسع ولد في الخامسة من عمره ان يقطع ذلك الخط حتى من غير ان يستعين بكرسي مطبخ .

***

قبل منتصف ليل ذلك الأحد الواقع فيه ٣ اذار سنة ١٩٧٧ بقليل ، كانت « فرانسواز دجاني » زوجة وليد ، تُعتقل في منزلها في « مايرارغ » قرب « اكس أن بروفنس » . وبعد ساعة كانت تُساق الى مكتب المدير الأقليمي لدائرة حماية سلامة البلاد الواقع في الطبقة العاشرة من مبنى حديث يشرف على مرفأ مرسيليا القديم . وكانت المرأة الشابة تبدو في حالة صدمة عصبية . ولقد كانت دوماً رخصة العود ، لدرجة انها اضطرت ، قبل زواجها ، الى دخول المستشفى عدة مرات . ولكن يبدو ان زواجها من وليد قد شفاها . فمنذ عدة سنوات لم تُصب فرانسواز دجاني بانهيار عصبي . وكانت تقول بغضب :

ـ بأيّ حق تجرؤون هكذا على إقتلاع الناس من سريرهم في منتصف الليل ؟

وكان لا يزال ماثلاً أمام عينيها المشهدُ الكريه لمنزلها بعد أن فتّشه رجال الشرطة وألقوا بأوراق زوجها أرضاً وأفرغوا الأدراج من محتوياتها .

وكان المدير ، وقد استغرق في قراءة برقيات التلكس المكدَّسة على طاولته ، لا يولي احتجاجاتها أي انتباه.ولما انتهى ، رفع رأسه ونزع نظارتيه ورفع يده ليقاطعها قائلاً :

ـ أرجوك يا سيدتي ، هدّئي من روعك ! لقد ألقينا القبض هذا المساء على زوجك ، وكذلك على شقيقه وشقيقته .

وانتفضت فرانسواز :

ـ ألقيتم القبض على زوجي ؟ ولكن لماذا ؟

ـ كان يستعد لسرقة البلوتونيوم المخزون في منشآت « كداراش » النووية لحساب منظمة التحرير الفلسطينية .

وتقلّص وجه فرانسواز دجاني الجميل . وكانت تكافح حتى لا تنفجر بالبكاء .

ـ ان هذا مستحيل !

ـ سواءً أصدقت ام لا ، فهذا ليس مهماً . الواقع ان عميلاً اسرائيلياً تعرَّف على شقيق زوجك في مطار « شارل ده غول » وتتبَّع خطاه حتى منزل أخت زوجك ، وكان زوجك على موعد هناك . وقد اعترفوا ثلاثتهم . والوثائق التي عثرنا عليها لا تترك أيّ مجال للشك حول هدف العملية التي كانوا يحضّرونها . وهمّي الوحيد هو معرفة ما اذا كانت لك علاقة ام لا بهذا المشروع ، وبعبارة أخرى ، تحديد ما اذا كنت شريكة لهم .

كلمات رجل الشرطة لم تتضمّن اية عدوانية أو أيّ عطف ، بل كانت تنمُّ عن إرادة هادئة وتصميم مهني على اكتشاف رفّة في الأهداب او تغيُّر في الصوت من شأنهما إرباك المرأة الشّابة .

ـ اين تعتقلون زوجي ؟

وألقى المدير نظرة على ساعته .

ـ إننا لم نعتقل زوجك . سوف يهبط في بيروت بعد ساعتين . ولن يرجع الى فرنسا أبداً ، لقد اعتبرته السلطات الفرنسية شخصاً غير مرغوب فيه . وبالنظر للظروف ، فإنه حقاً محظوظ . ولقد إتخِذ هذا القرار من قبل المراجع العليا .

سيكون مدير دائرة حماية سلامة البلاد في مرسيليا مذهولاً لو علم على أيّ مستوى . فإن تطوير الآلات الفائقة لتجديد حرارة الفرن الاسترجاعي ، بُغْية بيعها في الخارج ، كان أحد أعمدة منهاج الصادرات الفرنسية للعقد المبتدىء سنة ١٩٨٠ . وإماطة اللثام العلنية عن خطّة أعدّها نفر من الفلسطينيين لسرقة البلوتونيوم من « كداراش » ، من شأنها القضاء بشراسة ، على تلك المطامح ضمن نطاق أوروبا المُفرِطة الحساسيّة من جرّاء الحملات المعادية للأسلحة النووية . وخشية التعرُّض لمثل هذه المُجازفة، فقد كان وزير الداخلية ، بناء على تعليمات رئيس الجمهورية ، قد أمر بإحاطة الموضوع بالكتمان وطرد الأشقاء دجاني الثلاثة .

تناول رجل الشرطة صفحة ورق من على مكتبه . وكانت « فرانسواز » قد تقلّصت على مقعدها . وبصورة عزيزية كانت أصابعها قد ارتفعت نحو الرصيعة المذّهبة التي كانت تتدلّى من عنقها . وكانت تلك الرصيعة نسخةً شبيهةً بالسمكة التي كانت ترمز على جدران سراديب الأموات في روما القديمة ، الى وجود المسيحيين الأوائل . وكانت قد ولدت تحت تأثير برج الحوت ، وكان والدها قد أهداها تلك الحلية عَشِيَّة زواجها . كانت تعبد اباها . وكانت المأساة التي حصلت لتوِّها سوف تنتشر في وضح النهار ، وستنهال التساؤلات من قبل زملاء وليد والجيران واصدقائهم . وستنتشر الإشاعات في مدينة « مايرارغ » التي كان والدها في الواقع رئيس بلدّيتها . وسيروِّج الأخصام السياسيون والمُغتابون وشايات شنيعة . وستنفجر قريباً فضيحة شائنة سوف تُلطِّخ عائلتها وتقتل والدها بشكل لا يقل تأكيداً وقساوةً عن السرطان . وبحثت اصابعها بعصبية في حقيبتها عن أنبوب « الفاليوم » ، ذلك المهدّئ الذي كانت تتناوله في أوقات الضيق . وقالت وهي تئنّ :

ـ ارجو المعذرة ، ولكنني لا أشعر بأنني بحالة حسنة ، فهل بإستطاعتي الحصول على كأس من الماء.؟

ووافق رجل الشرطة ، وقد بدا عليه السأم ، ثم نهض وخرج .

ومن الكوّة المزجَّجة أحاطت « فرانسواز » بنظرتها وميضَ الأضواء على مياه المرفأ القديم السوداء . وأصغت الى عويل ريح « الميسترال » ، تلك الموسيقى المألوفة التي رافقت طفولتها ، ورأت نفسها ، فتاة صغيرة ، تمسِك والدها من يده ، وتنظر الى قوارب الصيد التي كانت تعود محمَّلة بالأسماك .

ونهضت فجأة . وجالت بعينيها المغرورقتين بالدموع القاعة والأدراج المعدنية والطاولة المغطّاة بالوثائق وصورة رئيس الجمهورية . وتقدَّمت نحو النافذة وهي تشهق ، وقد أذلّها العار واليأس .

***

شرد نظر كمال دجاني على البحر والجادّة التي كانت تحاذيه ، من مطار المزّة حتى بيروت ، وقد وضع مرفقيه على حافة المقعد وأسند رأسه الى راحتيه . وكان الفلسطيني الشاب يتحمَّل الفشل بصعوبة ، ولن يكون فشله في « كداراش » اكتراثاً . ولكنه كان يجد على الأقل بعض العزاء في كونه هو ووليد وليلى قد نجحوا في ان يخفوا عن الفرنسيين اتصالاتهم الليبية . وكانت دائرة حماية سلامة البلاد قد أسرعت الى التسليم بأنهم كانوا يعملون لحساب منظمة التحرير الفلسطينية . ولم يكن قد بقي الا محاولة ان يُنقِذ من الكارثة ما كان يمكن إنقاذه . واذا كان لم يستطع ان يسلِّم معمر القذافي كمية من البلوتونيوم ، فربما سيتمكن من ان يقدِّم له شيئاً يثبت ، في نهاية المطاف ، انه اغلى منه ، ألا وهو عبقرية شقيقه العلمية .

ـ الى المائدة .

والتفت كمال بحدَّة واستجاب حالاً لدعوة والدته . وكانت سلافة دجاني شخصية مهيبة ، تمثِّل بالذات نقيض الصورة المقولبة للمرأة العربية . فلم يُخْفِ وجهها ابداً أيُّ حجاب . وكانت صورتها الظلّيّة الممشوقة مقولبة في ثوب أسود ذي قطعتين طراز « جيفنشي » . وكان صف من اللآلئ يُزيِّن اللون الشاحب لعنقها الرشيق واللطيف ولذقنها الأنوف بعض الشيء . وكان شعرها الأسود طويلاً ومجعَّداً تُنيره بعض خصل بيضاء ، ومرفوعاً بشكل جديلة . كان طرد أولادها خارج فرنسا مدعاةً لاغتباطها . ولم تكن بحاجة لمعرفة أية جريمة ارتكبوا . فما كانوا قد فعلوه ، كان في سبيل القضية . وكان ذلك كافياً .

وعلى طاولة البهو امتدّت المقبلات العربية كأنها البساط . وصبَّت لكل من أولادها كأساً من العرق ، وهو مشروب من اليانسون ، صافٍ كالبلّور ، ورفعت كأسها لتبادل الأنخاب وأعلنت قبل ان تبتلع جرعةً واحدة الكحول الحارق :

ـ إنني أشرب نخب ذكرى والدكم ونخب حرية شعبنا وتحرير بلدنا .

ولم تكن سلافة دجاني تستسيغ أوامر الإسلام كلها . وحين أخذ كمال وليلى مكانهما حول الطاولة ، كانت تقدِّم الى وليد فطيرة من « السمبوسك » المحشوة باللحم . وألحَّت قائلة :

ـ يجب ان تأكل .

وكان وليد لا يشعر بالجوع . فقد كان مضطرباً تماماً من جراء الأحداث التي كانت قد هزَّت حياته لتوِّها . وسألت أمه قلِقةً :

ـ ما هي مشاريعك الآن ؟

وهزَّ كتفيه .

ـ لا أدري . فالأمر سيتوقف على نوايا « فرانسواز » عندما تحضر . هذا اذا اتت ، واذا استطاعت ان تغفر لي ما فعلت .

وأعلنت امه جازمةً :

ـ سوف تحضر ، هذا واجبها .

وصاح كمال عندئذ من أقصى الطاولة :

ـ لماذا لا تأتي الى ليبيا وتقيم معي هناك ؟

ـ وهل اذهب لأفسد حياتي في تلك الصحراء ؟

ـ إن تلك « الصحراء » توشك ان تُذهلك . فما يجري فيها من أمور لا يمكن ان تتخيله او يتخيله كثير من الناس (وحدَّق كمال بشقيقه بصرامة) إن عالِما مثلك ، يا وليد ، لا ينبغي ان تكون لديه افكار جاهزة . تعالَ الى ليبيا وقم بجولة فيها وسترى . وستقرّر فيما بعد .

ورنّ جرس الهاتف في الغرفة المجاورة . فنهضت سلافة دجاني لتجيب على المكالمة . ولم يلاحظ أيّ واحد من أولادها البريق الذي كان يلتمع في حدقتيها ، عندما رجعت تجلس الى جانب ابنها البكر . وأخذت يده برفق وشدّتها الى شفتيها .

ـ تلك كانت سفارة فرنسا يا ولدي . هذا فظيع : لقد ماتت فرانسواز .

ولهث وليد قائلاً :

ـ ماتت ؟

وداعبت سلافة دجاني وجهه الذي أصبح ادكنَ .

ـ لقد ألقت بنفسها من نافذة المكتب الذي كانت الشرطة قد شرعت باستجوابها فيه .

انهار وليد بين ذراعي أمه وكرَّر وهو ينتحب :

ـ فرانسواز ! فرنسواز !

نهض كمال وأشعل لفافة . وكان ينظر الى شقيقه بقسوة . وكان وليد يئن قائلاً :

« هذه غلطتي ، فأنا الذي قتلتها » . ودار كمال حول المقعد الذي كان شقيقه جالساً عليه وأمسكه بكتفيه . ولئن كانت حركته تنطوي على شيء من الشفقة ، فلم يكن ذلك بسبب حزن شقيقه بقدر ما كان بسبب غباوته .

لقد كان يُمسِك بالوسيلة ليقتاده نحو غاياته .

ـ وليد ! لست انت الذي قتلتها . بل هم !

ورفع وليد نظرة مذهولة .

ـ أنت لا تعتقد بعد كل حساب أنها قفزت من تلك النافذة ؟ هل تعتقد ذلك ؟

وارتسمت علامة الهول على وجه بكر آل الدجاني وتمتم قائلاً :

- إن الشرطة الفرنسية لن تجرؤ ابداً . . .

- يا لك من غبي مسكين ! إنهم هم الذين ألقوا بها من النافذة ! أولئك الفرنسيون الذين تحبهم كثيرا ! والذين كنت تريد أن تكون وفياً لهم . ماذا حدث حسب اعتقادك ؟ (كان كمال يرسل كلماته بعَصْفات قصيرة) والله يعلم ما عساهم فعلوا بها قبل ذلك !

والتفت وليد نحو أمه ليبحث عن بعض التعزية وعن التأكيد بأن كلمات شقيقه كانت كذباً فظيعاً . وهزَّت سلافة كتفيها .

- هكذا يتصرَّف جميع أعدائنا - وقبَّلت جبين ابنها البكر - إذهب الى ليبيا مع شقيقك . إن مكانك هو الآن هناك . تلك هي ارادة الله .

***

ثلاثة عشر شهراً بعد سفر وليد دجاني الى طرابلس ، وبتاريخ ١٤ نيسان سنة ١٩٧٨ الساعة الثانية بعد الظهر ، أخرج الفيزيائي الفرنسي « ألان بريفو » البالغ من العمر اثنتين وخمسين سنة ورئيس دائرة إلتحام النُّوى النووية لدى مفوضية الطاقة الذريَّة ، أخرج من صندوقه الحديدي مستنداً كثيفاً من المعلوماتية ووضعه على طاولة مكتبه في حصن « شاتيّون » . وكان الغطاء الأحمر يحمل الختم الرسمي وعبارة « سرِّي جداً » . وكان في داخل المستند الإكتشاف الذي كان يلاحقه منذ ربع قرن جميع علماء البلاد المصنَّعة والذي يُشكِّل نهاية حلم مستحيل سوف يسمح للبشرية بأن تستخدم طاقة جديدة هائلة ، ألا وهي الطاقة الناجمة عن الانصهار النووي . وكان هذا الاكتشاف يعبِّر عنه بأعداد تقدِّر الثقل النوعي للكهيربات المحايدة وفترات زمنية بحدود أجزاء من المليار من الثانية وطاقات من عيار آلاف « الجول » .

وكانت التجربة الحاسمة التي حققت تلك المفخرة ، قد تمَّت قبل عشرة ايام في قاعة كبرى مشيَّدة فوق هضبة « فونتناي أو روز » في ضاحية باريس الجنوبية الغربية . وكان ذلك المبنى ، وهو باتساع ملعب كرة قدم ، يضمُّ إحدى منشآت الرماية بأشعة « ليزر » وإحدى اضخمها في العالم . وقد أطلِق عليها اسم « الجنون » وكانت قد كلَّفت فرنسا مليارين من الفرنكات الجديدة . وهناك ، وخلال جزء من مليار من الثانية ، كانت قد أُدخلت موجةٌ كهربائية ذات طاقة تفوق خمسين ضعفاً قوة جميع محطات توليد الكهرباء الفرنسية مجتمعة - أُدخلت في مدفع « ليزر » يعمل بواسطة ثاني اوكسيد الكاربون . وعندئذ كان دفق نور قد اجتاز مجموعة من آليات الأنابيب يبلغ ارتفاعها خمس طبقات وقصف بدقة لا تخطىء فقاعة غاز بمقطع شعرة ، وذلك بسرعة كانت ستتيح له أن يبلغ كوكب المريخ في بضع ثوان . وكانت تلك التجربة قد أعطت مِفتاح اللُغز الذي كان بنو البشر يكدُّون في حله منذ سنوات .

وكان العالم الفيزيائي « بريفو » مدعواً بعد ظهر ذلك اليوم من نيسان ، إلى قصر « الإليزيه » ليقدم الى رئيس الجمهورية الوثيقة التي كانت تختصر ذلك الاكتشاف ، ويشرح له مداه .

وخرج من مكتبه وهو يحمل في حقيبته أعظم ثروة كان رجال العلم يحلمون بامتلاكها ، الا وهي السرّ الذي كان يسمح بتحويل ماء المحيطات الى وقود وحلّ حاجات البشرية للطاقة الى الأبد .

***

دخل الرئيس « فاليري جيسكار ديستان » ، وكان دقيقاً كعادته ، في تمام الساعة ١٦ ، الى قاعة الاجتماعات المصغرة في الطابق الأرضي من قصر « الإليزيه » . ودار في الغرفة المغلّفة جدرانها بالحرير الأزرق ليصافح بعض الوزراء وكبار الموظفين المدعـوّين لذلك الاجتماع السرّي . ولما وصـل الى « بيار فوكو » ، المفوّض السامي للطاقة الذرّية ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة ودّية ، وهمس في أذن رفيقه في دورة التخرّج من مدرسة « البوليتكنيك » :

- مرحى .

وأشار الرئيس الى الجمعية الصغرى بالجلوس . وكشف ارتعاش خفيف لمنخرَيه غضبه لرؤية مقعدٍ بقي فارغاً : فالفيزيائي « ألان بريڤو » كان متأخراً . وأعلن بخشونة :

- سنبدأ ، كما هو مقرّر .

ثم تكلم بتلك الطريقة البطيئة والمُتـحَـذْلِقة نوعاً التي كان يحتفظ بهـا للمناسبـات الاحتفـالية ، فأعلن :

- لقد رجوتكم ، ايها السادة ، ان تحضروا اليوم ، لأطلعكم على حَدَث سيؤثر بطريقة حاسمـة وأكيدة على مصير بلدنا . فلقد نجح فريق من علمائنا العاملين في « فونتناي أو رزو » خلال الأسبـوع المنصرم ، في حلّ أحد أكبر التحدّيات العلمية في تاريْخ البشرية . وسوف تسمح ثمرة أعمالهم لفرنسا ، وفي الواقع للعالم أجمع ، بإيجاد حلٍّ قريب لأعظم معضلة نواجهها جميعاً ، أعني ازمة الطاقة العالمية .

وألقى الرئيس نظرة مُـنْـزَعِجة باتجاه الباب وتابع :

- إن المسؤول عن هذا النجاح ، الفيزيائي « الان بريڤو » لا بدّ ان يصل بين لحظة وأخرى . ولكن بانتظار ذلك (والتفت نحو زميله القديم « بيار فوكو » وقال له :) هل تستطيع يا حضرة المفوض السامي ان تشرح لنا أهمية ذلك الاكتشاف ؟

تناول « فوكو » كأس الماء الموضوعة أمامه على الطاولة ورفعها كما لو كان يريد تبادل الأنخاب .

- حضرة الرئيس ، حضرات السـادة ، ان هذا الاكتشـاف يعنـي أن كمية الماء الموجودة في هذه الكأس ، سوف تتمكن وحدها من تزويدنا بطاقة كافية لإشباع حاجـات مدينـة بكاملهـا مثـل باريس للكهرباء طيلة يومين .

ظهرت علامات الدهشة على جميع الوجوه ، وتابع المفوض السامي قائلاً :

- الماء يحتوي ، في الواقع ، على إحدى الذرات الأكثر بساطة وتوفّراً في المادة ، أعني الدوتريوم او الهيدروجين الثقيل . والحال أننا اذا ما دَقَـقْـنا ذرتّين من الدوتريوم ، الواحدة ضد الأخرى ، بقوة كافية حتى يحصل انصهارهما ، فإننا نحصل على طاقة تُضاهي طاقة النجوم والشمس ، وفي الوقت نفسـه لا تنضب ، لأن الماء لا ينضب . ومجمل القول انّ إكتشافنا يُبرهن لأول مرةٍ عن الإمكانية العلمية للسيطرة على مبدأ الانصهار . ولكن ، حذار ! (وكان فوكو قد رفع إصبعه ليُحذِّر الحضور) إن التطبيق العملي لمثل هذا الإكتشاف سوف يتطلب جهوداً على مدى سنين . والمكاسب الصناعية التي يتيح لنـا تقدّمنـا توقّعها ، لا يمكن تقديرها . شرط ! (وتوقّف ليُعدَّ أثرَ كلامه) شرطَ ان نكون جازمين في إحاطة تلك المفخرة بنطاق من السريّة المطلقة .

وكان إفشاء هذه الحقائق قد أسر مُستمعيه الى درجة ان احداً لم يُلاحظ وصول مباشر كان ينقل رسالة الى وزير الداخلية ، الذي أعلن بعد ان اطّلع على مضمونها :

ـ لقد أبلغتني المفرزة الجنائية يا حضرة الرئيس ان جُثّة إكتُشِفَت لتوِّها داخل سيارة « بيجو ٥٠٤ » مهجورة على مجاز « لونشان » في غابة بولونيا . وقد أمكن التعرّف على هويّة الضحية بصورة موقتة بفضل جواز مرور مُعدّ للاجتماع الحالي . والمقصود هو ذلك الـ...ـائي الذي كنا ننتظره . . . (والقى نظرة على الورقة) السيد « ألان بريڤو » .

***

كان ثلاثة شرطيين زرق من ضباط الارتباط يحدِّدون مكان الحادث ، وكان مصباح سيارتهم الدوّار يُطلق وميضاً متواصلاً . وكان صنفٌ من المأمورين يمنع تقدم زُمرة من المتنزِّهين وبعض البغايا الذين كانوا قد تجمّعوا حول سيارة البيجو والجثة التي كانت ترقد على العشب مُغطّاة بلحاف .

وشقّ وزير الداخلية ، غير مكترث بتحية المأمورين ، طريقه عبر نطاق رجال الشرطة ، يتبعه المفوض السامي للطاقة الذرية ، واندفع نحو « موريس لميال » ، رئيس المفرزة الجنائية ـ وصرَخ :

ـ وماذا بعد ؟

وأشار « لميال » الى مربَّع من مادّة لدائنيّة ممدود على العشب وضع فيه شيئان ، محفظة أوراق نقدية ومسطرة حاسبة اصفرَّت من الاستعمال ومرور الزمن . قال الوزير جَزِعاً :

ـ اهذا كل شيء ؟ ألم تجدوا أثراً للوثائق ؟

وأجاب « لميال » :

ـ هذا كل شيء ، يا حضرة الوزير . هذا وجواز المرور الذي تمكّنا بفضله من معرفة هوية الضحية .

والتفت الوزير نحو « بيار فوكو » وصرخ ، متمالكاً غضبه بمشقّة :

ـ هذا لا يُغفر ! إنكم تَدعون شخصيات علميّة على جانب كبير من الأهمية تتجوّل عبر باريس ناقلة وثائق سرّية ، كما لو كانت تحمل غسيلها الى الكوّاء .

ـ حضرة الوزير ! ان هؤلاء الرجال هم من العلماء الذين لا يفكّرون مطلقاً بقضايا السلامة .

ـ اذا كانوا هم لا يفكِّرون فيها ، فيجب عليكم أنتم ان تفكروا بذلك بدلاً منهم . إنك مسؤول شخصياً عن سلامة منظمتكم . وفي الحالة الحاضرة ، فقد بدت عاجزة بشكل مأساوي .

ورجع نحو « لميال » :

ـ ما هي معايناتك الأولية ؟

ـ لا شيء يذكر . ان تشريح الجثة وحده سوف يحدد أسباب الوفاة الحقيقية . وحسب تعبير الوجه ، سأقول بأن الضحية خُنِقت أو ضُربت على القَصَبَة ضربة « كَرَته » عنيفة مثلاً .

***

أثارت سرقة وثائق المهندس « بريڤو » دهشة وقلقاً في « الأليزيه » وفي الدوائر الحكومية الفرنسية

العليا . والحق أن هذه الجريمة ما كانت لتحرم فرنسا من اكتشافها المدهش . ولكن الإيرادات الضخمة التي كانت تتوقع ان تجنيها خلال سنوات بفضل تقدّمها الفني ، كانت توشك ان تتلاشى اذا لم يُعثر حالاً على تلك الأوراق . والواقع أن الأمر يتعلّق بأهم سرقة لسرّ صناعي ارُتكب حتى الآن . وفور عودة وزير الداخلية الى ساحة « بوفو » جمع بحضور « فوكو » المسؤولين الرئيسيين في الشرطة وفي الدوائر السرّية . ورسم الوزير لوحة سريعة للموقف وخاطب « فوكو » وهو يسأله بعصبية :

ـ يا حضرة المفوض السامي ! ما هي البلاد التي كان لها مصلحة في سرقة تلك الوثائق ؟

ـ انكلترا والمانيا والصين وربما اليابان وبالتأكيد الاتحاد السوفيتي وطبعاً (ورفع يده ، وقد تحرّر من الوهم ، مشيراً بإتجاه شارع غبريال) اصدقاؤنا في سفارة الولايات المتحدة .

ـ ما رأيك في ذلك ، يا « فيليبريو » ؟

كان المحافظ بول روبير فيليبريو، بوصفه رئيس دائرة حماية سلامة البلاد، مسؤولاً عن سلامة الأراضي الفرنسية الداخلية وعن عمليات مكافحة الجاسوسية . وأعلن قائلاً :

ـ يجب ان نستبعد حالاً الصينيين واليابانيين : لأنهم ليسوا عندنا على المستوى العمليّاتي ، للقيام بمثل هذه الضربات . يبقى الأنكليز والألمان والروس والأميركان (وكان يحك دقنه وهو يفكر) من جهتي سأقول إن العملية من صنع المخابرات الروسية او الوكالة المركزية للاستخبارات الأميركية .

وبين العشرة آلاف اسم للجواسيس او الأشخاص المعتبرين جواسيس والذين تضمُّهم علبة البطاقات الألكترونية العائدة لدائرة حماية سلامة البلاد، كان ثمة اسماء ثلاثة عشر ديبلوماسياً من السفارة السوفياتية وحوالي مئة فرنسي عملاء للمخابرات الروسية . أما الوكالة المركزية للاستخبارات الأميركية فقد كانت تعدُّ حوالي مئتي ممثلٍ على الأرض الفرنسية كان ينتمي ثلثهم الى موظفي السفارة، الديبلوماسيين او الى منظمات رسمية اميركية ممثلة في فرنسا . اما الآخرون فكانوا منتشرين عَبْر فرنسا تحت تغطيات مختلفة. وأمر الوزير قائلاً :

ـ ضعوا حالاً الحدّ الأقصى من قواتكم على الروس والأميركان ولْنُـصَـلِّ ليكونوا هم الذين قاموا بالعملية .

وبعد بضع دقائق ، كان أسطول من السيارات المُبذّلة الملأى بمفتّشي دائرة حماية سلامة البلاد يخرج من المرأب الواقع في شارع « سوسّه » . وكانت تنضمّ ايضاً الى السَيْر عدة شاحنات صغيرة ، خرجت من مستودع اكثر تحفظاً عند طرف الشارع . وكانت تلك العربات المطلية بشعارات ملاحم او بائعي ازهار او مُرصّصين خياليين او شركات حقيقية امثال « دارتي » او « لوكتال » ، عبارة عن مختبرات الكترونية. سيّارة تستطيع ان تلتقط الأحاديث التي كانت تدور داخل مبنى ما ، حتى مسافة اكثر من مئة متر .

كان ثمة شخص واحد قد حافظ على رباطة جأشه وسط هذا التشوّش الذي كان يحرِّك مكتب وزير الداخلية . ذلك الشخص الذي لم يكن قد تدخّل بعد هو اللواء « هنري بارتران » مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية ، (دائرة الاستخبارات الفرنسية) ، البالغ من العمر ستاً وخمسين سنة . وكانت عيناه نصف مغلقتين كراهب بوذيّ في حالة تأمّل ، وكانت لفافة « جيتان » من الذرة متجمّدة عند طرف شفتيه . وكان امتداد الرّماد في لفافته يثبت هدوءه التام . وقد اسقطته أولى كلماته على سترته .

ـ اسمح لي ، يا حضرة الوزير ، أن الفت انتباهكم بإحترام الى ان هذه المطاردات سيكون حظها

من النجاح ضئيلاً (ورفع نظرةً محررةً من الوهم نحو الساعة الدقّاقة المذهَّبة الموضوعة على الموقد) . فمنذ اكثر من ساعتين ، قُتل هذا الفيزيائي البائس ، ويمكنك ان تكون متأكداً انه اذا كان الروس او الأميركان هم الذين قاموا بالعملية ، فالوثائق هي الآن بعيدة (وتوقّف ليشعلَ عقب لفافة « الجيتان ») . ومهما يكن من أمر ، ومهما كانت كريهة بعض الأحيان أساليب اصدقائنا في الوكالة المركزية للاستخبارات ، فأنا لا ارى بصماتهم على هذه العملية . وليس هذا ايضاً نوع العمل لدى المخابرات الروسية . وأؤكد لك أنك لن تجد أبداً ، مع هذه او تلك ، جواز مرور رسمياً على جثة الضحية ولا محفظتها .

وقال الوزير جزعاً :

ـ اذن ، من يكون في اعتقادك ؟

نفض اللواء الرماد بعناية عن سترته وأجاب :

ـ اذا كانت لوثائق السيد « بريفو » القيمةُ التي يعلن عنها حضرة المفوض السامي للطاقة الذرية ، فلماذا استبعاد الافتراض بأنها سُرِقت بكل بساطة حتى تُباع او تعاد لقاء فدية هامة ؟

وبدا الوزير متشكّكا :

ـ من عساه يستطيع ان يقوم بمثل هذه العملية ؟

ـ ماذا فعل الروس عندما قرروا الحصول على تصاميم « الكونكورد » ؟ ألم يذهبوا الى مرسيليا ويطرقوا باب « الأوباش » أليس كذلك ؟ لا شك بأن تلك التجربة علّمت اصدقاءنا الكورسيكيين وغيرهم قيمة بعض الأسرار الصناعية .

وبدا الوزير ايضاً اكثر ارتياباً .

ـ ينبغي من أجل ذلك ، ان يمتلكوا مستوىً علمياً رفيعاً وأن يكون لديهم فكرة دقيقة عن الأعمال التي كان السيد « بريفو » يتابعها . فهل تعرف كثيراً من الأشرار الذين يستجيبون لهذه المعايير ؟

كان اللواء « بارتران » ينظر بإعجاب الى قوائم مكتب الوزير البرونزية والمحفورة بأناقة ، ذلك المكتب الذي كان هدية شخصية من نابوليون الأول الى احد اسلافه البعيدين . ومن غير أن يرفع عينيه ، أقرَّ قائلاً :

ـ لا ، ليس كثيراً ، أوافق على ذلك . ولهذا فاني أعتبر ان العملية لم يقم بها على الأرجح أوباش ذلك الوسط .

ـ ومن سواهم ، إذن ؟

شعر « برتران » بأن جميع الأنظار كانت قد تركّزت عليه .

ـ هناك احتمالان . ثمّة شبكات متخصّصة في سرقة الأسرار الصناعية . ولا بدّ ان احداها قامت بالعملية . ولكن ليس الأوباش وحدهم الذين يحتاجون الى المال . وأعتقد انه يجب ان لا نستبعد احتمالاً آخر .

وشدّد الوزير قائلاً :

ـ وما هو ؟

ـ منظّمة ارهابية .

***

في اليوم التالي ، وقبل الساعة الرابعة والنصف بقليل ، كان جرس الهاتف يوقظ وزير الداخلية في شقّته في ساحة « بوڤو » . وقد عرف صوت المفوض السامي للطاقة الذرية « فوكو » الذي أعلن قائلاً :

ـ ان قتلة « بريڤو » تلفنوا لتوِّهم انهم يقترحون إعادة حقيبته والوثائق مقابل فدية قدرها مليون فرنك .

ـ وأيّ دليل سيكون لدينا على أنهم لم يحتفظوا بصورٍ عنها ؟

وسلّم « فوكو » قائلاً :

ـ لا دليل ، مع الأسف !

واستشير قصر « الأليزيه » فوراً ، فأعطى الضوء الأخضر وأمر بأن تمتنع الشرطة عن أية عملية ضد السالبين حتى لا يحول شيء دون استعادة الوثائق . وعند المساء بالذات ، وبعد التقيّد الدقيق بالتوجيهات المعطاة من غرف الهاتف القائمة على نقاط مختلفة من الأرض الفرنسية ، كان أحد مفوضي دائرة حماية سلامة البلاد يودع الفدية بموجب أوراق من فئة المئة فرنك المستعملة في صندوق القمامة في شارع « بيل أكوري » في حيّ « بانيه » في مرسيليا . وبعد بضع لحظات وُجدت الحقيبة والوثائق ، حسب الاتفاق ، الى جانب قائمة طاولة أحد المشارب في شارع « بانيه » .

وفي قصر « الأليزيه » كما في دوائر الشرطة الفرنسية العليا ، استُقْبِل الخبر بارتياح حادّ . وقد دلّت صيغ الإعادة ، كما يبدو ، على ان الأمر كان حقاً عبارة عن ابتزاز اموال قام بها الأوباش .

على ان مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية ظلّ في حيرة . وكان السؤال التالي يُرهقه خاصةً : « اذا كان لتلك الوثائق مثل هذه القيمة ، فلماذا لم يطلب اللصوص فدية اكبر ؟ » غير ان قلقه كان سيؤول مع الزمن ، الى التلاشي .

وهكذا ، فإن مصرع الفيزيائي « ألن بريڤو » الذي كان في البدء قضية تهمّ الدولة ، لم يعد الا احد الأخبار العادية المؤسفة .

***

بعد هذه الأحداث بيومين ، ظهرت فجأة عند الأفق أنوار سيارة « ڤولكسڤاكن » زرقاء ، في صحراء « سيرت » الكبرى ، على بعد اربعمئة كيلومتر جنوبي شرقي طرابلس . وكان معمر القذافي جالساً على ركبتيه على سجادة الصلاة أمام خيمته . وكان يتبع بنظره الأنوار التي كانت تخرق الفجر الطالع ، ثم سجد وتلا السورة الأولى من القرآن .

ووصلت السيارة امام معسكر حربي صغير أُقيم على بعد نصف كيلومتر من خيمة رئيس الدولة الليبية . وأشار الخفراء الثلاثة المعتمرون القبعات الحمر ، الى السائق بأن يتوقف وتفحّصوا أوراقه بدقّة طالبين إليه ان ينزل ليخضع لمراقبة كاشف للأشياء المعدنية . وبعد أن انتهت هذه التدقيقات رافقه جندي الى خيمة العقيد . وهتف القذافي عندما اصبح الزائر على بعد عشرة امتار :

ـ السلام عليكم .

أجاب وليد دجاني بعد ان مسح العرق الذي كان يتصبّب من جبينه ، بعد تلك المسيرة في الرمل :

ـ وعليكم السلام .

وتقدَّم القذافي بضع خطوات وعانقه وقبَّله على خدَّيه الإثنين ، ثم قال بعد ان ابتسم إبتسامةً عريضة كشفت أسنانه التي تشبه اسنان الذئب :

- أهلاً بك يا أخي .

وتلعثم وليد ، واحمرَّ من التهيّج قائلاً :

- إنني . . .

ورفع القذافي يده وقاطعه قائلاً :

- لنشرب القهوة اولاً يا اخي ! وبعد ذلك سنتحدث ان شاء الله .

وأمسك وليد دجاني بذراعه وقاده الى خيمته . ثم أخذ ابريقاً ذا عروة نحاسية كان يُسخَّن على نار من الجمر ، وصبَّ القهوة البدوية الخَثِرة في فنجانين صغيرين بلا عروتين وقدَّم أحدهما الى ضيفه .

وبعد أن شربا القهوة ، قرفص القذافي على السجادة الشرقية التي كانت تُـغَـطِّي أرض خيمته . وارتسم على وجهه الجميل ظل ابتسامة وهو يقول :

والآن ، أعطني يا أخي جميع الأخبار .

- لقد أحضر كمال الرزمة من باريس مساء أمس .

وتنشّق وليد دجاني بعمق ثم صعَّد عطر أقراص النعناع التي كان قد مصَّها ليزيل عَفَن الويسكي الذي كان قد شربه اثناء الليل . وكانت المشروبات الروحية ممنوعة تماماً في بلد القذافي . واعترف قائلاً :

- إنني لا اصدِّق ذلك حتى الآن . فكلُّ شيء ضمنها . ولقد تحققت من ذلك .

وهزَّ رأسه . ورأى بخياله جميع تلك الأعمدة من الأرقام التي كانت تترجم حقيقةً كانت أنظار قليلة قد تركَّزت عليها حتى الآن . ولكن تأثره لم يكن مبعثه رؤية منابع الطاقة الجديدة التي لا تنضب ، تلك الرؤية التي كانت قد ألهبت الأسبوع الماضي دماغ العالم الفرنسي « ألن بريفو » . بل إن وليد دجاني ، العربي ، كان قد كشف ، في تلك الحسابات ، حقيقة مختلفة ، هي الوجه الهائل الخفيّ لحلم الانصهار وبنود إتـفاق « فوستيّ » عُقِد بين « بريفو » وزملائه وبين آلهة العلـم العجيبـة في سبيل التوصّـل الى اكتشافهم . لأنهم إذ قدَّموا للإنسان امكانية طاقة بدون حدود الى الأبد ، فإنهم في الوقت نفسه كشفوا أسرار قوة كانت تستطيع أن تقضي على أية حياة على الأرض . وبين النتائج المدوَّنة لتجارب « فونتناي أو روز » كان ثمة ما يبحث عنه وليد دجاني في الواقع ، أي سرّ القنبلة الهيدروجينية .

ولاحظ القذافي :

- ان كارلوس وكمال عملا حقاً بقسوة . هل انت متأكد من أنه ليس ثمة أي خطر بأن الأمر سيُلاحق حتى هنا ؟ إن من الهامّ أن نحافظ على أطيب العلاقات مع الفرنسيين .

طمأنه وليد دجاني بإشارة ايجابية من رأسه قائلاً :

- لقد صوّروا الأوراق فوراً وأعادوها الى الحقيبة . ثم أعادوا كل شيء الى الشرطة مقابل فدية ، كما

(×) نسبة الى الساحر الألماني « فوست » الذي يبيع نفسه الى الشيطان مقابل خيرات الدنيا . (المترجم) .

لو لم يكونوا إلاّ عصابة قُطّاع طرق .

ـ وهل صدّق الفرنسيون ؟

ـ ظاهراً .

نهض القذافي وحرّك الجمرات التي كانت تتألق في المنقل ، وقال :

ـ يا اخي ! لقد صرّحت لنا ، عندما نظّمنا تلك العمليّة ، بأن الفرنسيين كانوا يعملون لاكتشاف مصدر جديد للطاقة (وهزّ وليد رأسه موافقاً) فكيف يمكنك الحصول على سرّ القنبلة الهيدروجنية إنطلاقاً من هذه الأعمال ؟

وأوضح وليد دجاني قائلاً :

ـ إن ما سعوا الى تحقيقه في باريس هو تفجير مصغّر داخل المختبر لقنبلة هيدروجنية . وكان ذلك التفجير مراقباً للتمكن من استعمال الطاقة التي يطلقها . ويحاول علماء العالم أجمع منذ خمس وعشرين سنة التوصّل الى ذلك ، بعد ان فجّر الأميركان اول قنبلة هيدروجينية .

وتوقّف ، ثم رفع يده نحو قمة رأسه وانتزع منها شعرةً . ولوّح بها أمام عيني القذافي ، وقد حيّرهما الاهتمام ، وتابع :

ـ ان ما كانوا يسعون اليه هو تفجير فقاعة لا يزيد حجمها عن مقطع هذه الشعرة . وفي سبيل التوصّل الى ذلك ، اضطروا الى ضغطها بما يوازي كثافتها الف مرة بواسطة شعاع « ليزر » خلال مدة قصيرة جداً لدرجة ان العقل لا يستطيع ان يُدركها (وأجال نظره في الخيمة الى ان توقفت عيناه على الإبريق ذي العروة الذي كان يسخن على الجمر) لقد كان الوقت قصيراً لدرجة ان الطاقة المنبعثة من الشعاع لن ترفع الا درجة واحدة حرارة القهوة في هذا الوعاء .

وكان القذافي يفتح عينيه المذهولتين . وألحّ قائلاً :

ـ ولكن كيف أمكن لتلك التجربة ان تعطيك سرّ القنبلة الهيدروجينية ؟

ـ لأن الفرنسيين نجحوا ، في آخر المطاف ، بإحْداث التفجير المراقب لقنبلة هيدروجينية . فخلال الفترة الطفيفة التي سبقت فوراً إنفجار فقاعتهم والتي لا تتعدى جزءاً من مليون من الثانية ، كان قد تحقق شكل القنبلة الهيدروجينية ، والوثائق التي استولينا عليها من حقيبة العالم الفرنسي ، هي عرض لتلك التجربة بواسطة المعلوماتية . وهي تكشف العلاقة الصحيحة التي وجب إقامتها بين كل مركّب في سبيل الحصول على التفجير . وهذا السرّ ، هو سرّ القنبلة الهيدروجينية .

وتقدّم القذافي بصمت حتى مدخل الخيمة . وظلّ ثابتا يتفحّص الأفق الذي كانت تخضّبه الشمس الطالعة آنذاك . وبحث عن علامة تنبئ بهبوب القبلي الرهيب ، ولكن شدة زرقة السماء طمأنته . وفيما كان يتأمل الرّمال الشاسعة ، كان يفكّر بأن هذا العالم عالمٌ ظالم لا يرحم ، ولكنه ايضاً عالمٌ بسيط حيث الخيارات ونتائجها واضحة ، عالمٌ يسير فيه الإنسان سيراً مستقيماً نحو البئر . فمن وجد البئر عاش وحمد ، ومن اخطأه ، قضى نحبه .

وبالخبر الذي أبلغه إياه زائره ، ربما يكون أدرك بئره ، تلك البئر التي كان يبحث عنها منذ سنوات

عديدة . وقرفص لحظة ، فيما كان نور الصبيحة يتدفق،وتذكّر حكاية العرّافة المُوشّمة التي كانت قد ظهرت في المخيّم ، فيما كانت أمّه تُعاني أول آلام ولادته . وكانت قد دخلت الى الخيمة التي كان رجال القبيلة ينتظرون فيها الوضع وهم يشربون الشاي ، وكانت قد أفرغت فوق سجّادة عدة تجارتها الشعائرية،وهي عبارة عن قطعة نقدية قديمة وكِسْرَة كأس ونواة تمرة وقطعة من حافر بعير . وكانت حينذاك قد تنبأت بمجيء صبي ، وكانت قد أعلنت ان الله سيباركه وأنه سيكون مميزاً عن الآخرين وسيحقّق الإرادة الإلهية في خدمة شعبه . وما كادت تنتهي حتى كان القسم الأول من نبوءتها يتحقق . وكان صراخ القابلة قد تدفق من خيمة النساء ، وهي تلفظ الجملة الطقسية التي كانت تحيي مجيء المولود الجديد الذكر :

« الله اكبر » .

نهض القذافي ورجع الى داخل الخيمة . وغَرَف من جَرَّة نحاسية قصعةً من لبن رائب خَثِر مستخرج من حليب الماعز ، وعسلوجاً من بلح . ووضعهما على السجّادة داعياً ضيفه الى تناول الطعام .

وفيما كان يدسُّ البلح في اللبن ، فكّر القذافي في نبوءة البدوية العجوز.وكيف أن الله رعاه في الحقيقة . كان الله قد منحه رسالةً مآلها ان يَـرُدَّ شعوبه الى طريق الله،وأن يوقظ الأمة العربية ويقودها الى قدرها الحق وان يصحح الأخطاء التي فُرِضت على أشقائه . وكانت زيارة وليد دجاني تحمل اليه الأمل بأن يتصرَّف قريباً بالوسيلة الحاسمة لتحقيق رؤياه واحتمال السلطان المطلق على الأرض . وخاطب وليد قائلاً :

ـ إذن أيها الأخ ، سنستطيع حقاً أن نصنع قنبلة هيدروجينية إنطلاقاً من الوثائق التي أحضرت إليك مساء أمس ؟

ـ ان هذا ليس اكيداً ، فالطريق ستكون طويلة وشاقة ومزروعة بكثير ، كثير من المكائد ، وعلينا اولاً أن نُنجز برنامجنا الذرّي الجاري العمل به . وبعد ذلك أتساءل كيف سيكون بوسعنا ان نصنع مثل تلك القنبلة دون القيام بتجارب . والحال ، أنه لدى قيامنا بأول تجربة ، سوف يهاجمنا الإسرائيليون بكل تأكيد بقنابلهم بالذات .

هزّ القذافي رأسه ، مفكراً ، وقد أدار نظره نحو الأفق وقال :

ـ يا أخي ! لا عظمة قطّ بدون مخاطرة . ولم تتحقق الانتصارات الكبرى مطلقاً دون التعرّض لأعظم الأخطار . ينبغي ان يكون لدينا مخطط كامل . نحن العرب ،، ها قد مضى ثلاثون سنة ونحن اصحاب حق ، ولكن لا الحرب ولا العمل السياسي مكّننا من بلوغ أهدافنا . واليومَ ، وبفضلك ، سوف نُمكّن العدل أخيراً من ان ينتصر .

ونهض ، مشيراً بذلك الى إنتهاء المقابلة . وختم قائلاً بصوت حار ومفعهم بعرفان الجميل قائلاً :

ـ لقد قمت ، يا أخي ، منذ أن أرسلك الله لمساعدتنا ، بعمل جيّد .

ورافق القذافي ضيفه ، هذه المرة ، على الطريق الرملية ، حتى سيّارته ، وأثناء السير أمسك القذافي بذراع الفلسطينيّ بشكل وديّ . وكانت ابتسامة هازئة خفيفة تُنير وجهه ، وتمتم قائلاً :

ـ يا أخي ! قد لا ينبغي أن تمصَّ هذا القدر من اقراص النعناع . فمثل هذه الحلويّات مُضرة بالصحّة الجيِّدة التي منحك الله إياها .

***

كانت سرقة الوثائق الفرنسية المتضمّنة سر القنبلة الهيدروجينية العمل الأخير من المشروع الذي كان

الديكتاتور لليبي يلاحقه بعناد منذ ان تسلّم السلطة ، والرامي الى تجهيز ليبيا بالسلاح النووي . وكان يدرك بالغريزة معنى القوة . وكيف له حقاً أن يتوصل بصورة أكيدة الى فرض نفسه على رأس حركة بعث الأمة العربية الا اذا أصبح اول رئيس عربي يجهّز شعبه بالسلاح الحاسم ؟

وخلافاً لاسرائيل والهند وافريقيا الجنوبية التي سارت بمنهاجها للتسلّح النووي ضمن نطاق من السريّة التامة ، فإن القذافي لم يسعَ ابداً الى إخفاء جهوده . وكم من مرّة ، خلال هذه السنوات العشر الأخيرة ، كان قد أكّد علناً تصميمه على تجهيز ليبيا بالأسلحة الذرِّية ،وكان العالم يهزأ دائماً بتلك التصريحات ، إذ كان شديد الرغبة في تصوير قائلها - بأنه مغامر من طراز « دون كيشوت » غير قادر على جمع وسائل تحقيق ذلك المطمح .

والخطوة الأولى على الطريق الطويلة التي كانت قد أدّت الى مصرع الفيزيائي « الين برثو » ، كان معمر القذافي قد قام بها ، غداة ثورته ، بإيفاده رئيس وزرائه عبد السلام جلّود الى بكين للتفاوض على شراء القنابل الذريّة الصينية ، ولما أخفق ، إتّجه القذافي نحو الغرب .

وفي سنة ١٩٧٢ كان يحاول شراء محطة نووية كهربائية بقوة/ ٦٠٠/ مليون « واط » من الشركة الأميركية « واستنغهوس » ، اكبر صانع عالمي للمحطات الذرية المدنية . وكان المفروض ان تُركّز على الشاطئ شرقي البلاد ، في منطقة قاحلة وخالية من السكان والصناعات التي تستهلك التّيار الكهربائي الذي سوف تُنتجه . إذن ، كان المفروض رسمياً في تلك المحطّة ان تُستعمل في تحلية ماء البحر والتمكّن من ريّ صحارى المنطقة ، ولكن ، بما أنه حداً لم يكن قد اكتشف بعد وسيلة مُربحة لتحلية ماء البحر بالذرّة ، فقد كان المفروض ان يخطِّط الليبيون لاستعمال مفاعلهم في وجهة اخرى . ومهما يكن من أمر ، فان اعتراض الحكومة الأميركية الفظّ ، على بيع أية منشآت ذريّة الى ليبيا ، وضع حداً لآمال القذافي وحمله على ان يُنشئ في بلده أسس صناعة نووية حقّة . وقد اختار اسماً مرموزاً للمنهاج الذي كان ينبغي ان يجهّز بلاده بالقنبلة الذرية : « سيف الاسلام » . ووضعت العملية تحت الاشراف المباشر لرئيس الوزراء جلّود . وحدّدت عدة مبادىء اتجاهها - فإن صنع القنبلة كان يجب ان يتمّ بغطاء منهاجٍ نووي سلمي . وأوجب القذافي من جهة أخرى ان يُرتّب كل شيء في سبيل الاحتفاظ بالحد الأقصى من المراكز للمهندسين العرب ، إما الاختصاصيين المفصولين من المختبرات الأجنبية ، وإما الشبان الذين توفدهم ليبيا على نفقتها الى أفضل جامعات العالم . واعتباراً من سنة ١٩٧٢ أخذ عشرات الطّلاب العرب يقتحمون فروع الدراسات النووية في الجامعات الفرنسية والألمانية والبريطانية وخاصّة الأميركية . وفي سنة ١٩٧٧ كان خُمس جميع الطّلاب العرب المسجّلين في الجامعات الأميركية يهيئون المباراة للحصول على لقب مهندس نووي .

وأمر الديكتاتور الليبي بانشاء مدينة العلوم على بعد خمسة وأربعين كيلو مترا جنوبي طرابلس وزوّدها تدريجاً بالمختبرات والتجهيزات الأكثر عصريةً المشتراة من الخارج بواسطة شركات خيالية او متواطئة . وأهتمّ شخصياً بالتفاوض لشراء منشآت من أوروبا قادرة على تزويد مهندسين بالبنية التحتية التكنولوجية الضرورية .

وفي سنة ١٩٧٣ وبمناسبة زيارة رسمية الى باريس ، ضغط على الحكومة الفرنسية لتبيعه بعض الأعتدة الستراتيجية الضرورية لتحقيق برنامجه. وقد جاء هذا الطلب مُبكِّراً جداً ، فرفضته فرنسا . وكانت زيادة أسعار البترول المدوّخة التي تكهّن بها القذافي ، لم تلق بعد مليوناً ونصفاً من الفرنسيين الى البطالة . وبعد بضعة اشهر ، كان العقيد الذي لا يكلّ يطالب بشريط من أرض التشاد على محاذاة

حدوده . وكانت تلك المنطقة تحتوي على احتياطي كبير من الأورانيوم عهد بالتنقيب عنه الى فنيين أرجنتينيين . وكان الحدث المفاجئ الناجم عن التفجير الذرّي الهندي في صحراء« راجستان»بتاريخ ١٨ أيار سنة ١٩٧٥ ، من شأنه ان يقدّم دعماً غير منتظر للخطط الليبية . وطمأن رئيس وزراء الباكستان ذو الفقار علي بوتو ، شعبه بأنه سيحصل على القنبلة الذرية ، حتى ولو اضطر من اجل ذلك « لأكل العشب » وكان نجاح ذلك المشروع يتوقف على توقيع عقد اسطوري بقيمة مليار دولار مع فرنسا ، من أجل تقديم مصنع لاعادة معالجة البلوتونيوم وتقديم عدة مفاعلات نووية .

وأثناء شتاء ١٩٧٦ ، وصل سراً الى طرابلس مبعوث باكستاني . وكان بوتو والقذافي قد التقيا في لاهور في شباط ١٩٧٤ بمناسبة المؤتمر الاسلامي وتفاهما منذ اللقاء الأول . وكان المبعوث يحمل آنذاك اقتراحاً مُغرياً لرئيس الوزراء الباكستاني : فإذا ما وافقت ليبيا على دفع الجزء الأكبر من فاتورة العقد المبرم مع فرنسا ، فإن الباكستان سوف تزوّدها بالبلوتونيوم والعون الفني اللذين كانت تحتاج اليهما . وقد سمحت موافقة القذافي للباكستانيين بتوقيع عقدهم مع باريس . ولكن المشاريع النووية الباكستانية كانت تُعَدُّ لمستقبل بعيد جداً ، وكانت تتوقّف على عدد كبير من المعضلات السياسية لتتمكن من إرضاء شهوات سيّد طرابلس الذرية المُلحَّة . وفي ايار سنة ١٩٧٥ ومقابل شراء أسلحة من روسيا بقيمة مليار دولار ومنحها تسهيلات بحرية في مرفأي بنغازي والبيضا ، نجح القذافي في أن ينتزع من الروس تقديم مفاعل تجريبي بقيمة عشرة ملايين « واط » ٠ وكانت تلك المقاولة تمكّنه من ان يستشف في مستقبل قريب ، إمكانية تحقيق اول تفاعل مسلسل على أرض عربية .

وفجأةً ، وفي شباط سنة ١٩٧٦ وافق البلد الذي كان يرفض قبل ثلاث سنوات ان يمدّ القذافي بالعون العلمي النووي ، وافق على تسليمه ما كان يسعى للحصول عليه منذ سنوات . فقد وعد رئيس الوزراء الفرنسي جاك شيراك ، أثناء زيارة رسمية قام بها الى ليبيا ، وعد القذافي بأن يبيعه المفاعل الشهير بقوة/ ٦٠٠ مليون « واط » الذي كان يدّعي استعماله لتحلية ماء البحر .

، وكانت المقابلة الأكثر إثارة التي توّجت سلسلة الجهود الطويلة التي بذلها رئيس الدولة الليبي في سبيل تزويد بلده بالقنبلة الذرية ، قد تمّت في بيئة أبعد ما تكون عن خيمة من جلد الماعز : ألا وهي البهو الملبَّس بالذهب في الكرملين قصر القياصرة . ولم يكن محاور العقيد القذافي ، ذلك اليوم من شهر كانون الأول سنة ١٩٧٦ ، ليونيد بريجنيف ، بل أحد اكثر الأقطاب الصناعية ديناميَّةً والمتحدِّر من بلد كان قد استعمر سابقاً بلده . ومن كان بوسعه ان يرمز الى العالم المرفّه والمرهف المهدِّد اليومَ بصاحب الرؤى ، ابن الصحراء المتقشّف ،اكثر من الأرستقراطي اللامع ، « جياني أنيلّي » ، ووريث « الفيات » ، إحدى اقوى الأمبراطوريات الصناعية في العالم ؟

وكان المُطالِب اليوم هو الايطالي . فقد جاء سراً الى موسكو وسافر متنكراً بجواز سفر احد معاونيه . وكان « أنيلّي » بحاجة الى المال . وكان القذافي يمتلك حتى ذلك الحين عشرة بالمئة من رأسمال « الفيات » المسدَّدَة قبل بضعة أشهر بموجب دفعة بلغت أربعمئة وخمسة عشر مليون دولار بالاضافة الى ثلث قيمة الأسهم في البورصة .

وقد اقترح القذافي ، مثيراً دهشة الرجل الصناعي ـ أن يرفع قيمة اسهامه وان يمنح « أنيلّي » اعتمادات ضخمة اذا قبل ان يحوّل ، بمساعدة روسيا ، جزءاً من امبراطوريته الى صناعة للتسلّح فائقة الحداثة مجهّزة بفرع هام مكرس للبحث ولصنع الأسلحة النووية .

وقد طلب الايطالي وقتاً للتفكير . ولكن رئيس الدولة الليبي كان يعلم ان الزمن كان آنذاك يعمل لصالحه .

الم يتنبأ ، في تشرين الأول سنة ١٩٧٣ ، غداة حرب « كيبور »(×) بأنه سوف يأتي يوم يكون فيه الغرب مستعداً لبيع كل شيء ، حتى نفسه ؟

(×) حرب رمضان او حرب العبور بين مصر واسرائيل (المترجم)

القسم الثالث

« أيها اللواء « دوريت » أبِدْ ليبيا ! »

أكمل رئيس الولايات المتحدة صلاته وقال بورع :
ـ آمين .

وكانت تلازمه رؤية الفطر الذرّي وهو يتدفّق من صحراء ليبيا ، فنهض وعاد يجلس الى طاولة الاجتماع ، وظلّ جامداً فترة طويلة . وكان ثابت النظر ، هادىء الوجه ، مركّز الفكر على اكثر القضايا رعباً التي واجهها رئيس دولةٍ في اميركا حتى الآن وكان وحيداً كرجل ليبيا الذي كان ينتصب اليومَ ضدَّه .

وعلى الرغم من أنه كان يحرص على جمع آراء معاونيه ، فقد كان القرار يعود اليه ، واليه وحده . وأعلن اخيراً :

ـ إن أوّل شيء أودّ قوله ، هو أنه ينبغي أن لا نخضع لهذا الابتزاز . وإذا ما قبلناه ، فإننا سوف نُدمِّر أسس النظام الدولي بالذات .

سجّل الجميع بارتياح صلابة هذه الكلمات التي غيّرت جوّ التردد الذي كان قد سبق التجربة الذرّية الليبية . وكان الرئيس ، غالباً ، موضع انتقاد لحيرته إبّان الأزمات ، أما هذه المرّة ، فإن الأمور كانت تبدو بشكل آخر : فقد كان يُمسِك الدفّة بحزم ، وتابع بجدّية :

ـ يجب ان نعتبر أن هناك حقاً قنبلة هيدروجينية في نيويورك . ويجب أيضاً أن نعتبر القذافي جاداً ، عندما يهدد بتفجيرها ، اذا ما حذّرنا السكان . ولكن من المحتمل أنه يؤدّي لنا بذلك خدمة مناسبة . لأنه اذا علم الأميركان أن سكان نيويورك مهدّدون بالموت من أجل بضعة آلاف من المُستعمِرين الاسرائيليين ، فإن الرأي العام سوف يثور ، ولن يكون أمامنا من مخرج الا أن نُجبر اسرائيل على قبول مطالب القذافي (وتصلّبت تعابيره ، فيما كان يتابع حديثه وجال بنظره الاحتفالي حول الطاولة ثم نحو المقاعد حيث كان يجلس العسكريون) ولا أعتقد ، إذن ، أنّ من الضروري أن اذكّركم بالواجبات الأخلاقية التي لا يجوز خرقها والتي يفرضها هذا الموقف بالنسبة الى جميع الحاضرين هنا . ولا شك ان لبعض منكم اشخاصاً أعزّاء تمسُّهم هذه المأساة مباشرة ، ومع ذلك ، فيجب علينا جميعاً أن نتذكّر أن حياة عدة ملايين من مواطنينا تتوقف على صيانة هذا السر ، أما فيما خصني ، فاني أعتزم التحدّث عن هذه المأساة مع زوجتي . وكما تعلمون ، فأنا أقدر حكمها أرفع تقدير . وأترك الحرية لأولئك الذين من بينكم يشاطرونني هذا الشعور نحو زوجاتهم . ولكن أذكّركم بأنهن يجب ان يتقيّدن تقيداً تاماً بالسرّيّة المطلقة .

والتفت الرئيس نحو معاونه قائلاً :

ـ جاك ! ألديك توصيات خاصة لتأمين السلامة ؟

ـ لا حاجة للقول بأن اجهزة الهاتف المتعلقة بالسلامة يجب ان تُستعمل وحدها . (من المعلوم في

واشنطن ان الروس كانوا يلتقطون مخابرات البيت الأبيض الهاتفية وان الأميركيين كانوا يستمعون الى مخابرات الكرملين)

وأضاف « ايسمان » : - تجنّبوا السكرتيرات ! واذا كان لديكم شيء للتسجيل ، فاكتبوه بأنفسكم باليد ، بدون مسودّة ولا كربون .

وتدخّل امين السر العام للبيت الأبيض ، جايمس ميلز ، وقال بلهجته الجنوبية الفاترة :

- ما العمل لمنع الصحافة من أن تدس أنفها في القضية ؟

تلك كانت مسألة حيوية، ففي هذا البلد ، الذي رفع الحق بالاعلام الى مبدأ مقدّس ، لا يمكن لشيء ان يفلت من فضول الصحافة التي تعتبر أقوى صحافة في العالم وأفضلها تنظيماً . وهناك ألفا صحفي معتمدون لدى البيت الأبيض ، وأربعون او خمسون مراسلاً يرابطون في أمكنتهم ليل نهار تقريباً . وأغلبهم ينهضون كل صباح وهم مقتنعون بأن الحكومة ستكذب عليهم مرّة واحدة على الأقل قبل ان ينقضي النهار . وان جمع تسرّب المعلومات رياضة مفضّلة في واشنطن حيث تشكّل « الأسرار » الحكومية أهم موضوعات الأحاديث في حفلات الكوكتيل والعشاء الديبلوماسية أو في زوايا المطعم الفرنسي ، المطابق لذوق العصر والمسمّى بحق « بيتاً ابيض » .

والحّ « ميلز » :
- يجب إخطار « جون » فوراً .

وكان « جون غولد » يتولّى أحد أدقّ المناصب في بطانة الرئيس . فقد كان الناطق باسم البيت الأبيض ، وكان ينزل مرتين في النهار ، الساعة الحادية عشرة والساعة السادسة عشرة ، الى حلبة قاعة الصحافة لينقل الانباء الى المراسلين ويجيب على أسئلتهم ويتقبّل سهامهم . وأوصى « ايسمان » :
- ينبغي عليه أن يبني سوراً من الأكاذيب ليصمد أمام جميع الهجمات .
وأضاف مدير مكتب التحقيقات الاتحادي :

- وأن يخبرنا حالا عن الصحفيين الذين يبدو انهم مشتبهون بشيء .

وانطلق « ميلز » بانزعاج يقول :

- لا تغضب يا عزيزي ! فاذا ما شمّ احد شيئاً ما ، فسينتشر الخبر خلال الدقيقة التالية .
وسأل الرئيس :
- ألا ينبغي في كل حال أن نخبر رؤساء « واشنطن بوست » و« نيويورك تيمس » وأن نطلب مساعدتهم ؟

وأجاب « ايسمان » :

- لا أرى ذلك . فكلما قلّ عدد الأشخاص في العملية يكون ذلك افضل . إن خير طريقة لصيانة هذا السر هي أن تتصرفوا كما فعل الرئيس كندي أثناء أزمة كوبا ، أي ان لا تغيروا شيئاً من عاداتكم . وأنصح بأن لا تغيّروا حرفّ « ايوتا »(×) في منهاجكم الأسبوعي،ولن يتمكّن شيء ،بفعاليّة، من شلّ حذر

(×) الحرف التاسع من الأبجدية اليونانية . (المترجم) .

الصحفيين ، مثل رؤيتكم تقومون بهدوء بنزهتكم اليومية على الأقدام وتدشّنون شجرة الميلاد الخاصة بموظفي البيت الأبيض .

ووافق الرئيس . والتفت عندئذ نحو الأميرال الذي كان يدير مركز القيادة ، واستردَّ ارتكاساته كضابط قديم ورجاه ان يقدِّم تحليلاً ستراتيجيا للموقف وان يُعدِّد الخيارات امام القوات المسلحة الأميركية .

وصعد الأميرال الى المنصة عند أسفل الشاشات ، ولم يتمكن « ايسمان » من كبت ابتسامة لدى رؤيته هذا العسكري المستقيم كحرف « أي » الذي كان يتحدّث مثل دليل وكالة أسفار ، فيما كان يمرِّر عصاه الصغيرة المضيئة على صور انتشار القوات السوفياتية في العالم . وبما ان تلك المشاهد قد بيّنت ان شيئاً لم يتحرك منذ التفجير في ليبيا ، فقد تدخَّل « هربرت غرين » أمين الدفاع قائلاً :

ـ أوصي يا حضرة الرئيس بأن نخطر الروس حالاً . فعلى الرغم من قلّة أهمية علاقاتهم السياسية مع القذافي ، فإن تجربته النووية تشكل تهديداً لهم أيضاً . ويجب ان نطلب مساعدتهم . وسيكون من المناسب أن نعلمهم أنُ أياً من التدابير التي سنُدعى الى اتخاذها ، لن يكون موجهاً ضدهم .

وأعرب الرئيس عن موافقته بأن اعطي امراً الى « ايسمان » :

ـ جاك ، أخبر موسكو بأني أودُّ التحدُّث مع السكرتير الأول .

وانتعش عندئذ وجه « ميدلبورغر » ممثّل نظارة الخارجية ، الحزين، فقال :

ـ يبدو لي ، يا حضرة الرئيس ـ أنّ من المستحسن أن نُخطر حلفاءنا على أعلى المستويات لننسِّق معهم أيّ عمل سوف نُدعى الى إقراره . وألتمس الاذن بأن توجِّهوا ، سيادتكم ، رسالة غاية في السرّية الى السيدة تاتشر والى المستشارهلموت شميث وعلى الأخص الى الرئيس جيسكار ديستان . ويجب ان لا ننسى أن من المرجّح ان يكون المفاعل الذي باعته فرنسا الى القذافي ، هو الذي زوّده بالبلوتونيوم . وكما أكّدت يا حضرة الرئيس منذ لحظة ، فإن الفرنسيين يجب أن يتمكنوا من تزويدنا بالمعلومات الرئيسية اللازمة للتحقيق الذي يقوم به مكتب التحقيقات الاتحادي حول الأشخاص الذين يعملون في طرابلس لحساب القذافي .

ووافق الرئيس بحركة من رأسه مشيراً الى الأميرال بأن يستأنف عرضه . وكانت الأنوار الحمر ، هذه المرة ، على شاشة شديدة الدكنة ، تُشير الى موقع عمارات الأسطول السادس التي كان أغلبها في عرض جزيرة كريت، حيث كانت تقوم بتمارين قتالية ضد الغواصات . وقد أشارت العصا الى الوحدات الرئيسية : حاملتي طائرات كبريين ، وثلاث غواصات نووية وحاملة صواريخ . وكانت تلك القوة البحرية الأميركية اقرب ما تكون الى طرابلس، وكان بوسعها ان تشق طريقها فوراً نحو الشواطىء الليبية .

وتدخَّل الأميرال « هري فولر » ، رئيس لجنة رؤساء الأركان ، في المناقشة قائلاً :

ـ اسمح لي يا حضرة الرئيس بأن أوضح على الفور نقطة أساسية : ليس ثمة حلّ عسكريّ مُرضٍ لهذه الأزمة . إن بإمكاننا أن ندمِّر ليبيا فوراً . ولكن ذلك لن . . .

وقاطعه رجل التكساس ، والبير كرأنديل » أمين الطاقة بلهجة حادّة :

ـ ليس ثمة حلّ عسكريّ ؟ هل تمزح أيها الأميرال ؟ إن ليبيا عبارة عن مدينتين : طرابلس وبنغازي . وثلاثة أرباع السكان يتجمّعون فيهما . قنبلتان صغيرتان أو ثلاث فوقهما ! طق ! وتُمحى ليبيا من الوجود !

ووافق الأميرال قائلاً :

ـ بوسعنا ، طبعاً ، ان ندمِّر ليبيا حالاً . ولكن أية ضمانة سوف يقدم لنا ذلك على أن تلك القنبلة الهيدروجينية الشنيعة ، اذا ما وجدت حقاً مخبأةً في مكان ما من نيويورك ، لن تنفجر ، مع ذلك ؟

وسأل رئيس الدولة :

ـ يا سيد « ميدلبرغر » ، ما هو عدد سكان ليبيا بالضبط ؟

ـ مليونان يا حضرة الرئيس ، بزيادة او نقص مئتي نسمة أو ألفين تقريباً . فالاحصاءات ليست دقيقة هناك .

والتفت رئيس الدولة نحو رئيس لجنة رؤساء أركان الحرب قائلاً :

ـ هاري ! ما هو عدد الضحايا التي سوف يسببها انفجار قنبلة بقوة ثلاثة ملايين طن في مدينة مثل نيويورك ؟

وحكّ الأميرال ذقنه :

ـ من الصعب تحديد ذلك .

ـ مجرَّد تقدير . . .

ـ تقريباً ، سأقول . . . من أربعة الى خمسةَ ملايين . . .

وحدّق الرئيس بأمين الطاقة قائلاً :

ـ هذا هو الجواب مع الأسف . ليس من حل عسكري لهذا الابتزاز ، يا حضرة الوزير .

وأضاف ، مخاطباً الأميرال :

ـ هاري ، ما هو البديل الذي تقترحه ؟

أجاب « فولر » بقوة :

ـ أنْ نُطلِقَ عملية تخويف مشهديّة . يجب ان نُبيّـن للعقيد القذافي المخاطر التي يعرِّضه ها ابتزازه الكريه . يجب ان نذكره كل ساعة وكل دقيقة وكل ثانية أن في وسعنا ان « ندمِّره بفعل الطاقة النووية الحرارية » وبظرف ومْضَة . وليعِش ويأكل ويتنفس مع علمه بذلك ، وسنرى حقاً ما هي ردود فعله !

ورفع الأميرال ذراعه باتجاه الأنوار الحمر التي كانت تومض على الشاشة وقال :

ـ أقترح ان يتّجه الأسطول السادس نحو ليبيا بالسرعة القصوى . وعندما يصبح على مرأى من الشواطىء ، يجب على العمارات ان تنتشر على مساحة كبرى لتملأ الرادارات الليبية . وعلى حاملات الطائرات ان تطلق آلاتها في موجات متلاحقة فوق الشاطىء ولـيُـعطَ الربابنة التعليمات بأن يكون كلامهم واضحاً حتى يفهم القذافي جيداً أنهم ينقلون ما يكفي من الصواريخ لتحويل بلده اللعين الى بحر من الزجاج ، (وارتسمت ابتسامة جليدية على وجه الأميرال). وهذا العرض للقوّة لا بدّ ان يُبدِّل الطريقة التي ينظر العدو من خلالها الى نتائج عمله .

فيما كان الرئيس يوافق على هذا الاقتراح ، اشتعل نور على جهاز الهاتف الموضوع أمام مدير الوكالة المركزية للاستخبارات . فرفع هذا الأخير السماعة وأصغى لحظة ثم أعادها الى مكانها وأعلن « تاب بنينغتون » قائلاً :

ـ يبدو ، يا حضرة الرئيس ، اننا نواجه مسألة جديدة . لقد اتصلت الاستخبارات الاسرائيلية

برجالنا في تل ـ أبيب . لقد سجّل الاسرائيليون الانفجار على آلاتهم المختصّة . وهم يشتبهون بحصول رمي نووي . وهم يسألون عما نعلم من جهتنا .

أدلهمّ وجه الرئيس . وقد كان من المنتظر ان يكتشف الاسرائيليون موجة الصدام . ولكن لن يتوفر لديهم أي تأكيد ، طالما لن يكون بوسعهم كشف اسقاطات اشعاعية . ومن حسن الحظ ان الأرصاد الجويّة لم تتنبأ بتيارات جويّة في اتجاههم . وهذا الذي كان ينبغي الحصول عليه . كان كسب الوقت ، الوقت الكافي ليتمّ الاستعداد للعمل .

ـ قولوا لهم اننا لا نعلم شيئاً حالياً ولكننا سنتحقق من الأمر .

وكانت سلسلة ساعات الأرقام فوق الشاشات تُشير الى أن الساعة كانت النصف بعد منتصف الليل ، أي الساعة السابعة والنصف في القدس وفي طرابلس . وكان يبقى خمس وثلاثون ساعة وثلاثون دقيقة ، حتى تنقضي مهلة انذار القذافي .

وتأمل الرئيس في الحضور . وقال :

ـ أتمنى أن نحدِّد ، حسب درجة الأهمية ، المسائل التي ينبغي أن نواجهها . اولاً ، هناك نيويورك وأهالي نيويورك . وبعد ذلك ، القنبلة : كيف العثور عليها ومنع تفجيرها ؟ ثالثا ـ القذافي : وكيف التفاوض معه ؟ وتبقى آخر مسألة : الاسرائيليون ، ما العمل اذا أصبح اللجوء الى القوة معهم امراً لا بدّ منه ؟

وأدار مقعده لمخاطبة امين الدفاع مباشرة ، وكانت الحماية المدنية موضوعة تحت مظلّة ادارته المجسِّية(×) .

ـ دكتور « غرين » ، هل توجد خطة طوارئ لاخلاء « نيويورك » من سكانها ؟

أجاب الوزير :

ـ حضرة الرئيس ، لقد طرح الرئيس كندي هذا السؤال بالنسبة الى « ميامي » في اليوم التالي لأزمة صواريخ كوبا . وقد تطلّب الأمر عندئذ ساعتين للحصول على جواب ، وكان سلباً . باستطاعتي هذه المرة ان اجيبك خلال ثانيتين . والجواب مع الأسف ، دائما : لا .

وتدخّل « إيسمان » قائلاً :

ـ تذكّروا ان القذافي حذّرنا بأنه سوف يُفجِّر قنبلته اذا ما شرعنا بالإخلاء . وهذا ، بلا ريب ، السبب الذي من أجله يصر القذافي على إبقاء القضية سرّية . فهو يعتبر أهالي نيويورك بمثابة رهائن . واذا ما عرف هؤلاء ، والحالة هذه ، بالخطر الذي يتعرّضون له ، فانهم سوف يلوذون بالفرار .

ودمدم « جيمس ميلز » قائلاً :

ـ وهل تصدِّقون ، انتم ، هذا الابتزاز الإضافي ؟

وتنهّد الرئيس قائلاً :

(×)متعلق بالمجس وهو زائدة توجد عند بعض الحيوانات تمكنها من القبض على فريستها أو التماس طريقها (المترجم) .

- أخشى ان يكون من الواجب تصديق ذلك أيضاً .
- حتى ولو كان ذلك يُعرِّض خمسة ملايين نسمة لخطر الموت ؟
- هذه الملايين الخمسة من الأشخاص سوف تتعرّض اكثر للخطر ، إذا ما اعتقدنا خطأً ان ثمّة خديعة .

ورفع الرئيس نظره ، مُفعماً بالضيق ، نحو الشاشة التي كانت تُظهر ، ضمن دائرة بيضاء ، البنْغَل(×) المتواضع لعدوّه غير المنظور . وهل كان بوسعه ان يدع ذلك المتعصِّب الذي كان يعيش هناك ، يُملي قواعد تحدّيه الرهيب وأن يمنعه من السعي لحماية مواطنيه ؟
ولم يكن صوته الا همساً ، عندما استأنف قائلاً :

- مهما تكن المآسي التي تنتظرنا ، فليس من حقنا ان ننسى أن مسؤوليتنا الأولى تتناول أهالي نيويورك ، قبل أي اعتبار آخر . (والتفت نحو امين الدفاع) دكتور غرين ، عبِّىء جميع إخصائييك وأعِدّ أفضل خطة ممكنة للاخلاء . فسنفرغ نيويورك اذا اقتضى الأمر .

***

لم يكن صوت الراديو ولا المبرقة الكاتبة ولا الهاتف ليعكِّر الهدوء التام في صحراء معمر القذافي . وكان يصل اليه ، وحده ، انين الريح الحزين والبعيد. وكان هنا ، وسط رماله ، قد اختار الحضور لانتظار نتيجة تجربته النووية ، في نطاق تلك الوحدة التي تلفّها المساحات الشاسعة حيث تكوّنت عقيدته وحيث وُلدت أحلامه . وكان قد فضّل خيمة البدوي ، رمزَ ذلك العرق المهدّد الذي كان يعتزم ان يُعيد اليه كامل قدره ، على مركز القيادة ، ولم تكن تتجلى في ذلك المكان الرهباني ، أية مظاهر من تلك التكنولوجيا التي كان يعتزم السيطرة عليها . لم تكن ثمَّة شاشات تلفزيون يستعرض العالم عليها أمام عينيه ، ولا معاونون باللباس الرسمي يَعُدُّون أمامه الخيارات الممكنة ، ولا لافتات وامضة تذكّره بانتشار قواته . لقد كان القذافي وحده مع انسجام الصحراء وهدوء نفسه .
وكان يعلم انه ليس ثمة هنا مكان ولا زمان للمعقّد ولا للعبثي . فكما أن النور الطالع كان يطرد أوهام الليل ، كذلك كان فراغ تلك الأمكنة يجعل الحياة تقتصر على متطلباتها الأساسية . هنا ، كان كل شيء خاضعاً للصراع الذي لا يرحم في سبيل البقاء .
منذ الأزمنة السحيقة ، كانت الوحدة المدوخة للآفاق غير المحدودة ، قد جعلت من الصحراء. الحاضنة المثالية التي كانت تثير الانسان نحو المطلق . وكان موسى في سيناء ، ويسوع على جبل الأربعين ، ومحمد في هجرته ، قد قدّموا للانسانية الرؤى التي ولّدتها خلواتهم في الصحراء . وكانت سلسلة متوالية من المتصوّفين والملهمين والمتعصبين وأصحاب الرؤى قد انبثقوا هم أيضاً من تلك المساحات الشاسعة الأبعاد ليقفوا في وجه ما اعتاد عليه معاصروهم من إنغماس في اللذة والتهاون .
وفي جو صحرائه المُفْعَم بالألفة المُطمئِنة ، كان هذا البطل الجديد للحكم المطلق ، ينتظر بهدوء نتيجة تجربته النووية ، وكان يعلم أن نجاحه يوشك ان يطلق رد فعل اميركياً فورياً . ولئن كانت تلك ارادة الله ، فقد كان مستعداً للموت في اطار تلك البيئة التي قوّت ارادته . أما اذا اخفقت التجربة ، على العكس ، فلن يكون عليه ، لانقاذ المظهر ، الا ان يندّد بالمؤامرة التي حيكت على أراضيه . وسيلقي القبض على بعض الفلسطينيين وينظِّم تمثيلية لتهدئة استنكار اميركا والعالم .

(×) بيت من طابق واحد في الريف او على شاطيء البحر .

وقد اكتشف سمعه الثاقب طقطقة طوّافة . ونظر إليها تطلّع من زاوية السماء وتطوف على بعد مئتي متر من خيمته ثم تحُط على الأرض . ونزل منها رجل وهو يصيح :

- يا سيدي ، قُضي الأمر .

مدَّ القذافي أمامه سجّادة الصلاة . وكما فعل رئيس الولايات المتحدة ، فقد كان رد فعله الأول ان خرَّ راكعاً ، ولكن صلاته كانت للشكر على الطاقة التي وضعها نجاح التجربة بين يديه . ومن خلال اللحمة المتعددة الألوان للسجادة التي كان يمسّها بجبينه ، كان يرتسم بين خيوط الحياكة شبح المعبد الاسلامي الذي أصبحت لديه الان الوسيلة لاستعادته باسم ايمانه وباسم شعبه : ألا وهو مسجد عمر في القدس .

***

حطّت الطوافة التي كانت تعود بمعمر القذافي من صحراء سيرت الكبرى ، عند الساعة ٧/٣٥ على مسطحة مُـموَّهَـةٍ في غابة من الصنوبر البحري على بعد ثلاثين كيلومتراً ، جنوبي شرقي طرابلس . وقفز رئيس الدولة الليبية الى مقود سيارة « ڤولكسفاكن » بزرقة السماء وأقلع كالاعصار . وبعد أربع دقائق كان يجتاز صفّين من الأسلاك الشائكة المكهربة ويدلف الى مجاز طويل من أشجار السرو ، تتبعه سيارة جيب ملأى بالحرس الخاص ذوي القبعات الحمر . وكان المجاز يقود الى مكانٍ في منتهى السريّة ، تحميه كتيبتان من قوات الأمن . ولم يسبق أبداً لأي ديبلوماسي أجنبي او أي زائر ذي شأن أو أي رئيس دولة عربية شقيقة أن تسلقوا درج البيت الأنيق الذي كان ينتصب عند نهاية المجاز ، جاثماً داخل غابة من الاوكالبتوس على شاطئ البحر المتوسط .

وكانت دارة « بياتري » ، بأعمدتها المتقنة الصنع ورواقها ذي الأعمدة « الدوردّية »(×) ، تذكّر بأحد مساكن النبلاء الايطاليين ، شُيّد « خطأ » عند مدخل القارة الافريقية ، وكانت الدارة قد بنيت فعلاً من قبل أحد الرومان المنتمين الى ارستقراطية تجارة الأقمشة ، وكان قد خلع عليها اسمه . وبعد موته ، اصبحت قصراً لحاكم ليبيا العام الفاشستي في عهد موسوليني ، ثم مقراً لشقيق الملك إدريس عاهل ليبيا ، ثم ، فيما بعد ، قصراً لقواد قاعدة « ولس » الجوية الأميركية القريبة من طرّابلس .

أما الآن ، فإن دارة « بياتري » كانت تضمُّ المقر العام للعمليات الخاصة للعقيد القذافي .

وهناك حيكت المؤامرة الدامية ضد الرياضيين الاسرائيليين بمناسبة الألعاب الأولمبية في ميونيخ ، وكذلك عملية مطار روما ، في كانون الأول سنة ١٩٧٣ ، لاغتيال كيسنجر ، وخطف وزراء النفط لدى « الأوبيك » ، ومهاجمة طائرة « العال » بالصواريخ على مدرجات « اورلي » وخطف طائرة « عنتيبا » . وكانت أشجار الأوكالبتوس في الحديقة تخفي الهوائيات التي كانت تنقل أوامر القذافي الى ثوار الجيش الجمهوري الارلندي وارهابيي عصابة « بأدر » الألمان وارهابيي الفصائل الحمر الايطالية والى فدائيي الجيش الأحمر الياباني وحتى الى المتعصبين المسلمين المتسلّلين الى طشقند والتركستان السوفياتي . وكانت أقبيتها ، التي كانت تحفظ قديماً أفخر الخمور الايطالية المستخرجة من هضاب « توسكان » ، قد حُوِّلت الى مركز للارسال فائق الحداثة ، مرتبط ، خاصة ، بمنشآت الرادار الليبي . وكانت قد أُقيمت في بهوها تصاميم مصغّرة عن مراكز قيادة طائرات « بوينغ ٧٤٧ » و« ايرباس » لتدريب خاطفي الطائرات على افشال محاولات الربابنة الرامية الى التصدّي لمشاريعهم . وعلى الجدران كانت خرائط العالم تُشير بعلامات حمر الى خطوط السير التي تسلكها أغلب الشركات الجوِّية ، في حين كانت أكداس من المصنّفات ترتب جميع المعلومات الهامَّة حول كل رحلة . وكان رئيس الدولة الليبية ، نفسه ، هو الذي زوَّد روّاد دارة

(×) نسبة الى « دوريد » وهي مقاطعة في جنوبي غربي آسيا الصغرى (المترجم) .

« بياتري » بشعارهم القائل : « كل ما يغرز شوكة سامَّة في رِجْل أعدائنا فهو حسن » .

قبل أن يترك القذافي صحراءه ، كان قد استبدل « غندورته »(×) البدوية بالبزّة الرسمية من القماش الكاكي المكويّة بعناية فائقة ، والحاملة فقط شارات العقيد المخيطة على كل من الكتفيتين . وكان ازرقاق دائري تحت عينيه ينم عن الارهاق والتوتر العصبي اللذين عانى منهما خلال الايام الأخيرة ، ولكن وجهه كان يشع سعادة .

ـ لن يجبرني أحد بعد الآن على البقاء مكتوف اليدين ، بينما يُجرِّد إخواني الفلسطينيون من وطنهم .

بهذه الحيويّة المُفرِطة المُنتصرِة ، كان قد تحدّث الى معاونيه الذين حضروا لتحيته : رئيس وزرائه عبد السلام جلود ، احد رفاق انقلابه القلائل الذين بقوا الى جانبه ، والمسؤول عن دائرة استخباراته وقواد جيش البرّ والطيران . وكان رئيسهم قد عوَّدهم على نزوات مزاجه غير المتوقعة . . وكان يحدث له ان ينفجر بفورات غضب مخيفة أو ينطلق بمناجاة لا تنتهي دون ان يجرؤ احد على مقاطعته . وكان يبدو ان تلك كانت حاله ذلك الصباح وكان يزعق قائلاً :

ـ لقد ترك العالم بأجمعه هؤلاء المجرمين الاسرائيليين يسرقون أراضي اشقائنا ويزرعون فيها مستوطناتهم اللعينة ، دون ان يحرِّك أحد ساكناً . سلام السادات ؟ إنه لدجل كبير ! سلام في سبيل ماذا ؟ حتى يتمكن اليهود من الاستمرار في نهب أشقائنا الفلسطينيين ؟ إنهم يتحدثون عن الحكم الذاتي . . . (وضحك القذافي ساخراً .) حكم ذاتي ، نعم ، لكي يتمكن الأجنبي من الاستيلاء على بيتنا ! آه من السادات ! انه رئيس اربعين مليون نسمة . وقد اعطاه الله حصان الخليفة الأبيض الكبير ، فماذا فعل ؟ لقد تمدّد في منتصف الطريق واستسلم للرقاد . وأنا ، ما هي المطيَّة المتوفرة لي ؟ الحمار الليبي الصغير ذو الحوافر الذهبية ! كنت احلم بأن أقود شعباً لن يُضيع وقته في النوم ، شعباً سوف يقضي أيامه في الجبال يستعدّ لاسترجاع اراضي أشقائه الفلسطينيين ، شعباً سوف يحترم شريعة الله المقدّسة ويطيع تعاليم القرآن ، لانه كان يريد ان يكون مثالاً للآخرين . . . ولكن أيّ شعب سأقود ؟ شعب نائم ! شعب لا يهتم بما يحدث لأشقائه في فلسطين . أناس لا يحلمون الا بابتياع سيارة « مرسيدس » وثلاثة أجهزة تلفزيون . . . لقد درّبنا نخبة شبابنا على قيادة طائرات الميراج في قلب المعركة ، فماذا فعلوا ؟ لقد ذهبوا يفتحون دكاناً في الأسواق لبيع مكيّفات الهواء اليابانية !

كان العنف الذي يحرِّك وجه الديكتاتور يبهر من كانوا حوله . وانفجر في ضحكة انتقام :

ـ ولكن الآن ، أية اهمية ؟ فبفضل قنبلتي ، لم أعد بحاجة الى ملايين الرجال ورائي ، تكفي حفنة صغيرة تكون مستعدّة لدفع الثمن الذي أطلب ! هل فتح الخليفة العالم بملايين الرجال ؟ كلا ! عُصبة من الرفاق كانت كافية ، لأنهم كانوا أقوياء ومؤمنين .

وضرب القذافي الهواء بالعصا ذات التُفَيْحة(××) الفضّية التي كان يحملها منذ ان كان قد تابع الدروس المخصصة للضباط في انكلترا . وكان صوته قد اصبح رقيقاً بل شبه نحيبيّ .

ـ من جهة أخرى ، أنا لا أطلب المستحيل من الأميركان . ولا أطلب تدمير اسرائيل،فلن يستطيعوا اعطاءنا ذلك . وأنا لا أطالب الا بما هو عادل . فليعيدوا لنا الضفّة الغربية والقدس ، والدنيا بأسرها سوف تمنحنا دعمها في سبيل هذين الهدفين .

وكان رئيس الوزراء ، عبد السلام جلّود ، يُربِّت بعصبية على دَرْز بنطاله . كان معون القذافي الوحيد الذي كان يُظهر العداء لخططه .

(×) صدار بدون كمّين (كلمة مغربية) ـ المترجم) .

(××) كرة صغيرة في طرف مقبض سيف (المترجم) .

ـ أنا أصرُّ على القول ، سيدي ، إن الأميركان سوف يُدمِّروننا . إنهم يتآمرون منذ الآن مع لاسرائيليين ليخدعونا، وذلك بحملنا على الاعتقاد بأنهم سيقبلون مطالبك . وسوف يضربون عندما نكون قد خفضنا حراستنا .

وقاطعه القذافي مشيراً الى علبة صغيرة سوداء كانت موضوعة على طاولة مركز قيادته ، وقال :

ـ لن نُخفِّض حراستنا أبداً . وهذه ملاذنا من الآن وصاعداً .

وكانت الآلة ، وهي انتاج آخر للمهندسين اليابانيين في شركة « اورينتال الكتريك » ، تشبه علبة الادارة المسافية في جهاز التلفزيون . وكان القذافي يستطيع ، بإصبع واحد ، ان يُرسل دفعاً الكترونيا الى المِعْقَل المُعَدّ تحت الدارة . وفي هذا المِعقل ، الموضوع تحت المراقبة المستديمة من قِبَل ثلاثة جنود من حرسه ذوي القبعات الحمر ، كان ثمة نهائي الناظمة الآلية الذي سيستجيب لهذا الدفع ، فيرسل الى القمر الصناعي « اوسكار » الأمر المرموز الذي سيفجِّر القنبلة المخبأة في نيويورك . وتابع الديكتاتور الليبي قائلاً :

ـ ان الأميركان ليسوا مجانين . وهل تظنّ أن خمسة ملايين.اميركي سيقبلون الموت من أجل حفنة من الصهيونيين ؟ من أجل تلك المستوطنات التي ناهضوها دوماً ؟ ابداً ! انهم سوف يجبرون اسرائيل على اعطائنا ما نريد . وفي كل حال ، ليس لدينا سبب يجعلنا نخاف من الأميركان . ولقد استطاعوا ، حتى الآن ، ان يتجاهلونا وان يساعدوا الاسرائيليين على أن يدوسوا بأقدامهم على أمل اشقائنا الفلسطينيين في الحصول على وطن. وقد كانوا سلطة فوق السلطة ، وكانوا في مأمن . (وغضّنت ابتسامة زاويتي فمه) . وبعد ، يا أشقائي ، إنهم لا يزالون سلطة فوق السلطة ، ولكنهم لم يعودوا في مأمن .

***

كان رئيس الولايات المتحدة قد ترك قاعة القيادة في «البنتاغون» للتشاور مع رئيس الكرملين . وفي غيابه كان معاونوه قد تفرّقوا الى حلقات صغيرة ، في حين كان بعض البحارة بالبزّة البيضاء يقدّمون أوعية قهوة مُدَخَّنة كبيرة . وكان جاك ايسمان وحده قد بقي في مكانه . وكانت تتراكم أمامه وثائق مختلفة دوّن عليها جميعها تقريباً « سرّي جداً » . كانت تلزمه إرادة قلّما تتوفر ، ليطرد من فكره المشهد المرعب الذي كان قد حضره لتوّه ، وليركّز نفسه على عمله . وكان عليه ان يحدِّد اتساع الأزمة بكل دقّة وان يقدِّم للرئيس ، بالايجاز والوضوح اللازمين ، الحلول الممكنة ، لمواجهتها ، حتى ولو كانت لا تبدو الا سلسلة من التدابير الرؤيويّة(×) .

وفتح أوّل المجلّدات الأربعة المعنونة « الجواب الاتحادي على الطوارىء النووية في زمن السلم » . وكانت ملايين دولارات المكلّفين وآلاف الساعات من الجُهد قد ابتُلعت لاعداد هذا المخطّط ، وبعد استعراض سريع ، استبعده « ايسمان » باشمئزاز . فمدينة نيويورك سوف تتحوّل الى رماد قبل ان يتمكّن احد من حلّ رموز الرطانة البيروقراطية ! وكان يوجد فوق عمود مجاور مذكرة بمنتهى السرّية ، أعدها في ايلول سنة ١٩٧٥ ، المستشار العلمي للرئيس فورد ، تحت عنوان « التدمير الكلي والارهاب النووي » .

ولم يتمالك إيسمان نفسه من التشديد ، بتذمّر ، على صلافة وسخرية احدى التوصيات القائلة : « تدرّبوا مسبّقاً على تصنع جميع الأزمات الممكن تخيّلها ، على ناظمة آلية . وهكذا ، وعندما تنشب الأزمة الحقيقية ، فإن الناظمة سوف تبيّن لكم الطريق الواجب سلوكه . »

(×) متعلق برؤيا القديس يوحنا التي تتميز بوصف مذهل لنهاية العالم (المترجم) .

وأعلن الأميرال المسؤول عن مركز القيادة :

ـ الرئيس ، ايها السادة .

عاد الرئيس بخطى سريعة الى طاولة الاجتماع وأعلن قبل ان يجد احد الوقت للجلوس :

ـ لقد تمكّنت من التحدّث الى السكرتير الأول . فأكد لي ان الاتحاد السوفياتي يشجب بدون تحفّظ ابتزاز القذافي،وعرض عليّ تعاونه التام ، وسيكلّف سفيره في طرابلس تسليم رسالة شخصية الى العقيد ، تهدف الى التنديد بعمله وتحذره من نتائجه .

وانتعش مرة ثانية الوجه الحزين لممثل نظارة الخارجية وقال :

ـ حضرة الرئيس ! هل أستطيع ان أسمح لنفسي ، كنتيجة لذلك التدخل ، أن أوصي بعمل ديبلوماسي عالمي تكون الغاية منه أن نبرهن للقذافي أنّه وحده تماما ؟

ـ ليس لديّ أيّ اعتراض على ذلك ، على الرغم من أنني ارتاب في نتيجة مثل هذا الضغط على رجل من هذا النوع .

واقترح ايسمان :

ـ اعتقد ان ثمة مجالاً لأن نطلب من ناظر العدلية ان ينضمّ الينا . لأن استقصاءً مماثلاً سوف يتطلّب بدون ابطاء بعض الترخيصات الإستثنائية .

وقَلِق جايمس ميلز من جهته فقال :

ـ وما العمل بالنسبة للكونغرس ؟

اتخذ الرئيس هيئة كئيبة . فعلاقاته مع سادة « هضبة الكبيتول » لم تتألّق قط بصميميتها . ومع ذلك فان القضية كانت من الخطورة حتى أنه كان يشعر بانه مُلزَم باطلاع زعماء الكونغرس الرئيسيين عليها .

ـ جايمس ، حاول ان تعرف من هم الممثّلون الذين كان جون كندي قد انبأهم بأزمة كوبا في مستهلّها .

وذكر ايسمان قائلاً :

ـ يجب ان تواجه ايضا الجانب الدستوري . ويجب يا حضرة الرئيس اخطار حاكم ولاية نيويورك ، ورئيس بلدية المدينة ، خصوصاً وأن هذا الأخير على خط النار .

وكرر الرئيس وهو يفكّر :

ـ رئيس البلدية ؟ هذا شخص يوشك ان يطرح الأسئلة .

وكان رئيس بلدية نيويورك حقاً شخصاً مرتاباً وحساساً ، وكان يجب التعامل معه بحذر .

ـ ولكنك على حق . وينبغي ان ندعوه الى هنا وان نقول له الحقيقة بصراحة .

وأبدى الجميع موافقتهم . ثم نهض ايسمان ، وبذلك الصوت الهادىء الذي اعتاد ان يُلخّص به القضايا الأكثر مأساوية ، أجمل الموقف كما يلي :

ـ يتراءى لي يا حضرة الرئيس انه ليس لدينا إلا خطّا عمل ممكنان .الأول، بطبيعة الحال ان نجد القنبلة وأن نبطل مفعولها . وقد أعطيت جميع الأوامر بهذا المعنى الى مكتب التحقيقات الاتحادي والوكالة المركزية للاستخبارات اللذين سبق ان باشرا ابحاثهما . والثاني هو ان نتصل بالقذافي وأن نقنعه بأنه مهما كانت شكاواه من اسرائيل ، فإن تهديده لمدينة نيويورك يشكّل وسيلة غير مسؤولة تماما وليس من شأنها ان تحقق له أيّة ترضية . وكما قلت ذلك ، بنفسك هذا المساء ، إننا امام قضية ابتزاز إرهابية ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، مع أخذ رهائن ، إننا امام مُتهوِّس يمسك مسدساً مصوّباً الى صدغ خمسة ملايين شخص . وعلينا إقناعه بأن يترك سلاحه وأن يقبل بالتفاوض ، بالطريقة نفسها التي كنا سوف نسعى

لاستعمالها مع أي ارهابي يحتجز عدداً من الرهائن . ولدينا ، هنا بالذات ، عدة خبراء يعرفون الوسائل للتوصّل الى ذلك،واقترح دعوتهم ليقدّموا لنا النصح بهذا الشأن .

ـ أنا موافق تماماً يا جاك ، نظّم اجتماعاً فورياً في البيت الأبيض .

وتدخّل عندئذ رئيس أركان جيش البر فأعلن بحزم :

ـ اخشى يا حضرة الرئيس أننا ننسى نقطة أساسية . فأنا من رأي الأميرال فولر وأعترف بانه ما دام ثمة خطر تفجير القنبلة الهيدروجينيةفي قلب نيويورك ، فليس لدينا أيّ خيار عسكري ضد ليبيا . وهذا لا يعني انه لهذا لا يجب ان نستعد لعمل عسكري ، ليس ضد ليبيا ، بل ضد إسرائيل .

ـ اسرائيل ؟

ـ اسرائيل ، يا حضرة الرئيس . لانه اذا كانت تلك القنبلة موجودة حقا في نيويورك ، فهذا يعني أن لديك في احدى كفتي الميزان حياة خمسة ملايين اميركي ، وفي الكفّة الأخرى طرد بضعة آلاف من الاسرائيليين الذين لم يكن لهم ، في أي حال ـ أيّ حق بأن يقيموا حيث هم . بضعة آلاف من المستعمرين المتعصّبين أم مدينة نيويورك ؟

وتوقّف اللواء لحظة ، ليراعي تاثير كلامه ، ثم خلص الى القول :

ـ أحبّذ ان نُخطِر الفرقة الثانية والثمانين المنقولة جواً ، وفرق ألمانيا وان نحتفظ في البحر المتوسط الشرقي بسفن نقل جنود الأسطول السادس بدلاً من ارسالها نحو ليبيا على متن حاملات الطائرات . وأوصي بأن تجري نظارة الخارجية اتصالا متحفظاً مع السوريين (ولطّفت وجهه إبتسامة خبيثة) وأعتقد انهم سيكونون على استعداد لمنحنا تسهيلات الهبوط في دمشق عند الضرورة .

وترقّب اللواء إشارات الموافقة بين الحضور ، وجاراه في الرأي جيمس ميلز :

ـ اللواء على حق . والواقع ان هذه المستوطنات المزروعة في الأراضي المحتلة هي حتماً غير شرعية . ولقد اعترضنا عليها دائماً . وانت نفسك يا حضرة الرئيس قد شجبتها . واذا ما دُعينا الى الاختيار بينها وبين نيويورك وأذا مارفض الاسرائيليون ان يطردوا مستعمريهم ، فيجب ان نستعد لطردهم بأنفسنا .

وصحّح الرئيس بلهجة جافّة جداً قائلاً :

ـ مهما كان رأينا بشأن مستعمرات الضفّة الغربية هذه ، وأنتم تعلمون رأيي ، فلا مجال للبحث بإلزام الاسرائيليين باخلائها الآن . وسيكون معنى ذلك الخضوع لابتزاز القذافي . وسيبرهن هذا للعالم ان هذا النوع من العمل مُجْدٍ .

واستأنف « جيمس ميلز » بلهجة جافّة :

ـ يا حضرة الرئيس ، إن وجهة النظر هذه ، هي حقاً محترمة للغاية ، ولكن أخشى ان لا تساعد أهالي نيويورك بشيء .

وكان جاك ايستمان قد تتبّع المجابهة دون أن يشترك فيها . وفجأة تناول الكلام :

ـ وعلى أيّ حال ، فهناك شيء أكيد : وهو أن هذه القضية حيويّة بالنسبة لاسرائيل . وسنحسن صنعاً اذا ما اخبرنا السيد « بيغن » بدون إبطاء .

ومن مجرّد ذكر اسم رئيس الوزراء الاسرائيلي،أظلم وجه الرئيس، بفعل تكشير خفيّ . فإن أيّ زعيم سياسي في العالم لم يسبّب له من الآلام مثل هذا الاسرئيلي الذي كان قد تحمّل أياماً وأياماً أحاديثه التي لا تنتهي حول تاريخ الشعب اليهودي والاستشهادات الأبدية بالتوراة التي كان يعرفها اكثر منه ، ناهيك عن تلك العادة المزعجة التي كانت تدفعه الى الجدال حول النوافل الأكثر تفاهةً . وفكّر بتعب بالذكرى الشاقة

التي خلّفها له سباق « المراتون »(×) في « كمب دافيد » وبكنوز الصبر التي لجأ اليها للتغلُّب على تصلُّب رئيس الوزراء الاسرائيلي . وفضلاً عن ذلك فقد كان لا يغفر له تحدّيه إياه بإقامة المستوطنات الجديدة في الأراضي المحتلة ، وبالاستفادة من مشاكله السياسية الداخلية بالذات لمخاطبة الطائفة اليهودية الأميركية ، من فوق رأسه .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من عواطفه الشخصية ، فلم يكن لديه الخيار . وتنهّد وقال :

- انك على حق ، اطلب لي السيد « بيغن » .

***

كان عَدْوُ الحصان السريع يَرِنّ في ممر الخيالة في غابة بولونيا التي كانت لا تزال مقفرة . وكان النهار يطلع متأخراً في باريس في كانون الأول ، وكان الفارس ينبثق من الظلمات كشبح الأساطير . وليس من شيء كان بوسعه ان يُلائم شخصية رئيس دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية (دائرة الاستخبارات الفرنسية) اكثر من الظلام الذي كان يلفّ نزهته الصباحية على الجواد .

وفي عهد كانت فيه اللوحات على الطرق السّيارة الأميركية تشير الى اتجاه مركز الوكالة المركزية للاستخبارات وأسماء مأموري دائرة الاستخبارات البَريطانية تُشكل«غذاء»لمناقشات في مجلس العموم ، كانت المنظمة التي يديرهااللواء هنري بارتران لا يزال يلازمها هَوَس السرّية ، كما لو كانت دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية تود أن تزعم أنها غير موجودة . وكان اسم قيادتها العامّة وعنوانها غير واردين في أي دليل للهاتف او للشوارع.ولم يكن اسم بارتران أو أيّ من مرؤوسيه وارداً في أي دليل اسمي او مُصنّف وزاري . حتى ان اسم « بارتران » لم يكن اسم الأسرة الحقيقي لهذا الرجل الضخم والمغلق ، الذي كان في الخمسين من عمره . بل كان اسماً حربياً اختاره عندما كان قد التحق سنة ١٩٥٤ بدوائر الاستخبارات ، بعد أن كان نقيباً شابا في الخيالة في الهند الصينية .

وخفّف بارتران مشيته وعاد بخطى عاديّة الى اصطبل ، « بَغَتّال » للبولو(××) . ومنذ خمسة عشر عاماً مرّت على انتمائه الى هذا النادي الأنيق ، لم تظهر هويته في الفهرس ذي التجليد الأخضر الذي يُنشر كل سنة . وعندما اقترب من الرتاج ، دُهِشَ للتعرف على الشبح الذي كان ينتظره في الظل . وكانت قضية لها طابع الاستعجال الأقصى تستطيع وحدها ان تحمل « بالمر هوايت هاد » رئيس دائرة الهوائيات في الوكالة المركزية للاستخبارات في باريس ، على المجيء الى هنا في مثل تلك الساعة .

أطلق بارتران فيما كان يقفز عن الحصان عبارة :

- مرحباً يا عزيزي !

وقبل أن يجد « هوايت هاد » الوقت للجواب ، قاده برتران نحو المرجة قائلاً : « تعال معي ، أريد أن أجفّفه . »

خلال بضع دقائق ، تمشّى الرجلان الى جانب الحصان ، على العشب حيث كانت خيول البارون « روتشيلد » الصغيرة تلعب البولو مع الرعاة الأرجنتينيين . ولم يكشف ممثل الوكالة المركزية للاستخبارات لزميله الفرنسي التهديد الذي كان يضغط على نيويورك . بل اكتفى باعلامه بأن الحكومة

(×) سباق طويل المسافة ٤٢,٥ كلم باسم مدينة يونانية .
(××) لعبة رياضية تمارس على متون الخيل بمضارب طويلة وكرة خشبية .

الأميركية كانت قد تلقّت الدليل القاطع على أن القذافي كان قد صنع قنبلة هيدروجينية ، إنطلاقاً ، على الأرجح ، من البلوتونيوم الذي وفّره له المفاعل الفرنسي ، وأنه كان يتهيأ لاستعمالها لغايات إرهـابية . وكانت واشنطن تشعر بحاجة ملحّة لمعرفة هوية أي شخص كان قد استطاع المساهمة في البرنامج الذري الليبي . وأجاب برتران :

ـ أنت تعلم ، انه لما كانت لهذه القضية تورُّطات نووية ، فانه ينبغي ان استحصـل على موافقة رؤسائي قبل ان أدُسَّ انفي فيها ـ على أنني متأكد ، بالاستناد الى ما قلته لي لتوِّك ، أنه لن تكون ثمّة أية صعوبة .

وهزّ الأميركي رأسه بجديّة :

ـ أنا على علم بأن رسالة شخصية من رئيسنا هي في طريقها الى الأليزيه .

وتصافح الرجلان . وفيما كان الاميركي يصعد الى سيارته ، إلتفت قائلاً :

ـ كُـنْ ، يا هنري ، متحفظاً جداً ، جداً .

وبعد دقيقتين ، كانت سيارة بيجو ٦٠٤ رمادية بقيادة أحد السائقين ، تترك الغابة وتختلط بالسـير الصباحي على الجادّة المحيطية . وكان برتران لا يزال ينضح من جراء نزهته على الجواد ، وقد جلس مرتاحاً بين مُـتكآت المقعد الخلفي واسند رقبته الى مسند الرأس ، وكانت عينـاه مغلقتـين ، بعـد أن استسلـم للرقاد . ولكن قبل ذلك كان قد أعطى ، بالهاتف اللاسلكي ، الأوامر التي يقتضيها الموقف . أما الآن فقد كان ـ على غرار قُـدْوتَه نابوليون ـ يغتنم فرصـة بعض لحظـات الراحـة ، ليكون في أحسـن حالـة استعداداً للتجربة التي كانت تنتظره .

***

كانت أشعّـة الشمس الأولى تنير الحجارة الشقراء للبيت رقم ٣ شارع بلفور في القدس . وكان النسيم يحرك أشجار الصنوبر التي كانت تحجب ، عن أعين الفضوليين ، مقر رئيس وزراء اسرائيل . وكانت الساعة حوالي الثامنة صباحاً ، ذلك الأثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول .

وعند نافذة المكتب ، في مؤخّـر الطبقة الأرضية ، كان يقف رجل بلا حراك . وكان يتأمل ، نَـكِـدَ المزاج ، صفّ اشجار الورد التي كانت تحيط بجدار الحديقة . وفي الخلف ، وعلى بعد مئة متر تقريباً ، كان باستطاعته ان ينظر الى كتلـة فنـدق الملك داود تبـرز بوضـوح على زرقـة السماء ـ وكان سيل من الذكريات يتدفّق كل مرّة ، لدى رؤية هذا المبنى ، الى ذاكرة مناحيم بيغن . ففي تموز ١٩٤٧ وعلى رأس مفرزة من مغاوير الايرغون ، كان قد فجـرَّ جناحاً من هذا الفندق ، مُحـدثاً موت تسعين شخصـاً من العسكريين الأنكليز وتدمير مركز للقيادة البريطانية بكامله . وكانت هذه المفخرة قد أمّنت له مكانـة في تاريخ وطنه الذي لم يكن قد وُلد بعد في ذلك العهد . وخلفـه وعلى احـدى خزانـات الرفـوف الملأى بالموسوعات ، كانت صورة عن تلك الأيام البطولية تظهره بالقبّعة المستديرة والردنكوت السـوداء وذقـن الحاخامين . وفي حين كان ثمّـة وعد بمكافأة لقتله او أسره ، كان هذا التنكّر قد أتاح له غالباً ان يتسلّل الى شوارع تل ابيب على مرأى من الجنود الانكليز . ومن سخرية القدر ، أنه كان يشغل الآن المنزل القديم لمن كان أشد اخصامه شراسة ، اللواء باركر ، قائد الجيش البريطاني ، الذي حاز شهرة حزينة لأنه نصح مواطنيه « بضرب اليهود حيث يكون ذلك أكثر ايلاماً ، أي في محفظة نقودهم » .

وترك بيغن فُـتْـحَـة النافذة . وكان يرتدي ، كعادته ، بِـزة رمادية كاملة الأناقة ، وقميصاً أبيض وربطة عنق قاتمة . وكانت أناقتهتُـميِّزه في ذلك البلد حيث يُـشكِّـل ارتداء ربطة العنق مفارقة تاريخية وتثير ثنّية البنطال الفضول .

وعاد الى طاولة عمله . كان قد تلقّى اليها لتوّه مخابرة رئيس الولايات المتحدة . وأعادمرة اخرى قراءة الملاحظات التي دوّنها أثناء المحادثة ، قاطعاً قراءته عند كل جرعة من الشاي الفاتر المحلّ بالسكّريل ، الفطور الوحيد الذي كان يسمح لنفسه بتناوله ، منذ الأزمة القلبية التي أصيب بها قبل خمس سنوات .

وكما فعل الرئيس الأميركي قبل ساعة ، فقد وجّه هو أيضاً صلاة الى إلهه ، إله اسرائيل . ولم يخامره أيّ ريب بشأن أهمية الخبر الذي كان قد علم به لتوّه . فقد كان يمثّل أشدّ ما حصل في حياته من اضطراب جذريّ يتناول تعادل القوى في الشرق الأدنى . ومن الطبيعيّ ، أن يكون لأميركا من هذا الخبر ، الأولوية ، لجهة التهديد المرعب الذي كان يضغط على سكان نيويورك . ولكن واجبه ، هو ، كان في تقدير الخبر بالنسبة للخطر الذي يتعرّض له شعبه وبلده . وكان ذلك يُشكّل ، والحالة هذه ، تهديداً بالموت .

وفي تلك المحنة ، كان بيغن متأكداً من أنه لم يكن بوسعه ان يعتمد على صداقة رئيس الولايات المتحدة . وإذا ما ظلّ معترفا له بالجميل من أجل الجهود الحميدة التي بذلها في سبيل السلم في الشرق الأدنى ، فانه لم يكن يمحضه إلا ثقة نسبيّة ، كأي شخص ينتمي الى الغوييم(×) . وفي الواقع ، فقد كان يحترس حتى من عدد كبير من اليهود . وكان معارضوه السياسيّون يعيبون عليه عقليّة « الغيتو » وطريقته الحقيرة والمحدودة في مجابهة المواقف والتي لا تليق بزعيم دولي.وعجزه عن فهم أية مسألة إلا بالنسبة لبعدها اليهودي فقط . وكان مَردّ ذلك الى الارث الطبيعي الذي انتقل اليه من ماضيه المتمثّل في مجابر بولونيا وحداثته بين الأنصار وسنواته الأولى كزعيم سرّي يناضل لطرد الأنكليز من فلسطين . ولم يكن انذار القذافي بنظره الا الفصل الأخير والنهاية المحتومة لنصف قرن من النزاعات بين اليهود والعرب . وثمّة رؤيا كانت تقوده دوماً ، الا وهي رؤيا معلّمه « ڤلادمير جابوتنسكي » التي كانت تحتل مؤلفاته مركز الشرف في مكتبته . تلك كانت رؤيا أرض اسرائيل ، الأرض التي لا تعود الى دولة مقطّعة الأوصال ، فتات سقط عن طاولة الأمم ، كان خصمه بن غوريون قد قبل به عام ١٩٤٧ ، بل أرض اسرائيل الكبرى ، كما وردت في التوراة .

وكان استيطان تلك الأرض المسترجعة وتوفير السلام لشعبه ، الهدفين المتناقضين في جوهرهما ، اللذين كان يتابعهما بيغن منذ انتخابه على رأس بلاده . وكان كلاهما يبدو خيالياً في ذلك الصباح من كانون الأول . ولقد بدا أن المعاهدة الموقّعة مع مصر لم تكن إلاّ وهماً ، فهي بعدم أخذها المُعضلة الفلسطينية بالاعتبار ، كانت قد تركت جرحاً مُتقيّحا في قلب الشرق الأدنى . وبدلاً من ان تتمتع اسرائيل بالسلام الذي طالما تاقت اليه ، فإنها تعيش الآن أصعب ساعات تاريخها . فقد كان التضخّم وأفدح الضرائب في العالم يشلاّن نشاطها .

وكان سيل المهاجرين المنتظم قد نضب تقريباً وأصبح اليومَ مقتصراً على بعض اللاجئين أغلبهم من المسنّين او غير المنتجين . وفي كل سنة كان مزيد من اليهود يتركون البلاد . ويبدو أن أرض الميعاد لم تعد أرض الوعود .

ولكن أعداء اسرائيل بخاصة كانوا يعقدون الخناصر مجدداً ، وقد عوّلوا على تدمير اتفاق السلام

(×) اسم يطلقه اليهود على الشعوب غير اليهودية وبخاصة على المسيحيين .

الذي اعتبروه خداعاً . فقد أصبح العراق وسوريا كتلة ، وضاعف الفلسطينيون نشاطهم . وكانت تقف خلفهم جمهورية إيران الاسلامية الجديدة . وقد اتصفت بالتعصُّب والنضال واستولت على السلاح الأميركي القوي والفائق الحداثة الذي تخلّ عنه الشاه . وأصبحت تركيا الآن ، حيث كان لاسرائيل عدد كبير من الأصدقاء النافذين ، مُعادية لها جهراً . ولم تعد دول الخليج الفارسي النفطية ، المهددة هي نفسها بالمدّ الثوري الآتي من الشمال ، لم تعد تجرؤ على أن تنصح أشقاءها العرب المتطرفين ، بالحذر . وإجتذبت مناحيم بيغن من أفكاره فرقعة دراجة نارّية . وبعد بضع ثوانٍ كانت زوجته « اليزا » تحضر له ، كعادتها كل صباح ، غلافاً ممهوراً بختم : « سودي بيوتر » - سرّي جداً . وكان هذا الغلاف وارداً من مركز البحث والتخطيط ، القائم على المخيم رقم ٢٨ التابع لوزارة الشؤون الخارجية ، عند الطرف الغربي من المدينة . وكان يتضمّن الحصيلة اليومية للمعلومات المجموعة من قِبَل دوائر الاستخبارات الاسرائيلية .

وباشر رئيس الوزراء بقراءة مضمونه فوراً :

« لقد سجّلت المِرجَفات(×) في معهد وايزمان عند الساعة السابعة والدقيقة الواحدة هزَّة بقوة ٥,٧ بمقياس « ريشتر » . وقد حُدِّد مركز تلك الهزّة في بحر رمل « اوبري » ، جنوبي صحراء ليبيا الغربية ، وهي منطقة لم يسبق ان حدثت فيها أية زلازل » . وقد فهم ان المقصود هو الانفجار الذي كان قد شهده رئيس الولايات المتحدة ومستشاروه . وقد جعلته الفقرة التالية ينتفض : « عند الساعة ٧,٣١ تمكّن مأمور الاستخبارات الاسرائيلية في واشنطن من التحدُّث شخصياً مع رئيس الوكالة المركزية للاستخبارات الذي أعطاه التأكيد القاطع بأن الأمر يتعلق بزلزال أرضي وليس بتفجير نووي . » .

وكانت الروابط الأكثر توثيقاً والأكثر ثقةً قد جمعت دوماً الوكالة المركزية للاستخبارات ودوائر الاستخبارات الاسرائيلية ، حتى في الساعات التي تكون فيها العلاقات بين واشنطن والقدس مُتّسِمة بالبرودة الشديدة . وكانوا دوماً يتبادلون جميع معلوماتهم . وها أن الأميركان ، والحالة هذه ، كانوا لتوّهم ، قد كذبوا على إسرائيل حول موضوع حيوي بالنسبة لوجودها .

وكانت اليزا بيغن قد بقيت في المكتب . وكانت تجهل كل شيء عن المأساة التي كانت تدور ، ولكنها لاحظت ان زوجها كان قد أصبح ادكن اللون . فقالت ، وقد استبَدَّ بها القلق :

- ماذا يجري ، يا مناحيم ؟

- هذه المرة نحن وحدنا ، وحدنا تماماً .

****

تقع القيادة العامة لدائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية (دائرة الاستخبارات الفرنسية) ضمن ثكنة قديمة في جادّة « مورتيه » ، في الدائرة العشرين من باريس قرب مقبرة « الأب لاشاز » . وهي تحيط بمجموع الأبنية القديمة ذات السقوف من التوتياء والنوافذ ذات المربعات الزجاجية الصغيرة والتي تتخللها عدة بنايات عصرية وغابة من الأعمدة المربّعة المعدنية ، يحيط بها جدارٌ عالٍ رماديّ مُشوَّك بأوتدة مُفَوْلذة . وكانت لافتات تُعلن كل خمسين متراً « منطقة عسكرية - ممنوع التصوير وأخذ الأفلام » . والى جانب رتاج المدخل ، ينتصب مَرْقَب فارغ . ولم تكن ثمة أية لوحة ، ولا أيّ رقم . فدائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية ليس لها محل اقامة قانوني . وليس لها الا لقب موروث عن مجاورتها لمدرج قديم للألعاب المائية . انها تعرف باسم « حوض السباحة » .

(×) مرجفة : آلة لتسجيل الزلازل (المنهل) .

كانت الساعة الثامنة صباحاً ، بتوقيت باريس ، ذلك الاثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول ، عندما كانت سيارة المدير ، بيجو ٦٠٤ ، تصل أمام الرتاج المصفح ، على جادّة « مورتيه » . وكان قد مرّت ساعتان بالضبط على الانفجار الذي حصل في ليبيا . وفتح المصراعين خفيران بالبزة العسكرية ، وفتّشا السائق وراكبه وأشارا اليهما بالمرور . ودخلت السيارة الى الفِناء ، والتفت حول النُـصُـب التذكاري الذي يُـمَجِّد ذكرى قدماء دوائر الاستخبارات الذين قضوا في سبيل فرنسا ، وتوقّفت أمام مبنى قديم من ثلاث طبقات تمتدّ طولاً .

ودلف اللواء برتران الى ممر ذي جدران قَـذِرة مجتازاً عدة غـرف ذات أثاث قديم تنبعث منها رائحة ثابتة للتبغ الأسود والسيغار ، وركب مصعداً قديماً حتى مكتب واسع مؤثث بمقاعد من الجلد البنّي . وعلى الجدار ، خلف الطاولـة الملأى بالأوراق ، كانـت تمتـد خريطـة كبـيرة للـكرة . وكان تَـفَحُّـل البيئـة (الديكور) يقف عند باب ذلك المكتب . وفي مبنى مجاور كانت صفوف من الناظمات الآلية وآلات حلّ ووضع الرموز ومختبرات للقياس بالمنقل الاشعاعي.وعلب للبطاقـات وقاعـات للقـراءة مجهّـزة بوسائـل كهربائية ميكانيكية للتسريع ، كانت تضع كل سحر العصر الألكتروني بتصرّف دائرة عُرِفـت بجسارة مأموريها المُتوحِّدة اكثر مما عرفت ببنيتها التحتية الفنية .

وفي حين كانت الحملات الصحفية العنيفة وسيل من التحقيقات البرلمانية ، عبر الأطلنطي ، تحاول إصلاح وسائل الوكالة المركزية للاستخبارات ؛ كانت منظمة اللواء برتران لا تزال تستطيع ، هي ، ان تجُنِّد المرتزقة لقلب ديكتاتور إفريقي وأن تستأجر خدمات مهرّبي المخدّرات وأن تقيم مكتبها في « كوالا لامبور » داخل ماخور . وكانت تلك الأمكنة ، بعد كل شيء ، مواتية تقليدياً للبحث عن المعلومات ، وكان الفرنسيون شديدي التحسُّس بحاجات الجسد وضعفه ، لدرجة أنهم لا يتخلّون عن تلك الأماكن لصالح أنظمة إعلامية مُعقّمة مثل الصور التي تلتقطها الأقمار الصناعية .

بَيْد ان الوثيقة المعلوماتية التي كانت تنتظر اللواء على مكتبه ، كانت تُقدّم مثالاً عن الأبعاد الحديثة لمنظمته . فقد كانت تتضمّن كل ما كانت تعرفه دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية عن بيع فرنسا الى ليبيا المفاعل الذي كان الأميركان يشتبهون بأنه أنتج البلوتونيوم الذي استعمله القذافي . وكان برتران يعرف أهم ما في الملف ، وكانت السلامة فيما يتعلّق بالمعاملات النووية موضع اهتمام خاص في باريس ، منذ ذلك اليوم من نيسان سنة ١٩٧٩ الذي أقدمت فيه مفرزة من المغاوير الاسرائيليين على تفجير حوض مفاعل تجريبي ، قرب تولون ، قبل تسليمه الى العراق ببضعة أسابيع فقط . وكانت المحطة الذرية التي باعتها فرنسا الى ليبيا تحمل علامة بمليار دولار ، مما حمل دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية ودائرة حماية سلامة البلاد ، على اتخاذ احتياطات فوق العادة لتجنّب عملية تخريب مماثلة قبل تسليم المنشآت الى مشتريها الليبيين .

وكان المفاعل احدى المحطّتين العاملتين بالماء الخفيف بقوة / ٩٠٠/ مليون واط التي كان شاه ايران قد أوصى عليهما في أيلول سنة ١٩٧٧ . وعلى أثر الغاء الصفقة الفظّ من قبل آية الله الخميني ، وجد الفرنسيون انفسهم مُثقلي الأذرع بالحوض الفولاذي للمفاعـل وقـد انتهـى عملياً في مصنـع « فراماتـوم دوكروزو » دون ان يُسدّد ثمنه . وكان ذلك الحوض ، قلب المفاعل الحقيقي ، رائعة صناعة التعدين الحديثة . وكان علوُّه اثني عشر متراً وسماكته عشرين سنتيمتراً ووزنه مئتين وعشرين طنـاً . وكن جمع أجزائه قد تطلب تدخّل آلات خاصة لمراقبة جميع عمليات اللحام بالأصوات الفوقية وأشعة غاما .

وكان برتران يذكر جيداً تدابير السرّية والسلامة الاستثنائية التي كانت قد أحاطت نقله ليلاً من الـ « كروزو » حتى الطَوفيّة(×) في « شالون سورسون » . وكان قد جنّد خمسمئة دركي لحماية الجهاز الذي

(×) قارب انزال او قارب كبير مسطح على شكل طوف (المنهل) .

كان موضوعاً على شبه مقطورة ذات ستة وتسعين دولاباً ، تجرُّها وتدفعها خمس جرارات « بارليت » بقوة ثلاثمئة حصان بخاري . وكانت الطَّوْفية قد نزلت بعد ذلك مجرى « الرون » حتى « فوسورمار » حيث كان الحوض قد نقل الى سفينة شحن ليبية كانت بُناها قد قُوِّيت بشكل خاص بسبب وزن الحمولة وسماكتها القصوى.وكانت ملفّات بناء تلك المحطة الذرية المسلّمة من فرنسا الى ليبيا ، تتضمن مئة الف تصميم ووثيقة يبلغ مجموع صفحاتها أربعة ملايين ، جميعها في غاية السِّرية ، كما كان يعلم برتران . والمحطة نفسها كانت تعُدُّ سبعين الف كيلو متر من الأنابيب ومليون كيلو متر من الأسلاك الكهربائية واثني عشر الـفاً وخمسمئة صمام وحنفية وألفاً وسبعمئة عداد حرارة ومِسبار ومعيار للضغط وزجاج لحماية المصابيح وآلات تصوير تلفزيوني وأجهزة تسجيل مخصّصة لقيادة ومراقبة الانشاءات طيلة الثلاثين سنة المنتظر ان تعمل خلالها .

وبعد انتهاء تركيب الانشاءات في ليبيا، كان القذافي شخصياً قد قام بدخول قاعة مراقبة المفاعل. وكانت عبارة عن حجرة فضائية غُطِّيت جدرانها بشاشات التلفزيون والعيون الوامضة واللوحات والرافعات والأزرار والناظمات الآلية . وكان القذافي ، وقد بدا عليه التأثر بشكل ظاهر ، قد وضع يده على رافعة ذات رأس اسود مماثلة لرافعة السرعة في السيارة . وبعد أن نزع رتاجها بسحب الدابرتين الموضوعتين على طول المقبض ، دفعها برفق الى الأمام . وكان قد تمكن عندئذ من أن يشاهد على لوحة المراقبة سلسلة من الأنوار الحمر . ولأول مرة في التاريخ ، كانت يد عربية قد أطلقت لتوِّها تفاعلاً ذرياً .

وبعد تسعة ايام ، كان المفاعل قد بلغ سرعة الطّوّاف وقوته الحرارية الاسمية البالغة تسعمئة مليون واط . وكان مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية يتساءل كيف كان بالامكان اختلاس البلوتونيوم من انشاءات على هذه الدرجة من التطوير ؟

وما كاد برتران يبدأ دراسة الملف حتى أشعره الهاتف الداخلي بقدوم « باتريك كورندو » ، الرياضي الشاب « خريج » « بوليتكنيك » ، ذي النظرة الرقيقة ، الذي كان يتولّى منصب المستشار العلمي لدى دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية . وقال له اللواء مشيراً الى أحد المقاعد الجلدية القديمة التي كانت أمامه :

ـ اجلس يا بتريك ! (وأشعل لفافة« جيتان » من الذرة وأخرج خيطاً مُزْرقّاً من انفه) يبدو ان الأميركان لم يخطئوا ، هذه المرة . ومنذ مدة وهم يُلقّنوننا بأن القذافي مُـلْـهَـمٌ خطِر (وتَـنهَّد) تذكَّر ن واضعي المفرقعات عندنا من الكورس والبرتون ، قد تدربوا حسب رأيهم ، في بلاده .

واجاب « باتريك كورندو » :

ـ لقد أراد الأميركان دوماً ان يُفسدوا ما بيننا وبين القذافي واصدقائنا العرب .

وردَّ برتران :

ـ مهما يكن من الأمر ، فإن هذا القذافي الشجاع ستكون لديه القنبلة الذرية . وسيكون مستعداً للاستفادة منها . نعم يا عزيزي !

وبدت علامات الذهول على وجه المهندس الشاب ، فأخبره برتران بزيارة ممثل الوكالة المركزية للاستخبارات ، واخرج « كورندو » غليوناً من جيبه .

ـ لو كان القذافي محتاجاً حقاً للبلوتونيوم ، فلم يكن بوسعه ان يجد وسيلة اكثر تعقيداً للحصول عليه .

ـ ربما كانت تلك الوسيلة الوحيدة التي كانت بتصرفه .

وهزّ «كورندو» كتفيه. ان رئيس دولة كالقذافي كان يمكنه ان يختار لا أقل من عشر وسائل مختلفة للحصول على قنبلته . مثلاً ، كان يمكنه ان يحاول عملية جديدة لسرقة البلوتونيوم من مركز أجنبي . أو أن يحذوَ حذوَ الهنود الذين اشتروا مفاعلاً كندياً يعمل بالأورانيوم الطبيعي وبنوا سرّاً مفاعلاً ثانياً منقولاً عن الأول حتى آخر لحام ، ولكن اختلاس البلوتونيوم من مفاعل كذلك الذي كانت فرنسا قد باعته اياه ، يُعتبر من اصعب العمليات .

ونهض « كورندو » وعلّق على الحائط بدبّوس ورقة رسم وركّز فكره خلال دقيقة كان يلاعب بيده اثناءها قلم حبر صينياً ضخماً ، كأنه معلم مدرسة على وشك الابتداء بدرسه ، وقال :

ـ سيدي اللواء ، اذا اردت استخراج البلوتونيوم المصنوع بواسطة مفاعل نووي ، فيجب التصدّي للأورانيوم الذي يشكّل وقوداً له . وعندما يبدأ هذا الأورانيوم بالاشتعال في قلب المفاعل ـ اذكرك بأن المقصود هو شحنات مقواة بمعدل لا يتعدى ثلاثة بالمئة ـ فانه يحصل تفاعل تسلسلي ، أي عدد لا يحصى من القنابل الذرية الصغيرة . وهذا التفاعل يُحدِث انبعاث حرارة شديدة ، تتحول الى بخار يُحرِّك التوربينات التي سوف تنتج الكهرباء . هل تتبعني ؟ والحالة هذه ، عندما يحترق هذا الأورانيوم أو بالأحرى عند ما ينشطر ، فإنه يطلق كميات من النترونات تأخذ في التنقُّل حيث كان ، وبعض هذه النترونات (وهنا ربّت « كورندو» بقلمه على الورقة) تمضي الى قصف كمية الأورانيوم غير المقواة وتحويل قسم منها الى بلوتونيوم . وهناك بعض المفاعلات ، مثل اجهزة « كاندو » الكندية ، حيث عبوات الأورانيوم التي تقوم بدور الوقود ، تظهر بشكل علب تُغيَّر كل يوم تقريباً . وهذا النوع من المفاعلات يجعل من السهل على نحوٍ ما الوصول الى البلوتونيوم .

وتابع بعد ان أنجز رسماً :

ـ أما في حال المفاعل الفرنسي ، فإن الأورانيوم يُحجز في صناديق ضخمة تشبه هذا . وهي لا تُغيَّر الا مرة في السنة . ولأجل نزعها ، يقتضي اولاً إطفاء المفاعل . ويجب بعد ذلك الانتظار اسبوعين حتى يبرد ، ثم يقتضي تدخل عدد من الأشخاص ومجموعة من اللوازم الثقيلة ، ولا تنسَ أن لدينا عشرين فنياً مخصّصين لهذه الانشاءات . ومن المستحيل ، اطلاقاً ، ان يتمكن الليبيون من اخراج الأورانيوم واخفائه دون ان يلاحظ ذلك احد ما .

وأشعل بارتران لفافة « جيتان » ثالثة .

ـ وماذا يحدث عندما يخُرَج هذا الأورانيوم ؟

ـ أولاً . انه فعال أو بالأحرى مُشعّ لدرجة انه سيحوِّلك الى سرطان حيّ اذا ما اقتربت منه . ويحُبَس في صناديق من رصاص ويودع في قعر حوض مليء بالماء ليبرد .

ـ خلال أية فترة من الوقت ؟

ـ خلال سنين ، وربما الى الأبد ، وهذا هو محور خلافنا مع الأميركان ، بشأن مشاكل اعادة معالجة هذا الوقود المُشعّ . وتقضي سياستنا باستعادة جميع كميات الأورانيوم الناتجة عن المحطات التي نبيعها وان نستخرج منها بأنفسنا البلوتونيوم اللازم للآلات الفائقة لتجديد حرارة الأفران الاسترجاعية التي سوف نستخدمها في انشاءاتنا النووية الكهربائية المقبلة . وبهذه الطريقة ، لن يكون بوسع أحد ان يختلس البلوتونيوم لاستعماله لغايات عسكرية . ويدعي الأميركان ، أنه بموجب طريقتنا سوف نصل الى جرجرة

البلوتونيوم عبر العالم كالفحم او فستق العبيد .
ـ اذن ، ستبقى قضبان الأورانيوم الليبي في قعر حوضها ، بعد أن تكون قد اشتعلت في مفاعلها . ولكن ما الذي يمنع القذافي عندئذ من أن يخرجها من الماء وان يستخرج بنفسه البلوتونيوم الذي تحتويه ؟

ـ لدى الوكالة الذرية الدولية في فيينا مفتّشون مكلّفون ، على وجه الدقّة ، بالسهر على أن لا يستولي أحد على هذا البلوتونيوم . وهم يتحقّقون من ذلك مرتين في السنة على الأقل . وخلال ذلك ، فإن لديهم آلات تصوير مُرصَّصة تلتقط صوراً في قعر الحوض كل خمس عشرة دقيقة تقريباً .

ـ وهذا ما لن يترك للقذافي ، مبدئياً ، الوقت لكي يسحب الأورانيوم ؟

ـ كلا ، يا الهي ! يجب ان تضعها اولاً في صناديق ضخمة من الرصاص لتجنّب اصابتك بالاشعاعات . ثم سوف يقتضي تدخل رافعات خاصة لإخراجها . وهذا ما سيتطلّب ساعتين او ثلاث ساعات .

ـ وهل سيكون بوسع المفتشين ان يُزيِّفوا الفيلم ؟
ـ لا ، لأنهم لا يُظهِّرونه بانفسهم ، بل يتم هذا العمل في فيينا. وعلى كل حال ، فإنهم كلما قاموا بالتفتيش عمدوا ايضاً الى تغطيس كاشفات أشعة غاما في قعر الحوض للتحقّق من ان القضبان هي حقاً مُشعّة . وهكذا يُتاح لهم ان يتأكدوا من أن أيّ استبدال لم يحصل .

وانقلب برتران الى الوراء ، واضعاً رأسه على مسند مقعده الدوّار ومحدِّقا بعينيه نصف المُغْلقتين على قشارات دهان السقف .

ـ صفوة القول ، واذا ما لخّصت تفسيراتك ، فإنه من غير المحتمل ان يكون الليبيون قد تمكّنوا من الاستحصال على البلوتونيوم انطلاقاً من مفاعلنا .
ـ هذا حقاً غير معقول ، يا سيدي اللواء .
ـ الا اذا كان لهم شركاء في بعض مراحل عملياتهم .
ـ ولكن أين ؟ وكيف ؟
ـ انني شخصياً ، لم أشعر مطلقاً بثقة غير محدودة بأجهزة المراقبة التابعة للأمم المتحدة ..

وطاف كورندو في القاعة وترامى على احد المقاعد ، وكان رئيسه ديغولياً ينتمي الى المدرسة القديمة ، وكان الكل يعرف انه كان يشاطر « الجنرال(×) » احتقاره للمنظمة التي اطلق عليها ذات يوم لقب « كذا »(××) ووافق كورندو ومدّ ساقيه الطويلتين قائلاً :
ـ موافق ، يا سيدي اللواء : إنني أسلّم بأن لوكالة فيينا حدودا. لكنها لا تشكّل هي المسألة الحقيقية . المسألة ان احداً لا يريد رقابة ناجعة . والشركات التي تبيع المفاعلات ، كشركة الـ « واستنكهوس » الأميركية واصدقائنا في « فراماتوم » يُلقون سيلاً من التصاريح العلنيّة بتأييد تلك الرقابة ، ولكنهم يتصدّون لها ، في مجالسهم الخاصة ، كما يتصدّون للشيطان . ولا تريد أية حكومة من العالم الثالث ان ترى المفتّشين يتنقلون على أراضيها . ونحن ، انفسنا ، في فرنسا ، على الرغم من تأكيداتنا ، لم نكن ابداً مُتحمِّسين لتعزيز الرقابة . فلدينا مصالح كثيرة في الميزان .

(×) المقصود : الجنرال ده غول (المترجم) .
(××) اسم الشخص او الشيء الذى لا يراد تسميته اونسى اسمه (المنهل) .

وسجَّل اللواء خلف ستار من الدخان :

ـ واحسرتاه ! إن ما يهمّ اليوم هو ميزان حسن للمدفوعات . ولا بدّ أن نحصل فوراً على تقارير التفتيش الصادرة عن وكالة ڤيينا . وأسأل أيضاً ممثلنا هناك اذا كان سيسمع إشاعة او نميمة ما حول مفتشين تلقّوا « هدايا » أو وُجدت فتيات في اسرَّتهم أو أيّ شيء آخر مما يجري هناك .

ولمع وميض في عينى اللواء الصغيرتين عندما فكَّر في إقامته الأخيرة في العاصمة ڤيينا منذ عشر سنوات .

وتمتم : « إنهنّ مخلوقات رائعة ،نساء ڤيينا أولئك » ثم عاد الى موضوعه .

ـ وجماعتنا في ليبيا ؟ ما هي المعلومات المتوفرة لدينا عنهم ؟

ـ لقد نظّمت دائرة حماية سلامة البلاد ملفاً أمنياً لكل واحد منهم . ومن الطبيعي ان تكون قد سجّلت بانتظام جميع مخابراتهم الهاتفية بين ليبيا وفرنسا .

ـ إذهب اذن واجتمع بـ « ڤيلبريو » من قبلي واطلب منه ان يعطيك ملفات كل واحد من هؤلاء الأشخاص وكذلك تسجيلا لمخابراتهم الهاتفية خلال السنة المنصرمة ، أسرعْ يا عزيزي . وإنهم في واشنطن على أحرّ من الجمر ، على ما يبدو . وبالمناسبة ، من هو الرئيس المحليّ لهؤلاء الفنيين الفرنسيين ؟

ـ مهندس نووي ، رجل يدعى : « ده سار » لقد عاد منذ شهرين تقريباً وهو ينتظر تعيينه القريب .

ونظر برتران الى ساعته الصغيرة من الجَزْع[1] الموضوعة على مكتبه . فاذا هي تشير الى الثامنة وعشرين دقيقة .

ـ هل لدينا بيانات عن وضعه الحالي ؟

ـ أظن ذلك ، وأعتقد أنه يقيم في باريس .

ـ حسناً . ابحث لي عن عنوانه . سأرى اذا كان بوسعي ان أجري حديثا قصيراً مع السيّد « ده سار » هذا .

***

كانت الساعة التاسعة والنصف تدُقُّ في برج الأجراس البيزنطي في دير الصليب ، عندما خرجت سيارة مناحيم بيغن ، الدودج السوداء المشوَّكة بالهوائيات . وكانت قد انقضت ساعتان وثلاثون دقيقة من أصل الساعات الست والثلاثين التي حددها انذار القذافي ، والتفّت السيارة حول الكنيست ، برلمان اسرائيل ، وتوقفت امام باب المبنى الحزين المؤلف من مساكن ذات أجور معتدلة الذي يضم رئاسة الوزراء . وقفز منها اربعة شبان بالبنطال « الجين » والقميص الرياضي . وكانوا ينقلون حقيبة مستندات من البلاستيك الأسود . ولو كانت ثيابهم اكثر اناقةً ، لحسبتهم عُصبة فَرِحة من الوكلاء التجاريين . ولكن عوضاً عن دفتر الطلبيات ، فقد كانت عدة عملهم رشيشاً من طراز « اوزي » ومسدساً من نوع « كولت » وثلاثة أمشاط للغيار وجهازاً لاسلكياً .

ودخل مناحيم بيغن ، يواكبه حرّاسه المرافقون ، الى البهو المزدحم بجمهور من الفلاحين العرب الكهول يرتدون الغندورة السوداء والكوفية البيضاء ، وقد كانت الطبقات الأرضية لرئاسة الوزراء تضم في

(×) عقيق يمان (المنهل) .

الواقع سجلات الأحوال الشخصية العائدة لفلسطين التي زالت منذ زمن بعيد ، فلسطين العثمانية التي شهدت طفولتهم . واندسّ بيغن بينهم بعد أن حيّاهم بلطف وتوجّه نحو الباب المصفّح الذي كان يفصل الدوائر الادارية عن باقي المبنى . وكان عليه ايضاً ان يجتاز سلسلة من الحواجز المُشبكة والمدارة كهربائياً قبل ان يبلغ الطبقة الأولى حيث كان ينتظره مجلس الوزراء المجتمع في جلسة فوق العادة .

ولم يكن بيغن قد كشف لأيّ من وزرائه سبب تلك الدعوة الطارئة . وخلال فترة طويلة اجال نظره الحاسر على الحضور . ثم شبك يديه على الطاولة الخضراء وشرح الموقف بهيئة جدّية وصوت بهيم اكثر من العادة وبكلمات مُنتقاة بعناية . وكان يتمتّع بذاكرة لا تخطىء ، فكرر جميع تفاصيل محادثته مع رئيس الولايات المتحدة ، اي الخبر المخيف بأن القذافي كان يمتلك السلاح النووي الحراري وأنه اخذ نيويورك رهينة بواسطة قنبلة هيدروجينية وان اسرائيل كان محكوماً عليها ان تدفع الفدية .

ولم يكن بوسع أيّ كشف أو أيّ تهديد ان يحدث ذلك القدر من الذهول . فمنذ خمس عشرة سنة كان بقاء اسرائيل يرتكز على ركنين استراتيجيين : دعم الولايات المتحدة ، واليقين ان اسرائيل ، في حال نشوب ازمة حادة الى اقصى درجة ، كانت تمتلك وحدها ، في الشرق الأدنى ، السلاح الذري . وها إن بعض عبارات كانت تزعزع لتوّها هذا البنيان .

ـ نيويورك اليومَ وغداً تل أبيب . إننا لا نستطيع ان نعيش تحت رحمة رجل مجنون مسلّح بقنابل هيدروجينية . ليس لدينا أي خيار .

وكانت هذه الكلمات ، التي قيلت بصوت جَهْوَريّ ، قد انفجرت كالصاعقة وسط المُستمعين المذهولين . وكان الرجل قد أكّد تصريحهُ بضربة من قبضته على الطاولة . وكان قميصه المفتوح يُظهر جذعاً قوّياً . وكان وجهه المُسْمَر يُبْرز بياض شعره الغزير . كان المتكلّم «بني رانان» أحد أبطال اسرائيل الخمسة الحقيقيين الذين كانوا أعضاء في الوزارة ، كان لواءً للمظليين أثناء حرب « كيبور » . وكان قد قفز على رأس جيوشه أثناء عملية عبور قناة السويس المشهديّة التي كانت ستؤدي الى تطويق الجيش المصري الثالث . وفيما كان وزيراً للأعمار ـ أو بالضبط وزيراً للتراكتورات كما كان يحبّ أن يُلقّب ـ كان احد الأنصار الأكثر حماساً لبرنامج التوطين اليهودي في الأراضي العربية المحتلّة عام ١٩٦٧ . ودار حول الطاولة بتلك الخُطى المُخلّعة الوركين ، التي كان مظلّيوه يحبّون ان يُقلّدوها . وتوقّف أمام الصورة التي التقطها « ولترشيرا » الذي كان ضمن الحجرة الفضائية في « ابوللو ٧ » . وكانت تُغطّي جداراً بكامله في قاعة المجلس . ولم يكن اي شيء يستطيع أن يُوَضِّح جَروحيَّة(×) اسرائيل المرعبة اكثر من ذلك المنظر الشامل الذي يضم في رؤية واحدة منطقة بكاملها من الكرة تمتدُّ من البحر الأسود حتى البحر الأحمر ومن البحر المتوسط حتى الخليج الفارسي . وفي وسط تلك المساحة الشاسعة الأبعاد لم تكن اسرائيل الا جزيرة صغيرة ، غاية في الصغر ، قطعة أرض مربوطة بصورة عابرة بآسيا .

وحدّق رانان بالصورة بهيئة مأساوية .

ـ ان شروط وجودنا قد انقلبت بكاملها . ويكفي لإبادتنا ان يُلقي القذافي قنبلة هنا . . (وانهرست سبّابته المُمْتَلِئة عند منطقة تل ـ ابيب) وهنا وهناك . ثلاث قنابل وسوف يمحى البلد من الوجود .

والتفت نحو زملائه . وكان صوته القوي الشهير في ساحة القتال قد هبط عدة طبقات . وقال بجدّية :

(×) قابلية الانجراح والانثلام (المنهل) .

ـ أية قيمة ستكون لحياتنا اذا كنا نعلم أن متعصباً يطالب بدمنا منذ سنوات ، يستطيع ان يُـدمِّـرنا كلياً ؟ أنا لن استطيع ان أعيش وسيف « داموكليس » مسلط فوق رأسي . وانتم ؟ . . .

وتوقّف بعد ان وعى أثر كلماته الفعّال ثم تابع :
ـ أربعون قرناً من الاضطهاد قد أعطتنا على الأقل درساً حسناً . ويجب على اليهود أن يقاوموا كل تهديد بإبادتهم . ويجب علينا أيها الأصدقاء ان نصفّي هذا المجنون ، دون إضاعة اية دقيقة ، وقبل ان ترتفع الشمس في السماء .

أسند رانان يدي مصارع على الطاولة وانحنى الى الأمام ، وتابع :
ـ وسنخبر الأميركان بعد أن نضرب ضربتنا .

ساد الصمت من جديد . وأشعل يعقوب شامير ، نائب رئيس مجلس الوزراء ، غليونه وهو يُفكِّر ، وكان شارب عالم الآثار هذا ، النبيه المتفوّق ، وصلعه ، أسطوريين بقدر صورة رانان الظلّية . لقد كان شامير صانع النصر الذي حققته اسرائيل في أول حروبها ضد جيرانها العرب عام ١٩٤٨ . ولاحظ قائلاً :
ـ في اللحظة الحالية ، يا « بني » ، أولئك الذين يتناولهم تهديد القذافي ليسوا هنا . إنهم في نيويورك .

ـ ليس لهذا أية أهمية . المهم ان نبيد القذافي قبل ان يتوفّر لديه الوقت لردّ الفعل . وسوف يشكرنا الأميركان .
ـ واذا انفجرت القنبلة رغم كل شيء ؟ وأي نوع من الشكر سوف يوحي ذلك الى الأميركان ، حسب اعتقادك ؟
وتنهّـد رانان :
ـ سيكون ذلك مأساة ، مأساة مروعة . ولكن يجب ان نتصدّى لتلك المجازفة . . (والتفت نحو رئيس الوزراء) ماذا ستكون المأساة الكبرى ؟ تدمير نيويورك أم تدمير بلادنا ؟

ولاحظ الحاخام الضخم ، يهودا اورنت ، رئيس الحزب الديني الذي كان ينتمي الى التحالف الحاكم :
ـ يوجد ثلاثة ملايين يهودي في نيويورك . أي اكثر من اليهود هنا .
وألحّ رانان بحماس :
ـ ولكن هنا أرضهم . ان الرهان أهمّ بكثير . وهنا على هذه الأرض ، نحن نُمثِّل التعبير عن دعوة الرب الأبدية للشعب اليهودي . فاذا ما هلكنا ، فإن الشعب اليهودي سيزول كشعب . وسنقضي على أحفادنا بأن يتحملوا الفي سنة جديدة من التيه في الصحراء والمجابر ، والشتات والكراهية .
ورد الحاخام :
ـ ربما ، ولكن الأميركان ناشدونا بأن لا نقوم بأي عمل ضد القذافي .

وضحك رانان هازئاً ، وكان يتوقع مثل هذا الاعتراض فقال :

ـ الأميركان ؟ الأميركان سيتخلون عنا (وأشار بذراعه الى صف الآلات في مؤخر القاعة) إنهم منذ الآن ، أمام الهاتف ، يتناقشون مع القذافي ، ويساومون بأبخس الأثمان على أرضنا وشعبنا خلف ظهرنا .

ـ قد يكون هناك حلّ آخر .

هذه الكلمات المُطمئِنة جعلت الرؤوس كلها تلتفت نحو عملاق ذي شعر أصهب ووجه مُغطّى بالنمش : اللواء يعقوب دوريت البالغ الثامنة والأربعين من العمر والقائد الأعلى لقوات الدفاع الاسرائيلية .

ـ قد نستطيع محاولة خطف القذافي ، بعملية خاطفة ضد ثكنة باب عزيزة ، ثم نحضره في طوّافة الى شاطىء مقفر وننقله بعد ذلك على متن زورق .

ـ وهل سيكون ذلك ممكنا ؟

وأكد يعقوب دوريت واثقاً :

ـ شرط ان نعتمد المباغتة والسرعة الفائقة .

ـ يعقوب !

والتفت دوريت نحو الرجل القصير الذي كان يناديه من أقصى الطاولة . وكان العقيد يوري افيدار يتولى قيادة الـ « شين ـ بات » ، دائرة الاستخبارات في الجيش .

ـ ان القذافي غير موجود في باب عزيزة . وقد علمنا إثر اتصالنا بطرابلس مساء أمس أنه اختفى منذ ثمانٍ وأربعين ساعة ، ولن نعرف أين نجده .

وتنهّد رانان قائلاً :

ـ إذن ، لقد قضي الأمر ، ولم يعد لدينا الوقت لانتظار ظهوره ثانية .

وعاد يوري افيدار يقترح :

ـ لنعترف أننا قبلنا التفاوض على اخلاء المستوطنات . فالتخلي عنها لا يعني مع ذلك نهاية اسرائيل . وفي كل حال فإن أغلب الناس هنا يعارضون وجودها .

هذه الكلمات ، على لسان القائد السابق للفيلق المصفَّح الذي كان قد سحق اللواء العربي عام ١٩٦٧ واحتلّ الضفة الغربية لنهر الأردن ، كانت تدل على الاضطراب الذي غمر الأفكار بسبب ابتزاز القذافي . وأجاب رانان بهدوء :

ـ ان موضوع الرهان ليس هذه المستعمرات ولا نيويورك . ولكن هل يستطيع بلدنا ان يعيش الى جانب شخص مثل معمر القذافي مسلّح بالقنابل الهيدروجينية ؟ أنا أقول كلا !

وصرخ « افيدار » :

ـ انتم كلكم مجانين ، مرة اخرى ، تقودونا الآن عقدة الـ « مسادا »(×) الى الانتحار .

وكان رانان قد حافظ على جرأته . وقد رافع قائلاً :

ـ كل دقيقة نضيعها في الجدال حول النوافل تُدنينا من التدمير . يجب ان نعمل فوراً قبل أن نُمنَع من ذلك . وإذا انتظرنا ، مُتشابكي الأذرع، فبوسعنا أن نقول وداعاً ليهـودا والسامرة ، ووداعاً للقدس . ولن يبقى أمامنا ، بعد أن قيَّد الأميركان أيدينا وراء ظهرنا ، الاّ أن ننتظر الضربة القاضية من جزّار طرابلس .

(×) المخابرات الاسرائيلية (المترجم) .

وكان مناحيم بيغن قد تابع المناقشة دون ان يتدخّل فيها « رغبةٍ منه في الاستماع الى جميع الآراء ، والتفت نحو وزير شاب رياضي المظهر ، هو وزير الدفاع ، إريه سالومون » ، الربّان السابق في طيران المطاردة ، أبو القوات الجوّية الاسرائيلية وأحد أهم صانعي انتصار عام ١٩٦٧ .

ـ إريه ! هل هناك حل عسكري غير العمل النووي الوقائي ، يستطيع ان يوقف القذافي ؟

ـ كلا ! لسوء الحظ ، فليس لدينا الوسائل لإعداد انزال تقليدي على مسافة الف كيلو متر من شواطئنا .

كان بيغن يفكّر . وكانت جميع الأنظار متّجهة نحو هذا الرجل الا خص العود الذي كان يُمسك بين يديه مصير الشعب اليهودي . وباح بتحفظ :

ـ لقد عشت مُحرقة(×) ، ولا أريد أن أعيش مهدداً بالثانية . أعتقد أنه ليس لدينا الخيار : الله يحفظ سكان نيويورك .

وانتفض العقيد « افيدار » قائلاً :

ـ يا إلهي ، لن يبقى لنا صديق واحد في العالم .

ـ ليس لنا اصدقاء اليوم . وقد حرمنا دوماً منهم ، ومن الفراعنة الى هتلر ، كان شعبنا دوماً محكوماً عليه من الله والتاريخ ان يعيش وحيداً .

وكان وجه بيغن مأساوياً . وطرح الموضوع على التصويت . وفيما كان يحُصي الأيدي التي كانت ترتفع ، فكّر في ذلك اليوم من ايار ، قبل ثلاث وثلاثين سنة ، عندما صوّت زعماء الشعب اليهودي بأكثرية صوت واحد على انشاء دولة اسرائيل . وكانت تلك الأكثرية الهزيلة نفسها هي التي فازت اليوم . وكزّ على أسنانه وتوجّه الى القائد الأعلى قائلاً :

ـ أيها اللواء دوريت ، أبِدْ ليبيا !

***

ليس هناك شعب في العالم اكثر تدريباً وأحسن تجهيزا من الاسرائيليين للرد كالبرق إبّان الأزمات . وسرعة رد الفعل هي إرتكاس حياةاو موت بالنسبة لهذه الأمة الصغيرة التي لن يستطيع تجمّعها الرئيسي الاعتماد على اكثر من دقيقتي انذار في حال هجوم جوّي آتٍ من الشمال ، وخمس دقائق اذا ما اتى من الجنوب . لهذا فقد جهّز الاسرائيليون أنفسهم بجهازٍ للانذار يُعتبر بلا ريب اكثر جهاز متطوّر في العالم ، كما أثبتته السرعة الخاطفة التي سيّرت بها القيادة العليا العمليات ذلك الاثنين في ١٤ كانون الأول .

وما أن أعطى بيغن أمره ، حتى توجّه اللواء دوريت الى الغرفة المجاورة حيث أجرى اتصالاً بواسطة جهاز هاتفي خاص ، وكان ذلك الجهاز يربطه مباشرة « بالثَقْب » . مركز القيادة العسكرية لاسرائيل ، الكائن على بعد خمسين متراً تحت وزارة الدفاع في « هكيريا » بين شارعي « ليونار ده فنشي » و « كبلان » في تل ابيب . وأعلن دوريت لضابط الحراسة في « الثقب » :

ـ « جدران أريحا »

(×) ذبيحة تحرق للتضحية بها (المنهل) .

وقد أطلق هذا الأسم المرموز السياق الذي كان يربط ليلاً نهاراً السبعة والعشرين ضابطاً كبيراً في قوات الدفاع بمركز قيادتهم العامة . وكان كل واحد من هؤلاء الرجال السبعة والعشرين مُلزما بأن يكون لديه في كل لحظة وتحت متناوله مباشرةً ، هاتف او جهاز يستطيع البثّ والالتقاط على موجات قصيرة ، سواءً أكانوا على ملاعب التنس في فندق هيلتون في تل ابيب ، أو في دورة تفتيشية في رمال النقب او بين ذراعي صديقته . وكانوا يحملون كلهم اسما مرموزا يتغير في اليوم الرابع من كل شهر بواسطة ناظمة آلية ، ويُنتقى ضمن قائمة من أسماء الأزهار أو الثمار او الحيوانات . وكان يجب على كل واحد ان يعرف غيباً أسماء زملائه المرموزة .

وخرج اللواء دوريت عندئذ من مبنى رئاسة الوزراء ليلتحق باحدى شاحنتي اللاسلكي المتشابهتين تماماً واللتين كانتا ترافقان دوما سيارته الرمادية من طراز بليموث . وما كاد يجلس الى مِقرأ قيادته حتى ومَضت سلسلة من الأنوار على اللوح الكائن أمامه . وكان مرؤوسوه الستة والعشرون على الخط ينتظرون أوامره . وكانت قد انقضت ثلاث دقائق بالضبط منذ أن كان مناحيم بيغن قد أعطاه الأمر بإبادة ليبيا .

وفي « الثقب » فتحت مجُنّدة شابة ترتدي تنورة قصيرة من الكاكي الصندوق الحديدي الموضوع الى يمين ضابط الحراسة . كان في داخله عدة رزم من الغلافات المختلفة الألوان . وكانت كل رزمة تتعلق بعدوّ محتمل لاسرائيل . فالاسرائيليون كانوا يعرفون حق المعرفة أنه ، في حال حدوث أزمة ما ، لن يكون لديهم الوقت لاعداد خطط الردّ . وكانت هذه الغلافات تحتوي على خطط هجوم نووي ضد أيّ بلد يمكن ان يُهدِّد وجود اسرائيل . وكان لون الغلافات يتعلق بالخيارين المُنتَقيَين . والخيار « أ » كان يُركِّز القصف الذري على التجمّعات المدنية ، بينما الخيار « ب » كان يُركِّز على الأهداف العسكرية .

أخذت المجنّدة الشابة الغلافات المتعلقة بليبيا والحاملة رمز « عنبر » فوضعتها على مقرأ ضابط الحراسة ، الذي ناقش فحواها سريعا وباللاسلكي مع « دوريت ». وكان مدونا في تلك الغلافات كل ما كان القائد الأعلى بحاجة لمعرفته : تكاثُر الرادارات ووقت الغارة محسوباً بالثواني ووصف مفصَّل لوسائل الدفاع الجوّية الليبية ، وأفضل السبل بالنسبة لكل هدف، وآخر صور الاستكشاف الجوّي بكاملها . وكانت نسخ عن هذه الغلافات محفوظة في القواعد الجوية حيث كان الربابنة المكلّفون بتنفيذ تلك الخطط يسهرون ليل نهار .

ووفقاً لتعليمات مناحيم بيغن ، أعدّ دوريت الخيار « ب » . وكان هذا يوشك ان يُثير مسائل مشهدية . وكان القائد الأعلى يريد في الواقع مُهاجمة جميع الأهداف في آن واحد ، لزيادة مفعول المُباغتة . ولكن بسبب طول الشاطىء الليبي ، فإن الطائرات التي تقصف منطقة طرابلس سيكون عليها ان تقطع مسافة الفي كيلو متر ، أي مرتين اكثر من التي ستقصف أهداف القيروان . ولما كانت ليبيا خارج مدى الصواريخ الإسرائيلية « أريحا ـ ب ـ » المصمَّمة لنقل رؤوس نووية الى مسافة الف كيلومتر ، فإن الهجوم لا بدّ ان يُنفَّذ بواسطة أسطول طائرات الفنتوم . وكان يقتضي اتخاذ احتياط رئيسي لإبعاد الأسراب عن شاشات الرادارات العدوّة حتى تبلغ طائرات الفانتوم أهدافها . ولا تثير الرادارات الليبية مشاكل جدِّية . وعلى العكس ، فإن رادارات سفن الأسطول السادس المُندفعة غربي « كريت » ، كان يُخشى ان تخلق تعقيدات خطيرة . وقد أمر « دوريت » مطار « بن غوريون » بأن يُعِدّ « حسيدا » لإقلاع فوريّ .

و « حسيدا » ـ اللَقْلَق ـ هو الاسم المرموز لطائرة الـ « بوينغ ٧٠٧ » المطلّية بألوان الخط الجوي الاسرائيلي « العال » ، وهذا الشبه مع طائرة تجارية يقف عند باب حجرة الطّيار ، اما الداخل فهو محشوّ

بالتجهيزات الألكترونية . وكانت اسرائيل أول بلد في العالم يتمكن من ضبط التقنيّات التي تمنع الرادارات العدوّة من ملاحقة طيران طائرة ما ، وذلك بفضل الآلات التي تنقلها طائرة الـ « بوينغ » تلك .

وهكذا تمكنت الطائرات التي كانت تُـقِلّ فريق المغاوير الذين أتوا لتحرير عدد من الرهائن المحتجزين من بعض الإرهابيين الفلسطينيين ، من أن تحطّ على مطار نيقوسيا ، دون ان تكتشفها الرادارات القبرصية . ذلك ان هذه الطائرة ٧٠٧ ترسل في الواقع سلسلة من « الأنفاق » الألكترونية التي تجعل طائرات الفنتوم في مأمن يُمكّنها من الاندفاع فوق أهدافها دون ان تُكتَشف .

ولما بلغت شاحنة اللواء « دوريت » المُجهَّزة باللاسلكي سهل « سورك » ، عند منتصف طريق تل ابيب ، كان كل شيء جاهزاً . وفي أقل من عشرين دقيقة ، وفيما كان يجتاز منحدرات هضاب يهودا المُغطّاة بأشجار الزيتون ، كان قد أعدّ اول هجوم نووي وقائي في التاريخ .

ولم يبقَ إلاّ مهمة أخيرة : اختيار اسم مرموز للقصف . وقد اختار ضابط « الثقب » إسماً قَبِلَه حالاً « دوريت » وكان الاسم : « عملية مصفا » ، وذلك تحيةً للموقع التوراتي لإسرائيل حيث صاعقة « يهوه » كانت قد سبّبت هزيمة الفلسطينيين .

***

كانت مساحات الرمال الشاسعة الرمادية اللون تمتد الى ما لا نهاية . ومن مكان الى آخر ، كانت بقعة مُعْتِمة لقطيع من الماعز وحجر أبيض لقبر راحل وخيمة عائلة من البدو ، تُزيل رتابة المنظر . وكانت قوافل العصور القديمة قد مرّت من هنا ، وكذلك الشراذم البائسة لقبائل اسرائيل الراجعة من المنفى في مصر . وهناك ، وفي ثلاثة انفاق طويلة ، محفورة تحت صحراء النقب ، يودع ابناء اسرائيل الحديثة ، منذ اكثر من عشر سنوات ، أدوات مُرعبة ، عبارة عن مجموعة من القنابل الذرية هي سلاح حظّهم الأخير .

بعد بضع لحظات من وضع « الثقب » في حالة الانذار، بدأت أنوار حمر تومض على شاشة المراقبة في كل نفق ، مطلقة بصورة آلية مجموعة من المُنبِّهات الصوتية . وسبَّب هذا النداء استعداداً عاماً . وترك عشرات الرجال لُعبة الشطرنج وتحرير البريد وقراءة الصحف مندفعين في الأنفاق . وكانت صناديق مُحكَمة الإقفال قد صُفَّت داخل تجاويف ، وقد تضمَّن كل واحد منها كرة صغيرة مُفضَّضة ، تكاد تكون بحجم الليمون الهندي الذي تُنتِجه المزارع الجماعية في المنطقة . وكانت تلك نوَى البلوتونيوم للمرحلة الأخيرة من نشوء الأسلحة النووية الإسرائيلية . وكان فريق أول يخرجها من الصناديق ، بينما كان فريق ثان يُدخِرج على عربات الرؤوس ـ النووية المعدنية ، المُخصَّصة لتكون لها بمثابة غلافات ، وهذا التفريق البدئي كان خدعة . ولما كانت القنبلة الذرية لا توجد الا اذا جُمع عنصراها الاثنان ، فإن الاسرائيليين كانوا يدّعون علناً أنهم لم يُدخلوا أسلحة نووية الى الشرق الأدنى . وكانت حاملات الطائرات الأميركية للأسطول السابع تلجأ الى خدعة مماثلة كلما توقّفت في المرافىء اليابانية .

وكان جمع القنابل مناورة يدوية دقيقة . فقد كان الفنّيون يكرّرون كل أسبوع الحركات نفسها حتى يستطيعوا تأديتها معصوبي العينين .

وحتى هذا اليوم لم تكن القنابل قد جُمِعت إلاّ على سبيل التمرين ، عدا استثناء واحد ، قبل فجر ٩ تشرين الأول سنة ١٩٧٣ وبعد اثنتين وسبعين ساعة من بدء حرب « كبّور » . في تلك الليلة كان

السوريون قد خرقوا الجبهة الإسرائيلية في الشمال .

وأصبح عندئذ قلب اسرائيل ـ أي سهول الجليل الغنية ـ بدون دفاع في متناولها . وفي حالة قصوى من الاضطراب ، كان موشيه ديان قد حذّر غولدا ما ير بأن البلاد كانت مهدّدة بكارثة شبيهة بتدمير المعبد الثاني في القدس من قبلَ الفرق الرومانية الهائجة .

وأصيبت غولدا ماير بالذهول ، ولكنها حافظت على عزمها فأعطت امراً ، كانت تتمنى ان لا تضطر الى إعطائه أبداً ، باعداد قصف نووي ضد أعداء اسرائيل . ومن حسن الحظ ، وبما ان الهجوم السوري كان قد توقّف بأعجوبة ، فقد أمكن إلغاء العملية .

والآن ، كان الفنّيون ، في أنفاقهم المضاءة بشدة ، يعمدون مجدداً الى جمع تلك القنابل الذرية . وفي غرفة المراقبة التابعة لكل نفق ، كانت ناظمة آلية تَحْسُب تعيير صواعق القنابل ، حتى ينفجر بعضها على الأرض والبعض الآخر على ارتفاعات مختلفة من أجل زيادة قوّتها التدميرية . وبعد الانتهاء من جمعها كانت القنبلة توضع على عربة ناقلة كان بامكانها ان تنقل اربعاً منها معاً .

وكانت قد انقضت ثماني دقائق وثلاث واربعون ثانية بين نداء المنبِّه الصوتي واللحظة التي كانت فيها الحمولة الأولى تدخل الى المصعد المؤدي الى طائرات الفانتوم .

***

هذه القنابل كانت تمثل المرحلة الأخيرة من برنامج نووي كان عمره يوازي عمر دولة اسرائيل تقريباً . وكان مصدر هذه الجهود يرجع الى أول رئيس لدولة اسرائيل ، حاييم وايزمن ، العالم الصهيوني اللامع . وقد استجاب الى نصائحه دافيد بن غوريون ، مؤسّس الدولة اليهودية الجموح ، على الرغم من الاعتراضات العديدة داخل حكومته ، ووضع اسرائيل على طريق الذرة منذ اوائل الخمسينات .

وكانت فرنسا سنده الأول في هذا الميدان ، بعد ان سبق لها ان زجّت نفسها في برنامج مستقلّ للتسلّح النووي ، متحدّيةً بذلك حلفاءها الأنكلواميركان . ولما لم يعد بإمكان الفرنسيين الوصول الى تكنولوجيا الناظمات الآلية الأميركية ، فقد استعانوا لإجراء بعض الحسابات بأدمغة معهد وايزمن ده رهوفو ، في ضاحية تل ابيب ، كما أطلعهم الاسرائيليون على وسيلة لصنع الماء الثقيل . وبالمقابل فقد سمحت لهم فرنسا بأن يشتركوا في تجربة قنبلتها الذرّية في « الصحراء » ، الجميل الذي جنّب اسرائيل الانكباب على تجاربها الخاصة . وأخيراً قبل الفرنسيون عام ١٩٥٧ ببيعها مفاعلاً تجريبياً يعمل بواسطة الأورانيوم الطبيعي ، ذلك المفاعل الذي كان يعلم علماء البلدين أنه سيكون بوسعه ذات يوم ان يُنتِج البلوتونيوم ذا الصفة الحربية .

وكان بن غوريون نفسه هو الذي اختار موقع المنشآت الذرية للدولة اليهودية ، وكان عبارة عن رقعة في صحراء النقب يسهل فصلها وحمايتها . على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوبي « سد بوكر » مزرعته الجماعية . وكان الموقع يدعى « ديمونا » ، للتذكير بالمدينة التي كانت قد شيِّدت هناك في عهد النبطيين ، ولما استقر المهندسون في تلك المنطقة لبناء المركز النووي ، قررت الحكومة تمويه غرضها الحقيقي وادّعت أنه مصنع للنسيج . وكان قد اطلق على القبّة المُفضّضة البارزة من الرمال لقب « مصنع بناطيل بن غوريون » .

ووضع رجوع « شارل ده غول » الى السلطة في فرنسا في أيار سنة ١٩٥٨ حداً فظاً للتعاون النووي الفرنسي الاسرائيلي . فبرنامج فرنسا النووي ، بنظر رجل وطني مثل « دي غول » ، كان لا يعني سوى

فرنسا . وعادت اسرائيل لتجد نفسها ضمن اطار المعلومات النظرية الضرورية لصنع قنبلة ذرية ، ولكن بدون الأورانيوم المقوّى او البلوتونيوم اللذين لا غنى عنهما . وقد عثرت عليهما في أقل الأمكنة توقعاً ، وهو مصنع ذو مظهر حقير في ضاحية « ابوللو » ، المدينة الصغيرة في « بنسلفانيا » على بعد خمسين كيلومتراً من « بيتسبورغ » . وكانت شركة المواد والتجهيزات النووية ، التي أسسها عام ١٩٥٧ صهيوني مُتحمّس يُدعى « سلمان شبيرو » ، تصنع الوقود النووي وتستعيد الأورانيوم المقوّى الى درجة عالية ، وذلك بإعادة معالجة البقايا الناجمة عن الغواصات النووية الأميركية . ومن سنة ١٩٦٠ حتى سنة ١٩٦٧ فقدت شركة المواد والتجهيزات النووية كمية لا يمكن تصوُّرها بلغت ٢٥٠ كيلو من الأورانيوم ذي الصفة الحربية . وكان على الوكالة المركزية للاستخبارات ان تكتشف فيما بعد أن اكثر من نصف ذلك الأورانيوم ـ وهي كمية كافية لصنع ترسانة بكاملها ـ كان قد وصل الى النقب[3] وهكذا ، وقد شعرت الدولة اليهودية بقوتها من جراء إنتاجها الأول للأسلحة الذرية ، كانت اسرائيل قد تمكّنت من شنّ هجومها الوقائي عام ١٩٦٧ . وشاهد الإنتاج الثاني النور بفضل البلوتونيوم المستخرج من الوقود المشتعل في مفاعل « ديمونا » بواسطة انشاءات إعادة المعالجة المشيَّدة منذ سنة ١٩٦٧ نفسها[4] وفي نهاية السبعينات ، كانت تلك الجهود قد جعلت من اسرائيل الدولة النووية السادسة في العالم . الواقع أن القنابل التي كانت تخرج من مخبئها في عمق الصحراء ، كانت جزءا من قوة نووية ضاربة تعادل امكانياتها قوة انكلترا على الأقل وتفوق بلا ريب قوة الصين .

***

ـ قف هنا ، فأنا بحاجة الى لفائف .

وكان « يوري افيدار » ، رئيس دائرة الاستخبارات في الجيش الاسرائيلي قد أشار الى سائقه بأن يتوقف على شارع يافا في القدس . وقفز من السيارة وركض لشراء علبة « أوروبا » من مكتب التبغ عند زاوية الشارع .

وبدلاً من أن يعود حالاً الى السيارة ، سار في الاتجاه المعاكس نحو حجرة الهاتف التي كانت موجودة على بعد ثلاثين متراً .

وكان « افيدار » يعرف غيباً رقم مخاطبه . وقبل ان يُركّبه ، أشعل لفافة . وكانت يده ترتجف وشعر بقطرات العرق تتصبّب من جبينه . وأراد إدخال قطعة نقدية في جهاز الهاتف العام . وتوقّفت يده في منتصف الطريق . « يا إلهي ، لن أستطيع التوصل الى ذلك » ، وشقّ الباب واخذ نفَساً كبيراً من الهواء النديّ . وأخذته عندئذ رغبة لا تقاوم بالانصراف . فدخّن لفافته بامتصاصات طويلة جداً ، ليستعيد هدوءه . ثم أدخل قطعته النقدية في الجهاز وركّب رقم سفارة الولايات المتحدة في تل ابيب .

***

دوّت صفارة الإنذار ، فقفز ربابنة القوات الجوية الإسرائيلية الشباب الذين كانوا يشاهدون

---

(٣) قد يكون هذا الاختلاس حصل بمباركة الرئيس جونسون ، بل ربما كان بدعمه الفعّال . وجميع التحقيقات التي اجريت لمحاولة اكتشاف ظروف اختفاء ذلك الأورانيوم قد باءت بالفشل . وعندما قدّم مدير الوكالة المركزية للاستخبارات للرئيس جونسون الدليل على أن قسماً من الأورانيوم الناقص كان موجوداً في إسرائيل ، طلب اليه ان يوقف تحرياته وان لا يُظهر اكتشافه لأحد .

(٤) كانت دوائر الاستخبارات الاسرائيلية قد نظمت في كانون الأول سنة ١٩٦٨ « اختفاء » ٢٩٩ طناً من مسحوق الأورانيوم من على متن السفينة « شيرسبرغ » المسافرة بين « أنفير » و« جنوى » ، وذلك للحصول على الأورانيوم الخادم لتغذية مفاعل « ديمونا » .

التلفزيون من مقاعدهم الجلدية ، الكبيرة والمريحة ، ثلاث ضربات ، مهمة ، جوّ ـ ارض . ضربتان تعني استنفار جوّ ـ جوّ . وأمسكوا بخوذتهم وصدارهم الأصفر للانقاذ واندفعوا نحو مُـخـيّـم القيادة العائد لسربهم . وفي اللحظة نفسها كانت اولى العربات القلابة ، ناقلة القنابل الذرية ، تخرج من المصاعد في الملاجىء حيث كانت طائرات الفانتوم تنتظر عند نهاية مدرج تحت الأرض كان يؤدي الى الصحراء . ولم يدم اجتماع التعليمات سوى بضع دقائق ، وهو الوقت الكافي لإبلاغ الربابنة تواترات اللاسلكي الواجب استعمالها في حالة الطوارىء وتعليمات الطيران الواجب احترامها حتى يكون الهجوم مُـتزامناً تماماً .

وكان الهدف المحدد للمقدم « جيورا لاسكوف » رئيس السرب وأحد أقدم ربابنة اسرائيل ، هو قاعدة عقبة بن نافع الجوّية الجبارة ، القاعدة الجوية الأميركية السابقة « وتس » . أما زملاؤه فقد حُددت أهدافهم فوق باقي القواعدالجوية الليبية في بنغازي وطبرق والعدم .

وكان « لاسكوف » البالغ من العمر خمسا وثلاثين سنة ينتمي الى احدى المزارع الجماعية ، شأنه شأن ثلاثة أرباع الربابنة الاسرائيليين . وأثناء سنوات خدمته الخمس عشرة مع نخبة القـوات المسلّحـة الاسرائيلية ، كان قد اشترك بحربين وسجّل اكثر من ثلاثة آلاف ساعة طيران ، على متن طائرات الميراج اولاً ثم على متن طائرات الفانتوم . وكان تدريبه مرهفاً واستعداده لأي نوع من الطوارىء تاماً ، لدرجة أن أية عضلة في وجهه لم تهتزّ عندما أُبـلِـغ ان المقصود لم يعد تجربة بل انه كان ينبغي حقاً التوجُـه لإلقاء قنابل ذرية زنتها عشرون الف طن على أهداف عدوّة حقيقية .

وكان على « لاسكوف » أن يُـقلع أول واحد نظراً لطول المسافة التي كان عليه ان يقطعها . وكان قد توجّه نحو طائرته ، عندما شعر فجأة بذهول من جراء ضخامة مهمتـه . والتفـت نحـو ربابنـة سربـه الشباب . وكانت وجوههم تبدو وكأنها تعكس الهلع الذي كان قد غمره بغتةً . وتحجَّر من الذهول ، وبحث عن شيء يقوله لهم . ولكنه أدرك أن أية كلمة لن تكون مناسبة في مثل ذلك الظرف المأساوي . واكتفى بأن رفع خوذته وابتسم ابتسامة حزينة ، كما لو كان يتمنى حظاً سعيداً للجميع . ثم تقدّم بخطى ثابتة واختفى في المصعد . وكانت الساعة العاشرة واثنتين وعشرين دقيقة ، وكان قد انقضى اربع وخمسون دقيقة على خروج اللواء دوريت من قاعة مجلس الوزراء لمخاطبة « الثقب » .

***

نزع مناحيم بيغن نظارتيه وأسند جبينه بيده ومسَّـد برفق حاجبيه . وكانـت تلك علامـة الحـزن العميق الذي كان يغمر رئيس وزراء اسرائيل .

وكان لا يفتأ يكرر مُـرْهقاً : كيف علموا بذلك ؟ مع أنه لم يتخذ أيُّ بلـد آخـر هذا القـدر من الاحتياطات لإحاطة قوته النووية الضاربة بمثل تلك الدرع من السرّية . . ومنذ حرب « كيبور » كانت جميع الاجراءات المتعلقة بالاستعمال الممكن لتلك القوة قد حُللت وروقبت وغُربلت بواسطة النـاظمات الآلية للتثبُّت من أن أية علامة موحية لم يكشفها قمر صناعي وأن أية محادثة مُـعـرَّضة للشبهة لم تُـلْـتَـقَـط من المراقبة الألكترونية ، ورغم ذلك فلم تنقض ساعة على إعطائه الأمر بمهاجمة ليبيا ، حتى تلقّى مناحيم بيغن مخابرة هاتفية من سفير فرنسا . وكان الديبلوماسي الفرنسي قد نقل اليه ، بصوت يخنقه التأثر ، إنذاراً من الكرملين يهدّد اسرائيل بتدابير ثأرية نووية فورية اذا لم تلغ حالاً هجومها ضد ليبيا .

وتساءل بيغن ، دَهِشاً ، كيف أمكن للروس ان يردّوا بهذا الشكل الصاعق ؟ كان يعلم جمودهم التقليدي عند بدء أية أزمة دولية . حتى أنه كان يعلم بواسطة استخباراته ان قادة الكرملين كانوا يتخوفون

منذ أمد بعيد من الخطر الذي كان ينطوي عليه بطؤهم باتخاذ القرار في حالة الطوارىء . ومن المثير للفضول ، أن تلك الديكتاتورية الصلبة كانت تتحول في الواقع الى نوع من الديموقراطية في زمن التوتّر العالمي . وعلى عكس الولايات المتحدة وفرنسا حيث كان رجل واحد يستطيع ان يقرّر وحده شن مُحْرقة ، نووية ، فان تسعة على الأقل من أعضاء اللجنة المركزية . للحزب الشيوعي السوفياتي الأربعة والعشرين ، كان عليهم ان يصدّقوا خطياً على أي تدخّل عسكري ، إن التهديد بإبادة اسرائيل كان قد استوجب حتما هذا النوع من الموافقة ، فكيف أمكنهم الحصول عليه بهذه السرعة ؟ الا أذا كانوا قد علموا بالأمر منذ بدء الأزمة ؟

واذا كان الروس يخادعون ؟ أو كانوا يقعقعون بصواريخهم كما فعل خروتشيف في السويس ؟ ولكن هل كان يملك ، هو ، الحق ، بأن يلعب بمصير بلاده على أساس ذلك الافتراض ؟

واستشار مناحيم بيغن ساعته . وبعد اثنتي عشرة دقيقة ستكون اوائل طائرات الفانتوم قد بلغت هدفها . وكان الوقت متأخرا جداً لدعوة مجلس وزراء جديد : فقد كان ينبغي ان يتخذ القرار وحده .

ومشى نحو النافذة . وكانت كتفاه قد تكوّمتا وقلبه اضطرب تأثراً وكان « الجنتلمان البولوني » - كما كان يُدعى غالباً - يتأمل هضاب يهودا ذات النتوءات والتجاويف ومباني اسرائيل الحديثة ومبنى الكنيست بشكل « باغود » ومباني الجامعة العبرية والقبة البيضاء لمتحف القدس المتألقة تحت أشعة الشمس .

وعلى علوّ لا يتعدّى مدى رؤيته ، كان يقف النُصْب التذكاري الذي كان يُكِنّ له أهمية عظمى ، « خيمة الذكرى » حيث كانت تتقِد شعلة ابديّة تخليداً لذكرى ضحايا الإضطهاد النازي الذين كان يوجد في عدادهم اغلب افراد عائلته . وكان بيْغن قد أقسم على مذبح هؤلاء الملايين الستة من الأموات ، بأن شعبه لن يعرف ابداً مُحْرَقَة جديدة . فهل كان عليه اليومَ ان يجازف بالحنث بيمينه وان يُصِرّ على أمره بالهجوم الوقائي ضد ليبيا ؟ ان المطلب السوفياتي كان بسيطاً ومباشراً بشكل مأساوي . ومع ذلك فإن رانان كان على حق : فكيف سيكون بوسع اسرائيل ان تعيش في ظل التهديد الدائم بإبادتها على يد مُتعصِّب كالقذافي ؟

إضرب كالبرق وأوضح بعد ذلك : هذا ما كان قد حاول ان يفعله . وفي اطار لعبة الشطرنج المخيفة هذه ، كان يعلم ان الأميركان وحدهم كانوا يستطيعون تقديم البيدق الذي بوسعه توقيف الروس : وذلك بتهديدهم بدورهم بمُحرَقة ذرية . ولكن هل سيرغب الأميركان باتخاذ مثل هذه المجازفة اذا ما علموا بأن بيغن كان قد اندفع في تلك المغامرة على الرغم من مناشداتهم ، دون ان يتردد بتعريض حياة عشرة ملايين من أهالي نيويورك للخطر في سبيل المحافظة الوقائية على بلده !

وفجأة ، أصبح كل شيء واضحاً أمام عينيه . إن الروس لم يكتشفوا حقاً أي شيء ، إنّ احداً لم يكتشف شيئاً . ولكن الأميركان كانوا قد احترسوا فقط من الاسرائيليين . وكان رئيس الولايات المتحدة قد ادرك ان لا شيء سيوقفهم . وكان ان نزّل مُعَلّق الهاتف الأحمر وأخبر الروس .

شعر مناحيم بيغن بأنه شاخ فجأة وبأن الموت يستولي على روحه ، فنزّل ، هو ايضاً ، مُعَلّق هاتفه .

***

تحت جناح طائرة الفنتوم التي كانت تطير على ارتفاع خمسين الف قدم ضمن إشراق الأثير المُزْرقّ ،

كان المقدم « لاسكوف » يُميِّز مساحات المتوسط الشاسعة المتلألئة . وكان يراقب ، ويداه على المقابض ، آلات طائرته التي كانت تقوده نحو هدفه بسرعة تبلغ ضعفي سرعة الصوت . وعلى شاشة راداره ، كانت تبدأ في الارتسام تعرّجات الشاطيء الليبي على أقلّ من ثلاثمئة كيلومتر . بعد تسع دقائق ، سيكون فوق طرابلس .

وصرّت إشارة في آلات التنصّت ، وكان الصوت يردد : « شادروك ، شادروك ، شادروك » وامتصّ « لاسكوف » نفساً كبيراً من الأوكسيجين ، وأمسك المِقبض ودفع طائرته الفانتوم في انزلاق على الجناح بزاوية تبلغ / ١٨٠/ درجة . واختفت ارض افريقيا من شاشة راداره ، كانت عملية « مصفا » قد أُلغيت .

***

القسم الرابع
« إنه محتال بقدر ثعلب الصحراء »

كانت الساعة الثالثة وخمس دقائق صباحاً في واشنطن ، ذلك الاثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول . وكانت قد انقضت ثلاث ساعات وخمس دقائق على الانفجار الليبي في بحر الرمل في « عوبري » . وكانت عاصمة الولايات المتحدة ترقد تحت ردائها من الثلج الجامد . ولم تكن أية اشارة لتسمح بالظنّ بأن أزمةً كانت قد نشبت لتوّها . على أن هذا الهدوء السطحيّ كان يخفي في الواقع اضطراباً شديداً ، فمنذ منتصف الليل ، كانت أهم المصادر التكنولوجية للدولة الأميركية في حالة عمل ، ومن مقرّ مكتب التحقيقات الاتحادي والقيادة العامة للوكالة المركزية للاستخبارات من الجهة الأخرى « للبوتوماك » ، كانت تنطلق كل ثانية رسائل تأمر العملاء والجواسيس العاملين لحساب الولايات المتحدة عبر العالم ، بأن يعبئوا كل جهد في سبيل اكتشاف من كان قد نقل الى القذافي سرّ القنبلة الهيدروجينية وكيف كان قد تمكّن من صنعها ومن كان قد أدخلها الى نيويورك .

وفي « أولناي » في « الماريلاند » ، لم يكن يترتب على الحرّاس الليليين إلاّ أن يُركّبوا الرقم ٣٣ على جهازهم الهاتفي ذي الملامس حتى يضعوا البلاد من أقصاها الى أقصاها في حالة تأهب ذرّي عام ، وعلى بعد بضعة كيلومترات من هناك ، كان فنّيو الوكالة الوطنية للأمن يلتقطون جميع الاتصالات الهاتفية وإذاعات الراديو عبر الفضاء ، ويسجّلونها وينقلونها الى ناظمة آلية ويستغلونها بواسطة جهاز مفاتيح عجيب . وكانوا يرصدون الأثير تلك الليلة ، على أمل ان يكتشفوا عبره كلمة أو جملة او رسالة من شأنها ان تُرشد المحققين الى ارهابيي القذافي . وغير بعيد من هناك ، كانت القيادة العامة التحأرضية[1] لفرق « ناست » للتحرّي عن المفتجرات الذرّية ، في حالة غليان تام . وقد سبق لهذه الفرق ان انطلقت ست مرات لمطاردة قنبلة في شوارع احدى المدن الأميركية . ولم يعلم أحد أبداً شيئاً عن ذلك . وبعد بضع ساعات سيتجول المئتا مأمور المنقولون بواسطة طائرات « ستارليفتر س ١٤١ » المعبأة عند بدء السهرة بأجهزتهم الكاشفة على متن شاحنات صغيرة مُغْفَلة مستأجرة من « هرتز » أو « أڤي ».ومرة اخرى لن يعرف أحد من كانوا وعما كانوايبحثون. وكانت السرية والسرعة القاعدة الذهبية لعمليات « نست » . السرّية لمنع الارهابيين من تفجير قنبلتهم اذا شعروا بأنهم كُشفوا ، والسرّية ايضاً لمنع أيّ ذعر عند الأهالي .
أما السرعة فلأنّ كل دقيقة كانت تُعد بحياة آلاف البشر .

وقد تقدّمت طائرات « ستارليفتر » الضخمة ، طائرتان ، الأولى ذات محركين نفّاثين « بيكرافت كينغ اير ١٠٠ » والثانية طوّافة هـ ـ ٥٠٠ » تحمل كلاهما أرقاماً مدنية عادية . وحطّت هاتان الطائرتان في قاعدة « مكغير » الجوية في « نيوجرسي » . وكانتا تنقلان أول فريق مؤلف من عشرين فنّيا وإنشاءات لاسلكية مستقلة لمئتي مركز وعشر كاشفات للنترونات بالتريفليوريد .

وكان الرجل الذي ستقع عليه المسؤولية المخيفة في مطاردة القنبلة ، قد بدأ يسير على متن سيارة مبذّلة على الجادة المؤدّية من « مكغير » الى نيويورك . وكان الفيزيائي الذري ، بيل بوث ، البالغ من العمر اثنتين وخمسين سنة ، يبدو ، بقامته البالغة مترين ووجهه الأسمر وجزمته وقبضته المختصتين برعاة البقر

(١) واقع تحت الأرض (المنهل) .

وقميصه ذي المربعات وحجابه المؤلف من سلسلة من المدى الأسبانية حول رقبته، يبدو وكأنه خارج من دعاوة للفائف « مارلبورو » ، وكان النداء العاجل قد أمسك به حيث لا يمكن الا ان يكون ، أي على مُدرّجات « كوبر مونتن » للتزلج في الـ « كولورادو » فيما كان يقضي عطلة نهاية أسبوع شتوية . والآن ، وقد اندفع نحو نيويورك ، فقد كان يشعر بغثيان مبهم يغمره ، كلما فكّر بما كان ينتظره . وكان يشعر بهذا لانزعاج كلما أُرسل على رأس فرقة في شوارع أحد التجمعات الأميركية ، مع أن هذه الفرق كانت من تأليفه . وقبل سنوات من تخيّل أحد الروائيين أول قصة مثيرة تروي ابنزازا ذرياً ، كان « بوث » قد شعر بدنوّ تهديد الارهاب النووي . وكانت اول رؤيا قيامية له عن هذه الامكانية ، قد تبدّت له في أحد الأماكن الأقل تهيّؤاً لمشهد من هذا النوع ، وذلك في بساتين الزيتون والمزروعات بشكل « جلول » في قرية صغيرة للصيادين الأسبان تُدعى « بالومارس » . وكان قد أُرسل الى هناك عام ١٩٦٤ مع فريق من الفيزيائيين والاختصاصيين بالتسلّح النووي لمحاولة استرجاع القنابل الذرية التي كانت تنقلها احدى القاذفت / ب ٢٩ / التي كانت تحطّمت في المنطقة .

وكان بتصرف فريقه آلات للكشف ووسائل فنية للبحث من أحدث ما وُجد . وخلال أيام وأسابيع بحثوا بلا كلل . ولم يجدوا الا بعض آثار من السماد وحفنة من الحصى المُشعّة قليلاً . واذا كان «بوث » لم يتمكن من كشف سُبّحة قنابل في منطقة منبسطة ، فلم يكن بحاجة للكثير من الخيال ليدرك انه سيكون اكثر مشقة العثور على سلاح نووي مخبأ من فريق من الارهابيين في قبو او تسقيفة في قلب نيويورك .

ولما عاد الى « لوس الموس » حيث كان احد المسؤولين عن إعداد الأسلحة النووية ، كان قد ناضل في سبيل تهيئة اميركا لمجابهة الأزمة التي كان متأكداً من أنها لن تتأخر عن ضرب احدى المدن الأميركية يوما ما . ومع ذلك وعلى الرغم من جميع جهوده ، فقد كان « بوث » يعلم ان فرقه أياً كان تطوّر أجهزتها ، كانت عاجزة عن القيام بالمهمة الملقاة على عاتقها : ففي مدينة تُشكّل غابةً من ناطحات السحاب المصنوعة من الفولاذ والزجاج العديد من العوائق الطبيعية فيها ، يُعتبر الأملُ في كشف إرسال للاشعاعات والتوجّه نحو القنبلة ككلب صيد يقتفي اثر الطريدة ، يُعتبر وهماً وسراباً .

وترك « بوث » ، وقد تملّكه الحزن والكآبة ، نظره يسرح فوق ألسنة اللهب المنبعثة من مشاعل مصافي « نيوجرسي » التي كانت تتلألأ في الليل . ثم ، فجأة ، شاهد رأس « منهاتن » كثيفاً ورائعاً يُنير الظلمات بفيض من النجوم . وفكّر عندئذ بجملة « سكوت فيتزجرالد » التي كان قد تعلّمها في الكلية . فاكتشاف نيويورك ، هكذا ، من بعيد ، كان بمثابة (الامساك بصورة مجنونة لسر العالم وجماله .) وارتجف . فناطحات السحاب في « منهاتن » لم تضع أمام عينيه ، تلك الليلة ، أيّ وعد بالجمال . بل ، على العكس ، كان يعلم أن الجحيم هو الذي كان ينتظره هناك والتحدي الأكثر هولاً الذي كان قد قُدِّر له ولرجاله أن يواجهوه .

***

في واشنطن ، كانت عدة طبقات من الجناح الغربي للبيت الأبيض مضاءة . وكان « ديك كلسن » ، البالغ من العمر اثنتين وثلاثين سنة ، منزوياً في مكتبه الضيّق المزدحم بالأوراق ، وكان ، بوصفه المحرّر الرسمي للخطب الرئاسية ، قد بدأ بكتابة الكلمة التي سيذيعها رئيس الدولة بواسطة لاذاعة والتلفزيون في حال تسرّب تهديد القذافي الى السكان .

وكان « إيسمان » قد ألحّ عليه « بأن لا يكذب » ، بل ينبغي ان يُناور ويدور حول الموضوع حتى لا يفكِّر احد بأن القنبلة ستتمكن من قتل عشرة ملايين من أهالي نيويورك . وينبغي ان يكون الخطاب مطمئناً

لناس ومُشدِّداً عزائمهم ومهدئـاً لهم . » .

ورفع « كلسن » رأسه ، وقد احمرّت عيناه من التعب ، وأدار أسطوانة آلته الكاتبة وشرع في إعادة قراءة حصيلة جهوده الأولى :

« مواطنيّ الأعزاء :

« ليس لدينا أي سبب للاعتقاد بأن هذه القنبلة تضغط على سكان نيويورك بشكل يجعل تهديدهـا لحياتهم وسلامتهم مداهماً . وبالاتفاق مع حلفائنا في العالم الحر ، ومع الاتحـاد السوفياتـي وجمهـورية الصين الشعبية ، فقد ـر. . . . » .

وكان « جاك ايسهان » ، في الطبقة الكائنة مباشرة فوق طبقة « كلسن »، ينظـر ، تعِبـاً ، الى « الهمبرغر » القليل الاثارة للشهيّة ، الذي كان قد استحضره من الموزع الآلي تحت الأرض للاستعاضة عن عشائه الأحدي . وكان مكتبه مُغطّى بالصور والذكريات التي تُزيِّن مجرى حياته ، والتي تـشكّل عدداً من المراحل على الطريق الذي كان قد أوصل هذا العسكري الى منصب مساعـد الـرئيس للأمـن القومي . وكان يُشاهد في احدى الصور ربّاناً شاباً لطائرة / ف ـ ٨٦ في كوريا ، ويُـشاهد في صورة أخرى وهو يتسلم شهادة ادارة الأعمال من جامعة « هارفرد » . وكانت أربعـة صحـون من بورسلـين « دالفت » مشتراة من « بروكسيل » تُـذكّـر بإلحاقه بالقيادة العامة للحلف الأطلسي .

وضمن إطار من الفضّـة موضوع على طاولته ، كان ثمة ايضاً صورة لزوجته « سـالي » وصـورة أخرى لابنتها « كاتي » البالغة تسعة عشر عاماً . التقطت قبل سنتين بمناسبة الاحتفال بنيلها شهادة نهاية الدروس من الـ « كاتدرال سكول » في واشنطن ، وكان « ايسهان » قد لاحظ دوماً ابتسامة خبيثة في تلك الصورة . وكان ينظر الى تلك الابتسامة ولا يستطيع ان يحوِّل فكره عن تلك الفتاة الفـخور في الثـوب الأبيض . وشعر فجأةً بتشنّج يلوي معدته . فأغلق عينيه على تلك الصـورة الحبيبـة وأسنـد رأسـه الى راحتيه ، وكان يناضل للسيطرة على تأثّره وليستعيد فضائل الانضباط التي ألهمت حياته كلها . وكانت ابنة « جاك ايسهان » الوحيدة طالبة في السنة الثانية في جامعة كولومبيا في نيويورك .

***

قامت سيارة التاكسي الصفراء بتزعـرُج[1] وسط سيارات « الرولز » و« الكاديلاك » التـي كانـت تسدّ ، شأنها كل ليلة ، ضواحي الستوديو ٥٤ . واندفع بواب مُـزيّن بشرائط لاستقبال المرأة الشابة التي نزلت من السيارة ورافقها عبر جمهور من الفضوليين تجمّـعوا على الرصيف تحدوهم الرغبة في مشاهدة بعض المشاهير الذين كانوا يؤمّـون المرقص الأكثر شهرة في نيويورك . وكانت ليلى دجاني لا تزال مُـهتَزَّة بسبب اللحظات العنيفة التي كانت قد عاشتها لتوّها مع شقيقيها في مستودع القنبلة ، فتردّدت قبل ان تنغمس في الرقصة الضاجّة . وكانت اثنتا عشرة نـوّارة تُـشْـعِـل في سَيْـل من النور التخديري غابةً من المعدّلات المضيئة التي كانت تحوّم في السقف كأنها دوّامات ملتهبة . وكانت صعفوف من الأدوات الدوّارة ، المنطلقة مع التناغم الجامح لمكبرات الصوت ، ترسل باقات من البرق نحو الستائر القرمزية التي كانت تغطّي الجدران. وتقدّمت ليلى بضع خطوات نحو حلبة الرقص المتألقة حيث كان مشاهير التنقل الصاروخي النيويوركي والدولي يتلوّون في ثوران ألاعيب بهلوانية ايقاعية . وارسلت قبلةً عابرة الى « بيانكا جيجر » الداكنة ،

---

(١) تزلج متعرج (المنهل) .

المشيرة السابقة لـ « رولينغ ستون » التي كانت تتململ في بنطال قصير جداً من الأطلس لا يفسح المجال لتخيل اي شيء آخر ، ثم الى « مارغرت ترودو » سيدة كندا الأولى السابقة التي لا تكلّ والتي كانت مقولبة في صِدار مُوَشّى بالبرق وبنطال ضيق الساقين ينزل فوق حذاء أبيض مُطرّز عالي الساق ، وكانت الممثلة الجميلة « ماريزا برنسون » ، المستلقية بشهوانية على أريكة من المخمل الأحمر وسط جماعة من المعجبين الشباب يرتدون السموكن ، تبدو وكأنها في بلاطها كما في مشهد من فيلمها « باري ليندون » ، وبعيداً ، كانت « جاكي اوناسيس » ، ذات الجمال الرائع الدائم ، ترتدي فستاناً ضيقاً ذا لون ذهبي شاحب وقميصاً فضفاضاً منَ الكريب الرمادي ، مُرصّعين بحبّات من الذهب والفضة . وكانت تراقص الوكيل الأدبي الكليفورني « سوفتي لازار » . وفي احدى الزوايا ، كان ثمة شخص بزيّ بوذا أسود يرتدي بنطالاً وصُدْرة من الجلد ، وقد تعلّقت يداه بسلسلة من الفضة تدلّت من حزام كان يشدّ ردفيه . وكان وجهه مغتبطاً بفعل نشوة داخلية . وكان يتمايل راقصاً رقصة مُنفردة .

وقد قضت ليلى اكثر من عشر دقائق لتشقّ طريقها بين الأيدي والأنظار التي كانت تحاول ان تجذبها نحو الأرائك والمقاعد والنمارق[1] الناعمة التي كانت تحيط بالحلبة . ولما أبصرت اخيراً الجماعة التي كانت تبحث عنها ، اندفعت نحو شاب طويل كان شعره الكثّ الأشقر يتموّج على ياقة قميصه الحريري ذي الفتحة الكبيرة . وشدّت نفسها اليه وهمست :

ـ ميخائيل ، يا حبيبي ، أرجو المعذرة لتأخري بالوصول .

وضمّها ، « ميخائيل لايلورد » بين ذراعيه وكان له وجه رئيس الملائكة وعينان زرقاوان وملامح منسجمة انسجاماً يكاد يكون مفرطاً تحيط بفم يتميز بشهوانية رقيقة .

ـ تعلمين يا عزيزتي اني سأغفر لك حتى موتي .

وجذبها برفق الى المقعد . وكانت لفافة « ماريجيانا » تدور حولهم . فاستولى عليها ميخائيل ووضعها بين شفتي ليلى . واخذت المرأة الشابة نفساً عميقاً وأبقت الدخان حتى انعدم نفَسُه ، ثم اخرجته ببطء من منخريها . وكان ميخائيل على وشك تمرير اللفافة الى شخص آخر ، عندما أخذتها ليلى منه بكلتا يديها وسحبت منها نفساً جديداً . ثم انقلبت الى الوراء وأغمضت عينيها تاركةً غبطة المخدِّر تستولي عليها . وعندما فتحت عينيها ، شاهدت فوقها وجه ميخائيل الذي كان ينظر اليها برقّة :

ـ هل نرقص ؟

وعلى الحلبة ، ألقت بنفسها بين تدفّق الموجات الرنانة ، وأغمضت عينيها لتتمتع تمتعاً تاماً بحلمها فوق سحب رحلة خارج نطاق الزمن والفضاء .

ـ يا لك من زنجي قذر !

وبدّد الصياح حلمها . وكان بوذا الأسود الذي كانت قد لاحظته عندما دخلت ، قد انهار لتوّه فوق الحلبة ، دامي الوجه ومقطّب الفم من الألم . وكان المعتدي شاباً يرتدي « سموكن » من الأطلس الأبيض المزركش بالبرق ، وكانت عيناه محتقنتين بالكحول . وقد وجد الوقت ليوجّه اليه ضربة أخيرة بقدمه في بطنه ، قبل ان يحول بينهما نادلان يرتديان بنطالاً قصيراً من الحرير .

وارتعشت ليلى وتأوهت : « يا للفظاعة ! » واندفعت نحو المسكين الذي كان جمهور الراقصين غير المكترثين لا يزال يُدوِّم حوله . وجذبها ميخائيل من يدها برفق وقادها الى طاولتهما . وكانت المرأة تترنح

---

(١) جمع نُمرق ، وهي وسادة صغيرة يتكأ عليها .

من الاشمئزاز والتمرد . وتمتمت :
- في أيّ عالم كريه نعيش يا ميخائيل ؟

وكانت عيناها تتألّقان . وكانت هيئتها بعيدة وعدائية . وتساءل ميخائيل : هل كانت العشبة الكولومبية الجديدة شديدة التأثير ؟ وجفّف عرق جبينها وابتسم لها . ولكنه شعر بانها كانت غائبة .
- ليس هذا حقاً عالم الفقراء والضعفاء ، أليس كذلك يا ميخائيل ؟ ليس لديهم حقاً ما ينتظرونه ، العدل ، الاعتبار ، المساواة ؟ كلّا ! ضربات قدم ، نعم ! الا اذا حاولوا الحصول عليها بأنفسهم . ولأجل ذلك ، لا توجد سوى وسيلة واحدة : العنف .

تلفّظت بهذه الكلمات بحدّة أذهلت ميخائيل . .

- ليس العنف هو الوسيلة الوحيدة ، يا ليندا . (وكان لا يعرفها الا بهويتها المزيّفة) هناك وسائل اخرى .

- ولكن ليس بالنسبة للضعفاء ولا بالنسبة للمضطهدين (ورفعت ذراعها نحو الراقصين في الحلبة) هم ، لا يسمعون أبداً الا بعد فوات الأوان . إنهم لا يهتمون الا بحسدهم وملذاتهم وأموالهم . أما الفقراء ، فاقدو الوطن ، المحرومون ، فهذا شيء لا يعنيهم . وما دام العنف لم ينفجر ، فإن العالم يبقى أصمّ .

- هل تؤمنين حقاً بما تقولين يا ليندا ؟

- أؤمن بذلك بالتأكيد . (وهدأ صوتها ليصير همساً) ان في قرآننا آية مخيفة ، ولكنها تعني ما تقول : «/ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دآبـة » .
- قرآنك ؟ كنت أعتقد انك مسيحية ، يا ليندا ؟
تصلّبت ليلى ، وتلعثمت قائلة :

- انت تعلم ماذا أعني ، اليس القرآن عربياً ؟

أشعل احدهم لفافة جديدة وقدّمها الى ميخائيل الذي رفضها قائلاً :
- فلنعد !

وأخذت ليلى وجه حبيبها بين يديها وداعبت صدغيه . وبقيت هكذا فترة طويلة تتأمّله .
- نعم ، فلنعد يا ميخائيل .

وفيما كانا يشقّان طريقهما نحو المخرج ، اقترب منهما رجل قصير يرتدي ثوباً دافئاً(×) من المخمل الخبّازي اللون .
- ليندا ، يا عزيزتي !! انت حقاً رائعة الجمال .

وعرفت ليلى وجه الكاتب « ترومان كابوت » المنتفخ والذي يشبه قليلاً وجه « تشرشل » .

- تعالي أقدّمك الى جميع اصدقائي الظرفاء .

(×) المقصود الثوب الذي يلبس بين المباريات الرياضية . (المترجم) .

وجذب « كابوت » المرأة الشابة نحو مجموعة من الدوقات الايطاليات المسترخيات حوله ، وأعلن بنشوة ، مشيراً الى امرأة ترتدي بونشو(×) من التخريم الأسود ، ينبغي أن يكون وجهها قد خضع عدة مرات لمآثر جرّاحي التجميل في الأميركتين :

- تقيم الأميرة بعد غد حفلة غداء على شرفي . وينبغي حتماً ان تحضري ، (والقى نظرة مشرقة على ميخائيل) ولا تنسي بخاصة ان تحضري هذا الشاب الرائع .

وانحنى « كابوت » باتجاه ليلى :

- كل الأوساط ستكون هناك . « جياني »(٥) يأتي خصيصاً من « توران » لأجلي (وأصبح صوته همساً متآمراً) وحتى « تادي »(٦) سيحضر من واشنطن ، أليس هذا مدهشاً ؟

وبعد أن وزّعت القبلات والوعود ، تمكّنت ليلى من ان تتوارى . ومن فوق ضجيج الموسيقى المُصِمّ تبيّنت صوت الكاتب الذي كان يصرخ بها :

- لا تنسوا ، يا أعزائي . الغداء الأربعاء . كل الأوساط ستكون حاضرة .

***

كان الخبراء الأول الثلاثة في مادة علم النفس المختص بمكافحة الارهاب يصلون الى البيت الأبيض ، بعد انقضاء عشرين دقيقة على طلب الرئيس مساعدتهم . وكان الدكتور « جون تورنر » عملاقاً هزيلاً وحزيناً تبلغ قامته متراً وتسعين سنتيمتراً ، وكان يتولى قيادة قسم الشؤون النفسية في الوكالة المركزية للاستخبارات . أما الدكتور « برني تماركان » البالغ ثمانية واربعين عاماً ، والذي كانت عيناه المتورمتان من النعاس وهيئته الملائكية التَعِبة لا تستجيب قط للصورة التي يتخيلها الانسان لقطب في الطب ، فقد كان ، هو ، أحد كبار أطباء الأمراض العقلية في واشنطن واخصائياً بارزاً في علم النفس الارهابي . أما « ليزا ديزون » فقد كانت امرأة شابة سمراء . وكانت تطربتها(××) الظاهرة بما فيه الكفاية وبنطالها « الجينز » الضيّق واكعابها العالية تعطيها هيئة فتاة مرقص غير مُستحبّة في تلك الأمكنة . وكانت مسؤولة عن شعبة ليبيا في قيادة الوكالة المركزية للاستخبارات ، كانت قد أمضت ثلاث سنوات في ليبيا في اوائل السبعينات كمستشارة ثانية في السفارة الأميركية . ومن بين جميع الموظفين الحكوميين الذين كانت هذه الأزمة في مجال تعبئتهم ، كانت الوحيدة التي التقت القذافي شخصياً . وكان العقيد الليبي قد لاحظها ذات يوم في حفل استقبال فتسلّح بجاذبيته التي لم تقابلها الأميركية الشابة بفتور ، ودعاها لتناول قدح من عصير البرتقال ثم كرّس لها حديثاً على انفراد دام نصف ساعة بكاملها .

أدخل اللواء « ايسمان » الضيوف الى مكتبه حيث كان خبير نظارة الخارجية في مكافحة الارهاب وزميله لدى الوكالة المركزية للاستخبارات وبعض المسؤولين الآخرين . وأطلعهم باختصار على الموقف الذي أزال هولُه كل أثر للنعاس على وجه الدكتور « تامركان » . وبعد أن انتهى العرض ، أخرجت ليزا ديزون من حقيبتها كُتيباً من ثماني عشرة صفحة ذا غلاف ابيض مختوماً بخاتم الوكالة المركزية

(×) معطف في اميركا الجنوبية مصنوع من غطاء مثقوب الوسط لاخراج الرأس منه .
(٥) جياني انيلّي ، رئيس « فيات » .
(٦) تادي كندي .
(××) طلي المساحيق او مستحضرات التجميل (المنهل) .

للاستخبارات الأزرق الشاحب وبطابع « سرّي » ، ومعنوناً : « دراسة شخصية معمر القذافي وتصرّفه السياسي » .

وكانت تلك الدراسة جزءاً من برنامج سرّي قامت به الوكالة المركزية للاستخبارات منذ اواخر الخمسينات.وكان موضوع البرنامج تطبيق تكنولوجيا الطب النفساني على شخصية وطباع عدد من الزعماء الدوليين ، في أدقّ التفاصيل الصميمية . وكان الهدف التكهّن بشيء من اليقين بردود فعلهم إبّان الأزمات . وكان كاسترو وناصر وشارل ده غول وخروتشيف وبريجنيف وماوتسي تونغ والشاه والخميني قد مرّوا جميعهم تحت مجاهر مُشرّحي الوكالة المركزية للاستخبارات . وكانت بعض عناصر من جانبيات نفسية كاسترو وخروتشيف قد قدمت بصورة خاصة عوناً حاسماً الى جون كندي للسير بالمفاوضات مع الرجلين اثناء أزمة صواريخ كوبا . وكان كلُّ جانب ثمرة جُهدٍ مالي وفني هائل . وكان كل ما يتعلّق بشخصية ما قد دُقّق : العوامل التي أثّرت على حياته والصدمات الهامة التي تعرّض لها وكيف واجهها وهل لجأ الى بعض إجراءات الدفاع المميّزة . وكان يمكن ان يطوفَ بعضُ المأمورين انعالم كله لتحديد واقعة واحدة بدقّة ، واستكشاف وجه واحد من مزاج أحد الرجال . وكانوا يطاردون رفاق الفرقة القدامى لمعرفة ما اذا كان هذا او ذاك يستمني او يشرب المسكر او يفلفل أطعمته أو يؤمّ الكنيسة وكيف كان ردّ فعله في فترة الضغط ، وهل كان يشكو من عقدة « اوديب » ؟ وهل كان يحب الصبيان ؟ أو البنات ؟ أو الأثنين ؟ ومحاولة تتبّع تطوّره الجنسي ومعرفة حجم قضيبه ، وهل كان لديه ميول ساديّة أو ماسوشيّة . وقد أرسل ذات يوم أحد مأموري الوكالة المركزية للاستخبارات سراً الى كوبا لغاية وحيدة وهي استجواب احدى البغايا التي كان لكاسترو علاقات معها عندما كان طالباً .

وتأمّل ايسهان على غلاف الكتيب صورة الرجل الذي كان يهدّد بقتل ابنته وعشرة ملايين اميركي ، وكان وجهه هزيلاً ومتوتراً وقلقاً . وارتعش . لم يكن بحاجة الى هؤلاء الخبراء لمعرفة ان هذا الرجل كان متعصباً . فشعره الأسود كالسبج(×) وأسنانه (اسنانُ لاحم(××) المستعدّة للعضّ وهذه النظرة القلقة التي كانت تحدّق به ، كل ذلك كان كافياً بالنسبة اليه . وأغلق ايسهان عينيه جزءاً من ثانية . ثم تمالك نفسه وقال بلهجة أبوية :

ـ حسناً ، يا مس ديزون ، أننا نُصغي اليك . ولكن هل بامكانك ان تستهلّي كلامك بتلخيص فحوى تقريرك بجملة واحدة ؟

وفكّرت ليزا ديزون لحظة وهي تبحث عن فكرة تشمل هذه الصفحات الثماني عشرة التي كانت تعرفها غيباً وقالت :

ـ ان دراستي تدل على أن القذافي محتال بقدر ثعلب الصحراء وأنه أخطر منه مرتين !

***

كانت أنوار ناطحات السحاب في نيويورك تشبه قذراً من العيون المتألقة الساهرة على مدينة طيف . وكان ميدان « التايمس » الغارق في ضبابة لبنية مُقفِراً . وكانت بغيّان تكمنان تحت افريز أحد المخازن ، ترتجفان من البرد وقد تعرّضت سيقانهما للريح . كانتا تصطادان عند زاوية برودواي والشارع الثالث

(×) السبج : مادة قيرية صلبة سوداء تلتهب كالفحم الحجري .
(××) لاحم : يتغذى باللحم كالكواسر .

والأربعين ، المارّة المتأخرين القلائل . وعلى بعد ثلاث مجموعات من المباني ، كان قوّادهما يتبختر في مسكنه الأنيق ذي الأنوار المخففة بالستائر وسط جوٍّ من الدفء منبعث من أغطية الأطلس المذهّب . وكان زنجيّاً طويل القامة في الأربعين من عمره وذا لحية صغيرة حسنة القصّ .

وكان يعتمر قلنسوَةَ من فرو القُنْدُس الأبيض(×) مُغطّسة على رأسه ويضع نظارتين سميكتين سوداوين ، على الرغم من الانارة الخفيفة في الغرفة .

وكان يتدثّر بجلابية من الحرير الأبيض ويُوقّع بجسده الطويل العاضل روائع « دوناسمر » الغنائية المتفقة من مُنسّقات الصوت التابعة لمجموعة « الستريو » والتفت « انريكو دياز » الى الفتاة الممدَّدة على صدره . لقد كانت ثالثة المُنتسبات الى « إصطبله » واحدهن . وأمسك بالمِنجد (××) المعلّق بعُنقها بسلسلة ذهبية . وكان يستخدم تلك الجوهرة التي كانت تمثّل عضو الرجل التناسلي ، لإخفاء بضعة غرامات من أجود ما كان لديه من كوكايين كولومبي . وكان على وشك تقديم هذا الرحيق الى معشوقته ، علاوة على عناقه لها ووعده اياها بأن يجعل منها زوجته الشرعية ، عندما رنّ جرس الهاتف . وقد تحوّل الانزعاج الذي ارتسم على وجهه الى سُخْط خالص عندما سمع صوتاً يقول له : « هنا ادّي ، أنا بحاجة لأن أراك حالاً » .

وبعد خمس عشرة دقيقة ، كانت سيارة الزنجي اللينكولن الوردية ، والتي هي عبارة عن قِشدة مثلجة ذات عجلات صغيرة ، تقف عند زاوية « برودواي » والشارع ٤٦ ، طوال الوقت اللازم لإركاب الشخص الذي كان قد تحدّث بالهاتف . والقى الزنجي نظرة احتقار على الراكب الذي كان قدرفع ياقة معطفه لإخفاء وجهه . وفي اللحظة نفسها ، كان عشرات الرجال والنساء يخاطبون ، مثله ـ في المشارب والمطاعم وعند منعطفات الشوارع وفي بعض المنازل عبر نيويورك . وكان « انريكو دياز » احد مخبري مكتب التحقيقات الاتحادي . وكان قد حاز هذا الامتياز من جراء سوء الطالع الذي أدّى به الى الاعتقال ، ذات مساء ، بعد ان عُثِر في سيارته على دزينة من أكياس الهروين الصغيرة . ولا يعني ذلك ان « أنريكو دياز » كان يتعاطى المخدر . فقد كان رجلاً مهذباً . وكان المخدّر مخصصاً لإحدى نسائه . وكانت القضية قد انتهت بتسوية : فمقابل ثماني الى خمس عشرة سنة اصطياف في حبس « اتلنتا » كان « أنريكو » قد قبل بان يُثرثر من وقت الى آخر مع مكتب التحقيقات الاتحادي . وبالاضافة الى مشاغله كقوّاد ، فان هذا الابن لزنجيّة ورجل من « بورتو ـ ريكو » كان ايضاً احد الأعضاء الرئيسيين في حركة تحرير « بورتو ـ ريكو » النسريّة ، تلك المنظمة التي كان مكتب التحقيقات الاتحادي يهتم بها اهتماما حادّاً . وشرح الرجل الذي كان قد جلس لتوّه الى جانبه :

ـ الأمر يتعلق بموضوع هام ، يا « ريكو » .

ودمدم « ريكو » فيما كان يدير سيارته :

ـ لديك دائماً موضوعات هامّة .

ـ نحن نبحث عن عرب ، يا « ريكو »

ـ لا يوجد عرب يضاجعون بناتي . فهم أكثر ثراء من ان يتعاطوا مثل هذا الأمر .

(×) جنس حيوان من الفصيلة القندسية ورتبة القواضم مشهورة بفرائها .

(××) جوهرة معلّقة بسلسلة تلبس في العنق

ـ لا أقصد هذا النوع من العرب ، يا ريكو . بل النوع الذي يُفجِّر الناس . أمثال رفاقك في « جبهة التحرير »

وألقى ريكو نظرة حذرة على رجل الشرطة ، الذي استأنف قائلاً :

ـ يجب أن تقول لي ، يا ريكو ، كل ما تعرفه عن العرب : العرب الذين يبحثون عن السلاح وعن الأوراق وعن الملجأ أو أي شيء آخر .

وهزّ ريكو رأسه مُكشِّراً :

ـ لم أسمع شيئاً ، أيها الرجل .

ـ يجب ان تستعلم ، يا ريكو . .

ودمدم الزنجيّ برفق . وكان عدم الرغد في حياته المزدوجة يتجلّى في قرقرة معدته . ولكن الحياة أخذ وعطاء : تريد فتعطي ، وتعطي فتأخذ . وكان الرجل يريد شيئاً ، فكان عليه ان يعطي . وقال بصوته الرقيق الذي كان يحتفظ به للمناسبات الهامة :

ـ قل لي ، أيها الشرطي ، ان احدى بناتي في مأزق ، في المفوضية الثامنة عشرة .

ـ ماذا فعلت ؟

ـ أوه ! رجل تخلّف عن الدفع ، وعندئذ . . .

ـ وسيحكم عليها خمس سنوات بجرم محاولة قتل . اليس كذلك ؟

وانفرج فم ريكو عن تكشيرة واسعة :

ـ نعم أيُّها الشرطي .

وأشار رجل المخابرات الى طرف الرصيف قائلاً :

ـ قف عند ذلك الحد . القضية هامة يا ريكو . حقاً هامة . سوف تجد لي ما أبحث عنه حول العرب ، وأنا أعيد لك فتاتك .

ونظر ريكو الى الشرطي يتوارى على محاذاة « برودواي »،وكان لا يستطيع الامتناع عن التفكير بتلك الفتاة التي كانت تنتظره على أريكة الأطلس المذهّب ، وبساقيها الطويلتين العاضلتين وشفتيها الناعمتين ولسانها الحاذق الذي كان يدرّبها على اللباقة التي يقتضيها قدرها الجديد .

وأطلق تنهداً طويلاً واقلع . ولكنه لم يُوجّه مع ذلك سيارته اللنكولن نحو الأريكة الناعمة في الشارع الثالث والأربعين ، بل نحو الأحياء الساخنة في « منهاتن » السفلى .

* * *

منذ ربع ساعة ، كان الرجال المجتمعون في مكتب « جاك ايسمان » يكتشفون بتنبُّه مُتحمِّس ، صورة رئيس الدولة الذي كان يهدِّد بابادة نيويورك . وكانت « ليزا ديزون » لا تدع اي تفصيل : كان تقريرها يتناول كل جوانب حياة القذافي ، طفولته المتوحِّدة والمُتقشِّفة في الصحراء حيث كان يرعى قطعان والده ، والصدمة القاسية التي سبّبها له نبذُه من الخيمة العائلية وإرساله الى المدرسة ، وكيف كان قد أُحتُقِرَ من رفاقه ، هو البدوي الجاهل ، وأُذِلَّ لأنه كان فقيراً لدرجة أنه كان ينام على الأرض في أحد

الجوامع ويقطع عشرين كيلومتراً سيراً على الأقدام كل يوم جمعة ليعودَ الى مخيَّم أهله .

وكانت الوكالة المركزية للاستخبارات قد عثرت على أسماء رفاقه في المرقد في المدرسة العسكرية حيث كانت طموحاته السياسية قد أخذت بالنموّ . وكان الوصف الذي أعطوه للقذافي المراهق لا يمتّ بأية صلة الى الصورة التقليدية للشاب الشرقي الذكر ، العيّاش * بطيئة خاطر . بل على العكس كانت صورة رجل مُتزمِّت فظٍّ نذر العفةَ حتى اليوم الذي سوف ينجح فيه بخلع ادريس ملك ليبيا ، والذي كان يتجنّب الكحول والتبغ ويناشد رفاقه ان يحذوا حذوه . وحتى اليوم ، كان الغضب الشديد يستولي عليه كلما علم بمغامرة لرئيس وزرائه مع احدى المضيفات اللبنانيات في شركة الطيران الجوية الليبية أو مع احدى الساقيات اللواتي ينتمين الى حياة البطالة والرخاء الرومانية .

وكان التقرير يصف الانقلاب الذي أُعدَّ بعناية ووضعه في أول أيلول سنة ١٩٦٩ ،وكان في السابعة والعشرين من عمره ، على رأس بلد كان يتقاضى ملياري دولار سنوياً كعائدات نفطية . كما كان التقرير يذكّر بالاسم المرموز الذي كان قد اختاره لانقلابه : القدس . ويشير الى التصوّر المُتطرِّف والكاره للأجانب الذي كان قد فرضه على شعبه قبل سنوات من ظهور آية الله الخميني على مسرح طهران : العودة الى الشريعة ، شريعة القرآن التي تقطع يد السارق وترجم النساء الزانيات حتى الموت وتجلد السكّيرين . ويشير التقرير الى تحويل الكنائس في ليبيا الى جوامع والى مراسيمه بمنع تعليم اللغة الانكليزية ، والزامه الناس بكتابة اللافتات والوثائق كلها باللغة العربية ، كما يشير الى اعتباره بيوت الدعارة والكحول خارجة على القانون ،وكيف انه قاد ، شاهراً مسدسه ، حملات الشرطة التي كانت قد أقفلت على الليل في طرابلس ، وكيف كان ينذر بنفسه الراقصات العاريات بارتداء ثيابهن،وكيف كان يطلق النار بفرح على الزجاجات ، كأحد أفراد الشرطة المكلّفين بتنفيذ التحريم .

وكانت ثورته الثقافية قد قذفت الى الشوارع بالجماهير الأُميّة لتحرق فيها مؤلفات الكتاب الغربيين المُدنِّسة : سارتر وبودلير وغراهام غرين وهنري جايمس وغيرهم . ومن أعماله ، مداهمة البيوت الخاصة بحثاً عن الويسكي وغارات مفارز المغاوير على مخيمات العمال العاملين في الورش النفطية لينزعوا عن الجدران الإعلانات عن النساء العاريات المقتطعة من مجلة « بلاي بوي » . حقاً ، ان الخميني كان يبدو بالنسبة اليه وجهاً يكاد يكون متحرّراً .

وكان التقرير يحُلِّل مواربات عاداته الغريبة وخلواته المُتوحِّدة في الصحراء وانفجارات غضبه المفاجئة وأسفاره من قرية الى قرية ، مُسرِعاً على صهوة جواد عربي ومطلقاً جلابيته للريح . وكانت مقاطع الوثيقة الأكثر إقلاقاً تتعلق بالتاريخ الطويل للأعمال الارهابية التي كان يُتّهم بأنه المسؤول عنها مباشرة أو غير مباشرة : مذابح لود ومونيخ وروما ، ومقتل السفير الأميركي في الخرطوم ، ومحاولة نسف سفينة « كوين اليزابيت الثانية »التي كانت تُقِلّ خمسمئة راكب يهودي الى اسرائيل ، وجهوده المتكررة لتصفية السادات وإثارة القبائل السعودية ضد نظام الرياض ، وكيف أنه كان قد أدخل ملايين الدولارات الى لبنان لتغذية الحرب الأهلية ، وبذر ملايين أخرى لمساعدة آية الله الخميني على قلب الشاه .

وكشفت « ليزا ديزون » قائلة :

ـ ان معمر القذافي هو أساساً ، رجل متوحد ، رجل بلا اصدقاء ولا مستشارين . وفي جميع المناسبات كان ردُّ فعله على الأوضاع الجديدة ، تحصُّنه وراء مبادىء إيمان مناضل . ولقد اكتشف ان

(×) المنغمس في ملذات العيش .

التصلُّب غالباً ما يكون تجارة رابحة ، ولذلك فسيكون حتماً متصلباً في حال أي اختبار للقوة .

وصفَّت صوتها وازاحت خُصْلة شعر عن جبينها .

- ولكن فوق كل شيء ، فان الوكالة المركزية للاستخبارات مقتنعة بأنه ، في حال نشوب أزمة كبرى ، سيكون على أتم الاستعداد ليلعب دور الشهيد، وأن يدع نفسه يُدفَن تحت أنقاض منزله اذا مُنِع من أن يكون سيِّد اللعبة . وهو يحب ان يبدو غير مُتوقَّع ، ونهجه المُفضَّل هو إرادة الضرب حيث يكون العدو الأضعف .

ودمدم ايسمان قائلاً :

- رحمتك يا الهي ! بالنسبة الى نيويورك فانه لم يخطىء .

واغلقت « ليزا ديزون » كُتبها وخلُصت الى القول :

- هذا هو اذن معمر القذافي .

ولم يتمكّن خبير نظارة الخارجية في مكافحة الارهاب من تمالك نفسه ، فقال :

- إجمالاً ، نحن أمام ادولف هتلر تحت ستار عربي . انه مُـلْهم أكثر إقلاقاً من الخميني .

وزايد عليه زميله لدى الوكالة المركزية للاستخبارات بقوله :

- انه يريد أن يعود بنا الف سنة الى الوراء .

وحسم « ايسمان » قائلاً :

- في كل حال ، هذا هو الشخص الذي نتعامل معه . ودوركم جميعاً هو ان تنصحوا الرئيس حول طريقة التعاطي معه .

وكان الدكتور « تماركان » قد نهض يذرع المكتب وهو يحكّ ذقنه بعصبية . وكان كل واحد ينتظر باهتمام تشخيص الطبيب النفسي الشهير :

- نحن أمام رجل خطر للغاية ، رجل مُتعطِّش للانتقام ، الانتقام لنفسه ولشعبه وللعرب اجمعين . ان حكاية الزام عائلته بأن تعيش تحت الخيمة حتى يكون لكل ليبـي بيت ، ما هي الا مُزاح . وبهـذه الطريقة فانه يجازي اباه لأنه طرده من القبيلة ووضعه في تلك المدرسة حيث شعر نفسه مُذلاً .

وتدخّل الدكتور « تورنر » العملاق الهزيل الذي كان يقود شعبة الطب النفسي في الوكالة المركزية للاستخبارات . فقال :

- أعتقد ان تأثير الصحراء يُقدم لنا تفسيراً حاسماً . فعزلة الصحراء قد خلقت دوماً المتهوّسين ، لأنه لا يوجد أحد فوق الرمال ، أي كائن بشري يمكن الركون اليه . والحوار الوحيد الممكن في الصحراء هو مع الله . ومفتاحنا لبلوغ هذا الرجل ربما يكون هناك : الله والقرآن .

وقال « تماركان » وهو يتابع ذرع الغرفة :

- ربما .

وكان قد اكتسب معظم شهرته كمفاوض من مهارته في اللجوء سابقاً الى أحد المختصين في القرآن

لاقناع بعض المسلمين السود في واشنطن بالتخلي عن رهائنهم .

- ربما ، ولكنني أشك في ذلك . فهذا الرجل يعتبر نفسه إلهاً . اليكم هذه الحكاية حيث يتنكّر بزي متسوّل قاصداً احد المستشفيات ليطلب من طبيب مرافقته لاسعاف والده الذي يعاني سكرات الموت .

ولما أوصاه الطبيب بأن يعطي والده حبات من الأسبرين نزع قناعه وطرد الطبيب من البلاد . هذه هي القدرة الكلّية . انه يحسب نفسه إلهاً ، او سيف الله المُنتقم ، وهذا هو الأسوأ .

وألحَّ الطبيب النفسي في الوكالة المركزية للاستخبارات قائلاً :

- ومع ذلك فاني أصر على التفكير بأن الدين هو سلاحنا الأفضل للتفاوض معه .

وأوقف الدكتور « تماركان » ذرعه للغرفة قائلاً :

- لا أعتقد ذلك . فلا يمكن التفاوض مع الله . ومن المشكوك فيه أن يمكن التعامل معه عن طريق الدين . لن تخفى عليه مقاصدنا ، وسيشعر أنه مُهان .

وكان ثمّة سؤال لم ينقطع عن ملازمة « إيسهان » مَنذ بدء الأزمة . وازاء هول التهديد كان طرح هذا السؤال نوعاً من البحث عن وسيلة للاطمئنان . وتفحّص « ايسهان » الطبيب النفساني السمين الذي كان رأيه يبدو بمثابة الوحي الالهي بين اختصاصيي الارهاب . وصاغ سؤاله بحذر :

- هل من الجنون اعتبار ان هذا كله ليس الا خدعة ؟

- جنون مُطْبَق .

وتأثر « ايسهان » من الحدّة التي أجاب بها الطبيب .

- لا تشكّوا ثانية واحدة في أن يكون هذا المُتعصّب مستعدا لتنفيذ تهديده ، ومستعدا للضغط على الزناد . لأنه بالضبط ، سيضغط على الزناد ليبرهن لكم فقط أنه قادر على ذلك .

واقترح الطبيب النفساني للوكالة المركزية للاستخبارات :

- لنرجع دقيقة الى الصحراء . فان عُري الحياة في الصحراء وخشونتها قد تحكّما دوماً بالناس وفقاً للطريقة نفسها : اي ان الحياة تؤول الى بعض العناصر البسيطة والأساسية . وسيمشي القذافي مباشرة نحو هدفه كالبدوي الذي يتّجه نحو بئره . نحن نعتقد أن البدو مكرَة محتالون . وهذا خطأ . فهم مستقيمون وينبغي ان نكشف اوراقنا عندما نتعامل معهم .

وأضاف الدكتور « تماركان » : - هناك شيء آخر بشأن تأثير الصحراء ، وهذا ما يُرعِبُني . يجب ان لا نأمل في التخفيف من غلواء هذا الرجل بمحاولة إثارة عطفه نحو نيويورك او سكانها (وشعر ايسهان بارتعاش) انه يكره نيويورك ولا تهمّه المستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربية . إنها نيويورك التي يريد إبادتها . سادوم وعمورة . المال . السلطة . الثراء . الفساد . المادية . نيويورك هذا كل ما يتقيأ به . وهذا هو رمز الكابوس الذي يخشى ان يراه ينقضّ ذات يوم على المدينة الخشنة والقاسية التي يؤمن بها . وفي أعماق نفسه ، فقد انطلق في حرب ضد ما تمثّل نيويورك . انها نيويورك التي يريد ان يُدمّر .

****

دوى فجأةً ناقوس الانذار في قاعة الاتصالات في الطبقة التحأرضية من البيت الأبيض. وانطفأت شاشات المراقبة جزءاً من ثانية قبل ان ترسل إشارة ضوئية لإعلان خبر طارىء . وضغط المسؤول عن المركز على ثلاثة ازرار حمر مصفوفة على مقرأه ، في حين كان جاك ايسمان يندفع الى القاعة :

- سيدي اللواء ، لقد عثرت المُدمِّرة « ألن » على القذافي .

وأمسك ايسمان بالهاتف السرّي الذي كان يربط القاعة بمركز القيادة القومي في نظارة الحربية .

- اين هو ؟

وبازدهاء أجاب الأميرال الذي كان يرئس مركز نظارة الحربية :

- في دارة على شاطىء البحر ، في ضواحي طرابلس .ولقد تمكّنت سفينتنا من تحديد هويّة صوته بالتقاطها مخابرة هاتفية منذ نصف ساعة . واستطاعت تحديد المكان الذي كان يتكلم منه .ولقد أكدت الوكالة المركزية للاستخبارات ان المقصود هو احد مراكز قياداتها العامة الارهابية .

- مرحى !

وتابع الأميرال بحماس :

- لقد اتصلت ، لتوّي ، بواسطة الراديو ، بالأميرال « مور » من الأسطول السادس . فأخبرني ان بوسعهم إرسال صاروخ بقوة ثلاثة آلاف طن على الدارة خلال ثلاثين ثانية .

ولم يشتهر « ايسمان » بفلتان اللسان ، ولكنه انفجر هذه المرة وصاح ثائراً :

- قل لهم بأن لا يرتكبوا أية حماقات . لقد منع الرئيس قطعاً أي عمل عسكري في الوقت الحاضر . عليك أن تتدبر الأمر لإخطار الأسطول كله بسرعة .

وبدا المساعد لشؤون الأمن القومي ، فجأة ، محتاراً . هل كان عليه ان يوقظ الرئيسّ ؟ بناء على طلبه المُلح ،كان الرئيس قد توجّه ليرتاح بضع ساعات . وقال في نفسه : كلا ! يجب ان ندعه يرقد . فسيحتاج غداً الى جميع قواه .

- مُرْ قاعدة « اندروز » بأن ترسل حالاً طائرة « كاتستروف » فوق ليبيا ! (ان طائرات « الكاتستروف » هي عبارة عن ثلاث طائرات « بوينغ ٧٤٧ » ملأى بأجهزة الكترونية للاتصالات في غاية التطوير . وباستطاعتها البقاء في الجو مدة اثنتين وسبعين ساعة ، وهي مخصصة لتزويد الرئيس بمركز جوّي للقيادة في حال حرب نووية) أريد أن يُرتَّب بصورة عاجلة اتصال هاتفي خاص بطرابلس .

وتوقف « ايسمان » وكان يتصبّب عرقاً . والتفت الى المسؤول الذي كان يجلس الى جانبه :

- قُل لنظارة الخارجية ان تأمر قائمنا بالأعمال بالتوجّه حالا الى تلك الدارة . ولْيقُلْ له ان . .(وفكّر « ايسمان » وكان ينتقي كلماته بعناية) وليقل له بأن يخبر العقيد القذافي بأن رئيس الولايات المتحدة يطلب بالحاح الامتياز بأن يتحدث اليه .

* * *

أيقظ صوت الباب ،الذي كان ينغلق بخشونة ،زوجة اللواء «ايسمان »من رقادها .وكان هذا

الصوت نفسه لباب يُصفق في الليل ، وقد رقّم السنوات السبع والعشرين لحياة « سالي ايسهان » الزوجية . وكانت قد سمعته في القواعد الجوية في كولورادو، وفرنسا والمانيا واوكيناوا ، كلما دُعي زوجها بشكل طارىء ، وفي بروكسيل عندما ألحق زوجها بحلف شمالي الأطلسي ، وهنا في واشنطن ، عندما كان زوجها يُعرِّج على نظارة الحربية والآن على البيت الأبيض .

وأصغت في الظلام الى الخُطى التي كانت تتبع خطّها العادي ـ نحو المطبخ لتناول كأس من الحليب ، ثم ترتقي ببطء السلّم الخشبي لبيتهم الأنيق في ضاحية واشنطن . ولم تُشعِل النور الا عندما انفتح باب الغرفة . وكانت السنون قد اعطت « سالي ايسهان » المقدرة التي لا تخطىء على كشف خطورة الأزمات التي كانت تستبقي زوجها ليالي بكاملها ، وذلك من خلال ملامحه .

ولما رأته يدخل مترنحاً من التعب ، نهضت قلقة تقول :

ـ كم السَاعة ؟

ـ الرابعة .

وانهار ايسهان على السرير . وكان قد اجاب وهو يفكّر انه لم يكن لديه حتى ساعتان للنوم .

ـ ماذا يجري ؟ تبدو هيئتك مضطربة .

تكلمت بحنان وبلا أي لوم . وفرك ايسهان عينيه وهزّ رأسه عدة مرات ، كما لو كان يريد تبديد التعب الذي كان يخدِّر دماغه . وشاهد على منضَدة الليل الصورة التي كانت تمثّله الى جانب زوجته وهي تحمل باعتزاز ابنتهما « كاتي » التي كانت قد وُلِدت لتوِّها :

وقال بوهن :

ـ هذا مخيف يا « سال » .

وكان يُفكّر بتعليمات الرئيس القطعية . كم من المرات كان جاك ايسهان إبّان العديد من الأزمات ، قد حمل ثِقَل اسرار الدولة المرهق ؟ وهذه المرة ايضاً ، وعلى الرغم من تحطّمه يأساً بسبب تفكيره بمصير ابنته ، فلن يخُلّ بالمبدأ الأساسي لحياة سادها كلها الانضباط . ولكن الرئيس كان اليوم قد غيرّ قواعد اللعبة . فلم يطلب تحفظاً مطلقاً من معاونيه . بل أرهقهم بحمل أكثر ثقلا عندما سمح لهم بأن يشاطروا زوجاتهم السر .

ـ سأشرح لك يا « سال» ،هذا من حقي . ولكن لا نستطيع لا أنت ولا أنا ان نبوح لأي كان بما سأقوله لك .

وبدأ يسرد القصة : الرسالة ، القذافي، الانذار ، الابتزاز المُرعِب . كل شيء . ثم أخذ يد زوجته وضغط عليها بكل قواه وهو يُغلق عينيه . وعندما فتحهما ثانية شاهد علامات الهلع تُشوِّه وجهها . ورآها ترفع يديها نحو صدغيها وسمعها تُطلق صراخاً .

ـ كاتي !

كانت سالي ايسهان قد نهضت لتقفز نحو الهاتف الموضوع على المنضدة .

ـ سال : انك لا تستطيعين !

وكان قد اوقف اندفاعها ، ممسكاً اياها بقوة من الكتفين ، وقال وهو يضمّها بين ذراعيه :

ـ دعيني اشرح لك (ولم يعد يرى وجهها . وكان يتكلم في الفراغ وقد دسّ خدّه بين شعرها وأدار نظره نحو الاطار الفضي الموضوع على طاولة الليل) سال ، نحن لا نملك الحق في إخبار كاتي . وسيعني هذا الخيانة . وستكون نتائج هذه الخيانة لا حصر لها . كما ستدمّر نيويورك بكاملها .

وأفلتت منه واطلقت وعيناها تلمعان من الغضب :

ـ هل أنت مجنون أم ماذا ؟ ان الأمر يتعلق بابنتنا ، ابنتنا الوحيدة ، الغالية ، التي تحكم عليها بالاعدام باسم لا أدري أي التزام بالسرّية (وتمسكت بطّيات سترته وهزّته بعنف) جاك ، سيكون ذلك جريمة .

وكانت تنظر الى الوجه المتألم الذي كان أمامها . واستولت عليها الشفقة فجأة ، وحاولت اللجوء الى حـجَّة قد تستطيع زحزحته ، فقالت : اسمع ، اتعتقد حقاً ان رئيسك ، لو كانت ابنته الصهباء في نيويورك ، لن يعيدها حالا ؟

وفكر جاك ايسمان بالفتاة الصغيرة التي كانت تتعلق دوماً بأذيال ابيها . وهزّ رأسه وبحث عن كلمات بسيطة محاولاً اقناعها :

ـ هدئي روعك يا عزيزتي سال . فأنت تعلمين حقاً ان الأمر فظيع بالنسبة لي وأنه تمزّق . انكما انت وكاتي كل حياتي . ولكن الظروف يائسة لدرجة ان أقل افشاء للسر من شأنه التسبب بكارثة لا يمكن تصورها . فقد كتب القذافي بوضوح انه لدى أول علامة على إخلاء نيويورك ، فانه سوف يُفجِّر القنبلة .

وهزّت كتفيها .

ـ لننظر ، يا جاك ، فليس رحيل ابنة هو الذي سيطلق اخلاء مدينة بكاملها . كاتي هي التحفظ عينه . وما عليك الا أن تشرح لها الموقف بنفسك . وأنا أقسم لك بأنها ستدع نفسها تُقطَّع إرباً قبل أن تبوح بكلمة واحدة من كلماتك

ـ وشعر ايسمان بأن قناعتها قد جرَّدته من سلاحه :

ـ يا عزيزتي سال ، كيف يمكنك ان تعتقدي ذلك ؟ ان كاتي سوف تخبر حتماً صديقها ، بعد أن توصيه طبعاً بالمحافظة على السر ، او صديقتها المفضلة او كليهما . وسيحذو حذوهما كل ولد في كل عائلة . وهذا لا مفرّ منه . واستطراداً فان آلاف السكان سوف يعمدون الى الهرب . وفي نهاية المطاف ، فاننا سوف نتسبب بموت عشرة ملايين شخص ، بحجة انقاذ حياة واحدة .

ـ لدي فكرة ، يا جاك ! فلنخترع اية حجة ولنطلب اليها الحضور الى هنا وقضاء ثمانٍ واربعين ساعة بيننا . الأمر على غاية البساطة .

والتفت ايسمان فجأة . انها لا تفهم . وحبّها كأم يعميها . كيف سيكون بوسعي ان اقبل . . . ان ما كان يريد التعبير عنه كان صعب الصياغة . وكان ذلك ينبعث من أعماق ضميره . كان مجرداً بعض الشيء ولكنه كان يشعر به شعوراً عميقاً . وانتهى بالقول :

ـ سالي ، سيكون مستحيلاً بالنسبة لي أن . . . (وكان يتردد) أن أعيش مع علمي ان كاتي قد أُنقذت وان الباقين قد ماتوا .

وقد ظلّت فترة طويلة صامتة وامتلأت عيناها بالدموع وهي تتأمل زوجها .

ـ جاك ، أيّ مِسخ انِت اذن ؟ انك تحكم على ابنتنا باسم مبادئك ومهنتك ورئيسك وضميرك . أما أنا ، فضميري كأم لا يُملي عليَّ الا شيئاً واحداً : الا وهو إنقاذ ابنتي .

***

على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي ، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحاً بقليل ، ذلك الاثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول ، عندما وصلت سيارة بيجو سوداء ٣٠٤ وتوقفت في مكان محجوز أمام احد بيوت القرميد المتشابهة في شاعر « فان سبيك » ، في لاهاي عاصمة هولندا . وبعد بضع لحظات كان السائق ، وهو رجل قصير قويّ البنية في الستين من عمره ، ذو خدّين ورديّين يُعطيانه هيئة مختار « فرانز هولز » يجلس في مكتبه . وشرع الدكتور « هنريك جاجرمان » بإخراج « ترموس » قهوة ساخنة وتفاحة من حافظة وثائقه ، كان يبتدئ بهما دوماً يوم عمله .

وكان « جاجرمان » ابن عامل سابق ، اصبح فيما بعد مفتشاً لسجون « امستردام » . وفي مطلع شبابه كان قد صحب اباه في زياراته الى الموقوفين وشعر باغراء خاص نحو العقلية الاجرامية . ثم عمل كدليلٍ للسائحين زائري الأقنية والمتاحف في مدينة المْولديّة ليسدد تكاليف دروسه الطبية ، ثم أصبح طبيباً نفسياً اختصاصياً في علم الاجرام . وفي الواقع ، كان هذا الهولندي ، المتواضع والمغمور ، أكبر حجَّة عالمية في مادة علم النفس الارهابي ، نوعاً من « دكتور في الإرهاب » معترف به بالاجماع من الشرطة الدولية . وكان هو الذي حلَّ بوسائله المبتكرة غير العنيفة بعض قضايا الرهائن الشهيرة التي عرفتها هولندا في أواسط السبعينات،وخاصة أسر قنصل فرنسا في لاهاي من قبل الفلسطينيين . وأخذ الفرقة التي جاءت لتنشد اثناء قداس الميلاد في أحد السجون كرهائن ، ومهاجمة قطاري ركاب من قبل الارهابيين « المولكيين » * . وهذه القائمة الرائعة كانت قد دفعت رئيس الدولة الاميركي ، بناء على نصيحة خبرائه ، الى توجيه دعوة فورية للطبيب النفسي الهولندي .

وما كاد هذا الأخير ينهي تفاحته ، حتى ظهرت سكرتيرته في مكتبه . واعترته الدهشة عندما شاهد في أثرها سفير الولايات المتحدة ، وكان الديبلوماسي يبدو مُستعجلا جداً . ومن غير ان يكلف نفسه عناء الجلوس ، أطلع الدكتور « جاجرمان » على الأحداث ونقل اليه طلب الرئيس . وأعلمه أن طائرة نفاثة تابعة للسرب الشخصي لملكة هولندا كانت في انتظاره في « شيبول » لتقلّه الى مطار شارل ده غول في باريس حيث سيكون لديه الوقت الكافي لادراك طائرة الكونكورد التابعة لشركة « ايرفرانس » المسافرة الى واشنطن . واشار السفير ، بعد ان القى نظرة على ساعته ، قائلاً :

ـ اذا وافاك قليل من الحظ فستكون في البيت الأبيض بعد أقل من أربع ساعات .

***

كانت سالي ايسمان تستمع الى التنفس المنتظم على المخدّة المجاورة لرأسها . وكان زوجها ، الذي وُهِب المقدرة على إستعادة قواه ، تلك المقدرة التي صنعها طوال حياته العسكرية ، ينام نوماً عميقاً . فانسلّت خارج السرير وخرجت من الغرفة على أصابع قدميها هابطة الى البهو . ورفعت سماعة الهاتف بدون ضجّة . وكانت الأعداد الثلاثة الأولى التي ركّبتها تُشكّل الرقم ٢١٢ ، شارة الدّلالة في دائرة مدينة نيويورك الهاتفية .

***

(*) نسبة الى « المولِيك Moluques » الأرخبيل التابع للهند الهولندية ، بين « سيليب » وغينيا الجديدة . (المترجم) .

فتحت ليلى دجاني عينيها . وكان الشعاع الشاحب لمصباح ظلّ مشتعلاً في الغرفة المجاورة يرسم ظلالاً على جدران غرفة ميخائيل ، حيث كانت تتماوج رائحة البخور والمرجوانا والجنس . وأدارت نظرها نحو عقارب المُنبّه المضيئة التي كانت تتألق على طاولة الليل . كانت الساعة تشير الى السادسة والربع صباحاً .

وكانت تُفكّر ، وقد استولى عليها الخَدر ، بأن عليها ان تذهب . وشعرت عندئذ على صدرها بذراع ميخائيل النائم الذي كان يبقيها أسيرة ، وفكّرت بلذّة بساعات العشق التي كانت قد عاشتها لتوّها في ذلك السرير الذي يجب الآن أن تتملّص منه . لماذا لا يمكن لأي شيء ان يكون عادياً ؟ وتذكرت أحد افكار سارتر : «لا يستطيع الانسان ان يؤدي شيئاً ما لم يفهم مسبقاً أنه ينبغي ألاّ يعوِّل الا على نفسه » . كانت وحدها بين غياهب الظلام تلك ، دون ان يرغمها احدٌ على دفع تلك الذراع وإبعاد الغطاء والنهوض والسير على الطريق التي كانت قد اختارتها .

وأخذت يد ميخائيل وقبّلتها بحنان . وايقظ لمس شفتيها الشاب . فشدَّ نفسه اليها وعانقها مجدّداً وهو يهمس في سِنَة من النوم :

ـ يجب أن ننام يا عزيزتي .

ـ يجب ان أذهب يا ميخائيل .

وانحنت فوق وجهه فقبّلت برفق أجفانه وأنفه وأذنيه وفمه . وأعاد فخذه على فخذها وتأوه قائلاً :

ـ لماذا يجب أن تذهبي منذ الآن ؟

ـ لا بدّ من ذلك .

وفتّش عن مفتاح المصباح فبهرهما دفقُ النور .

وكانت هالة شعرها الأشقر وخداها الريّانان من النوم تضفي عليها هيئة ملاك صغير . ونظرت اليه بصمت . كان ظلّ من الأسى يغشّي عينيها . وكان وجه ميخائيل يبدو لها أكثر اشراقاً . وكانت ترغب في إلقاء نفسها عليه ومعانقته والانصهار فيه . وكانت تفكّر : إنـي أحبه . وما لبث شلاّل من الصور ان غشّى ذلك الاكتشاف . والدها وكمال والمرأب والقنبلة والعدالة . لقد كانت سجينة . وقالت أخيراً :

ـ لديَّ موعد عمل .

وكانت قد بذلت جهداً لتتكلّم بشيء من المرح ولتعطي نفسها بعض الشجاعة .

ـ سآتي معك

وقفزت من السرير :

ـ ليس هذا موضوع بحث .

وحاول ان يستبقيها ولكنها أفلتت منه وشرعت بارتداء ثيابها . وأذعن قائلاً :

ـ حسناً ، ولكن فلنتناول ، على الأقل ، طعام الغداء معاً . عند الظهر سأكون قد أنهيت صوري .

ـ ليس اليومَ يا عزيزي . سأتناول الغداء مع جماعة « سان لوران » .

ـ اذن ، فلنذهب الأربعاء الى مأدبة « ترومان كابوت » .

تردّدت ليلى قبل ان تجد القوة على القول بلهجة فاترة .

ـ حسناً يا ميخائيل ، سنذهب الأربعاء عند « ترومان كبوت » .

وأكملت ارتداء ثيابها ووضعت القرطين في أذنيها ومشّطت شعرها الطويل الأسود جاعلة منه جديلة في مؤخر رأسها . واقتربت برفق من عشيقها لتعانقه مرة اخيرة . التصقت به غارسة في صدره مجموعة البرق الأسود والذهبي التي تزين صدارها .

ـ لا تتحرك ، يا عزيزي . . .

ثم نهضت متجهة نحو الباب . والتفتت في منتصف الطريق . كان ميخائيل يتأملها ، وقد استند الى مِرفقه وسط السرير وبدا مشوّش الشعر. ورفع إصبعاً الى شفتيه فأرسل لها قبلة .

ـ وداعاً ، يا ميخائيل .

وسُمِع صفقُ الباب .

***

مزّق الأنين النابح لصفارة احدى سيارات الإسعاف الصباح الباكر بتلك الموسيقى الكئيبة التي تؤلف عادة العمق الصوتي لشوارع نيويورك . وقد رأت ليلى دجاني السيارة تتوارى في هالة « كولومبوس سركل » البرتقالية اللون ، فأسرعت الخطى نحو فندقها .

وكان بعض الرياضيين الصباحيين قد شرعوا بالعدو القصير فوق ثلج « سنترال بارك » الذي كان يسمع صريره . وكان بعض المارة الذين أثقل النعاس وجوههم يسرعون نحو مداخل مترو الشارع الثامن . وكان بواب مُكرِش يُنزِّه الكلاب المجعّدة القزمة والمزّينة بالشريط التي كانت تملكها احدى مستأجرات عقاره . كان الشارع يتحرك . وكانت السيارات تهتز بين مخارج البخار التي كانت ترسل سحباً صغيرة على الأسفلت . وكانت الساعة السابعة صباحاً ذلك الاثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول في المدينة التي كان معمر القذافي يريد تدميرها .

وكانت المدن ـ المراقد الحزينة المختصّة باللوطيين ذات ناطحات السحاب السكنية المشرفة على « سنترال بارك » ودارات الخشب الأنيقة في « سناتن ايلند » ذات المجابر القذرة العائدة للزنوج والبورتوريكيين في هارلم ومدن صفائح الـ « برونكس » ذات الأزقّة المخضرّة في « بروكلين هاينس » و« غرينويش ڤيلاج » والعشرة ملايين رهينة في الأقسام الإدارية الخمسة لمدينة نيويورك ، كل اولئك كانوا يستعدون ليعيشوا يوماً جديداً .

وكانت الحاضرة المجنونة والعجيبة التي كانوا ينتمون اليها ، فريدة في نوعها وفي التعبير الأخير عن نزعة الانسان الأبدية للتجمع في اطار جماعات من البشر . كانت نيويورك لا تشبه أية مدينة أخرى على سطح الكوكب . كانت المدينة المثالية وعنوان كل ما انتجته المدينة الحضرية من حسن وسيِّىء. وكانت المدينة التي كانت ليلى وشقيقاها يستعدان لمحوها من الخارطة ، عالماً صغيراً عجيباً ، برج بابل كان لجميع السلالات وجميع الشعوب وجميع الديانات في العالم ممثلون فيه .

وكانت نيويورك تعُد ثلاثة أضعاف زنوج الغابون ، وعدداً مماثلاً تقريباً ليهود اسرائيل بكاملها ومن البورتوريكيين أكثر من « سان جوان » ومن الايطاليين أكثر من « بالرم » ومن الايرلنديين أكثر من « كورك » . وكان كل ما أوجده العالم ، قد ترك فيها بعض الأثر : روائح « شنغهاي » وصراخ « نابولي » وعبق بيرة « مونيخ » والطنطن الأفريقي * ومزامير القرب الاسكتلندية واكداس الصحف باليدِّية * * والعربية والكرواتية واثنتين وعشرين لغة اخرى ، والجنائن اليابانية مع أشجار الكرز المزهرة . . . .

وكان العديد من أهالي التيبت والكمر (×××) والباسك (××××) وغاليسيا (×××××) والشركس والأكراد وجماعات من جميع الطوائف المضطهدة في الأرض ، قد اختارت فيها مقامها لتخفيف بؤسها . وكانت احياؤها المكتظة بالسكان تضم (٣٦٠٠) مكان للصلاة منها (١٢٥٠) كنيساً و(٤٤٢) كنيسة كاثوليكية و(١٨١٠) معابد مختلفة ، واحد لكل مذهب وفئة ودين اخترعها الانسان في بحثه الدائم عن خالقه .

وكانت باهرة وقذرة كما كانت مدينة المفارقات والمتناقضات والوعودوالآمال الخائبة . وكانت نيويورك قلب المجتمع الرأسمالي ورمز الغنى الذي لا يُضاهى ومع ذلك فقد كانت ماليتها العامة تعيسة لدرجة انها كانت تعجز عن دفع فوائد قروضها . وكانت نيويورك تضم أحدث التجهيزات الطبّية في العالم . ولكن فقراءها الذين لم تكن لديهم الوسائل للاستفادة منها ، كانوا يموتون كل يوم بسبب قلة العناية ، كما أن نسبة الوفيات بين الأولاد في منطقة « برونكس » الجنوبية كانت أكثر ارتفاعاً مما هي في بعض انحاء « كلكيتا » . وفي نيويورك جامعة مجانية تضم عدداً من الطلاب يفوق عدد سكان كثير من المدن الكبرى ، ومع ذلك فإن مليوناً من أهالي نيويورك كانوا لا يتكلمون حتى الانكليزية . وكما ان الفراعنة في مصر والأغريق القدماء والباريسيين في عهد « الامبراطورية الثانية » كانوا قد اخترعوا الطراز المعماري الذي تميّز به زمَنُهم ، كذلك فان أهالي نيويورك في عهد الفولاذ المصقول والزجاج المدهون طبعوا بخاتم عبقريتهم البناءة المنظر الشامل الحَضري للعالم . ولكن حول ناطحات السحاب الفخمة في وسط منهاتن وأسفلها كانت تمتدّ أدغال مدينية قبيحة اذ كانت ثمانمئة الف مسكن مخالِفةُ لجميع أنظمة الصحة والسلامة . ولم يكن بوسع نيويورك ان تقدِّم سقفاً لجميع سكانها ، ولكن ثلاثين ألف مسكن كانت تُترك كل سنة ، نتيجة تخريبها او حرقها من قبل شاغليها بالاتفاق مع المالكين الذين يضمنون ان يقبضوا من بدلات التأمين أكثر من بدلات الايجار . وهكذا فان مئات الهكتارات من العقارات ، بقدر ما دمَّرته قنابل هتلر تقريباً في لندن أثناء حرب الغارات ، كانت قد زالت .

ولم تكن أية عاصمة في العالم تقدِّم لسكانها هذا القدر من فرص الإثراء ولا هذه النخبة الواسعة من الخيرات الثقافية . وكانت متاحفها أمثال « المتروبوليتان » و« المودرن » و« الوتيني » و« الغانغيم » تضم من الانطباعيين أكثر من « اللوڤر » ، وأمثال « بوتيشلي » أكثر من « فلورنس » وأمثال « رومبراندت » أكثر من « امستردام » . وكانت نيويورك بالنسبة لأميركا ، صاحب المصرف والخياط ومخرج الأفلام وعارضة الأزياء والمصور . كما كانت الناشر والاعلاناتي والروائي والموسيقي والرسَّام . وكانت مسارحها وقاعاتها للحفلات الموسيقية ورقص الباليه والأوبرا والأوبريت والهزليات الموسيقية والأوبرا الراقص وحفلات

(×) طبلة صغيرة تستعمل في افريقيا السوداء (المنهل)
(××) لغة عبرية المانية ينطق بها يهود اوروبا الوسطى والاتحاد السوفياتي
(×××) دولة في كامبوديا
(××××) اهالي منطقة في اسبانيا
(×××××) مقاطعة نمساوية كانت تابعة لبولونيا

الجنس الموسيقية ، ونواديها للجاز ،وعروضها المسرحية للتجربة . كانت كلها بمثابة محاضن تُغذّي ذوق قارّة بكاملها وفكرها .

وكان بوسع الانسان ان يتذوّق في مطاعمها البالغة عشرين ألفاً جميع مطابخ العالم ، من الأرمنية حتى الكورية : فراريج بنجاب « تندوري » ، « شيش كباب » لبنان ، فطاير فيتنام بالصويا ، بزاق « بورغونيا » ، « انشيلادا » المكسيك ، « سوكياكي » اليابان ، « باكاليتوس » بورتوريكو . وكانت مخازنها وحوانيتها البالغة سبعين الفاً تقدِّم كل ما كانت شهيَّة الانسان التي لا تشبع تحلم في امتلاكه : توراة « غوتنبرغ » البالغة قيمتها مليوني دولار عند صاحب مكتبة في الشارع السادس والأربعين، وأجمل الأحجار الكريمة عند بائعي الألماس المُرْتدين السترة الطويلة السوداء في الشارع السابع والأربعين، ولوحات « غويا» و« رينوار» في صالات العرض في الشارع السابع والخمسين، وفساتين السهرة التي ترتديها جاكي اوناسيس وأحذية جون كرافورد وآلات ما فوق الصوت لابعاد الفئران وبطيخ اصفر مستورد رأساً من « كافُيون » وجماعات من النحل الحية وشرائح لحم دب من « الهملايا » .

ومع ذلك والى جانب هذا القدر من الموارد ، كانت ثمَّة مناطق يسودها البؤس والعنف لا يمكن تخيُّلها . فقد كان مليون عاطل عن العمل نيويوركي يعيشون من صدقات البلدية. وكان مئات الآلاف من الزنوج والبورتوريكيين يتكوَّمون في مجابر مُـذْهلـة ، بلا ماء ولا كهربـاء ، يُـضْنيهـم التداعـي والنـار واليأس ، دون ان يجدوا حظاً واحداً من عشرين بأن يموتوا موتاً طبيعياً .

وبالنسبة لمنسّي المجتمع الكبير أولئك ، كانت نهاية العالم * قد أصبحت الآن هناك ، بلوحاتها السرْياليَّة الممثلة بالعاطلين عن العمل اللاعبين بالدومينو في مخازن بلا أبواب ولا نوافذ، وبالأولاد السود النائمين في هياكل السيارات المخلوعة الأبواب . وكانت شوارع نيويورك الحارة تستضيف نصف مُتعاطي المخدرات في اميركا . وكانت مفوضيات الشرطة فيها تُسجِّل حالة طارئة كل ثانية وسرقةً كل ثلاث دقائق وسطواً مسلَّحاً كل ربع ساعة واغتصابين وجريمة قتل كل خمس ساعات وانتحاراً وموتاً من جراء الافراط في المخدرات كل سبع ساعات .

عشرون ألف بغيٍّ ، أكثر مما تعدُّ باريس ولندن وروما وتوكيو مجتمعة ، كانت تجعل من نيويورك العاصمة العالمية للفساد والرذيلة . وكانت ناطحات السحاب المواخير ، كالطبقات التسع لحمامات الأقصر ، وآلاف بيوت الدعارة ، وصالونات التدليك ، وحانات الجنس ، وقاعات المشاهد المخلَّة بالحياء ومناظر التعذيب ، كانت تقدم كلها تشكيلة كاملة للخدمات ، ابتداءً من العرض البسيط حتى طقوس العربدة المازوخيَّة الساديَّة * الأكثر شذوذاً .

والواقع أنه كان للعاصمة الهائلة ، التي حكم عليها القذافي بالاعدام ، عدة وجوه : فهناك واحات وسط منهاتن وأسفلها هي عبارة عن معابد رائعة ومُدوَّخة للرأسمالية والنجاح وعالم مُشبِعٍ بالثروات والملذّات والمراقص الغريبة الأطوار والمساكن الفخمة ذات الطابقين والشقة التي تعلوهما المشرفة على « سنترال بارك » وحفلات العشاء في ضوء الشموع على القمم الزجاجية لناطحات السحاب المتوَّجة بالأعمدة المضاءة في « بارك افنيو » وسيارات الليموزين الضخمة السوداء المجهَّزة بالهاتف والتلفزيون . ولكن كان ثمة ايضاً الأحياء الحزينة للطبقات العاملة في « كوينز » و« برونكس » و« بروكلين » ،

(*) حسب رؤيا القديس يوحنا ـ سفر الرؤيا (المترجم)
(*)تلذذ بتعذيب الذات والآخرين معاً

الملغومة بلا رحمة بسرطان أكواخ الصفيح المجاورة التي يقطنها الزنوج والبورتوريكيّون . وكان ثمة ايضاً المقابر الكبيرة في « سوت برونكس » و« برونس ڤيل » وشمالي « هارلم » وهي عبارة عن أحياء أشباح مخلوعة الأبواب ومقصوفة بالقنابل ومحروقة ومنهوبة .

وكان ثمة ايضاً نيويورك رابعة ، هي عبارة عن مدينة تضم ثلاثة ملايين ونصف مليون من الرحّل كانوا يأتون يومياً ويتكوّمون في الخمسة عشر كيلومتراً مربعاً لناطحات السماء جنوبي « سنترال بارك » .

وصباح ذلك الاثنين ، كانت صفوف لا تنقطع من السيارات المضيئة قد بدأت تتألق على شبكة الجادّات والطرق السريعة المؤدية الى « مانهاتن » . وحولها وعلى بعد عشرات الكيلومترات ، كانت المحطّات العائدة لمئات المدن الصغيرة والقرى في « لون ايلند »و« نيوجرسي » و« كونكتيكت » و« بنسيلفانيا » تزدحم بجمهرة من الياقات البيضاء المتوجهة الى عملها في مانهاتن . وكان هذا الحشد يضمُّ رجال المال والمصارف وسماسرة الأوراق المالية والمؤمّنين ومديري محطات الاذاعة والتلفزيون والمعلنين والمحامين ، الذين كانوا ، من أقفاصهم الزجاجية والفولاذية ، يتولون ادارة امبراطورية روما الاميركية . ومما لا ريب فيه ان «وال ستريت» * كان لا يزال يمثّل الشيطان بالنسبة لماركسيّي العالم بأجمعه ، ولا شك ايضاً أن الدولار الآله كان قد فقد ما كان له في الأمس من هيمنة مجيدة . على أن مسيله الضيّق ظلَّ المركزُ المالي للكوكب . وكان شاغلو مكاتبه يتوجهون ، ذلك الاثنين من كانون الأول ، لمناقشة منح قروض الى سكة الحديد الفرنسية وشركة مياه ڤيينا والنقل المشترك في أوسلو وحكومات « الاكواتور » و« مليزيا » و« كينيا » . وكان مصير مناجم النحاس في « زائير » او القصدير في « بوليفيا » او الفوسفات في الأردن وتربية الخرفان في « نيوزيلندا » وحقول الأرُز في « تايلندا » والفنادق في « بالي » والأحواض اليونانية لصنع السفن ، كان مصير كل ذلك سيتوقّف ايضاً على القرارات التي ستُتّخذ بعد قليل في « صيدليات » مصرفين من أكبر مصارف العالم الثلاثة ، وهما الـ « فيرست ناسيونال » والـ « تشيزمنهاتن » . وبعد الساعة العاشرة ، سوف تؤثر اختلاجات البورصة المالية وبورصات التجارة على اقتصاد دول العالم بأجمعه ، وعلى سياستها في كثير من الأحوال .

وكانت المجموعات الثلاث الكبرى لمحطّات التلفزيون ، تُعدُّ في أعلى ابراجها في « ميدنهاتن » البرامج التي ستحدد الأسهم وتبدِّل المراتب الاجتماعية وتؤثر على تصرفاتها في أقصى زوايا الأرض .

وكان سوقة « بيونوس ايرس » وأولاد مراكش ، رموز الأثر الحاسم لتلك الامبريالية الثقافية الجديدة التي كلنت تنبثق من مصانع الأفلام هذه ، يغرسون مصّاصاتهم في أفواههم وفاقاً لطريقة كوجك ، كما أن التلميذات اليابانيات كن ينتحرن يأساً لعدم تمكنهن من محاكاة بطلات « ملائكة شارلي » وعلى مسافة قليلة من هناك كانت تقوم قلاع رسل مجتمع الاستهلاك ووكالات الإعلان في شارع « ماديسون » وكانت تنشر في العالم أجمع الحسنات المادية والهموم الروحية التي تميِّز العصر الأميركي .

وكانت نيويورك اخيراً عاصمة أمم العالم . فعلى ضفاف « الايست ريڤر » كان ينتصب متوازي المستطيلات الرائع ، من الزجاج المصقول والناعم كالمرآة ، حيث كانت الأمم المتحدة قد اتخذت مقاماً لها . وكان خمسة آلاف موظف دائم وخمسة عشر ألف مندوب اتوا من كل مكان ، يتوجّهون ذلك الاثنين لمتابعة مناقشة المسائل العالمية والعمل على اعداد النظام الدولي الاقتصادي الجديد الذي كانت تنتظره شعوبهم .

(*) الحي المالي (المترجم)

كان العشرة ملايين نيويوركي يمثّلون المجموعة الأكثر تجهيزاً والأكثر قدرةً والأكثر تأثيراً على سطح الكوكب . وكانوا رهائن حلم بالنسبة لبدوي مُتقشّف ومتعصب كان يتحرَّق لتطهير العالم بوسائل التكنولوجيا التي كانوا مخترعيها الفخورين وسيبقون دوماً اسيادها .

***

كان الشخص الذي يتحمَّل المسؤولية الساحقة في ادارة هؤلاء السكان ، جالساً في مؤخر سيارة « الكريزلر » السوداء التي كانت تعود به الى القصر البلدي وسط موج السير الصباحي في « الايست ريڤر درايف» . وكان هذا الإحتياط مفهوماً : فأي رئيس لبلدية نيويورك ما كان يتمنى ان يتعرَّف عليه مواطنوه بعد أربعة أيام من العاصفة الثلجية التي كانت قد شلّت الدوائر العامة في العاصمة العملاقة .

وكان « أب سترن » رجلاً طيِّب القلب ، قصير القامة لا يكاد يتجاوز متراً وستين ، ذا جمجمة ناعمة ككرة بليار . وكانت عيناه البراقتان من الحيوية خلف نظارتين ضخمتين ذات إطار فني ووجهه الذي اعاد اليه جرّاحو التجميل المهرة نضارةً شبه فتويَّة ونشاطه وحدَّته التي كانت تنهك بطانته ، كل ذلك كان يُنسي بأنه سيحتفل في اليوم التالي بعيد ميلاده الثاني والسبعين . وقد استنشق فجأة رائحة سيغار بخس الثمن ، فنهض بحدَّة ووجّه ضربةً ، بقبضته، الى رقبة مرافقه ، الجبّار الذي كان يزن مئة وعشرين كيلو ويدخِّن الى جانب السائق، وقد دسَّ رأسه بين الصفحات الرياضية لمجلة « دايلي نيوز » . ودمدم رئيس البلدية :

ـ ريكي ! سأطلب الى مدير الشرطة ان يزيد راتبك، وأرجو ان تشتري سيغاراً لا تفوح منه رائحة عفِنة .

ـ اوه ! المعذرة يا حضرة رئيس البلدية ، هل الدخان يزعجك ؟

واطلق « سترن » شتيمةً وهو يلتفت نحو ضابطه الصحفي الجالس الى جانبه :

ـ اذن ، ما هو عدد القحّافات التي أمكن في النهاية إنزالها الى الشوارع ؟

أجاب « ڤيكتور فراري » :

ـ ٣١٦٢

وانفجر رئيس البلدية :

ـ البؤساء !

بعد اقل من ساعة ، سيعقد « سترن » مؤتمراً صحفياً يشرح فيه لزمرة من الصحافيين المستعدّين لتمزيقه أسباب البطء الذي لا يُصدّق الذي رافق أعمال التنظيف التي قامت بها دوائر البلدية ، يوم الخميس ، بعد العاصفة الثلجية . وكان يفكر في ذلك بحماس الرجل المتوجّه الى طبيب الأسنان ليقلع ضرسَ العقل . وغضب قائلاً :

ـ إن هذه المدينة تملك اكثر من ستة آلاف قحّافة ، ومع ذلك لا تتوصل مصلحة الطرق الى إنزال نصف هذا العدد الى الشوارع .

وكان هذا النوع من الإحصاءات هو الذي سيتمسّك به الصحافيون . وكان يسمع منذ الآن

تهكّمات مذيعي الأخبار يفضحون مرّة اخرى عدم جدوى إدارته .

وغمغم « فرارّي » مفتشاً عن عذر :

- انت تعلم ، يا حضرة رئيس البلدية ، ان اغلب هذه الشاحنات له من العمر عشرون سنة .

وتذمّر « سترن » وقال :

- لها ، يا فيكتور ، لها . يا الهي . لديَّ مرافق يريد ان يخنقني ومدير للطرق غير كفء وضابط صحافة لا يعرف حتى التحدُّث بلغة سليمة .

وبدا « فرارّي » خَجِلاً .

- هناك شيء آخر ، يا حضرة رئيس البلدية .

- لا أريد معرفته .

- ان « فريدكان » ، رجل نقابة الطرق ، يطالب بثلاثة اضعاف الساعات بالنسبة ليوم امس .

حدَّق « سترن » في غضب بمياه « الايست ريفر » السوداء ، وحاول ان يتصور كيف سيستفيد من مؤتمره الصحفي لِيُفْحِم هذا الرئيس النقابي الذي لا يشبع . ولكن ، على الرغم من احتجاجاته ، في اعماق نفسه ، فقد كان مولعاً بتلك المشادات التي كانت تتحوّل اليها المؤتمرات الصحفية . « مشاغب » ، ذلك هو النعت الأكثر استعمالاً عادةً لوصف « أب سترن » ، وكانت الكلمة حسنة الاختيار . وكان قد وُلِد في كوخ حقير في « لُوار ايست سيّد » في مانهاتن ، من مهاجر يهودي بولوني ، كوّاء بناطيل عند احد الخياطين ومن روسيّة الأصل كانت تخيط القمصان في احد المصانع - السجون في حي الملابس الجاهزة . وكان « أب » الفتي قد عرف في طفولته سنوات قاسية ، في ذلك الحي ذي الهيمنة اليهودية ، الذي لا يرحم والذي كان محاطاً بتجمعات من الإيطاليين والإرلنديين ، الحي الذي يتوقف فيه مركز الولد على مهارته في استعمال قبضتيه . يا لها من طريقة حياة رائعة ! فقد كان « سترن » الفتى يهوى بالضبط القتال .

وكان يحلم بأن يصبح ملاكماً محترفاً كمعبوده بطل الوزن المتوسط « بتلينغ ليفنسكي » . وكان لا يزال يتذكّر أمسيات الصيف الخانقة ، أيام كان يغرق في النوم يهدهده صوت احاديث الأشخاص الكبار على مِسطحات سلالم الحريق ، مُتخيلاً الانتصارات التي سيحصل عليها ذات يوم على الحلبة .

وكان عائق صحّي مفاجىء قد وضع حداً لآمال « أبْ سترن » . ففي الخامسة عشرة من عمره كان قد توقف عن النمو . ولكن اذا كان الله لم يمنحه الجسد القادر على تحقيق احلام طفولته ، فإنه كان قد منحه مع ذلك نعمة أثمن بكثير : الا وهي نعمة العقل .

وكان « أب » قد اختبر ذلك اولاً في الكلية البلدية ثم في جامعة نيويورك حيث كان قد درس الحقوق . وفي السنة التي كان قد نال فيها شهادة المحاماة ، كان قد وجد معبوداً جديداً ، مشاغباً مختلفاً تماماً عن الملاكم الذي كان قد مجدّه في طفولته : فرنكلين روزفيلت ، سيِّدَ البيت الأبيض ذا العاهة الذي كانت لهجته النبيلة قد منحت الأمل لأمة غمرها الجمود الاقتصادي . وكان « أب » قد اصبح سياسياً .

وكان قد بدأ مسيرته كعميل انتخابي اثناء حملة انتخابات الكونغرس عام ١٩٣٤ . ولما كان مسؤولاً

عن احد القطاعات في بروكلين ، فقد كان ينتقل من بلهب الى باب في سبيل كسب الأصوات لمرشحه ، عاقداً ، أثناء تجواله ، الصداقات السياسية الأولى التي كانت ستؤدي به ذات يوم الى القصر البلدي . وما كان احد يعرف الخيمياء (×) المختصة بنيويورك افضل من هذا الرجل القصير المتجمّع في مؤخر سيارته الليموزين الرسمية . وكان « أب سترن » ، خلال ارتقائه الطويل ، قد نفذ الى كل من اسرارها .

وكان قد حاصر الكُنس (××) ومشارب المقاهي وزار المحلات وحضر سهرات « البنغو » (×××) والأعياد الإيرلندية والمهرجانات الايطالية وحفلات الرقص الخيرية . وكان قد اشترك بولائم على شرف قدّيسين اكثر مما تتضمنه الروزنامة .

وكانت معدته قد تحملت هجمات عدد من الأكلات الحارقة ـ بيزا ، غولاش ، كباب ، شوب سواي ـ مما يكفي لإتلاف الجهاز الهضمي لكتيبة بكاملها من الناس العاديين . وكان قد غنّى بصوته الأبحّ الصادح « الهاتيكفا » في « شيبشاد باي » ومُوَشَّحات ارلندية في « كوينز » وقصائد صقلّية في « ليتل ايتالي » واغنيات المانية في « يور كفيل » واغنيات زنجية كئيبة في « هارلم » . وكان كل ذلك قد جعل من « أب سترن » احدى شخصيات نيويورك الأكثر دهاءً ودينامية وشجاعة وغالباً إغاظة .

والواقع ، فقد اعطاه كثير من الناخبين اصواتهم ، عن وعي او غير وعي ، لأنهم كانوا يجدون في هذا الرجل القصير الجموح انعكاساً لما في نفوسهم . وكان « أب سترن » بالنسبة للكثيرين ، يمثل نيويورك .

وكان المنصب ، الذي كان قد انتهى بإقتحامه ، اهم المناصب التي يمكن ان يشغلها إنسان واكثرها تعقيداً ، ما خلا رئاسة الولايات المتحدة . فقد كان القائد الأعلى لجيش من الموظفين يبلغ / ٣٠٠٠٠٠ / منهم / ٣٢٠٠٠/ شرطي . وكان « أب سترن » مسؤولاً عن سلامة ورفاهية عشرة ملايين اميركي وعن سير / ٩٥٩/ مدرسة عامة وعن الجامعة التي كان يؤمها / ١٢٥٠٠٠٠/ من اولادهم . وكان مسؤولاً عن صيانة ومراقبة/ ٩٠٠/ كيلومتر من شوارعهم و/ ٧٠٠٠/ حافلة مترو تقطع/ ٣٨٠/ كيلومتراً ، وعن عمل ١٦ مستشفىً بلدياً . وكان عليه ان يؤمن حاجات مليون عاطل عن العمل وإخلاء/ ٢٠٠٠٠/ طن من القمامة البيتية كل يوم ، منها/ ٥٠٠٠٠٠/ ليبرة من البعر الذي تخلّفه في المدينة/ ١١٠٠٠٠٠/ كائن يدبّون على اربعة اقدام . وتلك المهمة الهرقلّية كانت قد أنهكت سلالة طويلة من أسلافه وبلعت هذه السنة تُفاهة اربعة عشر مليار دولار ، اي ما يعادل سدس موازنة فرنسا « فاليري جيسكار داستان » .

ورنّ جرس الهاتف فجأةً في السيارة . ومدَّ « ڤكتور فرارّي » ، ضابط الصحافة ، ذراعه ليرفع السماعة ، ولكن يد « سترن » السمينة كانت اسرع . وصاح :

ـ هنا رئيس البلدية .

واطلق عدة تذمرات وقال : « شكراً يا عزيزتي » واعاد السماعة . واضاءت وجهه فجأةً ابتسامة سعادة . وتعجب « فرارّي » قائلاً :

ـ ماذا يجري ؟

(×) الكيمياء القديمة (المنهل) .
(××) جمع كنيس ، معبد اليهود (المترجم) .
(×××) لعبة من العاب الحظ والمقامرة المنتشرة في كندا (المترجم) .

ـ هل يمكنك تصوُّر ذلك ؟ لقد طلب الرئيس* ان يراني فوراً . حتى انه أمر بإعداد طائرة لي في « المارين ايرترمينال » .

ومال « أب سترن » نحو ضابط الصحافة . وهمس بصوت المتآمر :

ـ إني أراهن بأن البحث سيتناول مشروع إعادة بناء « برونكس الجنوبية » . ولـديَّ حدس بأن معمداني البيت الابيض سوف يعطينا اخيراً الملياري دولار التي نطالب بها .

* * *

كانت ليلى دجاني قد شعرت بالجوع ، إثر ليلة الغرام ، فغمست رُطَيْبَة** ممسوحةً بالزبـدة في صفار البيض برشت ، وقرشتها بلذة . وكانت رائحة الشاي الصيني المُدَخَّن المُستحبّة تتماوج في الشقـة الفاخرة التي كانت تشغلها في « هامشيرهوس » وأعلن « الترانزيستور » الموضوع على الطاولة ـ العربة : « الساعة السابعة والنصف ويشير ميزان الحرارة الى الخامسة تحت الصفر في « ميدنهاتن » . وقالت ليلى لنفسها : « ان النشرة الجوِّية تعدنا بيوم بارد ولكن مشمس . ولا تنسيْ انه لم يبقَ امامك الا عشرة ايام لإنجاز مشتريات الميلاد . . . » .

واقفلت ليلى جهاز الراديو بضربة خاطفة واخذت دليل العناوين « هرمس » . وفتحته على الحرف « ث » وفتشت عن الرقم المدّون امام كلمة « كولومب » (يمامة) . ورفعت سماعة الهاتف وألَّفت الرقم وهي تحرص على إضافة وحْدتين الى كل من الأرقام السبعة .

ورنَّ الهاتف وقتاً طويلاً . وسمعت ليلى أخيراً صوت الفصَّال عند الطرف الآخر من الخط . فقالت بالعربية :

ـ سيف .

وأجابها صوت :

ـ الإسلام

وأمرت بالعربية دائماً :

ـ يمكنك البدء بعمليتك .

واقفلت الخط .

« سيف الإسلام » كان الاسم المرموز لبرنامج معمر القذافي الذري .

* * *

دخل الرجل ذو الوجه الموسوم بالجدُرَي الذي كان قد اجاب على نداء ليلى دجاني ، الى مؤخر مخبز سوري خلف « الأتلنتيك افنيو » في بروكلين . وكان رفيقاه ينتظرانه فيه . وكانوا ثلاثتهم فلسطينيين وثلاثتهم متطوعين . وكانوا قد اختيروا قبل سنة بمعرفة كمال دجاني من بين دزينة مناضلين في احد معسكرات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في ضاحية حلب بسوريا . وكانوا ثلاثتهم قد وهبوا حياتهم للقضية . ولم يكن

(×) احد اتباع المذهب القائل بأن المعمودية يجب ان تتم بعد سن البلوغ .
(××) قطعة خبز طويلة ودقيقة ترطب في البيض برشت (المنهل) .

احد منهم يعرف من كان قد تلفن ولا مصدر المكالمة . كانوا قد أُخطروا فقط بأن ينتظروا كل صباح عند الساعة السابعة والنصف امام جهاز الهاتف ، الأمر الذي كانوا قد تلقوه لتوِّهم .

وفتح الرجل ذو الوجه المجدور فرن مِطبخة قديمة من الحديد المصبوب وأخرج منها صندوقاً صغيراً من الرصاص وقطع بعناية الوثُق التي كانت تقفله وفتحه . وكان داخله مقسوماً الى قسمين ، في احدهما مجموعةخواتم بحجم خاتم الزواج . وكان الآخر يحتوي على عدة صفوف من البرشامات السمر بحجم حبَّة اسبرين فوّار . وشرع الرجال الثلاثة يثبتون بعناية برشامة في كل خاتم . ثم فتحوا اولى السلال الثلاث المتطابقة المكدَّسة في زاوية من الغرفة واخرجوا منها حمامة ، لم تكن من النوع الزاجل ، بل كانت طائراً عادياً رماديّ اللون يوجد مثله في كل مكان بنيويورك . وربطوا خاتماً برجل الحمامة واعادوها الى قفصها وكرروا العملية بالنسبة لكل حمامة من السلال الثلاث .

وبعد ان عُلِّقت جميع الخواتم بأرجل الحمامات ، ضمَّ الفلسطيني ذو الوجه المجدور ، رفيقيه بين ذراعيه . وأعلن ، متأثراً وفخوراً :

ـ بهذا ، سوف يضطر رجال الشرطة الى الركض في كل انحاء المدينة . مع السلامة . الى الملتقى في طرابلس ، ان شاء الله .

واخذ احدى السلال الثلاث فاتجَّه نحو سيارة واقفة في الشارع . وحذا حذوه كل من رفيقيه ، بفاصل زمني يبلغ خمس عشرة دقيقة .

* * *

على الجانب الآخر من « الويست ريڤر » وعند أسفل جزيرة « مانهاتن » كان مدير شرطة مدينة نيويورك ينعم في تلك اللحظة بفترة هدوء نادرة . وكان الإيرلندي « ميخائيل بانيون » ينظر ، من نافذة مكتبه في الطابق الأخير من القيادة العامة للشرطة ، الى خيوط الفجر ترتفع فوق سقوف المدينة المكلف بحراستها . وكان يبرز امامه الخيال المألوف لجسر بروكلين الذي كانت جميع طرقه المؤدية الى « مانهاتن » قد تعرقلت . والى اليسار ، بعيداً خلف صفوف اعمدة المحكمة الاتحادية المتَّسِمة بالكلاسيكيَّة الحديثة ، كان « بانيون » يتعرَّف الى المسكن ذي الأجرة المخفضة المؤلف من ثمانية طوابق حيث كان قد وُلِد قبل ثمانية وخمسين عاماً . سيكون باستطاعته ان يعيش بقية حياته في جو مكتب معقَّم مثل مكتبه ، تفوح منه رائحة الملفوف الغالي في المطابخ التي طغت على طفولته ، وعفونة المراحيض عند كل قرص درج ، وعطر شمع العسل المنبعث من مطلع الدرابزون الخشبي الذي سوف يستنشقه حتى يومه الأخير . وكان « بانيون » قد ابتعد عن ذلك البؤس باختياره المخرج الذي يعرفه جيداً ابناء المهاجرين الإيرلنديين : الشرطة . وكان قد ارتقى بعناد جميع الدرجات حتى ذروة هذا المبنى الجليل الحديث تماماً ، على بعد أقل من كيلومترين من المكان الذي ولد فيه .

وأعاد جرس الهاتف المدير الى طاولة الأكاجو الوقور التي كانت ترمز الى وظيفته ، ذلك المكتب الذي كان سلفه « تيودور روزفلت » قد استعمله قبل ان يصبح رئيساً للولايات المتحدة . وكان الرنين منبعثاً عن خطِّه الخاص . وعرف فوراً صوت « هارفي هودسون » مدير مكتب التحقيقات الاتحادي في نيويورك .

وكان صوت « هودسون » يعلن :

ـ ميخائيل ! يحدث شيء طارىء يخصُّنا نحن الإثنين . أنا أكره ان أقتلعك من مكتبك ، ولكن

لعدد كبير من الأسباب التي لا استطيع البوحَ بها بواسطة الهاتف ، اعتقد انه من الأفضل مناقشة هذا الأمر في مكتبي . وسوف نحتاج الى جميع مفتّشيك .

وتأمل « بانيون » لائحة المواعيد العديدة التي كان سكرتيره قد وضعها على مكتبه .

ـ هل الأمر مُلِحٌ حقاً ، يا هرف ؟

ـ اجل ، اجل يا ميخائيل ! (ولاحظ « بانيون » نبرة غريبة في صوته) مُلِحٌ جداً جداً . تعالَ بسرعة مع رئيس مفتشيك !

* * *

كان ثمَّة في نيويورك خمسمئة الف شِقَّة كان يجري فيها المشهد نفسه تقريباً ، في ذلك الصباح من كانون الاول . وكان ملايين النيويوركيين يشاهدون الأخبار المحلية الصباحية على شاشة التلفزيون العائلي الموجَّه نحو طاولة الإفطار . وكان « تومي نوْلاند » ، البالغ اثني عشر عاماً ، يُفْرغ كشخص آلي صحن رقائق الذرة . والموز المُقطَّع الى شرائح مستديرة ، مأسورَ الإنتباه بإذاعة : « صباح الخير يا اميركا » .

وكانت والدته « غريس » جالسة الى جانبه تحتسي قهوتها وهي تراقبه بحنان . وكانت تتمتّع بسحر لا يُقاوم ، حتى عند تلك الساعة الصباحية ، حيث لم تكد تستفيق على الرغم من الماء البارد الذي رشَّت نفسها به ، وقبل ان تعمد الى أية زينة ما خلا تمشيط شعرها ببضع ضربات من الفرشاة .

ـ اماه ! هل شاهدت تلك الضربة العنيفة ؟

وفي سَوْرة الحماس ، كان تومي الصغير قد صدم ملعقته بطرف صحنه .

ـ كلا ، يا عزيزي ! ولكن هل تعتقد انه سيكون بوسعنا ان نرسل الى « جيمي كونورز » فاتورة بقيمة صحنك المكسور ؟

وكشَّر الولد وصوَّب نظره من جديد الى التلفزيون .

ـ تومي ! هل انك ؟ (وكانت « غريس » مستغرقةً في التفكير ، وهي تحتسي قهوتها بجرعات صغيرة) أقصد ، عندما افترقنا انا ووالدك ، هل تألمت بأن تبقى وحيداً وان لا يكون لك اخ او اخت ؟ . . .

خلال فترة ، بدا لها ان ابنها لم يكن قد سمع السؤال . وكان يتابع التحديق في الشاشة ، وقد سحرته مباراة التنس .

ـ كلا ، يا اماه ! ليس حقاً (ونظر الى ساعته) يجب ان انصرف .

وأخذ محفظة كتبه وطبع قبلة على خد والدته :

ـ لا تنسَيْ مباراتي هذا المساء . ستأتين ، أليس كذلك ؟

ـ بالتأكيد ، يا عزيزي !

ـ انت تعلمين بأني سأربح ، فأنا أحسنهم .

ـ إن مباراة التنس تُربح على الملعب ، وليس حول طاولة الإفطار .

ـ شكراً ، يا سيدتي المُدرِّبة .

وصفق الباب . وأصغت « غريس » الى ابنها يحثُّ الخطى في البهو . وكانت تفكِّر : بعد سنتين او ثلاث سنوات ، سوف يذهب . . . الى عالم له هو ، الى حياته . . . وجسَّت بطنها . هل ثمَّة اول ظاهرة لتلك الحياة الأخرى التي كانت تحملها في احشائها ؟ كلا ! لمَ يحن الوقت بعد ! وأخذت لفافة واشعلت عود ثقاب ونظرت الى الشعلة التي كانت تتراقص عند أطراف أصابعها . وتمتمت وهي تسحق اللفافة في المنفضة : من الأفضل ان انقطع عن التدخين .

* * *

كان « جيمس ميلز » يبدو ، بخديه المحلوقين حِلاقة رديئة وعينيه المُحاطتين بالزرقة وبنطاله « الجينز » المُلَوْلب ، يبدو وكأنه قضى ليلة سكر بكاملها في أحد مشارب الطَلَبة . اما الحقيقة ، فإن السكرتير العام للبيت الابيض لم يغادر مكتبه سحابة الليل . وكان الرئيس قد استدعاه مرتين للتداول بشأن ما ينبغي اتخاذه من تدابير حتى تبقى تلك الازمة سرّاً من اسرار الدولة . عمل شاق ! فليس ثمَّة اي رئيس دولة في العالم كان يعيش حياة علنية مثل رئيس الولايات المتحدة . كان « بريجنيف » يستطيع ان يختفي مدة اسبوعين دون ان تأتي أية برقية على ذكر ذلك الحدث . وكان رئيس جمهورية فرنسا يستطيع ان يتوارى ، باسم مستعار ، وراء مقود سيارته . اما رئيس الدولة الاميركية ، فكان لا يستطيع ان يخطوَ خطوةً دون ان يتبعه اسطول من الصحفيين المعتمدين لدى الرئاسة . وفيما عدا التنقلات الرسمية والمؤتمرات الصحفية اليومية ، فقد كانوا يعسكرون في القاعة التي كانت مُخصَّصة لهم في البيت الابيض ، وكانت هوائياتهم المُفْرِطة في الحساسية ، في حالة تأهب دائم وعلى استعداد لالتقاط أية إشاعة وأية إشارة غير عادية .

وأعلن « ميلز » على معاونيه :

ـ اولاً ، لا أريد ان أرى أي مخبر يتسكَّعُ حول مكاتبنا . واذا كان لأحدنا موعد مع صحافي ، فليأخذ ذلك الشخص الى المقهى ويشرب معه القهوة .

وأخذ من على مكتبه ورقة المواعيد الرئاسية لذلك اليوم . وكانت المُفكرة ، جرياً على العادة ، مقسومة الى قسمين . فقد كانت هناك النشاطات العامة التي كانت لائحتها تُنشَر يومياً بمعرفة « الواشنطن بوست » . وكانت ثمَّة المفكرة الخاصة التي كان الديوان وحده يطلع عليها . وكانت اللائحة الرسمية لذلك الإثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول تلحظ ما يلي :

الساعة التاسعة ـ اجتماع مجلس الأمن القومي .
الساعة العاشرة ـ لجنة الموازنة .
الساعة الحادية عشرة ـ الاحتفال بالذكرى السنوية لتبني الاعلان العالمي لحقوق الانسان .
الساعة ١٧,٢٥ : اضاءة شجرة الميلاد في حديقة البيت الأبيض .

ـ بالنسبة للموعد الأول ، لا نواجه اية مشكلة .

اما بالنسبة للموعد الثاني فقد اقترح « ميلز » الطلب الى « شارلي كاتز » ان ينوب عن الرئيس .

كان « كاتز » رئيس لجنة المستشارين الاقتصاديين) قلّ له ان رئيس الدولة يود ان يعرف انطباعه عن نتائج ضغط النفقات على الاقتصاد .

وسأل احد الحاضرين :

ـ هل يجب إطلاعه على الموضوع ؟

ـ لا ، وبالتخصيص بالنسبة اليه .

وبدا « جون غولد » الناطق باسم البيت الأبيض قلقاً وسأل :

ـ وما العمل بالنسبة لحقوق الإنسان وشجرة الميلاد ؟

ـ لماذا لا نلغي هذين الموعدين ، بكل بساطة ؟

ـ لا بدّ في هذه الحالة من إيجاد تفسيرات متينة كالإسمنت ـ وتابع « غولد » صائحاً :

ـ ان قاعة الصحافة ستنقضّ فوق رأسي كسحابة من الجراد .

واقترح « ميلز » :

ـ لنفترض ان نتذرع بوعكة بسبب البرد .

ـ ان الصحفيين سيرغبون حالاً في التحدث الى الدكتور « ماك انتير »[٧] هل أُعطي علاجاتٍ ما ؟ ما هي درجة حرارته ؟ هل يجب ان يلازم السرير ؟ انت تعلم انه لا يمكن إجراء اي تعديل في مفكّرة الرئيس العامة بدون الإدلاء بحجج لا تقبل النقاش . وانت تعلم ايضاً اكثر من اي شخص ان تلك الحجج لا يمكن تمريرها بسهولة في هذه المدينة .

واعتبر « ميلـز » :

ـ ان ذكرى اعلان حقوق الإنسان لا تشكّل أية صعوبات . فإذا ما تأزمت الحالة فجأة في الوقت الذي يلقي فيه خطابه ، فبالإمكان إخراجه دائماً من مكتبه بسرعة دون ان يلاحظ ذلك أحد . ولكن يا إلهي ! يا جون ! إذا ما حدث شيء ما بينما هو أمام شجرة الميلاد ، فستكون الضربة حقاً على إسته ! ولن يُمكن تهريبه دون ان يعلم العالم بأجمعه ان هناك صعوبة في مكان ما .

ـ جايمس ، اذا أردت ان تبقى كل هذه الفوضى محُاطة بالسرِّية فينبغي ان نتحمَّل المخاطر وان نُلْزِمه بالتصرف وفاقاً لما هو ملحوظ .

وانقلب « غولد » على مقعده ووضع قدميه على طرف مكتب « ميلز » :

ـ إن إيسمان على حق : فأحسن طريقة للحفاظ على سرّ ما ، هي ان يتصرَّف الإنسان كما لو لم يكن هناك أي شيء . على هذا النحو تصرَّف كندي إبان أزمة الصواريخ في كوبا . وقد كان هو وبطانته يتوجَّهون الى المدينة لتناول العشاء ويقضون عطلة نهاية الأسبوع ويعيشون كالمعتاد . . . وذلك بقصد الخدعة . يجب ان نفعل الشيء نفسه ! (واجتاز ومیض عین غولد) يجب ان تذهب انت هذا المساء عند « غتسبي » وان تسْكَر . وان تسْكَر مرة ثانية . يجب ان تتصرف بشكل يراك فيه الناس منصرفاً الى احتساء الخمرة بهدوء .

(×) طبيب الرئيس الشخصي .

وانفجر « ميلـز » ضاحكاً ، ثم ما لبث في الحال تقريباً ان ظلَّ فاغر الفم : ففي الخارج وفوق الممر المغطّى بالثلج ، كان قد لاحظ لتّوه مرور خيال . لكل رئيس دولة طريقته الخاصة ليبقى في أحسن حالة إبّان الأزمات . وكان للرئيس الاميركي طريقته : فقد كان يركض ركضاً وئيداً حول البيت الابيض ، وقد ارتدى ثوباً رياضياً دافئاً كحليّ اللون وكان يزفربخاراً خفيفاً في معدّل تنفّسِه وكانت خصلات شعره الرمادي مُثبتة بُعصابَة .

* *

أدرك مدير الشرطة « ميخائيل بانيون » ان شيئاً خطيراً كان يجري في مدينته ، عندما شاهد جميع هذه الوجوه المجهولة حول « هارڤي هودسون » مدير مكتب التحقيقات الاتحادي في نيويورك . وتعـزز هذا الانطباع عندما سمع كلمات : « المختبر الذرِّي في لوس ألموس » .

وكان « هودسون » رجلاً قصيراً بشعاً حادَّ الذهن ، ذا جمجمةٍ صلعاء واذنين بشحمتين غليظتين وحاجبين كثيفين وميل قوي للعقد الفراشية والسيكار الكوبي الذي كان يحصل عليه بخرقه بلا حياء الحظر الاميركي المفروض على كاسترو .ولم يتوفر لمدير الشرطة الوقت ليطرح عين السـؤال الـذي كان يحرق شفتيه . وأعلن « هودسون » :

ـ نعم ، يا ميخائيل ! لقد حدث « الشيء » .

ـ متى هذا ؟

ـ مساء امس .

وكانت هاتان الكلمتان الصغيرتان كافيتين ، في الظروف العادية ، لتثير لدى « بانيون » انفجار غضب شديد . لان موقف مكتب التحقيقات الاتحادي كان لا يطاق كما بدا له . ففي قضية كانت تتعلق بحياة وموت مئات الألوف من سكان مدينته ، لم يرَ الأمن الاتحادي من المناسب ان يعلم شرطة نيويورك بالأمر حالاً . ولكنه لجم غَضبه واستمع بهلع متزايد الى بيانات « هودسون » .

ـ لدينا حتى ظهر غد لاكتشاف سلاح ذري . ويجب ان نصل اليه دون ان يشعر أحد أننا نفتش عن شيء ما . وكان أمر الرئيس جازماً . يجب ان يبقى الأمر مجهولاً من الجمهور .

واتجّهت عندئذ جميع الأنظار نحو الرجل الذي كان يشبه بمظهره رُعاة البقر والذي كان يُمثِّل التنظيم السرِّي لفرق التحرّي عن المتفجرات النووية . وكان « بيل بوث » يُقلِّب بعصبية الحلية ذات المدى التي كان يحملها كحجاب حول عنقه .

وصرَّح بعد أن أخذ نفساً طويلاً من لفافة « المرلبورو » التي كان إعلاناً حياً عنها :

ـ لقد شرع رجالي بالعمل . وقد اعددنا مئات الشاحنات الصغيرة من طراز « هارتـز » و« أفي » وبدأنا بتمشيط مانهاتن .

وقال « بانيون » قلقاً :

ـ ألن يلاحظ بعض الناس سياراتكم ؟

ـ ان ذلك قليل الاحتمال . وحده هوائي الكشف الصغير جداً والمثبَّت على قاعدة السيارة قد يسترعي انتباههم . وينبغي حقاً البحث عنه .

وسأل « هودسون » :

- وطّوافاتكم ؟

ونظر « بوث » الى ساعته :

- من المفروض ان تقلع بين لحظة واخرى . ولقد استأجرنا ثلاث طائرات إضافية من شركة « الخطوط الجوية النيويوركية » . ونحن بصدد تجهيزها بمعدات الكشف . وستصبح جاهزة بعد ساعة تقريباً (وسحب « بوث » ايضاً انفاساً من لفافته) واليكم ما اقترحه بشأن كيفية عملنا . سنبدأ بالأرصفة . وهناك ستكون افضل الفرص لفعّالية الطوافات . فهي تستطيع ان تمشّط بسرعة فائقة الأرصفة العائمة وان تكشف بدون صعوبة اقلَّ إشعاع عَبْرَ سقوف المستودعات الرقيقة (وبدت تكشيرة على وجهه) اما اذا كانت القنبلة مخبأة في سفينة ، فيقتضي التوجه على الأقدام لاكتشافها . لأن مضطبات الجسور المعدنية ستوقف الأشعة التي نبحث عنها .

وصدرت عن مدير الشرطة حركة نفاد صبر . وسحق « بوث » لفافته في المنفضة .

وقال بانزعاج :

- اسمع يا حضرة المدير ، لا تنتظر منا المعجزات لأنه ليس ثمّة معجزات ننتظرها . ولدينا محلياً زبدة التكنولوجيا ، ولكنها غير مؤهلة إطلاقاً لهذه المهمة في مدينة مثل نيويورك (رشاهد الفيزيائي قُزْحية المدير الكحلية تتسع من الدهشة وتفاحة آدم تضطرب من التشنج) ان جميع الحسنات التعباوية هي الى جانب اخصامنا . وشاحناتي لا تستطيع ان تكشف شيئاً فوق الطابق الرابع . كما ان طوافاتي لا تستطيع ان تكشف شيئاً تحت السقوف بطابقين . وبين الاثنين ، الفراغ.ومن الغبث الإسترسال في الحلم . ولا توجد في العالم اية فرصة لكي نعثر خلال بضع ساعات على سلاح نووي حراري مخبأ في هذه المدينة الا اذا قدمتم لي ، ايها السادة ، معلومات تسمح لي بتركيز قواي على منطقة معينة .

* *

تحت قاعة الاجتماعات بثلاثة طوابق ، رنَّ جرس الهاتف في احد مكاتب فرع الاستعلامات التابع لمكتب التحقيقات الاتحادي . وتناول احد المأمورين الجهاز :

- تحية ايها الرجل ، أنا ريكو

وقفز المأمور على قدميه وادار جهاز التسجيل .

- ما الخبر ، ايها الأب الصغير ؟

- ليس لديَّ شيء هام ايها الرجل . لقد قضيت الليل بكامله في البحث ، ولكن كل ما توصلت اليه هو رجل من شمالي افريقيا طُلِبت منه علاجات لامرأة عربية .

- مخدّر او علاجات ، يا ريكو ؟

- كلا ، يا رجل ! شيء رسمي . شيء ما لبطنها . لم تكن ترغب في أية وصفة ولم تشأ ان تتغوّط بمعرفة الطبيب .

- من كانت تشبه ؟

ـ لم يرها الرجل الافريقي . بل اكتفى بنقل البضاعة الى فندقها .

ـ اي فندق ، يا ريكو ؟

ـ الـ « همبشير هوس »

* * *

كان رئيس مفتشي شرطة نيويورك ، المفتش العام « ا . ي.فلدمان » ، البالغ ثلاثة وخمسين عاماً ، رجلاً اصهب وذا صوت رنّان . وكان يتأمل فيزيائي « لوس الموس » بريبة . كل ذلك كلام ! الأمر دائماً هو هو مع هؤلاء العلماء . إنهم ينتظرون ان يأتي وراءهم شخص يلتقط الغائط الذي زرعوه ! وتنحنح « فلدمان » وسأل :

ـ ماذا يشبه ذلك الشيء الذي نبحث عنه ؟

ووزع « بيل بوث » نسخاً عن التصميم واوصاف السلاح التي كان مختبر « لوس الموس » قد اعدَّها بالاستناد الى المصوَّر المرسل من القذافي .

وسأل « بانيون » :

ـ هل لدينا فكرة عن التاريخ الذي أُدخل فيه هذا السلاح الى الولايات المتحدة ؟

وأجاب « هارفي هودسون » رئيس مكتب التحقيقات الاتحادي في نيويورك :

ـ كلا ، ولكننا نفترض ان الأمر قد حصل حديثا .

وتعتبر الوكالة المركزية للاستخبارات ان السلاح يمكن ان يأتي من خمسة امكنة : ليبيا ولبنان والعراق وسوريا وعدن . ويمكن ان يكون قد أُدخل سراً من الحدود الكندية . وهذا ليس صعباً . او بكل بساطة من احدى المرافىء الاميركية بتمويه ما .

وعضعض الرجل الجالس قبالة « هودسون » قلمه . وكان « كانتان‌دوينغ » ، البالغ ستة وخمسين عاماً ، رئيس « هودسون » المباشر . وكان المدير المعاون للتحرّيات في مكتب التحقيقات الاتحادي ، وكان قد وصل من واشنطن الليلة الماضية ليتولى قيادة التحقيق . وكان يرتدي بزة كحلية ضيّقة يزينها جيب صغير ابيض كان يبرز سنتيمتراً واحداً بالضبط . وكان المفتش العام « ا . ي . فلدمان » قد وجد فيه ، عندما قُدِّم اليه ، مديراً حقيقياً لشركة تأمينات . ونهض « دوينغ » نصفياً من مقعده ليشرف على زملائه وقال :

ـ ان هذا يعني انه يقتضي تمحيص جميع وثائق الشحن وجميع البيانات العائدة لجميع البضائع الواردة من تلك البلاد في الأشهر الأخيرة . وسنبدأ بآخر ما وصل ونعود في الزمن الى الوراء .

وصاح « بانيون » مذهولاً :

ـ قبل ظهر غد ؟

ورمى « دوينغ » مدير الشرطة بنظرة :

ـ قبل ظهر غد .

ولم يلاحظ « أ . ي . فلدمان » تكشيرة رئيسه لأنه كان مستغرقاً بقراءة الوثائق التي كان « بوث » قد وزّعها .

وسأل الفيزيائي :

- قل لي اذن ، هل سيكون من الممكن ان تكون هذه القنبلة قد أُدخلت الى هنا قطعاً منفصلة ثم أُعيد جمعها فيما بعد ؟

أخرج « بوث » دائرة صغيرة من الدخان الأزرق :

- سأقول انه من الوجهة الفنية - يكاد يكون ذلك مستحيلاً .

وصاح « فلدمان » إعجاباً ، متوجها هذه المرة الى مجموع الحضور :

- هذا اخيراً خبر حسن . وبما ان هذا السلاح يزن سبعمئة وخمسين كيلو على الأقل ، فإن هذا يستبعد عدداً لا يستهان به من البضائع . كما يستبعد ايضاً الطوابق العليا في المباني الخالية من المصعد (وعرض الوثائق على الطاولة).والأشخاص الذين تمكّنوا من إدخال هذا الشيء ؟ هل لدينا أقل علامة تشير اليهم ؟

وسلّم « هودسون » مشيراً بإصبعه الى شرطي في الثلاثين من عمره ، اشقر الشعر ، مُصْفرَّه ، كان يجلس مقابل « فلدمان » وقال :

- لا شيء على وجه الدقّة حتى الآن . « فاريل » هواختصاصيّنا في الشؤون الفلسطينية . قدِّم لنا يا « فرنك » خلاصة موجزة لما تعلمه .

وكانت بطاقات الناظمة الآلية التي تختصر جميع تحقيقات مكتب التحقيقات الاتحادي ، المتعلقة بالشرق الأدنى ، مصفوفة بعناية على الطاولة امام المأمور .

وكانت تتعلق بقضايا منوعة : تجارة البغايا بين ميامي والخليج الفارسي والتصدير السرِّي لأربعة آلاف بندقية آلية في ٣٠ الى الكتائب اللبنانية المسيحية ومحاولات النظام الثوري في ايران لإدخال فرق من القتلة الى الولايات المتحدة مكلفة باغتيال شخصيات اميركية رفيعة . وتناول « فاريل » وثيقة تتعلق على وجه التدقيق بالتحريات الجارية .

- لدينا قائمة بواحد وعشرين اميركياً - سبعة عشر رجلاً واربع نساء - سبق ان اقاموا في معسكرات ليبية لتدريب الإرهابيين . جميعهم من اصل عربي .

وكان المفتش العام « فلدمان » يقلِّب عينيه المذعورتين . وقال متعجباً :

- هل ألقيت القبض عليهم ؟ ماذا اكتشفت ؟

سعل الشرطي الشاب :

- لقد اقام اكثرهم في ليبيا بين ١٩٧٥ و١٩٧٧ وقد وضعوا تحت المراقبة بدورهم ، ولكن احداً منهم لم يفعل شيئاً يؤاخذ عليه . حتى أنهم لم يسرقوا علبة علك من صيدلية او محل آخر . ولهذا رفض القضاء ان يجدد لنا مذكرات المراقبة .

ـ وقد انقطعتم عن اقتفاء أثرهم ؟

وأرسل الشرطي نخيراً ايجابياً . فصاح « فلدمان » وهو يقفز كشيطان :

ـ باسم الرب ! أنت الآن تروي لنا بأن القذافي زرع في هذا البلد واحداً وعشرين عميلاً اميركياً درَّبهم تدريباً خاصاً وان مكتب التحقيقات الاتحادي لم يحتفظ بأي منهم في مدى نظره ؟

وتدخل « هودسون » بخشونة :

ـ هذا هو القانون ـ يا حضرة المفتش العام . ولكننا نتقفى آثارهم منذ مساء امس . وقد وجدنا حتى الآن اربعة منهم .

وكان « أ . ي . فلدمان » قرمزياً كالبندورة .

ـ هذا ليس القانون ، يا سيد « هودسون » ! هذا صك إنتحار .

واشار مدير الشرطة الى مفتشه العام بأن يهدأ ويجلس ثانيةً . وتكلَّم بصوت مُنْخَفِض لترطيب الجو مشيراً الى ان اكثر التجمعات العربية في نيويورك كانت تتواجد بالضبط على مقربة من المستودعات البحرية ، ثم سأل :

ـ هل لدينا نحن شيء ، يا سيد « فلدمان » على الأقل حول نشاطات منظمة التحرير الفلسطينية في المنطقة ؟

وأجاب « فلدمان » متأسفاً :

ـ لا شيء يذكر . بالكاد بقالتان او ثلاث بقالات عائلية صغيرة نشتبه ، بغير وضوح ، بأنها قد تشكل تغطية لتجارة سلاح صغير ـ وربما كانت لها ارتباطات مع منظمة التحرير الفلسطينية . ولما حضر عرفات الى منظمة الأمم المتحدة ، أثار حراسهُ ظنوننا بزيارتهم لبعض تلك المخازن . قد يكون ذلك لاحتساء القهوة او لتركيز شبكة ! (ورفع « فلدمان كتفيه ») أترك لك الخيار .

وسأل مدير الشرطة « كليفورد ساليزبوري » ذو اللحية الصغيرة واحد المسؤولين المختصين في الشؤون الفلسطينية لدى الوكالة المركزية للاستخبارات :

ـ هل تمكنتم على الأقل من التسلل الى الأوساط التي تتعاطف مع منظمة التحرير الفلسطينية ؟

وأجاب « بانيون » :

ـ ان النشاط الوحيد المختص بالتسلل الذى يسمح به القانون حالياً للشرطة ، يتعلق بالجريمة المكتملة . (وأضاف بشيء من المرارة) وفضلا عن ذلك فإني اجد بعض الغضاضة في وضع شرطي واحد في سيارات الدورية ، فكيف تريدني ان أتسلّل الى منظمة التحرير الفلسطينية ؟

وما لم يقله مدير الشرطة ، هو انه لا يوجد سوى اربعة شرطيين يتكلمون العربية من اصل اثنين وثلاثين الف رجل وامرأة يؤلفون قوة الشرطة في نيويورك ، وأن احداً منهم لم يكن مكلفاً بمراقبة نشاطات

المئتي الف عربي الذين يعيشون في نيويورك .

ونهض « كانتين دوينغ » مدير مكتب التحقيقات الاتحادي في واشنطن . الذي كان قد تولى إدارة التحقيق ، وضرب الطاولة براحة يده قائلاً :

ـ ايها السادة ، نحن لسنا هنا لتصفية الحسابات بين الشرطة الاتحادية والبلدية . بل يجب علينا ان ننظم تحرياتنا بشكل منطقي ومنهجي . السؤال الأول : هل نحن متفقون ـ بالنظر لكلمات «جزيرة» نيويورك المستعملة في كتاب التهديد الصادر عن القذافي ـ على تركيز فرق التحريات النووية على مانهاتن فقط ؟

وانبعث في القاعة همس بالموافقة .

ـ وحرصاً على السرِّية ، فإن عملية « نست » سوف تجري بطريقة مستقلة تماماً . وسيقدِّم مكتب التحقيقات الاتحادي سائقي سيارات التحري فقط .

وأراد « بيل بوث » ان يعرف :

ـ من اين نبدأ ؟ « وول ستريت » أم « هارلم » ،الشمال أم الجنوب ؟

واقترح « بانيون » :

ـ سأقول « وول ستريت » . فأنتم هناك أقرب الى الأرصفة . وقد كان على الإرهابيين ان يقطعوا مسافة اقل لنقل سلاحهم . ثم انه من المعروف ان الناس كلها تكره « وول ستريت » .

ووافق « دوينغ » قائلاً :

ـ تماماً . ثانياً : الرجال . فقد وجَّهنا نداءً عاماً الى مكتب التحقيقات الاتحادي . واستدعينا خمسة آلاف مأمور . وأمرت ادارات الخزينة والجمارك والمخدرات ان تضع بتصرفنا جميع قواتها المتوافرة لديها (والتفت نحو « بانيون ») حضرة المدير ! هل نستطيع الاعتماد على جميع مفرزة المفتشين لديك ؟

ـ إنها بتصرفك .

وعضعض « هارفي هودسون » طرف سيكار جديد . وقال :

ـ ايها المفتش العام « فلدمان » ، ما هي ، حسب رأيك ، الطريقة الفضلى لتوزيع قوانا ؟

ـ فرقاً فرقاً ، كما يحدث في جميع العمليات الكبيرة حيث يكون العمل مشتركاً . شرطي مع مفتش من قبلنا .

واخرج « هودسون » من جيبه الصغير سيكاراً قدَّمه للمفتش النيويوركي ، بحركة احتفالية تشبه حركة قائد هندي يعرض المصالحة .

ـ كل شيء على ما يرام ، ايها الرئيس .

ونهض عندئذ ، ودار حول الطاولة ، وتوقَّف أمام خارطة نيويورك التي كانت تغطي مؤخر مكتبه . وقال ، فيما كان يمصُّ سيكاره :

ـ يجب قسمة قواتنا الى عدة زُمَر . (واشار بسيكاره الى ارصفة « بروكلين ») ووضع زُمْرة هنا ،

واخرى هناك (وكان قد دلّ على المطارات) والثالثة يجب ان تحقق بصورة منتظمة في جميع الأمكن المعتادة والفنادق ووكالات تأجير السيارات والتشدُّد في استنطاق جميع المخبرين لمعرفة ما اذا كان اي شخص قد وفرّ للإرهابيين مخبأً او طريقاً للهرب او سلاحاً او اية تسهيلات أخرى من هذا النوع .

وكبح « فلدمان » فترة نفاد صبر ، وقال :

- يا عزيزي « هودسون » ، ان من يستمع اليك يخال أن لدينا ثلاثة أسابيع للعثور على هذه القنبلة . واذا ما اردنا ان يكون لنا حظ ، فيجب تجنب بعثرة جهودنا . لا بد من البدء بتوجيه جميع كشّافاتنا على اولئك الذين سوف يستطيعون القيام بمثل هذه العملية . هل لديك فكرة ، انت ، عن نوع الأشخاص الذين قد يقومون بمثل هذا ؟

وأشار « هودسون » الى خبير المكتب الفلسطيني بأن يتولىَ الإجابة .

وشرح الشرطي الشاب قائلاً :

- بصورة عامة ، إن إرهابيين من هذا النوع لا بدّ ان يكونوا منظمين تنظيماً ممتازاً . ولديهم المال الكافي لكي لا يلاحظهم احد إطلاقاً . اعني انهم ليسوا مُلزمين بالبحث عن مخابىء في اكواخ « برونكس » القذرة او لدى متشرّدي « بَوْري » . ولقد تعلموا منذ زمن بعيد ان الطريقة الفضلى لكي ينصهروا في المجموعة هي ان يظهروا بمظهر البورجوازيين الميسورين . وفضلاً عن ذلك ، فهم يميلون الى البقاء فيما بينهم . ويبدو أنهم لا يثقون كثيراً في الحركات الثورية الأخرى .

وأوضح المفتش العام قائلاً :

- وأضيف بأنه اذا ما اردت تدبير مثل هذه العملية ، فيبدو انك لن تعهد بها الآ الى اشخاص يعرفون البلاد وسبق ان أقاموا فيها . اما الأشخاص الذين يفدون إليها لأول مرة ، فإنهم سوف يجازفون بترك الكثير من العلامات وراءهم .

ووافق « سليزبوري » ممثل الوكالة المركزية للاستخبارات ذو اللحية الصغيرة قائلاً :

- المفتش « فلدمان » معه كل الحق . واحب ان اضيف شيئين : يمكننا ، على الأرجح ، ان نعتبر اننا نواجه اشخاصاً متطورين الى حد بعيد ويعملون برباطة جأش ويعون بأن حظوظهم في النجاح طفيفة وانها تتطلب تنظيماً كاملاً .

ومن جهة ثانية ، يتراءى لي ان نوع المحترفين الذين قد يعهد اليهم القذافي بمثل هذه العملية ، ينبغي ان يكونوا قبلاً قد تركوا اثراً ما في بطاقات دوائر الاستخبارات الدولية . ونحن على اتصال بجميع الدوائر الأجنبية التي تمتلك معلومات عن الإرهابيين الفلسطينيين . وسوف نتلقى جميع الصور والاوصاف المتوفرة . واقترح ان ننتقي الإرهابيين من مستوى معين الذين اقاموا هنا وان نُركز جميع جهودنا عليهم .

وقال « فلدمان » قلقاً :

- كم سيبلغ عدد هؤلاء الأشخاصّ حسب رأيك ؟

وبدا « سليزبوري » يُفكّر .

- يوجد حوالي اربعمائة إرهابي فلسطيني معروفين ومحدّدي الهوية يتجولون عبر العالم . وأتصور ان بينهم خمسين الى خمسة وسبعين ممن تنطبق عليهم معاييرنا .

وهزَّ المفتش العام رأسه :

ـ هذا كثير ، كثير جداً . اذا كان العمل كالذي نحن بصدده ، فينبغي ان لا نركض وراء ارنبين او ثلاثة.يا عزيزي ، اذا اردت ان تساعدنا في انقاذ هذه المدينة فيقتضي ان تعطينا وجهاً او وجهين ، وليس صالة عرض للصور .

* * *

قدَّم احد الشرطيين شارته الى موظف مكتب الاستقبال بقدر من التحفظ لم يستطع الشاب معه ان يتحقق من زائريْه قبل ان يسمع كلمات : مكتب التحقيق الاتحادي . وفي الحال وقف وقفة تأهب ، على غرار اغلبَ الأشخاص الذين يجابهون بفظاظة ممثل القانون الاتحادي .

ـ هل استطيع ان اطَّلع على سجل الزبائن ، لو سمحت ؟

وبادر الموظف الى تقديم سجل فندق « همشير هوس » ذي الغطاء الأسود . وأخذ المأمور يمرُّ بسبابته على الصفحات وتوقف عند العنوان التالي : بيروت لبنان ، شارع الحمرا ـ ليندا نهر . ودوَّن على دفتره : « شقة رقم ٣٢٠٢ » بعد أن القى نظرة على لوحة المفاتيح . ولم يكن مفتاح الشقة في مكانه .

ـ هل السيدة نهر في غرفتها ؟

واجاب موظف الفندق :

ـ اوه ! لقد فاتتك لتوِّها . ولقد تركت الفندق منذ نصف ساعة تقريباً . ولكنها قالت إنها سترجع بعد اسبوع .

ـ هل قالت لك الى اين ذهبت ؟

ـ ـ الى المطار ، لتستقل الطائرة الى كاليفورنيا .

ـ هل تركت عنواناً لإرسال بريدها اليه ؟

ـ لا .

وأصبح صوت الشرطي الأول ودياً :

ـ هل تتلطّف وتحدثنا قليلاً عن السيدة نهر ؟

وبعد عشر دقائق كان المأموران يعودان الى سيارتهما . لقد كان الموظف قليل التعاون الى حد بعيد .

ـ ما رأيك في ذلك ، يا فرنك ؟

ـ أعتقد اننا نضيع وقتنا على الأرجح .

ـ وأنا أعتقد ذلك ايضاً ، الا اذا كانت قد قررت السفر هذا الصباح ، اليس كذلك ؟

ـ لماذا لا نطلب الى مخبرك ان يكون اكثر تشدداً في اتصاله ؟

ـ هذا يعني ان نطلب منه الكثير . ان « ريكو » يتعاطى على الأخص مع الأشرار (ونظر المأمور الى ساعته) فلنذهب للتحقق من لوائح المسافرين لمعرفة أية طائرة استقلت . وسنعمد الى تكليف من يلزم لاستنطاقها لدى وصولها الى كاليفورنيا .

***

أعلن مدير الشرطة بحزم لفت اليه جميع الأنظار قائلاً :

- لقد نسينا جميعاً شيئاً رئيسياً ، وهو هل أننا سنطبق تعليمات السرِّية الصادرة عن البيت الأبيض على الأشخاص المكلفين بالتحقيق ؟

وأجاب « هودسون » بخشونة :

- كلا ، بكل تأكيد ، اذ كيف سيكون بالامكان اعطاؤهم التعليلات وتشغيلهم بحميّة ، كما لم يسبق ان اشتغلوا في حياتهم ، وحملهم على الاعتقاد بأن حياة ملايين الناس بين ايديهم ، دون ان تُقال لهم الحقيقة كلها ؟

وارتسمت علامات الذهول على عيني المدير الزرقاوين .

- تعني أنك ستبلِّغ رجالي بأن ثمَّة قنبلةهيدروجينية مخبأة في هذه الجزيرة وانها ستنفجر بعد بضع ساعات وانها ستمسح هذه المدينة من وجه الأرض ! انك لا تفكر بذلك ، إنهم بشر . وسيستولي عليهم الذعر . هل تعلم ما هو الشيء الأول الذي سيقولونه لبعضهم البعض ؟ « هيا ، انا عندي اولاد هنا . يجب ان استدعي زوجتي . اذهب بسرعة واستحضر الصبية من المدرسة واسرع حالاً عند امك في « ماساشوست » .

- يبدو ، بصورة غريبة ، ان ثقتك برجالك ضعيفة يا حضرة المدير .

وقذفت عينا « ميخائيل بانيون » (كانتين دوينغ) مدير مكتب التحقيقات الاتحادي القادم من واشنطن ، بنظرة حادة .

- إنني اثق ثقة تامة برجالي ، يا سيد « دوينغ » ولكنهم ، هم ، لا يأتون مثل رجالك من « مونتانا » أو « داكوتا » الجنوبية او « الأورغون » . بل يأتون من بروكلين والبرونكس والكوينز . لديهم زوجاتهم وأولادهم ووالداتهم وأعمامهم وعماتهم واصحابهم وحبيباتهم وكلابهم وهررهم وعصافيرهم ، وقد علقوا في الفخ في هذه المدينة ، إنهم بشر . وليسوا « سوبرمانات » كرجالك . واستطيع ان أقول لك شيئاً يا سيد « دوينغ » ، ينبغي ان تكون حكايتك حقاً صحيحة والا سينتشر ذعر في المدينة لا تستطيع أنت ولا أحد سواك ان يتخيل مثيله .

***

رفعت الصحفية « غريْس نولاند » ياقة فرائها لتحمي نفسها من الريح التي عصفت بها لدى خروجها من محطة مترو « شامبرز ستريت » عند اسفل مانهاتن . واجتازت بسرعة حديقة القصر البلدي المغروسة بأشجار الجميز حيث كان جورج واشنطن قد امر بقراءة إعلان الإستقلال على أهالي نيويورك ، وانزلقت على الثلج الجامد وكادت ان تقع . وغضبت مرددة في نفسها : « يا له من رئيس بلدية لا يستطيع تنظيف حتى أرصفته الخاصة ! » . وكانت تنتصب امامها واجهة القصر البلدي الضخمة ، التي تتميز بمزيج غريب من أسلوب بناء لويس السادس عشر والكلاسيكية الأميركية . وارتقت « غريس » بحذر الدرجات المجلّدة التي سار عليها العديد من الملوك والأمراء والرؤساء والعسكريين ورجال الفضاء والعلماء الذين كانوا يتلقون تكريم المدينة . وابتسمت لشرطي الحراسة وهي تدخل الى قاعة الصحافة مع « فكتور فراري » ، الناطق باسم رئيس البلدية . وأعلن الناطق حالاً وهو يفرك يديه :

- سيداتي ، سادتي ، لديَّ خبر مزعج أنقله اليكم . ان سعادته يأسف لعدم تمكنه من عقد مؤتمره الصحفي معكم هذا الصباح .

وانتظر « فراري » أن يهدأ سيل اللعنات والصفير الذي كانت كلماته قد أثارته . وكان تحمُّل المزاج السّيء لصحافة نيويورك احدى أقل المحن التي يتعرَّض لها من يتولى منصب الناطق الصحفي باسم رئيس بلدية نيويورك .

- لقد استُدْعِي رئيس البلدية الى واشنطن من قبل الرئيس لمناقشة بعض قضايا الموازنة ذات المنفعة المشتركة .

وانفجرت القاعة . فقد كان مرض مالية نيويورك المزمن يُغذّي منذ عدة سنوات أعمدة الصحف . « زيادة المعونة الاتحادية ؟ » ، « تخفيض المساهمة الحكومية ؟ » ، « قرض موازنة ؟ » وانطلقت الأسئلة كرشقة سهام .

اعتذر « فراري » وهو يرفع ذراعيه قائلاً :

- آسف ، ولكن يتعذَّر عليَّ إطلاقاً تحديد الموضوع الدقيق لهذه المحادثات المرتجلة .

وسألت « غريس » :

- متى تأمل عودة رئيس البلدية ، يا ڤكتور ؟
- في النهار ، وسوف ابلغكم ذلك .
- بواسطة المكوك الجوِّي كالعادة ؟
- بالتأكيد .

صاح احد مخبري التلفزيون :
- هل يمكن ، يا ڤيك ، ان يكون للأمر علاقة بمشروع إعادة اعمار جنوبي « البرونكس » ؟

وتسرَّبت من وجه « فراري » موافقة تكاد لا تدرك ، إختلاج سريع لعينيه يُشبه غَمْز لاعب البوكر عندما يجد بين يديه خمس اوراق ذات نقش واحد . ولاحظ هذا الأمر صحفي واحد : « غريس نولاند » وألحَّ « فراري » :

- اكرر لكم بأني لست مطلعاً على موضوع هذه الزيارة .

وانسحبت « غريس » بتخفظ حتى بلغت جهاز هاتف فطلبت « النيويورك تايمس » وخاطبت رئيس التحرير همساً :

- « مَيْرون ! هناك شيء ما في قضية « برونكس » الجنوبية . وقد توجَّه « سترن » الى واشنطن . أودُّ أن التحق به وأن أحاول الرجوع معه في المكوك
- موافق .

وقبل ان تنصرف ، قررت ان تجُري إتصالاً هاتفياً آخر . ورنّ رقم مكتب المفتش « روكيا » بشكل لا ينتهي ، الى أن أجاب اخيراً صوت مجهول :

- إنه غير موجود. لقد ذهبوا جميعاً الى اجتماع .

وفكَّرت « غريس » وهي تُعلّق السماعة ، « هذا امر غريب ، فلقد قال لي « انجلو » انه كان عليه ان يحرر تقاريره هذا الصباح . » .

وفيما كانت تنزلق نحو المخرج ، سمعت ضجّـة تتصاعد من الزمرة التي كانت لا تزال تحيط بالملحق الصحفي .

وصرخ احدهم :

ـ كل هذا عجيب ، يا « فيك » ولكن ، من قبيل مجرَّد الفضول ، هل يمكن معرفة متى تنـوي البلدية الانتهاء من تخليص الشوارع من هذا الثلج العاهر ؟

***

ـ حضرة الرئيس ، انك في حالة فائقة ! انك رائع ،هائل !

وكانت النعوت تفرقع كسلسلة من المفرقعات التي تُطلق ليلة رأس السنة . وحتى هناك ، في جوّ الألفة الذي كان يسود مكتب رئيس الولايات المتحدة الخاص والذي كان عبارة عن غرفة صغيرة ناعمـة مجاورة للمكتب البيضاوي الرسمي ، كان رئيس بلدية نيويورك لا يستطيع ان يكبح في نفسه غرائزه القديمة كسياسي يقوم بحملة انتخابية . واجتاز القاعة وهو يحجل ، كما لو كان مسيَّـراً بنصال ذات زنبرك .

ـ حقاً ، انك في أحسن حال .

وأشار الرئيس ، وكان شاحباً من السهـاد ، الى « أب سترن » أن يجلس على الكنبـة المشـمشية اللون ، وانتظر أن ينتهي رئيس المائدة من صبّ القهوة . وكانـت الموسيقـى تصـدح ، بأنغـام مُلطَّفـة « الفصول الأربعة » لفيفالادي .

وكان الرئيس يُـفضِّـل الجوّ الحميم لتلك الفرقة على مراسم المكتب المجاور ، حَـرَم سلطته وأعبائه وقيوده . وكان قد زخرفهـا ببعض الـذكريات الشخصيّة : بنـدقية الفتيلـة التـي أهدتـه اياهــا ميليشيا « جورجيا » وصورة زيتية لزوجته وابنتهما رسمت غداة انتخابه،وصورةلمعبوده ، الأميرال « ريكوفر » مع هذا الاهداء ـ الاستفهام الذي كثيراً ما تأمله : « لماذا لا نتوق الى الأفضل ؟ » .

والى جانب المحبرة ، كان قد وضع اللوحة الشهـيرة التـي كانـت تزين سابقـاً مكتـب « هـاري ترومان » والتي كان نصها يُلائم دوماً أيّ ظرف :

« اعتباراً من هنا ، لن نتقاذف الكرة » .

وصاح « سترن » مبتهجاً بعد ان كان رئيس المائدة قد غادر القاعة :

ـ إذن ، سيُـتاح لنا أخيراً ان نتحـدث عن تمـويل اعـادة إعمار « برونـكس » الجنـوبية ، أليس كذلك ؟

وضع الرئيس فنجانه على الصحيفة :

ـ آسف ، يا « أب » إنني مضطر لأن أخيب أمَـلَك . فليس هذا السبب الذي دعوتك من أجله للحضور .

ورفع رئيس البلدية حاجبيه ، دَهِـشاً .

ـ أمامنا أزمة هائلة فوق ذراعينا ، يا « أب » ، وهي تخض مدينتنا .

وأطلق « سترن » صوتا كان في آن تنهداً ونخيراً .

ـ آه ، يا حضرة الرئيس ، ليس هذا بَـعدُ ، نهاية العالم . فالأزمات تروح وتجيء . وقد تغلَّـبت عليها نيويورك دوماً وعاشت بعدها .

وغشيت عيني الرئيس غلالةُ ، فيما كان يتأمل الرجل القصير الماثل أمامه :

ـ انت على خطأ ، يا حضرة رئيس البلديه ، فنحن هذه المرة أمام ازمة قد لا تستطيع نيويورك ان تبقى بعدها .

القسم الخامس
« سوف تتطاير ناطحات السحاب عبر الفضاء »

تسلّق « هارفي هودسون » مدير مكتب التحقيقات الاتحادي درجات قاعة المحاضرات للقيادة العامة في « فدرال بلازا » أربعاً أربعاً . وكان يتبعه مدير الشرطة ورئيس مفرزة المفتشين . وفي حين جلس هذان الأخيران بين سارية علم مدينة نيويورك ، وراية مكتب التحقيقات الفدرالي الزرقاء الذهبية ، كان « هودسون » يتقدّم نحو المقرأ عن طرف المنبر ، وكان يمسك بين أسنانه رابع سيكار له في ذلك اليوم ، كانوا قد قاموا بعمل سريع . وكانت الساعة التاسعة تقريباً ، ذلك الأثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول . وشمل « هودسون » بنظرة مطمئنة القاعة الفسيحة الغاصة بالحضور، واخذ نفساً بطيئاً ووضع سيكاره وهو ينحني نحو مُـكبّر الصوت قائلاً :

ـ ايها السادة ، ثمّة حادث مؤلم يربكنا .

وأثار هذا الاستهلال ارتعاشا تبعه اصغاءً صامت .

ـ لقد اقدمت جماعة من الارهابيين الفلسطينيين على دسّ برميل كلور في نيويورك ، في جزيرة مانهاتن بصورة تكاد تكون أكيدة .

وخلف « هودسون » كان المدير « بانيون » يُلاحظ وجوه مفتشيه ويحاول قراءة ردود فعلهم . وتابع « هودسون » قائلا :

ـ انا متأكد انه غير ضروري ان اذكركم بخصائص الكلور السامّة الى أقصى حد : فأنتم تذكرون جميعاً ما حدث في كندا مؤخراً بمناسبة حادث سكة حديد . وفي هذه اللحظة بالذات ، يُهدّد برميلٌ من الكلور دُسَّ في مكان ما من هذه المدينة،السكانَ بالموت . وأنتم تعلمون أيّ ذعر سيستولي على السكان اذا ما علموا بذلك . لذلك فاني أناشد شعوركم بالمسؤوليات وأطلب منكم بالحاح ان تحيطوا بالسرِّية التامة ما سوف أقوله لكم .

وكان مفتشو الشرطة النيويوركية رجالاً اشداء ، ولكن علامات الرعب التي ارتسمت على كثير من الوجوه ، جعلت المدير « بانيون » يرتجف ، يا إلهي !ماذا كان سيحدث لو قلنا لهم الحقيقة ؟ وشرح « هودسون » بقية السيناريو الذي تخيّله بالاشتراك مع بانيون . و« فلدمان » : كانت مفرزة مغاوير فلسطينيين تتواجد في نيويورك ، ولديها اوامر بتفجير ذلك البرميل من الغاز القاتل اذا لم يطلق بيغن سراح عشرة من رفاقهم المعتقلين حالياً في السجون الاسرائيلية ، قبل ظهر الغد .

وظهر عندئذ على الشاشة خلف الخطيب ، تكبير لرسم قنبلة القذافي الهيدروجينية ، أُخفيت جوانبها النووية بعناية فائقة .

ـ إن بعضكم سيكلفون بمطاردة الارهابيين ، والبعض الآخر سيعمدون الى اجراء التحريات في كل قطاع على حدة . وسيمشِّط غيرهُم تمشيطاً دقيقاً المطارات والأرصفة والمستودعات في محاولة لاكتشاف كيف ان هذا الغاز وصل الى نيويورك . وستنقسمون الى مفارز ، وستتعاون شرطة نيويورك مع مكتب التحقيقات الاتحادي ، وستعمل كل مصلحة مع المصلحة المقابلة لها : مكافحة العصابات مع مكافحة العصابات ، مكافحة الخطف مع مكافحة الخطف ، مكافحة المتفجرات مع مكافحة المتفجرات ، وهكذا دواليك .

وصاح احدهم من داخل قاعة المحاضرات :

- يا إلهي ، لماذا لا يُوعَز الى الاسرائيليين بإطلاق اولاد البغايا الذين يحتجزونهم !

وكان « بانيون » ينتظر ردة فعل من هذا النوع . وأومأ الى « هودسون » ونهض فاستلم المكبِّر وقال بحزم :

- هذه المسألة تعني الاسرائيليين ، ولا تعنينا . والمسألة التي تعنيكم انتم هي العثور على هذا البرميل السيِّيء.

وتوقَّف « بانيون » ، ولخَّص مُرْعِداً :

- إني أعتمد عليكم أيها الشباب . سوف تجدون هذا البرميل ! والى العمل سِراعاً !

***

اقترب مفتش الحراسة عند المدخل الرئيسي لنظارة المالية ، من الرجلين اللذين نزلا من سيارتهما السوداء الرسمية ، طراز فورد . والقى نظرة على أوراقهما وتثبَّت من أنهما موظفان كبيران في نظارة الدفاع فأشار اليهما بأن يتبعاه في بهو الوزارة . وقادهما الى باب ثقيل عليه عبارة « مخرج » وانزلهما طابقين حتى تحارض المبنى ثم قادهما الى باب ثانٍ مقفل ، عبر ممر قليل الإنارة . وكان يؤدي الى دهاليز البيت الأبيض السرِّيـة ، ذلك النفق الذي يمر تحت الـ « ايست اكسكيوتيف افنيو » والذي سلكه الرئيس عند العشيَّة ليتوجَّه متنكـرا الى « البنتاغون » .

وكان « دافيد هانون » ، البالغ اربعة وخمسين عاماً ، المسؤول عن وكالة السلامة المدنية . وكان معاونه ، « جيم ديكسون » إختصاصياً في نتائج الأسلحة النووية . وقد خصص الاثنان القسم الأكبر من حياتهما المهنية لدرس موضوع مُرعِب ، إبادة المدن والأرياف والسكان الأميركيين بالأسلحة النووية والنووية الحرارية ، وكان الشيء الذي لا يمكن تخيّله عادياً بالنسبة اليهما ، كما تبدو الموازنة بالنسبة الى خبير في المحاسبة . وكانا قد توجَّها الى هيروشيما والى ناغازاكي ، وتابعا الرمايات التجريبية في صحارى « نافادا » ، وصمما المنازل الاستعمارية الأنيقة واشرفا على بنائها وكذلك البناغل(×) الجميلة والتماثيل بالحجم الطبيعي التي اجرى عليها المخططون العسكريون في الخمسينات قياسات نتائج تطورات الأسلحة النووية المتتابعة .

وأمرَّهما الدليل تحت البيت الأبيض وقادهما عبر سلَّم مخفيّ الى الجناح الغربي الذي يضم مكاتب الرئاسة وقاعة مجلس الأمن القومي . وهناك اخذهما على عاتقه قائد في هيئة اركان البحرية . وقال لهما الضابط بعد أن عيَّن لهما كُرْسيين سَهْلَيْ الطيّ وضعا الى جانب الباب :

- لقد ابتدأ المؤتمر لتوِّه . وستستدعيان بعد لحظة .

***

كان اعضاء لجنة الأزمة قد عادوا الى مكانهم حول طاولة المؤتمر . وكان الرئيس قد اجلس رئيس بلدية نيويورك الى يمينه . وكانت الساعة ذات الأرقام المُعلَّقة على الحائط تشير الى التاسعة وثلاث دقائق . وكانت قد انقضت تسع ساعات منذ التفجير الذي أُجري في صحراء ليبيا .

(×) جمع « بنغل » وهو بيت من طابق واحد في الريف وعلى شاطيء البحر .

واستهلَّ الرئيس قائلا :

ـ لقد اطلعنا حاكم ولاية نيويورك على الوضع بواسطة الهاتف . ومن جهة ثانية ، فقد قمت لتوِّي بشرح الموقف ، بنفسي ، لحضرة رئيس البلدية ورجوته ان ينضم الينا . ولما كان التهديد يطال في آن مدينته ومواطنيه ، فقد استثنيناه ، من الاجراءات العادية المُتعلِّقة بسرِّية مداولاتنا .

وأشار برأسه باتجاه الأميرال « بنينغتون » ، وحسب التقليد ، كانت اجتماعات مجلس الأمن تبدأ دوماً بشرح من مدير الوكالة المركزية للاستخبارات .

ـ ما ان تلـّقت سفارتنا في « تل ابيب » تلك المخابرة الهاتفية المُغْـفلة المُـعلنة قرب حدوث قصف إسرائيلي على ليبيا ، حتى تدخَّلنا لدى السوفيات وطلبنا اليهم الضغط على اسرائيل . وقد أثمر ذلك حالاً عن الأثر المطلوب . وقد اكَّد لنا « ألنت »(×) الأسطول السادس أن الاسرائيليين ألغوا هذا الصباح عند الساعة ٣/٤٨ هجوما نووياً ضد ليبيا . واعتقد أنه يمكننا اعتبار المُـوقف مُـرْضِياً من هذه الجهة .

وأجاب مدير الوكالة المركزية للاستخبارات بايماءة من رأسه على همس الارتياح الذي كان اعلانه قد أثاره .

ـ ومن جهة ثانية تجهد الوكالة المركزية للاستخبارات لايجاد أية إشارة تسمح بتهديد هوية الأشخاص الذين تمكَّنوا من وضع هذا السلاح في نيويورك لحساب القذافي (وتوقَّـف)ولسوءالحظ ، لم نتمكن حتى الآن من الحصول على شيء ملموس .

وسأل الرئيس :

ـ هل أجاب القائم بالأعمال في طرابلس على رسالة « ايسمان » الذي طلب اليه بموجبهـا ابـلاغ القذافي انني ارغب في التحدث اليه ؟

ـ كلا ، حتى الان . وإن طائرتنا « بوينغ كاتستروف » متواجدة في تلك الأمـاكن ، في مطلـق الأحوال ، وهي على استعداد لاجراء الاتصال فور حصولنا على موافقة طرابلس .

ـ حسن .

وهذا الجواب الموجَز كان يحمل على الاعتقاد بأن الرئيس كان مقتنعـاً انـه ، اذا ما تم الاتصـال بالقذافي ، سوف يتمكّن من إقناعه وحمله على القبول بحل معقـول ، وذلك بمناشـدة عواطفـه الـدينية وعقله .

ـ تـاب ، ما هي حرية المناورة التي يملكها القذافي حسب رأيك ؟ هل يقود سفينته وحده ؟ هل هو وحده سيِّد قراراته ؟

ـ بالتأكيد . فالجيش والشعب والبلاد بأسرهـا تدين بالـولاء له . ولا شيء ولا احـد يعترضـان ارادته .

زمَّ الرئيس شفتيه ودقَّ على الطاولة . ثم التفت نحو مدير مكتب التحقيقات الاتحادي :

ـ سيِّـد هولبورن ؟

وفيما كان كل مشترك يؤدي حساباً عن نشاطات دائرته خلال الساعات الأخيرة ، كان رئيس البلدية « أب سترن » لا يزال تحت التأثير المُـرْعِـب لما سارَّه به رئيس الدولة . ولما اعلن الأميرال « فولر » ،

(×) جهاز الاستماع والتعيين الالكتروني .

رئيس لجنة رؤساء أركان الحرب ، ان حاملات الطائرات والغواصات النووية التابعة للأسطول السادس كانت تقترب من وجهتها في عرض الشواطىء الليبية ، انحنى الى الأمام وشبّـك يديه الصغيرتين السمينتين على الطاولة . وكان يشعر بأنه يعيش كابوساً .

ـ أيها السادة ، لقد كان الاسرائيليون على حق (واتجهت جميع الوجوه نحو الرجل العجوز) . . وما كان ينبغي ان نكرههم على العدول عن ردهم . ويجب ان يكون هدفنا الوحيد تصفية هذا الممسوس .

ولاحظ « ايسمان بهدوء :

ـ يا حضرة رئيس البلدية ، ان همَّنا الأول هو المحافظة على سكان مدينتك .

ولكن لا شيء كان يستطيع وقف « أب ستر ن » وكان وجهه قد اصبح قرمزيا . وكان التدمير ، كما يصفه سِفر الرؤيا ، الذي كان يهدد مدينته ، قد أفقده كلَّ اتّـزان .

ـ هذا العربي ليس إلا هتلراً جديداً . فهو لم ينقطع منذ عشر سنـوات عن خرق جميع مبـادىء الأخلاق الدولية . وقد قتل ودمَّر وأرهب في جميع أنحاء الكرة ليفرض ارادته . وقد أباد لبنان بماله وأغرق بيروت بملايينه بواسطة (ولنقل ذلك بالمناسبة) مصارفنا الأميركية الطيبة . وهو وراء الخميني . ويسعى الى ازالة جميع أصدقائنا في الشرق الأدنى من السادات الى السعوديين والى دمارنا بقطع البترول عنا . وقد بقينا كل ذلك الوقت مُسندين مؤخرتنا الى الكراسي تاركين اياه يتصرف ونحن نزحف على بطوننا ، على غرار تشمبرلن امام هذا الفوهر ر الجديد .

والتفت « ستر ن » نحو الرئيس واستجوبه مباشرة :

ـ وشقيقك المُـهرِّج غـمَـر نفسه بالسخرية وغمرك بها ايضاً ، يا حضرة الـرئيس ، عندمـا راح يتغنّى ، عبر البلاد ، بمدائح هذا المسخ . . . أمثال هؤلاء الأغبياء في الحزب الألماني ـ الأميركاني الذين كانوا ينبحون في شيكاغو عام ١٩٤٠ : « هايل هتلر » .

وتوقف قليلاً ليستعيد انفاسه واستأنف يقول :

ـ والآن ، لقد وضع قنبلة هيدر وجنية في مدينتي ووسط عشيرتي ، ومع ذلك فانكم تتضرعون اليه راكعين وستعطونه ما يطالب به ، هذا المتعصِّـب ! بدلاً من تصفيته !

وتدخَّـل الأميرال « فولر » :

ـ المسألة يا حضرة رئيس البلدية هي أن تصفية ليبيا لن تُـنْـقِـذ نيويورك .

ـ هذيان !

ـ ومع ذلك ، فهذا واقع .

ـ لماذا ؟

ـ لأن تدمير ليبيا لن يحول دون انفجار القنبلة . بل على العكس تماماً .

وضرب رئيس البلدية الطاولة بكلتا يديه ، ونهض نصفياً وهو يرتجف من الغضب فألقى نظرة حارقة على رئيس الأركان الجالس بهدوء عند طرف الطاولة .

ـ إنك هنا لتقول لي انه بعد المليارات ومليارات الدولارات التي أغرقناها خلال السنوات الثلاثين الأخيرة في آلتك النووية الشيطانية ـ تلك المليارات التي كانت مدينتي بأمس الحاجة اليها والتي لم تستلمها مطلقاً بعد كل ذلك تقول لي ان جيوشك عاجزة عن انقاذ شعبي ، وعاجزة عن إنقاذ مدينتي من أطماع

ديكتاتور أسوأ مئة مرة من الخميني ، يقوم على رأس بلد ليس إلاّ رملاً وبعر جِمال !

ولاحظ أحد الحضور :

ـ إنك تنسى البترول !

فاتخذ وجه الأميرال العَظْمي هيئة حزينة لكلب صيد عجوز .

ـ ليس ثمة إلاّ وسيلة واحدة لانقاذ مدينتك ، بشكل أكيد ، يا حضرة رئيس البلدية ،هي العثور على القنبلة وتعطيلها .

****

ـ من أعطوك ؟

كان المفتش من الفئة الأولى ، « أنجيلو روكيا » ينشف يديه تحت نافخ الزينة ، عندما طرح هذا السؤال على زميله العجوز « هنري لودويغ » .

ولفت « لودويغ » رأسه الضخم الغزير الشعر نحو زنجي طويل جَعْد الشعر :

ـ ذلك الشخص هناك ، وأنت ؟

وأشار « انجيلو » بنظرة احتقار الى مأمور مكتب التحقيقات الاتحادي الشاب الذي كان يُمشِّط خصلاته الشقراء على بعد عدة مغاسل من مغسله . ثم صعَّد تنهُّدة تعب منحنياً نحو المرآة يتفحَّص وجهه . وشاهد بعض الآثار الباهرة للمرهم المضاد للتجاعيد الذي كان يضعه تحت عينيه وعند ملتقى شفتيه ، منذ علاقته مع صُحُفيَّة « نيويورك تايمس » « غريس نو لاند » . ونفض الغبار بعناية عن سترته ، لأن التأنق والشراهة كانا نقيصتيه الاثنتين . وكان رفاق « انجيلو روكيا » يتمازحون قائلين إن أمواله تُصرف في اتجاهين : معدته وثيابه . ولم يكن يلعب بالورق ولا يراهن على الخيل ولا يطارد النساء . ولكنه كان يرتدي بزات من محل « تريبلر » بثلاثمئة وخمسين دولاراً ، مثل تلك البزَّة الكحلية التي كان يتباهى بها ذلك اليوم فوق قميص من الحرير ذي كتابة بالأرقام وازرار عند حاشية الأكمام وربطة عنق من البروكار الأبيض،وحذاء لامعاً مُستدِّق الرأس من محل « سكرنيلاند » . ومنذ أول عهده في المهنة كان قد أدرك ان الأناقة والاعتبار يسيران يداً بيد وان الشرطي المتأنق يفرض هيبته على زعماء سفلة الناس .

وهمهم قائلاً :

ـ قل لي ، يا هنري ! أتريد الصراحة ؟ حسناً ، هناك شيء يزعجني في هذه العملية ، شيء ضخم جداً . ان مكتب التحقيقات الاتحادي غارق في القضية حتى الأذنين . وكذلك جماعة المالية والجمارك . حتى انني لاحظت جماعة من الاسعاف أيضاً . كل ذلك ، من أجل برميل الغائط ؟

ودون ان ينتظر الجواب ، اقترب من الشرطي الشاب الذي كان قد عُيِّن زميلا له . وصاح متعجباً ، فيما كان يُلقي نظرة شفقة على قطعة القماش الضيقة التي كانت تتدلى من عُنُق « جاك رند » :

ـ مرحباً ايها الصديق ! لديك ربطة عنق أنيقة ، فأين اشتريت هذه الرائعة ؟

ـ انت تجدها حقاً رائعة ؟ لقد اشتريتُها من محل « براون » ، مخزن « دانفر » الكبير .

ـ « دانفر » ؟ لقد قطعت اذن العديد من الكيلومترات لتأتي الى هنا ! هيَّا لنرى اين يريدون ارسالنا .

وفيما كان « انجلو » ينطق بهذه الكلمات ، كان يجرُّ الشرطي .

وكان اثنا عشر مكتباً معدنياً مصفوفة بشكل مربَّع في قاعة كبيرة مجاورة حين كان مأمور من مكتب التحقيقات المركزي وشرطي نيويوركي يُعينان لكل فرقة مهمتها . والى أبعد من هناك كان بعض الشرطيين يوزعون دورات الخدمة ورموز الاتصالات بالراديو والأجهزة المعيَّرة وفاقاً لتواترات مكتب التحقيقات الاتحادي السرِّية . وكان الارتباك الشديد يسود حول الطاولات . وكان بعض المفتشين يصرخون مطالبين بسيارات مُبذَّلة والبعض الآخر يعرب عن قلقه بشأن دفع قيمة الساعات الاضافية وغيرهم كان يشتم اليهود والعرب دون تمييز .

وشعر « انجيلو » بيد تلمس ظهره . ولما التفت شاهد المفتش العام « فلدمان » ينحني على أذنه :
ـ ستبذل جهداً كبيراً ، يا انجيلو ، حتى الموت ! ولا تهتم بشيء : لا بالاعتراضات ولا بالاحتجاجات ولا بالتهديدات . . . إننا نغطيك ضد كل ذلك .

وتوجَّه« فلدمان » حالاً ليبحث عن أذن اخرى يدسُّ فيها الرسالة نفسها . وكان زميل « انجيلو » الشاب في الفرقة قد رجع مع ورقة تحدد وجهتهما . وتفحَّصها النيويوركي ثم تأمل في الجمهور الذي كان يزدحم أمام الطاولة حيث كانت توزع اجهزة الراديو وقال في نفسه انه من المرجح ان يقضوا النهار كله وهم ينتظرون في الصف . واقترب بحذر فانحنى ملتقطاً جهازاً خبّأه تحت ذراعه وتوارى . وقفز شرطي بنظارتين :
ـ يا هذا ! أين تعتقد أنك تستطيع الذهاب بهذا ؟
وثار « أنجيلو » :
ـ أين أذهب ؟ الى أرصفة بروكلين حيث قيل لي أن أذهب . اين تريدني ان اذهب ؟ الى ميدان السويبستك(×) ؟

وصاح الشرطي غاضباً :

ـ لا يمكنك ان تذهب هكذا دون ان توقع ايصالاً . يجب أن توقع أولاً ايصالاً . ايصالاً مع التاريخ .

وبدا « انجيلو » تَعِباً ، ودمدم ، وهو يهزُّ زميله من ذراعه :
ـ هل تصدِّق هذا يا بُني ؟ هناك في مكان ما برميل غاز على استعداد لقتل العديد من الناس ولا بدّ من توقيع وريقة قبل التوجُّه للبحث عنه !

وأخذ الورقة التي كان المأمور الحَنِق يُلوِّح بها :

ـ إني أقسم لك انه حتى لو كان العالم على وشك الانفجار فسيكون هناك موظفٌ ديوانيٌ أبله يصيح بك : « دقيقة ! يا هذا ! يجب ان توقِّع اولاً ايصالاً . . » .

***

لأول مرة في حياته كان « دافيد هانون » المسؤول عن وكالة السلامة المدنية ، يجد نفسه وجهاً لوجه أمام رئيس الدولة . واخرج من جيبه قرصاً ازرق واحمر من البلاستيك بحجم صحن التحلية ووضعه على الطاولة .

(×) المراهنة على سباق الخيل .

وكان ذلك القرص الأداة التي لا يستغني عنها لأداء المهمة المرعبة المكلف بها ، وهي عبارة عن مسطرة لحساب نتائج القنابل النووية . وكانت تجيب على كل شيء :الضغط اللازم على السنتيمتر المربع لتحطيم لوح زجاج او احداث نزيف رئوي ، ودرجة الحروق التي تسببها قنبلة بقوة خمسة ملايين طن على مسافة سبعة وثلاثين كيلومتراً ، ومدى انتشار الاشعاعات المنبعثة عن انفجار ثمانين الف طن على بعد ثلاثمئة واربعة وثمانين كيلومترا والوقت اللازم لكي تقتل هذه الاشعاعات ضحاياها . . .

ـ إننا نصغي اليك يا سيد « هانون » .

وحنى الرجل القِصير رأسه باتجاه الرئيس وأصلح بحركة دقيقة ربطة عنقه المُقلّمة ، واستهل كلمته بلهجة وقار مصطنع كما لو كان عالم آثار يصف بقايا حضارة غابرة :

ـ ان وضع نيويورك ، لسوء الحظ ، فريد في نوعه ، بسبب ناطحات السحاب . . . لقد ركّزنا أعمالنا على الأضرار التي سوف تُنزلها بالروس ، اكثر مما ركّزناها على الأضرار التي سوف يُنزلونها بنا . ولما لم تكن لديهم ناطحات سحاب ، فإننا نجد انفسنا اليومَ ازاء وضع تنقصنا بشأنه . . . (وبحث عن الكلمة المناسبة) ـ المعطيات . ولكن ثمة شيء أكيد : فالأضرار التي سوف تحدثها قنبلة بقوة ثلاثة ملايين طن في « مانهاتن » تتحدىَّ الخيال (ومسح جبينه مستديراً نحو خريطة نيويورك التي كان معاونه قد علّقها على الحائط لتوّه) هذه الخريطة تعطيكم تقديراً تقريبياً للدمار وللخسائر البشرية .

وكانت اربع دوائر مشتركة المركز ، محورها « تيمس سكوير » في قلب مانهاتن تشمل على التوالي المدينة كلها وضواحيها . وعيّن « هانون » قسم المدينة الواقع داخل الخط الأحمر للدائرة الأولى .
وكان هذا القسم عبارة عن قطاع قطره خمسة كيلومترات يشمل ، فما لو نُقِل الى التجمّع الباريسي ، المساحة الواقعة بين قوس النصر وبرج ايفل واللوفر وقلب يسوع في مونمارتر .

ـ لن يبقى شيء داخل هذه الدائرة ، ما عدا البقايا المحترقة .

قال الرئيس ، وقد أذهله الرعب :
ـ لا شيء ؟ حقاً لا شيء ؟
ـ لا شيء ، يا حضرة الرئيس . سيكون الدمار كاملاً .

وتمتم « ايسمان » :

ـ هذا شيء لا يمكن التفكير به .
وكان يفكّر بالمنظر الشامل لجزيرة مانهاتن الذي كان يكتشفه بتأثر بالغ ، كلما توجّه الى نيويورك ليقضي فيها عطلة نهاية الأسبوع مع زوجته وابنتهما كاتي . وكان ينظر ثانية الى تلك الأسوار المتلألئة من الزجاج والفولاذ التي كانت تمتد من مركز التجارة الدولية الى « وول ستريت »وما وراءه : كل ذلك سوف يمكن ابادته في لحظة ! هذا هراء ، مجرد كابوس وعاصفة في رأس بيروقراطي انتزعت دماغه الحسابات .

ـ فلنتبصّر يا حضرة الخبير ، إن بعض هذه المباني القديمة هناك مشيّد كالقلاع !

واجاب « هانون » ، رابطَ الجأش :
ـ إن ذبذبة قنبلة من هذا النوع سوف تحدث اعصاراً لم يسبق ان هبَّ مثله على الأرض .
ـ حتى في « هيروشيما » و« نغازاكي » ؟

ـ إنها قنابل ذرية بسيطة وليست قنابل هيدروجينية تلك التي القيناها على هاتين المدينتين ، والحقيقة انها كانت قنابل بدائية . والرياح التي اطلقتها لم تكن الا أنسام صيف خفيفة اذا ما قيست بتلك التي نتوقعها في الحالة الحاضرة .

ودلّ الخبير ذو الشعر الأشيب مجدداً على الدائرة الحمراء التي كانت تُطوّق قلب جزيرة مانهاتن : وول ستريت وغرينويش فيلاج والشارع الخامس وبارك افنيو وسنترال بارك والايست والوست سيدس .

ـ لقد علّمتنا تحقيقاتنا في المدينتين اليابانيتين المقصوفتين بالقنابل الذرّية ان المباني الحديثة من الفولاذ والأسمنت نُفِخت بكل بساطة . « بوف » ! هكذا (وفرقع « هانون » أصابعه) في حين أنكم سترون ، مع العاصفة التي ستطلقها القنبلة الهيدروجينية ، ناطحات السحاب تتطاير بكل معنى الكلمة عبر الفضاء . وسوف تُجرف كخيام شاطىء « كوناي ايلند » في يوم عاصف ، قبل ان تتفتت فيما بعد هباءً منثوراً .

والتفت الخبير مجدداً نحو مستمعيه . فقد كان متأثراً بموضوعه الى درجة ان المرء كان يحسبه يلقي محاضرة على الطلاب .

ـ ايها السادة ، اذا ما انفجر هذا السلاح حقاً فإن كل ما يتبقى من جزيرة مانهاتن سوف يكون كومة من الأنقاض يتصاعد منها الدخان .

وران صمت ثقيل . وانتصب خيال رئيس البلدية الرقيق . وكان جاحظ العينين شاحب اللون ، وسأل وهو يشير الى تلك الدائرة الحمراء التي سوف يعلق داخلها في الفخ خمسة ملايين نسمة على الأقل :

ـ والناجون من الموت ؟

ـ الناجون من الموت في ذلك المكان ؟ (ورفع هانون كتفيه) لن ينجوَ شخص واحد .

وانهار « أب سترن » على مقعده وقال متأوهاً :

ـ يا إلهي ! .

سأل « هربرت غرين » أمين الدفاع :

ـ هل ستشتعل المدينة بأسرها ؟

وشرح « دافيد هانون » قائلاً :

ـ ان الحرائق التي سوف تشبُّ لن يكون لها مثيل في التجربة البشرية . وستطلق تلك القنبلة موجة من الحرارة تُشعِل كل شيء الى مسافة عشرات الكيلومترات حول نيويورك . وفي « نيوجرسي » و« لونغ ايلند » وستاتن ايلند » و« وستشستر » سوف تلتهب عشرات بل مئات الألوف من المنازل كعود الثقاب .

وتفحّص خريطته :

ـ سيكون هبوب الذبذبة ، داخل الدائرة الأولى ، عنيفاً لدرجة أن من المحتمل ان يطفىء اكثر الحرائق . وسوف يُلطّف المفعول الحراري بعض الشيء بالستائر المُزجّجة للأبنية الحديثة في وسط مانهاتن . ولكن ماذا يوجد داخل هذه الأبنية ؟ سجّاد وستائر ومكاتب مغطاة بالأوراق ، وبعبارة أخرى وقود . سيكون ثمّة ، اذن ، آلاف المواقد . وبعد ذلك ، سيحيل الانفجار كلّ ذلك الى خرائب يتصاعد منها الدخان .

وتأوّه شخص عند طرف الطاولة :
- يا إلهي ، كل اولئك السجناء التعساء في المباني . .

وأوضح « هانون » :

- بناءً على حساباتنا المباني الزجاجية هي أقل خطراً مما نتصور ، شرط ان تكون بالطبع بعيدة كفاية عن مركز الانفجار السطحي . وفي هذا الوقت سوف تتفتت البُنى الزجاجية الى آلاف الشُظايا الصغيرة جداً . وهكذا فان مفعول الصدام سوف يحوِّل الناس الى مفارز دبابيس ، دون ان يقتلهم حتماً على الفور .

وكان « جاك ايسمان » يتساءل منذهلا : هل ان هذا الرجل يمزح ؟ وكان يحدِّق بالخبير ، وقد تقلَّصت أصابعه على حافَّة الطاولة وانسحقت كتفاه الثقيلتان من الاعياء . وهل يدرك ان الأمر يطال كائنات بشرية ، ذات وجه واسم وعائلة ؟ وأننا لسنا أمام مجموعة من الأرقام تبصقها ناظمة آلية ! وسأل الرئيس :

- وهل سيبقى احياء خلف دائرتك الأولى ؟
- اجل ! إن حساباتنا تشير الى أنه داخل الدائرة الثانية ، أي بين خمسة وعشرة كيلومترات اعتباراً من نقطة الصفر ، سوف يُقتل ٥٠٪ من السكان ويجُرح ٤٠٪ ويَسْلَم ١٠٪ .

وتمتم رئيس البلدية :

- ١٠٪ فقط ؟

وأدار رأسه نحو الخريطة ولكنه لم يشاهد عليها الدوائر الملوَّنة ولا تربيع الشوارع والجادّات المرصوص . بل شاهد مدينته ، نيويورك التي ذرعها سيراً على الأقدام وأحبَّها ولفها خلال نصف قرن من العمل السياسي والحملات الانتخابية . وشاهد الأحياء اليهودية في أسفل بروكلين حيث كان يجمع اصوات الناخبين من باب الى باب ، في جوٍّ من رائحة سمك وشاهد نزهات « كوناي ايلند » والفتيان الذين يبيعون أقماع البطاطا المقلية وسندويشات السجق الطويلة كهراوات الشرطي ، وشاهد الأزقة الزاخرة في « شيناتون » حيث تعبق الرائحة النَتِنة للسمك المملَّح وفطائر الخنزير والبيض الفاسد ، وشاهد نوافذ « ايطاليا الصغرى » المزدانة بالأحمر والأخضر على شرف القديس الشفيع وتمثاله الساذج المُجرجَر من كتف الى كتف عبر الجمهور الهائج . وشاهد المصفوفة التي لا تنتهي من المساكن الشعبية الحزينة في « بنسونهارست » و« استوريا » ، وشاهد جميع بؤر شعبه ، هذا الشعب المؤلف من سائقي التاكسي وخدم المقاهي والحلاقين والمستخدمين والكهربائيين ورجال المطافىء والشرطة ، كل اولئك الناس الذين كان قد قضى حياته بينهم يكافح في سبيل تحسين أوضاعهم ، كلهم محكوم عليهم اليوم داخل محيط مرسوم بالأزرق على خريطة .

والحَّ قائلاً :

- تعني ان شخصاً واحدا من أصل عشرة من أهالي نيويورك سوف يخرج من ذلك حيّاً ؟ وان النصف سوف يهلك على الفور ؟
- هذا بالضبط ، يا حضرة رئيس البلدية .

وسأل الرئيس ، قلقاً :

- وما عساه يكون الأثر الحاسم في باقي القطاعات ؟
- ان مجموع الباقي تقريباً من « جارسي سيتي » و« البرونكس » و« بروكلين » سوف يُباد .

وستصبح المباني الزجاجية الحديثة هياكل . ولكن اكثر هذه الهياكل ستبقى واقفة لأنه لن يكون للريح عليها أي تأثير . أما عند محيط الدائرة الزرقاء فإن المباني سوف تنهار .

وسأل ايسمان بقلق :

ـ هل يمكن الافتراض أنه سيبقى هناك احياء داخل الدائرة الثالثة ؟

وكانت تلك الدائرة تشمل حرم جامعة كولمبيا وسلسلة من الضواحي مُزدحمة على الأخص بالسكان .

وشرح « هانون » قائلاً :

ـ في تلك المنطقة سوف يتبخر الزجاج والحواجز الداخلية والسقوف وستنهار بعض المنازل . وسوف يوشك ان يُدفن تحت الأنقاض كل شخص لن يكون في قبو او ملجأ . واننا نُقدِّر بأن عدد القتلى سيبلغ ١٠٪ والجرحى من ٤٠ الى ٥٠٪ .

واستفسر الرئيس :

ـ وماذا عن الاشعاعات ؟

ـ ليحمنا الله يا حضرة الرئيس ! ولكن إذا شاء سوء الطالع ان تهبَّ الريحُ من البحر ساعة الكارثة ، فإن السحابة الاشعاعية ستغطّي المجموعة السكنية النيويوركية بأكملها ، قبل ان تُدفَع الى داخل البلاد . وسوف يصاب ملايين الأشخاص وسوف تُلوَّث عشرات الآلاف من الكيلومترات المرَّبعة . ولن يتمكن احد من العيش فيها خلال عدة اجيال .

ـ اسمع يا سيد ! لم اعد ادري شيئاً . تكفيني تنبّؤاتك عن الجحيم (وكان رئيس البلدية قد استعاد فعاليته) إن الشيء الوحيد الذي يهمُّني ، أنا ، هو أن تقول لي بالضبط ما هو عدد مواطنيَّ الذين سوف يُقتلون اذا ما انفجرت تلك القنبلة .

ـ حسناً ، بكل طيبة خاطر يا حضرة رئيس البلدية .

وفتح « هانون » ملفاً ضخماً ذا غلافٍ من الكرتون الأسود الصلب موسومٍ بعبارة « سرِّي للغاية » .

وكان يحتوي على الزاد الذي لا يفارق البيروقراطي العصري ، أي وثيقة معلوماتية هي ، في الواقع ، نوع من الدليل يتضمن انعكاس الموت والدمار على كل حيٍّ بمفرده ، حتى انه يتضمن العدد الصحيح للممرضات وأطباء الأطفال والاختصاصيين بتقويم العظام وعمال الرصاص وأسرَّة المستشفيات ومطافيء الحريق ومدارج المطارات وبالطبع المحفوظات الرسمية التي سوف تبقى في كل زاوية من المناطق المصابة .

وكانت الحكومة الأميركية قد انفقت ملايين الدولارات لجمع هذه المعلومات وتحليلها بواسطة الناظمات الآلية الجبارة لمركز الاستنفار القومي في « اولناي » في « الماريلاند » .

وها ان اللحظة قد جاءت لتلخيص كل ذلك الرعب الذي تنطوي عليه تلك الأعمدة من الأرقام والأحصاءات والنسب المئوية .

وراجع « هانون » كتابه الأسود بسرعة وأعلن بهدوء :

- ان مجموع القتلى في مدينة نيويورك سوف يبلغ / ٦٧٤٤٠٠٠ / .

***

القي مأمور مكتب التحقيقات الاتحادي « جاك راند » نظرة عصبية على ساعته . وكانت عرقلة سير كبرى تُـجمِّـد سيارة الشفرولية القديمة التي يملكها زميله في المفرزة المفتش « انجيلو روكيا » . واقترح راند :

- يقتضي اخطار مركز القيادة .

أجاب « انجيلو » مُـنزعجاً :

- وما الفائدة ؟ لنقولَ لهم بأننا محاصرون على جسر بروكلين ؟

وفكّـر « انجيلو » : هذا الشرطي لديه جهاز راديو في مؤخرته . وأخذ حبة فستق عبيد من كيس الورق في قعر جيب سترته .

- عجباً أيها الصغير ! خذ راحتك واعجب بالمنظر . سيأتي الأفضلْ . وستعمّ الفوضى بروكلين .

واندسَّ ببطء وحذر على محاذاة الدرابزيـن ودار في « هنري ستريت » ، الشارعين اللذين يعلوان الأرصفة . وكشرَّ الشرطي الشاب لدى رؤيته المشهد الذي ظهر له عبر واقية الريح : صفاً من المباني ذات ثلاثة طوابق ، أو أربعة ، جميعها تقريباً مخلوعة الأبواب كما لو انها تعرَّضت للقصف . وكانت الجدران او على الأقل ما بقي منها واقفاً ، مُـغطَّاة بكتابات بذيئة . وكان المكان عابقـاً بروائـح البـول والغائـط والرماد .

وكانت اغلب المحلات مُـمَـتْرسة بالألواح . ولاحظ « راند » ، دهِشاً . المحـلات النـادرة التـي كانت لا تزال فاتحة : صالون الحلاقة « توني الكبير » ذا الواجهة الفاغرة والمخبأة بستار اصفر وأصيص ابرة الراعي ، وبقالة « الأس » وبسطتها من السجق وعلب البيرة والسودا وعلب اللفائف ومحارم الورق المكدَّسة خلف شعرية سميكة .

وعند زوايا الشوارع ، كان بعض المعدمين ، الذين لم يبقَ الحلـم الأمـيركي بالنسبـة اليهـم الا سراباً ، يصطلون على نار النفايات التي اشعلوها في صناديق القمامة البالية .

- أراهن على أنك لا تعرف هذا النوع من الفردوس في بلدك « كولورادو » . هل تعلم كم يقبض هنا شخص ما ليقتل آخر ؟ عشرة دولارات ! نعم ؛ يا صغيري عشرة دولارات لقتل مواطن ! (وهـزَّ « انجيلو روكيو » رأسـه بحنـين) مع ذلك كان هذا الحي جميلاً ، كما تعلـم . كان يعيش فيه بعض الايطاليين وبعض الايرلنديين . أما اليوم ، فإن أغلب الناس هنا يعيشون أسوأ من بهائم حديقة الحيوانات في « برونكس » . ان العرب سوف يقدمون لنا زهرة . . .

- زهرة ؟

- . . . . اذا ما فجَّروا برميلهم هنا .

ومن زاوية عينه ، شاهد « انجيلو » زميلـه الشرطي يُـكَـشِّـر . وأشار بإصبعه الى واجهة مُـتهدِّمة لاحدى الكنائس وقال بفخر .

- هناك يقع « بريزيدنت ستريت » ، أرض « الغنغستر »(×) « جوي غالو القديمة » وأمامك ، يا بني ! احدى اكبر ساحات القتال الأميركية .

(×) قاطع طريق ، عضو في عصابة (المترجم) .

وكان ذلك حقاً : فقد مات من الرجال على أرصفة بروكلين ، أكثر ممن مات في كثير من المعارك التاريخية . وفي جميع الأزمنة ، كانت الجريمة والرشوة والقتل قد غزت تلك الكيلومترات من المستودعات الرمادية والأحياء المجاورة . ولقد كان نشالو الأرصفة ومحرقو المستودعات وسماسرة تأجير الشقق المفروشة بلا رخصة وتجار الذكور وتجار النساء وأكلة لحوم البشر وبائعو المواد المخدّرة وتجار لوازم السفن المحتالون والمهرّبون والقتلة بالساعة والجولة ، كل أولئك كانوا أبطال الشؤم للأسطورة الكبرى التي نُسجت حول طبقة لصوص الأرض المواجهة للماء . وقد بلغ اختلال الأمن والنهب في تلك المنطقة حداً حمل السفن في نهاية الأمر على هجر بروكلين . وسأل الشرطي بسذاجة :

ـ هل أن « المافيا » لا تزال تسيطر على الأرصفة ؟

ولم يستطع « انجيلو » ان يحبس ضحكة ساخرة . أيّ شرطيّ هذا ! في المرة القادمة سيسألني عما اذا كان البابا كاثوليكياً .

ـ بكل تأكيد ! عائلة « بروفاسي » . « انتوني سكوتو » .

ـ الم تنجح في تحطيمهم ؟

ـ تحطيمهم ! انت تمزح ؟ إنهم يسيطرون على جميع شركات تفريغ البضائع التي تؤجر الأرصفة،وإذا لم يكن لأحد عمال الأحواض،أوالأرصفة عم او شقيق او ابن عم في النقابة ليوصي به ، فإنه سيتلهّى بسلق بيضة،أي أنه لن يحصل على أيّ عمل . هل تعلم ماذا يجري عندما يصل الفتى أول يوم ؟ إن شخصاً يقترب منه ويقول له : « ايها الأخ ! إننا نجمع التّبرعات لتوني نازياتو ، فلقد كسر رجله على الرصيف رقم ٦ » ويسأل طالب العمل ، دهشاً : « توني من ؟» لقد انتهى الأمر ، يمكنك ان تتأكد ان طالب العمل هذا لن يحصل ابداً على اي عمل . لأن توني الكبير هو هناك في قاعة النقابة ، يقوم بعدّ مئات الدولارات التي تدرُّها عليه التبرعات من أجل كسوره الوهمية . تلك هي شريعة الغاب . وهكذا في كل مكان من الأرصفة .

ولاحظ « أنجيلو » أن وجه زميله الورديّ قد أصبح رمادياً كسماء بروكلين .

ـ هيا،إن الأمور تسير ! فلنتحدث عن شيء آخر . الا يُثير الفضول أن يبعثوا بك من « دنفر » من أجل هذا البرميل السيِّىء من الكلور فقط ؟

أجاب : « رند »

ـ يبدو أن العملية غريبة في خطرها .

ـ بالتأكيد . هل تعلم كم استحضروا من رجال الشرطة ؟ ألفين على الأقل .

ـ الى هذا الحد ؟ (وتردد لحظة) قل لي اذن ، ينبغي ألاّ تكون بعيداً من بلوغ سن التقاعد ؟

وأفلت « انجيلو » فيما كان يزدرد حبّة فستق عبيد :

ـ لو أردت لأحِلْت قبلاً على المعاش . فلديَّ الأقدميَّة . ولكنني احب هذا العمل . . . ولا أريد أن أصرخ في مكان ما من « لون ايلند » وان اكتفى بالتطلّع الى العشب وهو ينمو ؟ أنت لم تنظر اليّ ! .

وكان « انجيلو روكيا » قد استهلَّ اعماله كشرطي عام ١٩٤٧ في ذلك الحيّ الذي كانا يجتازانه .

وكانت مفوضية بروكلين قريبة حينذاك من منزله حتى أنه كان يستطيع بين دورتين احتساء القهوة في البيت الذي وُلِد فيه ومعانقة أمه والتحدّث مع أبيه في محل الخياطة الصغير الذي كان قد انشأه لدى وصوله من صقلية بعد الحرب العالمية الأولى ، وحتى الإستسلام لرقاد قصير في لحيقة المنزل حيث كان نفسه يخيط ايام السبت بعد الظهر ، وهو يستمع الى والده العجوز يُنَظِّم الحان « ريغولتو » و« تروفاتور » و« ترافيانا » الرنانة . وسأل « راند » :

ـ هل تشتغل مع مكتب التحقيقات الاتحادي منذ أمد طويل ؟

ـ ثلاث سنوات . منذ تخرجي من كلية الحقوق في « تولان » .

ـ وهل أصلك من « اورليان الجديدة » ؟

ـ أنا من « تيبودو » في مستنقع « لويزيانا » حيث يتولى والدي وكالة « فورد » .

ولاحظ « انجيلو » بارتياح :

ـ بلد « رون غيدوي » ، أحسن رامي كرة القاعدة ، أنجبه الاميركان منذ وصول « هويتي فورد »(×) .

ـ لقد مارست لعبة كرة القدم .

ـ يبدو أنك غير مؤهل لذلك .

ـ هذا ما قاله الأساتذة . ولذلك درست الحقوق .

وقبل ان يستلم شهادته ببضعة ايام ، كان ممثل مكتب التحقيقات الاتحادي قد أتى ليشرح لطلاب جامعة « تولان » منافع الانخراط في سلك الأمن الاتحادي . وعند بدء السنة التالية ، كان « جاك راند » قد قبل في الأكاديمية القومية المكتنفة بالأسرار التابعة لمكتب التحقيقات الاتحادي والمقامة في حرم قاعدة « كانتيكو » البحرية في « فرجينيا » . وكان قد تابع خلال احد عشر شهراً التعليم المكثّف الذي يتلقّاه مأمورو الأمن الاميركي المقبلون : دروس الإجراءات الجنائية ، ومكافحة الجاسوسية وتلقين الإيديولوجيات الثورية ودروس المراقبة البوليسية وتمارين عملية على تمثيليات خطف وتسلل أجنبي وإرهاب سياسي وابتزاز نووي . وأكمل هذه الثقافة الفنية تدريب « جسدي » مكتمل ، جدير بجيمس بوند ـ تمارين على الدفاع الاحترابي وقتال في الحلبة ورماية فعلية ـ وانتهى كل ذلك بامتحان تجريبي على احتمال التعذيب .

ولكن وبالإضافة الى كل ذلك ، كان « راند » قد تعلّم الخضوع الى تلك الأصول التي تحاول ان تصهر في قالب واحد التسعة آلاف مأمور التابعين لمكتب التحقيقات الاتحادي . ولم يعد من مجال للملابس وربطات العنق غير المألوفة ، ولكن على الجميع ارتداء الأثواب المتقشفة التي تصلح لكل مناسبة وثياب الغبردين الباج او الرمادي وقبعات لبدية من اللون نفسه . ويجب ان تكون النظارات مُتحفظة كالتي يضعها رجال الأكليروس . ويقتضي ان لا يكون الشعر مُفرطاً في الطول او القِصر وألاّ يُرسل المأمور لحيته او شاربه . وهناك التشدُّد نفسه بالنسبة للسلوك . فبالنسبة لطريقة الحديث : يُمنع الكلام الملتوي والأحاديث غير المترابطة كأنها من كل واد عصا ، بل يجب اعتماد الإيجاز والدقة . كما انه لا مجال للتفرّد والابتكار في العمل ، بل يقتضي التقيد المطلق بالأساليب النافذة . وصفوة القول أن مكتب التحقيقات

(×) من مشاهير البايسبول (كرة القاعدة) .

الاتحادي قد جعل من « جاك راند » الشاب شرطياً مُغْفَلاً مستعداً لتذويب شخصيته في المجموعة المنظَّمة .

* * *

كان « انجيلو روكيا » قد بدأ حياته المهنية في قلب بروكلين ـ احد الاقسام الادارية الضخمة الخمسة لمدينة نيويورك ـ التي كان حي الأرصفة والأحواض يشبه اليوم فيها صقلية المدمرة حيث كان قد قاتل في خريف ٤٢ . وكان ذلك الحي يُشكِّل المَجْبَر الايطالي الذي كان مسرحاً لثارات العائلات المتخاصمة مع « المافيا » . ولم يقض وقتاً طويلاً حتى اكتشف الفساد غير العادي الذي كانت تُسهِّله البزَّة العسكرية الكحلية والعَمْرة السداسيّة والمسدس عيار ٣٨ العائدة للاثنين وثلاثين الف شرطي نيويوركي . وكان قد أغمض عينيه على ابتزاز المال بالعنف في قطاعه وتقاضى بدون وازع العُشْرَ المخصص لقطّاع الطرق . وبعد فترة عابرة في منطقة « البروتكس » ، أمضى بعض الوقت في منطقة « الايست ريفر » ثم التحق بمكتب مانهاتن للتحرّيات الجنائية حيث كان قد تخلّى عن ثوبه العسكري وأصبح يتجوّل بالثياب المدنية في الوسط المشبوه المتميِّز بالألعاب الممنوعة والرهانات غير الشرعية والابتزاز التجاري والصناعي .

ثم قضى سنة في مفرزة النشّالين في مانهاتن الجنوبية وثلاثة عشر شهراً في مفرزة الاخلاق لدى المفوضية الثامنة عشرة للشارع الرابع والخمسين الغربي ، مما أغنى ايضاً خبرته . وقد بدا في تلك المجالات ممثلاً بارعاً . وكان فنّه التنكري قد أوقع في شباكه بعض فتيات الليل في « تيمس سكوار » اللواتي كان الذهول يستولي عليهن عندما كنّ يكتشفن ان بائع البيرة المسالم من مونيخ او وكيل صاحبة الجلالة « هوندا » ذا العينين المغوليتين ، كان ينقل مسدساً عيار ٣٨ تحت سترته . وفي نهاية المطاف كوفيء بالشارة المُذهَّبة المخصَّصة لمفتّشي الفئة الأولى ، التي فتحت أمامه أبواب ارستوقراطية القوة العامة النيويوركية ، تلك الهيئة المؤلفة من ثلاثة آلاف مفتش ، والتي كانت تمثِّل جماعة ضغط قادر تتملقها السلطة والصحافة .

وسأل « انجيلو » زميله :
ـ هل أنت متزوج ؟

ـ نعم ، وعندي ثلاثة اولاد . وأنت ؟

وكشف « جاك راند » لأول مرة ظلاً من الحزن على وجه رفيقه .
ـ فقدت زوجتي منذ عدة سنوات . وعندي صبي وبنت .

وكان قد نطق بهذه الكلمات ، كمن يوضح أمرا بشكل نهائي لا يفسح مجالا لأي تعليق .

وأوقف الشرطي سيارته أمام بوابة معدنية ، وأطلع الحارس على الشارة المختصّة بالمفتشين ، فأومأ له بالمرور . وعلى بعد قليل ، توقّف أمام مبنى كبير أصفر كانت واجهته تشير بأحرف سوداء الى ما يلي : « محطة المسافرين » ـ « محطة بحرية » .

وقال « انجيلو » مازحاً :
ـ التوقُّف الأخير قبل الحرب .

ـ الحرب ؟

ـ أوه ! يا للقذارة ! دعك من هذا . لم تكن قد وُلدت بعد (والقى في فمه حبة فستق عبيد) من هنا ذهبت الى الحرب عام ٤٢ .

وقذفت وجهيهما هبَّة ريح مُثلَّجة بعفونة الأمواج القذرة التي كانت تلامس الأرصفة . ورفع « انجيلو » ياقته واتجه نحو ما يشبه القفص المزجَّج عند طرف الرصيف .

ـ هذا هو مكتب الجمارك الاميركية . سيكون بإمكانك تمرير قطيع من الفيلة أمام هذه المربَّعات دون أن يتمكن المأمور القابع في الداخل من مشاهدة اي شيء .

ودخل « انجيلو » الى الغرفة الضيقة قليلة النور حيث كانت تعبق رائحة العرق والتبغ البارد . وكانت جدرانها القذرة مزدانة بصور نجوم كرة القاعدة وملصق مصغّر لفتاة من « البلاي بوي » . وكان موظف الجمرك ، في لباسه الكحلي ، يقرأ الصفحة الرياضية في « الدايلي نيوز » ، وقد انقلب على مقعده . ولما شاهد شارة « انجيلو » تمتم قائلاً :

ـ لقد أبلغوني عن زيارتكم ، إنهم ينتظرونكم في مكتب المأمور البحري المجاور .

وكان مكتب « الهلياس ستيڤدور » اوسع بقليل من مكتب الجمارك . وكانت إضبارات من الأوراق تتكدَّس في خزانات ذات أدراج على طول الحائط . وكان الأمر يتعلق ببيانات جميع السفن التي كانت قد أنزلت بضائع على ذلك الرصيف خلال السنة المنصرمة .

نزع « انجيلو » معطفه وطواه بعناية على كرسي . واخذ بعض حبات فستق عبيد من جيبه وقدَّم احداها الى رند .

ـ خذ أيها الصغير ، كُلْ هذا والى العمل ! وتذكَّر : « من سار بُخطى وئيدة ، سار بخطى اكيدة » .

واتخَّذ الشرطي هيئة حَيْرى .

ـ هذا يعني يا صديقي أن الشرطي الحسن هو الذي يأخذ وقته .

* * *

ضمَّ رئيس بلدية نيويورك يديه في حركة تضرُّع ، وكان وجهه خَرِباً أدكن . وكان لا يفتأ يكرر : ستة ملايين وسبعمئة واربعة واربعون الفاً ، ستة ملايين وسبعمئة واربعة واربعون الفاً . إنها لَمُحْرَقة اسوأ من المأساة التي كانت قد القت بأعمامه وعماته في أفران الغاز في « أوسشويتز » . بضع ثوان من الاشتعال الخاطف .

ـ يا حضرة الرئيس (وكان صوته بهياً لا يكاد يُسمع) يجب ان تعمل شيئاً لهؤلاء الناس بمنتهى السرعة . لا بدّ من ذلك .

وكان « أب ستر ن » وحده مع الرئيس في مكتبه . وكان الرئيس قد أصيب بالخَدَر من جرّاء القعود الطويل ، فنهض يذرع الغرفة .

ـ بكل تأكيد ، يا أب . سوف نجد الوسيلة للخروج من هذا المأزق . ولكن بانتظار ذلك ، يجب المحافظة على رباطة جأشنا وألاّ نستسلم للذعر .

ـ تلك كلمات جميلة يا حضرة الرئيس ، ولكنها لا تُغني عن الأفعال التي سوف تنقذ الستة ملايين رجل وامرأة وولد في مدينتي . ما عسانا فاعلون لانتزاعهم من مخالب هذا المتعصِّب ؟

ـ أستحلفك بالسماء يا أب ! الا تعتقد أنه لو كان ثمَّة مجال لمزيد من العمل ، لما أحجمت عن القيام به ؟

ـ لماذا لا تخليهم ؟

ـ نخليهم ؟ الم تقرأ رسالته ؟ الأمر واضح . عند أول علامة على الاخلاء فإنه يفجّر القنبلة . هل تريد الاقدام على هذه المجازفة ؟ حتى قبل أن نتمكن من التحدث اليه ؟

ـ أنا أرفض القبول بأن يُـمْلي علينا هذا المجنون أوامره ! ألا يمكن إخلاء المدينة من غير ان يدري بذلك ؟ في الليل ؟ بقطع أجهزة الراديو والتلفزيون والهاتف ؟ يجب ان يكون ثمَّة وسيلة ما .

أدار الرئيس نظره عن النافذة التي كان قد توقَّف أمامها . فلم يعد بإمكانه ان يتحمَّل جمال المنظر ، والروضة النقيَّة المُغطَّاة بالثلج ، ومِسلَّة واشنطن المتدفِّقة على السماء الزرقاء ، ذلك النُصُب الذي يُذكِّر بالأوقات السعيدة . وقال بهدوء : ـ أبْ ! سوف نرتكب خطأً جسيماً جداً اذا ما بَخسنا قيمة القذافي . بل على العكس . لديَّ قناعة بأنه احتاط لكل شيء ، حتى أدق التفاصيل . وكل استراتيجيته تقوم على هذا وعلى انه يمسك بتجمُّع سُكَّاني خياليّ . فإذا ترك رهائنه المدينة ، فقد فشلت خطته وهو يعرف ذلك . ولذلك ، فهناك بصورة اكيدة عملاء بتصرفه مُـجهَّـزون بأقوى وسائل البثّ بواسطة الراديو وهم على أتم الاستعداد لاخطاره في الثانية نفسها التي سَتُـلْـفَـظ فيها كلمة الاخلاء .

ـ حضرة الرئيس ، أناشدك أن تدعني أوجِّه نداء بالراديو والتلفزيون .

ـ أبْ ! اذا فعلت ذلك فربما ستنجح في إنقاذ مليون من السكان . ولكن سيكون هؤلاء من الاغنياء الذين يمتلكون سيارات . وما عساك تفعل بزنوج « هارلم » والبورتوريكيين في « بروكلين » والفقراء في « برونكس » ؟ هؤلاء لن يكون لديهم الوقت ليركضوا حتى آخر الشارع ، الا وتكون القنبلة قد جعلتهم هباء .

ـ سوف يتمكن الناجون ـ على الأقل ـ من ان يحفروا على قبري : « لقد أنقذ مليوناً من مواطنيه » .

وهزَّ الرئيس رأسه بأسى .

ـ ولكن كتب التاريخ سوف تقول دون ريب إنك بتسرعك ساهمت بهلاك خمسة ملايين آخرين من مواطنيك !

وفرضت عليهما المعضلة الفظيعة صمتاً طويلاً . ثم استأنف الرئيس :

ـ أبْ ! تصوَّر ثانية واحدة البلبلة التي سوف يحدثها إعلان إخلاء نيويورك !

ـ أعرف أكثر من أيّ شخص الاضطراب الذي سوف يحدثه ذلك . ولكن « جماعتي » هم المعنيون بالامر ، ولن أبقى جالساً في مقعدي انتظر ان تخلِّصهم من ابتزاز هذا القاتل (وأشار رئيس البلدية بإصبع الاتهام نحو المدينة وراء النافذة) وماذا عن جميع كتّاب الحماية المدنية الذين أنفقوا أموالنا بملايين الدولارات منذ ثلاثين سنة ؟ ماذا ينتظرون ليطلعونا على ما فعلوه بهذه الأموال ؟ أعطني اكثرهم اهليةً . وسآخذهم

معي الى نيويورك حيث سأطلب اليهم ان يعملوا . وسنرى ما اذا كان بإمكانهم إيجاد حلّ .

- إنهم بتصرفك يا أب . وسأرسلهم فوراً الى قاعدة « اندروز » . وسيسافرون على متن طائرتك (ووضع الرئيس يده على كتف رئيس البلدية) واذا ما اكتشفوا وسيلة ما ، أية وسيلة ، للإخلاء بدون مجازفة ، فأنا موافق ! (وشدَّ كتف الرجل العجوز) كن واثقاً يا أب بأننا لن نصل الى ذلك الحد ! فعندما نتمكن من الاتصال بالقذافي ، سوف نصل الى إقناعه بالعدول عن مشروعه . (وتنهّد) . ولكن بالنسبة لهذه اللحظة ، تعال ، اذ يجب أن نمثل الرواية الهزلية .

وكان الصحفيّون ينتظرون في الخارج . ومازح الرئيس البعض ، ثم أمر بقراءة بلاغ لا يسمن ولا يغني من جوع يقول ان الرئيس تحادث مع رئيس البلدية عن مقدار العون الاتحادي الى مدينة نيويورك في الموازنة المقبلة .

وأطلق أحد المخبرين :

- يا حضرة رئيس البلدية ، ماذا سيفعل الشيطان بنيويورك اذا لم تحصل على المساعدات المطلوبة ؟

وسمَّره أبْ سترن بنظره :

- لا تأس على نيويورك أيُّها الشاب . فنيويورك ستعرف دوماً كيف تتدبَّر أمرها .

* * *

دخل « جرمي اوغلتورب » ، كعادته كل صباح ، الى مطبخ منزله الصغير في « ارلنغتون » في فرجينيا . ومنذ ثلاثين سنة على سكناه هناك ، لم يُعكر شيء قط عادات هذا الموظف الدقيق الذي كان يوم عمله يبتدىء ، من غير اي تغيير ، ببيضتين مسلوقتين وينتهي بعد ثماني ساعات بالمذاق المُنَشِّط لكأسين من المارتيني غير الممزوج . وكان « اوغلتورب » البالغ ثماني وخمسين سنة ، طيِّب القلب ، ذا وجنتين تعلوهما بقع وردِيَّة .

وكان ينتمي الى تلك المجموعة من البيروقراطيين حملة الشهادات ، الذين تكوَّنوا من امتزاج فريد بين « المشاتل » الجامعية وغرف الانتظار الحكومية في واشنطن . وكانت الهيئات التي تستخدم رجالاً أمثاله قد تكاثرت ، كالفطر على ضفاف نهر « البوتوماك » ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية : مقدار الحاجة الى بطاريات الكرميوم * اللازمة للصناعة الالكترونية عام ١٩٨٧ ، تحديد نقطة اصطدام الصاروخ « أم . اكس » حسب خطوط الالتقاء المنحنية المختلفة ، تطور الظروف الاجتماعية الثقافية في زامبيا من الآن حتى سنة ٢٠٠٠ . ولم يكن اي موضوع ليخرج عن اختصاص التكنوقراطيين امثال « اوغلتورب » ، حتى قضايا الازدحام في مواخير اميركا الجنوبية ، كما اكتشف ذلك ، بسُخْط الشيخ « ويليام بروكشمير » . .

وكان « جرمي اوغلتورب » ينتمي الى معهد ستنفورد للأبحاث المرتبط بجامعة ستنفورد في « بالوالتو » في كاليفورنيا . وكان إختصاصه يتناول صيغ إخلاء المدن في حال هجوم نووي حراري سوفياتي . على ان كلمة « اخلاء » ما كانت ترد مطلقاً في تقاريره . وبما ان البيروقراطية الحكومية كانت تعتبر أن تلك الكلمة لا تقل شؤماً عن كلمة « السرطان » ، فقد استبدلتها بالصيغة المحتشمة التالية : « إعادة انتشار السكان في حالة الطوارىء » .

وقد كرَّس « اوغلتورب » نفسه لهذه المشكلة خلال ثلاثين سنة بحماس يوازي على الأقل إخلاص

(×) عنصر فلزي أبيض يشبه القصدير .

الأم « تيريزا » نحو فقراء كلكوتا .

وتوّج حياته المهنية بنشر مؤلف ضخم من اربعمئة وخمس وعشرين صفحة بعنوان : « ظروف إعادة انتشار السكان المدنيين في الشريط الشمالي الشرقي للولايات المتحدة » .

وكانت تلك الوثيقة قد تطلبت تعاون عشرين شخصاً خلال ثلاث سنوات واستلزمت أعتمادات ماكان « اوغلتورب » نفسه يجرؤ على الاعتراف بمقدارها . ومنذ ذلك الحين كان قد تصدّى للجانب الأكثر صعوبة من مهمته ، أي مدينة نيويورك . وقد كان ، بلا منازع ، الخبير المثالي في قضايا إخلاء العاصمة الجبارة في حال الإنذار النووي . على انه لم يقطن ابداً في تلك المدينة التي كان يكرهها . ولكن جهله التام للتجمعات التي كان يخطط لإخلائها ، لم يُعكّر ابداً ضميره المهني ولا ضمير رؤسائه . وفيما كان يقترب من التقاعد ، كان « جرمي اوغلتورب » يتساءل بعض الأحيان عما اذا كانت تلك الجهود كلها قد بُذلت عبثاً .

على أنه ، كان يبدو ، في صباح ذلك الأثنين الواقع فيه ١٤ كانون الاول ، وفي حين كان قد بقي اكثر من يوم بقليل على إنذار القذافي ، ان ساعته قد دقّت فجأة . وفيما كان يتناول بيضتيه المسلوقتين ، رنّ جرس الهاتف في الصالون .

وكاد يختنق عندما أخبره عقيدٌ في نظارة الحربية ان امين الدفاع كان يرغب في التحدث اليه . فلم يسبق لأحد من رتبة أعلى من رئيس مصلحة أن طلبه الى منزله . وبعد دقيقتين اندسَّ في سيارة ليموزين رسمية ليأخذ من مكتبه الوثائق التي سوف يحتاجها ويلتحق بعد ذلك برئيس بلدية نيويورك على مُدرَّج قاعدة « اندروز » الجوِّية . وفيما كان السائق يُقلِّع ، شعر « اوغلتورب » برعشة تهزه : فقد كانت ثلاثون سنة من حياته تؤدي به الى تلك اللحظة الخارقة .

* * *

أثار وصول الطبيب النفساني الهولندي « هنريك جيجرمان » ردود فعل مختلفة لدى المستشارين المُنهكين الذين كانوا يحيطون بجاك إيسمان في مكتبه في الجناح الغربي من البيت الابيض . وبالنسبة للشقراء « ليزا ديسون » كان هذا الوصول يفسح المجال امام نفحة هواء بليل تُرطِّب جوَّ الاجتماع الذي كان يغوص بعد ليلة من المناقشات العنيفة والعاصفة احياناً . وكان الدكتور « برني تماركان » الاختصاصي الاميركي بشؤون المفاوضات مع الإرهابيين ، ينظر الى دخول زميله نظرة الاحترام التي يبديها عازف الڤيولونسيل الشاب اذا ما التقى « بابلوكزالس » . وكان الشخص البدين القادم من امستردام يُجسِّد بالنسبة الى « جاك إيسمان » الأمل الوحيد لحلّ هذه الأزمة المرعبة من غير اللجوء الى العنف .

وبعد التعارف ، جلس الدكتور هنري جيجرمان في المكان الذي عيَّنه له ايسمان ، ومن مقعده كان يشاهد جناحَ رئاسة جمهورية الولايات المتحدة ، الدائري المقبّب ذا الاعمدة . وكانت رباطة جأشه الاعتيادية قد اجتازت إمتحاناً قاسياً . فمنذ أقل من نصف ساعة ، كان لا يزال فوق الأطلنطي ، بسرعة تبلغ ضعفي سرعة الصوت ، يتذوق الفطور المُفرط في الجودة الذي قدّمته له مُضيفة « ايرفرانس » الفاتنة في الوقت الذي كان يدرس ملفاً عن القذافي كان قد سلّمه اليه أحد مأموري الوكالة المركزية للاستخبارات . وها هو الآن قد قُذف به الى قلب السلطة في أقوى امَّة في العالم ليقترح إستراتيجيَّة من شأنها الحؤول دون كارثة لا يمكن تخيُّل حجمها .

وسأل ، بلهجة باتفية * واضحة بعد ان انتهى ايسهان من تلخيص الموقف له :

ـ هل تمَّ الاتصال بالقذافي ؟

ـ كلا ، حتى الآن ، مع الأسف . لقد رُكِّزت أجهزة الاتصال ، ولكن القذافي لا يُدْرك .

وكان « جيجرمان » يُفكِّر وقد رفع عينيه نحو السقف . وكانت في وسط جبينه شامة وكان يحب ان يسمّيها « شيكا » وهي العلامة المستديرة التي يتمشَّط عندها الهنود لتمثيل العين الثالثة التي تدرك الحقيقة وراء الواقع .

ـ في مطلق الأحوال ، ليس ثمَّة من عجلة .

واستغرب « ايسهان » قائلاً :

ـ ليس ثمة عجلة ؟ امامنا أقل من سبع وعشرين ساعة للخروج من هذا الصَفَن * وتجد ان لا عجلة في الأمر !!

ـ بعد نجاح تجربته النووية ، يجد عقيدنا نفسه في حال انتصاب نفسيّ،اي في كامل الهذيان الجنوني .

وكان الطبيب النفساني قد تكلَّم بسلطة الطبيب الذي يشرح تشخيص المرض لتلامذته .

ـ إن تفجيره الذرِّي قد أقنعه بأنه يمتلك من الآن فصاعداً ما كان يتفانى في سبيل الحصول عليه ، الا وهو السلطة المطلقة والكاملة والحاسمة . وبتعبير آخر ، لقد استولى عليه هُواس القوة . وهو يرى أهدافه بمتناول يده : تصفية اسرائيل واستلام زعامة العرب غير المنازعة وفرض قانونه على سوق البترول العالمية . وإن مباشرة المفاوضات معه الآن ستكون بلا ريب خطأً قاتلاً . ومن الأفضل ان نترك القِدْر تبرد قبل ان نرفع غطاءها وننظر الى ما في الداخل .

وزمَّ « جيجرمان » أنفه ، ليحرِّر أذنيه اللتين كانتا لا تزالان مسدودتين من جرّاء الهبوط السريع الذي قامت به شركة « الكونكورد » التابعة « لايرفرانس » بناء على طلب السلطات الاميركية المُلِحّ . وتابع :

ـ تعلمون أنه في وضع من هذا النوع تكون اللحظات الاولى دائماً هي الأشد خطراً . في البدء تكون درجة القلق عند الإرهابي مرتفعة جداً جداً . فهو يجد نفسه غالباً في حالة من الهستيريا قد تدفعه فجأة الى ارتكاب ما لا يمكن تلافي نتائجه . فينبغي أن يُعطى الاوكسيجين وأن يُساعَد على استرداد انفاسه وأن يُفسح له المجال للتعبير عن آرائه وشكاويه .

وانتصب الهولندي فجأة :

ـ بشأن هذا الاتصال مع القذافي آمل ان تكون المخابرة بواسطة الراديو او الهاتف وأن نتمكن من سماع صوته ؟

(×) باتاف : شعب جرماني كان يقطن هولندا الحالية قبل قيصر (المترجم)

(××) وكر الزنابير .

وبدا « ايسهان » مرتبكاً .

ـ ان هذا يطرح مسألة سلامة . . .

وألحَّ الطبيب النفساني :

ـ يجب حتماً أن نسمعَ صوته . هذا أمر أساسي .

وبالنسبة اليه ، كان صوت أيّ رجل وسيلةً لا يُسْتغنى عنها للانفتاح على نفسيته وعنصراً كان يُمكّنه من فهم مزاجه وتغيُّر إنفعالاته والتنبؤ عند الاقتضاء بتصرّفه . وفي جميع قضايا الرهائن كان « جيجرمان » يُسجِّل كل حديث مع الإرهابيين ثم يسمع ويسمع تكراراً الى الشِريط ويرقب أقل فارق في الرنّة الخاصة وطريقة النطق والمفردات المُستعملة .

وسأل ايسهان :

ـ من يجب أن يكلمه ؟ الرئيس ، افترض . . .

وعارض الطبيب النفساني بشدة :

ـ كلا ، بصورة خاصة . فالرئيس هو وحده المؤهل ليمنحه ما يطلب او على الأقل هذا ما يعتقده . فهو اذن آخر شخص يمكن ان يجري اتصالاً به

وبلع « جيجرمان » جرعة من القهوة :

ـ ان هدفنا هو كسب الوقت ، الوقت اللازم لكي تكتشف الشرطة القنبلة . فكيف ستتمكن ، والحالة هذه ، من جرجرة الاشياء والحصول على تأخير موعد الإنذار اذا ما تركنا رئيس الدولة يباشر المفاوضات منذ بدء اللعبة ؟ إن القذافي يوشك أن يحشره في زاوية الحائط وان يطلب جواباً فورياً .

وكان الهولندي يلاحظ بارتياح ان الحضور كان معلقاً بشفتيه .

ـ لذلك فإني أوحي دائماً بتوسيط مفاوض بين الإرهابي والسلطة . فإذا ما تقدّم الإرهابي بطلب مُلِحّ ، أمكن المفاوض عندئذ ان يتحجج بأن عليه ان يرجع الى من بيدهم سلطة منح ما يطلب .

وخَلُص ، وهو يبتسم ، الى القول بأن الوقت يعمل دوماً لصالح السلطة . وكلما مرَّت الساعات ، بدا الإرهابيون اقلَّ ثقة بأنفسهم واكثر قابلية للانجراح . وآمل ان يكون الأمر كذلك بالنسبة للقذافي .

وسأل إيسهان :

ـ أيّ نوع من الأشخاص ينبغي ان يكون هذا المفاوض ؟

ـ يجب أن يكون قد قطع مرحلة من العمر ، هادئاً ويعرف كيف يصغي اليه وكيف ينتزعه من فترات صمت ممكنة . وصفوة القول ، ينبغي ان يكون بمثابة اب ، كما كان عبد الناصر بالنسبة اليه في صباه . المهمّ أن يوحي هذا الشخص بالثقة اليه . ويجب ان ترتكز خِطّته على إفهامه ما يلي : « إنني أتعاطف معك ومع أهدافك . وأريد أن أساعدك على بلوغها » .

ولقد كان الطبيب النفساني الهولندي يجيد مصلحته . وقد سبق له ان تحاور خمس مرات مع إرهابيين وتمكّن من كبح نزواتهم العدوانية وحملهم رويداً رويداً على الشعور بالواقع وعلى القبول ، في نهاية

المطاف ، بالدور الذي كان يُعيِّنه لهم ، دور الأبطال الكرماء الذين وفروا حياة رهائنهم . وقد نجحت المناورة بشكل رائع اربع مرات . وكان يُفكِّر بأن من الأفضل اليوم ان لا يتوقف عند فشل المرة الخامسة .

وتابع :

ـ يجب أن يكون الاتصال الأول حاسماً . ويجب ان يتحقق القذافي من الوهلة الأولى أننا نحمله على محمل الجدِّ (وطاف القاعة بنظره الحاد والواضح) وبالنظر لفظاعة ابتزازه ، فإن ما أوصي به قد يبدو لكم فظاً ، ولكن هذا الشيء عنصر حيويّ في استراتيجيتنا . يجب ان نبدأ بأن نقول له بأنه على حق وأن شكاواه ضد إسرائيل ليست مشروعة فحسب ، بل إننا على إستعداد لمساعدته على ايجاد حلٍّ معقول .

ولاحظت « ليزا ديزون »

ـ نوافق يا دكتور ! ولكن كل ذلك يَفْتَرِض ان يقبل القذافي بالتحدُّث الى هذا المفاوض . ولا أستبعد أن يدفعه مزاجه الى التصريح بالآتي (وألقت على الطبيب النفساني نظرة ملائكية) وأرجو ان تغفروا لي التعبير : « فتِّشوا عمن يُضاجعكم ! لا أريد نقاشاً مملاً ! اقتصروا على مطالبي » .

وقال جيجرمان في نفسه : « هؤلاء الاميركيَّات ! إنهن اكثر مجوناً من حارس سجن هولندي ! » .

ـ أبعدي الهمَّ عنك ، يا آنستي العزيزة ! سوف يتكلّم . إن دراستك الممتازة تُبيِّن ذلك بوضوح . ان بدوي الصحراء الصغير والمسكين والذي كان رفاقه في المدرسة يسخرون منه ، يريد أن يصبح بطل العرب اجمعين بفرض إرادته على رئيسكم ، أقوى رجل في العالم . صدِّقيني ، سوف يتكلَّم .

ـ فليسمع الله لك !

وكان إيسمان قد أصغى بانتباه الى « جيجرمان » وكان مُوزَّعاً بين ارتيابه إزاء الطرق النفسانية والأمل المجنون بأن يتمكَّن هذا الرجل من إيجاد الحل المنشود .

ـ ولكن ، لا تنسَ يا دكتور اننا لسنا هنا بصدد شرِّير حقير بَئِس يُشْهِر مُسدَّسه على صدغ امرأة عجوز . ان القذافي يملك بين يديه المقدرة على قتل أكثر من ستة ملايين شخص في ظرف ربع ثانية ، وهو يعرف ذلك .

وهزَّ جيجرمان رأسه :

ـ هذا صحيح . ومع ذلك ، فيجب أن نأخذ بعين الاعتبار المعطيات النفسانية الدقيقة وبعض المبادىء الثابتة . إنها تنطبق على رئيس دولة كما تنطبق على أيّ شخص عادي يتهدَّد بسلاحه . وإن أغلب الإرهابيين يعتبرون أنفسهم اصحاب رؤى مُضطهَدين يكافحون لتقويم خطأ ما . والرجل الذي نحن بصدده هو بلا ريب إنسان مُلْهم ومُتعصِّب ديني أصيل . وهذا ما يُعقِّد الأمور . لأن الإنسان يصبح باسم الدين ، اكثر راديكالية واكثر تصلباً.تذكّروا في هذا المجال الخميني .

والتفت « جيجرمان » نحو « ليزا ديزون » مُلقياً عليها نظرةً أبويَّة موافقة .

ـ وفي هذا المجال أيضاً ، فإن الصورة التي رسمتها له ، ايتها الآنسة ، مفيدة جداً . ومن الواضح أن رغبته في الحصول على ما يشعر أنه علٌ لأشقائه العرب هو سبب تصرُّفه الرئيسي . غير أن ثمَّة فعلاً ضرورياً بذاته ، يدفعه على غير وعي منه ، الى التصرُّف بهذا الشكل ، ألا وهو

احتقاره للغرب . انه يعلم أنكم ، انتم الاميركان مثل الإنكليز والفرنسيين وحتى الروس ، تعتبرونه مجنوناً . حسناً ، سوف يبرهن لكم أنكم مخطئون . إنه هو العربي الصغير البائس المحتقر ، الذي سوف يضطركم الى احترامه والى أخذ ارادته بعين الاعتبار وتمكينه من تحقيق حلمه العظيم . ولكي يبرهن لكم أنه ليس مجنوناً بالقدر الذي تظنّون ، فهو على استعداد للاندفاع حتى النهاية وتدمير كل شيء ، انتم وهو وشعبه معه ، اذا اقتضى الأمر .

* * *

كان « انجيلو روكيا » يستعرض بيانات الوكيل البحري « هلياس ستيفادور » ، عندما دخل الى المكتب عدة اشخاص شديدو البأس ليصطلوا حول مدفأة الحطب . وكانوا من رؤساء الأرصفة . أغلبهم من الايطاليين مع نموذج عن السود ، الأمر الذي يُعتبر تساهلاً مُتحفظاً من العصابات تحت تأثير ضغط مُقاومة العِرقيَّة . وكانوا يؤلفون توزيعاً مثالياً لجماعة الأرصفة المُجدَّدَة ، بعفريتاتهم * القذرة ومصانهم الغليظة ذات المربَّعات وعَـمْراتهم الجلدية . وكانت لُغتُهم تقتصر على سلسلة من النخير الحلقي ومزيج من العاميَّة الاميركية والشتائم الصقليَّة ، وكان حديثهم يتناول الجنس والطقس والمال وكرة القاعدة .

وشعر الشرطي النيويوركي بنظرات العداء التي كانت ترقبه . وكان يعلم أن أحداً لم يكن غير مرغوب فيه مثل رجل الشرطة . وكان يُفكِّر ، في تهلّل،بأن هؤلاء الاشخاص كانوا يعْصرون أدمغتهم لمعرفة ماذا جئنا نعمل . ومن رصيف « بروكلين اوستين ترمنيال » الهائل ، كان يرتفع ، من العمق ، صفير العربات الرافعة وصرير الرافعات التي كانت تستخرج دعامات البضائع من قعر أربع سفن شاحنة كانت مربوطة الى الأرصفة العائمة . وإنه لرصيف غريب ، ذلك الرصيف ، وأحد آخر الارصفة في مرفأ نيويورك حيث كانت اكداس البضائع لا تزال تُنقل وتَفرّغ بلا تنظيم وبدون توضيب ، الأمر الذي يُشكل مفارقة تاريخية في عصر التحميل في الصناديق .

وتذكَّر « انجيلو » ذلك الوقت الذي كان كل شيء فيه يصل وفاقاً لتلك الطريقة . وكان عمال الارصفة ينقضّون على البضائع كحشود من الجُرذ ويتنافسون على خلْس ما تيَّسر منها . وفرك عينيه وقرش حبة فستق عبيد وتابع فحصه المنهجي للبيانات . وفجأة ، شعر بقرقرة مألوفة داخل معدته ورفع رأسه . وصاح بالمستخدم ذي الوجه المدوَّر كالقمر الجالس وراء طاولة داخل القاعة :

ـ يا توني ! هل تعلم اذا ما كان المطعم « سلڤاتور » لا يزال موجوداً ؟

رفع « توني بيكاردي » عينيه عن اوراقه وفتح فماً مزّيناً بأسنان من ذهب .

ـ كلا ! لقد مات العجوز منذ سنتين .

ـ يا للخسارة ! فلا يوجد له مثيل في صنع اكلة الـ « منيكرتي » .

وأزعجت الملاحظة « جاك راند » الذي كان يُبْدي علامات الجزع . وفكَّر قائلاً لنفسه : « إنه حقاً ابله هذا الشرطي النيويوركي ! منذ وصولنا الى هذا المكتب ، وهو يقضي وقته بالتلفُظ بحماقات بالإيطالية مع هذا الشخص » وفحص الشرطي بياناً جديداً ، فيما كان يتذمَّر . وقام بقفزة . وصاح بحماس الصياد الذي اكتشف سمكة سلْمون عند طرف صنارته :

ـ لقد وجدته !

(×) جمع عفريتة ، وهي الثوب الذي يرتديه العامل وقت العمل .

وانحنى « انجيلو » وتتبّع إصبع زميله الذي كان يُمرِّره بسرعة على سائر الوثيقة .

« المرسل : ليبيان اويل سرفيس ، طرابلس . المستلم : كانزاس دريل انترناسيونال ، كنزاس سيتي ، كنزاس . التحقق من نوع البضاعة :/ ايل . أو . اس . / ٨٤٧٧/٨٤٨٤ .

الكمية : خمسة ألواح تحميل . الوصف : لوازم الحفر البترولي . الوزن غير الصافي : / ١٧٠٠٠/ ليبرة » .

ووافق « انجيلو » :

ـ أجل ، يبدو هذا حسناً . إذهب وتلفن الى القيادة العامة وأبلغها تلك المعلومات .

وخرج « جاك راند » حالاً . وبعد عدة لحظات توقَّف انتباه « انجيلو روكيا » ، بدوره ، على كلمة « بنغازي » المُسجَّلة على بيان آخر . إن هذا الاسم كان يقول له شيئاً ما . . . العم « جياكومو » هناك كان الإنكليز قد أسروا العم « جياكومو » سنة ١٩٤٢ ، في بنغازي في ليبيا . وتفحصَّ البطاقة :

« اسم السفينة : ديونيسوس . المرسل : عم الفاسي صادرات بنغازي . المستلم : دوركي فيلتر ، ١٩٤ جوال افنيو ـ نيويورك . التحقق من نوع البضاعة : ب ١٨/٣٧ . الكمية : لوح تحميل واحد . الوصف : عشرة براميل مشطورات * . الوزن غير الصافي : /٥٠٠٠/ ليبرة » .

وأجرى « روكيا » حساباً سريعاً . عشرة براميل لاحتواء خمسة آلاف ليبرة ، وهذا يعني خمسمئة ليبرة للبرميل الواحد . اليس هذا خفيفاً قليلاً بالنسبة لبرميل كلور ؟

ونادى المستخدم قائلاً :

ـ توني ، يا هذا ! الق نظرة هناك . (ووضع البيان امام بيكاردي) ما هي تلك المشطورات ؟

ـ نوع من المسحوق . . . أصداف مسحوقة .

ـ وكيف تُستعمل ؟

ـ لا أعلم بالضبط ، وقد يكون لتقطير الماء ، ماء أحواض السباحة .

ـ هل توحي اليك شيئاً ، تلك السفينة « ديونيسوس » ؟

ـ اجل ! إنها سفينة صغيرة قديمة بالية بأسرها . تأتي كل ستة اسابيع وتحمل الشيء القذر نفسه منذ اربعة او خمسة أشهر .

وأخذ « انجيلو » الورقة ثانية وجعل يُفكِّر . وكان يخاطب نفسه : « ستبدو مُغفَّلاً حقاً في نظر القيادة العامة اذا ما حملت المسؤولين على البحث عن براميل تزن خمسمئة ليبرة ، في حين أنهم يُفتِّشون عن بضاعة رديئة تزن ثلاثة أضعاف اكثر ! إلاّ اذا كان بعض هذه البراميل قد وصل فارغاً ؟»

* * *

لم يكن من عادة القوَّاد الزنجيّ «انريكو دياز » أن يتواجد في ساعة مُتماثِلة في الشارع السابع ، كانت الساعة العاشرة صباحاً ، وهذا يكاد يكون إنبلاج الفجر بالنسبة الى ذلك الطائر الليلي . وكان لتوِّه

(*) فصيلة من الأشنة السمراء ، وهي نباتات مجهرية وحيدات الخليّة تعيش في الماء .

قد أقلّ في سيارته من طراز « لينكولن سبسيال » الشرطيَّ الذي كان قد استدعاه عند العشيَّة . وكان الشرطي مصحوباً هذه المرَّة بأحد زملائه . وكان ريكو يضغط حتى النهاية على دوَّاسة السرعة ليهرب من منطقته : فلا حاجة لان يتعرَّف عليه « الاخوان » مع راكبيه ، وإن كان يُظنّ أنهما سائحان محترمان مُتوجِّهان لمضاجعة نسائه . وخاطب « فرانك » مراسله المعتاد « ريكو » قائلاً :

ـ ريكو ، إن لدينا مسألة صغيرة .

وتظاهر الزنجي بأنه لم يسمع شيئاً . وكان يتفحَّص ، في المرآة الارتدادَّية ، وعبر نظارتيه السميكتين الملوَّنتين ، الشرطي الآخر الجالس على المعقد الخلفي . وكان يقول لنفسه : « إن لهذا الشخص شكلاً قبيحاً ، شكل شرطي يريد ان يتمتّع بسحق الحشرات بين أظافره » .

وتابع « فرانك » :

ـ ان تلك الفتاة العربية التي أعطيتنا علاماتها قد غادرت فندقها هذا الصباح ، لتستقلّ الطائرة الى « لوس انجلوس » . . .

وبدت على « ريكو » خيبة الامل فرفع ذراعه باتجاه اكداس الثلج القذر على طول الجادة .

ـ هذه فأرة حسنة الطالع !

ـ ما عدا أنها لم تستقلّ الطائرة ، يا ريكو .

وشعر القواد برعشة تهزّ ظهره . وكان قد بدأ يأسف لعدم تنشُّقِه جرعته الصباحية القليلة قبل ان يغادر منزله الأنيق . .

ـ وماذا عندئذ ؟

ـ عندئذ ، نودّ أن نتحدَّث مع رفيقك الذي كان له شأن معها .

وأصبحت الرعشة تشنجاً .

ـ لا بحثَ في الأمر . فسيكون هذا الشخص قادراً على ان يصير بغيّاً خطرة !

ـ ريكو ! لم أتوقع ان يكون صبياً في جوقة . فماذا يعمل ؟

وأطلق القواد نخيراً ، وهو يجيب :

ـ الشيء المعتاد . قليل من الكوكايين هنا وهناك .

ـ حسناً ، يا ريكو . سنستدعيه للتحدث عن الكوكايين . وليس ثمة أيّ حظ أن يصل الى ما وصلت اليه .

وضحك ريكو هازئاً . وكان العرق يتصبّب من ظهره ، ولم يكن ذلك بسبب شعوره المفرط بالحرارة من جراء فروية الڤيزون البالغ ثمنها خمسة آلاف دولار .

ـ إنكم حقاً بلهاء ! إنكم تقولون لهذا الرجل : « فتاة عربية ، همشير هوس » ، ولن يكون في نيويورك الا زنجي واحد ستتجه اليه افكاره .

وتدخلٌ الشرطي المجهول :

ـ يا سيد « دياز » نحن بصدد قضية على جانب كبير من الاهمية ، وهي مُلِحَّة جداً . ونحن فعلاً بحاجة الى مساعدتك .

ـ لقد قدَّمت لكم تلك المساعدة .

ـ أعلم ذلك . ونحن جد ممتَّين لك . ولكن يجب حتماً ان نجد تلك الفتاة . ويجب اذن ان نتحدَّث مع صديقك (وأخرج من جيبه علبة « ونستون » وانحنى يقدِّم لفافة الى ريكو الذي رفضها العبد) انت غالٍ كثيراً بالنسبة الينا ، يا سيد « دياز » وصدِّقني ، اننا لن نفعل شيئاً من شأنه ان يُورِّطك . ولن تكون ثمة اية مجازفة بأن يشم صديقك أية رائحة تخصّك . إنني أعدك بذلك .

وأشعل الشرطي لفافة وسحب منها نفساً طويلاً .

ـ فرانك ، أظن أنني فهمت بأن إحدى صديقات السيد دياز تعاني في الوقت الحاضر من بعض الصعوبات مع شرطة نيويورك .

ـ اذا كنت تعتبر ان خمس سنوات سجن لا تشكل ، بكل دقّة ، حفلة انشراح ، فهي في الواقع تواجه بعض القضايا .

ـ ألا تستطيع تدبُّر الامر لسحب الشكوى ، بالنظر لأهمية تعاون السيد « دياز » معنا ؟

ـ أجل ، اعتقد ذلك .

ـ هذا اليوم ؟

ـ اذا كان ذلك ضرورياً .

ـ أجل ، إنه ضروري .

ولاحظ « ريكو » في المرآة الارتدادية ان نظر الشرطي كان قد تركَّز عليه .

ـ الفتاة تخصُّك يا سيد « دياز » أفلا تُجْهِد ذاكرتك قليلاً ؟ إني اكرر القول بأنه ليس ثمة أية فرصة في العالم بأن يتمكن صديقك من الرجوع اليك . أية فرصة .

وكان « ريكو » يرغي ويزبد قائلاً : « ما الذي دعاني ذلك اليوم لأن اتركها تذهب مع ذاك العسكري ؟ يا لها من مُغفَّلة ! مع أنني قلت لها ان لا تُهاجم أيّ زبون، حتى لو رفض الدفع. »لقد كانت « أنيتا » الآلة الوحيدة في اسطبله التي تتقاضى مئة دولار.كانت مؤخرتها منجم ذهب . الفنان ، ثلاثة آلاف دولار بالاسبوع : مرتين اكثر من سائر بناته . ولقد كانت المصدر الرئيسي لحياته الفخمة ، ولم يكن بحاجة ليرسمَ له احد ماذا سوف يحدث له اذا لم يرضخ لابتزاز الشرطيين . فإذا ما أصرَّ على عدم البوح بمعلوماته ، فوداعاً « لطفلته » التي ستزجّ خمس سنوات في السجن ، وسيكون من نصيبه التقشُّف . اما اذا ما تكلّم ، فستعاد له بيضاء ناصعة ، وستظل مورد رزقه .

وضرب « ريكو » المِقوَد بقبضته . وازدرد عدة مرات بعصبية ، وتمتم قائلاً :

ـ أحقاً ، لن يصيبني أيُّ ضرر ؟

وأكَّد « فرانك » :

ـ يمكنك ان تمنحنا ثقتك .

وكان « ريكو » يزن ، في الناظمة الآلية لرأسه الصغير ، المحاسن والمساوىء ويقدر المخاطر ، آخذاً بعين الاعتبار ارتفاع أسعار الكوكايين الجِّيد السريع والثروة الصغيرة اللازمة لسيِّد مثله للمحافظة على مستواه .

واضطر الشرطي الذي كان الى جانبه الى الانحناء ليلتقط الهمس الذي لا يدرك والذي انتهى بأن أطلق على مضض :

ـ بدرو . الشقة أ ـ ٥ ، ٢١٣ ، واست ، الشارع الخامس والخمسون .

* * *

كانت الفتاة العربية التي يبحث عنها مكتب التحقيقات الاتحادي خلف مقود سيارة فورد تسير بسرعة خمسين كيلومترا شمالي مانهاتن على الطريق ١٨٧ باتجاه « تاريتون » . وكانت ليلى دجاني قد استأجرت هذه السيارة قبل خمسة عشر يوماً من « بوفالو » وزيادة في الحذر ، كانت قد استبدلت الارقام المعدنية بلوحات مختصة بولاية « نيوجرسي » كانت قد سرُقت قبلا من سيارة سائح اميركي في بادن ـ بادن في المانيا . وكان شقيقها وليد ، الجالس الى جانبها ، يُقلِّب أزرار الراديو بحثا عن نشرة اخبار الساعة العاشرة .

وقال مُهَلِلاً :
ـ لربما سمعنا بأن الإسرائيليين بدأوا يحزمون أمتعتهم .

ووجَّهت اليه ليلى إبتسامة دَهِشة ، وكانت تفكِّر داخل نفسها : « كم تغيَّر خلال بضع ساعات ! يبدو أنه استعاد هدوءه الداخلي ، وأن خشية الفشل التي كانت تُعذبه حتى تلك الليلة قد زالت . قد يكون هذا العلاج الذي أعطيته اياه . إنه ، على كل حال ، لم يَشْكُ مرة واحدة من القرحة منذ سفرنا » .

وانزلقت ليلى الى خط اليمين لتتجاوزها شاحنة مُبرَّدة ضخمة . وكانت تقود وعينها على العداد ، ساهرة على ان لا تتجاوز السرعة القصوى ، تسعين كيلومترا في الساعة . فلم يكن الوقت مناسبا لتوقيفها من أجل تجاوز السرعة.وكانت تتساءل : « اذا ما بدا وليد مرتاحاً الى هذه الدرجة ، افليس ذلك ، في الأساس ، لأن مهمته ، هو ، قد انتهت ؟» وكانت تقوده الى الملجأ الذى كانت قد أعدَّته في قرية « دوبس فرِّي » ، المرحلة الأولى على طريق الهرب . وسوف تعود حالاً الى مانهاتن ، وتأخذ بعد ذلك كمال الذي كان عليه ان لا يترك المرأب إلاّ قبل ساعتين من الوقت الملحوظ للتفجير . وعندئذ سوف يجتاز الأخوة دجاني الثلاثة الحدود الى كندا ، مزوّدين بجوازات سفر مُزوَّرة ، وسوف يبلغون مرفأ « فانكوفر » على شاطىء الباسيفيكي . وسوف تصل في ٢٥ كانون الاول سفينة شحن ترفع العلم البانامي ولكنها تنتمي الى شركة ليبية ، وتأخذهم من المرفأ المذكور . وكانتْ ليلى قد قدَّرت بأن الكنديين لن يراقبوا على الارجح الأرصفة بكثير من الانتباه يومَ الميلاد .

وعند مخرج شارع « اشفورد » ، تركت المرأة الشابة الطريق ١٨٧ نحو الغرب باتجاه « الهودسون ».وبعد عدة دقائق ، كانت تقف امام متجر كبير،وحرصت على إيقاف سيارة الفورد في نقطة بعيدة عن الموقف .

- وليد ، من الأفضل ان تذهب انت لشراء المؤن . فسوف تُلاحَظ أقلَّ مني . وسيكون من الغباء الشديد ان نتعرَّض لأخطار لا طائل تحتها .

وحدجها وليد بنظرة حارَّة وخرج من السيارة . وأشعلت ليلى الراديو . وكان شقيقها ربما استعاد هدوءه ، ولكنها هي ، على العكس ، كانت تشعر أنها مضطربة وقلقة اكثر فأكثر ، وكلما مرَّت الساعات . وادارت الأزرار حتى وجدت موسيقى قد يساعدها ضجيجها على طرد افكارها السوداء . وكانت يداها تضمان المقود . وكانت تردد : « لاتفكري بشيء ، إجعلي فراغاً حولك . » ولكنها كانت ترى ثانيةً صورة ميخائيل ، ميخائيل المُفتَّت بكرة النار والمنهوش الوجه بالإشعاعات القاتلة والمحترق وسط عويل الألم . وكانت تحاول عبثاً إقناع نفسها بأن القنبلة لن تنفجر وأن الأميركان سوف يرضخون ، في اللحظة الأخيرة ، لإنذار القذافي وأن السلاح الوحشيّ سوف يُعطَّل في الوقت المناسب ، ولكن الافتراض المعاكس بأن الكارثة سوف تَحُلّ ، كان ما فتيء يُعذِّبها .

وكانت مستغرقة بأفكارها تلك حتى أنها لم تسمع باب السيارة يُفتح . ووضع وليد على المقعد علبة الكرتون المليئة بالطعام والتي كانت ترتفع منها زجاجة الويسكي جوني ووكر .

- وقُرحتك ؟

- لا تقلقي بشأن قرحتي !

* * *

كانت قد انقضت عشر ساعات من مهلة الست والثلاثين ساعة التي كان ينطوي عليها إنذار القذافي . وفي باريس كانت الساعة الرابعة بعد الظهر ، ذلك الأثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول . وكان اللواء « هنري بارتران » مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية ، قد تمكَّن ، في نهاية الأمر ، من الاتصال بالمهندس الفرنسي الذي كان قد قاد بناء المفاعل الذري الذي باعته فرنسا الى ليبيا . وكانت عينا رئيس دائرة الاستخبارات الفرنسية ، المغلقتان نصفياً ، ومظهره الذي لا يُسْبَر غوره ، يحمل على الاعتقاد بأن فكره كان تائها عبر آلاف الكيلومترات . ولكن فكره كان ، في الواقع ، مأسوراً بالمؤخرة المُتموِّجة للخادمة الإسبانية الفتية التي كانت قد أدخلته الى صالون الشقَّة الأنيقة في الدائرة السادسة عشرة . وتفحَّص مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية المكان . كانت كُوَّة طويلة مُزجَّجة تشرق على غابة بولونيا حيث كان قد تنزّه على جواده قبل بضع ساعات . وكانت الجدران مُزيَّنة بخزانات زُجاجية مُغطَّاة بمخمل قرمزي كان يُبرز قيمة مجموعة من التحف الشرقية واليونانية الرومانية ، وكان « برتران » ، المولود في الهند الصينية ، يُقدِّر ، بوصفه هاوياً نيِّراً ، كنوز الشرق . وكانت بعض القطع ذات الأصل الهندي ، كتمثال صغير من الحجر الرملي الوردي للإله « سيڤا » ، اعتبره يعود للقرن السابع او الثامن ، تبلغ حقاً سعراً مرتفعاً جداً . وكان جوهرة تلك المجموعة رأسٌ روماني رائع موضوع على طاولة واطئة في منتصف الصالون . وكان ضعفي الحجم الطبيعي، تحيط به هالةٌ رقيقة من نورٍ منبعثٍ عن مِسلاطٍ(*) . وكان هذا الرّخام يشعُّ جمالاً قلما شاهد مثله مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية .

وسَمِعَ باباً يُفتح وظهر رجل قصير القامة ، سمين ، أصلع الرأس . وكان يرتدي مِبْذلاً من الحرير الأحمر مزرّراً حتى الذقن ، يصل الى خُفَّين من المخمل الأحمر مُزيّنين بحلقة مُذهَّبة . وفكَّر « برتران » بأنه يشبه موظفاً كبيراً في الأمبراطورية الصينية القديمة أو كردينالاً يسير نحو كنيسة « سيكستين » لحضور مجمع انتخاب البابا .

(×) آلة تسلط بقعة ضوئية على شاشة (المنهل) .

وكان « بول هنري ده سار » أحد أقدم الوجوه في مفوضية الطاقة الذرية الفرنسية . وكان قد استهل حياته المهنّية بالعمل ضمن نطاق « زو ـ ايه » أول مفاعل ذرّيّ فرنسي الذي كان بدائياً لدرجة ان قضبان الأورانيوم فيه كانت تدار بواسطة محرك آلة خياطة . ثم تخصّص فيما بعد في بناء المحطّات النووية الألكترونية ، وهذا ما قاده الى الإقامة فترات طويلة في البلاد التي كانت فرنسا تُصدِّر اليها منشآتها الذرية . وهكذا كان قد كُلِّف مؤخراً بالأشراف على تركيب المفاعل المباع الى ليبيا وتأمين عمله خلال فترة الستة الاشهر الأولى الحرجة .

وتنهّد المهندس لما شرح له « برتران » سبب زيارته قائلاً :

ـ إن من عادة أصدقائنا الأميركيين أن يشيروا إلينا بإصبع الإتهام . وهاهم منذ سنوات يحسدون انتصاراتنا ، وإن مجرَّد التفكير بأن الليبيين سوف يكون بإمكانهم استخدام البلوتونيوم إنطلاقاً من مفاعلنا ، امرٌ محال .

وكان برتران مُسْترخياً براحة على مَثواةٍ(*) من طراز لويس السادس عشر وقد انتفخ صداره قليلاً بكَرْش خفيف . وأشعل لفافة « جيتان » وسلَّم قائلاً :

ـ إن خبراءنا يؤيّدون رأيك . لكن هذا لا يمنع أن يصبحَ الأمر مربكاً اذا كان هذا البلوتونيوم قد سُرِق من منشآتنا . قل لي ، يا سيدي العزيز ، ألم يحدث مطلقاً في ليبيا أي شيء من شأنه إثارة أية شبهة من قبلكم ؟ أي شيء غير اعتيادي كلياً ؟ اي شيء استثنائي ؟

ـ كلا مطلقاً .

ـ ألم يحدث شيء . . . لا أدري . . . ألم يحدث أيّ خلل في سير المفاعل ، حوادث ميكانيكية لا يمكن تفسيرها ؟

ـ لم يحدث أيّ شيء من هذا ! ولكن من الواضح ، على كل حال ، أن القذافي سيكون مبتهجاً ان يمتلك قليلاً من البلوتونيوم . وكلما لُفِظَت كلمة « نووي » امام العرب ، تتألّق عيونهم . وما أستطيع قوله ، هو أنه لم يتمكن من أخذ ما يريده من البلوتونيوم من عندنا .

ـ هل لديك أية فكرة عن الامكانيات التي سوف تكون لديه للحصول عليه ؟

ـ لا ، ليس لديَّ أقل فكرة !

ـ وفنّيوكم ؟ أليس بينهم من يتعاطف مع القضية العربية ؟ أشخاص مستعدون لمساعدة الليبيين ؟

ـ كل رجالنا هناك ، كما تعلم ، كانوا موضوع تحقيق مسبق من قبل دائرة حماية سلامة البلاد ، وذلك بالضبط لاستبعاد هذا النوع من الأشخاص الذين تتحدث عنهم . ومع التأكيد على ذلك ، فقد وصلوا الى ليبيا وأغلبهم يتعاطف مع القضية العربية . ولكني أضيف حالاً بأن التعاون مع الليبيين لم يلبث ان جعل حماسهم يَـفْتر .

ـ هل التعامل معهم صعبٌ ، هؤلاء الليبيين ؟

ـ إنه مستحيل .

(×) كرسي واسع منجّد المساند والظهر (المنهل) .

وفكَّر اللواء : هاك شخصاً لا يكنُ لهم شيئاً في قلبه .

وبعد ساعة من المحادثات ، لم يجد رئيس دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية نفسه اكثر اطلاعاً من ذي قبل . فقد كان مصدر البلوتونيوم بالنسبة للقذافي لا يزال غامضاً . ولا ريب في أن الأمر كان مجرَّد سرقة ، ولكن أين ؟ وقال برتران بأدب وهو يقف :

ـ حسناً ، سيدي العزيز ! أظن أنني أخذت من وقتك ما فيه الكفاية .

وسارع المهندس الى القول :

ـ لا تتردّد ، عند الاقتضاء ، في الاتصال بي .

ولدى خروجه ، أعجب « برتران » ثانية بجمال الرأس الروماني المُذْهِل وبالصفاء الكامل لذلك القناع الذي كان يرسل نظره من رخام لم تغيّره القرون . وقال مشدوهاً :

ـ يا له من أعجوبة ! أين وجدته ؟

ـ إنه صادر عن « لبيتس ماغنا » ، موقع أثري على مسافة مئة كيلومتر شرقي طرابلس (وداعب « بول هنري ده سار » الشعر الرخامي ، وهو يُعبِّر عن نشوته) إنه جميل، اليس كذلك ؟

ـ رائع (واشار « برتران » الى الخزائن الزجاجية على طول الجدران) كمجموعتك كلها !

وتقدَّم من رأس « سيفا » .

ـ هذه القطعة هي ايضاً استثنائية . وسأقول إنها تعود الى ما لا يقل عن الف ومئتين او الف وثلاثمئة سنة . إنك عثرت عليها في الهند ؟

ـ أجل . كنت أتولى منصباً هناك في أوائل السبعينات بوصفي مستشاراً فنياً .

وكان اللواء يتأمل الحجر الدقيق الصنع .

ـ انك رجلٌ مُشبعُ الرغبات ، رجلٌ مُشبعٌ حقاً .

* * *

في نيويورك كان الشرطي « جاك راند » ينهي تفحُّصَ بيان « هيلياس ستيڤادور » الأخير . وأعاده بعناية الى مكانه وزرَّر ياقته وضبط ربطة عنقه ونهض . وعند ذلك تحقَّق غاضباً أن زميله كان قد أنهى زمته منذ وقت غير قصير . وكان « انجيلو روكيا » ، وقد وضع رجليه على الطاولة ، يلتهم قطعة حلوى بالشوكولا كان قد تناولها من صينية سكاكر قابعة في زاوية من المكتب . وكان يثرثر بهدوء مع مستخدم الشركة .

وأعلن الشرطي بخشونة ، وهو يهمُّ بالانصراف :

ـ حسناً ، لقد انتهينا هنا . يجب ان نُسرع بالذهاب لرؤية الرصيف التالي .

وتجاهل « أنجيلو » هذا الإيعاز وأخذ يلحس بخشوع آثار الشوكولا على أصابعه . وكان يُفكِّر : ان هذا الغِرّ مزعج حقاً . لم أر قط شخصاً متسرعاً مثله . ثم فكَّر فجأة : إلا اذا كان مطلعاً على شيء لم يستحسن أحد إطلاعي عليه ؟

وأراح الشرطي رجليه على الأرض ونظر خلال لحظة رزمة البيانات على الطاولة ، وبحركة حادّة ، أمسك بالورقة العليا ونهض منتصباً أمام المستخدم دون أن يوجِّه كلمة للشرطي .

ـ قل لي يا توني ، هل لديك أوراق أخرى تتعلق بحمولة المشطورات ؟

وتفـحَّص « بيكاردي » بيان « ديونيسوس » واخذ ملفاً اسود من خزانة ذات أدراج . وكان ثمة ملف بكل سفينة ترسو بجانب رصيفه . وكان يحتفظ فيه بصورة عن وثائق شحن جميع البضائع المُفرَّغة وإشعارا لاستلام المرسل الى وسيط العبور ومستند التصرّف المؤشر عليه من الجمارك وورقـة الـرصيف . وأخرج ورقة الرصيف العائدة إلى وصول الدفعة الأخيرة من براميل المشطورات من ليبيا .

وكانت تشير الى اسم صاحب الشاحنة الذي أمَّن النقل ورقم السيارة المعدني والساعة التي غادر فيها المستودعات ووصف الحمولة .

ـ ياه ! لقد تذكرت تلك العملية . ان « مورفي » هو الذي يحضر عادة لنقل بضاعة تلك السفينة الرديئة . اما ذلك اليوم فلم يحضر هو ، بل حضر شخص مع شاحنة من عند « هرتز » .

وضرب « رند » بإصبعه على البيان الذي كان يمسك به « انجيلو » .

ـ ألا ترى ، إذن ، أن تلك البراميل تزن خمسمئة ليبرة فقط ؟

وقهقه الشرطي واتخَّذ ، كذباً ، مظهر الذهول وقال :

ـ بدون هُزالة (ثم توجّه الى « بيكاردي » وعيَّـن له « رانـد » بإبهامـه وأضـاف) : إن لطفلي دماغاً ! إنه حقاً ناظمةُ آلية .

ـ إذن ، لماذا نضيع وقتنا هنا ، في حين أن لدينا رصيفين يقتضي تفـحّصهما ؟

وقام « انجيليو » بربع دورة الى اليمين وحدَّق بالشرطي بهدوء قائلاً :

ـ أتريد يا ابني أن أقول لك شيئاً : إنك على حق . يجب أن نذهب الى مكان آخر . ولكن قبل ذلك ، ومن أجلنا فقط ، يجب القيام بعمليتين او ثلاث عمليات تثبُّت . وهكذا تستطيع هذه الليلة ان تُغْرِق رأسك في الوسادة ، في الموتيل(*) الجميل الذي وضعك فيه رؤساؤك وان تنام كالملاك . وستعرِف أنك قد دقَّقت كل شيء وأنك لم تترك شيئاً لم تطلع عليه .

ورجع « انجيلو » نحو المستخدم :

ـ توني ، أليس لديك بعض الأشخاص الذين يستطيعون تذكُّر شيء ؟

وتفـحَّص « بيكاردي » أسفل ورقة الرصيف .

ـ ربما ذانك الشخصان اللذان نقلا البضاعة .

ودوَّن « انجيلو » اسم العاملَيْن على قصاصة صحيفة .

وأفلت قوله متفاخراً :

(×) فندق على الطريق العام يبيت فيه الرحّالون ليلتهم ويوقفون في ساحته سيارتهم .

ـ حسناً ايها الصديق ! ما قولك في ان تأخذنا الى هناك وان تقدّمنا الى هذين السيدين ؟ (وفرقع أصابعه باتجاه « راند ») تعالَ ، يا بُنيّ ! سيكون لك حظّ اكتشاف ماذا يشبه احد أرصفة « بروكلين » .

* * *

كان الـ « بروكلين اوشيان تارمينال » نفقاً مُظلماً لا نهاية له ، متسعاً كملعب كرة القدم . وكان يسود فيه نشاط كثيف . وكانت جبال من البضائع تتكدس فيه حتى السقف . وكان فَوَحان التوابل والقهوة الـمُحـمَّصة يتموَّج مع الغبار ويُعطي تلك الردهة الفسيحة جوّ بازار شرقي . وكانـت حزمـات ضوئية طويلة تتسلّل بفترات منتظمة عبر ابواب الأرصفة العائمة وتُلقي نوراً باهتاً على العربات الرافعة ، وهي في أقصى نشاطها تحوّم كعناكب الماء فوق سطح المستنقعات . وعند نهاية الرصيف ، كان سُـلّم صديء يرقى الى المصطبة العليا ، وكانت لا تزال تُقرأ على جوانبه : « إبحار الجيوش » . والى جانبه كان ثمة نوع من القفص بقضبان من الخشب ـ يُطلَق عليه اسم الصندوق ـ لإيواء البضائع الثمينة كصنـاديق الـكونياك الإسباني والسبومنت الإيطالي والعاج السنغالي واشياء من عرق اللؤلؤ آتية من بالي(*). ومـرّ « انجيلـو » و « رند » امام إهرامات علب الزيتون اليوناني وصفائح زيت دوار الشمس التركي واكياس جوز الكاجو الهندي وبالات القطن الباكستاني ورزم الجلود الأفغانية العفنة .

ـ عندهم في هذا المكان متجر كبير مُقدَّس . انك لا تتصوّر مقدار السرقات التي يختص بها عملاء الأرصفة انفسهم .

وكان « بيكاردي » يمشي أمامهما على بعد مترين او ثلاثة ممسكاً بيده ورقة رصيف الـ « ديونيسوس » وسأل « انجيليو » :

ـ ألديكم غالباً ، يا توني ، شاحنات بالإيجار تنقـل البضائع ؟

وأجاب المستخدم دون أن يلتفت :

ـ ليس لدينا شاحنات غالباً بل مرتين او ثلاثاً في الأسبوع . هذا يتوقّف على الظروف .

وقاد الزائرين نحو جماعة من عمال الأرصفة الذين كانوا ينزلون ألواح القهوة فتقدّم من أحدهـم ، وكان شديد البأس يُـمْسِك بيده كُلاّب الحـمّالين . ولاحظ « انجيلو » ان بياض عينيه كان محزَّزا بخيوط صغيرة ورديَّة . وفكّـر بأنه هاوي نبيذ . وأبرز « بيكاردي » ورقة الرصيف .

ـ إن هذين السيدين يريدان معرفة ما اذا كنت تذكر شيئاً عن تلك البضاعة .

والى الوراء كان العمل قد توقّف . وكان الرجال قد شكلوا حلقة صامتة ومعادية حول « انجيلو » و« راند » . حتى ان عامل الرصيف لم ينظر الى المستند ، بل دمدم بصوت أجش :

ـ لا ! لا اذكر شيئاً .

وقال « انجيلو » في نفسه : ان الكحـول قد أفقـده ايضـاً الـذاكرة . وفتَّش في جيبـه عن علبـة الـ « مارلبورو » . كان قد انقطع عن التدخين منذ خمس سنوات ولكنه كان يحمل دوماً لفافات وحبات من فستق العبيد ، ليوزعَ منها عند الاقتضاء . لأنه ، كما حفظ ذلك عندما كان شرطياً مبتدئاً ، لا شيء

(×) جزيرة هولندية يفصلها عن جاوا مضيق بالي .

يكسر الجليد كالعطاء . وقال بالإيطالية :

ـ خذ لفافة ايها الصديق .

وفيما كان الرجل يشعل لفافته ، تابع « انجيلو » :

ـ إسمع ، ان ما جئنا نبحث عنه هنا لا يتعلق بأمورك الصغيرة مطلقاً . . . هل انت تفهمني !

ونظر عامل الرصيف الى « بيكاردي » من زاوية عينه . وبحركة من حاجبيه ، أشار اليه المستخدم أن بوسعه أن يتكلّم . وسأل « انجيلو » برفق :

ـ ماذا كانت تشبه تلك البراميل ؟

ـ حسناً ، صفائح ، صفائح كبيرة .

ـ هل تتذكر الشخص الذي حضر لأخذها ؟

ـ لا .

ـ أود أن اقول ، هل كان ممن اعتادوا المجيء الى هناك ؟ رجل كان يعرف الأمكنة والموسيقى والعادات ، هل تفهم ؟

وهذه الإشارة الى العادة التي تقضي برشوة الرجال الذين ينزلون البضائع ، كان لها اثر فعّال في تملّق عامل الرصيف .

ـ ياه ! إني استبعد رؤيته فعلاً ، هذا الفلاح (وطقطق لسانه بين اسنانه) يبدو أنه ذُكّر بالأساليب الحسنة ، ولما فهم سحب من جيبه ورقة الخمسين دولاراً . اجل ! اكيد ، إني اذكر ذلك .

ولم يَدُر دم « انجيلو » الا مرّة . وتساءل : اذن ، من كان بوسعه ان يدفع هكذا خمسين دولاراً ؟ حتما ، لم يكن ايطالياً ! ولا ارلنديا ! في الواقع ، لم يكن ممن اعتادوا ارتياد الأرصفة . ولا يمكن ان يكون الا أجنبياً ، وشخصاً لا يعرف عادات الأرصفة .

ـ هل تذكر من كان يشبه ؟

ـ كان رجلاً ، ماذا استطيع أن اقول لك ؟ رجلاً ، كان رجلاً .

وثارت أعصاب «جاك راند » وقال :

ـ « انجيلو » إننا نضيع وقتنا هنا ، فلنتوجّه الى الرصيف التالي .

ـ موافق ، فلنذهب اليه .

واطلع العامل على ورقة الرصيف التي كان يمسك بها « بيكاردي » .

ـ وزميلك الذي اشترك معك في التحميل ، اين هو ؟

وأجاب عامل الرصيف :

ـ ذهب الى المطعم ليلعب بالورق .

ـ حسناً يا بني ،سأتوقف هناك دقيقة ثم ننصرف .

وقبل ان يُتاح « لراند » الوقت الازم للنطق بأي اعتراض ، كان الشرطي النيويوركي قد وضع يده الغليظة على كتفه .

ـ انت مُستعجل وانا ايضاً (وانتزع ورقة الرصيف من يديْ « بيكاردي » وأشار الى رقم تسجيل الشاحنة التي كانت قد أتت لاستلام البراميل) وفي الوقت الذي أذهب فيه الى المطعم ، اذهب انت فتلفن الى « هرتز » وحاول ان تعرف اسم الوكالة التي استأجرت الشاحنة وباسم من نُظِّم عقد الإيجار .

وبعد أقل من خمس دقائق ، رجع « انجيلو » من المطعم دون ان يتمكن من انتزاع اي همس من لاعبي الورق ، وقدَّم له « راند » ورقة تتضمن المعلومات العائدة لشاحنة « هارتز » . وكانت قد استؤجرت من وكالة الجادة الرابعة في بروكلين ، خلف المستودعات تماماً ، الساعة ٣٠/ ١٠ من صباح يوم الجمعة ، قبل قليل من ساعة التحميل المدوَّن على ورقة الرصيف . وكان الزبون قد أعادها مساء اليوم نفسه بعد أن كان قد سدَّد الأجر بموجب بطاقة اعتماد صادرة عن « الامريكان اكسبرس » .

وكانت إجازة السَّوْق الصادرة عن ولاية نيويورك تحمل اسم « جيرالد بوتنام » مقيم في « الأنتراوشيان اكسبورت » ، ١٢٣ « كدمان بلازا واست » ، « بروكلين هايتس » .

وكرر « انجيلو » الاسم والعنوان بارتياح .

ـ احسنت يا بني ! يجب التثبّتُ . إتصال هاتفي قصير ، وبعد ذلك نصبح قريري العين

ووجد في الدليل رقم « الأنتراوشيان » فطلبه فوراً . وسمعه « راند » يذكر اسمه وصفته الى عاملة الهاتف ثم يطلب التحدث الى السيد « بوتنام » ذاكٍ . واثناء فترة الصمت الذي عقب ذلك ، قهقه « انجيلو » واستشهد بالشرطي و « بيكاردي » قائلاً :

ـ هل تعرفون ، انتم ، اصحاب شاحنات عندهم سكرتيرة ؟

ثم استعاد رصانته كلَّها وتحدَّث الى السكرتيرة المذكورة :

ـ نعم يا آنستي ، الموضوع شخصي . . . ألّو ، السيد « بوتنام » ؟ هنا المفتش « انجيلو روكيا » من المفرزة الجنائية . لقد أعلمتنا وكالة « هارتز » المقيمة في بروكلين الجادَّة الرابعة ، أنك كنت قد استأجرت إحدى شاحناتها ؛ الجمعة الماضية حوالي العاشرة صباحاً ، ونحب . . .

وعلى بعد متر من هناك ، سمع « راند » صوت « بوتنام » يصرخ في الهاتف .

ـ ماذا عملت ؟ انت مخطىء ايها المفتش ! صباح الجمعة لم أغادر مكتبي . إنني اذكر ذلك جيداً .

فلقد أضعت محفظتي في ذلك اليوم . وقد اعتقدت أنك طلبتني لتبلغني أنك عثرت عليها .

* * *

أصبحت القيادة العامة المكلفة بتنسيق اعمال التحري ، والتي لم يكن فريق « روكيا ـ راند » الا

احدى حلقاتها التافهة ، عمليّاتيّة(*) إعتباراً من منتصف صبيحة ذلك الأثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول .
وكانت تتوفّر في ذلك المكان ، الذي اختاره « كانتن دوينغ » مدير مكتب التحقيقات الاتحادي القادم من واشنطن ، الشروط المثالية للسريّة. وكانت القيادة العامة للطوارىء لمدينة نيويورك مطمورة على عمق ثلاثة طوابق تحت محكمة « فولاي سكوير » . وكانت قلّما استعملت لدرجة أن جميع الناس تقريباً بدءاً بالصحفيين المعتمدين لدى رئاسة البلدية ، كانوا قد نسوا وجودها . وكانت عبارة عن كهف هائل مقسّم الى سلسلة غرف حيث كان كل شيء رمادياً : الجدران والأرض والأثاث وحتى وجوه الشرطيين الذين كانوا يؤمّنون حراستها ليلاً نهاراً .

وبتلك العناية المنهجيّة التي اشتهر بها مكتب التحقيقات الاتحادي ، كان « دوينغ » قد حوّل القيادة العامة الراقدة ، بفترة قياسية ، الى قفير طانٍّ . وكان خمسون شرطياً يشغلون المقسم الهاتفي وكانت مهمتهم تجميع المعلومات المختصة بالعرب القادمين الى منطقة نيويورك خلال الأشهر الستة الأخيرة .

وكان لدى كل مأمور خط هاتفي . وكان بعضهم على اتصال مستمر بدائرة الهجرة في واشنطن ومع زملائهم الذين كانوا يدقّقون في المطارات بطاقات النزول نموذج ٩٤ ـ ١ . وكانت ثمة ، على احد المكاتب ، ناظمة آلية مصغّرة كانت تقوم بدور مصرف مركزي لتحقيق الذاتيّة : وكان المأمورون كلما أبلغوا عن اي اسم او عنوان ، يعهدون بها الى ذاكرة الناظمة . وكل شخص من أصل عربي لم يُعثر عليه ولم يبرأ في الحال ، كان اسمه يُدوّن على بطاقة الأولويات الخاصة .

وكان « فلدمان » رئيس مُفتّشي شرطة نيويورك يصغي بإعجاب الى هذا السّيل غير المنقطع من الأسماء والعناوين المبلّغة الى سيارات مكتب التحقيق الاتحادي المُنْتَشِرة في منطقة نيويورك كلها .

ـ روميو ١٩ ! اهتم بالمدعو احمد عتّال ـ أهجّيء : اريزونا ، تنسي مرتين ، اريزونا ، لويزيانا مقيم في بروكلين ، ١٩٠٤ ، الجادة الرابعة .

وكانت العملية ، التي تجري في الغرفة المجاورة ، اكثر إثارة للدهشة . فقد كانت تُنسّق التحريات في منطقة الأرصفة . وكانت الخرائط التي تبين التسعمئة والثمانين كيلومتراً للواجهة المائية لنيويورك ونيوجرساي ، معلّقة على الجدران . وكان كل واحد من المئتي رصيف عائم مُفهرساً على ألواح . وكانت اسماء السفن التي أُنزلت عليها بضائع آتية من طرابلس او بنغازي او اللاذقية او عدن او البصرة ، تُدوّن على تلك الألواح وكذلك تاريخ وصولها الى مرفأ نيويورك . وعندما يكتشف فريق ما دخول بضاعة مشبوهة ، كان يبلّغ هاتفياً جميع المعلومات المتعلقة بمستلم تلك البضاعة . واذا كان التسليم قد حصل في منطقة نيويورك ، فإن القيادة العامة كانت تُطلِق في أثرها فريقاً من الجمارك او مكتب المخدرات . واذا كانت البضاعة قد أُرسلت خارج نيويورك ، فإن مأموراً من أقرب دائرة لمكتب التحقيقات الاتحادي ، كان يوفد للقيام بالتحرّيات المحليّة .

وأثناء تجوُّله في القاعة ، توقّف « فلدمان » وتأمل ، والبسمة الساخرة على طرف شفتيه ، عمل رجال الشرطة ، الشبيه بعمل النمل .

ـ آلو ، دترويت ! مرسل لكم خمسمئة صندوق تمر مصدرها البصرة، المستلم : ماريز فود بروداكتس ، أ/١١٣٢ ، جادّة ديربورن .

(*) ذات علاقة بالعمليات الحربية (المنهل) .

ـ روميو ١٧ ، دقّق لتوّه في الاثنتي عشرة بالة من الجلود الآتية من اللاذقية والـمُنزلة من الباخرة س/س برودانسيال ايغل ، بتاريخ ١٩ تشرين الثاني على الرصيف ٣٢ لمرفأ « اليزابيت » . لا شيءغير طبيعي .

ـ سكَنر ٦ » ! (سكنر كان الاسم المرموز المعطى لمأموري الجمارك) اهتمّـوا بالمئتين وخمسين صفيحة من زيت الزيتون الواصلة من بيروت لحساب « براديز سبْلاي » ١٤٧٦ ديكنور ، بروكلين .

وكان « دوينغ » قد أقام مكتبه في الغرفة المخصَّصة لرئيس البلدية في حالة الإنذار النووي . وفي الغرفة المجاورة كانت تعمل بطّارية أجهزة استقبال مُضاعفة الإرسال كانت تتلقّى سيلاً غير منقطـع من المعلومات الصادرة عن علبة البطاقات العائدة للوكالة المركزية للاستخبارات ومكتب التحقيقات الاتحادي وكذلك عن اتصالاتها بالخارج.وكان « كليفورد سالزبوري » مأمور الوكالة المركزية للاستخبارت ، ذو اللحية الصغيرة ، يدرس بمنهجية ملف كل إرهابي وينتقي الأشخاص من مستوى ادبي مُعيَّن الذين اقاموا بعض الوقت في الولايات المتحدة . وفكَّر « فلدمان » لدى مشاهدته اكداس الصور التي كانت ترتفع على مكتبه : رائع . سيكون بعد قليل مئة منها . . . لن تفيد شيئاً بالضبط . . . ما الذي سيعملونه بكل هذه الصور ؟ سوف يُطلعون عليها اصحاب المقاهي في بروكلين ؟ قل لي ، ألن تكون قد رأيت صدفة هذا الشخص ؟ وذاك ؟ وذلك ؟ وبعد ثلاث او اربع صور سيصاب الناس بالدوار ، وفي الواقع ، فإنهم سيصابون بالبلادة لدرجة انه لن يصبح بوسعهم التعرُّف على شقيقهم أو شقيقتهم .

واخرج « فلدمان » لفافة « كمل » من علبة مسطَّحة تماماً . ومع ذلك فإنه كان يُقدِّر الدقة التي كان يتحلى بها مكتب التحقيقات الاتحادي . وكانت أغلب التحقيقـات الكبـرى تنطلـق من قاعـدة واسعـة وتتجمَّع ، رويداً رويداً ، مع بعض الحظ ، عند نقطة معينة . وقد جُرِّبت هذه الطريقـة . شرط ان يكون بتصرف الإدارة ثمانية أو عشرة أيام . وكان يفكِّر : ان رجل الوكالة المركزية للاستخبارات ينسى ، والحالة هذه ، أنه لم يبـق امامنا حتى ثلاثون ساعة . وسوف يكون القذافي قد مرَّر المدينة ، منذ زمن بعيد،على المشواة ، بينما لا يزال ، هو ، في المرحلة الثالثة من تحقيقاته . ولكي يؤدي كل هذا العمل الى نتيجة ما ، يجب ان يزوِّدنا بالسرّ الحاسم ، صورة الوجه الوحيد الذي ينبغي البحث عنه بين الجمهور ، وبكل سرعة .

وانتزع « فلدمان » من أفكاره ، دخول ضابط الشرطة النيويوركية المكلف بالتجسُّس على الأحياء العربية في بروكلين . وكان هذا شاباً من فرجينيا ، مكوَّناً على غرار الصف الثالث من لُعبة الرُغبي(*) . ولما كان يُبدي ميلاً تاماً للتخيرُّ في مفاهيمه ، فإن رؤساءه كانوا قـد عهـدوا اليه ايضـاً بمراقبـة المنظمات الإسرائيلية . ولكن ملفّاته لم تكن تتضمن ايَّ شيءٍ ذي دلالة ، بل مجرَّد أقاويل مبهمة مُلتقطة من بقّال الزاوية اومن فم مخبر عابر ، من نوع : « ان جميعة الهلال الأحمر العربية ، ١٣٥ ، « اتلنتيك افنيو » ، التي قدّمت طلب إعفاء من الضرائب ، مُتَّهمة بجمع الأموال لحساب منظمة التحرير الفلسطينية ، او ايضاً « ان مقهى دمشق ، ٢٤٠ « اتلنتيك افنيو » يؤمه غالبا أنصار جورج حبش . » وفي الواقع ، ومنذ ان اباح قانون بشأن حرية الإعلام ، لكل مواطن ان يدُسَّ أنفه في جميع المحفوظات الرسمية ، فإن شرطة نيويورك كانت تتدبَّر أمرها حتى لا تُضـمِّن ملفّاتها أية معلومات هامَّة . وكانت تحفظ مثل تلك المعلومات في ملف سرِّي كان ضبّاط الاستخبارات يتركونه بمتناول يدهم وفي معزل عن أية نظرة تطفّل . وكان ملفّ المأمور الفرجيني يتضمن ، ذلك الأثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول ، قائمة بثمانية وثلاثين مشبوهاً من

(*) ضرب من لعبة كرة القدم .

منظمة التحرير الفلسطينية ، أغلبهم مهاجرون فلسطينيون شباب يعيشون في جوٍّ من الفقر في الأحياء المجاورة لمدينة الصفائح السوداء في « بدفورد ستوفزانت » .

وقال « فلدمان » مُقيّماً ومُخاطباً المأمور الفرجيني :

- نحن نعرف على الأقل أين يتواجد مشبوهونا . إنك تجمع لي كل هؤلاء الناس وتُعدُّهم لي للموت ! يجب ان تُغربل كل ما عملوه خلال الاثنتين والسبعين ساعة الأخيرة .

- بأية حجة ، يا حضرة الرئيس ؟

- أياً كانت ! للتحقّق من الهوية مثلاً . . . وفي كل حال لا بد ان يكونوا جميعاً في أوضاع غير منتظمة تقريباً .

- يا إلهي ، اذا ما فعلنا ذلك ، فسينبري لنا جميع المدافعين عن حقوق المدينة المدنية !

وكان « فلدمان » على وشك الجواب بأنه بعد بضع ساعات ، ربما لن يبقى سكان ابداً وبالتالي لن يكون ثمَّة أية حقوق مدنية للدفاع عنها ، عندما قاطعه أحد الحراس :

- الهاتف ، يا حضرة الرئيس .

وكان المُتحدِّث هو « انجيلو روكيا » . ولم يستغرب رئيس المفتّشين ان يتحدث اليه « روكيا » مباشرة دون المرور بالطريقة التسلسلية . وكان يعرف حق المعرفة جياد الرهان في إصطبله ، أولئك المنقّبين المهَرة الذين بوسعهم ان يرفعوا شأنه لدى المراجع العليا ، وهؤلاء كان قد شجّعهم دوماً على الانسياق وراء غريزتهم ومراجعته شخصياً عندما تعترضهم أية معضلة . وقد استمع الى قصة « انجيلو » ودوَّن الملاحظات اللازمة . وأمره فوراً بما يلي :

- أسرعْ الى مكتب ذلك الشخص في بروكلين وحاول أن تعرف شيئاً عن النشّال الذي أخذ ما كان في جيبه . وسأرسل فرقة أخرى لتحلَّ محلّك على الأرصفة التابعة لك .

وفيما كان يتكلّم ، كان قد ركّب ، على جهاز هاتفي ثانٍ ، رقم « تومي مالون » رئيس مفرزة النشّالين . وقال :

- إجمع صور جميع النشّالين العاملين في بروكلين وأسرع الى « ١٢٣ كدمان بلازا واست » .

وسأل مأمور « فرجينيا » .

- هل من جديد يا حضرة الرئيس ؟

ودمدم « فلدمان » وهو ينهض وقد بدت عليه الحيرة قائلاً :

- بصراحة ، إن ذلك سوف يدهشني .

وخرج وهو يخطو باتجاه رُكن كان قد اكتشف فيه إبريق قهوة كان يُسخَّن على لوحة كهربائية . وصبَّ لنفسه فنجان قهوة ساخنة ، واغتنم فترة راحة قصيرة محاولاً ترتيب افكاره . وفيما كان يُدْني الفنجان من شفتيه ، استوقف شيءٌ ما نظره . كان معلقاً على الجدار ، خلف ابريق القهوة ، إعلانٌ قديم للدفاع السلبي مع الحرف الأول المعتاد ومُثلَّث ابيض ضمن دائرة سوداء . وتعرَّف على علامة المطبعة الاتحادية وقرأ

العنوان : « نصائح يجب التقيُّد بها في حالة هجوم نووي حراري . » ويلي ذلك سبع توصيات . وكانت الأولى تقول : « إبتعد عن النوافذ » . وتصفَّح « فلدمان » اللائحة :

« ٥ ـ حلَّ ربطة عنقك وفُكَّ ازرار أكمام القميص وكذلك كل لباس مُـحْكَم .

« ٦ ـ لدى مشاهدتك وميض الانفجار النووي الـمُشْتعِلِ إنحنِ الى الأمام وثبِّت رأسك بشدة بين ركبتيك . »

وعند السطر الأخير من الإعلان ، إنفجر « فلدمان » ضاحكاً . وفكَّر قائلاً لنفسه : « لا يمكن لأية توصية ان تختصر الـمَغاط(*) المخيف الذي نتخبَّط فيه هذا الصباح ، سوى هذه :

« ٧ ـ أعطِ مؤخرتك قبلة الوداع ! »

* * *

ـ أريد ان أشرح لك كيف تجري الأمور في هذه المدينة البغي . . .

وقال « جاك راند » لنفسه غاضباً : هو ذاك « أنجيلو » يُعيد الكرَّة بخطبه .

وشرح « أنجيلو روكيا » لشرطي « دنفر » الشاب قائلاً :

ـ في نيويورك ، يعمل النشَّالون جميعهم تقريباً بناء على الطلب . وإليكم مثالاً على ذلك : يأتي أحد مخبِّئي الأشياء المسروقة الى احد النشَّالين الذين يعرفهم ويقول له : « مرحبا ، يا شارلي ، ينبغي أن أسدِّد ثمن تلفزيون مُلوَّن أودُّ تقديمه الى صديقتي العزيزة . أنا بحاجة إلى الأوراق وإلى مادَّة « لدنة » جديدة تماماً ، غداً . والمادة اللَـدْنة هي بطاقات الاعتماد. ويُلِحُّ مخبِّيء الأشياء المسروقة : « ينبغي حقاً ان تكون جديدة تماماً وألاَّ يكون قد مضى عليها اكثر من ساعتين او ثلاث . » وبعبارة أخرى ، قبل ان يجد المسلوب الوقت اللازم لإعلام الـ « امريكان اكسبرس » او الـ « دينرز كلوب » ان بطاقاته الاعتمادية قد سرقت . وينفِّذ النشَّال الطلب ويحتفظ بالمال اذا ما وجد بعضاً منه في المحفظة ويتسلَّم من السارق مئتي دولار او ثلاثمئة لقاء أوراق الهوية وبطاقات الاعتماد . اليس صحيحاً ، يا فورتيش ؟

وبعد عدة مجموعات من البيوت ، كانت البيئة قد تغيَّرت تماماً . ولـم تنقضِ خمس دقائق على مغادرتها الأرصفة ، حتى كان المنظر المحزن للأكواخ القذرة في منطقة المستودعات قد غاب ، وحلَّت محله الأزقَّة الضيِّقة لحي « بروكلين هايتس » القديم ، ذي الفنادق الخاصة المبنيَّة من الحجر الرملي الأسمر والمزيَّنة بالسلالم الخارجية الجميلة والدرابزونات الأنيقة ذات الزخارف الحديدية ، والأرصفة المغروسة بالأشجار الـمُشذَّبة بعناية .

وألحَّ الشرطيّ :

ـ هل تعتقد ان الأمور جرت على ذاك الشكل بالنسبة الى محفظة الشخص الذي سنقابله ؟

ـ سيكون من الممكن ان يحصل ذلك .

ـ حسب رأيك ، ما هو عدد النشّالين في نيويورك ؟

وأطلق « انجيلو » صفيراً قصيراً ، في حين كان ينسلُّ بسيارته « الشفروليه » بين صفَّين من

(*) مكان مليء بالغائط (المنهل) .

السيارات ليتسنّى له الإقلاع في الطليعة لدى ظهور الضوء الأخضر .

ـ ثلاثمئة أو أربعمئة أو خمسمئة ،يمكنك الاستعلام عن ذلك

وأسند « راند » قبضته تحت أنف « انجيلو » وربّت باصبعه على زجاج ساعته طراز « سيكو » . سيكون لدينا الوقت لالقاء القبض على خمسمئة نشّال ؟ والتحقق من هوية ذلك الذي سرق أو لم يسرق محفظة الرجل ومعرفة من أعطى بطاقات الاعتماد والعثور على مخبىء الأشياء المسروقة . . كل ذلك قبل ظهر الغد ؟ هل تحلم ، أيها الأب ؟

وتنهّد « انجيلو » قائلاً بلهجة فاترة :

ـ ماذا تريد ان أقول لك ؟ حاليّاً ، هذا أفضل ما لدينا . والواقع أنه ليس لدينا حالياً ، يا بني ، الا هذا .

وكان قد انطلق لتوّه في شارع « فولتون » وكان يشاهد « كدمان بلازا » تقريباً عند مدخل الدرابزون الذي يرقى نحو جسر بروكلين .

ـ غير أنك ،لا أنت ولا انا سنمنعه من الانفجار ، ذلك البرميل القذر . ولا احد منا هنا . نحن لسنا هنا الا للعرض . ان الأذرع الكبيرة في واشنطن هي التي ستتمكن من ذلك ، لا نحن جماعة المستخدمين الصغار .

* * *

لم تنقطع « الأذرع الكبيرة » في واشنطن ، عمليا ، عن عقد جلساتها ، منذ اجتماعها ، قبل ساعتين ، برئيس البلدية . وكان الرئيس يحرص على احترام ارتباطاته وفاقاً للمواعيد الرسمية ، ليعطي الصحافيين الانطباع بأن الوضع عاديٌ . وكان قد عاد لتوّه الى مكانه وسط مستشاري لجنته للأزمات . وطرح حالاً السؤال الذي كان يلازم عقول الجميع .

ـ ما هي أخبار طرابلس ؟ وهل القذافي مستعدٌ أخيراً للتحدث إلينا ؟

أجاب أمين نظارة الخارجية المعاون :

ـ لقد اتصلنا لتوّنا بسفارتنا هاتفياً . إن القائم بالأعمال لا يزال في ثكنة « باب عزيزة » . ويبدو ان أحداً غير مطلع على شيء .

وأرخى « هربرت غرين » ،أمين الدفاع ، أسنانه عن أنبوب غليونه . وكان يبدو كما لو كان يفكّر بصوت عالٍ .

ـ ان واقعة تمكّن مدمّرتنا « ألن » من التقاط حديث هاتفي للقذافي ، ليست دليلاً قاطعاً . إن احداً لم يشاهد الرئيس الليبي منذ بدء هذه القضية . ولم يسمعه احد ينطق مباشرة بتهديده . ونحن إزاء تصعيد خارق في ممارسة الابتزاز ، لدرجة أن بوسعنا ان نتطارح الأسئلة . أيّ تأكيد لدينا على أنه حقاً وراء كل ذلك ؟ هل يستحيل ان يكون محتجزاً في قيادته العامة نفسها من قبل جماعة من المتطرّفين الفلسطينيين ؟

واتجه الانتباه العام نحو مدير الوكالة المركزية للاستخبارات ، الأميرال « بنينغتون » الذي قال :

ـ لقد واجهنا هذا الاحتمال وجوابنا بالنفي . لقد كان البرنامج النووي الليبي دوماً جزءاً من المجال الذي اختصّ به العقيد . اما الفلسطينيون فقد فرض عليهم دوماً إرادته بكل حزم . وفضلاً عن ذلك فإن مختبرنا قد أكّد لتوّه بأن الصوت المسجّل على الأسطوانة التي تلقّيناها هو حقاً صوته .

وصرّ الرئيس أسنانه قائلاً :

ـ أن يأتي الشيء متأخراً خير من ألاّ يأتي ابداً .

وابتسم « بنينغتون » منزعجاً ، واستأنف قائلاً :

ـ حسب التحليل الذي أجريناه للحديث المسجّل بمعرفة المدمّرة « الن » يبدو أنه غير واقع تحت تأثير أي ضغط . وشدّد « إيسمان » :

ـ وهذا سبب آخر لمحاولة التحدُّث اليه بالأولوية المطلقة .

وزايد الرئيس قائلاً :

ـ حتماً .

ثم وجّه الخطاب الى مدير مكتب التحقيقات الاتحادي :

ـ هل من جديد في نيويورك ؟

وكان « جوزف هولبوْرن » يستعِدُّ للجواب ، عندما أخذ نور أحمر يومِض على هاتف امين نظارة الخارجية المساعد .

وأعلن « ميدلبرغر » :

ـ حضرة الرئيس ، إن مركز عمليات نظارة الخارجية يستعد الآن لاستلام برقية « شروكي نوديس » صادرة عن طرابلس . (« شروكي نوديس » هي برقية ترتدي طابع العجلة القصوى التي تمنحها نظارة الخارجية)[8] .

وفيما كانت البرقية المرموزة تصل الى الطابق السابع لنظارة الخارجية ، كانت تمرّ بصورة آلية على ناظمة آلية كانت تحلُّ رموزها وترسلها بواسطة مُبرقة كاتبة الى مركز الاتصالات المسافية المجاور لقاعة مجلس الأمن القومي . وما كاد « ميدلبرغر » يعيد السماعة حتى كان أحد الضباط يحمل الى « إيسمان » برقية طرابلس .

ـ حضرة الرئيس ، ان القائم بالأعمال تحدّث لتوّه مع القذافي .

ـ اذن ؟

ـ إن القذافي يُصرِّح بأن كل ما يودّ قوله مُسجّلٌ على الأسطوانة التي بعث بها اليك . وهو يرفض التحدّث معك .

---

(٨) كانت هذه التسمية قد اختيرت من قبل ناظر الخارجية دين راسك تكريماً لشروكي كونتي ، احدى مقاطعات ولاية جورجيا حيث وُلد .

الفصل السادس

« من النسر ـ واحد الى النسر ـ القاعدة ! تعلب القاعدة قطع الاتصال ! »

كان المستورد « جيرالد بوتنام » يفكّر بان من يفتري على رجال الشرطة يكون حقاً على خطأ حتى انه لم يُكلّف نفسه عناء إبلاغ الشرطة أمر اختفاء محفظته ، لأنه كان مُقتنعاً كأي مواطن في مثل حالته ، بأن شكواه لن توجب منطقياً تدخُّل الشرطة التي كان لديها مهامّ أخرى . ومع ذلك فها قد اجتمع في مكتبه مفتش ذو رتبة رفيعة ، كما يبدو ، ومأمور من مكتب التحقيقات الاتحادي ورئيس مفرزة النشّالين . وكانوا ثلاثتهم شديدي الرغبة في اكتشاف مصير محفظته .

وأعلن « انجيلو روكيا » :

ـ حسن جداً ، يا سيد « بوتنام » ، ولكن لنختصر ما عندنا للمرّة الأخيرة . إذن فقد قضيت صبيحة الجمعة بكاملها هنا في مكتبك . ثم ، حوالي . . .

ـ الساعة الثانية عشرة والنصف .

وراجع الشرطي قُصاصة الجريدة التي كان قد دوّن ملاحظاته عليها .

ـ هذا صحيح . اذن ، عند الساعة الثانية عشرة والنصف توجّهت الى سوق السمك في شارع « فولتون » لتتناول طعام الغذاء في مطعم « لويجي » . وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر ، مددت يدك الى جيبك لتتناول محفظتك وتدفع الحساب بواسطة بطاقتك الصادرة عن « الأمريكان اكسبرس » وتبين لك عندئذ ان محفظتك كانت قد اختفت . هل هذا صحيح ؟

ـ صحيح .

ـ وعدت عندئذ الى هنا حيث تحتفظ بأرقام جميع بطاقاتك للاعتماد وطلبت من سكرتيرتك الاتصال بمختلف الشركات لإبلاغها أمر فقدانها .

ـ صحيح كذلك ، يا حضرة المفتش .

ـ الم تكلف نفسك عناء إبلاغ المفوضية المجاورة ؟

وابتسم « بوتنام » مرتبكاً وقال :

ـ آسف ، يا حضرة المفتش ، ولكنني قلت لنفسي إنه مع كل ما لديكم من عمل ، فإن حادثاً بمثل هذه التفاهة لن يكون . . .

وتفرّس « انجيلو » في وجه مُخاطبه بإصرار . وكان ذاك في الأربعين من عمره ، ربع القامة ، قويّ البنية ، وذا شعر أسود أجعد ولون متوسّطي كامد .

وسأل المفتش النيويوركي :

ـ فلنحاول الآن ان نستعيد ما فعلته صباح يوم الجمعة ذاك . أولاً ، اين تضع عادةً محفظتك ؟

أجاب « بوتنام » وهو يضرب الجيب الأيمن المخصص للمسدس لبنطاله المصنوع من الفلانيلة الرمادية .

ـ هنا .

وتدخَّل « تومي مالون » رئيس مفرزة النشّالين قائلاً :

ـ أتصوّر أنك كنت ترتدي ذلك اليوم سترة ومعطفاً .

ـ حقاً . وبإستطاعتي ان أريك إياهما .

وفتح حافظة الثياب فأخرج منها سترة تويد رمادية اللون مُتعرِّجة القطبات ومعطفاً من انلون نفسه مع ياقة من الفراء . وتفحَّص الشرطي القطعتين ومرَّر أصابعه في شقَّيْ الظهر .

وسجَّل « مالون » وهو يبتسم :

ـ حقاً ، ان هذا يُسهِّل السرقة .

وبتوجيه من « انجيلو » قصَّ المستورد كيف قضى صبيحة يوم الجمعة الواقع فيه ١١ كانون الأول . فقد كان قد ترك منزله في « وأسترباي » في « لون ايلاند » قبل الساعة الثامنة بقليل ، وجرياً على عادته ، كانت زوجته قد أوصلته الى المحطّة . وكان قد اشترى جريدة « وول ستريت » وانتظر على الرصيف حوالي دقيقتين مرور قطار الساعة ٨/٠٧ . وكان قد جلس الى جانبه صديقه وزميله في لعبة « الإسكواش »(*) ، « غرانت اوتلي » أحد مديري شركة الآلات التجارية الدولية(**) . وكان قد نزل عند نهاية خطّ شارع « فلاتبوش » في بروكلين واكمل طريقه سيراً على الأقدام حتى مكتبه . ولم يكن يذكر شيئاً غير عاديّ او شاذاً سواءً في القطار او في المحطّة أو أثناء نزهته مشياً . ولم يدفعه أحد أو يقلبه ولم تحدث حوله أية حركة غير اعتيادية . وصفوة القول ، لم يسترعِ انتباهه أيّ شيء .

وعلّق « مالون » باعجاب :

ـ يبدو أننا نواجه حقاً عمل فنان .

وتنهَّد « انجيلو » بحيرْة :

ـ هذا ما يبدو لي .

ونهض وشرع يذرع المكتب .

ـ سنريك ، يا سيد « بوتنام » بعض الصور ، خذ وقتك كاملا وادرسها بعناية وقل لنا اذا كنت تعتقد انك شاهدت قبلاً احد هذه الوجوه في مكان ما .

(*) لعبة شبيهة بكرة اليد والتنس (المورد) .
(**) .I.B.M (المترجم) .

وإذا كان صحيحاً بأن الأسفار تُثقِّف الشبيبة ، فإن الشبّان والشابّات الذين عرض رئيس مفرزة النشّالين صورهم ، واحدة تلو اخرى ، على مكتب المستورد ، كان ينبغي ان يشكّلوا نخبة ثقافية جدّ بارزة . والواقع أن عدداً ضئيلاً جداً من الرحّالة كان يمكن ان يدّعي امتلاك مثل هذه المعرفة لعواصم العالم . ولم ينعقد أيّ تجمُّع دولي دون حضورهم ، سواءً اكانت الألعاب الأولمبية في « مونتريال » او « لاك بلسيد » او موسكو ، او انتخاب البابا في الفاتيكان او يوبيل الملكة اليزابيت في لندن او كأس العالم لكرة القدم في بيونوس ايرس . وباستثناء هذه الأحداث المشهديّة ، فإن ميادين عملهم المفضّلة كانت ميادين السباق والمخازن الكبرى والمحطّات والكنائس وبصورة عامة جميع الأماكن المزدحمة . وجميع هؤلاء الشبان كانوا في الواقع يكرهون الوحدة . ولقد كانوا يمثّلون زُبْدَةَ مجموعة النشّالين العالمية .

وكان جميع الأشخاص ذوي الشعر الأسود والجلد الكامد الذين كانت صورهم تمرُّ بين يديْ « جيرالد بوتنام » ، من أصل كولومبي . وكما ان بلاد الباسك تصدِّر الرعاة وانفير نحّاتي الماس ، كذلك فإن ذاك البلد من اميركا اللاتينية (كولومبيا) يصدِّر البن والزُمُرُّد والكوكايين - والنشّالين . وكان يوجد في الأحياء الفقيرة لبوغوتا ، عاصمة كولومبيا ، وفرة من المدارس المخصَّصة للنشّالين . وكان أولاد الفلاحين الفقراء يُباعون الى ملاّكي تلك المدارس ليتعلّموا فيها مهنتهم . وفي ميدان « بوليفار » او جادّة « سنتاندر » كان بعض الاختصاصيين يعلّمونهم جميع حِيَل فنّهم : كيف يقطعون جيباً بالموسى وكيف يفتحون كيساً وينتزعون ساعة من المعلم . وكان الاختبار النهائي عبارة عن سرقة عدة أشياء من تمثال لعرض الملابس مغطّى بالجلاجل .

وبعد انتهاء تدريبهم ، كانوا يُوزَّعون الى فرق من شخصين او ثلاثة - النشّال الجيد لا يعمل ابداً وحده - ويوزَّعون عَبْر عالم الرأسماليين الثري ، الذين تؤمن لهم جيوبهم اكثر من مليون دولار في السنة .

وبعد ان تفحَّص « بوتنام » خمسين صورة ، توقَّف امام صورة فاتنة سمراء ذات صدر مُثير تحت كنزة صوفية كالقالب .

- إنّ ذلك الرأس يوحي اليَّ شيئاً ما ! أقسم إنها عين الفتاة التي كدت ألقيها ارضاً نهار أمس ، عند أسفل سلَّم المحطة ! . . . أجل ، أجل ، هي نفسها، إنني أتذكَّر الآن : كنت اقرأ نشرة فيما كنت سائراً ، وإذا بي أدخل فيها . وكان ذلك مزعجاً ، ولقد اضطرت الى التعلُّق بي لتتفادى السقوط .

وحسم « انجيلو » و قال :

- هل يكون ذلك قد حَدَث صدفةً يوم الجمعة ؟

وأغلقَ المستورد عينيه واستغرق بالتفكير ثم قال :

- أجل ، أعتقد ذلك .

وأخذ « انجيلو » الصورة وتفحَّص بدوره وجه الفتاة الجميل وصدرها العامر الموجَّه نحو مُصوِّر الشرطة الـمُندسّ بين جمهور المسافرين .

- لست أنت الذي دفع تلك الفتاة ، يا سيد بوتنام ، بل هي التي دخلت فيك . ان النشّالين يتعشّقون العمل مع الفتيات ذوات النهود الكبيرة . فهن يلتصقن بك في حين يعيش شريكهن في

جيوبك . هذه حيلة كلاسيكية !

ولا حظ « انجيلو » احمراراً طفيفاً على خديْ المستورد .

ـ لا تغضب ، يا سيد بوتنام . إن الإنسان يفقد شيئاً من توازنه اذا ما وقع على فتاة ذات نهدين جميلين . وهذا يحدث حتى لجماعة « وايسترباي » امثالك .

* * *

كان رئيس البلدية يتابع بانزعاج شديد لعبة اخصّائي الحماية المدنية الذي كان قد أحضره معه في طائرته من واشنطن . وكان « جريمي أو غلثورب » يجوب مكتب مدير الشرطة من زاوية الى اخرى ، ليعلّق رسومه التخطيطية ولوائحه وخرائطه ، بديناميكيّة مأمور دعاوة يقوم بحملة من اجل معجون أسنان جديد . وكان « سترن » يغتاظ اذ يفكّر بأن الاخصائي يتمادى في الوقاحة الى درجة انه ينغّم في فترات سأمه لحن « عايدة » الحماسي .

وكان الاثنان قد نزلا ، قبل لحظات ، من الطوّافة على سطح القيادة العامة للشرطة . وصاح « اوغلثورب » بعدما القى نظرة ارتياح على أجهزته :

ـ ممتاز . أنا مستعد للادلاء بعرضي .

وأمر مدير الشرطة :

ـ أحضروا « والش » .

وكان « ستيموثي والش » من اصل ارلندي يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً ، طوله متر وستة وثمانيون سنتيمتراً ، له عينان صغيرتان خبيثتان ووجه ملاكم أكول . وكان ضابط ارتباط الشرطة النيويوركية لدى دائرة الحماية المدنية . وقد كان نشطاً وطموحاً وكان قد فُصل من فرع الاستخبارات ليبعث الحياة في تلك الدائرة المتلاشية . وقد نجح في ذلك . وكانت تدخل ضمن صلاحياته جميع الكوارث التي يمكن ان تُصيب نيويورك ، وعلى الأخص ، تلك التي كانت وسائل الاعلام الجماهيرية تحب ابرازها كتلاطم امواج البحر والأعاصير والعواصف الثلجية والأعطال الكهربائية الضخمة ، وجميع تلك المصائب التي كان يمكن ان تؤمن لك تقدير مدير الشرطة وتضخيم ميزانيتك وزيادة عدد مفارزك . ولكن من المفارقات ، أن تأتي قضايا الاخلاء والدفاع السلبي في حال هجوم نووي ، في المنزلة الأخيرة من اهتماماته . لأنه ، كما كان يشرح ، لا أحد يريد ان يعلم . وعندما تُلوّح بهذه الفزّاعة يجيبك الناس : « لا تُحطّم قدميّ بقنابلك الروسية . إن الثلج يبلغ ثلاثين سنتيمتراً أمام مرأبي » . وكان يُلخّص فلسفته حول الموضوع بعبارة لا تخلو من الوقاحة : « لا أفوّت أبداً الفرصة للذهاب الى واشنطن والركوع أمام مذبح الرعب النووي ، ولكن في الواقع لكي احصل منها على المال الاتحادي في سبيل القضايا التي تهمّ حقاً أهالي نيويورك كشراء مجموعة مولدات كهرباء تحسباً للتعتيم المُقبل . »

ودخل « والش » وهو يُصَفّر ، ولما شاهد كل رجال السلطة اولئك ، اختفى مرحه فجأةً ، وقفز مدير الشرطة فوقه ، بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة ، قائلاً :

ـ والش : ألدينا مخطط لإخلاء نيويورك ؟

وانذهل الضابط ، لماذا هذا السؤال القاسي ؟ ماذا كان يحدث ؟

والواقع انه كان ثمة مثل هذا المخطط . حتى أنه كان يحمل اسماً جدّ رنّان : « مخطط عمليّاتي للبقاء

للمنطقة المستهدفة من نيويورك . الجزء الأول . مخطط أساسي . » وقد نظم سنة ۱۹۷۲ وكان يتألف من مئتين وصفحتين ، ويُعتبر عموماً باطلاً وبدون أية قيمة حتى أن « والش » نفسه لم يقرأه قط كما لم يطلع عليه أحد من دائرته حسب معرفته .

ـ يا حضرة المدير ! آخر مرّة إهْتَمْمنا فيها بقضية إخلاء كانت بتاريخ كانون الأول سنة ۱۹۷۷ ، فقد أرادت شركة « كونسوليد يتد اديسون » أن تستعيد منطقة الـ « ايست ريفر » لتنقل على متن باخرة حمولة غاز مُسيَّل الى مستودعها في « بريّان ايلند » . وقد سئلنا اذا كان بوسعنا إخلاء أحياء الـ « ايست سيد » في حال تسرُّب الغاز أو أيّ حادث آخر .

ـ وماذا أجبتم ؟

ـ كانت الخلاصة أن ذلك كان مستحيلاً تماماً .

وقطّب مدير الشرطة قائلاً :

ـ حسناً ، اجلس يا « والش » واستمع الى ما سيقوله لنا الاخصائي القادم من واشنطن .

وفيما كان ضابط الشرطة يتحرَّق فضولاً ، كان يطوي جسمه الكبير على أريكة مدير الشرطة الزرقاء . ونظر الى « اوغلثورب » يتخذ مكانه أمام خرائطه . وقد بدا له انه يعرف ، بغير وضوح ، ذلك الرأس الذي كان يتحرك فوق ياقة ذات عقدة فراشية سوداء وبيضاء .

وأمسك « اوغلثورب » عصا قصيرة ، وبدأ بتفاؤل مدهش :

ـ من حسن الحظ ان مسألة اخلاء نيويورك هي احدى المسائل التي درسناها بكثير من الاهتمام . غير أني لا أرى حاجة لأقول لكم إننا ازاء مشروع ضخم جداً . وقد توصّلنا بواسطة أجهزتنا التجريبية الى أن المهلة الدنيا لإخلاء المدينة هي ثلاثة أيام .

وصاح « أب سترن » :

ـ ثلاثة أيام ! ولكن هذا العربي المجنون لا يترك لنا حتى ثلاثين ساعة !

وتابع « اوغلثورب » :

ـ فلنحدِّد المسألة ، لما كانت « مانهاتن » جزيرة تمتدّ بالطول ، فسنكون ملزمين أيضاً بمواجهة اخلاء ضواح عديدة ستكون حتماً واقعة ضمن منطقة الخطر .

وسأل « أب سترن » :

ـ ما هو مجموع عدد الأهالي الذين سيعنيهم الأمر ؟

ـ احد عشر مليوناً .

وصعَّد رئيس البلدية نخير يأس . وكان الملازم « ولش » يتأمل الرجل العجوز بعطف . أما فضوله ، هو ، فقد أُرضي لتوِّه . وقال في نفسه : أيها الرب يسوع ! ان التهديد بتفجير ذري يبرر وحده التفكير باخلاء احد عشر مليوناً .

وتابع خبير واشنطن مجامِلاً :

ـ إن التدبير الأول الذي يجب اتخاذه هو إقفال جميع المداخل وجعلها في اتجّاه واحد نحو الخارج ، ولكن المزعج ، أن ۲۱٪ فقط من أهالي مانهاتن ، يمتلكون سيارات (احصاءات وأرقام ومعطيات ، ذلك

هو ميدان « أوغلثورب ») وهذا يعني ان ٧٩٪ من السكان سيتوجب عليهم الهرب بوسائل أخرى . فيقتضي مصادرة السيارات الكبيرة ووضع اليد على جميع الشاحنات . ومن حسن الحظ أن المترو بتصرفنا وعليه ينبغي ملء أرتال الحافلات واطلاقها على الخطوط السريعة والإيعاز الى السائقين بالسير بالسرعة القصوى . ويجب ارسال العدد الأكبر منها باتجاه منطقة الـ « برونكس »،ويقتضي أن يصل الناس الى آخر الخط وان يتابعوا بعد ذلك السير على الأقدام .

وقاطع مدير الشرطة ، لدى تذكُّره مشاهد النهب التي كانت قد أعقبت عطل الكهرباء الضخم في كانون الأول سنة ١٩٧٧ ، قائلاً :

ـ هلاّ فكرتم بحفلات النهب التي سيقيمها اللصوص ؟

ووافق « اوغلثورب » قائلاً :

ـ بالتأكيد ، لن نفتقد اللصوص ، ولكن لا يهم اذا كان بعض الأشخاص مستعدّين للتعرُّض الى خطر التفتت ليسرقوا تلفزيوناً ملوّناً ، كما لو كانت مانهاتن ستبقى هناك صباح الأربعاء !

وقال « أب سترن » قَلِقاً :

ـ الى أين ستجلون تلك الملايين من الناس ؟ ولن يكون بوسعكم ان تلقوا بهم الى الشارع في هذا البرد القطبي !

وكان اوغلثورب لا يُباغَت بأيّ سؤال . وقد سوّى عقدته الفراشية وأجاب مُتفاخراً :

ـ يا حضرة رئيس البلدية ، إن إخلاء السكان في حالة الطوارىء يعتمد على مفهوم مناطق الخطر ومناطق الاستقبال . وترتكز المسألة برمّتها على نقل اكبر عدد ممكن من مناطق الخطر المزدحمة الى مناطق الاستقبال غير المكتظّة .

وبالنظر للمهلة القصيرة جداً التي ستُعطى لنا ، فإننا سنطلب من المناطق المحيطيَّة ، استقبال اللاجئين .

وكان الملازم « والش » يُفكِّر فاغر الفم : إن هذا لعجيب ! تصوّروا قليلاً وجه رئيس شرطة « سكارسديل » عندما يبلغونه بأنهم سيرسلون له نصف مليون زنجيّ من أفضل ما لدينا في منطقة هارلم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع .

وسأل رئيس البلدية ثانية ، والقلق يستبدُّ به :

ـ والكهول وذوو العاهات وكل أولئك الذين لا يستطيعون الانتقال ؟

هزَّ « اوغلثورب » كتفيه بحزن وقال :

ـ ينبغي ان نقول لهم بأن يزحفوا الى القبو،وان يصلّوا .

***

كان « اوغلثورب » قد لحظ كل شيء في دراسة مُدهشة تقع في ١٩٥ صفحة . وقد وصف فيها كل شيء بدقّة وحلّله وصنّفه . وورد في الدراسة انه كان ثمة / ٣٨٠٠٠٠٠/ وحدة سكنية في منطقة الخطر النووي بمعدَّل ثلاثة اشخاص ضمن الوحدة ، وان كل قطاع بلدي في مانهاتن كان يعدّ ما معدله / ٤٠٠٠٠/ نسمة و/ ١٩٤٠٠/ مسكن و/ ٤٣٠٠/ سيارة ، وانه يمكن استعمال/ ٣١٠/ طائرات تجارية

تحوي كل منها على / ٢٠٠/ مقعد وستنطلق من ثمانية مطارات وانه سوف يكون من الممكن إخلاء/ ١٠٢٢٤٠٠/ نسمة بطريق الجو ، بمعدّل / ٧١/ رحلة في الساعة خلال ثلاثة ايام . وكانت الحافلات والقاطرات والسائقون وكل ما يتعلق بالشبكات الحديدية الست التي تؤمن مواصلات نيويورك ، قد أحصيت هي ايضاً . وقد تُخيِّلت جميع مُعدَّلات السير ورُتِّبت على ناظمة آلية للتوصّل الى دورة للقوافل تسمح باخلاء مُكثّف بمعدّل / ٨٠٠٠٠/ نسمة بالساعة .

وقد أُحْصِيت وسائل النقل البحرية بدقّة مماثلة . وكانت المُعدِّيات[١] وسفن الجرّ وقوارب الإنزال والكاسحات والشاحنات المسطّحة وقوارب النزهة ، تدخل في عداد وسائل الاخلاء . وكان « اوغلثورب » ، أخيراً ، قد قضى عدة أسابيع لاعداد أدلّة طرق تبين خطوط السير الأكثر سرعة لتمكين السكان من الإفلات من المَحْرقَة . اجل ، كل شيء كان قد فُكِّر به بدقّة متناهية ، بما فيه الواقعة أن / ٢٥٠٠٠٠/ نسمة قد يمكن ان يثوروا اذا لم يتمكنوا من اصطحاب كلابهم وهررهم وعصافيرهم وسمكهم الأحمر . وان نصف مليون نيويوركي كانوا لا يمتلكون حقائب . ولكن هذا المخطط كان محسوباً على أساس ثلاثة أيام ـ ثلاثة أيام تتم خلالها رحلة منهجيّة ومنظمة ، دون ان يكون ثمّة سباق مجنون نحو الجسور كتلك التي تفرضها حالة الطوارىء اليوم .

وهزّ « اوغثورب » رأسه ، كما لو كان يريد أن يطرد رؤيا الكابوس التي كانت تُعكّر فجأة تفكيره الدقيق . واستأنف قائلاً :

ـ من المؤكد أن الطرق والمترو هي التي ينبغي ان تُشكّل وسائلنا الرئيسية للإخلاء . ويجب ، مهما كلّف الأمر ، تأمين تصريف مُنتظم لسيل السيارات التي ستغادر المدينة ، وذلك اما بتوزيع الرحلات حسب الترتيب الأبجدي بعد اذاعة التعليمات المقتضاة بالراديو والتلفزيون ، كأن يذاع مثلاً أن السيارات العائدة للسكان الذين تبدأ اسماؤهم بالحرف « أ » تباشر السير الآن ، إما إنطلاقاً من أرقام تسجيل السيارات المُزدوجة والمفردة ، أو حسب القطاعات البريدية ، على أن تُنْتقى اولاً احياء وسط مانهاتن المهدّدة اكثر من سواها .

وقاطعه مدير الشرطة قائلاً :

ـ إنك تنسى ، يا حضرة الخبير ، أن هذه المدينة جزيرة ، وسوف يتعطّل بعض السيارات ويغلي بعضها ويفتقد البعض الآخر الوقود ، وسوف تُسدُّ الطرق والأنفاق والجسور . إنكم تذكرون صور الخروج الفظيعة على طرق فرنسا عام ١٩٤٠ .

وكان « تيموثي والش » المرهَق اكثر فأكثر ، يُصلِّب ساقيه ثم يزيل تصليبهما . وكان يقول في نفسه : إني أحلم ، كل هذه الخرائط والألواح وتلك التكهنات ! وكان ينظر بشفقة الى رئيس البلدية ومدير الشرطة . فقد كانا يبدوان مُصْغيين بشكل مُثير للعطف ، كما لو كانا يأملان ، في قرارة نفسهما ، ان هذا الكلام الجميل سوف يترجم الى حقائق مادية بطريقة أو أخرى ، وقرر التدخّل ، قائلاً :

ـ إسمع يا حضرة الخبير ، إنني لست مُتأكداً من أنك تُدرك جيداً كيف تجري الأمور في مدينة نيويورك هذه . انك تريد الإخلاء حسب الترتيب الأبجدي ؟ سنطلب من السيد « أبوث » أن يصعد الى سيارته وان يكون اول الراحلين ؟ وأنت تتخيل ان السيد « رودريغز » من بروكلين سيظل جالساً على

(×) جمع مُعدِّية وهي مركب يعبر به من ضفة الى أخرى (المنهل) .

مؤخرته يتطلّع الى السيد « أبوت » وهو ينسحب ؟ سأقول لك ماذا سيفعل السيد « رودريغز » : إنه سيقف أمام المنعطف شاهراً بندقيته الصغيرة التي يستعملها مساء السبت وسيطلب من السيد « أبوت » أن يخرج من سيارته وأن يتابع سيره على الأقدام . وسيحلّ هو محله .

واحتجّ « اوغلثورب » غاضباً :

ـ ولكن الشرطة ستكون هناك لمنع مثل هذه الحوادث .

ـ الشرطة ؟ انك تمزح ! ما الذي يسمح لك بالاعتقاد ان رجال الشرطة سوف يطيعون ؟ يمكنك ان تكون على يقين بأن نصفهم سيندفعون الى اقرب مُنعطف شاهرين مسدسهم ٣٨ ، كالسيد « رودريغز » لايقاف أول سيارة والانسحاب ، هم أيضاً الى الجبال . (وهزّ « والش » كتفيه العريضتين) إن حيلتك الجميلة برمتها يمكن ان تُلعب مع جيش من الجنود المدرَّبين . أما هنا ، فإنك ستتعامل مع حشد فوضوي من المدنيين المذعورين .

وحسم مدير الشرطة الذي كان يعلم أن ملازمه كان على حق .

ـ كن هادئاً يا ولش !

وسأل رئيس البلدية ، وهو يتململ على مقعده :

ـ كيف ستحذّر السكان ؟

والتقط الملازم « والش » السؤال في الهواء ، فأجاب :

ـ أنا أستطيع أن أقول لك ، يا حضرة رئيس البلدية ، كيف لن يكون بوسعك ان تحذّر السكان . فلن تستطيع تحذيرهم بواسطة صفارات الانذار البلدية ، لانها لم تعد صالحة للعمل .

وكان « والش » يُشير الى شبكة السبعمئة صفّارة التي اقامها في نيويورك الحاكم روكفلر خلال السبعينات وإبّان الحرب الباردة . فقد علا أكثرها الصدأ على أحد السقوف المنسيّة . حتى أن إحداها كادت ان تُحطّم احدى المتنزهات في « هرالدسكوير » من جراء سقوطها في الفراغ .

واجاب « اوغلثورب » دون ان يترك نفسه تضطرب :

ـ سوف نستعمل الراديو والتلفزيون ، لنقيمَ اتصالاً فورياً ودائماً مع السكان . ويجب ان تكون رسائلنا حسّية قدر الامكان . وينبغي ان يشعر الناس أننا ننفذ مُخطّطاً منهجياً وأننا لم نترك شيئاً للظروف وأننا سوف نهتم بهم لدى وصولهم الى الأماكن المحدّدة وان كل شيء قد رُتّب لتجنُّب الذعر .

والتفت نحو أحد ألواحهِ الذي كان يحمل عنواناً من كلمة واحدة بأحرف كبيرة : « انقلوا . »

ـ يمكننا عرض هذا اللوح على شاشة التلفزيون حتى يعرف الناس ماذا يجب ان يأخذوا معهم .

وكانت عينا « والش » الصغيرتان والمستديرتان كالكلل تنظران الى ما يلي : « كلسات للغيار ، ترمس ماء للشرب ، فتّاحة علب ، شمع ، أعواد ثقاب ، راديو ترانزيستور ، فرشاة أسنان ، معجون أسنان ، علبة فُوَط نسائية ، لَفّة ورق صحّي ، أنبوب أسبرين ، بطاقة الضمان الاجتماعي . »

وقلب « اوغلثورب » اللوح ، وكان على قفاه لائحة ثانية معنوَنة : « لا تنقلوا . » وكانت تقتصر على ثلاث مواد : الأسلحة النارية ، المخدرات ، الكحول .

وانتشى تيموثي والش : ـ إن هذا الخبير عبقريّ ! لقد توصل بكل دقّة الى ايجاد الأشياء الثلاثة التي

لا يفكر أيٌّ من سكان هذه المدينة ان يرحل عنها بدونها في حالة الخطر .

وحدَّب « اوغلثورب » جذعه مجدداً ، وقال مُـتفاخراً :

ـ المسألة تتعلق بحسن القيادة . المهم ان نُسيطر على هذه القضية . أودُّ التمكن من القيام بكشف بالطوَّافة على مسالك الخروج ، ثم أودّ الذهاب الى منطقة « البرونكس » لأزور مديرية المترو في « جاي ستريت » .

وانتفض « والش » : يا إلهي ! إن « جاي ستريت » تقع في بروكلين . هذا الرجل يريد انقاذ نيويورك ولكن لا يعرف حتى الفرق بين بروكلين والـ « برونكس » واعترض « أب سترن » قائلاً :

ـ دقيقة من فضلكم ! يبدو أنكم نسيتم جميعاً أن تأخذوا بالاعتبار عنصراً أساسياً . ان هذه المدينة تمتلك أحد أفضل أجهزة الملاجىء ضد الغارات الجوية . فماذا تنتظرون لاستخدامها ؟

وابتهج « اوغلثورب » : حقاً ، إن الاشادة بالملاجىء النيويوركية التي أُعِدَّت هي ايضاً خلال الخمسينات ، لا ينبغي ان تُوجَّه اليه وهو المحنّك في الحماية المدنية ، إن قسم الهندسة في جيش الولايات المتحدة والدائرة البلدية في الأشغال العامة ، قد أحصيا ستة عشر الف قبوٍ وأماكن تَـحْـأَرضيَّـة بوسعها ان تستقبل ستة ملايين ونصف مليون نسمة . وكانت الميزانية البلدية والمساعدة الاتحادية قد أنفقتا ملايين الدولارات لتجهيز هذه الملاجىء بالمأكولات واللوازم لتأمين حياة شاغليها خلال أربعة عشر يوماً : مُـلبَّس مع الفيتامين ـ بسكوت مع البروتيين ضمن غلافات خاصة من الشمع بمعدَّل اثنتي عشرة قطعة للشخص ثلاث مرات في اليوم تؤمن للانسان الجراية الدنيا للبقاء مؤلفة من سبعمئة وخمسين وحدة حرارية ، لوازم الاسعاف ، بنسيلين ، ماء صالح للشرب ضمن أوعية يمكن تحويلها الى مراحيض كيماوية ، ورق ومناشف صحية ، وحتى عدّادات « جيجر » مُـصَـغَّرة ، حتى يتمكن من بقي على قيد الحياة ، بطريقة الزحف الى سطح الأرض ، من قياس مُستوى الاشعاع في الأطلال فوق رؤوسهم ،

وقال « اوغلثورب » مُـخْـتالاً :

ـ من الأكيد أيها السيد ، أن هذه الملاجىء تُشكِّـل عنصراً أساسياً في منهاجي ، لا شيء بالنسبة للأشخاص الذين لن يتمكنوا من الهرب . إذ يكفي أن يقال لهم بأن يسارعوا اليها . وأودّ أن أقوم بطريقة عاجلة بتفتيش سريع على تلك الأمكنة بصحبة الملازم « والش » لتقييم قدرتها على الاستقبال .

وقال رئيس البلدية :

ـ إفعل ما تراه يا سيد « اوغلثورب » ، شرط ان ترجع الى هنا عند الساعة الثالثة والنصف مع مُـخطَّط للاخلاء قابلٍ للتنفيذ الفوري .

وخرج « اوغلثورب » و« ولش » في الحال . والتفت عندئذ مدير الشرطة « بانيون » نحو رئيس البلدية . فقد كانا صديقين منذ عشرين سنة . وسأله :

ـ ما رأيك في كل ذلك ، يا « أب » ؟

ـ اذا اردت حقاً ان تعرف الحقيقة ، يا ميخائيل ، فقد توقّفت عن التفكير ، إنني أحاول بالأحرى أن أصلّي ، وألاحظ انني لست مؤهلاً كثيراً لذلك .

***

كانت الساعة السابعة عشرة اوأكثر قليلاً في باريس ذلك الأثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول،عندما عاد اللواء هنري بارتران ، مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية ـ الى مكتبه ، بعد لقائه مع بول هنري ده

سار ، المهندس الذي كان قد أشرف على بناء المفاعل النووي الذي باعته فرنسا الى ليبيا . وكانت على مكتبه اربعة صناديق صغيرة مُرسلة من قبل دائرة حماية سلامة البلاد . وكانت تتضمن ملفات جميع الفرنسيين المنتدبين للمشروع الذري الليبي ، مع تسجيل جميع المخابرات الهاتفية التي أجروها مع فرنسا . وهذه التسجيلات لم تكن تُمثل الا جزءاً يسيراً من الحصاد الذي يجمعه كل يوم مختبر الاتصالات المسافية التابع لدائرة حماية سلامة البلاد . وكان هذا الأخير مُقاماً الى الجهة العليا من القيادة العامة الكائنة في شارع « سوسَّة » ، خلف وزارة الداخلية .

وكان الفنّيون يُعالجون فيه وضمن قاعات مُحكمة الاقفال لا يتسرب اليها الغبار ، مجموعة كاملة من الآلات المُفرطة الحساسية ، بوسعها تسجيل الاذاعات والاتصالات الهاتفية الدولية الصادرة عن الأراضي الفرنسية او الموجَّهة اليها . وكان هذا الحصاد يُخزن في ناظمة آلية ثم يُفرَز الكترونياً حسب جدول نتائج كانت تسمح باستثمار فوري للمعلومات المجموعة .

وكان برتران قد شرع بتفحُّص تلك المستندات ، عند ما رنَّ هاتفه . وكان المتحدث مستشاره العلمي « باتريك كورندو » ، الذي أعلن :

ـ أيها الرئيس ، لقد وصلت تقارير التفتيش من وكالة ڤيينا منذ ساعة . وقد درستها لتوِّي وينبغي ان أراك فوراً .

ووصل « كورندو » بعد بضع لحظات . وكان يحمل كدسة سميكة من الأوراق بعنوان الأمم المتحدة . وأبدى « برتران » دهشته :

ـ يا للرأفة الإلهية ! هل انك التقمت كل هذا ؟

وأجاب المهندسى الشاب ، وهو يحك رأسه :

ـ طبعاً ، وانني محتار .

وقال اللواء موافقاً :

ـ حسناً ، في قضايانا أُفضِّل الحيرة على اليقين .

ووضع « كورندو » الملف على المكتب وشرع بتصفحه .

ـ بتاريخ ٧ أيار المنصرم أخطر الليبيون وكالة ڤيينا للتفتيش الذري أنهم كانوا قد اكتشفوا آثار إشعاع في جهاز تبريد مفاعلهم . وصرَّحوا بأنهم استنتجوا بأن ذلك ناجم عن نقص في شحنة الأورانيوم المستعمل كوقود للمفاعل وأنه ينبغي ان يوقفوا هذا الأخير عن العمل حتى يتسنى لهم استبدال الصناديق المختلّة . وعلى الفور ارسلت وكالة « ڤيينا » محلياً فرقة من ثلاثة مُفتشين ، ياباني وأسوجي ونيجيري . إنهم أناس ممتازون . لقد حضرّوا عملية استخراج قضبان الأورانيوم ونقلها الى حوض التبريد . ووضعوا بأنفسهم في ذلك الحوض آلات التصوير للمراقبة التي حدَّثتك عنها هذا الصباح . ومنذ ذلك الحين قاموا بتفتيشين .

ـ وماذا كانت النتائج ؟

ـ كل شيء على ما يرام .

وتعجَّب اللواء قائلاً :

ـ اذن ، لا أرى ما الذي يزعجك !

ـ المسألة هي أن . . . (ونهض « كورندو » متجهاً نحو الورقة التي كانت لا تزال مُعلَّقة بدبوس على الحائط) المسألة هي ان البلوتونيوم ، مثل أغلب العناصر ، يتواجد بشكل نظائر مختلفة تعتبر بمثابة

تغيُّرات للأساس نفسه . ولأجل صنع قنبلة ، يلزم استعمال البلوتونيوم ٢٣٩ البالغ النقاء ، من النوع المعروف بالبلوتونيوم « العسكري » . والحال ، أن البلوتونيوم الذي يُستَخلص من الأورانيوم المُشتعل في مفاعل شبيه بمفاعل الليبيين يحتوي طبيعياً على نسبة مئوية مرتفعة جداً لنظير آخر هو البلوتونيوم ٢٤٠ ، يمكنك ايضاً صنع القنابل من البلوتونيوم ٢٤٠ ، ولكن هذا العمل دقيق للغاية .

وقال « برتران » ، وقد عيل صبره :

ـ كل هذا مُـثير للاهتمام الشديد ، ولكنني ما زلت لا أرى ماذا يشغلك .

ـ الفترة الزمنية ، يا سيدي اللواء . فكلما بقي الأورانيوم فترة اقلّ في المفاعل ، كانت كمية البلوتونيوم ٢٣٩ التي ينتجها اكثر .

ولامس اللواء ربطة عنقه . واصبحت سيماؤه ، النضرة عادةً ، تميل الى اللون الرماديّ . وسأل :

ـ وما هو نوع البلوتونيوم الذي يمكن ان ينتجه الأورانيوم الذي استخرجوه من مفاعلهم ؟

ـ هذا بالضبط ما يقلقني (ورجع « كورندو » الى لوحة للتثبُّت من الحسابات التي اجراها غيباً) لأجل الاستحصال على بلوتونيوم مثالي ، نقيّ ٩٧٪ من النوع العسكري الفائق ، وانطلاقاً من الأورانيوم المُستعمل في المفاعل من ذلك النموذج ، يقتضي ان يبقى الأورانيوم في المفاعل سبعة وعشرين يوماً فقط .

والتفت نحو « بران » وتابع :

ـ الواقع ، أيها الرئيس ، إن هذا هو بالضبط الوقت الذي بنهايته أخرج الليبيون الأورانيوم من مفاعلهم !

***

كانت مبادرة ذلك الاجتماع في مركز القيادة التحأرضية لنيويورك تعود الى « كونتين دوينغ » . وكان مدير مكتب التحقيقات الاتحادي قد قرر الاشراف على الوضع في مجمله كل تسعين دقيقة مع جميع المسؤولين عن التحريات . وأعطى الكلام للشرطي المكلف بالبحث عن العرب القادمين الى منطقة نيويورك خلال الأشهر الستة الأخيرة . وأعلن الشرطي :

ـ أعطتنا واشنطن ومطار كندي جميع الأسماء التي كانت بحوزتها . وقد أصبحت الآن في ذاكرة الناظمة الآلية الموجودة الى جانبه . ويبلغ عددها ١٨٣٧٢ أسماً (وقد أحدثت ضخامة هذا الرقم مفعول الذبذبة بين الحضور) وعندي ألف مأمور يبحثون عنهم . وقد راقبوا حتى الآن /٢١٠٢/ منهم . أما الذين لا نتوصل الى معرفتهم في الحال والذين لا تشوب سلوكهم شائبة . فإننا نصنِّفهم في الناظمة الآلية ضمن الفئة الزرقاء . أما الذين تحوم حولهم الشبهات فانهم يصنَّفون ضمن الفئة الخضراء . وأما حالات التسلل الواضحة ، فإننا نضعها على اللائحة الحمراء .

وسأل « دوينغ » :

ـ كم عندك من هؤلاء « الحمير » ؟

ـ حالياً ، اثنان .

ـ وكيف تتصرف ازاءهم ؟

ـ لدينا خمسون عميلاً يهتمُّون بالفئتين الخضراء والحمراء . وكلما أجرينا التدقيقات اللازمة ، نُكلِّف عملاء آخرين بالحالات المشبوهة .

ووافق « دوينغ » بإيماءة من رأسه .

ـ وانت ، يا هنري ؟

وكان السؤال مُوجَّها الى الشرطي الذي كان قد كُلِّف بإجراء التحقيق في منطقة الأرصفة .

ـ إننا ، يا سيد « دوينغ » نتقدَّم بسرعة اكثر قليلاً مما كنا نأمل . وقد أبلغتنا دائرة استعلامات شركة

« لويدس » في لندن والجمعية البحرية في « برود ستريت » لائحة باسماء جميع السفن التي نبحث عنها مع تاريخ وصولها والأرصفة العائمة التي استخدمتها . ويبلغ عددها/ ٢١١٦ / ، أي ما يوازي تقريباً نصف عدد السفن التي رست في مرفأ نيويورك خلال الأشهر الستة الأخيرة ، وقد قامت فرقنا حتى الآن بتفحُّص حوالي ثمانمئة بيان ومراقبة أمكنة وصول البضائع التي نقلتها نصف السفن تقريباً .

ـ حسناً .

وسأل « دوينغ » مدير مفارز « ناست » المكلفة بالتحريات عن المتفجرات النووية :

ـ وأنت يا سيد « بوث » ، أخبرنا بما عندك .

وترك « بوث » مقعده متوجّهاً نحو خريطة مانـهاتن المعلَّقة على الحائط ، وقال :

ـ إن مفارزنا كلها هي الآن عَملياتية منذ ساعتين . لديَّ مئتا شاحنة صغيرة وخمس طوَّافات تُربِّع أسفل مانهاتن (وكنست يده أسفل الجزيرة) من « كنال ستريت » حتى « بتّري بارك » .

وسأل « دوينغ » وقد عيل صبره :

ـ ولم تكتشف هذه المفارز اي شيء مشبوه ؟

ـ بلى ! ولكن المزعج ، أن اجهزتنا لا تكتشف الأسلحة النووية وحسب . بل تكتشف جميع الإشعاعات . وحتى الآن عثرنا على امرأة عجوز تجمع مُنبِّهات « بيغ بن » ذات موانيء(*) تعمل بالراديوم ، وعلى مستودع سماد يُموِّن نصف الحدائق العامة في نيويورك ، وعلى شخصين كانا يغادران المستشفى وفي بطنهما كمية من الباريت إثر تصوير معدتهما بالأشعة ، ولكننا لم نعثر على أية قنبلة .

والتفت « كانتن دوينغ » عندئذ نحو « هارفي هودسون » مدير مكتب التحقيقات الاتحادي في نيويورك ، الذي صرَّح :

ـ لديَّ إخباران سرِّيان . وقد وصلني احدهما الآن من بوسطن ويبدو أنه واعد . والمقصود أحد الأشخاص الذين اقاموا في معسكرات القذافي للتدريب . وإليكم بطاقته وصورته .

ووزَّع على الحاضرين ورقة مطبوعة بواسطة « الستنسل » : « سنحو ، محمود . مولود في حيفا بتاريخ ١٩ تموز ١٩٤٦ .

هاجر الى الولايات المتحدة سنة ١٩٦٢ من أصل الكوتا الخاصة التي انشأها قانون اللاجئين . أقام عند بعض الأقارب ، ١٩ ، سمَّردرايف ، كوانسي ،مسّاشوستس . حصل على الجنسية الأميركية من المحكمة الأولى للقطاع ، نيويورك ، تشرين الأول ١٩٦٧ .

.سُجل في جامعة بوسطن ، كلية ادارة الأعمال ١٩٦٦ ـ ١٩٧٠ نظَّم له مكتب التحقيقات الاتحادي في بوسطن عام ١٩٧٢ بطاقة بصفته مناضلاً في منظمة التحرير الفلسطينية وجامع تبرعات . سجَّلت الوكالة المركزية للاستخبارات دخوله الى ليبيا في شباط١٩٧٦ . يؤكد المراسل المحلي وجود « سنحو » ، في معسكر لتدريب الفدائيين الفلسطينيين في مضراته (ليبيا) نيسان ١٩٧٦ ـ وضع تحت مراقبة مكتب التحقيقات الاتحادي في بوسطن لدى عودته الى الولايات المتحدة في ايلول ١٩٧٦ . بما أن المشبوه قد تخلى عن أي نشاط سياسي فلسطيني فقد أوقفت مراقبته بتاريخ ٢٣ أيار ١٩٧٧ بناء على طلب الفرقة الاتهامية رقم ٩٣٤٢/٧٧ . السجل العدلي : لا شيء . لم يشترك بأية جمعية جنائية . العنوان الأخير : ٤٩ هوراس رود ، بلمون ، ماس . »

واوضح « هودسون » :

ـ إن هذا الشخص قد اختفى من محل إقامته صباح امس حوالي الساعة العاشرة ولم يعد يشاهده

(×) جمع ميناء الساعة (المترجم) .

احد بعد ذلك . وقد أجرت شركة الهاتف لتوّها سَبراً على خطّه . فتبينَّ أنه تلقّى مخابرة على نفقة المطلوب من غرفة هاتفية في اتلنتيك افنيو في بروكلين ، قبل رحيله العاجل بساعتين . وهو يتجوَّل على متن سيارة شفروليه خضراء ذات لوحات معدنية صادرة عن مسّاشوستس رقم ٨٣/ك/ ٧٩٢ .

وصاح « دوينغ » فرِحاً :

- هوذا أفضل أثر نقتفيه منذ بدء التحقيق .

- والأخبار الأخرى؟

- لقد اعْلَمَنا أحد مخبرينا ،وهو قوّاد زنجي مرتبط بجبهة التحرير البورتوريكيَّة ، أن أحد صغار مهرِّبي المخدرات من معارفه أحضر علاجات يوم السبت الى زبونة عربية في فندق « همشير هوس » . وقد غادرت الفتاة الفندق بعد أن أعطت وُجْهة كاذبة (وراجع « هدسون » مفكرته) ولقد وجب التشدد جدياً في استنطاق المهرِّب المذكور لحمله على الكلام . ويبدو أن الفتاة هي التي استدعته ، وان ثمة تبادل خدمات بين الفلسطينيين والبورتوريكيين . وكانت تعرف كلمة السر . وقد طلبت منه تلك العلاجات لأنها كانت لا تريد ان تطلب وصفةً من أيّ طبيب . والمسألة هي ان الشخص يُقسم بآلهته العظام أنه لم يتسنَّ له حتى مشاهدتها ، وهذا ، من جهة ثانية ، ما أقرّه الفندق .

وكشَّر « هدسون » معيداً مفكرَّته الى جيبه ، وتابع :

- لقد طلبنا من نظارة الخارجية أن تزوّدنا بالمعلومات المتعلقة بطلب التأشير المقدَّم من تلك المرأة ولا سيا صورتها . ولكن القنصل الأبله في بيروت أرسل الصورة بطائرة البان امريكان ، لأن سفارتنا هناك لا تملك جهازاً للتصوير التلغرافي . حتى أنه لم يخطر على بال ذلك الغبيّ ان يستعين بالأسوشيتد برس أو أية وكالة أخرى .

واقترح « دوينغ » :

- ما علينا إلا أن نعيد الطائرة الى بيروت .

- او تحويلها الى روما . سيكون ذلك اكثر سرعة .

- ما كان نوع العلاج ؟

- « تاغامت » لمعالجة قروح المعدة .

ولخَّص « دوينغ » قائلاً :

- هذه ، إذن ، إشارتنا الوحيدة - حتى وصول تلك الصورة اللعينة . يجب أن نبحث عن عربيّ مصاب بالقرحة .

والتفت نحو « فلدمان » :

- وأنت ، ايها الرئيس ، ما هي أخبارك ؟

واتَّخذ رئيس المفتشين مظهراً مُتقزِّزاً وقال :

- ليس لديَّ ، مع الأسف ، أشياء هامة . فقد اتصل بي أحد مُفتّشينا الذين يحقّقون في منطقة الأرصفة وأخبرني أنه كان قد عثر على أثرٍ لحمولة براميل قادمة من ليبيا ، تولىَّ نقلها شخص استعمل اوراقاً مسروقة . ولكن وزن تلك البراميل أقل بكثير من التقديرات المعطاة للشيء الذي نبحث عنه . ومع ذلك فقد أوفدت مفرزة الى محل مستلم تلك البضاعة . ولا ندري ما قد نتوصّل اليه .

وأجاب « دوينغ » ، وقد اغتاظ بشكل ظاهر من تجاسر مفتش نيويوركي بسيط على اختصار الطريق والقفز فوق مديرية مكتب التحقيقات الاتحادي :

- حسناً ، ايها الرئيس . أطلعنا على ما يستجدّ بهذا الشأن .

وما كاد « دوينغ » يُنهي الاجتماع حتى ظهر عامل الراديو في القاعة قائلاً :

ـ إن القيادة العامة تطلبك ، يا سيد بوث ! فقد التقطت إحدى طوّافاتكم ، لتوّها ، بعض الاشعاعات .

وقفز « بوث » وراء عامل الراديو حتى قاعة المواصلات المسافية .

وصرخ في وجه فنّيّ الطائرة :

ـ ماذا تسجل ؟

واستطاع بالكدّ أن يسمع جوابه عبر خشخشة المحرّكات .

ـ تسعون ملياراً .

أطلق « بوث » صفيرَ ذهول . وكانت المسألة مسألة أنبعاث إشعاع هائل ، لا سيما وانه كان ينبغي ان يمرّ عبر عدة طوابق قبل ان يصل الى السقف وتلتقطه الطوافة .

ـ ما هو مصدر هذه الإشعاعات ؟

وانقضّ « بوث » على إحدى الخرائط . وبمساعدة شرطيين نيويوركيين ، تمكّن بسرعة من تحديد موقع المنطقة التي كان يصدر الإشعاع عنها . وكان المقصود اربعة عقارات ذات إيجار مخفض في مدينة « باروش » ، تماماً على ضفّة « الإلسِت ريفر » ، على بعد بضع عشرات الأمتار من جسر « ويليامسبرغ » . ووجّه « بيل بوث » أوامره الى الرّبان قائلاً :

ـ انسحب من هناك بسرعة لئلاّ يلاحظك أحد . سأرسل شاحنات صغيرة الى تلك الناحية .

ثم نزل السُلّم مهرولاً وأسرع نحو السيارة المبذّلة التي كانت تنتظره عند زاوية « فولاي سكوير » .

* * *

في باريس ، كان اللواء برتران يذرع مكتبه ويجتّر بيان مستشاره العلمي بشأن تقارير التفتيش الصادرة عن وكالة فيينا الذرية حول المفاعل الليبي المشترى من فرنسا . وأشعل لفافة « جيتان » جديدة من عقب السابقة ورجع الى طاولة العمل فألقى بنفسه على مقعده ، وقال مخاطباً « كورندو » :

ـ ان ما يقلقني هو ان السيد « سار » هذا ، لَزم صمتاً مُطبقاً حول توقّف المفاعل . . . .

ـ ربما اعتبر ان المقصود حادث ذو طابع فني بحت قد لا يهمُك حقاً .

واطلق « برتران » تنهداً قصيراً وفتح احد الصناديق الصغيرة المرسلة من دائرة حماية سلامة البلاد .

ـ ينبغي تفحّص تلك الأوراق كلّها بعناية فائقة . هل تتصوّر الفضيحة التي ستنزل بنا اذا ثبت ان الليبيين قد استخرجوا فعلاً البلوتونيوم انطلاقاً من مفاعل فرنسي ، وربما بالتواطؤ مع المهندسين الفرنسيين ؟

وفتّشت اصابع اللواء كدسة الغلافات الضخمة الموسومة بالخاتم الأحمر : « سري للغاية » حتى عثر على اسم « سار » .

ـ سأبدأ ، فيما خصّني ، بملفّ هاوي الأحجار هذا .

****

كان « انجيلو روكيا » لا يزال يقهقه من جراء ذلك . « إنه لمن المطمئن أن نسجّل أية جهود تبذلها الشرطة لمساعدة مواطن بسيط على استعادة محفظته » ، هذا ما كان قد قاله المستورد « جيرالد بوتنام » عندما أستأذن بالانصراف من الشرطيين الثلاثة أمام منزله .

وما أن عادوا الى السيارة ـ حتى التفت « انجيلو » نحو « تومي مالون » رئيس مفرزة النشّالين .

ـ حسناً يا تومي ، ما عندك حول تلك الفتاة ؟

وسحب « مالون » بطاقة من حقيبته .

ـ « يولندا بلينيدز » ، المعروفة باسم « إماليا سنشز » و « ماريا فرنديز » . مولودة في نَيفا

كولومبيا بتاريخ ١٧ تموز سنة ١٩٥٩ . الشعر اسود ، العينان خضراوان . علامات فارقة : لا شيء ؛ السجل العدلي : توقيف بجرم سرقة اثناء الاحتفال بيوبيل الملكة في لندن ، حزيران سنة ١٩٧٧ . محكومة بسنتي حبس ، احداهما مع وقف التنفيذ . توقيف للسبب نفسه في مونيخ اثناء عيد تشرين الأول بتاريخ ٣ تشرين الأول سنة ١٩٧٨ . محكومة سنتي سجن ، احداهما مع وقف التنفيذ . الشركاء المعروفون : بابلو « باب » توريز ، المعروف باسم ميشال كوستنزا ، المرجع ، صندوقة بطاقات شرطة نيويورك ٣٧٤٢/٥١ .

وبحث « مالون » فوراً عن بطاقة « توريز » هذا فتحقّق ان تواريخ توقيفه تتزامن مع تواريخ توقيف الفتاة .

وتنهّد « انجيلو » قائلاً :

- ليس هذا بالشيء الكثير ، ولكنه مع ذلك أثرٌ يقتفى . أين يمكن العثور على هؤلاء الشذّاذ ؟

- هناك حيٌّ ، الى جانب « اتلنتيك اڤنيو » خيث يتسكّعون غالباً . هيا بنا نقوم بجولة هناك . ربما التقينا شخصاً قد يحتاج الى « خدمة صغيرة » .

وما كاد « انجيلو » يدير المحرِّك ، حتى أخذ الهاتف اللاسلكي يُطقطق . ورفع السمّاعة . وسمع صوتاً يقول بلا أي شرح :

- روميو ١٤ ، تَلْفِن بلا إبطاء الى مركز القيادة .

وتوقّف « انجيلو » أمام أول غرفة عامة للهاتف . وخرج منها بعد بضع لحظات وعلى وجه علامات السرور الذي لم يخفَ على زميلين في السيارة . وارتمى على مقود « الشفروليه » ملتفتاً نحو « راند » :

- قل لي ، أيها الفتى العزيز ، هل تذكر وجه ذلك الشخص الذي نُشلت محفظته ؟

- بكل تأكيد !

- هل لك ان تصفه لي ؟

وبدت على الشرطي علامات الدهشة .

- لون كامد ، شعر أجعد ، عينان صافيتان . . . لماذا ؟

وأطلق « انجيلو » قهقهة ارتياح عالية :

- هذه هي بالضبط أوصاف الصورة النموذجية(×) التي رسمها زميلنا في دائرة الهويّة القضائية الذي ارسله « فلدمان » الى رصيفنا في بروكلين ، لسائق الشاحنة الذي حضر يوم الجمعة لنقل البراميل !

- هل تريد أن تقول إن السيد « بوتنام » . . .

- لا ، ايها الغبي ! ليس هو ، بل شخص يشبهه لدرجة انه استعمل اوراقه . . . عملٌ مُتقنٌ على قدر القياس ! (وأضاف « انجيلو » مزهواً بانتصاره :) وليس هذا كل شيء ، يا رفيقي ، بل يبدو ان الرفاق الذين أوفدوا للبحث عن البراميل ، قد وجدوها ! . . لقد اتصلوا لتوّهم بمركز القيادة وافادوا بأن المكان هو عبارة عن كوخ يتبعه مرأب فسيح خلفه . وجميع البراميل الواردة على بيان الـ « ديونسيوس » موجودة هناك . . . جميعها باستثناء واحد .

***

راودت ذهن « بيل بوث » فوراً فكرة ، بينما كان الشرطي الذي كان ينقله بالسيارة ، يحاول ان ينخرط في السير عبر شوارع مانهاتن السفلى الضّيّقة والمكتظّة . وكانت المعلومات المتعلقة بالمباني التي كان يجب تفتيشها وسماكة الجدران والسقوف والسطوح ونوع المواد المستعملة في بنائها ، تُسهّل دوماً عمل

(×) صورة شخص مطارد مكوَّنة من مزيج من نماذج الهيئات على أساس الشيات التي أشار اليها الشهود (المنهل)

مفارزه المختصة بالتحري عن المتفجرات النووية .
ـ إن مدينة المساكن ذات الايجارات المخفضة ، تلك ، يجب ان تكون البلدية هي التي شيدتها .
وقبل ان يجد السائق الوقت للاجابة ، كان « بون » قد امسك ميكروفون الراديو وخاطب مركز قيادته وأمر قائلاً :
ـ أرسلوا بلا إبطاء شخصاً الى قصر البلدية لجلب خرائط تنفيذ مدينة « باروسن » . وليحضرها لي الى تقاطع « هوستون » و« كولومبيا » .
ولما وصل « بوث » الى « هوستون ستريت » ، شاهد احدى شاحناته الصغيرة المطلية بألوان الاعلان الأحمر والأبيض ، وكانت لا تتميّز بشيء عن سيارات التسليم . ومع ذلك فقد كانت احد المختبرات العلمية المتنقلة المئتين التي كانت تجوب مانهاتن السفلى ، صباح ذلك الاثنين . وكانت اربعة اقراص معدنية صغيرة وهوائي قصير مُثبَّتة على الهيكل ، موصولة بكاشف من مادة البورون وبأداة اوتوماتيكية فاحصة من مادة الجرمانيوم . وكانت هذه الآلات قادرة على كشف أشِعَّة غاما والكهيربات المنبعثة عن غبار البلوتونيوم مهما كان طفيفاً . وكانت مُتَّصلة بناظمة آلية مُصغَّرة مُزوَّدة بمكشاف الذبذبة وبشاشة للمراقبة . وكانت تلك الناظمة لا تستطيع فحسب ان تُعيِّن نوع مصدر أشعة غاما الآتية من مسافة بعيدة جداً ـ المسافة الحقيقية تبقى سراً ـ بل كانت تستطيع تحديد طبيعة النظائر والعنصر الصادرة عنه .
وعرف « بوث » الشخص الطويل المسمَّر الجالس الى جانب سائق الشاحنة الصغيرة . وكان « لاري ده لاناي » ، ابن كاليفورنيا ، دكتوراً في الفيزياء من جامعة « باركلي » ومصمم آلات نووية في مختبر « ليفرمور » . وكان قد اكتسب سُمْرتَه من تسلُّقِه منحدرات « سيرا مورينا » أثناء عُطَلِه الأسبوعية .
وأعلن مغتاظاً :
ـ إننا لا نسجل شيئاً .
ورفع « بوث » رأسه نحو كتلة المباني المُتراصّة التي كانت تبرز بوضوح على السماء ، مُتميِّزة بانعدام الأناقة التي عُرِفت بها المباني البلدية .
ـ ليس الأمر مدهشاً . أن هذا يجب ان يأتي من الأعلى .
وتابع فحصه . خمسة عشر طابقاً . ثمانمئة شقة على الأقل وخمسة آلاف مستأجر . إن التنقل داخلها . دون لفت نظر احد ، لن يكون سهلاً . وانسلّت خلفهم سيارة ثانية تابعة لمكتب التحقيقات الاتحادي ، وترجَّل منها مأمور وقدَّم له ملفاً ضخماً من الخرائط .
وصعد رئيس مفارز « النست » الى الشاحنة الصغيرة حيث كان شرطي آخر يقوم بتعليق ميكروفون بحجم الميدالية في عنق رجل كلفورنيا « دولاناي » ، وسوف يتمكن بواسطته من ابلاغ قصة تقدّمه عبر المساكن ذات الايجارات المخفضة ، دقيقةً دقيقة . ثم وضع الشرطي في تجويف أذنه جهازاً لاقطاً مُصغَّراً سوف يسمح له في آنٍ ان يلتقط أخبار جهازه الكاشف وان يتلقّى التعليمات المقتضاة .
وبسط « بوث » خرائط بناء المساكن ذات الايجارات المخفَّضة ، على ركبتيه . وفكَّر قائلاً : إنها حقاً أقفاص أرانب ! كم من السياسيين والمضاربين ملأوا جيوبهم من هذه العملية . عجبا ! غير أن رقَّة الجدران وعُطوبيَّة المواد سوف تُسهِّل على الأقل التحرِّيات . ولن تقف أرضيَّات المباني ولا سقوفها سداً في وجه الاشعاعات ، هذا اذا وُجِدَت .
وأعلن بعد أن أنهى فحصه :
ـ حسناً ، سوف نُفتِّش الطوابق الستة العليا ، حتى ولو لم يكن ثمَّة أي أمل في العثور على ما كشفته

لطوّافة تحت الطوابق الأربعة الأخيرة . أما انتما فسوف تهتمان بالمبنى / أ/ . واذا ما استوضحكما احد عن مهمتكما ، فينبغي ان تقولا إنكما وسيطان لشركات التأمين . هل فهمتما ؟

وكشَّـر الشرطي النيويوركي الذي كان عليه مرافقة « دولاناي » وصحَّـح قائلاً :

- إن الوسطاء يعملون هنا ، على الأصح ، في سبيل تحصيل أموال صناديق القروض .

ووافق « بوث » قائلاً :

- هذا صحيح .

وكان الاقتراب من السلاح المُتفجِّر الموضوع من قبل الارهابيين ، يُـشَـكِّـل المرحلـة الأكثـر دِقَّـة والأكثر خطراً ، لأن هؤلاء مستعـدون لكل شيء في سبيل الدفـاع عن قنبلتهـم . وكان رجـال مفـارز « ناست » غير مُسلَّـحين ، وكانت حمايتهم تقع على عاتق مأموري مكتب التحقيقات الاتحادي الذين كانوا يتبعونهم كظلِّـهم .

وكان « بيل بوث » ، في سبيل استكشاف المبنى (ب) قد اختار احد مهنـدسيه الزنـوج وعـيَّن لمرافقته شرطية زنجية هي ايضاً . وكان عليهما أن يظهرا بمظهرِ زوجين يبحثان عن شقَّـة .

وخرج « لاري دولاناي » من الشاحنة الصغيرة حاملاً كاشف الاشعاعـات النَّقّـال . ولـم يكن الجهاز اكبر من حافظة الأوراق او أحد صناديق النماذج الصغيرة التي ينقل مثلها الممثلون التجاريون . وكان قد زال كل أثر لاسمرار الجلد عن وجه الفيزيائي متسلق الألب .

وسأل « بوث » بقلق :

- هل انك عصبي ؟

وأشار « دولاناي » بالايجاب . فربت « بوث » على كتفه .

- لا تغضب ، فسوف نجدها ، في النهاية ، قنبلتنا الأولى . . .

واحتجَّ « دولاناي » قائلاً :

- القنبلة ؟ لست خائفاً بسبب القنبلة . ولكنني أخاف ان يُقدم احد الرجال ، في الأعلى (وأشار الى مُـكعَّـبات الاسمنت الكئيبة) على غرس مِـطواة بين كتفيّ .

وما أن ابتعد « دولاناي » والفيزيائي الزنجي داخل المدينة مع حراسهما ، حتي عـيَّـن « بـوث » ثلاث مفارز أخرى لباقي المباني . ثم تابع بواسطة الراديو وبمساعدة خرائط البناء ، تقدُّمهم من طابق الى طابق ومن شقة الى شقة ، من الطابق الخـامس عشر الى العـاشر . وكان « دولانـاي » آخـر من انهـى استكشاف المبنى المكلف به . ولم يلتقط أي كاشف أية اشعاعات ، حتى تلك التي تصدر عن مُـنبِّـه ذي ميناء مُـضيء :

وأرغى رئيس مفارز « نست » قائلا :

- لم يعد يفهَـم شيء من كل ذلك . فبعد النور الشبيه بالألعاب النارية الذي سجَّـلته الطوّافة ، لم يعد يُـشاهَد حتى أية شرارة . إن الأمور لا تجري على ما يرام ، (وفكَّـر لحظة) أرجعوا الطوّافة فيما لا يزالون يستكشفون الطابق التاسع والثامن .

وبعد بضع دقائق ، سمع « بوث » من داخل شاحنته الصغيرة أزيز الطوّافة . ثم سمع الصوت المشدوه للفنّي الذي كان يحوم فوق المساكن ذات الايجارات المخفَّـضة :

- لقد اختفت الاشعاعات . لم أعد أسجِّل أي شيء . حتى ولا جزءاً من الف من المليار !

- هل أنت متأكد أنك فعلاً فوق المكان حيث كنت منذ هنيهة ؟

- أجل !

وتنهَّـد الفيزيائي مُـغتاظاً وأمر :

ـ تابع البحث .

وتابعت الطوّافة دورانها الى أن أكملت المفارز التي كانت على الأرض ، استكشافها . ولكن دائماً بلا نتيجة .

واستنتج « بوث » قائلاً :

ـ لا بـدّ أن يكون كاشفك مُـعطّـلا . أسرع الى « ماك غير » وافحصه بلا إبطاء !

وأعلن « دولاناي » أنه لم يجد أيضاً شيئاً في الطابق الثامن . فأمره رئيسه بأن يصعد الى أقصى علو وأن يُـلقي نظرة على السقف .

ونقلت الموجات نخيراً :

ـ المصعد مكسور !

ـ إذن ! ألست مُـتحمساً للصعود ؟

وبعد بضع دقائق ، كان رجل « كاليفورنيا » يطفو على السطح ، لاهث التنفُس . ولم يكن أمامه الا امتداد الأحياء الرمادية لبروكلين . وكان كاشفه لا يزال صامتاً . وألقى نظرة مُـتقـزِّزة على الأقذار التي كانت تلطّخ قطران السطح . وأعلن :

ـ بيل ، لا يوجد اي شيء إطلاقاً في الأعلى ، لا شيء إلاّ غائط الحمام !

***

كان رئيس الولايات المتحدة يقف أمام نافذة الجناح الدائري المقبّب الذي كان يُشكّل امتـداداً للمكتب الكبير البيضاوي الذي كان يرمز الى مركز السلطة بالنسبة الى مئتين وعشرين مليون امـيركي . وكان يفكر ويداه خلف ظهره ونظره يسرح على رداء الثلج الذي كان يُـغطّي الحديقة . وكان قد انتخب لأعلى منصب ، لأن مواطنيه كانوا يشعرون بالحاجة الى رئيس والى شخصية قوية قادرة على أن تحـلّ محـلّ سلفه المفعم بالنوايا الحسنة ولكن المجرّد من اتساع الأفق . وها ان صفاته كزعيم تمُـتَحن كما لم تمتحن قبلاً صفات اي رئيس منذ الحرب العالمية الثانية .

وفكّـرَ في الرجال الذين تعاقبوا على هذه القاعة : هاري ترومان ، مجترّاً قرار إلقاء اول قنبلة ذرية على اليابان ، ليندون جونسون ، مُـتورِّطاً في الصـفَن[1] الفيتنامي ، وجون كندي ، إبّان الأزمة الكبرى للصواريخ الكوبية . ولكنهم هم على الأقل كانوا يعرفون أنهم كانوا يستطيعون اللجوء الى قوة الولايات المتحدة المرعبة لدعم عملهم . في حين أن حرصه على صيانة حياة ملايين الأميركان ، كان يحرمه هو من هذا الدعم . وفكّر : آه ، ان الصينيين كانوا على حـقّ عندما نعتونا قديماً بنمر من الورق .

وانتشـلَ وقـعُ اقدام رئيس الدولة من افكاره المُـرَّة . وكان قد حان موعد أول عمل رسمي في يوم الاثنين ذاك الواقع فيه ١٤ كانون الأول . وتوجّـه نحو طاولة العمل ، التي كان خشبها السنديان المقدود من السفينة الملكية « رويال » ، قد اهدته الملكة فيكتوريا الى الرئيس « هالس ».ودخـل الى مكتبـه ، برعاية الناطق الصحفي ، نفر من الصحفيين ومُـخبري التلفزيون . ولم يدعْ الرئيس شيئاً من همومه يرشح بل بدا لَسِناً يستقبل كلا من زائريه كما يلتقي صديقاً قديماً . وفيما كان الناطق الصحفي يستهـل

(١) وكر الزنابير

الاجتماع ببعض الكلمات ، كانت عيناه تحدقان بشعار الرئاسة المحفور في السقف . يا إلهي ، ما عسانا نفعل اذا ظـلّ هذا الليبي الملعون يرفض الحوار ؟

وفيما حافظ على غموضه ، ضبط على أنفه نظّارتين عظميتين مزوّدتين ببؤرة مُـزدوجة وشرع بقراءة الخطاب الذي أعدته دوائر البيت الابيض بمناسبة الاحتفال بالذكرى الثالثة والثلاثين لإقرار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان . وكان قد وصل الى منتصف النص ، عندما استرعى انتباهه خيال جاك ايسمان ، ينسـلّ برفق الى عمق القاعة . وكان المستشار الرئاسي قد أمسك رأس ربطة عنقه ومثّل بالايماء حركة المِقـصّ . واختصر رئيس الدولة فوراً خطابه .

ـ لقد اصبح الوقت متأخراً ، أيها السادة . إنـكم تتصـورون جوعـاً وأنـا أوّلـكم . الى اللقـاء وشكراً .

وبعد بضع لحظات ، لحق به إيسمان الى مكتبه الخاص .

ـ خبر عظيم ! لقد أقمنا لتوّنا اتصالاً مع القذافي .

***

كانت ناطحة السحاب حيث يقوم المركز الإداري لولاية نيويورك ، طليعة ما استهـلّ به الخبـير « جرمي اوغلثورب » تفتيشه لملاجىء المدينة ضد الغارات الجوية . وكان هذا الاختيار متعمداً . واذا كان ثـمَّة مبنى ينبغي ان يجُـهَّز بأفضل أنواع تلك المنشآت ، فقد كان حقاً ذلك المبنى . وما ان دخل الزائر الى البهـو الفسيح للمبنى الزاخر بالناس ، حتى شاهد بارتياح اللافتة ذات اللون الأسود والأصفر التي كانت تدلّ على اتجاه الملجأ . ولفت انتباه الملازم « والش » الذي كان يرافقه قائلاً :

ـ ان الناس هنا سوف يعرفون على الأقل اين يذهبون في حالة الإنذار بغارة جـوِّية .

ووصل الزائران امام المكتب المزجّج للبواب الذي كان يشغله زنجي يرتدي بِزةً نظامية . وقـدَّم له « والش » شارته ، وقال :

ـ الشرطة البلدية ، مكتب الحماية المدنية . اننا مكلفون بفحص حالة الصيانـة في ملجئـك ضد الغارات الجويَّة .

وتمتم الزنجي :

ـ الملجأ ضد الغارات الجويَّة ؟ آه ، اجل ! . . . الملجأ التحأرضي ! انتظروا لحظة ، ريثما أجد المفتاح .

ونهض متوجّـهاً نحو لوح هائل مُـزيَّـن بمجموعة مفاتيح من جميع الأشكال والأحجـام . وحـكَّ جبينه وشرع بالبحث بين تلك الأكداس من الحديد . وكانُ يـتمتم ، وهو يُـقـلِّـب تلك المجموعة : « لا بـدّ ان يكون احد هذه المفاتيح ، حتماً احد هذه المفاتيح » . وانقضت خمس دقائق بكاملها كان البواب المسكين يتفحَّص خلالها بيد مُـرتجفة مفتاحاً بعد الآخر ، وقد ابتلت رقبته من ثورة الأعصاب .

وكان « والش » يقول لنفسه بهلع : يا إلهي ! لنتصـوَّر قليلاً الذعر الذي سوف ينفجر في هذا البهو بينما يبحث هذا الأبله عن مفتاحه دون ان ينتهي من هذا البحث .

وشعر البواب بجزع زائريه المُتزايد ، إذ انتهى به الأمر الى الصياح بصوت غاضب :

ـ بادرو ! اين ذلك المفتاح القذر للملجأ التحأرضي ؟

وعلى أثر هذا النداء برز من داخل المكتب عفريت قزم يعتمر عَـمْـرةَ لاعبي كرة القاعدة . وكان يرتدي قميصاً رياضياً مُزخرفاً بالشارات والشعارات التي كانت تعلن ان « المُخلِّص آت » وان « يسوع هو مُـخلِّـصنا » وان « طريق المسيح هو الأفضل » .

وشرح البواب :

ـ هو ذا حارس الملجأ .

وشرع بدرو يُفتِّـش بدوره بين عناقيد المفاتيح . وقد لَزِمه عدة دقائق أيضـاً حتـى وجـد المفتـاح الصالح . ثم دلَّ الزائرين على الطريق . وكان باب الملجأ ينفتح على سـلَّم مُـضاء بنور خفيف، وكانت قُـبـتُّـه مزدحمة بشبكة من التمديدات لدرجة ان « اوغلثورب » و« والش » اضطرا ان ينحنيا الى جزءين حتى يتلافيا تحطُّـم جمجمتهما . ودخلا اخيراً الى قاعة فسيحة رَطْبة تفوح منها رائحة العَـفَـن . وقد عُـلِّـق على أحد جدرانها لوحٌ كانت تتدلَّ منه ورقة مُـصْفَـرَّة تتضـمّـن بياناً بالمكان نظمته الحماية المدنية بتاريخ ٣ كانون الثاني سنة ١٩٥٩ . وكان البيان يَعُدُّ لائحة المأكولات واللوازم المودَعَة هناك والتي كانت عبارة عن ـ ٦٠٠٠ ـ برميل ماء صغـير و ـ ٢٧٥ ـ مجموعـة للإسعافـات الأولية و ـ ١٤٠ ـ عداد « جيجـر » و ـ ٢٥٠٠٠٠٠ ـ بسكوتة بالبروتيين . وكَـنَس « اوغلثورب » بواسطة جُـرْزَة مشعلة زوايا الكهف الفسيح .

وصرخ فيما كان يكْتشف بارتياح على طول الحائـط اكداس الكرتـون المتضمنـة ذلك البســكوت الشهير .

وضرب إحداها بمصباحه . وتعجَّب قائلاً :

ـ هذا غريب ، يبدو أنها فارغة .

وجـدَّد التجربة على أكداس اخرى واضطر الى التسليم بالواقع : فقد كانت جميعها فارغة .

وقال غاضباً ، كما لو كان الأمر يتعلَّق بسبائك من الذهب سُرِقت من صندوق حديدي :

ـ والش ! اين البسكوت ؟

ونظر الملازم الى خبير واشنطن بإشفاق :

ـ في النيكراغوا !

ـ كيف في النيكراغوا ؟

ـ ألا تذكر ذلك الإعصـار الـذي دمَّـر كل شيء هنـاك سنـة ١٩٧٥ ؟ لقـد أرسلنـا بسكوتنـا الى المنكوبين .

وضحك الشرطي ضَحِكاً خفيفاً يشوبه الهزء .

ـ يا لها من هدايا سيئة ، أليس كذلك ؟ يبدو أنهم أصيبوا جميعاً بالمرض بعد ان أكلوا منها ، فقد كانت فاسدة .

وانقطع نَفَس « اوغلثورب » من جراء ذلك . وفكّر : حتماً ، كل شيء متجاوز الحد في نيويورك ، حتى الإهمال .

وسأل اخيراً بصوت مخنوق :

ـ والملاجىء الأخرى ؟

وهزَّ « والش » رأسه :

ـ ليست كلها فارغة الى هذا الحد ، يا سيد اوغلثورب . حتى ان بعضها مسكون . . . ليس من قبل الجرذ فحسب ، بل من قبل عصابات من الفتيان يسرقون المورفين من أكداس الاسعافات الأولية ويحقنون أنفسهم به .

وعاد الرجلان أدراجهما بدلالة بدرو . وفي السلّم أضاء مصباح « اوغلثورب » فجأة أحد الشعارات التي كانت تزيّن قميص الحارس الرياضي . وفي ذروة تثبيط الهمّة ، قوّم الخبير الرسالة التي كانت مُسجلة عليه واعتبرها اكثر ما كان يمكن ان يتلقاه من النصائح الحكيمة في تلك الساعات المأساوية . وكان الشعار ينادي : « يسوع هو مُخلِّصنا ، فسلّموه كل أموركم » .

***

في واشنطن ، كان أعضاء لجنة الأزمة ينتظرون عودة الرئيس وجاك إيسمان . وباستثناء العسكريين كانوا يرتدون القمصان ذات الأكمام وقد فتحوا الياقات وحلّوا ربطات العنق . وكانوا جميعهم يبدون منهوكي القوى . وقد وقفوا بمشقة لدى دخول الرئيس الذي أشار اليهم بالجلوس ثانية . ولم يكن مزاجه يسمح له بالاهتمام بالتشريفات . ونزع هو ايضاً سترته ورفع كُميّه بينما كان مستشاره يلخّص الموقف .

واعلن جاك ايسمان :

ـ ان القائم بأعمالنا في طرابلس تلقّى لتوّه مخابرة هاتفية من عبد السلام جلود رئيس الوزراء الليبي يقول فيها ان القذّافي مستعدٌ للتحدث اليك عند الساعة ١٩ بتوقيت غرينيتش (والقى نظرة على الساعات الدقّاقة) أي عند الظهر بالنسبة الينا هنا ، وبعد سبع وعشرين دقيقة . وسيتم الاتصال بواسطة اللاسلكي عَبْر طائرتنا البوينغ « كاتا ستروف » . وسيتحدث القذافي بالإنكليزية ، ولكن من المحتمل ان يُفضّل التكلّم بالعربية ، على الأقل في المرحلة الأولى . إن هذين السيدين (واشار الى الموظفينْ ذوي الشعر الأشهب الجالسين بخجل عند طرف الطاولة) هما مترجما نظارة الخارجية . وأقترح ان تجري الأمور على الشكل التالي : سيتولّى أحد المترجمين إعطاءنا ترجمة سرية مُتزامنة حتى نعلم على الفور ما يقوله القذافي . وفي كل مرة يتوقف القذافي ليفسح مجال ترجمة ما قاله ، ينوب المترجم الثاني عن زميله . وأثناء تلك الترجمة الرسمية ، سيكون لدينا بعض لحظات للتداول وإعداد جوابنا . واذا ما كنا بحاجة الى مهلة إضافية فسنطلب من المترجم الثاني ان يستوضح القذافي عن المعنى الدقيق لكلمة او عبارة مُعينة .

وافق الرئيس بإيماءة من رأسه ، وتابع جاك ايسمان :

ـ لقد أعددنا طبعاً الترتيبات اللازمة لتسجيل أقوال القذافي وترجمتها في آن . وسيدوّن كل شيء بطريقة الاختزال . وسيتناوب عدة سكرتيرات على طبع كل ما يقال تباعاً بواسطة الآلة الكاتبة . ولدينا هناك (واشار الى مقرأ اسود مع عدة موانىء) مُحلّل للصوت زوّدتنا به الوكالة المركزية للاستخبارات ،

سيكشف لنا أقل توتر او عصبية لدى مخاطبنا .

وأنهى « ايسمان » عرضه بأن قدَّم الى الرئيس وزرائه الدكاترة « جيجرمان » و« تماركان » و« تورفر » الجالسين عند طرف الطاولة الآخر . ولم يحدث هذا المجمع الطبّي أية دهشة بين الحضور . وعلى الرغم من أن الأمر لم يكن معروفاً كثيراً من الرأي العام ، فإن الدوائر الحكومية العليا كانت في الواقع قد اعتادت أن تستعين بمشورة الأطباء النفسيين .

وصرح « ايسمان » :

ـ بالاستناد الى تجربتهم المستمدَّة من مفاوضاتهم مع الإرهابيين ، فإن هؤلاء السادة يوصون بإلحاح ان لا تتكلموا شخصياً القذافي .

وكبح الرئيس حركة تعجُّب . وقال بحرارة :

ـ أحرص ، ايها السادة ، على شكركم ، لأن مساعدتكم لنا ستكون ثمينة ، سيما انت يا دكتور « جيجرمان » (وطأطأ الهولندي رأسه بطريقة احتفالية) ولكن أخبروني لماذا تريدون ألا اتحدَّث الى القذافي ؟

وكرر « جيجرمان » البراهين التي كان قد عرضها سابقاً في مكتب ايسمان .

وألحَّ الدكتور « تاماركان » قائلاً :

ـ إن زميلي ، يا حضرة الرئيس ، محقٌّ كلَّ الحق . فبإلزامه أن يتحاور مع سواك ، تحتفظ بحرّية التصرف في إعداد جوابك بهدوء . (وكان الطبيب النفساني نفسه قد استعمل هذا الأسلوب بنجاح عندما اقدمت جماعة من المسلمين الزنوج على حجز بعض الرهائن) وبعبارة أخرى ، اننا نحبس انفاسه ، في الوقت الذي نأخذ فيه وقتنا للتفكير .

ولاحظ الرئيس بمرارة قائلاً :

ـ يبدو لي انه هو الذي يحبس علينا الآن الأنفاس . والى من تفكر بأن تعهد بدور المفاوض ؟

أجاب « جيجرمان » :

ـ نأمل بأن يوافق القذافي على التحدّث الى اللواء إيسمان . فالعالم أجمع يعلم أنه مساعدك الأكثر قرباً منك .

ودقدقت أصابع الرئيس بعصبية على طرف الطاولة وقال :

ـ حسناً ايها السادة ، انني أنضم إلى اقتراحكم . ونأمل ان يحذو القذافي حذونا . انا لا أشك بمعرفتكم التامة لذهنية المجرمين ، ولكن عقلية رئيس دولة ما لا تخضع حتماً للمعايير نفسها . وأود بهذه المناسبة أن تشرحوا لي ما الذي يدفع رجلاً مثل القذافي للتصرف بذلك الشكل ؟ هل جُنَّ ؟ وهل هناك جنون السلطة ؟

واغمض الطبيب النفساني الهولندي عينيه مرة ثانية . كم كان يُفضِّل لو بقي في مكتبه الهادىء في أمستردام !

- ليس المهم معرفة ما اذا كان مصابا ام لا بالجنون الهذائي ، يا حضرة الرئيس ! المهم أن نحلِّل حوافزَه . إنني شخصياً أشاطر رأي وكالتكم المركزية للاستخبارات التي تقول إنه ليس مجنوناً إطلاقاً .

- إذن ، لماذا نظَّم هذه المكيدة الجنونية ؟

- آه ! (وانتصب حاجبا « جيجرمان » بشكل /٨/) ان العنصر البارز في شخصيته هو حبّ الوحدة . فقد كان وحيداً عندما كان ولداً ، وظلَّ كذلك في المدرسة ثم في المدرسة الحربية في انكلترا . وظلَّ هذا الطابع ملازماً له عندماأصبح رئيساً للدولة . والحال أن الوحدة مُخيفة . فكلماانطوى الإنسان على نفسه ، ازداد خطره . والإرهابيون هم اساساً أشخاص منعزلون ، هامشيّون ، منبوذون ، يتجمّعون حول مثل أعلى ، حول قضية . وبما أنهم لا يشعرون بالارتياح الداخلي ، فهم يشعرون بما يدفعهم الى العمل . والعنف هو وسيلتهم لإثبات وجودهم في وجه العالم . والتفرُّد بالعمل يعطيهم عندئذ مُركَّب التفوّق . وهم يعتبرون أنفسهم انصاف آلهة وتجسيداً للحق ، لأنهم مقتنعون كل الاقتناع بسداد موقفهم .

كان الرئيس يُحدِّق بجيجرمن بفضول شديد ، حتى ان الهولندي خفض عينيه بضع ثوانٍ قبل ان يتابع :

- وكلما كان القذافي يشعر بتزايد توحُّده إزاء باقي الدول العربية ، وكلما كان يشعر بأنه منفصل اكثر فأكثر عن المجموعة العالمية ، فإن حاجته للعمل ولإثبات وجوده إزاء العالم ، كانت تصبح اكثر فأكثر مُلازمةً له . وعليه ، فقد جعل من نفسه بطل الفلسطينيين ، وهو مقتنع كل الاقتناع بصحة قضيتهم . والآن ، وبفضل قنبلته الهيدروجنية ، أصبح يعتبر نفسه انه الإلّه الأب وأنه مستعدّ ، وراء كل اعتبار للخير والشر ، أن يوزّع بنفسه العدالة .

واعترض الرئيس قائلاً :

- اذا كان الرجل مصاباً بمرض العظمة الى هذا الحد ، فلماذا نضيع وقتنا في السعي للتحدُّث اليه ؟

- لن نحاول إقناعه بلغة العقل ، يا حضرة الرئيس . بل سنسعى الى إقناعه بضرورة منحنا مهلة ما ، كما نعمل على إقناع الإرهابي بضرورة إطلاق رهائنه . وفي اغلب الأحيان ، وبمرور الوقت ، ينهار من حول الإرهابي العالم غير الواقعي الذي كان يرتاح اليه . فيغمره الواقع وتنهار وسائل دفاعه . وهذا ما يمكن ان يحدث فعلاً للقذافي . فالواقع أن اكتشاف نتائج عمله يمكن ان تشلّه فجأة .

ووجّه الطبيب النفساني سبابته في الهواء .

- واذا ما حدث ذلك ، فستكون تلك اللحظة هائلة بخطرها . وفي تلك اللحظة ، يصبح الإرهابي مستعداً للموت ، للانتحار بطريقة مشهدية . وعندئذ يصبح الخطر بأن يُصفيّ رهائنه معه هائلاً . وفي هذه الحالة . . . (وترك جيجرمان الجملة معلقة . ولكن الجميع كانوا قد فهموا ، وتابع) : إن الفرصة المباركة المتاحة لأخذ الإرهابيّ بيده - وهذه طريقة في التعبير - وإبعاده عن الخطر ، يمكن ان تسنح في اللحظة ذاتها . فيجب عندئذ السعي لإقناعه بأنه بطل ، بطل اضطر للرضوخ بشرف الى قوى فائقة .

- هل تفكر بأننا ستتمكن من التعامل مع القذافي بتلك الطريقة ؟

ـ هذا أمل . ليس إلاّ . ولكن الموقف لا يترك لنا الخيار .

ـ حسناً . كيف سنناور ؟

ـ المقصود هناك هو الهدف النهائي ، يا حضرة الرئيس . أما طريقة بلوغه ، فسنضبطها أثناء حديثنا معه . لذلك فإنه من الأهمية بمكان ان نستطيع فتح حوار معه . لأن إستراتجيتنا سوف تتوقف على ما سنعلمه بعد الإصغاء اليه . وقبل كل شيء ، المهم ان يقبل كل واحد هنا (واجال الطبيب النفساني نظرة حادّة على الحضور) هذا الموقف وان يردد لنفسه أننا سننتصر في نهاية المطاف . إلاّ . . . (وفكّر الطبيب الهولندي متأملاً اقواله نفسها . . .) إلاّ أنه في نهاية المطاف قد لا ينتصر الإنسان دوماً . . .

***

رنَّ الجرس فوق الباب . والتفت جميع شاغلي مقهى بروكلين المُعتِم مُتفرسِّين في الشرطيين الثلاثة الذين كانوا يدخلون الى حرمهم : الفتيان الخمسة او الستة المسترخين فوق مقاعدهم ذات القماش القطني الممزَّق والتي لا ظهرَ لها ولا ذراعان ، وصاحب المقهى المُكْرش ذي الحلاقة السيئة ، والثلاثي المُرتَدين قمصاناً رياضيةً من الجلد والذين كانوا يلعبون بالبليار الكهربائي . ولم يكن يُسمَع اي صوت في القاعة ما عدا طقطقة كُـلَـة الرصاص التي كانت تقفز من زُنبرك الى زنبرك ، ورنين الأنوار التي كانت تُدوِّن مجموع النقاط المحرزة على لوحة الآلة .

وخاطب « انجيلو » « راند » همساً بقوله :

ـ لا يوجد شيء ! هؤلاء الفتيان لديهم حاسّة سادسة يشمُّون بها « الزيارات » .

ومرَّ « تومي مالون » رئيس مفرزة النشّالين ، على محاذاة طاولة الشرب مُتفحِّصاً ببطء كل وجه . وكانوا جميعاً من النشّالين الذين اتخذوا بانتظام منطقة « فلاتبوش » محطّة لهم وكانوا يأتون الى هنا ، بين ساعات الازدحام ، للاسترخاء امام فنجان قهوة كولومبي وكأس « تكيلا »[1] . وتوقّف « مالون » الى بعد متر من البليار الكهربائي وأومأ الى واحدٍ من الفتيان الثلاثة كان مرتدياً قميصاً من الجلد ، بأن يتقدم . وتأوّه هذا الأخير وهو يتلوّى كراقص في حفلة مساء السبت وقال :

ـ يا سيد « مالون » لماذا أنا ؟ أنا لم افعل شيئاً .

وقال « مالون » مُتظاهراً باللطف :

ـ نودُّ أن نُتحدَّث اليك قليلاً في السيارة .

وجلس « مالون » و« انجيلو » على مقعد الشفروليه الأمامي واجلسا النشّال بينهما ، واراد « راند » ان يصعد الى الوراء ولكن زميله أوقفه . واقترح بطريقة وديّة :

ـ من الأفضل ان ترجع ايها الصغير الى المقهى ، وافتح عينيك ، فالإنسان لا يدري ما قد يطرأ .

وبعد أن أحيط الكولومبي بذلك الشكل ، أخذ يرتجف . كان رأسه يهتزّ كمسّاحة الزجاج في يوم مُمْطِر .

وكان يئنّ أنيناً ضعيفاً وهو يقول :

(١) مشروب كحولي مستخرج من نبتة مكسيكية (المترجم) .

ـ لماذا تقودني الى السجن ، يا سيّد مالون ! أقسم إنني لم أفعل شيئاً .

أجاب مالون :

ـ أنا لا أقودك الى السجن ، بل جئت اطلب منك خدمة هيّنة ـ خدمة هيّنة ، وسوف أكافئك بمثلها عند ارتكابك الحماقة القادمة .

وأخرج صورتي « يولاندا بليندز » و« تورّيز » ووضعهما أمام ناظريه ، وكان « أنجيلو » يحدّق بشدة في وجه الفتى . وفي لمحة البرق شاهد ما كان يبحث عنه ، أي اختلاجاً يكاد لا يُدرك : فقد عرف الفتى الصورتين .

وسأل « مالون » :
ـ أتعرف هذين الشخصين ؟

وتظاهر النشّال بالتفكير ثم قال :

ـ كلا ، لا أعرفهما ولم أشاهدهما مطلقاً .

وقبل أن يتسنى للنشّال أن يدرك ما كان يحدث له ، كان « أنجيلو » قد أخذ ذراعه اليمنى وبدأ يلويها .
ـ لقد طرح عليك رفيقي سؤالاً !

وتصبّبت قطرات العرق من جبين الفتى . وكان يتنقل بنظره من مفتّش الى آخر .

ـ أقسم إنني لا أعرفه .

وزاد « انجيلو » من ليّ ذراعه ، فأطلق النشال صرخة :

ـ هل تستطيع ان تنشل محفظة ، وإحدى ذراعيك في الجص ؟ إذا لم تجب على سؤال رفيقي فسأحطم عظامك كالحطب الهشّ !

ـ أوْقِف ! سأقول لك !
وأرخى « أنجيلو » قبضته .

ـ إنهما جديدان . لم أرهما إلا مرةً واحدة .

ـ اين يبيتان ؟ قلْ بسرعة !
ـ في « هيكس ستريت » ، عند الطرف الآخر من الـ « اكسبرس واي » . ولا أدري في أيّ منزل . أقسم إني لم أرهما الا مرّة واحدة .

وترك « انجيلو » ذراعه ، وقال وهو يفتح باب السيارة :

ـ شكراً ، يا صديقي .

***

كان اللواء برتران يكره قراءة تسجيلات التنصّتات الهاتفية . وذلك ليس لأن مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية كان لديه أي تشكّك فيما يتعلق بأخلاقية تلك الوسيلة . فالسنوات التي قضاها في

دوائر الاستخبارات كانت قد علّمته ، على العكس ، الى أية درجة كانت تلك التسجيلات قيّمة . واذا ما كان يكره ملفات التنصت تلك ، فذلك لأنه كان يجد قراءتها موهِنَة . فلا شيء كان يُبرز فراغ أغلب الحيوات وتفاهتها ، مثل تلك المراقبة الألكترونية للنفس البشرية .

بيد أنه كان يأمل ، على الأقل ، أن يجد في أحاديث « بول هنري ده سار » أثناء إقامته الطويلة في ليبيا ، دلائل فكرٍ نيّرٍ .

والحال ، كم كانت خيبة أمله ، عندما ثبت لديه أنّ « سار » لم يكن إلا موظفاً عادياً . وكان « سار » بدون أدنى نقيصة أو ظل أية غرابة شائنة تسمح للواء بأن يتغلّب عليه . حتى أنه لم يكن لديه خليلات ، وإذا ما آتخذ صاحبةً فإنه لم يكن يحدثها أبداً بالتلفون . وفكّر « بارتران » ، وقد أضحكه الأمر ، بأن الأمانة الزوجيّة الظاهرة عند هذا الرجل ، هي في الواقع ، بلا ريب ، الغرابة الوحيدة التي يتّسِمّ بها طبعه .

وجمع اللواء حاجبيه بين الباهم والسبابة . وكان ملفّ التنصُّتات الضخم يشمل فترة عدة أشهر . وكان أحد التسجيلات يظهر « سار » مجُادِلاً في النوافل ، على مدى صفحات ، مع المدير الاداري للمركز النووي في « فونتناي أو روز » ، ليحصل على تعيين ثلاثة من معاونيه في درجة أعلى ، الأمر الذي كان سيؤدّي إلى ترقيته بالذات وبالتالي إلى زيادة راتبه . وسجّل « برتران » باهتمام أن الحديث كان قد انتهى بتبادل ملاحظات شخصية .

- المدير : بالمناسبة ، سوف تحصل عائلتنا ، يا صديقي العزيز ، قريباً على جائزة نوبل ! -
- « سار » : لا يمكن ، فأنت تعلم أن الأسوجيين لن يمنحوا أبداجائزة نوبل الى أيّ شخص يساهم ، ولو من بعيد ، في برنامجنا . فهم شديدو الحرص على أن ينسى العالم كيف أنّ رجلهم المحترم السيد نوبل قد ربح ثروته ليكافىء فرنسياً عمل في مركز لصنع القنبلة .
- المدير : وبعد ، إنك مخطىء ، يا عزيزي ، هل تذكر « الين برفو » ؟
- « سار » : ذلك الرجل القصير الذي قضى بعض الوقت ، منذ عدة سنوات ، يعمل في مفاعل غوّاصة « كداراش » ؟
- المدير : هو بذاته ، وبمنتهى السرّية أخبرك أنه هو وفريقه العامل في أشعة لايزر في « فونتناي أوروز » قد حققوا اكتشافاً حاسماً في أبحاثهم حول الانصهار .

- « سار » : هل أنهم فجرّوا الفقاعة ؟
- المدير : لقد سحَنوها يا عزيزي ! ولقد دُعيَ « برفو » الى « الأليزة » بعد ظهر الثلاثاء ليشرح للرئيس جيسكار ولفئة قليلة من الوزراء اختيروا بدقّة ، حقيقة ذلك الاكتشاف .
- « سار » : يا للشيطان ! بلّغ « برفو » تهانيَّ . إنني لن أتصوّر ، وهذا الأمر بيننا ، أن يكون ذلك الشاب قد استطاع تحقيق تلك المأثرة . الى اللقاء يا عزيزي » .

وصاح اللواء : - « آلين برفو » ! . . . ماذا ؟ « آلين برفو » يا له من اسم مهيب ! « الين برفو » ، المهندس الذي قُتِل في غابة بولونيا بينما كان متوجهاً لحضور اجتماع في الأليزة ! وأقفل اللواء « برتران » ، بضربة خاطفة ، ملّف التنصُّتات وسحب نَفَساً من لفافته الجيتان . وقال في نفسه : هناك إمكانيتان : الأولى ألاّ تكون دائرة حماية سلامة البلاد هي دائرة الاستخبارات الوحيدة التي كانت تستمع الى ذلك الحديث في ذلك اليوم . أما الإمكانية الثانية . . . فقد حان الوقت لإجراء فحص دقيق جداًالماضي

المهندس الفرنسي المكلّف بالمشروع الليبي .

***

خرج صوت من علبة البلاستيك الأبيض المركّبة في وسط طاولة الاجتماع في قاعة مجلس الأمن القومي في واشنطن . وكان اللواء المسؤول عن اتصالات القوات الجوية للولايات المتحدة في المتوسّط ، يخاطب رئيس الولايات المتحدة من طائرة البوينغ ٧٤٧ ، « كاتستروف » ، المحلّقة على علوّ خمسة عشر ألف متر فوق الشواطىء الليبية .

ـ من « النسر ـ واحد » الى « النسر ـ القاعدة » ـ إن اتصالنا اللاسلكي مع « ثعلب ـ القاعدة » هو الآن عمليّاتي . (« ثعلب القاعدة » كان الاسم المرموز لطرابلس) « الثعلب ـ القاعدة » يعلن أن « الثعلب ـ واحد » سيكون على الخطّ بعد ستين ثانية .

وتوقّفت جلبة الأحاديث ، لدى ذكر اسم « الثعلب ـ واحد » . وخلال لحظة ، لم يعد يُسمع إلاّ أزيز آلات التكييف . وكان كل واحد يُفكّر على طريقته بأنه سوف يُسمع بعد بضع ثوانٍ صوت الرجل الذي كان يهدّد حياة ستة ملايين نيويوركي .

وسُمِعَ صريرٌ ، وملأ صوتُ القذافي القاعةَ فجأةً . وبما أن الصوت كان يأتي عَبْر خطٍ خاصٍ محميٍّ ، فإن ذلك كان يعطيه رنيناً غريباً ، ويجعل المرء يتصوّر أنه منبعثٌ عن شريط صوتي لفيلم لجماعة خارج الأرض انطلقوا لغزو كوكبنا .

ـ هنا العقيد معمر القذافي ، رئيس الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية .

وما ان ترجم الترجمان الرسمي تلك المقدّمة ، حتى انحنى « جاك ايسمان » فوق « الميكروفون » .

ـ حضرة الرئيس ، هنا اللواء جاك ايسمان مستشار رئيس الولايات المتحدة لشؤون الأمن القومي . وأريد أن أقدّم لكم فوراً تأكيد رئيسي الشخصي بأن اتصالنا اللاسلكي هذا يتمّ عَبْر خطٍ سري للغاية . ولأجل تسهيل حديثنا ، فسيتولّى ترجمته السيد أ . ر . شيهان من نظارة الخارجية الموجود الى جانبي .

وأشار « ايسمان » الى الترجمان .

وأعلن القذافي ، لدى انتهاء الترجمة :

ـ إن هذا التدبير مُرْضٍ . وأنا على استعداد للتحدث مع رئيسكم .

أجاب ايسمان باحترام :

ـ أشكر سيادتكم على ذلك . وقد كلّفني الرئيس بأن أعلمكم أولاً بأنه يهتمّ كل الاهتمام بمضمون رسالتكم . وفي هذه اللحظة بالذات فإنه يتداول مع أعضاء الحكومة لدرس أفضل وسيلة للاستجابة لمقترحاتكم . ولقد كلّفني بأن أمثّله وأن أبحث معكم بنود اتفاق حول مختلف المسائل التي أثرتموها . وثمّة في رسالتكم عدد من النقاط نودّ أن نسألكم بعض الإيضاحات بشأنها . هل أنكم واجهتم ، مثلاً ، ما هي التدابير الأمنية التي يحسن اتخاذها في الضفة الغربية عقب رحيل الإسرائيليين ؟

وتبادل الأطباء النفسانيون الثلاثة ابتسامات الرضى . فقد كان ايسمان يضطلع ، بارعاً،بدوره

كمفاوض ، مُنهياً ، حسب الاتفاق ، تدخلّه الأول بسؤال سوف يحمل القذافي على الاعتقاد بأنه كان يستطيع الحصول على ما كان يُطالب به ويضطره الى متابعة الحوار .

ومضت فترة من الصمت قبل أن يعود الليبي الى الخطّ . واكتشف كل واحد فوراً ، وحتى عبر اللغة العربية ـ تبايناً في اللهجة .

ـ أيها اللواء ايسهان ، لن أتكلم الاّ مع الرئيس ، وليس مع أحد سواه .

وكان الحضور يرقبون التكملة ، ولكن طنين المُضخِّم وحده كان ينبعث من مُكبِّر الصوت .

وهمس الدكتور « جيجرمان » في أذن ايسهان :
ـ حاول أن تكسب بعض الوقت . أجبه أنك أعلمت الرئيس وأنه سيحضر . قل له أيّ شيء حتى يبقى على الطرف الآخر من الخطّ .
وما كاد « ايسهان » يستأنف الكلام ، حتى سُمِعَ صوتُ القذافي . وكان تلك المرة يتكلّم بالانكليزية

ـأيها اللواء ، إنك تخطىء اذا ما اعتقدت أن بوسعك أن توقعني بهذه السهولة في شركِك . وإذا كان موضوع رسالتي ليس مُهماً بما فيه الكفاية لكي يناقشه رئيسك نفسه معي ، فليس لديَّ ما أضيفه . ولا تحاول الاتصال بي طالما ان الرئيس لن يكون مستعدّاً للتحدث معي شخصياً .

ومن جديد لم يعد يُسمَع الا شخيرٌ . ثم نداءٌ من « كاتستروف » ٧٤٧ :

ـ من « النسر ـ واحد » الى « النسر ـ القاعدة ! الثعلب ـ القاعدة قطع الخط .

***

كانت سيارة « انجيلو روكيا » الشفرولية تعرِّج برفق بين الحفر الملأى بالماء والوحل التي كانت منتشرة في « هيكس ستريت » . وكان الشارع ، المحصور بين المستودعات والـ « اكسبرس وايِ » ، يضع أمام النظر مشهداً لا يقل بؤساً عن حيّ الأرصفة . وكان الناظر يشاهد النقوش المخلّة بالحياء نفسها معلنة ان الزنوج سوف « يضاجعون » العالم ، والواجهات نفسها المحترقة نصفياً ، والحطام نفسه للسيارات « المفترسة » حتى الهيكل ، وأكداس الأقذار نفسها على الأرصفة . وعند نافذة أحد البيوت ، شاهد « رند » امرأة عجوزاً ترتدي أطماراً بالية . وكانت تُمسِك بيدها زجاجة ويسكي ، وقد أحاطت رأسها بخمار وألقت على كتفيها بقايا غطاءٍ قديم . ولم يحتمل منظر البؤس المرتسم على هذا الوجه . والتفت نحو « انجيلو » قائلاً :

ـ ماذا جئنا نعمل هنا ؟ أجئنا نبيع السلع في البيوت ؟

وفكّر « انجيلو » قبل ان يجُيب أخيراً :

ـ كلا ، وإذا ما حاولنا أن نجد أشخاصنا بتنقُّلنا من بيت الى بيت نصبح سماسرة بلا رخصة . وما ان يسري خبر وجود الشرطة في مكان ما ، حتى لا تعودَ تجد أحداً . وسيتصوّرون أن ثمّة تفتيشاً من قبل دائرة الهجرة . ونصف الناس هنا في وضع غير نظامي . وعليه يجب البحث عن شيء آخر .

ومرّ أمام بقّالة صغيرة تشكل ثقباً في حائط ، مع بعض سلال من القصب تحوي خضراً نصف

مهترئة مكـدّسة قرب زجاجة النافذة . ولاحظ « أنجيلو » اسم المالك مطلياً باللون الأبيض على لافتـة الباب . وقال وهو يبحث عن مكان يوقف فيه سيارته :

ـ لديَّ فكرة .

وشـقَّ الشرطيان طريقاً لهما عبر تلال الأوساخ المنتثرة على الرصيف فالتقيا زُمرة من الصبية كانوا يسحنون بضربات من نقّافتهم ألواح الزجاج الأخيرة لعقار تهدّم ، ووصلا أخيراً أمام البقالة .

وأمر « انجيلو » ، وهو يشير بطرف عينه :

ـ هل تدعني أتحدث إليك ؟

ورنَّ الصوت المعتاد لـجُـرَيْس عندما فتح الباب وفاحت رائحة الثوم والسجـق . كان الانسـان يحسب نفسه داخل هري سفينة ، نظراً لتلك الأكداس من المُعلَّبات وزجاجـات الـزيت وأوعية المربّـى وعرَمات صرُر المعكرونة الشريطية وأجربة الثرائد . وكانت القناني المقشّشة للنبيذ الإيطالي الرخيص تتدلى من السقف ، وقد لـفّـت برافية[1] مجدولة .

وبدت امرأة عجوز ، مُتَّشِحَة بالسواد وقد عقدت شعرها الأبيض على شكل كُعَـيْكة[2] . وكانت تقف خلف مَـشْرَبٍ مُبـرَّدٍ مليء بالحليب والزبدة وعلب المُنْـتَجات المجلّدة . وتفرَّست بالزائرين بهيئة مرتابة . وسأل « انجيلو » مشـدّداً على لهجة « كالابر » مسقط رأسه :

ـ سنيورا مارسيلُّو ؟

أطلقت العجوز نخيراً . وتقدَّم « أنجيلو » خطوة نحوها . وكان يبدو مَرِحا ، لدرجة أن « راند » تساءل عما إذا كان لن يُغنيِّ لها الـ « توسكا » . وكان النيويوركي قد تقـدَّم من البقّالة حتى شمَّ رائحة الغسيل التي كانت تفوح من ثوبها الأسود .

وهمس بصوت منخفض حتى لا يسمع الشرطي شيئاً وقال :

ـ سنيورا مارسيلُّو ، لديَّ مشكلة صغيرة ينبغي حلُّها ، وأنا بحاجة الى مساعدتك .

ولم يكن موضوع بحث ان يُظهر لها أنه كان شرطياً . فالعجائز مثلها ، المولودات هناك في البلد[3] ما كانت تتحـدّث مع رجال الشرطة . وكان ذلك معروفاً .

ـ لقد وقع اعتداء على إحدى بنات شقيقي ، وهي فتاة إيطالية طَيِّبة من بلدنا ، يوم الأحد الماضي ، في الشارع الرابع ، فيما كانت عائدة من قـدّاس الساعة العاشرة في كنيسة « سانت انطوان » (وانحنى فوق المرأة العجوز ، كما لو كان كاهنا على أهبة تقبُّـل الاعتراف ، وهمس مُشيراً بباهمه الى « راند ») هذا هو خطِيبها (وعلا وجهها ظـلُّ اشمئزاز). إنه ليس ايطالياً . آه ! ماذا يمكن أن ننتظر من شبابنا اليوم ! إنه ألماني ، ولكنه كاثوليكي طيِّب .

وتراجع خطوة ، مُستشعراً بأن رباط مَـودّة كان قد انعقد بينه وبين البقالـة . وأضـاف مُتظاهـراً بالإرهاق :

---

(١) نوع من النخيل.

(٢) جديلة شعر ملتفة في مؤخر رأس المرأة . (المنهل)

(٣) المقصود ايطاليا (المترجم) .

ـ هل يمكنك أن تتصوّري أناساً قادرين على فعل ذلك مع بنت طيبة من بلدنا كانت لتوّها قد تناولت[1] الربّ ، هناك ، وعلى درجات الكنيسة تقريباً ؟ تصوّري أنه أوسعها ضرباً وانتزع منها حقيبتها !

وانحنى نحو أذن السنيورا مارسيلّو :

ـ لقد كانوا من الدخلاء . . . من أميركا الجنوبية (وبصق أرضاً ، تعبيراً عن اشمئزازه ، وأضاف مشيراً الى الشارع) لقد مرّوا من هنا .

أخرج « انجيلو » عندئذ من جيبه صور « توريز » و« يولندا بليندز » .

ـ لقد أعطاني هذه الصور أحد رفاقي ، إنه مفتش إيطالي في مانهاتن . ولكن ماذا يستطيع أن يفعل رجال الشرطة ؟ (وربّت على الصورتين بأصابعه الشعراء) أنا بكر العائلة ، وبالتالي يجب عليّ أن ابحث عنهم ، وفاقاً لتقاليد بلدنا ، وحفاظاً على شرف العائلة . هل سبق ان رأيتهما ، هذين الشخصين ؟

وقالت المرأة العجوز ، وهي تئن :

ـ واهاً ! واهاً ! واهاً ! يا يسوع ! يا مريم ! يا يوسف ! ماذا أصبح هذا الحي ؟

واستحضرت نظّارتيها من فوق المشرب . واستقرّ إصبعها الأعقد[2] على صورة الفتاة ذات الصدر المُثير .

ـ تلك الفتاة أعرفها . إنها تأتي الى هنا كلّ يوم لتبتاع الحليب .

ـ هل تعرفين أين تسكن ؟

ـ إلى جانب المقهى وعلى مسافة قريبة نزولاً . ثمّة ثلاثة عقارات متشابهة . إنها تسكن هناك .

***

الرئيس وحده لم يُفاجأ بالخشونة التي رافقت رفض القذافي التحدُّث مع جاك إيسهان وقطعه المخابرة ، فقد كان ينتظر ذلك . وأمر قائلاً :

ـ دعوا بضع دقائق تمرّ وقولوا للطائرة ٧٤٧ بأن تعيد الاتصال مع طرابلس .

ثم التفت نحو الأطباء النفسانيين الثلاثة وقال :

ـ أيها السادة ، أدعوكم للاستفادة من هذا التوقُّف لتقولوا لي كيف ينبغي مخاطبة القذافي ، في ضوء الوضع الجديد . ما رأيك يا دكتور تَمَرْكان » ؟

وخفق جفنا الطبيب الأميركي بعصبية خلف نظارتي قِصر النظر .

ـ حضرة الرئيس ، لقد علّمتني التجربة أن الإرهابيين يسترسلون في أعمالهم المشهديَّة ، لأن في قلبهم شيئا يريدون الإفصاح عنه . فإذا ما استمع إليهم فإنهم يتكلّمون ، وما يقولونه يُقدِّم عادة مفاتيح

(١) إشارة الى المناولة المسيحية (المترجم) .
(٢) كثير العقد .

الجواب . نصيحتي إذن ، بصورة إجمالية ، الإصغاء ما أمكن .

ـ هذا جميل جداً ، يا دكتور ، ولكن كيف يمكن إجراء حوار بالإصغاء فقط ؟ كيف يجب أن افتتح المناقشة ؟ هل يجب أن أوجّه نداء في سبيل سلام العالم ؟

وعلى الرغم من ان « ليزا ديزون » لم تكن جالسة الى طاولة الاجتماع ، فقد اعتبرت أن من واجبها هي أن تجيب عن هذا السؤال . فقالت بعد أن شاهدت الضابط الجذاب الذي كان قد قدّم لها ذات يوم قدحاً من عصير البرتقال ، لافتةً النظر الى ما يلي :

ـ يا حضرة الرئيس ، أخشى ألاّ يكون النداء في سبيل السلام ، حجّة يتأثر بها العقيد القذافي . فالسلام ليس ، حتماً حالةً يرغب بها البدوي ، لأنه ينطوي على الخضوع للسلطة ، في حين أن البدوي فُطِر على اليقظة الدائمة وعلى الاستعداد لشنّ الغزو على معسكرات القبائل المجاورة . وإني أعتبر شهوة القذافي الدائمة للمغامرات الخارجية ودعمه لجميع الحركات الثوريّة ، بمثابة امتدادا لتلك الذهنيّة . وحتى لو ادّعى أنه يوافقك على ضرورة صيانة السلام ، فسيكون من الخطأ أن نستخلص من ذلك أية نتيجة مقبولة للمرحلة المقبلة .

وشكر الرئيس بابتسامة مُقْتَضبة .

ـ وأنت يا دكتور « جيجرمان » ؟

أطلق الطبيب النفساني الهولندي تنهّداً متسائلاً مرة أخرى ماذا جاء يفعل على سفينة الأشغال الشاقّة تلك .

ـ يا حضرة الرئيس ، ينبغي أن لا تبدوَ مهدّداً ولا ضعيفاً ، بل مستعدّاً لتزرع في عقله القناعة بأن ما يطلبه ليس مستحيلاً .

ـ حتى ولو كان ذلك غير صحيح ؟

ـ أجل ، أجل . يجب أن تحمله تدريجياً على الاعتقاد بأنه يمكن أن ينجح ، ويجب أن تتجنّب المجابهة المباشرة التي قد تؤدي الى تعزيز مواقفه السلبيّة . وقد بدا منذ الاتصال الأول واثقاً من نفسه وسيّد أحاسيسه . وهذا شيء حسن ، خلافاً لما قد يجول في خاطرك . فالأشخاص الضعفاء والسريعو الارتعاب ، هم الخطرون . وهؤلاء يمكن أن ينقضّوا عليك لدى أقل إثارة (وكان جيجرمان يداعب خاله في منتصف جبينه ، ذلك العين الثالثة ، كما لو كان يبحث فيه عن نور الحقيقة) وحاول أيضاً أن تقنعه بقبول المناقشة مع اللواء إيسهان . واجعله يُقدّر أنك بتلك الطريقة ستكون أكثر حرية لتكريس وقتك كلّه وطاقتك كلها للاستجابة لمطالبه . حقاً ، إنه أساسي ان نُلزِمَه بإجراء حوار حقيقيّ معنا .

أغمض الرئيس عينيه وشبّك يديه وظلّ فترة بلا حراك ، منطوياً على نفسه حتى يستجمع أفكاره ويستعدّ للتجربة التي كانت تنتظره . وعلى غرار الرياضيين ، أخذ نفساً عميقاً وزفر الهواء دفعة واحدة .

ـ موافق ، يا جاك ، إنني مستعدّ .

وفيما كان يقترب من مكبّر الصوت ، أخذته فورة غضب ، مبعثها اضطراره لتمثيل تلك الرواية ، والتزامه ، وهو رئيس أقوى أمّة في العالم ، بأن يتصاغر أمام رجلٍ مستعدٍ لقتل ستة ملايين من مواطنيه .

وما كاد يُعْلَن عن الاتصال اللاسلكي ، حتى أعلن :

ـ ايها العقيد القذافي ، إنه رئيس الولايات المتحدة الذي يخاطبك من البيت الأبيض . إن الرسالة التي وجهتها اليَّ أمس ، هي موضوع درس جدّيّ وعميق من قبل حكومتي ومن قبلي شخصياً . ولما ننته من درسها ، على أنه يجب ألاّ يكون لديك أدنى ريب : فنحن جميعاً ندين العمل الذي قمت به . ومهما تكن مشاعرك بشأن القضايا التي تفرِّق بيننا في الشرق الأدنى او بشأن المظالم التي حلَّت بالشعب الفلسطيني ، فإن محاولتك حلّ هذه المسألة بالتلاعب بحياة ستة ملايين من الأميركيين الأبرياء ، تُعتبر انتهاكاً غير مقبول للحرمات .

وكانت خشونة هذه المقدَّمة قد أوحت بالخوف الى الأطباء النفسيين . وأخذ « تمركان » منديله ليمسح العرق الذي كان يتصبّب من صدغيه . وكان « جيجرمان » يمدُّ أذنه كما لو كان قد آلتقط لتوِّه عن بعد بوادر نهاية العالم كما وردت في سفر الرؤيا ، وأومأ الرئيس الى المترجم ، رابط الجأش :

ـ ترجم ، وحذارِ من تغيير حرف واحد سواء في المعنى او في المبنى .

وما كادت الترجمة تنتهي حتى آستأنف الرئيس :

ـ أنت جنديّ ، أيها العقيد القذافي ، وبهذه الصفة يجب أن تعلم أنه في متناول يدي سلطة تدمير كل أثر للحياة ، فوراً ، على أراضي بلادك . وإذا ما اضطررتني الى ذلك ، فاعلم بأنني لن أتردّد في آستعمال هذه السلطة مهما تكن النتائج .

وكان « إيسمان » يبتسم موافقا . وكان يفكّر مُنذهلا : يا له من رجل ! إنه لم يحسب حساباً لأيّ من توصيات الأطباء النفسيين . وتابع الرئيس :

ـ لو كان أغلب رؤساء الدول محلّي ، لكان ردّ فعلهم على ذلك الشكل ، في الدقيقة ذاتها التي سوف يتلقّون تهديدك . غير أنني آمتنعت عن ذلك ، لأنني أشعر برغبة حارّة في إيجاد تسوية سلميّة لذلك الوضع وفي البحث عنها معك . وإنك لتعلم بكل تأكيد أنه ، أثناء حملتي الانتخابية ومنذ انتخابي ، لم أتوان عن الإعلان بأنه لن يكون ثمَّة حل دائم لقضية الشرق الأدنى ما لم تؤخذ بالاعتبار أماني الشعب الفلسطيني المشروعة . وإنني مستعدّ بكل صدق للعمل وإياك في سبيل هذا الهدف . ولكن يجب أن تفهم بأن تحقيق مطالبك لا يتوقف على حكومتي وحدها . لذلك فإني أقترح عليك بأن يكون اللواء إيسمان ، أقرب المستشارين اليَّ ، الصلة بيننا ، بينما أشرع بالمفاوضات مع القدس .

وانقلب الرئيس على مقعده ومسح رقبته . وخاطب « إيسمان » فيما كان الترجمان يترجم :

ـ كيف كنت ؟

ـ هائل !

ولم يترك جواب الليبي مجالاً للانتظار . وعلى عكس ما كان يخشاه الجميع ، كانت لهجته معتدلة وكادت أن تكون مُتحفِّظة . ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لكلماته .

ـ حضرة الرئيس ، إنني لم اتصل بك لمناقشة مضمون رسالتي . فعباراتها واضحة بما فيه الكفاية ، ولا تستوجب أيّ شرح من قبلي ، ولكنها تتطلّب عملاً فورياً من قبلكم .

وتوقّف القذافي قليلاً ليفسح المجال للترجمة . وكان الأطباء النفسانيون يتبادلون نظرات القلق العميق .

- حضرة الرئيس ، إن الهدف الوحيد من اتصالي بك هو تحذيرك بأن اجهزة الرادارعندنا قد اكتشفت وجود أسطولك السادس في عرض شواطىء بلادي . وأقول لك علناً وبجدّيّة إن هذا التهديد لن يخيفني !

ودمدم همساً امين الطاقة ، رجل تكساس « دلبير غراندل » :

- المسخ ! إنه هو من يتكلّم بوقاحة عن التهديد ! .

- إن سفنك تجول حالياً على حدود مياهي الإقليمية . وعليه أُصرُّ على أن تُسحب فوراً إلى مسافة مئة ميل بحريّ على الأقل . وإذا لم يتمّ هذا الانسحاب فعلياً خلال ساعتين ، فإنه يؤسفني أن أعلمك بأنني سأقدّم خمس ساعات موعد إنذاري .

كان هذا القدر من الجسارة يذهل الرئيس . وقد تأمّل دائرة مستشاريه ، علّه يكتشف على أحد الوجوه جواباً للمعضلة الجديدة الطارئة . ولكنه لم يشاهد على جميع الوجوه إلا انعكاس ذهوله بالذات .

- أيّها العقيد القذافي ، بالنظر للخطر الذي تُسلّطه على مدينة نيويورك ، فإني أعتبر إصرارك الجديد ليس شاذاً فحسب بل غير لائق تماماً . على أنني ، بالنظر لرغبتي الصادقة كثيراً في الوصول الى حلّ سلميّ بالتعاون معك ، مُستعدّ لمناقشته مع حكومتي وإبلاغك قرارنا في أقصر مهلة ممكنة .

وألقى رئيس الدولة نظرة صارمة على مستشاريه ، وقال بمرارة :

- أيّها السادة ، لم يلحظ ايّ من « سيناريوهاتكم » الجميلة هذا التعقيد . فما عسانا نجيب ؟ (والتفت نحو رئيس لجنة رؤساء أركان الحرب) ما هو رأيك يا هاري ؟

وبيّن الأميرال « فوللر » :

- حضرة الرئيس ، إنني حتماً ضد انسحاب هذه السفن . إن مظاهرتنا البحريّة تهدف الى إجباره على أن يعيَ النتائج التي سيجرّه إليها تهديده لنيويورك . وإن انسحاب هذه السفن قد يدفعه ، إذا ما حان الوقت ، الى تفجير قنبلته .

وأضاف رئيس العمليات البحرية الجالس الى جانب « فوللر » :

- وفضلاً عن ذلك ، فإن الأسطول السادس يشكل مجموعة ميكانيكيّة ضخمة ، لا يمكن جرجرتها كبيدق على رقعة شطرنج . فاذا ما ألغيت المهمة ، فإنه يقتضي عدة ساعات قبل أن تصبح عمليّاتيّة .

- هربير ؟

وأجاب أمين الدفاع دون ان يُرخي أسنانه عن قصبة غليونه :

- إنني أشاطر هذا الرأي .

- سيد ميدلبرغر ؟

وأدار أمين الخارجية المساعد القلم الكُرِّيَّة * بين أصابعه محاولاً كسب الوقت ليراجع في ذهنه معطيات المسألة .

ـ إذاما وضعنا الاعتبارات العسكرية جانباً واكتفينا بأخذ شخصيّة القذافي بالاعتبار ، فإني أعتقد بأنَّ منحنا في الحال مثل هذا التنازل ، سيُشكِّل خطأً مُميتاً . يا حضرة رئيس ، أنا أقول بالرفض .

ـ وأنت يا سيّد « تاب » ؟

مرّر رئيس الوكالة المركزية للاستخبارات إبهاميه في فُتْحات صداره .

ـ يبدو هذا الرجل مصمّماً على بدء امتحان للقوى . واذا كان ذلك حقاً هو ما يبحث عنه ، أفلا يجدر بنا ان نُبيِّن له حالاً أننا مستعدون لمجابهته ؟

وتأمّل الرئيس ذلك الشخص الواثق من نفسه الذي كان قد تكلَّم لتوِّه بقليل من الغطرسة . وكان يُفكِّر : آه من جماعة الاستخبارات اولئك المُتسرعين دوماً للإجابة على سؤال ما بطرح سؤال آخر ، حتى لا يستطيع الخلف أن يُسجِّل ضدهم أيَّ موقف ، مما يحمل على الاعتقاد أنهم جميعاً تابعوا دروسهم في هارفرد زمن كيسنجر .

ـ والسيّد جاك ؟
تجمَّد إيسهان في مقعده ، مُتضايقاً بعض الشيء .

ـ إنني مضطر لإعلان رأي يخالف رأي الجميع . فالمسألة التي نجابهها هي معرفة كيف سيكون باستطاعتنا إنقاذ حياة ستة ملايين نيويوركي . ولن نتوصل الى ذلك إلا بكسب ما يحاول القذافي أن ينتزعه منا ، أي الوقت . ونحن أحوج لتلك الساعات الخمس للعثور على القنبلة في نيويورك منا للأسطول السادس في عرض الشواطىء المقابلة لليبيا .

ـ أنت تنصح اذن بسحب السفن ؟

ـ نعم ، يا حضرة الرئيس ، بدون تردّد . (وحاول إيسهان ان يطرد من ذهنه رؤية ابنته في ثوبها الابيض ، ليكون متأكداً حقاً بأن جوابه مُرتبط فقط بتحليل هادىء للموقف وتابع) : إن واقع بعض الساعات هذه هو أهم بكثير بالنسبة لنا من الطريقة التي يتصوّر بها القذافي قوّتنا او ضعفنا . وأضيف أننا لسنا على كل حال بحاجة للأسطول السادس لتدمير ليبيا .

ولاحظ رئيس الدولة :

ـ هناك شيء يدهشني في هذا التهديد الجديد للقذافي لماذا خمس ساعات ؟ ولماذا لم يحدد خمس عشرة ساعة ؟ ولماذا لم يقل فوراً ؟ واذا ما كانت سفننا تقلقه حقاً الى هذه الدرجة ، فلماذا لم يطلب المزيد ؟

وبقي صامتا عدة ثوان محاولاً العثور بنفسه على تفسير ما . ثم خاطب الأطباء النفسيين :

ـ وأنتم ، ايها السادة ، ما هو رأيكم ؟

(×) قلم في سِنِّـة كُرَيَّـة تقوم مقام الريشة وتتحبّـر تلقائياً (المنهل)

وشعر هنريك جيجرمان مرةً أخرى بقشعريرة خفيفة تطوف صلبه . وكان على يقين بأن النصيحة التي كان يستعدّ لإسدائها ، سوف تُستَشْعر بمرارة من جزء كبير من الحاضرين ، لا سيا وأنها صادرة عن أجنبيّ .

ـ اعتقد ، يا حضرة الرئيس ، ان هذا المطلب الجديد للعقيد القذافي يَنِمُّ عن عدم استقرار أساسيّ . إنه يحاول ، عن غير وعي ، ان يُقدِّر قواك ، على أمل أن تعطيه موافقتُك التأكيدَ على أن تحدِّيه سوف يؤتي ثماره . إننا نلاحظ دائماً هذا الموقف عند الارهابيين منذ الاتصالات الأولى معهم . إنهم يتخذون موقاً عدوانياً ، متصلّباً : « اعملوا هذا حالا ، وإلاّ نُصفّي إحدى الرهائن ! » . نصيحتي اذن هي ان نفعل دائماً ما يطلبه الارهابي . وفي الحالة الحاضرة اوصيكم اذن بعمل ما يطالب به القذافي . وهكذا سوف تُبيِّنون له أن بإمكانه التفاهم معكم . وسوف تغرسون في فكره ، بصورة دقيقة ، هذه الحقيقة بأنه قد ينجح اذا ما تعامل معكم . ولكنني سأطالب بثمن مُقابل هذا التنازل وسأستخدم ذلك في سبيل ارغامه على مناقشة مضمون رسالته ، وهذا ما يبدو أنه يستمرٌّ في رفضه . وذلك بقصد فتح الحوار معه .

وكان الرئيس قد أصغى بدون اعتراض . وشكر بإيماءة من رأسه وأقفل مرَّة ثانية عينيه ليُركِّز تفكيره ويتخّذ قراره منفرداً في أعماق نفسه . ثم التفت نحو الأميرال فوللر :

ـ هاري ، أعطِ الأمر للأسطول السادس بانسحاب .

وفي الحال ، ارتفع صوت يقول :

ـ إنك يا حضرة الرئيس ، برضوخك لهذا المُبتزّ سوف تجازف بأن تصبح شمبرلين أميركا !

وحدَّق الرئيس في وجه امين الطاقة الأحمر قائلاً :

ـ إنني لا أرضخ للعقيد القذافي ، يا سيد كرانديل . (وكانت الكلمات تتساقط بإيقاع كاشف للغيب لطبل مأتمي) بل أحاول فقط كسب ما وصفه اللواء إيسمان على حقّ بالورقة الرابحة الرئيسية في هذه الأزمة (واستشارت العينان الزرقاوان الساعات الدقّاقة) أي الوقت . جاك ! فليُعد الاتصال مع طرابلس .

وما ان أعلنت الطائرة ٧٤٧ كاتستروف عودة (الثعلب ـ واحد) الى الخطّ ، حتى صرَّح الرئيس بما يلي :

ـ أيها العقيد القذافي ، أنا مستعد لإعطاء الأوامر اللازمة لكي ينسحب الأسطول السادس الى مسافة مئة ميل عن شواطئكم ، كما طلبت . ولكنني أحرص على إعلامك أنني اتخذت هذا القرار لسبب واحد ووحيد : وذلك لأبيّن لك رغبتي الحارّة والصادقة لأجد ، بالتعاون معك ، وسيلة لحلّ هذه الأزمة بما يرضينا كلينا . على أنني لن أعطيَ هذه الأوامر ما لم تقبل من جهتك بمناقشة فوريّة حول الطريقة التي تؤدي إلى ذلك .

وتبعت كلماته فترةُ انتظار طويلة غير عادية . وقَلِق إيسمان متسائلاً : ماذا يجري في طرابلس ؟ ولما عاد القذافي الى الخط ، كان يتكلم ثانية بالإنكليزية .

ـ طالما ان سفنك الحربية باقية فلن يتم أيّ نقاش . أما إذا رحلت فسوف نتكلم ، ان شاء الله .

وسُمع صوت الفصّال . وعادت العلبة البيضاء الى صمتها .

***

- القسم السابع -

« حضرة الرئيس ، لقد كذبت عليَّ »

تفحّص « انجيلو روكيا » المباني الثلاثة التي كانت البقّالة الايطالية قد دلّته عليها ، الى جانب المقهى . وكانت تَتّسِمُ جميعها بمظهر التداعي : واجهات مُبقّعة وسلالم الحرائق المحطّمة المتدلّية كارب من حديد ونوافذ وأبواب مُترّسة بالألواح . وكانت لافتة على أحد المباني تعلن عن « غرف للإيجار . المراجعة مع البواب ٣٠٥ هيكس ستريت » .

وعلّق انجيلو :

ـ إنها حقاً أكواخ قذرة . وتخصّ بلا ريب أحد أسياد ذلك الحيّ الفقير من مانهاتن . وبانتظار احتراقها ، فإنه يكدّس فيها بعض المُستترين ويتقاضى من كل فرد أقصى أجر . .

ودخل الشرطيان الى بهو الرقم ٣٠٥ « هيكس ستريت » . وكانت كومة نتنة من الأقذار والزجاجات وعلب البيرة والأوراق الدهنيّة ترتفع حتى السقف . وأسوأ من ذلك كانت تلك العفونة الحامزة المطوّقة والمنبعثة من البوْل الذي كان يُشرِّب الجدران والسلّم .

ـ انظر ، أيّها الفتى !

وكان « انجيلو » قد التقط قنّينة وقذف بها كومة الأقذار . فانتشر حشدُ من الجرذ في جميع الاتجاهات ، على مرأى من الشرطي المُروَّع . وقهقه « انجيلو » من الفرح ، لدى مشاهدته تراجع زميله الشاب ، واتجه نحو الباب الموسوم بكلمة « بوّاب » . فطرقه . وسَمِعَ صليلَ سلاسل . وانفرج الباب الذي كان مغلقاً بإحكام من الداخل . وأطلّ من الفجوة عجوز زنجيّ يرتدي عِفريتة * . فقدّم له « انجيلو » شارة الشرطي بسرعة فائقة لم تسمح للبواب الا بمشاهدة وميض مذهّب . وقد كاد « راند » يختنق عندما استمع الى النيويوركي يُقدّم نفسه كمفتش للجنة الصحّة . وكان قد شرع بالإشارة الى تلّة الأقذار .

ـ قُلْ ، أيّها الجدّ ، إن في كوخك كثيراً من الأقذار ، مما قد يسبّب الأوبئة بالإضافة الى الحرائق . وقد يمتدّ ذلك الى مسافة بعيدة . .

وبدأ الزنجي ، وقد أرهقه الضيق ، ينزع واحداً بعد الآخر الأقفال والسلاسل التي كانت تُرتِج حجرته، ويدلي بمكنوناته ، قائلاً وهو يئنّ :

ـ ماذا بوسعي أن أفعلَ ، انا ؟ الناس هنا كالبهائم . فهم يفتحون أبوابهم ويقذفون منها صناديق القمامة في السلّم !

ـ ينبغي أن أنظّم بعض محاضر ضبط . . . (وكان « انجيلو » قد أخرج صورة النشّالة الشابّة) الاّ إذا . . . (وأراه الصورة) هل تعرف هذه الفتاة ؟ إنها كولومبية . ذات نهدين كبيرين يمكن رؤيتهما من مسافة كيلومتر .

(*) ثوب يرتديه العامل وقت العمل .

وتفحَّص البواب الصورة . ودلَّ ارتجاف جَوزة عُنقِه على أنه يكذب .

- كلا ! لم أرها قط .

- يا للخسارة ! (وكان « انجيلو » ينظر بإشفاق الى الرجل العجوز) كنت آمل أننا سنتمكن من تبادل الخدمات ، أنت تفهم ماذا أقصد ؟

وتنهَّد الشرطيّ وأخرج قصاصة ورق ، كما لو كان يريد أنْ يُنظِّم محضراً .

- هنا لا أقل من آثنتي عشرة مخالفة .

وأشار الى الأقذار والسلَّم بدون إنارة وسلالم الحريق المحطَّمة .

وكان « جاك راند » يقول في نفسه ، وقد أرعبته تمثيلية زميله ، يا إلَهي ! اذا ما اكتشف مكتب التحقيقات الاتحادي الوسائل التي نستعملها الآن ، فبوسعي أن اقول لوظيفتي : وداعاً . وأنا على يقين بأني سأقضي بقيّة أيامي في قرية من « داكوتا » الجنوبية .

وتضرَّع البوّاب :

- مهلاً يا حضرة المفتّش ! انتظر دقيقةً واحدة . ولا تدع أعصابك تثور . فالمالك يُلزِمني ، أنا ، بدفع محاضر الضبط .

- بلا هُزالة ! آمل ان يكون لديك مال في صندوق التوفير ! لأنه سيتوجب عليك هذه المرَّة ان تدفع . . . لنقل خمسمئة دولار .

وترنّح البوّاب بفعل تلك الضربة . ولكنه كان يعرف أن مستأجريه سيُسرُّون بأن يغرسوا سكّيناً في ظهره إذا شاء سوء طالعه أن يُسلِّم أحدهم الى الشرطة .

وقال له « انجيلو » برفق ، بعد أن وضع يده على كتفه :

- اسمع أيها الصديق . أودّ أن أسدي اليك خدمة . فلننسَ الخمسمئة دولار . ولكن قل لي بسرعة ، في أية غرفة تسكن تلك الفتاة . نحن نعلم أنها تقيم هنا .

أخذت عينا الرجل العجوز تدوران مثل كرتين وهو يرصد أبواب الممشى والسلم والرصيف خارجاً . وهمس ، نصفَ مشلول :

- الرقم ٢٠٧ ، الطابق الثاني ، الباب الثاني الى اليمين .

- هل هي هناك في هذه اللحظة ؟

ورفع الزنجيّ كتفيه .

- إنهم يروحون ويجيئون بلا توقُّف . وفي بعض الأحيان يوجد هناك خمسة عشر شخصاً .

وجَّه « انجيلو » ضربة ودّية إلى وجه البّواب وجذب « راند الى الخارج » . وتداول الرجلان لحظةً . ونصح الشرطي :

- يجب ان نطلب نجدة ، فقد يكون الأمر خطراً .

وتمتم النيويوركي :

ـ أنت على حق . خمسة عشر رجلاً ، هذا يدعو الى التفكير . (وكان « انجيلو » يقرص ذقنه المزدوجة) ولكن بصورة عامة لا يكون النشّالون مُسلّحين . فالمرء يدفع الثمن غالياً اذا ما قبض عليه ناقلاً بندقية ، في حين أن عمله يقتصر على النشل . (وكان انجيلو يُفكّر) ومن جهة ثانية ، فإن استدعاء الشرطة بدون ضجّة في ذلك الحيّ ، يوازي إدخال فيل الى مخزن بورسلين . هيّا ، تعالَ يا صغيري ، ولنذهب الى هناك وحدنا .

لما وصل إلى أسفل السلّم ، بحث انجيلو في جيبه عن روزنامته الصغيرة من البلاستيك الصادرة عن الـ « فيرست ناسيونال سيتي بنك » وكان طلب المفتاح من البوّاب يعادل توقيع قرار بإعدام المسكين . طبعاً ، كان بإمكانهما أن يحاولا اقتحام الباب ولكن ذلك سيحرمهما من تأثير المباغتة . ولوّح بالروزنامة أمام « راند » .

ـ سأفتح الباب بهذا . ثم نندفع كلانا الى الغرفة .

وكانت هذه الصفيحة الصغيرة من البلاستيك ، الصلبة واللّينة في آن ، والتي كثيراً ما يستخدمها رجال الشرطة والقفّالون ، تسمح بدفع مزلاج الأقفال العاديّة بدون ضجّة .

وثار الشرطي قائلاً :

ـ انجيلو ! لا يجوز ان نفعل هذا ، فليس لدينا مذكرة تفتيش .

وأجاب الشرطي لدى وصوله الى الطابق الثاني :

ـ لا تغضب ، فلسنا في عالم كامل .

***

ـ عظيم !

واستدار « ميخائيل لايلورد » حول المائِل * المُجمَّد في وضع غريب تحت كشّافة الأنوار في المحترف . ثم ركع ، واضعاً عينه على مُصوِّب آلته من طراز « هاسبلاد » وأخذ يرقب البريق الخُبازيّ المتراقص على ثوب السهرة من صنع « إيف سان لوران » .

ـ هائل (وضغط على المُطلِق) أسطوري .

وأخذ ، هكذا ، اثنتي عشرة صورة وقال بعد أن أطفأ الأضواء :

ـ شكراً يا عزيزتي ، هذا كل شيء اليومَ .

واكتشفت عندئذ ليلى قابعة في زاوية من الشقّة . وكانت قد وصلت الى نيويورك بعد أن كانت قد أوصلت شقيقها وليد الى مخبأه في « دوبس فيري » حيث كان عليها ان تلتحق به في اليوم التالي مع كمال قبل هربهما الى كندا .

وصرخ :

ـ ليندا ، كنت أعتقد أنك كنت تتناولين طعام الغداء مع . . .

(*) تمثال لعرض الملابس .

وقاطعته بقبلة :

ـ لقد اعتذرت ، لأتناول الطعام معك .

***

ـ الشرطة ! لا يتحرك احد .

وقفزت الكلمات عبر القاعة ككرة السكواش * على الجدران الأربعة . وكان انجيلو وراند قد ظهرا لتوهما عبر الباب المفتوح بفضل روزنامة البلاستيك الصغيرة . كان المرء يحسبهما شرطيين ، إبان تحريم الخمور ـ يقومان باقتحام حانة غير مرخص بها : وقد كانت قبعتهما على طرف العين ومسدسهما مصوباً بقبضة ممدودة وركبتاهما ملويتين . وكان مثل هذا الإخراج من شأنه تحجير شاغلي المسكن الستة .

كان المكان مطابقاً لما كان انجيلو قد تخيّله : فقد كان فراش القش يُغطّي الأرضية وكانت الإنارة عبارة عن مصباح عار متدلّ من السقف . وكانت تفوح رائحة العرق والعطر الرخيص . وعلى حبل كان الغسيل يجفُّ والسراويل الصغيرة ورافعات النهود والقمصان ذات الأكمام القصيرة والبناطيل الجينز ـ كان ذلك كلّه يؤلّف راية هُزئيةً لهذا الكوخ الحقير في حالة الجنوح والإشراف على الغرق . ولم يكن ثمة سوى أثاث واحد هو عبارة عن أريكة منقوبة كانت رفاصاتها قد شقّت الحشوة،وكانت تجلس على حافتها تلك الفتاة ذات الصدر العارم ، التي كانت مُنصرفة الى تحريك يخنة تطهى على مهل فوق موقد غير مرفوع عن الارض . وكان انجيلو قد تعرَّف عليها فوراً . فنهض وأعاد مسدسه الى غمده وتجاوز مُراهقاً مُروَّعاً وانتصب أمامها . واستنشق رائحة اليخنة ، وانطلق يقول :

ـ من المؤسف ألاّ تتمكني من الاستمتاع بها ، إذ أن رائحتها زكيّة جداً . خذي معطفك يا آنسة فأنت ذاهبة الى السجن .

وصرخ ، عندئذ ، شخص مُـرْتَخٍ على فراش بمحاذاة الحائط :

ـ لا تمسَّ فتاتي ! ماذا تريد منها ؟

وقذف « جاك راند » عبارة :

ـ أغلق فمك !

وصمت فوراً « توريز » الكولومبي ، الذي كان يعمل مع الفتاة . وكان فتى هزيلاً ، ذا وجنتين بارزتين ونظرة محمومة وشعرٍ كثٍّ أسود ومجعّد .

وأشار « راند » بمسدسه الى البونشو** الأحمر ذي الرموم الهندسية الذي كان يمكن ان يخُفي تحتـه سلاحاً ، وأمره بخلعه .

امتثل الكولومبي ، وكان عارياً كالدودة ما عدا زوج من الجوارب غير المتجانسة وسليب*** ذي بياض أقرب الى القذارة . واقترب منه انجيلو آخذاً من جيبه الصورة التي كان قد أعطاه اياهـا رئيس مفـرزة النشّالين وتفرَّس فيه وهو يبتسم .

(*) لعبة شبيهة بكرة اليد والتنس .

(**) بونشو : معطف في اميركا الجنوبية مصنوع من غطاء مثقوب الوسط لإخراج الرأس منه .

(***)سليب : سروال قصير يلتصق بالجسم .

ـ يا هذا ! أيّها الصديق ، أنت بالضبط الشخص الذي نبحث عنه . أنت ايضاً ، الى السجن !

وأخذ النشّال يحتج بمزيج من الإسبانية والإنكليزية.ولكن انجيلو أغلق فمه .

ـ إن الشخص الذي نشلت محفظته في المحطة يوم الجمعة تعرَّف على صورتك بين كدس من الصور . قلت لك إنك ستذهب الى السجن . ولكن قبل ذلك يجب أن أتحدّث وإياك .

حاول أحد الكولومبيين الثلاثة الآخرين المستغرقين على الفراش ان يسترعي انتباه الشرطي . وكان رجلاً مُسنّاً ، ذا وجه حزين مُتجعِّد ، وقد تضرع ، بلغة انكليزية مُترددة ، قائلاً :

ـ يا حضرة المفتش ، إنه جديد ، إنه لم يرتكب حتى الآن ايَّ شرّ (وفتّش تحت فراشه فأخرج من حُـزْمة أوراقاً نقدية ، وقال وهو يشير بطرف عينه) : بوسعي ان أدبِّر الأمور .

رشقه انجيلو بنظرة احتقار وأومأ اليه بالخروج مع شريكيه الاثنين وفتاة أخرى متجمّعة في إحدى الزوايا .

ـ هيّا ، كلّكم الى الخارج ! حالاً ! وإلا استدعيت دائرة الهجرة .

ولمجرَّد ذكر كلمة « هجرة » ، هرب الكولومبيون الأربعة لا يلوون على شيء . وعاد انجيلو نحو « توريز » وتظاهر بالرقّة وهو يقول :

ـ أيّها الصديق ، ينبغي أن تعطينا إفادة : الى من بعت بسعر زهيد بطاقات التأمين التي نشلتها صباح الجمعة في المحطّة ؟ من كان قد أمرك بهذا العمل ؟

وسمع انجيلو ، خلف ظهره ـ صوتاً يُطقطق رشقاً من الكلمات الإسبانية . ولم يفهم منها إلا كلمتين : الحقوق المدنية . فاغتاظ والتفت نحو الفتاة ذات النهدين الكبيرين ، التي صوّبت اليه نظرة قاتلة . وفكّر انجيلو : تلك الفتاة ، يجب طردها . ونادى راند الذي كان لا يزال قائماً بالحراسة أمام البيت .

ـ خذ الفتاة الى السيارة،وسألحق بك بعد لحظة .

تردّد « راند » لأنه كان يخشى أساليب زميله ، ومع ذلك استجاب لطلبه . وصرخ وهو يدفعها الى قُرص الدرج :

ـ هيَّا الى الخارج ، أيّتها الفتاة !

وصفق الباب ، وشرع توريز بلبس بنطالٍ جينز . فأمره انجيلو بالكفّ عن ذلك فيما كان ينتزع البنطال من يديه قائلاً :

ـ اترك هذا ، يجب ان نتحدث اولاً . أكرر سؤالي : الى من بعت بطاقة الامريكان اكسبرس التي وجدتها في المحفظة التي نشلتها يوم الجمعة ؟ لحساب من قمت بهذا العمل ؟

ـ أنا لم أسرق شيئاً ، أيها السيد .

وكان صوته يرتجف ولكنه كان ينظر الى الشرطي ويحدِّق في عينيه .

ـ انتبه أيّها السيد . أسألك للمرة الثالثة : لمن دسست تلك البطاقة العاهرة ، أنت الذي قمت

بالعملية يوم الجمعة في المحطّة . لا بدّ أن يكون هناك شخص أوعز اليك بأن تختار زبوناً كان يشبه ذاك الذي سرقته . من هو ؟ هذا كل ما أريد معرفته .

وخفض توريز عينيه وتراجع مترنّحاً على الفراش . واستند الى الحائط . وكانت اليخنـة لا تزال تطهى على مهل ، عند قدميه ، على الموقد . وتقدّم انجيلو مُهدداً . فتضرَّع الكولومبي قائلاً :

ـ أيّها السيد ، إنك لا تملك هذا الحق . إنني أتمّتع بالحقوق المدنّية .

وضحك انجيلو هازئاً ثم قال :

ـ حقوق مدنية ؟ إنك لا تتمتّع بأيّة حقوق مدنية ، أيّها العاهر ! حقوقك المدنية تركتها في بوغوتا !

اقترب الشرطي من توريز ، وكان يسيطر عليه بقامته المديدة . وكان الرجل النحيف يرتجف من البرد والخوف وذلك الشعور بالعجز الذي كان العُـرْي يفرضه على سجين وجهاً لوجه أمام مُستنطقـه . وكان يحمي بيديه أجزاءَه التناسلية . وكانت كتفاه الغائرتان تُضفيان عليه هيئة اكثر هزالاً .

وكانت ضربة الشرطي سريعة لدرجة أن الكولومبي لم يتمكن من مشاهدتها . وكانت يد انجيلو اليسرى قد أمسكت به تحت ذقنه وقذفت به الى الحائط . والتطم رأسه مرتين . ودوَّخته الصدمة ، فأرخى ذراعيه . واستفاد انجيلو من ذلك فأمسك خِصيتيه بيده اليمنى . وأطلق الكولومبي عويلاً .

ـ حسناً ، يا ابن العاهرة ، ستقول لي الآن الى من بعث تلك البطاقة . والا اقتلعت خِصيتيك وأطعمتك اياهما .

تأوّه توريز ، وكان قد طُوِيَ الى جزءين ، وقال :

ـ سأتكلم ، سأتكلم .

فأرخى انجيلو قبضته قليلاً .

ـ اونيون ستريت . بني . مخبِّىء المسروق

وعاد انجيلو يحكم قبضته من جديد .

ـ أيّة جهة من اونيون ستريت ؟

أطلق الكولومبي صراخاً آخر . وكان العرق يتصبّب من وجهه :

ـ قرب الشارع السادس . للجهة الثانية من المتجر الكبير . الطابق الثاني .

ترك انجيلو النشّال الذي انهار على الأرض وهو يئنّ من الألم . وأمره قائلاً :

ـ هيّا ، ارتدِ بنطالك . سنذهب معاً نحن الاثنين لنراه ، بَني هذا .

***

صرَّحت ليلى ، وهي تلقي على عشيقها نظرة سقيمـة :

ـ ميخائيل ، يا حبي ! لو كنا ننسى كل شيء خلال بضع ساعات . . . ولا نفكر إلاّ بنا نحن الاثنين .

ورفع المُصوِّر عينيه الحائرتين . منذ قليل ، كانت قد قالت له أثناء وجودهما في التاكسي الذي كان يُقِلُّهما الى المطعم ، إنه كان لديها شيء هام تودّ أن تقوله له . وخلال الغداء ظلّت صامتة ولم تكد تقترب من صحن « التغلينال » الخضراء ومن كأس « البرودولينو » . وكان النادل قد أخلى الصحون ومرَّ بالمنشفة على السِّماط بحركة رشيقة وأحضر فنجاني قهوة .

وسأل فيما كان يرفع الفنجان الى شفتيه :

ـ أهذا هو الشيء الهامّ الذي كنت تودّين ان تقوليه لي ؟

ـ يقولون يا ميخائيل ، إن الحب كالنبتة وأنه يجب تغذيتها إذا أردنا أن تتفتّح . وسيكون رائعاً اذا ما صنعنا ، انا وانت ، من وقت الى آخر ، شيئاً غير عادي ، فيه بعض الجنون ، وأدخلنا نفحة من الأوكسيجين في سير . . .

ـ . . . علاقتنا ؟

ـ أجل ، إذا شئت .

ـ ماذا تحبّين أن تفعلي ؟

ـ أي شيء . . . مثلاً ، لنخرج من هذا المطعم ولنأخذ سيارة تاكسي الى مطار كندي ولنسافر الى مكان ما . مدة يومين أو ثلاثة أيام . بدون أمتعة . بدون شيء . إليك هذا الخبر . يجب أن أقفز الى مونتريال غداً ، لمشاهدة مجموعة الصيف . غداً مساء ، يمكن ان نلتقي في « كيبك » . أتعرف « كيبك » يا ميخائيل ؟ هل تعرف قصر فرونتناك ؟ إنه فندق فرنسي كبير ، قديم العهد على شاطىء سان لوران . وهناك المطاعم والمحلات والحانات كما في باريس . وحول ذلك أزقّة وميادين مع مقاعد . سنقوم بنزهات في عربة خيل ونأكل ما شئنا من الهلاليات *

تناولت يده . وكانت عيناها تلتمعان بجزع صبيانيّ . وبلع ميخائيل جرعة قهوة .

ـ يا عزيزتي ليندا ، غداً لديَّ حفلتا تصوير لا أستطيع الغاءهما . وتذكّري أننا مدعوّان للغداء عند « ترومان كابوت » يوم الأربعاء . . . اذا ما كنت حقاً ترغبين في الهروب ، فلنذهب ، بالأحرى ، الى « بورتو ڤلارتا » في المكسيك ونقضي عطلة نهاية الأسبوع فيها . (وهذا ما انتهى الى اقتراحه ، بلهجة مُصالِحَة) أما كندا ، فهي الجليد شتاءً . وسنسافر بعد ظهر الجمعة ونتعشّى مساء تحت أشجار النخيل على شاطىء الباسفيك .

وصفّقت ليلى بأصابعها حماساً .

ـ فكرة رائعة . أتخلّى عن كل شيء . عوضا عن كندا ، نسافر بعد ظهر الغد الى المكسيك . أنت عبقري يا حبيبي

ـ هائل (وضغط على المُطلِق) أسطوري !

ـ ليس غداً يا حبيبتي . ففي « ڤوغ » سوف يشنقونني اذا لم أنجز الصور غداً . ولكن يوم الجمعة . . .

وبدا التفكير مجدداً على وجه ليلى . وكانت تتساءل : إلى أيّ حدّ أستطيع أن أذهب دون المجازفة . . .

(*) رقاقة بالزبدة بشكل هلال تؤكل عادة مع الفطور (المنهل) .

وفي الخارج ، كانت سماء كانون الأول المنخفضة والرمادية تنذر بسقوط جديد للثلج .

ـ ألا يزال لديك عمل اليوم ؟

وأجاب ، فيما كان يساعدها على ارتداء معطف الفراء :

ـ لا .
ـ فلنذهب إذن عندك ، لأنني بحاجة الى حنان .

***

كان مكتب الأمين العام لوزارة الشؤون الخارجية الفرنسية يقع في الطابق الثالث (الطابق النبيل) ، وكان يشرف على إشراق « السين » المُلوَّث . وكان البارون « جوفروا ده فراغيه » ، سيّد المكتب الحالي ، يُتابع من إحدى النوافذ سير زورق كان يكافح ضد تيّار النهر المُصْفَرّ ، وهو يتساءل عن سبب الزيارة الطارئة التي كان على وشك تقبُّلها من مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية .

وكان « فراغيه » لا يُقدِّر الرجل ولا التنظيم الذي كان ينتمي اليه . وكانت دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية ، اذ كانت تُصرّ على نقل النموذج الأميركي ، قد نجحت في التعدّي على المجال المخصَّص لوزارة الخارجية ، فأقامت ممثّليها في السفارات الفرنسية عبر العالم كله ، وخلعت عليهم لقب قناصل او ملحقين سياسيين . وكان « فراغيه » يحقد على الحكومة لتسامحها في مهانة السلك الدبلوماسي الذي ضمّ « فارجين » و« تلّيران » .

وكان قد عاد الى طاولته ، عندما أدخل المباشر اللواء برتران . وحيّاه بإيماءة خفيفة من رأسه تأتلف بالكاد مع قواعد الأدب ، وسأله بصوت ودّي يرشح منه الكَذِب :

ـ ما هو الداعي لهذا السرور الذي تسبّبه لي زيارتك ؟

وكان برتران يبحث عن منفضة . فدلّه البارون بإصبعه على منضدة في الطرف الآخر من القاعة .

وشرح اللواء ، والمنفضة على ركبتيه ، قائلاً :

ـ بتاريخ ١٥ نيسان سنة ١٩٧٣ نظّمت وزارتكم باسم السيد بول هنري ده سار ، المهندس في مفوضيّة الطاقة الذريّة ، عقداً لمدة ثلاث سنوات ، كلّفته بموجبه بمهمة لدى مفوضيّة الطاقة الذريّة الهنديّة ، بصفة مستشار فنّي . وعاد الى فرنسا في تشرين الثاني سنة ١٩٧٥ ، أي ستة أشهر قبل انتهاء أجلِ عقده . والملف الذي سلّمني إيّاه زملائي في دائرة حماية سلامة البلاد لا يشير الى أسباب تلك العودة المسبّقة . فهل تستطيع تنويري حول هذا الشأن ؟

واتكأ البارون على مكتبه ، مسنداً رأ مديه :

ـ هل أستطيع معرفة أسباب فضولك ؟

اعتذر برتران الذي ابتهج في قرارة نفسه قائلاً :

ـ أخشى ألاّ أتمكن من ذلك . على أنني أوضح بأن طلبي حظيَ بموافقة السلطات العليا .

وفكّر الدبلوماسي بغضب : يا لهم من صيادين مخالفين ! ها هم يأتون أيضاً للصيد فوق أراضينا متذرّعين بمباركة سيّد القصر . آيّة حقبة هذه !

وطلب « فراغيه » من أحد معاونيه أن يحضر له ملف السيد « سار » . ففتحه فوق مكتبه بطريقة لم تكن تسمح لبرتران بأن يقرأ شيئاً من مقعده . وكانت مذكرة قد ضُمَّت الى المستند الذي كان قد أنهى خدمات « بول هنري ده سار » في الهند . وكانت تشير الى غلاف مختوم يتضمّن رسالة من سفير فرنسا في نيودلهي الى ملف الأمين العام.وقد فضّه هذا الأخير وقرأ الرسالة متمهّلاً لمجرّد احتقار اللواء الذي كان نفاد

صبره جليّاً . ولما أنتهى ، طوى الرسالة وأعادها الى الغلاف وأرجعه الى مكانه مُسلّماً الملفّ الى معاونه . وقال أخيراً :

ـ كما كان يُنتظر ، الأمر يتعلق بقضية لا أهمية لها .

وقال اللواء مرتاباً :

ـ احم ! *

ـ لقد استعمل صديقك ، السيد « ده سار » ، الحقيبة الديبلوماسية ليخرج بطريقة الغش أشياء أثرّية ، كانت عبارة عن تحف ذات قيمة كبيرة . ولتلافي أيّ خلاف مع أصدقائنا الهنود ، فقد آستدعي وأعيد الى وظيفته في مفوضية الطاقة الذرية .

وسجّل بارتران وهو يسحق بعناية عقب لفافته في المنفضة :

ـ هذا مُثير للاهتمام الى أبعد حدّ .

لقد وجدها إذن تلك الفرجة التي سوف تسمح له بأن يكتشف الأماكن المعتمة في حياة شخص كان يبدو ظاهراً فوق أيّة شبهة ! وكانت عقارب الساعة الدقّاقة طراز لويس السادس عشر الموضوعة على المدفأة خلف البارون ، تشير الى الساعة ١٨/٣٠ . فإذا ما أراد الاستفادة من تلك المعلومات قبل الليل ، فقد كان عليه ان يعمل سريعاً . لقد كان في حيرة : ألم يكن من الحكمة أن يفكرِّ مليًا وأن ينتظر الى الغد ؟ ومن جهة ثانية ، فإن زميله في الوكالة المركزية للاستخبارات كان يبدو مستعجلاً جداً .

ـ أرجو المعذرة ، يا حضرة الأمين العام ، ولكن الواجب يقضي عليَّ أن أطلب منك الترخيص باستخدام تسهيلات الاتصال المتوفّرة لديك لتوجيه رسالة عاجلة الى ممثّلنا في طرابلس . وبالنظر لما أعلمتني إياه لتوِّك ، فإن الأمر لن ينتظر عودتي الى مكتبي .

***

كان « جرمي اوغلثورب » ، خبير واشنطن في شؤون الإخلاء ، يتأمّل المشهد مُتعجباً كصبي صغير اكتشف صبيحة الميلاد قطار أحلامه الكهربائي . وكان المخطّط المضيء للمترو ينتشر على كامل أحد جدران مركز القيادة للمديريّة العامّة للنقل المشترك النيويوركي . وكان عبارة عن شعٍّ ** هائل مُوشّى بأربعمئة وخمسين محطّة تتفرّع عنها ، كالحباحب ، الخمسمئة وستة قطارات التي كانت تنقل يومياً أربعة ملايين مسافر عبر الشبكات الثلاث البالغ طولها ثلاثمئة وثمانين كيلومتراً .

واندهل « اوغلثورب » امام الزنجيّ الضخم المرح الذي كان يشغل وظيفة مدير السير ، وقال :

ـ هذا مُدهش أكثر مما كنت أتصوَّر .

ثم وجّه السؤال الى الموظف الزنجيّ فجأةً :

ـ لنفترض ، يا سيد تود ، أن كارثة ما تستوجب إخلاء مانهاتن ، فما هو عدد الأشخاص الذين يستطيع المترو أن ينقلهم خلال أربع ساعات ؟

تأمّل الزنجيّ الرجل القصير ذا العقدة الفراشية بدهشة ، وقال :

ـ أعترف بأنّنا لم نطرح مطلقاً على أنفسنا مثل هذا السؤال .

وأخرج « اوغلثورب » ملفّاً من حقيبته قائلاً :

ـ ومع ذلك ، فإن بين يديّ مستنداً أعده معهد « ستّانفورد » للأبحاث يُبينّ أنه إذا حشدنا كامل حافلاتكم السبعة آلاف واذا نقلنا مئتين وخمسين راكباً في كل حافلة ، وإذا زدنا معدّل القطارات من أربع دقائق الى دقيقة واحدة ، واذا زدنا طول القافلة من عشر إلى أربع عشرة حافلة ، وإذا سيَّرنا القطارات

(*) صوت يطلق للدلالة على الشك والتردد (المنهل) .

(**) بيت العنكبوت .

بالسرعة القصوى حتى نهاية الخطّ ، فإنّ بإمكاننا نقل ثلاثة ملايين ونصف نسمة في أقل من أربع ساعات . فهل هذا صحيح ؟

وكان مدير السير يبدو محيَّراً اكثر فاكثر .

ـ أخشى أن تكون تقديراتكم متفائلة بعض الشيء .

ـ ما الذي تريد أن تقوله ؟

ـ أريد أن أقول إن حساباتكم لا تأخذ بالاعتبار أن ٢٠ ٪ من حافلاتنا هي بصورة مُستديمة غير جاهزة بداعي الإصلاح والصيانة . وأنه سيحصل هياج شعبي اذا حاولتم تكديس اكثر من مئتي شخص في كل حافلة ، وأنكم إذا رفعتم معدَّل القطارات من أربع دقائق الى دقيقة واحدة فإن القطارات سوف تتصادم ، وأنكم اذا سيَّرتموها بأقصى سرعة فإنها سوف تخرج عن الخط ، وأنكم اذا وضعتم أربع عشرة حافلة بدلاً من عشر حافلات ، فإن اربعاً منها سوف تبقى محصورة في النفق ، لأن المحطات لا يمكنها أن تستقبل اكثر من عشر حافلات .

وكان كلما شرح « تود » اعتراضاته ، يزداد وجه الخبير امتقاعاً . وقال متضرِّعاً :

ـ ألا يمكننا ، في كل حال ، ان نُـخْـلِـيَ على الأقل نصف هذا العدد ؟ مليونين على الأقل خلال أربع ساعات ؟

وكان الزنجيّ يهزُّ رأسه بحزن :

ـ إنّ خطتكم هائلة ، يا حضرة الخبير ، ولكنها غير قابلة التحقيق إطلاقاً !

واستاء « اوغلثورب » فقال :

ـ إطلاقاً ؟

وأطلق « تود » ضحِكاً هازئاً كان يعني أنه لا يمزح .

وسأل :

ـ وقطاراتكم الجميلة من سيقودها ؟

ـ سائقوكم العاديّون طبعاً . من تريدون أن يكونوا ؟

ـ وأيّة حجّة ستعطونهم لهذا الإخلاء الكارثي ؟

تردد « اوغلثورب » وهو يداعب عقدته الفراشية وقال :

ـ لا أدري ، سنقول لهم مثلاً إن بعض الإرهابيين دسُّوا قنبلة ذرّية في مكان ما من مانهاتن .

وقهقه الزنجيّ ضاحكاً :

ـ إذا قلت لهم إن في مانهاتن قنبلة ذرية ، فيمكنك ان تكون على يقين بأنهم سيقودون قطاراتهم بكل أبهّة حتى نهاية الخط ! هذا أكيد ! ولكنهم سينزلون هناك مع جميع الناس . أما محوِّلو السير ورؤساء القطارات الذين تحتاجون إليهم لإعادة قوافلكم الى نقاط الإطلاق ، فهم ايضاً سيكونون قد تأهّبوا للرحيل ! (ومأَّ * بيده إشارات الوداع) هل تتصوّر أن هؤلاء الأشخاص سيبقون هناك منتظرين أن تنفجر قنبلتك فوق رؤوسهم ! ومن سوف يهتمّ بالناس في المحطّات ؟ أستطيع أن أضمن لك بأن مستخدمي المترو لن يتولّوا هذا الأمر . لأنهم سيكونون قد ولّوا الأدبار على متن القطارات الأولى باتجاه « برونكس » أو أيّ مكان آخر . وفي ظرف نصف ساعة سنجد جميع قطاراتك مهجورةً عند نهاية الخطّ ، ضمن عرقلة سير معقّدة من الحافلات الفارغة . وخلال ذلك الوقت سيتضارب الناس على الأرصفة .

كان « اوغلثورب » يُصغي الى تعداد تلك المصائب وقد انشدَّ فكُّه وتقلّصت يده على أوراقه . وأشار الزنجي الى جميع هذه المستندات ، وقد علَت وجهَه مسحةٌ من حزن .

(*) مثّل بالايماء بلا كلام (المنهل) .

ـ ان ما تمسك به هناك ، ايها السيد المسكين ، ليس إلا ريحاً .

***

كان رئيس مفارز « ناست » للتحرّي عن المتفجّرات النووية البارد الطبع ، يبدو مضطرباً كرجل علم لتوّه أن امرأته وضعت خمسة توائم . وكان « بيل بوت » قد أصبح كالمجنون منذ عودته الى مركز قيادته في ثكنة « بارك أفنيو » . وكانت طوّافاته ، المحلِّقة فوق أسفل جزيرة مانهاتن ، قد كشفت ثلاث مرات خلال الساعة المنصرمة ، إنبعاثات إشعاعية هامّة . وكانت تلك الإشعاعات تختفي بطريقة غامضة ، كلما انتقلت المفارز الأرضية على عجل الى المكان المحدّد لتفتيش المباني التي التقطت فيها . مع أنه كان يعلم ان الآلات المركَّزة على متن طوّافاته كانت تعمل بطريقة سليمة ، كما دلت على ذلك لتوّها التجارب التي أجريت على الآلة الأولى المرسلة الى قاعدة « ماك غير » .

وكان « بوث » يذرع مركز قيادته مُغتاظاً ، وهو يستمع الى الرسائل اللاسلكية التي كانت تنقلها مراكزه للإنصات . وكان يتصرَّف بجهاز للاتصالات غاية في الإتقان ، مُنطلق على الأخص من « لاس فيغاس » . وكان هذا الجهاز مستقلاً كل الاستقلال ، بشكل كان يسمح لمفارزه على الأرض او في الجوّ أن تجري اتصالاتها على تواترات سرِّية يتعذّر التقاطها على الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون وهواة الراديو الذين اعتادوا التجسس على مخابرات الشرطة . وكانت منشورة على الجدران صور جوِّية ضخمة لأقسام نيويورك الخمسة . وكانت لُحمة هذه الصور من الدقَّة بحيث كان يمكن التثّبت من لون قبعة إحدى المتنزهات في الشارع الخامس . وكانت هذه المستندات نتيجة سلسلة من الصور التي تُغطّي مئة وسبعين مدينة أميركية وكانت جاهزة ليلاً نهاراً في مركز أركان « ناست » في واشنطن . وسمع « بوث » فجأة صوت أحد رجاله :

ـ هنا الريشة ٣ ، إني ألتقط شيئاً ما ! إنني فوق الشارع الثالث والعشرين ، عند زاوية جادّة « ماديسون » تقريباً .

كانت الريشة ٣ إحدى الطوّافات الثلاث التابعة لمفارز « ناست » . وفيما كان القائد يعيد الاتصال لتثبيت الموقع الصحيح للإشعاعات ، سمعه « بوث » يشتم :

ـ يا للقذارة ! لقد آختفت الإشعاعات .

وآنقضت بضع ثوانٍ وعاد الصوت :

ـ بيل ! لقد وجدتها ثانيةً . إنها لم تختفِ ، ولكنها تتنقل ، مما يحملنا على القول إنها تصعد جادة « ماديسون » .

ـ أنا أراهن بأن هؤلاء القذرين قد وضعوا قنبلتهم في شاحنة وأنهم يجرجرونها عبر المدينة .

وأعطى الأوامر بأن تحاصر القطاع فوراً عشر شاحنات صغيرة ، وأرسل طوّافة ثانية على سبيل النجدة وأخطر مكتب التحقيقات الاتحادي . واستعدَّ أسطول من السيّارات المُبدَّلة لمطاردة الشاحنة عبر السير المُزدحم في مستهلّ بعد ظهر ذلك اليوم . وصعدت الإشعاعات « ماديسون » مجتازة الشارع ٣٤ فتجاوزت مبنى « الموبيل » وانحرفت فجأة نحو الغرب ، وكانت الطوّافات تُلاحقها بصورة دائمة .

وفجأةً أعلنت طوّافة الطليعة :

ـ مصدر الإشعاعات توقّف !

وسأل « بوث » :

ـ أين أنت ؟

ـ عند زاوية الشارع ٤٢ والجادَّة الخامسة .

ووجّه رئيس مفارز « ناست » فرقه نحو مَفْرَق الطرق ذاك . وأكّدت الشاحنة الصغيرة الأولى فور

وصولها الى المنطقة المحدَّدة :
ـ هناك إشعاعات !
ـ أين أنت بالضبط ؟
ـ أمام المكتبة البلدية تماماً .

***

في واشنطن كانت ساعة الحائط لقاعة مجلس الأمن القومي تُشير الى الساعة ٢٨/ ١٤ . ومنذ ان قطع القذافي قبل ساعتين ونصف الاتصال مع البوينغ ٧٤٧ كاتستروف ، كان يسود القاعة جوٌّ من العجز . وكانت ترنُّ بلا آنقطاع أجراس الهاتف التي كانت تصل المجلس بمركز قيادة البنتاغون والى مكتب الطوارىء النووية لمكتب التحقيقات الاتحادي والى مركز شرطة نيويورك والى مكتب العمليات للوكالة المركزية للاستخبارات والى مركز العمليات في الطابق السابع لنظارة الخارجية . وكان الرسل يروحون ويجيئون . وكانت فناجين القهوة وبقايا السندويشات والمنافض الملأى بأعقاب اللفافات تُغطّي الطاولة الى جانب اكداس البرقيات السرِّية . ولم يكن اي شيء في تلك البرقيات التي كانت ترد عبر الشبكة فائقة الحداثة للمواصلات المسافية للبيت الأبيض ، قد أمَّنت للرئيس ومستشاريه أية طمأنينة أو أي أمل طفيف بإيجاد حلٍّ معقول لتلك الأزمة . وفيما لم يبق من مهلة الإنذار الذي أطلقه ديكتاتور طرابلس سوى أقلّ من أربع وعشرين ساعة ، فإن الرئيس وحكومته ظلاً مجرَّدين من أيّ سلاح ، على الرغم من القائمة الاسطورية للإمكانيات العسكرية التي كانت بتصرّفهما . وفيما كان إيسهان يستنشق الرائحة الحامزة للدخان والعرق ، كان يجد أنهم يشبهون طاقم غواصة مشرفة على الغرق في قاع البحر . وكانوا يلاحقون ساعة فساعة تتابع التحرّيات عن القنبلة في نيويورك. ورويداً رويداً فرضت نفسها تلك الحقيقة بأن حجم العملية كان من الاتساع لدرجة أنه لم يكن ثمَّة أيّ أمل في اكتشاف القنبلة ضمن المهلة المفروضة من القذافي .

أما الرسائل الصادرة عن عواصم العالم الرئيسية ، فقد كانت كلّها ، بلا استثناء ، تحثُّ الرئيس على ألاّ يخضع للابتزاز . ولكن واحدة منها لم تذكر كيفية التوصّل الى ذلك دون تعريض سكان نيويورك للخطر .

وخلال الساعات الأخيرة كان الرئيس قد تحادث مع بيغن مرّتين : الأولى عندما أطلعه على الموقف ، والثانية عندما آقترح عليه ، بناء على طلب الوكالة المركزية للاستخبارات ، أن يوافق الخبراء الإسرائيليون على أن « يلعبوا » الأزمة على الناظمة الآلية بالاشتراك مع زملائهم الأميركان ، على غرار مباريات التنس تلك ، التي يمكن التنافس فيها على شاشة التلفزيون .

وكان الرئيس الأميركي قد أشار الى أن الأدمغة الالكترونية ربما قدَّمت لنا الحلّ الأعجوبة الذي لم نكن نُفكِّر به . ولم يكن أحد في واشنطن يؤمن بذلك ، ولكن الغاية من العملية كان إرغام الإسرائيليين على التثبُّت بواسطة شاشاتهم بالذات أن تنازلاً أرضيا هاماً من قبلهم سيسمح وحده بإنقاذ نيويورك .

وبعد الساعة ٣٠/ ١٤ تماماً قاطع أحد ضباط البحرية تقريراً صادراً عن باريس كانت تدلي به الوكالة المركزية للاستخبارات ، وأعلن ان آخر سفينة من الأسطول السادس خرجت لتوِّها من منطقة المئة ميل التي حدّدها القذافي . وتلقّى الرئيس الخبر بمزيج من الارتياح والخشية . فالحوار سوف يستأنف ، ولكن بأية صيغة ؟ وكيف التخاطب بلغة العقل ، على بعد ستة آلاف كيلومتر ، مع مُتعصِّب لم يكن حتى الأمس إلا رئيساً مُلهَماً لشعب صغير من القبائل المنتشرة فوق محيط من الرمال . فإذا به يصبح اليوم ، بفضل البترول وعبقرية إنسان القرن العشرين التكنولوجية وجنون الغرب الذي يبعثر ، في كل آتجاه ، أثمن معارفه ، مالكاً للوسائل التي تخوّله بأن يفرض على العالم رؤياه كقاض إقطاعي ؟ وكان يفكر بأن

البشرية كانت تسمح لنفسها ، على غير العادة ، ان تخلق الطغاة في عهد السيوف ، ولكن ليس في عصر الذرّة .

وفيما كانت اللغة الخاصّة الفضائية التي كانت تستخدمها البوينغ ٧٤٧ كاتستروف لإعادة الاتصال مع طرابلس ، ترنُّ في مكبّر الصوت ، كان رئيس الدولة يلقي نظرة أخيرة على الملاحظات التي كان قد دوّنها عندما كان يستمع الى توصيات الأطباء النفسيين .

« ينبغي إطراؤه وتمجيد غروره بامتداح دوره كزعيم عالمي . إنه رجل متوحّد . فيجب اتخاذه صديقاً وإفهامه أنني أنا الشخص الذي بوسعه أن يخرجه بكرامة من المعاقل التي حصر نفسه داخلها . يجب التحدُّث إليه برفق ، وبلا تهديد . لا ينبغي أن أعطيه انطباعاً بأني لا أحمله على محمل الجدّ . يجب محاولة إدخال الشك الى ذهنه ، وزعزعة مقرراته تدريجاً . يقتضي ان لا يعرف ابداً اين هو من ذلك » احم ! إنها نصائح حسنة للتعامل مع سارقي مصرف صغير في الأقاليم ! أمّا مع شخص من هذا العيار، فما فائدتها ؟

وأعلن ضابط الاتصال اللاسلكي ٧٤٧ فوق ليبيا :

- « الثعلب - واحد » على الخط .

وشعر الرئيس بكتلة في قعر حاقه . ومسح عنقه . وبعد ان تأكد أن رجل ليبيا كان قد تثبّت من سحب الأسطول السادس ، أعلن :

- أيها العقيد القذافي ، أودُّ ان أعكف وإيّاك على المشكلة الخطيرة التي يثيرها كتابك . إنني أعلم بأي حماس تتمنّى أن يحصل إخوانك الفلسطينيون على العدل . أريد أن تعلم بأني أشاطرك هذه المشاعر وأنني . . .

وقاطعه القذافي متحدثاً بالإنكليزية . وكان صوته ودّياً كالسابق ، أما كلماته فلم تكن قط مُشجّعة .

- حضرة الرئيس ، لا تُضع وقتك ولا وقتي بالخطب . هل إن الإسرائيليين شرعوا بإخلاء الأراضي العربية المحتلّة ام لا ؟

وأفاد الفنيُّ التابع للوكالة المركزية للاستخبارات الذي كان يدير محُلّل الأصوات أنْ لا أثر لأيّ انفعال .

وأجاب الرئيس ، وهو يكافح للمحافظة على رباطة جأشه :

- إنني أفهم تلهُفَك وأشاطرك اياه . ولكننا يجب أن نرسي معاً قواعد سلام دائم يرضي جميع الفرقاء المعنيين ، وليس سلاماً مفروضاً على العالم بالتهديد الذي تصبّه على نيويورك .

وقاطعه القذافي مرة اخرى بقوله :

- كلمات ، دائماً كلمات . الكلمات الجوفاء والمخادعة نفسها التي أشبعتم بها إخواني الفلسطينيين خلال ثلاثين سنة .

وألحَّ الرئيس :

- إنني اؤكد لك أنني أتكلم بكل صدق .

وتجاوز القذافي ذلك ، وتابع :

- إن حلفاءكم الإسرائيليين يقصفون مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان ويرشّونها بواسطة الطائرات والمدافع الأميركية ويقتلون النساء والاولاد العرب بالرصاص الأميركي ، وماذا تُقدِّمون مقابل ذلك ؟ كلمات ! في حين أنكم تستمرّون في بيع أسلحة جديدة للإسرائيليين ليذبحوا بها عدداً أكبر من الفلسطينيين ! ماذا فعلتم كلما استولى الإسرائيليون على اراضي إخوتي ليقيموا عليها مستوطناتهم غير الشرعية ؟ لقد كنتم تخصّونا بمراثيكم الورعة في حين كان الناطقون باسمكم يطلقون صرخات الاستنكار في واشنطن . ولكن هل تدخّلتم مرة واحدة لوقف الإسرائيليين ؟ كلا ، ابداً . اذن يا حضرة الرئيس

واعتباراً من الآن ، يمكنك انت وممثلوك ان تحتفظوا بخطبكم الجميلة . فقد ولّى زمن الكلمات المنمّقة .

إن عرب فلسطين يمتلكون أخيرا الوسائل لنيل العدل الذي يتوجب لهم منذ زمن بعيد . وسوف يحصلون عليه ، والا فإن الملايين من مواطنيكم سوف يدفعون ثمن المظالم التي ذهب العرب ضحيتها .

وكان يزيد من وقع هذا الكلام اللهجة الباردة والرتيبة والمتجرِّدة تقريباً ، التي عبرَّ بواسطتها رئيس الدولة الليبية عن أفكاره . وكان إيسهان قد فكرَّ بأن تلك اللهجة تشبه لهجة سمسار الأوراق المالية وهو يقرأ لأحد الزبائن أسعار البورصة . أما بالنسبة للدكتور تمركان والدكتور جيجرمان ، فإن ذلك الصوت الجليّ ، المُراقب كلّياً ، كان يؤكد ما كان يخشاه كلاهما من أن القذافي لن يتردد في تنفيذ تهديده .

وردَّ الرئيس :

ـ لا أستطيع أن أصدّق أن رجلاً مثلك ، أيها العقيد القذافي ، رجلاً فخوراً بأنه قام بثورته دون إراقة الدماء ، رجلَ رحمةٍ ومحبّة ، يستطيع أن يُفجِّر تلك القنبلة ، الآلة الجهنميَّة والسلاح الشيطاني ، وأنه يستطيع حقاً أن يجُابه قتل ملايين الأبرياء وتشويههم .

ـ ولماذا لن تُصدِّق ذلك ؟

ولأول مرَّة كانت اللهجة على شيء من العنف ، مما أذهل الرئيس .

ـ لأن ذلك سيكون عملاً غير مسؤول تماماً وغير معقول . . . (وتردَّد) عملاً مجنوناً ، عملاً . . .

ـ عمل مثل الذي قمتم به أنفسكم عندما ألقيتم قنبلةً من هذا النوع على السكان المدنيين اليابانيين . أين كانت رحمتكم ومحبّتكم في تلك اللحظة ؟ هل تريد القول إنَّ الأمر غير ذي بال إذا كان القتل والحرق والتشويه يُصيب ملايين الأسيويين الصفر القصار والعرب والأفريقيين ، شرط ان يظلّ الأميركان الجميلون ذوو الجلد الأبيض في منأى عن ذلك ؟ هل هذا ما تعنيه ؟ من هم البرابرة ، يا حضرة الرئيس ؟ من اخترع هذا السلاح الشيطاني ، كما تُسمّيه ؟ اليهود الألمان ! من هو البلد الوحيد الذي استخدمه ؟ أميركا المسيحية ! ومن يُكدِّس تلك الأسلحة التي تستطيع ان تُدمِّر البشريَّة ؟ إنها الأمم الصناعية المتقدِّمة في غربكم المُتمدِّن ، على حد قولكم ، إن هذه القنابل هي نِتاج مدنيّتكم ، يا حضرة الرئيس ، واليومَ سنستخدمها ، نحن ، لتصحيح أخطائكم إزاءنا .

وكان رئيس الدولة يتفحَّص بيأس دفتر مُلاحظاته،فكم كانت تبدو له مُضحكة الآن النصائح التي كان قد دوَّنها فيه .

ـ أيها العقيد القذافي ! (وكان لصوته رجع مؤثـرّ) مهما كانت حِدَّة تضامنك إزاء مصائب الفلسطينيين ، فيجب أن تعترف بأن سكان نيويورك ليسوا من يتحمّلون مسؤولية ذلك ، وفيهم زنوج هارلم وبورتوريكيو البرونكس وملايين الكادحين الذين يكسبون خبزهم بشقِّ الأنفس وبعرق جبينهم .

ـ أجل إنهم مسؤولون جميعهم ! وإذا ما عدنا الى بدء المُعضِلة نتساءل من المسؤول عن خلق دولة إسرائيل . إنكم أنتم الأميركان ! وبأي أموال تبقى إسرائيل ؟ أليس بأموالكم ؟

وبحث الرئيس عن حجةٍ أخرى . واتخذ هذه المرَّة موقف الماكر :

ـ لنفترض ان الإسرائيليين وافقوا على إخلاء الأراضي التي تطالب بها ، هل تظنّ ، أيها العقيد

القذافي ، أنهم سيدَعونكم تتخلَّصون بهذه السهولة ؟ ما هي الضمانة لحلّ دائم في نظركم ؟

ويبدو أن رجل ليبيا كان مبتهجاً للإجابة عن مثل هذا السؤال .

ـ اسأل أقمارك الاصطناعية التي تحلّق في هذه اللحظة فوق بلادي لتتفحَّص الشريط الصحراوي على محاذاة حدودنا الشرقية ، من البحر حتى واحة كُفرا . إنها سوف تنبئك عن وجود بعض المُنشآت . حقاً ، إن صواريخي ليست بمقدرة صواريخك ، يا حضرة الرئيس . فليست قادرة حتى الآن على الدوران حول الأرض للقيام بأبسط المهـمَّـات . ولكنها تستطيع قطع الف كيلومتر وبلوغ شاطىء إسرائيل . وهذا كل ما أطلبه منها . إنها تمثِّل جميع الضمانات التي أحتاجها .

وفهم الرئيس وقال لنفسه : يا إلهي ! هذا أسوأ مما كنت أنتظر . وقلَّب بحدَّة صفحات مُفكِّرته بحثاً عن صيغة سحرية قادرة على ان تمسَّ وتراً حساساً لم يتمكن حتى الآن من اكتشافه . وألقى نظرة باتجاه الأطباء النفسانيين ، ولكن وجوههم ما كانت تعكِس إلاَّ عجزهم .

ـ أيّها العقيد القذافي ! لقـد تتبَّـعـتُ بإعجـاب شديد إنجـازات ثورتـك . وأعلـم بأية عزيمـة آستخدمت الموارد النفطية في باطن أرضك لتوفِّر لشعبك التقدُّم الماديَّ والازدهار . ومهما تكن مشاعرك إزاء نيويورك ، فأنت لا تريد أن يُدمَّر بلدُك وسكانُه نتيجة تدابير ثأرية رداً على المحرقة النووية الحرارية .

ـ إن شعبي ، يا حضرة الرئيس ، مُستعدٌ للموت في سبيل القضية ، تماماً مثلي أنا بالذات .

وكان رجل ليبيا لا يزال يتكلم بالإنكليزية لتسهيل الحوار . واستأنف الرئيس :

ـ لقد آستطاع ماوتسي تونغ عملياً ان يُنجز إحدى اكبر الثورات في التاريخ دون إراقة دماء (كان ذلك ، حقاً ، غير صحيح ،ولكن جيجرمان كان قد آقترح الإستشهاد بالزعيم الصيني : « اذكر ماو . فلا بدَّ انه يتصوَّر نفسه ماو العرب ») . لديك الإمكانية نفسها ، أيها العقيد القذافي . كن مُتعقِّلاً واسحب تهديدك ضد نيويورك واعمل معي في سبيل إقامة سلم عادل ومتين في الشرق الأدنى .

وصاح رجل ليبيا :

ـ أكون مُتعقِّلا ؟ إن التعقُّل ، حسب رأيك ، هو القبول بأن يُطرد عرب فلسطين من أرضهم وأن يُجبَروا على العيش ، جيلاً بعد جيل ، في مخيمات اللاجئين . إن التعقُّل يعني ، بلا ريب ، ان يُشاهِدَ عربُ فلسطين ، مكتوفي الذراعين ، وطنهم يُضمُّ تدريجياً من قبل مستوطني صديقك بيغن ؟ إن التعقُّل لا بُدَّ ان يكون في السماح لكم ، انتم الأميركان وحلفاءكم الإسرائيليين ، بالاستمرار على حرمان أشقائي الفلسطينيين من حقهم الإلهي في أن يكون لهم وطنٌ ، في حين نظلّ نبيعكم البترول الذي يحرِّك سياراتكم ومصانعكم ويُدفـىء منازلكم ؟ بالنسبة لكم ، كل هذا هو التعقّل ! ولكن ، عندما أقول لكم ، أنـا واخوتي ، امنحونا العدل الذي حرمتمونا منه منذ أمد بعيد ، وإلاَّ سوف نضربكم . فإن ذلك لا يعود تعقّلاً !

وفيما كان القذافي يتكلّم ، أوصل جيجرمان رسالة للرئيس . « جرِّب خطَّة الهدف الأسمى » . وكان المقصود مناورة شرحها الطبيب النفساني الهولندي قبل قليل . وكانت ترمي الى إقناع القـذافي بأن ينضمَّ الى تحقيق هدف أكثر عظمة ، يتسامى فيه طموحُه عبر مشروع يتعدّى الحدود التي كان قد رسمها لنفسه . ولكن لسوء الحظ لم يتوصل واحد الى تحديد مثل هذا الهدف الذي يسمح بتطبيق تلك النظرية .

واستشفّ الرئيس حلاً ، من خلال إلهام مُباغت . ولم يكن لهذا الحل أية سابقة ، وكان ينطوي على صعوبات تبدو أوّلياً غير قابلة التذليل . ولكنه كان جسوراً ودراماتيكياً لدرجة ان الأمل كان كبيراً بأن يخاطب خيال القذافي .

وصاح ، دون أن يستطيع إخفاء هياجه :

ـ أيها العقيد القذافي ، لديَّ اقتراح أعرضه عليك . اذا حررتَ مواطنيَّ النيويوركيين من تهديدك فإني سأستقلّ الطائرة فوراً الى طرابلس ، بدون حرس ، وعلى متن : « الأير فورس وان » وسأتركك تأخذني رهينة ، أنا رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، بينما نعمل معاً ويداً بيد ، في سبيل إعطاء إخوتك الفلسطينيين السلام الحقيقي الدائم والمقبول من الجميع . وسنفعل ذلك معاً وسيكون مجدك أعظم من مجد صلاح الدين ، لأنك سوف تكون قد أحرزته بلا إراقة الدماء .

وقد أذهل هذا العرض غير المنتظر إطلاقاً أعضاء لجنة الأزمة . لقد كان غير معقول أن يصبح رئيس أقوى دولة في العالم رهينة لدى مُستبدّ نفطيٍّ عربيّ ومحجوزاً في وسط الصحراء كتاجر سوقيّ مُختطف منذ قرنين من القراصنة على شاطىء البرابرة . ومع ذلك فقد ارتسمت على وجه الرئيس المُرْهَق علامات الانتصار . لقد كان مقتنعاً بأن مبادرته ستوجد الصدمة الملائمة القادرة على حلّ المعضلة . وقد ظلّ مُكبّر الصوت صامتاً . وكان رجل ليبيا ، وقد اعتراه الذهول هو أيضاً ، قد قطع الخط ليتمكّن من إعداد جوابه . واغتنم أمين الخارجية المساعد المناسبة للتعبير عن عدم موافقته .

ـ إننا يا حضرة الرئيس امام اقتراح في منتهى الشجاعة.ولكنني اخشى أن يُثير مُشكلة دستورية جدِّية .

وصوَّب رئيس الدولة نظرته الزرقاء الغامضة على الديبلوماسي :

ـ سيد ميدلبرغر ، ان مشكلتنا الوحيدة الحقيقية هي المحافظة على حياة ستة ملايين نيويوركي . وليس الدستور هو الذي سيقول لنا كيف نتصرَّف . أليس كذلك ؟

وملأ صوت القذافي القاعة مجُدَّداً :

ـ حضرة الرئيس ، إن عرضك يُثير احترامي وإعجابي . ولكنه غير مُجْد . إن الرسالة التي وجَّهتها اليك واضحة كِفاية . وهي تحدِّد المطالب الوحيدة التي نتقدَّم بها . فلا مجال لمزيد من المناقشات هنا أو في مكان آخر . . .

وقاطع الرئيس رجل ليبيا قائلاً :

ـ أيها العقيد القذافي . إني أناشدك بكل قواي أن تقبل اقتراحي . لقد اتصلت حكومتي ، خلال الساعات الأخيرة ، بأهمّ رؤساء الدول في العالم ، بمن فيهم رؤساء بلادكم الشقيقة : الرئيس السادات والرئيس الأسد والملك حسين والملك خالد وحتى ياسر عرفات . وكلّهم ، بدون استثناء ، يشجبون عملك . أنت وحدك ، منفرد . وستظل وحيداً ما لم تقبل اقتراحي .

ـ يا حضرة الرئيس ، أنا لا أتكلم باسمهم ، بل باسم الشعب العربي . إن أشقاء هذا الشعب هم الذين انتُزِعَتْ أملاكهم ، وليس الرؤساء والملوك الذين يتبخترون في قصورهم . (وهنا اعترت صوت القذافي رعشةُ غضب ونفاد صبر) إن هذا النقاشَ كلّه ، يا حضرة الرئيس ، غيرُ مجد . لا بدُّ من إنجاز ما يجب إنجازه !

وأشار مأمور الوكالة المركزية للاستخبارات الذي كان يدير محلّل الأصوات الى ظهور بعض علامات العصبيّة .

ـ لقد كان أمامكم ثلاثون سنة لإنصاف شعبي ولكنكم لم تفعلوا شيئاً . والآن يبقى أمامكم أقل من اربع وعشرين ساعة !

واحمرَّ وجه الرئيس من الغضب :

ـ أيها العقيد القذافي ! (وكاد يصرخ ، مما سبَّب وجوم الأطباء النفسانيين) إننا نرفض ابتزازك . إن تهديدك الكريه لن يجبرنا على الرضوخ لمطالبك المجنونة .

وأعقب هذا الانفجار صمتٌ طويل كان يُنذِر بالشؤم . ثم عاد صوت القذافي ، هادئاً ومُتزناً كالسابق .

ـ حضرة الرئيس ، عليك ، أنت ، أن تكون مُتعقِّلاً فأنا لا أطلب المستحيل ، ولا أطالب بتدمير دولة إسرائيل ، بل أطلب ما هو عدل فقط ، وهو أن تُعاد إلى إخواني الفلسطينيين أراضيهم وأن يستعيدوا الوطن الذي خصَّصه الله لجميع الشعوب . إن الحق إلى جانبنا ، نحن العرب ، منذ اكثر من ثلاثين سنة . ولكن لا الحرب ولا العمل السياسي أتاحا لنا أن نُسمع صوتنا ، لأنَّ القوة كانت تنقصنا . أما اليوم فهي متوفِّرة لدينا ، يا حضرة الرئيس . وعليه ، فإما أن تُلزموا الإسرائيليين بمنحنا العدل الذي هو حقُّنا ، وإما ان نَدكَّ سقف « المعبد » ، كما فعل شمشون في ثوراتكم ، على رؤوسكم وعلى رؤوس جميع أولئك الذين يؤويهم .

***

فيما كان معمر القذافي يجُدِّد تهديده ، كانت إحدى الإرهابيين الذين كان يعتمد عليهم لتفجير قنبلته تستعدُّ لممارسة الحبّ في إحدى شقق نيويورك .

وتساءلت ليلى دجاني ، وقد صحا ضميرها فَجأةً :

ـ ماذا أصنع هنا ؟

وفُتِح بابُ الغرفة وظهر ميخائيل ، وقد عقد فوطة حمّام حول خصره وأمسك كأساً من الشمبانيا في كلتا يديه . وتمدَّد على السرير وظلاّ فترةً ، جنباً الى جنب ، مُعتصمين بالصمت .

ـ فلنذهب غداً الى « كيبيك » ، يا ميخائيل !
فانتصب ميخائيل وشاهد ، في نصف العتمة ، عينيْ ليلى المُتضرِّعتين . وقال برِقّة :

ـ لماذا الإلحاح يا حبيبتي ليندا ، أنت تعلمين أن ذلك مستحيل غداً .

ـ هل أستطيع ان أبوح لك بشيء ؟

وترك ميخائيل رأسه يتهاوى على الوسادة قائلاً :
ـ بالتأكيد ، يا عزيزتي ، وها اني أصغي إليك .

وقصَّت ليلى ما يلي :

ـ أعرف مُنجِّماً يقطن في بروكلين ، في مكان عجيب . فعندما تدخل اليه ، تحسب نفسك على

ضفاف النيل . وتتّشح زوجته بالسواد كأنها بدويّة . ولها وجه مغطّى بالوشم . وتقدم لك فنجاناً من القهوة العربية ذات المقادير المعتدلة . أما الزوج فإنه يقبع في غرفة صغيرة مُعتِمة حيث يقضي النهار في الصلاة . وإنني أؤكد لك ، أنك عندما تنظر إليه ، تعرف أنك في حضور رجل قدّيس . وله اكثر الوجوه التي تتصورها نقاءً وزهداً . إنه يُشِعُّ . ويأخذ فنجان القهوة ويشدُّه بين يديه . ثم يسألك عن اسمك واسم والدتك وتاريخ ولادتك . ويرتعد ويشرع في الصلاة . ولا يسمح لك بالتدخين ولا بتشبيك الساقين أو الذراعين . لأن ذلك من شأنه أن يقطع التّيار بينك وبينه . ويتوقّف عن الصلاة ، بين الفينة والفينة ، ويتحدّث اليك . ميخائيل ، هل تصدّقني اذا قلت لك بعض الأشياء ، التي تنبّأ لي بها هذا الرجل ؟

ـ موعداً سرياً في « كيبيك » ؟

وابتسمت .

ـ لقد ذهبت لرؤيته هذا الصباح . وفي نهاية اجتماعنا ، وفيما كنت أستعدّ للانصراف ، توتّر وجهه فَجأةً ، كما لو كان شيء ما قد ضربه ، وقال : « أرى شخصاً قريباً جداً منك . إنه رجل . شاب أشقر . وأوضح بالعربية : إنه مصوّراتي » * أنت تعلم من هو المصوراتي ؟

ودار الرأس الأشقر عدّة مرات على الوسادة .

ـ كافر ماجن ؟

ـ أرجوك يا عزيزي ، كن رصيناً . المصوراتي هو المصور .

أنّى له ان يعرف ذلك ؟

وتوقّفت ثم استأنفت :

ـ وأضاف : « إنه معرَّض هنا لخطر كبير . فينبغي أن يُغادر نيويورك قبل الغد » .

وأخذت يد ميخائيل وضمّتها الى يدها .

ـ ميخائيل ، أرجوك ، تعالَ الى مُلاقاتي غداً في « كيبيك »

وانتصب واستند الى مرفقه وأصبحا وجهاً لوجه . وتطلّع الى وجهها المُتضرِّع والى الدموع التي كانت تسيل على خدّيها . إلى أيّ حدّ يمكن أن تكون النساء مُتطيّرات . وجفّف دموعها ، برفق بطرف شفتيه :

ـ أنت لطيفة جداً . ولكن لا تكوني قَلِقَة يا عزيزتي . أنت تعلمين . . . إن تنبوءات ساحر عربيّ . . .

والتفتت ليلى وجاءت تستند إليه . وأذعنت لخيبة الأمل ، وتأملت طويلاً الوجه الحبيب الذي كانت قد أخذته بين يديها . وفكّرت : « سأكون قد حاولت بكل قواي » .

واكتفت بأن تمتمت :

ـ خسارة ، يا ميخائيل !

***

(*) مصوِّر ، باللهجة المصرية (المترجم) .

كان الرئيس شاحب اللون . فلقد هزَّته إشارة القذافي الى شمشمون ، وهو يُدمِّر المعبد ، بقدر ما هزَّته الكرة النارية التي كان قد شاهدها بتدفّق عند منتصف الليل على شاشات « البنتاغـون » . وأمـر بصوت منخفض :

ـ جاك ، أوعز الى ٧٤٧ كاتستروف بأن تفتعل عُطلاً في الاتصال خلال بضع دقائق ، لأنني بحاجة إلى التفكير .

وتأمّل الرئيس الوجوه الشاحبة حوله .

ـ ما رأيكم ، أيّها السادة ؟

وعند طرف الطاولة ، أدخل الأميرال فولّر رئيس لجنة رؤسـاء الأركان ، رأسـه في ياقـة قميصـه كسلحفاة بحر عجوز في قوقعتها .

ـ أخشى ، يا حضرة الرئيس ، ألاّ يترك لنا الخيار إلا نعمن عسكريّ .

ـ أنا لست من هذا الرأي !

وكان « ميدلبرغر » أمين الخارجية المساعد قد تدخَّل قبل ان ينهي الأميرال كلامه .

ـ بدلاً من السعي الى إسماع صوت العقل إلى هذا المُتهوِّس ، ينبغي ان نستخدم ما بقي أمامنا من المهلة لننتزع من الإسرائيليين بعض التنازلات القادرة على إرضائه وبالتالي إنقـاذ نيويورك .

ولاحظ ، بسخرية ـ مدير الوكالة المركزية للاستخبارات :

ـ هي ذي مُبادرة سيكون لها الفضل على الأقل ، في أنها لن تتطلب إلاّ وقتـاً قليلاً ، هو الوقـت اللازم ، ثانية فقط ، ليقول بيغن : كلا . ومنذ خمس سنوات ، ما فتئنا نزعق ، ضمن الوكالة المركزية للاستخبارات ، بأن تلك المستوطنات « المتوحشة » تُشكِّل تهديداً للسلام وأنها ستزجّنا يوماً ما في مأزق صعب . ولكن لسوء الحظ لم يتنازل واحد ويأخذ تحذيراتنا بعين الاعتبار .

وأخذت الرئيس رغبة مُفاجئة بضرب هؤلاء الرجال . فما من ازمة ، إذن ، مهما كانت حِـدَّتُهـا قادرة على « كنس » البلاغة المُـقَوْلبة التي يتَّسم بها الجهاز الحكومي الأميركي في أعلى درجاته . فالبنتاغون يناشدنا بأن نُـدمِّر هذا المتعصِّب ، ونظارة الخارجية تنصحنا بالانسحـاب من المعـركة والوكالـة المركزية للاستخبارات لا تفكِّر الا بالتهرّب كما لم تفتأ تصنع منذ هزيمتها في إيران .

وسأل مرهقاً :

ـ جاك ؟

وأجاب إيسمان :

ـ حضرة الرئيس ، لا يسعني إلاّ أن أكرِّر ما قلته منذ قليل . ويبقى شعاري : فلنكسب الوقت ما آستطعنا . إنَّ « ميدلبرغر » على حقّ : لا بُدَّ بأي ثمن ان نحصلَ من الإسرائيليين على تنـازل ما وان نستخدمه لإلزام القذافي على سحب تهديده ، او على الأقل تمديد أجل انتهاء إنذاره بضع ساعات حتى تتوفّر لدينا فرصة أفضل للعثور على القنبلة .

ـ وأنتم أيها السادة الأطباء النفسانيون ! ما هي المعارف التي تُزوِّدوننا بها ؟

ألقى « تمركان » نظرةً ذاهلة على الملاحظات التافهة التـي كان قد دوَّنهـا عندمـا كان يستمـع إلى القذافي . وصرَّح قائلاً :

- من الواضح أننا نواجه شخصيةً تشكو من مرض العظمة ، شخصاً مصاباً بجنون هذائي خفيف لم يصل إلى حد العلّة . وهذا النوع من الأشخاص يجد ، بصورة عامة ، صعوبةً في السيطرة على المواقف المعقّدة . فينبغي تجنّب تزويده بالوسيلة ليبلور أعماله . ومن الأرجح أنه ينتظر أن تتخذ أزاءه أحد موقفين :

إمّا ان تستسلم وإمّا ان تُهدِّد بتدميره . وبعبارة أخرى ، ينتظر أن تتخذ قراره بالنيابة عنه . أمّا اذا ما واجهناه ، على العكس ، بمجموعة من المسائل الملحقة فقد يقع في الحيرة .

ووافق « جيجرمان » قائلاً :

- اجل ! اجل ! إنني متّفق تماماً مع زميلي . وإذا ما سمحت يا حضرة الرئيس ، فإنني أودّ أن أوحي بأن لا فائدة تُرتجى ، حسب رأيي ، من حمله على الإدلاء بمزيد من الأسباب لتبرير عمله . فهو مقتنع تماماً بأنه على حق ، وإنكم تجازفون بجعله اكثر تصلباً اذا ما ألححتم على هذه النقطة . وأعتقد أنه ينبغي أن تتصدّوا بالمقابل ، الى الجانب الكيفي للمسألة وان تحوِّلوا مجرى انتباهه بقصفه بسيل من الأسئلة ذات طابع فني وغير ذات بال بشأن الطريقة العملية لتنفيذ مطالبه . إنكم تذكرون نظرية « الفروج او الهمبرغر » التي شرحتها لكم قبل قليل ؟

وأومأ الرئيس بالايجاب . وكان عنوان النظرية المذكورة يمكن ان يبدو مضحكاً في الموقف الراهن . وكان المقصود ، في الواقع ، أسلوباً أعدَّه الطبيب النفساني الهولندي لحلّ قضايا احتجاز الرهائن . وهي مذكورة اليوم في جميع كتب الشرطة في العالم .

وكان « جيجرمان » يوصي بتحويل ذهن الإرهابيين وإلزامهم بأن يجيبوا على سيل غير منقطع من الأسئلة والمشاكل التي لا علاقة لها بأساس النقاش الجاري . وكان المثل الذي يضرب به بشكل لا يتغيّر يتعلّق بكيفية الإجابة على إرهابي يطلب طعاماً . « ماذا يريد ؟ فروجاً أم همبرغر ؟ الجناح أم الفخذ ؟ ناضجاً أم نازفاً ؟ مع الخردل أم الكاتشاب ؟ مع الخبز ام بدونه ؟ عادي أم مشوي ؟ مع اية توابل ؟ هل يريد خياراً مخللاً ؟ هل يريد بصلاً ؟ عادياً أم مقلياً[8] ؟ . وتحويل الإرهابي عن وساوسه بهذه الهجمة من الأسئلة من شأنه غالباً تهدئته وإعادة اتصاله بالواقع وجعله في نهاية المطاف اكثر ليونةً .

ونصح « جيجرمان » قائلاً :

- إذا ما نجحت في تطبيق هذا الأسلوب على الوضع الراهن فقد تتوصّل إلى إقناعه بمتابعة النقاش مع السيد إيسمان ، بينما تتولى ، أنت ، التحدُث إلى الإسرائيليين .

واستسلم الرئيس الى القَدَر وأجاب :

- يمكننا دائماً ان نحاول . جاك ، أعد الاتصال مع طرابلس .

وفكّر في أمسية الصيف البعيدة تلك ، حيث كان وحيداً ، منذ ثلاثين سنة ، على متن قاربه الشراعي وحيث تاه في الضباب والعتمة في عرض شواطىء « المان » . وطوال الليل ، كان أسير تلك

---

(٨) كان الطبيب الهولندي قد اضاف الى اسلوبه كثيراً من التفنن . كان يتأكد مثلاً من ان الطعام يُرسل دوماً في صحون حقيقية تتبعها ملعقة وشوكة وسكين واقداح . وكان يؤكدان هذه الحيطةُ تُدخِل برقة عنصر ادب في علاقات الشرطة بالإرهابيين . وفضلاً عن ذلك فقد كان يطلب من الإرهابيين ، اذا امكن ، غسل الصحون قبل اعادتها ، لأن ذلك يعودهم ، تدريجياً ، على تنفيذ الأوامر .

الشرنَقة القاتلة ، عاجزاً ، تتقاذفه الأمواج ، يرقب يائساً رنين العوَّامة التي سوف تدلُّه على اتجاه المرفأ ، ومجابهاً ، لأول مرة ، إمكانية الموت .

وكان قد جُنَّ وفقد الأمل وشرع في الصلاة . وكان قد سمع أخيراً جرس العوَّامة . والآن ، كان يصلّي قائلاً : أيّها السيد ، متى أسمع العوّامة في خِضمّ هذه الظلمات التي تحيط بي ؟

واستهلَّ قائلاً :

ـ أيّها العقيد القذافي ! أنت تعلم أنه يوجد حالياً ثلاثون نقطة تجمّع إسرائيلية في الأراضي العربية المحتلّة . وهذا يجعل عدد السكان حوالي مئة الف نسمة . بما فيه القدس الشرقية . وإن تموين هؤلاء السكان ونقلهم وإيواءهم والمشاكل التي يثيرها إخلاؤهم ضمن المهلة القصيرة جداً التي حدّدتها ، كل ذلك يجعل تلك الصعوبات ، عملياً ، غير قابلة التذليل .

ـ يا حضرة الرئيس (ولم يتغيرَّ صوت رجل ليبيا ، بل ظلَّ مُتّزناً ووِدّياً) إن هؤلاء الناس قد أقاموا مستوطناتهم الشرعية خلال بضع ساعات . وانت تعلم ذلك جيداً . لقد اغتنموا سانحة الليل ليركِّزوا انفسهم ويعلنوا ، عند الفجر ، أمرهم الواقع على العالم . فإذا استطاعوا التمركُز خلال ليلة واحدة ، فإن بوسعهم الرحيل خلال أربع وعشرين ساعة .

وتصلّب الرئيس وتابع :

ـ ولكن ، أيها العقيد القذافي ، إن تلك العائلات لها اليومَ منازلها ومزارعها ومحترفاتها ومزروعاتها ومدارسها وكنائسها . ولا تستطيع ان تتوقّع رحيلهم تاركين كل شيء .

ـ هذا بالضبط ما أتوقعه . فأموالهم ستوضع تحت حماية الشعب العربي .. وما ان تضع الدولة العربية الفلسطينية يدها على تلك الأماكن ، حتى يسمح لليهود بالرجوع واستعادة ما يخصّهم .

ـ كيف نستطيع التأكد انه لن تحصل بلبلة أو اضطرابات أثناء انسحاب الإسرائيليين ؟

ـ ان الشعب ، الذي ستغمره فرحة استعادة وطنه ، سوف يسهر على توطيد الأمن .

ـ أخشى ألاّ يكون ذلك كافياً . ألا يُستحسن أن نطلب من الملك حسين ان يُزوِّدنا بالجيوش ؟

ـ كلا ، مطلقاً ! ولماذا ينبغي ان يجنيَ خادم الإمبريالية ذاك ، مجدّ ذلك الانتصار ؟

ـ ومنظمة التحرير الفلسطينية ؟

ـ سوف نرى .

والحَّ الرئيس قائلاً :

ـ مهما يكن الأمر ، فإنه ينبغي إعداد تلك الترتيبات بعناية فائقة ، وتعيين الوحدات التي ستُختار ومعرفة من سيتولى قيادتها ومن أين ستأتي وكيف ستُعرِّف عن نفسها وكيف ننسق تحركاتها مع تحركات الإسرائيليين . إن كل ذلك سوف يتطلب إعْداداً ونقاشاً دقيقين .

وبعد صمت طويل ، أجاب القذافي :

ـ إني مستعدّ لكل ذلك .

ـ والقنبلة في نيويورك ؟ أعتقد أنك ، بعد أن نكون قد اتخذنا جميع الترتيبات اللازمة ، سوف

تحيطنا علماً بموقعها وسوف تُعطي الى مُمثِّليك المحليين الأمر بتعطيلها على الفور ؟ هل نحن متّفقون على ذلك ؟

ومرّة أخرى ، ران صمت طويل .

ـ إن القنبلة مُعيرَّة لتنفجر آليا في نهاية إنذاري . والإشارة الوحيدة التي يمكن أن يستلمها المُستقْبِل اللاسلكي هي إشارة سلبية تؤدي إلى إبطال التفجير . وهذه الإشارة معروفة مني وحدي .

وأطلق إيسمان صفير إعجاب مُتخفِّظ .

ـ يا له من ماكر ! هذه هي الضمانة بأننا لن نستطيع أن نوجِّه إليه الصواريخ في اللحظة الأخيرة . فلأجل إنقاذ نيويورك ، يجب أن نبقيه حيّاً .

وجازف مدير الوكالة المركزية للاستخبارات قائلاً :

ـ إلا اذا كان حاذقاً جداً وعمد الى المُخاتلة ؟ كما أنه قد يكذب ، إذ يدعي ان صواريخه مُصوَّبة على اسرائيل . . .

والتفت فجأةً نحو رئيس الدولة :

ـ حضرة الرئيس ! ان موقفنا قد يتغيرَّ بكامله اذا عرفنا أنه يكذب ام لا . لقد أحكم مختبرنا ضبطَ كاشف للكذب يُمكن ان يُوفِّر لنا عوناً لا تقدر قيمتُه . ويكفي أن يقبل القذافي بمتابعة الحوار أمام شاشة تلفزيون .

ـ ما هو المقصود ؟

ـ المقصود آلة تستخدم أشعة « لايزر » وتسمح بتحليل مُفرط الحساسية لحركات المقلتين عند الشخص الذي يتكلم . وهذه الآلة تكشف على الأخص بعض تغييرات مميَّزة في تلك الحركات عندما يكذب الشخص .

ووجَّه الرئيس ابتسامة إعجاب الى مدير الوكالة المركزية للاستخبارات .

وركَّز تفكيره بضعَ ثوانٍ وأعاد الاتصال مع طرابلس .

ـ ايها العقيد القذافي ! في المناقشات المُعقَّدة جداً التي سوف تحصل بيننا لتنظيم الوضع في الضفَّة الغربية ، سوف يكون من الخير أن نتمكن من إعداد ترتيباتنا بالاستناد الى خرائط وصور جوّية ، الأمر الذي سوف يُقلِّل من فُرص الخطأ . ولذلك يبدو لي أن آتصالاً مرئياً بيننا لا غنى عنه ، في الوقت نفسه الذي يتم فيه الاتصال الصوتي . فهل توافق على إقامة مثل هذا الاتصال بيننا ؟ وفي حال الإيجاب ، نستطيع ان نرسل لك حالاً طائرة تنقل المعدات اللازمة .

وصمتت طرابلس مرةً أخرى فترة طويلة . وكان مدير الوكالة المركزية للاستخبارات يُنظِّف ، شارداً ، مَدْخَن لفافته الـ « دانهيل » ، فيما كان في قرارة نفسه يُصليِّ ليأتي جواب القذافي إيجابياً . وكم كانت دهشته عندما قبل رجل ليبيا الاقتراح ، الذي تلقّاه بارتياح على ما يبدو . وأبتهج مدير الوكالة المركزية للاستخبارات بعدما آكتشف ظلَّ غطرسة في قبول القذافي وقال في قرارة نفسه : يا له من أبله مسكين ، فأدوات التكنولوجيا الحديثة تفتنه لدرجة أنه مستعّد ليقع في اي شَرْك !

وفيما كان في ٧٤٧ كاتستروف يركِّز المدارات التي كانت ستنقل الصور من طرابلس وواشنطن عبر القمر الاصطناعي « كوستا » ، كان مهندسان تابعـان للوكالـة المركزية للاستخبـارات يضعـان أداتـهما الفاحصة الأوتوماتيكية أمام شاشة قاعة الاجتماعات لمجلس الأمن القومي . وكان الجميع يُتابعون باهتمام مُتحمِّس تركيب الآلة الأخيرة من الترسانة التي آخترعتها وكالة الاستخبارات المركزية في سبيل آقتحـام حواجز اللاوعي الأكثر بعداً وإلزام الرجال بفضح أنفسهم على الرغم من إرادتهم . وكانت تلك الأداة تشبه من بعيد آلة تصوير بالأشعة نقّالة . وكان أنبوبان بحجم زوج منظـارين ، مُركَّزين على القسـم الأعلى ، تنبعث منهما بقعتان ضوئيتـان كانتا تتراقصـان منـذ الآن على شاشـة التلفـزيون التـي كان من المفروض أن يظهر عليها وجه الديكتاتور الليبي . كان شعاعا ليزر سيوجهان الى حدقتيه ، لأجل تسجيل أدق تغييراتهما ونقل المعلومات الى ناظمة آلية صغيرة مُركّزة في قلب الأداة الأوتوماتيكية الفاحصة . وسوف تُقارَن النتائج فوراً بالمعطيات المخزونة في ذاكرة الناظمة الآلية وتُنقَل الى الشاشة الصغيرة المثبتة على قُمَّة الآلة .

وخلال بضع ثوان ، كانت الصورة القادمة من طرابلس تُشبه جماعةً من الاميبات تتجمهر تحت عدسة المجهر . ثم ظهر فجأةً وجه الزعيم الليبيّ . والغريب ، أن هذا الظهور كاد أن يكون مطمئناً . وكان القذافي يبدو شابّاً ورصينا ومتحفّظاً حتى كان يصعب التصوُّر بأنه يمكن ان يواجه قتل ستة ملايين نيويوركي . وكان ، في قميصه الرياضي الكاكي بدون أي تزيين ما عدا كتفيّتي العقيد ، يوحي بأنه معلّم للفنون العسكرية أكثر من صاحب رؤى يتصوّر نفسه سيف الله المنتقم .

ولم يكتشف إيسمان على وجهه أيّ ظلّ لتأثّر او توتّر.وكان يمكن آكتشاف ظلّ سخرية عند زاوية شفتيه . وشعرت ليزا ديزون ، من مقعدها داخل القاعة ، باضطراب خفيف عندما نظرت ثانيةً الى ذاك الرجل الذي كان قد شرفها سابقاً باهتمامه .

وآنزلقت النقطتان المُضيئتان الصادرتان عن الأداة الأوتوماتيكيَّة الفاحصـة ، على جبـين القـذافي وتمركزت فوق كل واحدة من حدقتيه كعدستين لاصقتين .

وأعلن أحد الفنّيين :

ـ لقد بدأ التسجيل .

وزمجر مدير الوكالة المركزية للاستخبارات قبل أن يسحب نَفَساً طويلاً من غليونه قائلاً :

ـ إننا نمسك بك ، هذه المرَّة !

وأمام الرئيس ، آشتعل مصباح أحمر على شاشة التلفزيون التي كانت تنقل صورتـه الى طرابلس وهمس إيسمان :

ـ كل شيء في مكانه .

وظهر رئيسا الدولة ، عندئذ ، جنباً الى جنب على شاشات قاعات الاجتماعات . وكان الـرئيس الاميركي يبذل جُهداً ليبتسم ، اما الرئيس الليبي فكان بعيد الغور كتمثال نصفيّ لشيخ روماني قائم على عامود « لبيتس مانيا » .

وآستهلّ الرئيس قائلاً :

ـ أيّها العقيد القذافي ، أعتقد أننا سنجد كلانا هذا الاتصال المرئيّ مفيداً جداً للتغلُّب على المسائل الدقيقة التي يتوجب علينا تسويتها . ولقد ذكرت لنا ، منذ قليل ، وفي أثناء آتصالنا الأخير ، أن تفجير السلاح الذي وضعته في نيويورك يتحكّم به جهاز آلي،وأن إشارة لاسلكية ، وحدها ، تُرسل من قبلك ، كان بوسعها ان تُبطل انطلاق التفجير . فهل هذا صحيح ؟

وحول الرئيس ، كانت جميع الأنظار تتركّز على صورة رجل ليبيا والنقطتين المتلألئتين المركّزتين على حدقتيه . وقبل أن يجيب ، مدَّ القذافي يده اليمنى إلى جيب قميصه وفكّ أزراره ببطء محسوب وأخرج منه نظارتين سوداوين ووضعهما بتباهٍ أمام عينيه .

وصاح الجميع دهشين : اوه ! وشتم أحد فنّيي الوكالة المركزية للاستخبارات :

ـ ابن القحبة !

واستحال ، عندئذ ، ظلّ السخرية الذي كان يُلامس شفتي العقيد القذافي ، الى ابتسامة عريضة ، وقال :

ـ نعم ، يا حضرة الرئيس ، هذا صحيح تماماً .

***

كان مركز القيادة الليبيَّة في دارة « بياتري » ، حيث كان معمر القذافي يخاطب رئيس الولايات المتحدة ، يدلُّ على حرمان إسبرطي ، اذا ما قورن بقاعة مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض . فليس فيها خرائط للكرة ولا ساعات دقّاقة باللّمس ولا أجهزة هاتف وامضة . وكان القذافي يجلس على كرسي من الخشب الابيض مقابل شاشة التلفزيون التي كانت ترسل صورته الى واشنطن .

وكان يجلس الى جانبه آخر من عيَّنهم ، وكان شخصاً أشقر طويل القامة ، ذا شعرٍ مسترسلٍ وقذر كان يمنحه هيئة وجوديّ من الستينات . إنه الدكتور الالماني « اوتو فالك » الذي كان يُدرِّس علم النفس التطبيقي في جامعة برلين الغربية الحرَّة . وكان قد كشف عنه ، في الأوساط اليسارية للعاصمة الألمانية السابقة ، الإرهابيّ الشهير كارلوس الفنزويلي . وكان يقوم لدى سيد طرابلس بالدور نفسه الذي كان يقوم به أطبّاء واشنطن النفسانيّون لدى الرئيس الاميركي . وكان « فولك » قد نظّم لمُستخدِمه جدولاً دقيقاً ـ وصحيحاً ـ بردود فعل البيت الابيض وبالاشراك التي سيحاول نظراؤه نصبها له . وعلى الرغم من أن رجل ليبيا لم يتقيَّد بنصيحة رقم / ١/ ـ القائلة برفض أيّ حوار قطعاً ـ فإن مساعدته قد برهنت عن نجوع تام ، كما ثبت مؤخراً لواشنطن بشكل مرير .

وحدَّق رئيس الدولة الليبية بالشاشة خلف نظّارتيه السوداوين ، وقال:

ـ حضرة الرئيس ـ المسألة لا تتناول معرفة كيفية انفجار تلك القنبلة ، ولكن معرفة إذا كانت ستنفجر . والحالة هذه ، ماذا فعلتم حتى الآن في مجال الاستجابة لمطالبي ؟ ما هي التنازلات التي آنتزعتموها من اصدقائكم الإسرائيليين ؟

ـ كنْ متأكداً ، أيها العقيد ، أنني على آتصال مستمرّ مع القدس .

وكانت صورة الرئيس تصل الى مركز القيادة الليبية بواسطة التلفزيون ذي الشاشة الكبيرة من طراز « راديولا » الفرنسي . وكان القذافي يميِّز ، عبر نظارتيه الشمسيتين ، نقطتين مُضيئتين صغيرتين على

حدقتيْ مُخاطبه . وستكون الوكالة المركزية للاستخبارات في غاية الدهشة ، اذا ما علمت أن رئيس الدولة الليبية كان يمتلك ، هو ايضاً ، أداته الآلية الفاحصة للضمائر . وكان الدكتور « فولك » قد اكتشف وجودها ، على أثر آستخدامها من قبل الشرطة الألمانية الغربية في مجال آستجواب القتلة المُفترضين لرجل المال « ديتريخ والدنر » . وكان شراء نسخة عنها من صانعها شركة « ستندارتن اوبتيكادو ستوتغارت» بواسطة مختبر مُساير ، لا يتعدّى أن يكون لعبة أطفال . وكان يكفي أن يُدفع ثمنها : اي ما يُعادل مئتين وأربعين مليون سنتيم من عملتنا .

وتابع الرئيس :

ـ بوسعي أن أبلغك ، أيّها العقيد القذافي ، أن رد فعل السيد بيغن الأول على مطالبك ، كان مؤاتياً لى أعلى درجة . لذلك فإنه من الأهمية بمكان أن توافق على التحدّث مع مستشاري جاك إيسهان ليتسنّى لي متابعة مفاوضاتي مع إسرائيل .

وآنتفض أحد الفنّيِيْن العربيّين اللذين كانا يُديران الأداة الآلية الفاحصة . وكان الخطّ الأخضر الذي يجري عبر مِكشاف الذبذبة قد تكسّر الى سلسلة من أسنان المنشار ، كلما كانت الناظمة الآلية تسجّل كلمات الرئيس . وضغط الفنّي على زرٍ أحمر أوصله بالقذافي .

ـ يا سيّدي ! انه يكذب !

ولم يَدَع رجل ليبيا أيّ عضل في وجهه يرتجف . وقد نزع نظّارتيه السوداوين واقترب من الشاشة :

ـ حضرة الرئيس ، كنت أظن أنك رجل شريف وصادق . لقد أخطأتُ . فقد كذبتَ عليَّ . وأصبح أيّ حديث ، من الآن فصاعداً ، عديم الجدوى .

وسُمع صوتُ الفصّال . كانت الصورة والصوت الصادران عن طرابلس قد قُطِعا .

***

كان فنّي مفارز التحريّات النووية ، الذي كان أوّل من وصل الى زاوية الشارع الثاني والاربعين والجادّة الخامسة ، يتطلّع ، من شاحنته الصغيرة الحمراء « اڤ » ، الى السلّم الضخم لمكتبة نيويورك لبلدية . وكان مكشاف الذبذبة في جهازه يُسجّل بثّاً مستمراً بأربعة وثلاثين مليارا . ولشدّ ما كانت دهشته عندما لم يُشاهد أيّة شاحنة أو اية سيّارة متوقفة أمام البناية . وبين لاقطيْ سيارته والأسدين الهائلين من لصوان اللذين كانا يلتصقان بالسلّم ، كان لا يوجد إلا جمهور الظّهر المؤلف من طلاّب مُتنزّهين يأكلون « الهوت دوغ » على الدرجات ، ومن بائعات ومستخدمي المباني المجاورة وهم يتسكّعون تحت شمس متردّدة وبعض سكان الحيّ الذين كانوا يُنزّهون كلابهم .

وكان الفنّي يحكّ رأسه ، وقد تملّكته الحيرة ، وكان يتساءل :

ـ رحمتك يا إلهي ! من أين يمكن ان تأتي تلك الإشعاعات ؟

وظهر عندئذ ، « بيل بوث » في شاحنة صغيرة أخرى . وتفحّص رئيس مفارز « ناست » شاشة مِكشاف الذبذبة ثم نظر الى الساحة . وكان يبدو محيَّراً بقدر زميله الفنّي . وأكّدت الطّوافة ، تكراراً ، وجود مصدر إشعاعات في ذلك المكان . وكان القطاع كلّه قد امتلأ الآن بسيارات الشرطة ومكتب التحقيقات الاتحادي المُبذّلة . ووصلت ايضاً شاحنتان صغيرتان إضافيتان تابعتان للنست ، على سبيل

النجدة . واكّدت كل منهما على الفور الملاحظات الأولى .

وأشعل « بوث » لفافةً وتفحَّص المنطقة بدقَّة . هل يمكن دسُّ سلاح يزن طناً ونصفاً في ذلك المبنى قبل وصول الشاحنة الصغيرة الأولى ؟

وقال في نفسه : لا ، إن ذلك كان مُستحيلاً ، لأن الطوَّافات لم يكن بوسعها مطلقاً أن تلتقط الإشعاعات عبر كتلة مماثلة . وهذا التثُّبت غاظه بقسوة . لا شك أننا آقتفينا أثر شخص كان لتوّه قد أخذ صورة بالأشعة لمعدته ثم نزل عند موقف الحافلة .

ومع ذلك ، فقد أمر أربعة من فنّييه بمرافقته لكشف الأمكنة المُحيطة بالمكتبة بواسطة المكاشف النقّالة . وشقّوا طريقهم عبر جماعة من الفتيان كانوا يتنقّلون على ألواح ذات عجلات صغيرة وقد ركّزوا السماعات على آذانهم حتى لا يفوتهم أيّ لحن من مجموعة الأسطوانات التي كانت تُوقّع بهلوانيّاتهم . وتجاوزوا زنجيين طويلين ذوي شعر أفريقي وبائعاً دواراً كان يعرض بعض أدوات المطبخ وبائع سودا جوّالاً . وكانوا يتقدّمون بشكل قوس حتى يُمشّطوا الساحة بكاملها . وفجأة ، أعلن أحدهم :

ـ إن هذا يأتي من الأعلى .

وأشار الفنّي الذي كان يتبع « بوث » الى « برودانس » أحد الأسدين الحجريين اللذين يُلاصقان السلَّم . وكان عشرة أشخاص يجلسون على الدرجات ، عند قدمي الحيوان .

وفيما كانوا يقتربون ، آنتقل بثُّ الإشعاعات فجأة . وكانت إمرأة عجوز ، محنَّية الظهر ، تحمل معطفاً أسود مُرقّعاً ، قد نهضت لتوِّها ، وكانت تبتعد بخطى وئيدة .

وأومأ « بوث » الى رجاله بأن يبتعدوا . وتقدَّم من المرأة العجوز ، يسبقه شرطيّ واحد . وكانت بقعتان من الأحمر تلوّنان خَدّيْها الناحلين ، مما يُشكِّل تطرية * غير موفقة لبعض جمال غابر . وما ان شاهدت العملاق المنتصب أمامها ، وشارة الشرطة في يده ، حتى تقلَّصت أصابعها على قبضة حقيبتها من البلاستيك . وتمتمت ، وهي ترتجف مذعورة :

ـ أطلب عفوك يا حضرة الضابط . فلم أكن أعلم بأن ذلك كان ممنوعاً . إنني بلا مورد (ورفعت يدها العقداء نحو جبينها لتغطيّ خصلةً بخمارها ، وكانت نظرتها مُفعمة بالبؤس) إن الزمن قاس . . . وما كنت أعلم أنني أرتكب عملاً عاطلاً بالتقاطي اياها ونقلها الى المنزل . وما كنت أدري بأنها ملك الدولة . أقسم لك إنني ما كنت أعلم .

أبعد « بوث » الشرطي وانحنى بلطف فوق المرأة المسكينة :

ـ عذراً يا سيدتي ، ما هو الشيء الذي آلتقطته ؟

وفتحت حقيبتها بخجل . وميّز « بوث » فيها شيئاً رمادياً . ومدَّ يدهِ وأخرج منها جسد حمامةٍ ميتة كان لا يزال ساخناً . وكان خاتم يحتوي على برشامة مربوطاً باحدى قدميها .

وصرخ :

ـ أيّها الرب يسوع ! متى آلتقطت هذه الحمامة ؟

(*) مكياج .

ـ منذ خمس دقائق وقبيل وصولكم بالضبط .

وأنار ذهن « بيل بوث » إلهام . لقد وجد كل شيء تفسيرَه : فالإشعاعات التي كانت تظهر وتختفي وتتنقلّ من الشوارع الى السقوف ، كانت عبارة عن حمام يحمل حبوباً مُشِعَّة . وسلَّم الطائر الى أحد فنييه قائلاً :

ـ أدخل هذا في صندوق من الرصاص . يا إلهي ! إننا نواجه جماعة من الأبالسة ! .

***

للمرَّة الثالثة خلال اربع ساعات ، كان أركان الحرب المكلّف بالتحريات عن القنبلة ، مجتمعاً حول رئيسه في مركز القيادة التحأرضي في « فولاي سكوير » .

وسأل « كانتين دوينغ » مدير مكتب التحقيقات الاتحادي النيويوركي :

ـ هارڤي ، هل تمكنت من إلقاء القبض على ذلك الشخص من بوسطن الذي أقام عند القذافي ؟

وهزَّ « هودسون » رأسه .

ـ لا . لدينا خمسون مأموراً يتولّون العملية . ولكن ثمَّة شيئاً أكيداً : إن عمال الأرصفة الذين حملوا براميل المشطورات على رصيف بروكلين ، لم يتعرّفوا على صورته .

وأرعد « دوينغ » قائلاً :

ـ يجب توسيع دائرة التحرِّيات . يجب غربلة جميع الحانات والمطاعم العربية من بوسطن الى فيلدلفيا . فلديَّ القناعة بأن ذلك الشخص هو الأثر المفضَل الذي يمكن ان نقتفيه .

وسُمع سعالُ خفيف عند الطرف الآخر من طاولة الاجتماع . ووجه « دوينغ » كلامه الى « فلدمان » :

ـ هل تريد ان تقول شيئاً ، أيها الرئيس ؟

حكَ رئيس المفتشين أنفه :

ـ إذا كان هؤلاء الأشخاص خبثاء بالقدر الذي تؤكّده ، فإن مطعماً عربياً هو آخر محلّ يلتقون فيه . إنهم يفضلون مكاناً لبيع فطائر البتزة او حانة تقدِّم الهمبرغر .

ـ ينبغي أن لا نُهمِل شيئاً ، أيها الرئيس . وبالمناسبة هل وجد خبراؤك شيئاً يثير الاهتمام في مستودع « كوينز » حيث أودعت البراميل ؟

وكان « دوينغ » قد أمر فنيي مُختبر الشرطة البلدية بتفحُّص مستودع « كوينز » ، أما فيما يتعلّق بالشاحنة الصغيرة التي كانت قد استؤجرت مع الأوراق المسروقة ، فإن أمرها كان قد أوكل الى مفرزة مُتخصِّصة من المختبر القومي لعلم الجرائم كانت قد وصلت من واشنطن بالطائرة .

وأخرج « فلدمان » دفتره ووضعه على الطاولة .

ـ إن مستودع « كوينز » يخصّ سمسار أوراق مالية من « لونغ ايلند » ، مُتقاعداً . وقد ورثه عن

شقيقته ، وآستأجرته منه إحدى النساء إعتباراً من آب الماضي . وبما أنها سلّمته إيجار سنة نقداً ، فإنه لم يحاول أن يطرح عليها كثيراً من الأسئلة . ولقد قدَّمنا له الصورة النموذجية لتلك المرأة الشّابة العربية التي غادرت « هامشير هوس » هذا الصباح ، تلك الصورة التي أعدّت بناء على بيانات البوّاب والوصيفة . وقد أفاد بأن المقصود هو فعلاً تلك المرأة .

وأبدى « دوينغ » آرتياحه ، فأمر « هودسـون » قائلاً :

ـ يجب توزيع تلك الصورة النموذجية على جميع رجالك الذين يقومون بالتحقيق في بروكلين . أما فيما يتعلّق بالمستودع نفسه ، فماذا حصدت من أشياء تثير الإهتمام ؟

ـ حسب أقوال الجيران ، إن الأشخاص الذين استأجروه لم يحضروا إليه كثيراً . غير أننا وجدنا شخصاً يؤكد أنه شاهد كميوناً من طراز « هرتز » يدخل اليه الأسبوع الماضي .

وسأل رئيس مفارز « نست » .

ـ ما هو نوع المجارير المستخدمة في ذلك الحي ؟

وكتم « فلدمان » رغبةً في الضحك : فأية علاقة للمجارير بالقضية المبحوث فيها ؟

ـ إنها ، طبعاً ، مُتفرعة عن مجارير المدينة .

وأعلن « بيل بوث » :

ـ أودّ أن أكلِّف مفرزة بسبر غَـوْرها . فالواقع أن بوْل وبراز الأشخاص الذين هم على تماسٍّ مادي مع سلاح نووي ، يخُفيان في أغلب الأحيان آثار إشعاع . إنها آثار ضئيلة ، ولكن مهما كانت ضآلتها فإنها ستقدّم لنا ، في حال وجودها ، تأكيداً إضافياً على أن المقصود هو فعلاً البرميل الذي نبحث عنه .

ـ والشاحنة الصغيرة ، يا « هارڤي » ؟

ـ لقد تصدّى لها رجالُنا ، لتوّهم . وكل ما نعلمه الآن ، أن عدّادها سجَّل/ ٤١٠/ كيلومترات ، عندما أعيدت في المساء نفسه . وهـذا يعنـي أن القنبلـة يمـكن ان تتواجـد في اي مكان ضمـن شُعـاع قدره/ ٢٠٥/ كيلومترات . ولكن ذلك لا يعني شيئاً ، لأن من الأمور الكلاسِّيكيَّة لدى الأشرار أن يُدوِّموا لتضليل الشرطة .

وقال « دوينغْ » حزيناً :

ـ ذاك ما لن يدفعنا أبـداً الى الأمـام . (والتفـت نحـو « فلدمـان ») والتحقيق بشـأن الأوراق المسروقة ؟

ـ لقد عثرنا على النشّال ونهتمّ الآن بمعرفة خافي الأشياء المسروقة الذي تمَّت العملية لحسابه .

ولـم يتمكن « دوينغ » من إخفاء نفاد صبره :

ـ أليس ثمة وسيلة للإسراع بالتحقيق في هذا الاتجاه ؟

أجاب « فلدمان » .

ـ لا بدّ أن يكون الإنسان حذرا ، يا سيد « دوينغ . هناك شخاص ينطوون على انفسهم كالمحار ، اذا لم تتصدَّ لهم بواسطة ملاقط صغيرة ، فستجد نفسك عائما وسط الغائط .

***

ـ إنه فوق .

كان النشّال الكولومبي ، بابلو توريز يُشير برأسه الى الطابق الثاني من المبنى ذي القرميد ، للجهة الأخرى من الشارع . وكان جالسا على المقعد الخلفي من سيارة « انجيلو روكيا » الشفروليه ، مقيّد اليدين بالأصفاد ، وقد وُضعت يداه ، لمزيد من الحماية ، فوق القسم الأسفل المؤلم من بطنه . وكانت شريكته أماليا قد سُجنت في المفوضية الواحدة والثمانين .

وتفحّص « انجيلو » المبنى . وكان دَنَس النوافذ وسُلَّم الحريق يحولان دون رؤية ما في الداخل .

ـ ماذا يشبه داخل المبنى ؟

وهزَّ النشال كتفيه :

ـ هناك مخزن وفتاة و« بني » رب العمل .

وسجّل « انجيلو » قائلاً :

ـ إن هذا نموذجيّ . ففي نيويورك يتخذ مُخبئو الأشياء المسروقة مظهر أصحاب المخازن للبيع بالجملة . ويستخدمون سكرتيرة تقبع في قفص مزجّج ، ويحيطون أنفسهم بجميع مظاهر السينما . ويشترون أي شيء : آلات تصوير وأجهزة تلفزيون وأدوات كهربائية وسجّاداً وقطع سيارات مُنفصلة . حتى أن بعضهم يؤجرون البنادق الحربية . وهكذا يتوفر لديهم كل مساء سبت ستّون أو ثمانون بندقية رديئة يؤجرونها مدة سهرة بعشرين قطعة من ذوات الخمسة فرنكات مع نسبة مئوية من الغنائم .

وانحرف باتجاه الجادّة السادسة وبحث عن موقف بمنأى عن مدى نظر مخفي الأشياء المسروقة .

ـ أيّها الصغير ، تقف أنت والكولمبي بعد دقيقة من دخولي الى محل مُخفى الأشياء المسروقة . ضع معطفك على كتفيه حتى لا تُسبّب أساوره تجمّعاً .

وكان مخزن مُخفي الأشياء المسروقة يُشار اليه على الباب بلافتة ـ بروكلين تريدينغ ـ وباسم المالك ـ بنجامان موسكوفيتز ـ وكما توقّع « أنجيلو » كانت سكرتيرة جذّابة قد اتخذت مقامها عند المدخل ، وكانت تصقل أظافرها بمنتهى الدقّة . ورفعت أهدابها المستعارة نحو الشرطي . وقد فهم أنجيلو من هيئتها أنها لم تكن معتادة على استقبال الضيوف المتأنقين .

وأسرعت لتقول بلهجة خشنة :

ـ أية خدمة يمكن أن نؤدّيها لك ؟

وكان مخفي الأشياء المسروقة في الغرفة المجاورة ، للجهة الثانية من حاجز مُزجّج . وكان رجلاً قصيراً سميناً في الستين من العمر . وكان يرتدي قميصاً مُقلماً ذا ياقة مفتوحة ، وربطة عنق محلولة وصداراً من المخمل الأخضر . وكانت نظارتاه مرفوعتين فوق رأسه الأصلع ، وكان يُدخّن سيغاراً .

أشار « أنجيلو » قائلاً :

ـ إنه هو الذي أريد رؤيته .

وقبل أن تجد الفتاة الوقت للقيام بحركة ما ، كان الشرطي قد دخل الى مكتبة مُخفي الأشياء المسروقة .

وصرخ « بني موسكوفيتز » شاهراً سيغاره كالهراوة :

ـ من تكون ؟

وأخرج « انجيلو » شارة الشرطة . فلم ينمّ وجه مُخفي الأشياء المسروقة عن ظلٍّ لقلق . ودمدم قائلاً :

ـ ماذا تريد مني ؟ أنا تاجر شريف ، وليس لي أيّ شأن مع الشرطة .

وحدَّق « أنجيلو » ببطء في وجه الرجل القصير ، مسيطراً عليه بكتفيه العريضتين وبتلك الهيئة المُـزْدرية التي كان يدعوها « هيئة العرّاب »

وأعلن بلطف :

ـ هناك صديق لك يودّ أن يحييك .

واتجه نحو الباب فشاهد. كما كان يتوقّع « راند » و« توريز » . فأشار اليهما بالدخول . وزمجر « بني » مُصوِّبا سيكاره نحو النشال وقال :

ـ من هذا اللوطيّ العاهر ؟ إنني لم أره في حياتي قط !

واستعار « العرّاب » لهجة قاضي التحقيق .

ـ « بابلو توريز » هل تتعرَّف على السيد بانجامان موسكو فيتز الماثل هنا ، وهل هو الشخص نفسه الذي طلب منك سرقة محفظة أحد المسافرين في محطة « فلاتبوش » والذي سلّمته بطاقة الاعتماد وأوراق الهوية ؟

ولم يكن لتلك التعابير الحقوقية أية قيمة قانونية ، ولكن « انجيلو » كان قد لاحظ أنه كن يُزعزع غالباً أشخاصا أمثال موسكوفيتز .

وكان النشَال يرقص على رجل ، ثم على الأخرى .

ـ ياه ! إنه هو .

وزعق « بني » قائلاً :

ـ إن هذا الاسباني القذر لا يدري ماذا يقول .

وكان قد نهض وأخذ يلفظ دخان سيكاره المُقزِّز ويشوِّر ، قائلاً :

ـ ما هذه الحكاية ؟ هل هذا ابتزاز ؟

ونصحه أنجيلو بهدوء قائلاً :

ـ اجلس يا بني ، أودّ أن أثرثر واياك بضع لحظات فقط .

ودندن مُخفي الأشياء المسروقة غاضباً وجلس في مقعده . واقتعد انجيلو زاوية المكتب .

ـ اسمع ، يا بني . لقد علمت من الكولومبي أنك تستولي بانتظام على خمسين بطاقة اعتماد في الأسبوع . ولكنني أسخر من تلك البطاقات . ولا تهمّني إلا واحدة منها ، تلك التي سرقتها يوم الجمعة الماضي . أريد أن أعرف لحساب من أمرت بهذا العمل .

واتخّذ مخفي الأشياء المسروقة هيئة مُنذهلة .

ـ حقاً لا أرى ماذا تعني .

وتأمّل انجيلو موسكوفيتز بنظرة هادئة ولكن غير مخدوعة .

ـ لقد نشل « توريز » جيب الشخص لدى وصول قطار الساعة ٩ ، وأحضر الأوراق الى هنا الساعة ٩/٣٠ . وعند الساعة العاشرة ، كان أحد الفتيان يستعملها ليستأجر شاحنة من وكالة « هرتز » في الجادة الرابعة .

استاء مخفي الأشياء المسروقة ، وقال فيما كان يمصُّ سيغاره بغضب :

ـ لا تنقصك الوقاحة ! قلت لك إننا نتعاطى هنا التجارة حسب الأصول . ولديّ سجلاّت . جميع أنواع السجلاّت ، وأدفع الضرائب المترتبة عليَّ . هل تودّ مراجعة سجلاّتي ؟

ـ بني ، إنني أسخر من سجلاتك . إنني أود أن أعرف فقط لمن بعت تلك البطاقة . هذا مهم جداً بالنسبة لي ، يا بني . مهمّ جداً جداً .

وعلى الرغم من ظلّ التهديد الذي كان يُبطِّن لهجة أنجيلو ، فان مخفي الأشياء المسروقة لم يضطرب .

ـ إنني لا أفعل شيئاً غير قانوني . وكل ما في الأمر أنني أبيع أشياء مُستعملة . وبضاعتي كلها نظامية تماماً .

وعرض الرفوف الملأى بآلات التصوير وآلات الحلاقة الكهربائية وأجهزة التلفزيون والساعات .

ـ انني أسخر من كل ما لديك هناك (ولم يعد صوت أنجيلو يتسم بالطابع الودي) انني عيد عليك طرح السؤال ، يا بني : « توريز » أحضر لك الجمعة صباحا بطاقة صادرة عن « الأمريكان اكسبرس » ، هل أنت موافق ؟ والبطاقة تلك طارت من هنا على الفور . الى أين ذهبت ، يا بني ؟ الى اين ؟

وأصرّ مخفي الأشياء المسروقة قائلاً :

ـ أنا لا أتعامل مع رجال الشرطة .

وحَدجَه أنجيلو بنظرة غاضبة ، منتزعاً سيغاره بضربة خاطفة .

وأطلق الشرطي العبارات التالية ، وهو يشير الى اللافتة المعلقة خلف باب المدخل والمكتوب عليها . « غائب بسبب الغداء » :

ـ يا لك من قوّاد ! اذا ما رفضت التعاون معنا ، فسوف نقفله ، محلّك هذا . وأخشى أن نُعلّق لافتتك تلك لأجل طويل !

تقلّص الرجل على مقعده ، ولكنه ظلّ ثابتاً لا يتزعزع . وكان أنجيلو يردّد :

ـ سوف نقفله ، بيتك هذا ، وآمل أن تكون لديك شهادة تأمين حسنة ضد الحريق! (وكان الشرطي يُربِّت ببطء وانتظام على السيغار لينزلَ منه الرماد الحارق في سلّة الورق) عندك هنا ، شرك حقيقي للنار . يتغيَّب المالك ، فتشبّ النار . هل تفهم ماذا أعنى ؟

وكان بني قد أصبح شاحباً تماماً :

ـ لن تفعلوا ذلك ، يا عصابة الأقذار !

وعوَى أنجيلو ، وهو ينزل جمراً آخر فوق الأوراق التي أخذت تبعث رائحة الشياط ، وقال :

ـ لن نفعل ماذا ؟ إن هذا المحل السيء سوف يحدث « لهيب البنغال »(*) .

وقفز مُخفي الأشياء المسروقة ناهضاً ، وانفجر قائلاً :

ـ سأتقدّم بشكوى ، شكوى بمادّة ابتزاز وتهديد بحرق محليّ .

وانفرج أنجيلو ضاحكاً . فقد تذكّر الوعد الذي همس به في أذنه رئيسه « ال فلدمان » منذ بضع ساعات : « إننا نغطّي كل أعمالك ، يا أنجيلو »

ـ هل تعلم ماذا يمكن أن تفعل بشكواك « يا بني » ؟ يمكنك ان تدسّها في مؤخرتك !

وغمز مُخفي الأشياء المسروقة بعينيه . كان يزداد قلقاً . لقد سبق أن أوقف ستّ مرات ، ولكن كان يُطلَق سراحُه سريعاً كل مرَّة . أما اليوم فالأمر مختلف ، فهو يشعر بالحرج كما لم يشعر به سابقاً .

وقال بإذعان :

ـ حسناً ، لا توجد لديَّ سيولة كثيرة ، ولكن يُمكن أن نتّفق .

وسحق « أنجيلو » بغضب السيغار على مكتب موسكوفيتز ، وكان وجهه قرمزياً . وقال بصوت جليديّ :

ـ لا أتكلم عن هذا النوع من الاتفاق . إني أسخر من ترتيباتك ، كما أسخر اذا ما عرفت عدد بطاقات الاعتماد المسروقة التي تعيد بيعها . للمرة الألف ،أقول لك يا بني :هناك شيء واحد ووحيد أريد معرفته : لمن بعت بطاقة « الأمريكان اكسبرس » تلك ؟

وتناول « موسكوفيتز » سيغاراً آخر من قميصه وأشعله . وأنعش طعمُ التبغ قواه . ورفع سمّاعة الهاتف . فانقضّت يد أنجيلو على يده . وقال مُخفي الأشياء المسروقة مُتمرداً :

(*) لهيب ملون تحدثه مادة كيماوية عند اشتعالها .

ـ من حقّي أن أستدعي محاميَّ .

ووافق أنجيلو وسحب يده ، قائلاً :

ـ حقا ، استدع محاميك ! (وأشار الى السيغار وسلّة الورق الذي بدأ يرسل دخانه ، وأضاف) آمل ان يكون محاميك إطفائيا .

وتفحّص أنجيلو طريدته . في كل استجواب فترة حرجة يبدأ الانسان فيها بالانهيار تحت تأثير ضربة أخيرة موجَّهة باحكام . وقد يحدث على العكس أن يتراجع الانسان فجأة ، بعد أن تُرعبه نتائج الخيانة فيفضل السجن على خطر التعرُّض للتدابير الثأرية . وانحنى المفتش نحو « موسكوفيتز » بمودَّة حارة لدرجة أن « راند » ظنَّ أنه سيضمُّه بين ذراعيه .

وأصبح صوته مُتملّقاً :

ـ افهمني جيداً ، يا بني ، كل ما أنا بحاجة لمعرفته ، هو لمن بعت تلك البطاقة . فإذا ما أجبتني ، انصرفنا.ولن تشاهدنا بعد ذلك إطلاقاً .

ومصَّ مُخفي الأشياء المسروقة سيغاره بعصبّية وأبقى رأسه مطاطئاً فترة طويلة ، ثم رفعه فجأةً وحدَّق بالمفتش ، واندفع يقول :

ـ طُزْ ، خذني الى السجن ! فليس لديَّ ما أقوله لك .

وسُمع عندئذ ، صوتُ « جاك راند » المتّزن ، وتوجّه الى « أنجيلو » مُقترحاً :

ـ دعني أتحدّث مع هذا السيد ، قبل أن نسوقه الى السجن .

والتفت الشرطيّ النيويوركي بغضب نحو الشرطيّ الشاب . وكان يغمره شعور بالعجز والاذلال والحنق لفشله في حضوره . وقال دون أن يحاول إخفاء مرارته :

ـ أكيد ، أيّها الصغير ، تحدَّث الى هذا القوّاد ، تحدَّث اليه بقدر ما تشاء .

ونهض ، فطقطقت ركبتاه، وسار مُتثاقلا نحو غرفة السكرتيرة . وأضاف النيويوركي :

ـ حاول ، ما دمت هناك ، أن تبيعه شهادة تأمين اضافية ضد الحريق .

وأعلن الشرطي بعد أن أُغلق الباب خلف زميله :

ـ أعتقد يا سيّد « موسكوفيتز » أنك تعتنق الديانة الاسرائيلية ؟

وكان يحدّق بنجمة داود المذهّبة التي كانت تتدلّى من عنق مُخفي الأشياء المسروقة .

تفرَّس موسكوفيتز في وجهه ، وقد استولت عليه الدهشة : وتساءل محتاراً : من يكون ذلك الرجل ؟ أيكون مبشّراً ، أستاذاً ، مجنوناً ، ام ماذا ؟

ووجّه ذقنه نحو « راند » :

ـ أجل ، أنا يهودي ، وبعد ؟

ـ وأنت ، على ما أتصور ، معنيَ بسلامة وطمأنينة دولة اسرائيل ؟

وقفز موسكوفيتز من مقعده كشيطان بزنبرك .

ـ ماذا دهاك ، أيها الشرطيّ ! هل تراك تبيع سندات خزينة ، لصالح اسرائيل ؟

أجاب « راند » بهدوء وهو يميل نحو مُخفي الأشياء المسروقة :

ـ إنّ ما سأعهد به اليك ، يا « موسكوفيتز » موصياً إيّاك بالسريّة التامة ، يهمّ اسرائيل أكثر بكثير من بيع بعض سندات الخزينة .

وكان أنجيلو يراقبهما عبر الحاجز المزجّج . وقد بدا « موسكوفيتز » أوّل الأمر، مُتشكّكاً ثم محتاراً واخيراً مُهتمّاً بشكل عجيب . وفجأة سحق سيغاره واندفع خارج مكتبه ماراً كالاعصار أمام أنجيلو ، وتوقّف أمام النافذة المشرفة على الشارع .

وضغط على الزجاج بسبابته صائحاً :

ـ إنه عربي ممحون ، ذلك الذي أخذ البطاقة (وكان قد لفظ كلمة « عربي » بتقزز) . انه يتسكّع هناك في المشرب ، عند زاوية الشارع .

***

قال اللواء هنري برتران في نفسه : عجباً ! لقد تحوّل كاردينالنا الى « ساشا غيتري » ذاهباً الى العشاء في مطعم « مكسيم » . وللمرة الثانية ، في ذلك النهار ، كان يجد نفسه في البهو ـ المتحف العائد للسيد « بول هنري ده سار » ، المهندس النووي الذي كان قد أشرف على تشييد المفاعل النووي المباع من فرنسا الى ليبيا ونقله الى البلد الأخير . وكان المهندس يرتدي ذلك المساء سترة من المخمل الأحمر الرّماني وعقدة فراشية وينتعل خُفين من المخمل الأسود المطرّز بالذهب .

ـ إنني حقاً مُتأسف لهذا الانتظار .

وكان يزيد في حرارة استقبال « ده سار » كون برتران قد قطع عليه العشاء الذي كان يُقدّمه لبعض الأصدقاء . وفتح علبة سيغار فخمة من الأكاجو وقدّمها لزائره .

ـ خذ سيغاراً « شاتو ـ لافيت » . انه فاخر .

ثم أخرج المهندس من مشربه زجاجةً من خمر نابوليون المعتّق وملأ كأسين مستديرتين . وبعد أن قدّم إحداهما الى برتران ، تراخى على وسادة عميقة لمثواة(*) .

ـ قل لي يا سيدي العزيز ، هل حقّقت تقدّماً في تحقيقاتك منذ بعد الظهر ذاك ؟

ورشف برتران كأس الكونياك . إنه تحفة ! وكانت عيناه نصف مُغلقتين والهناء مرتسماً على وجهه .

ـ للأسف ، لم أحقق عملياً أيَّ تقدم . ومع ذلك فهناك تفصيل أودّ أن أحدثك عنه . فلقد علمت

(*) كرسي واسع منجّد المساند والظهر .

لتوّي أن الليبيين اضطروا ، في الواقع ، الى وقف مفاعلهم بعد فترة قصيرة من عمله لينتزعوا منه قضبان الأورانيوم المُعيب .

ـ آه ، أجل !. (وكان « سار » يتابع بنظره ، شارد الذهن ، النفثات المُلتفّة لدخان سيغاره) انه حادث مبتذل ، كثيراً ما يحدث مثله في جميع المنشآت الذريّة . ومع ذلك ، فقد كان الأمر مُربكا ، لأن الأورانيوم المقصود كان فرنسيّ المصدر . في حين ، كما تعلم بلا ريب ، أن أغلب الأورانيوم الذي يُحرق في المحطات النووية هو أميركي المصدر .

ـ أستغرب أن لا تكون قد ذكرت لي تلك الواقعة ، قبل قليل .

وشرح « سار » دون أن يضطرب :

ـ إن الأمر يتعلّق ، يا سيدي العزيز ، بقضايا فنّية معقّدة لدرجة أنني كنت على بعد الف فرسخ(*) من التفكير بأنها قد تثير أيّ اهتمام لديك .

وقال برتران ، وهو يطلق نفساً من سيغاره :

ـ انني أفهمك .

واستمرّ الحديث خلال خمس عشرة دقيقة ، بطريقة مُراوغة الى درجة أن مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية اكتفى ، بالنتيجة ، بسؤال المهندس عن إمكانية الوثوق بفنّيي التفتيش في وكالة فينا . وأخيراً أفرغ كأسه ونهض ليستأذن بالانصراف .

ـ أرجو المعذرة لأنني أخذت الكثير من وقتك . ولكن هذه القضايا . . .

واكتملت عبارة برتران في دندنة مقصودة . وفيما كان يتّجه نحو الباب ، توقّف أمام الرأس الروماني الذي كان قد أعجب به قبل بضع ساعات .

وانتشى مرةً ثانية ، وقال :

ـ يا لها من قطعة رائعة ! أنا مقتنع بأن « اللوفر » لا يملك الكثير من أمثالها .

ـ حقاً ! (وكان « سار » لا يخفى اعتزازه) لم أشاهد في اللوفر شيئاً مماثلاً .

ـ لا بدّ أنك عانيت الكثير لتحصل من الليبيين على إذن باخراج تلك الرائعة !

ـ لقد اصطدمت ، في الواقع ، بصعوبات لا يمكن تصوُّرها .

ـ ولكنك تمكنت في النهاية من إقناعهم .

ـ أحسنت !

ـ بكثرة العناد وبعد أسابيع وأسابيع من النقاش المملّ .

ـ تهانيَّ !

(*) اربعة كيلو مترات تقريباً .

وكان اللواء قد وصل الى الباب . وتوقّف ، ويده على قبضته ، متردّداً خلال ثانية ، ثم دار حول نفسه :

- انك كذّاب يا سيد « ده سار » !

وشحب المهندس .

- إن الليبيين لم يسمحوا لك باخراج ذلك التمثال لهذا السبب الممتاز أنهم منذ خمس سنوات فرضوا حظراً شاملاً على جميع عاديّات تراثهم الوطنيّ .

وترّنح « بول هنري ده سار » وهوى على مقعد . وفجأة ، أصبح وجهه ، الأحمر عادة ، أدكن ، وكانت يداه ترتجفان . واحتّج لاهثاً وهو يقول :

- هذا غير معقول ! هذا محال !

وكان برتران يسيطر عليه بقامته العالية ، كأنه « توركيمادا »(*) حاكماً على هـرطوقيّ بالنار الأبدية .

- إنني قادم من منطقة الأرصفة . لقد تحدّثت مع أصدقائنا في طرابلس . فسنحت لي الفرصة لكي أطّلع على مغامراتك المزعجة في الهند . ولم تنقطع عن الكذب عليّ منذ اللحظة التي اجتزت فيها بابك . كما كذبت عليَّ بشأن تسيير ذلك المفاعل وبشأن الطريقة التي خدع الليبيّون بموجبها أجهزة المراقبة في وكالة فيينا .

وكان اللواء يندفع مع غريزته ، ضارباً على غير هدى . وانحنى وامسك المهندس بذراعه :

- كفانا أضاليل ! يجب أن تخبرني الآن بكل ما جرى هناك . حالاً وليس بعد ساعة .

وشدّد اللواء ضمّه ، لدرجة أن المهندس أطلق أنيناً .

- وإلاّ ، فاني أضمن بأنك ستجرّ خفيّك المذهبين فوق اسمنت احـدى حجـرات « فـرين » . الاقامة في السجن ، ألا توحي اليك بشيء ؟

وقد أثار مجرّد كلمة « سجن » بريق ذعرٍ في عيني المهندس .

- انهم يا عزيزي لا يقدّمون بعد العشاء في « فرين » سيغار « دافيدوف » ولا خمر نابوليون المعتّق ، والتحف الوحيدة التي يمكن مشاهدتها هناك هي الوجوه الشاحبة للأشخاص المساكين أمثالك .

وشعر برتران بأن مخاطبه بدأ يطقطق . وكان صوت التجربة يهمس في أذنه بأن يحطّمه ، وأن يحطّمه حالاً ، قبل أن يستعيد أنفاسه . وكان هذا الصوت نفسه يحدّد له أين ينبغي اصابة خصمه وكيف يُـجْهِز عليه .

- أعتقد انك كنت تُعوِّل على احالتك على التقاعد بعد بضعة أشهر ، وأتصوّر أنك مُهتمٌ بكيفية المحافظة على مجرى حياتك البرّاق ! إني أعرف ذلك لأنني قضيت بعد الظهر مُنقِّباً في حساباتك المصترفيّة بما فيه الحساب الذي تُغذّيه بانتظام في مصرف « كوسموس » في جنيف !

وانتفض « بول هنري ده سار » .

(*) المفتش العام لمحاكم التفتيش في اسبانيا ، وقد اشتهر بقسوته ومظالمه .

- ينبغي أن تبرهن ، يا سيد « سار » ، عن روح تعاونّية ، وإلاّ سأضطر الى دسّ أنفي في شؤونك الخاصّة حتى آخر فلس .

وأرخى ضغطه ولَطُفت لهجته :

- يا سيد « سار » . إن سبب وجودي عندك هو خطير لدرجة أن بوسعي ان أعطيك وعداً . فإذا ساعدتني على حلّ مشكلتي ، فإني أتعهد بأن أزيل من ملفّك كل ما من شأنه أن يسيء الى شرفك ، بما فيه مغامرتك الصغيرة في الهند ، ولو اقتضى الأمر أن أتدخل لصالحك حتى لدى رئيس الجمهورية .

وكان وجه « سار » قد مال نحو الرماديّ .

وفكّر برتران : يا إلهي ! إن هذا القذر سيتعرَّض لأزمة قلبية . والواقع أن المهندس ترك كأس المشروب يسقط منه ، ورفع يده الى فمه وتقيّأ بقايا السيغار والأمعاء على سترته المخملية وبنطاله السموكن . وتقلّص على نفسه واضعاً رأسه على ركبتيه وانفجر باكياً . وكان يئنّ قائلاً :

- ما كنت أريد ، لقد أجبروني . .

والتقط برتران الكأس ، وذهب الى المشرب فملأه من « فرنت برانكا » ذلك الشراب الأخضر الذي ينعش المعدة في حالة الغثيان . ولم يعد بحاجة لمزيد من لعب دور كبار « المفتّشين » . قد أصبح في الجيب . . . وابتلع « سار » جُرعةً من الشراب الأخضر ، الذي أنعشه بعض الشيء .

وقال برتران ، باللهجة المطمئنة لطبيب العائلة قرب سرير صديق له :

- لقد أُرغمت اذن ؟ قد يكون ذلك لصالحك ! قصَّ علي كل شيء ، ولنبدأ من الأول .

وحَوْزَق « سار » ثانية وهو يقول :

- ما كنت أريد . كنت معتاداً أن أقضي عطل نهاية الأسبوع في « لبتيس مانيا »(*) . وكان يمكن أن يُشاهد المرء هناك بعض الأشياء لا سيّاً بعد العاصفة ، بسبب الانهيارات . ولم ألبث أن اصبحت صديقا لأحد الحُراس الليبيين الذي كان يدلّني ، لقاء بضع دنانير ، أين أجد قطعة من تمثال أو إفريز او قطع نقديّة . وذات يوم دعاني الى تناول الشاي في كوخه . وأراني ذلك الرأس . . . (وتأمّله المهندس ، والضيق يخنقه كعاشق عجوز أزمعت حبيبة قلبه على تركه) وقدّمه لي لقاء عشرة آلاف دينار .

- اعتقد أن ذلك المبلغ مضحك بالنسبة لمثل تلك القطعة .

- حقاً . إنها تساوي ملايين . وبعد اسبوعين سافرت لأقضي عطلة العنصرة في باريس . وبما أن الليبيين لم يعتادوا فتح حقائبي ، فقد اعتزمت نقل الرأس معي .

- وفي المطار ، انقضّ رجال الجمارك على حقيبتك !

- أجل .

- من الواضح أنهم نصبوا لك شركاً . وبعد ؟

(*) مستعمرة فينيقية شمالي افريقيا تُدعى اليوم « لبرا » .

ـ لقد ألقوني في السجن ، وكان عبارة عن كـوّة سوداء بدون نافذة . كنت لا أستطيع حتى الوقوف فيه . وكان خالياً من أي سرير أو كرسي او دلو صحيّ ، لا شيء .

وكان برتران يُفكّر : مسكين ! لقد كان يعرف ذلك النوع من الأمكنة . فلا عجب اذا أوشك أن يُغمى عليه عندما تكلمت عن السجن . وكان المهندس يتعلّق بذراع اللواء .

ـ كان المكان مليئاً بالجُرذ . وكانت تلامس جسدي . وكنت أُعطى قصعة أرز كلّ يوم . فكان عليّ أن أستعجل بابتلاعه قبل أن يقفز الجرذ فيه . (وكان « سار » يحوزق أكثر فأكثر) واصبت بالزحار . وبقيت ثلاثة أيام وسط الأقذار ، أصرخ مستنجدا . وحضروا أخيراً وقالوا لي بأني خرقت القوانين بشأن حماية العاديّات الوطنية . ورفضوا السماح لي باستدعاء القنصل . وأعلموني بأني سأقضي سنة في ذلك السجن ، إلاّ إذا . . .

ـ إلاّ إذا ساعدتهم على سرقة البلوتونيوم من المفاعل ؟

وأجاب « سار » بإيماءة من رأسه .

ووقف برتران ليملأ الكأس من « فارنيت برانكا » وقال ، وهو يقدم له الكأس :

ـ بعد كل ما عانيت ، من يستطيع ان يحقد عليك ؟ وكيف تصرفت ؟

وشرب « سار » جرعة وبذل جهدا لاستعادة هدوئه .

ـ لقد كان الأمر سهلا نسبيا . فالعطل الأكثر تكررا في مفاعل بالماء الخفيف ، ينجم عن شذوذ في شحنة الوقود ، كتشقق في غمد أحد قضبان الأورانيوم المحتوية على كرات التبخير . والفضلات المشعة التي تتراكم في تلك الأغمدة كلما اشتعل الأورانيوم ، تتسرب من تلك الشقوق وتنتشر في ماء تبريد المفاعل وتفسده . وقد ادعينا ان ذلك ما حصل .

واعترض « برتران » بعد أن تذكر شروح مستشاره العلمي :

ـ ولكن تلك المفاعلات هي آلات متقنة للغاية . وهي مجهزة بعدد كبير من أجهزة السلامة . كيف أمكنك تنظيم مثل ذلك الاخراج ؟

هز « سار » رأسه ، كما لو كان يريد أن يبدد ذكريات ذلك الكابوس الذي كان قد عاشه .

ـ إن المفاعلات نفسها هي في الواقع طُرف رائعة الاتقان . وهي مجهزة بعدد لا يحصى من أجهزة السلامة المنيعة . ولكن الأشياء الصغيرة التي تنضاف اليها ، هي الأشياء العطوبة .

وتوقّف « سار » .

ـ إليك ما يلي : كان لي صديق حميم يقود سيارات سباق . وقد رافقته ذات يوم الى سباق الجائزة الكبرى في موناكو . وكان يقود في ذلك الوقت سيارة « فراري » ، وكان منظم السباق قد أعطاه نموذجا جديدا رائعا ذا اثنتي عشرة اسطوانة . وكانت السيارة تساوي الملايين . ومع ذلك فقد تعطّلت لدى مرورها لأول مرة أمام فندق باريس ولم يكن ذلك بسبب أي نقص في محرّك السيّد « فراري » الرائع ، ولكن بسبب وصلة من الكوتشوك تساوي فرنكين اثنين لم تقو على المقاومة . أمّا بشأن مفاعلنا ، فقد تصدّينا للآلة التي تقيس الاشعاع في خانات الوقود الثلاث . ومثل جميع الآلات من هذا النوع ، فإن الآلة

المذكورة تسير بواسطة جهاز لتنظيم التيار الكهربائي ينطلق من الصفر . وبمجرَّد تغيير بسيط في تعيير تلك الآلة ، فقد توصَّلنا الى جعلها تشير الى وجود الإشعاع ، في حين أنه غير موجود في الواقع . وأخذنا عينة من وسائل التبريد وأرسلناها الى المختبر ، للتحليل . ولما كان المختبر المذكور بإدارة الليبيين ، فقد أعطانا الجواب الذي كنا نتمّناه .

ـ وكيف تصرّفتم بعد ذلك إزاء مفتّشي فيينا ؟

ـ لقد كتبنا الى الوكالة الدولية للطاقة الذرية أنه كان علينا وقف المفاعل لسحب شحنة من الأورانيوم المعيب . وذلك بطريق البريد ، بالتأكيد ، لكسب بضعة أيام . وكما كنا نتوقّع ، فقد أرسلوا لنا مفرزة من المفتّشين لمراقبة عمليات استبدال الأورانيوم المعيب .

ـ كيف أقنعتموهم بوجود خلل فعليّ في قضبان الأورانيوم ؟

ـ لم نـحْـتَـجْ الى ذلك ، فقد اكتفينا بإبراز مستندات المعلوماتية التي تؤكد أن عدّاداتنا كانت قد اكتشفت آثار الإشعاع . فضلاً عن النتائج الصورّية ، لتحاليل المختبر الليبي . وعلى كل حال ، فإن الأورانيوم المُستخرَج كان مُشعا لدرجة أن احداً لم يجرؤ على تفحّصه عن كثب .

ـ وهل صدَّقوكم ؟

ـ الشيء الوحيد الذي أدهشهم ، هو أن تكون شحنات الأورانيوم الثلاث قد بدت معيبة في آن معاً . ولكن ، بما ان مجموع الأورانيوم كان ذا مصدر واحد ، فإن الأمر كان يبدو محتملاً أو بالأحرى على حدود الاحتمال .

ـ وكيف فعلتم لسرقة ذلك الأورانيوم من الحوض الذي كنتم قد وضعتموه فيه بعد إخراجه من المفاعل ؟ أليست مهمة آلات تصوير مُفتّشي فيينا الموضوعة في قعر الحوض ، هي بالضبط التثُّبت كل خمس عشرة دقيقة من وجود الأورانيوم في مكانه ؟

ـ لقد أخذ الليبيون على عاتقهم حلّ تلك المسألة . فآلات التصوير التي تستعملها وكالة فيينا هي أجهزة مصنوعة في النمسا . وقد اشترى منها الليبييون بواسطة عملائهم نصف دزّينة . ولكل جهاز عدسيّتان وزاوية كبرى ومكبّر عادي عيار خمسون ملّليمتراً ، تُعيَّرُ كلها لتنطلق في فترات منتظمة . وتوجد في الحوض عدة نقاط إرساء ثابتة لآلات التصوير تلك . وكان الليبييون قد عمدوا إلى فحص تلك الآلات بالتسمُّع بواسطة مساميع مُفرطة في الحساسية ، حتى تمكّنوا من معرفة التواتر الصحيح لأخذها الصور . وبواسطة آلاتهم الخاصة ، كانوا قبلاً قد صوَّروا ، من المكان عينه وبدقة متناهية ، المشهد الذي سوف تصوِّره آلات الوكالة . وكانوا قد ظهَّروا تلك الأفلام ووضعوا الصور بالحجم الطبيعي في الحوض أمام عدسيّات آلات تصوير الوكالة ، بمعنى أن عمل آلات تصوير الوكالة كان يقتصر ، في الواقع ، على تصوير الصور ، وبهذه الحيلة تمكّنوا من نقل قضبان الأورانيوم بكل هدوء .

وفكَّر برتران من جديد بشروح مستشاره العلمي .

ـ ولكن ماذا فعلوا ليخدعوا المفتّشين لما عادوا ليتثّبتوا من أن قضبان الأورانيوم كانت لا تزال في مكانها في الحوض ؟

ـ ليس ثمَّة أية صعوبة . فحين انتشل الليبييون من الحوض قضبان الأورانيوم الحقيقية الملأى

بالبلوتونيوم ، استبدلوها بقضبان مُزيَّفة مُعالجة بالكوبالت ٦٠ . والكوبالت ٦٠ يُعطى البريق المُزرق نفسه الذي يعطيه الأورانيوم بعد اشتعاله في المفاعل . ويشير الى العلامات نفسها على عدّادات الكشف المُركَّزة من قبل مفتشي فيينا .

أثار دهاء أولئك الفنّيين الليبيين إعجاب اللواء برتران . وتساءل : لماذا نندفع دائماً الى القدح بهم والى إقناع أنفسنا بأنهم عاجزون عن مساواتنا لمجرَّد أنهم عرب أو زنوج أو أي شيء آخر ؟

ـ وكيف استطاعوا استخراج البلوتونيوم الذي يحتويه ذلك الأورانيوم ؟

ولم يبق أي أثر للعداء في صوت اللواء ، بل شعور عطف نحو الرجل المُحطَّم الماثل أمامه .

ـ لم تتح لي الفرصة للاهتمام بذلك شخصياً . إلا أنني شاهدت مرَّة المكان الذي أجروا العمل فيه . وكان ذلك في محطة زراعية ، قرب البحر ، على بعد عشرين كيلو متراً من المفاعل . وكانوا قد استحصلوا من الولايات المتحدة على تصاميم معمل صغير لاستخراج البلوتونيوم . وكانت شركة أميركية ، فيليبس بتروليوم ، تبيع هذا النوع من المعلومات في السّتينات . وكانت عبارة عن بيانات مُفصّلة جداً لسلسلة العمليّات الكيماوية المُختصّة وعن رسوم مختلف الالات اللازمة لاستخراج البلوتونيوم .

ـ وهل استطاعوا ان يضعوا اليد على جميع اللوازم التي كانوا بحاجة اليها ؟

أجاب « سار » رافعا ذراعيه نحو السماء :

ـ لقد تدبَّروا أمرهم . اشتروا من الباكستانيين أحد المقصّات المائية التي تستخدم في تقطيع قضبان الأورانيوم المشعّ التي كانت فرنسا قد باعته الى إسلام أباد . وهو عبارة عن تجهيزات مُتخصّصة جداً لا يُصنع مثلها إلاّ في اميركا وفرنسا .

ولأول مرة ، شاهد برتران إبتسامة حيّية تُضيء وجه المهندس الشاحب .

ـ أليس من الغريب التفكير بأن مثل هذا المقصّ ، الذي يُشكِّل أحد الأسرار الرئيسية للتكنولوجيا النووية بكاملها ، يمكن صنعه في معمل صغير للأقفال في المنطقة الباريسية؟ حسناً، لنعُدْ الى الليبيين . قلت لك إنهم تدبّروا أمرهم . والواقع أنهم سلكوا طرقا خطرة. لقد أهملوا بعض الاحتياطات الاساسية للسلامة . ولكن الواقع أن كل ما لا يُستغنى عنه لتشييد مثل ذلك المصنع مُتوفِّر اليوم في السوق العالمية . ومهما كان الشيء نادراً ، فيمكن الحصول عليه من السوق المذكورة ، لا سيما عندما يكون بتصرّف المرء ، مثل القذافي ، مليارات البترول !

ـ ألسنا إزاء عمليّات خطيرة بشكل رهيب ؟

وتذكّر برتران تحذير مستشاره الشاب بشأن أخطار الإشعاع . وبان على « سار » فجأةً أنه مُنزعج من رائحة ثيابه . فدمدم قائلاً :

ـ يا إلهي ، يجب أن أبدِّل ثيابي . اسمع ، لقد كانوا جميعهم فدائيين ، فلسطينيين ، لن أودَّ أن أنظِّم بوليصة تأمين على حياتهم (قال وهو يرفع كتفيه) بعد خمس سنوات أو عشر سنوات . ولكنّهم حصلوا على البلوتونيوم .

ـ ما هو عدد القنابل التي يستطيعون صنعها ؟

- لقد قالوا لي إنهم توصّلوا إلى استخراج كيلوغرامين من البلوتونيوم في اليوم الواحد . وهذا ما يكفي لصنع قنبلتين في الأسبوع . وكان ذلك في حزيران الماضي . وفي المجموع ، واذا ما أخذنا بالحساب مجال الخطأ ، أقول إنهم استخرجوا كمية من البلوتونيوم تكفي لصنع أربعين قنبلة .

أطلق برتران صفيراً قصيراً أسقط رماد سيغاره على سترته .

- هل بوسعك أن تتعرّف على بعض هؤلاء الكيماويين من خلال صورهم ؟

- ربما . لقد كان الشخص الذى كنت أتعامل معه فلسطينياً ، وليس ليبياً . وكان شخصيا قوّياً ، ذا شاربين . وكان يتكلم الفرنسية باتقان . ولم يُعطني اسمه إطلاقاً .

- حسنا ، اذهب وبدِّل ثيابك يا سيد « سار » ، سوف أصطحبك .
وحدَج المهندس مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية بنظرة مضطربة .

- هل يعني ذلك أنني بحالة . . .

- إني أعترف لك بأن مصيرك الشخصي ، حالياً ، هو ثاني همومي . لدينا مشكلة يجب حلُّها وإني اعتمد عليك لتساعدنا على ذلك .

ونهض المهندس متّجهاً نحو الباب :

- أودّ أن أهيء نفسي .

واحتذاه برتران :

- بالنظر للظروف ، أرجو أن لا تغتاظ أذا ما رافقتك !.

**

إبان الأزمات الدولية ، يأتي وقت يشعر فيه الرجل المسؤول عن مصير بلد ما . بحاجته للابتعاد عن حاشيته الرسمية والانفراد مع صديق حميم ونجيّ . ففي الساعات الحالكة التي تلت « بيرل هاربر » ، اتجّه فرانكلين روزفلت نحو شخص هاري هوبكينز النحيل . وكان الصوتُ الذى أصغى اليه جون كندي أثناء أزمة صواريخ كوبا ، صوت شقيقه روبير . وبعد فشل حديثه الأخير مع القذافي ، كان الرئيس قد انفرد لتوّه بجاك إيسمان . وكان يذرع ببطء الرواق ذا الأعمدة الذي يصل جناح البيت الأبيض الغربي بمقره ، وكانت شمس بعد الظهر دافئة .وكان الثلج يذوب عند طرف الإفريز ويستحيل الى دانتيلا من القطيرات . وعند نهاية الرواق ، كان مأمور من دائرة الحماية ، مُشبِّك الذراعين ، يؤمّن حراسة متكّتمة . وكان الرئيس صامت . وقال ، أخيراً :

- جاك ، أنا أشعر بأنني مصاب بفيروس غامض ومُستعصٍ على جميع تلك العلاجات العجيبة التي يصفها الأطباء .

والتفت نحو أقصى الحديقة ناظراً الى شجرة الميلاد الهائلة التي كان عليه أن يفتتحها رسمياً بعد ساعتين ، كتعبير تقليدي عن الأمل والعزاء وتأكيد لاستمرار بعض القيم التي كان يُجسِّدها في نظر مواطنيه في السرّاء كما في الضرّاء . ولكن كان يُفكّر بأن الأمل قد لا يكون في الانتظار ، هذه المرّة . ووضع يده على كتف إيسمان :

ـ والآن ، يا جاك ، أيَّ طريق نسلك ؟

وكان إيسهان يتوقَّع ذلك السؤال .

ـ حتماً ، لن نسلك الطريق المؤدي الى القذافي . وإلا اضطررت للزحف عند قدميه . وعلى الرغم مما يؤكده الأطبّاء النفسيّون ، فأنا لا أعتقد بعدُ بأننا سنتمكن من إقناعه بالعدول ، لست بعدُ سير الأوهام منذ أن سمعته .

ـ ولا أنا كذلك .

وحكَّ الرئيس رأسه ، وهو مُستغرق بالتفكير .

ـ يبقى أمامنا « بيغن » .

ـ بيغن ، أو ان يعثر رجال الشرطة على تلك القنبلة اللّعينة .

واستأنف الرجلان مشيتهما .

ـ يجب أن نُقدِّم الى بيغن ميثاقاً من « الإسمنت » يضمن له الحدود الإسرائيلية لعام ٦٧ مقابل انسحابه من الضفّة الغربية ، وإشراك الروس في المعاهدة . إن هذا يبدو لي الحلّ الوحيد المعقول للخروج من هذه الورطة .

وترقّب الرئيس رد فعل مُستشاره .

ـ ربما . (وكان إيسهان يهزُّ رأسه) ولكن في الوضع الراهن ، يبدو لي من غير المحتمل أن يقبل « بيغن » ، إلاّ إذا كنت مستعداً بكل صراحة لأن تضع السكين فوق عنقه . تذكّر ما قاله أحد ألويتنا مساء أمس . فهل أنت مُصمِّم على الدخول الى عقر دارهم وعلى نقل المستوطنين بالقوة اذا لزم الأمر ، أو على الأقل أن تهدد بذلك ؟

وبدا الرئيس محتارا . فمثل تلك الإمكانية لم تكن سارَّة إطلاقا . على أن توقّع مشاهدة نيويورك تختفي في انفجار نووي حراريّ ، كان هو الآخر أكثر إثارة للأسى .

ـ ليس لديَّ خيار ، يا جاك . ينبغي أن نمسك ببيغن . هيَّا ، فلندخل !

وكان جوزف هولبورن ، مدير مكتب التحقيقات الاتحادي ، يرقب عودة الرجلين ، فأعلن :

ـ لقد اتصلت لتوّي بنيويورك تلفونياً : القنبلة هي بالفعل هناك . لقد عُثِر على آثار إشعاع في مستودع « كوينز » حيث يفترض أن تكون قد خُبِّئت الجمعة الماضي خلال بضع ساعات .

***

كان هناك شخص آخر قد توارى من قاعة مجلس الأمن القومي . وكان أمين الطاقة « دلبير كرانديل » يركض في رواق تحرصي من الجناح العربي للبيت الأبيض بحثاً عن غرفة للتلفون . ولما وجدها ، ركّب رقماً بعصبيّة . وقد رنَّ نداؤه طويلاً قبل أن تنتهي امرأة بالردّ .

وتأوهت « سندي غريت » بصوت ثقيل قائلة :

ـ ماذا دهاك ؟ لقد انتظرتك حتى الساعة الخامسة صباحاً ، وقد انتهيت بابتلاع قُرْصي مُنوِّم .

وأطلق « كرانديل » على عجل :

ـ سأشرح لك فيما بعد . أما الآن فلدي شيء عاجل جداً أود أن أطلبه منك .

وكانت « سندي » قد رفعت الغطاء على نهديها وأشعلت لفافة وركّزت السمّاعة على الوسادة .

وكانت تلك الشقراء البالغة ثلاثة وعشرين عاماً وذات الأنف الأشمّ ، تنتمي الى مدينة صغيرة في « ألاباما » التي كانت قد تركتها وهي تنتظر ولداً من مساعد الشريف المحليّ . ولما أتت الى واشنطن ، كانت قد وجدت منصب مُستَقْبِلة في أمانة سر نائب ولايتها .

وكان اقتحامها للعاصمة قد أوشك أن يدور في مجال ضيِّق ، عندما اكتشفها النائب المذكور ، وقد تَوَضَّعَت عاريةً في أحد أعداد مجلة « بلاي بوي » ، فطردها من العمل . ولم تحظَ « سندي » بخلاصها إلا بلقائها الذي هيّأته العناية الإلهية برجل تكساس الثريّ « دلبير كرانديل » ، الذي أسكنها في شقة فخمة في واشنطن ، على بعد عدة شوارع من منزله . وكانا يقضيان جميع عطل نهاية الأسبوع في نيويورك حيث كان « كرانديل » يمتلك شقّة رائعة .

وسألته بلهجتها الجنوبية الفاترة :

ـ ماذا تريد ؟

ـ أريد أن تستقلّي السيارة وأن تتوجّهي حالاً الى نيويورك . إذهبي الى الشقّة و . .

وتذمّرت قائلة :

ـ لا أستطيع الذهاب الآن الى نيويورك ، فلديَّ موعد بعد ساعة لنتف الشَعْر .

وجَلْجَل « كرانديل » قائلا :

ـ فليذهب نَتْفُك الى الشيطان ! سوف تفعلين ما أقوله لك ، وبدون إضاعة دقيقة واحدة ! ألا تذكرين اللوحة فوق الموقد ؟

ـ الكثيرة اللمعان ، كما لو أن أحداً تبوَّل عليها ؟

ـ هي بعينها .

وكانت الكثيرة اللمعان صورة لجاكسون بولوك ، كان المؤمِّنون قد قدروها بثلاثمئة وخمسين ألف دولار .

ـ واللوحة ، الى يسار التلفزيون ؟

ـ ذات العين وسط الوجه ؟

ـ أجل (وكان المقصود ،لوحة لبيكاسو)عليك أن تنتزعيها كلتيهما وكذلك اللوحة التي تمُثِّل المرأة الطّيبة المُعلّقه في الغرفة مُقابل السرير . (ولم يجد « كرانديل » ضرورة لمزيد من التوضيح لتحديد هوية لوحة « موديغلياني ») وأن تحضريها الى هنا بأسرع ما تستطيعين .

وسمع « كرانديل » حفلةً من الاحتجاجات ، عند نهاية الخط .

- اسكتي وسافري فوراً .

وعلّق السمّاعة وركّب رقماً ثانيا . وكان تلك المرة يوّد التحدّث مع عميله العقاري عند « دوغلاس ألمان » في نيويورك .

وبعد بضع دقائق ، كان يعود الى مكانه ، وقد بدا عليه الارتياح ، وسط زملائه في مجلس الأمن القومي .

***

كان ضيق مكتب رئيس بلدية نيويورك يُشكّل مُفارقَةً غريبة مع اتساع المدينة التي كان يدير شؤونها .

وكان عدد كبير من السكرتيرات ، في حجراتهن الزجاجية في منهاتن ، يتصرّفن بمساحة أكبر . وكان « أب سترن » يجلس الى طاولة من خشب الورد ، وكان يتأمل صورة سلفه الشهير « فيوريللو لاغورديا » ، ويحاول خنق الغضب الذي كان يتأجّج في قرارة نفسه .

وعلى غرار الرئيس ، كان يبذل جهده للقيام بأعباء منصبه ، كما في الظروف العاديّة .وكان آخر ما قام به في هذا الاتجاه إستقباله القفير الطانّ للصحفيين المعتمدين لدى القصر البلدي ومحاولته أن يُفسرّ لهم إجراءات رفع الثلج من شوارع نيويورك . وما كاد آخر مخبر يخرج ، حتى أدخل الزائر الذي كان ينتظره .وكان مديرا لموازنة البلدية .

وكان قد صرخ في وجه الموظف الخجول :

- ماذا تريد ؟

- يا صاحب السعادة - إن مدير الشرطة يرغب في تجنيد جميع قوى الشرطة من أجل قضية عاجلة ، لا أدري ما نوعها .

- حسنا ، فلْيجنّدها !

واحتجَّ مدير الموازنة قائلاً :

- إن هذا يعني أننا سوف نُلزَم بدفع الساعات الإضافية .

- وبعد ؟ فلْتدفعْ !

وكان « سترن » قد بلغ ذروة الغضب .

- أيها الربّ يسوع ! هل تدرك ، سعادتك ، تأثير ذلك على ماليّتنا ؟

- إن هذا لا يعنيني ! من أجل السماء ، أعطِ مدير الشرطة ما يطلب .

وتمتم المحاسب ، وهو يفتح حقيبة المستندات قائلاً :

- حسنا ، حسنا ، ولكن في هذه الحالة ، ينبغي ان توقّع لي إذنا بذلك .

وانتزع « سترن » الورقة من يدي الموظف ووقع إمضاءه بسرعة ، وهو يهزّ رأسه وقد بدا عليه الوجوم . وكان يفكّر : إن آخر رجل على وجه البسيطة ، الأخير حقاً سيكون بيروقراطياً .

وبعد عشر دقائق ، كان قيّم المدينة العجوز يمتطي طوّافة مع خبير واشنطن « جرمي أوغلثورب » ، للقيام باستكشاف جوّي لطرق إخلاء نيويورك .

وكان مدير الشرطة « بانيون » والملازم « ولش » قد جلسا على المقعد الخلفي . وما ان قذفت الدوّارات فقّاعة زجاج الوقاية عبر السماء ، حتى شعر « سترن » ... قلبه العجوز . كانت مدينته تستولي عليه . كانت نيويورك هناك تحت قدميه وكأنها بابل تلتمع تحت أشعة الشمس ، رائعة ، مُرتجّة ، عُدوانيّة بأبراجها المُدوِّخة المتدفّقة كالطواطم ، وأرصفتها التي كان يُميّز فوقها التجمعات المُتعدّدة الألوان ، وشِعبها المستقيمة التي كانت تنقل أمواج سيارات التاكسي الصفراء ، والباليه المائي من المراكب الراقصة حول مانهاتن ، وهي تمخر الزَبَد . هذه هي مدينته وعائلته وجماعته ، التي كاد يسمع ضجيجها . كلا ! إن هذا غير ممكن ، غير ممكن أن يذهب كل ذلك بضربة واحدة . وانتشله صوت خبير واشنطن من رؤيا الرعب تلك .

وكان « اوغلثورب » يعلن :

ـ إن المترو سيثير مشكلة عويصة ، إلاّ اذا وجدنا وسيلة لإخلاء الناس دون أن نعطيهم سبب ذلك .

وصاح « سترن » بأعلى صوته :

ـ دون أن نعطيهم السبب ؟ هل وقعت على رأسك ؟ إنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً في هذه المدينة ، دون أن تشرح أسبابه للناس . هل تعلم كيف تجري الأمور هنا ؟ إذا ردت استنفار المترو . فعليك اولاً إخطار رئيس نقابة السوّاقين بأن جماعته يجب ان يعملوا ساعات إضافية ، فيقال له : هناك حالة عاجلة . وسيسأل : ما هو نوع هذه العجلة ؟ ثم يقول لنا : انتظروا ريثما أُعْلِم زميلي في نقابة مستخدمي البلدية ، وهذا بدوره ينبغي ان يخطر زميله في نقابة الاطفائيين . وهكذا دواليك ، هذه هي نيويورك ، يا سيد « أوغلثورب » .

وكانت الطوّافة ، بعد أن غلّت بين قمم « وال ستريت » ، تنطلق فوق رأس « مانهاتن » .

وأعلن « أوغلثورب » وهو ينظر الى الاولاد يتقاذفون كرات الثلج في « بتدي بارك » ، :

ـ الحل الوحيد ، إذن ، هو الاخلاء بواسطة الطرق (وأشار بسبابته الى الأسفل) ولكن هنا ، في تلك الزاوية من المدينة ، يوشك المرء أن يتعرَّض لمشاكل عويصة . فأنفاق الطرق في مانهاتن ، ليس لها إلاّ مسلكان . وإذا كان مُعدَّل المرور الأقصى سبعمئة وخمسين سيّارة بالساعة ، وعلى كل مسلك ، وخمسة ركّاب بالسيارة ، فالمجموع لن يتجاوز سبعة آلاف وخمسمئة شخص بالساعة .

وتنهّد « اوغلثورب » ، وقد بدا جليّاً أن اتساع المشكلة قد ... اوزه .

ـ والحال أنه يوجد هنا فقط مليون شخص يجب نقلهم ، وينبغي أن تتّخذ الشرطة تدابير تعسُّفية لمنع الذعر . أعني ، يا حضرة رئيس البلدية ، أنه يقتضي أن يكون رجال شرطتك مستعدّين لاطلاق النار على الناس الذين سيحاولون الاحتيال للتملّص من صفوف الانتظار .

وقال الملازم « ولش » ، مقاطعا جفاء :

ـ في هذه الحال ، يمكنك اعتبار أنه ينبغي إطلاق النار على تسعة أشخاص من أصل عشرة .

وكانت الطوّافة قد انعطفت وأصبحت تصعد الـ « هودسون » بمحاذاة مركز « مانهاتن » .

وتابع « اوغلثورب » ، وقد بدا عليه المرح فجأةً :

ـ هنا ، لحسن الحظ ، سيكون الأمر أكثر سهولةً . فعندنا ستة مسالك في نفق « لينكولن » ومسالك جسر واشنطن التسعة واثنا عشر مسلكاً للطريقين السيّارين المؤديين إلى الشمال . وهذا ما يعطينا مُعدّلا للمرور يتجاوز مئة الف شخص في الساعة .

وكان صوت الخبير قد بُحّ وهو يحاول حجب ضجيج الدوّارات . ومع ذلك ، فقد كان أسير أرقامه وإحصاءاته وجميع السنين التي قضاها هناك في واشنطن ، وكان يُصِرُّ على البحث ، بواسطة الخرائط والناظمات الآلية ، عن حلول لمشكلة مستحيلة .

وكان « أب سترن » قد انقطع عن الإصغاء . وكان يُفكِّر : هذا الشخص يهذي . والتفت نحو مدير الشرطة ، علّه يكتشف على وجهه بارقة أمل . ولكن لم يرَ على ملامح صديقه القديم إلاّ انعكاس يأسه بالذات .

ـ إن إخلاء هذه المدينة ضرب من المستحيل . أليس كذلك ، يا ميخائيل ؟

ـ مستحيل ، يا « أب » .

وتأمّل « بانيون » تراكم الأبنية الهائل فوق رقعة الأرض الضيِّقة المحاطة بالماء .

ـ منذ ثلاثين او اربعين سنة ، ربما كان ذلك ممكناً ، من يدري ؟ فالناس ربما كانوا قد برهنوا آنذاك عن انضباط . اما اليوم . . .

وهزّ رأسه بحزن لتذكّره تلك الأيام الغابرة .

ـ اليوم ، ليس ثمة وسيلة لبلوغ ذلك . فلقد تغيّرنا كثيراً .

وكان « اوغلثورب » لا ينضب ، وهو ماضٍ في التحدّث عن التدابير التي سوف يتخذها لتنظيم عبور الأنفاق والجسور .

وانتهى « أب سترن » بأن صاح :

ـ اسكت . فهذه القضية كلّها جنون محض . إننا نضيع وقتنا ، فمن المستحيل إخلاء هذه المدينة ، وسأقول ذلك للرئيس . لقد وقعنا في الشرك .

ومال الى الأمام فربّت على كتف الربّان .

ـ قم بنصف دورة ، فإننا عائدون !

ورسمت الطوّافة عربسة ضيِّقة . وانقلب منظر جزيرة مانهاتن نحو السماء ، ورأى « أب سترن » في ذلك رؤى رمزية للعالم المقلوب رأساً على عقب الذي نعيش أسرى داخله .

القسم الثامن

« يا ابناء إسرائيل وبناتها ، هذه الأرض أرضكم » .

المشهد الذي كان يجري على بعد تسعة آلاف كيلومتر من نيويورك ، كان يُقدِّم صورة مثالية عن الصفاء العائلي . وكانت حاسِّيا ، صُغرى فتيات مناحيم بيغن ، جالسة إلى بيانو ذي طاولة أفقية في مقرّ رئاسة الوزراء ، تعزف لوالدها الحاناً شفّافة من قطع « شوبان » الموسيقية . وكان ثمة ثريّا موضوعة على حافة النافذة . وكان بيغن قد أضاء بنفسه إحدى شمعاتها السبع قبل ساعة ، ليُحدِّد بدء أولى ليالي « هانوكا» ، عيد الأنوار الذي يخلِّد ذكرى استعادة القدس من قبل « يوداص مكّابه » .

وكان جالساً على مقعد من جلد ، وقد شبّك ساقيه وأسند ذقنه بيده ، مشغوفاً حسب الظاهر بالموسيقى . اما في الواقع ، فكانت أفكاره تائهة في غير مكان ، في عالم آخر . كان في قلب الأزمة التي تواجهها بلاده . وكانت قواها المسلَّحة في حالة استنفار . وكان قد استدعى، لتوِّه ، الحاكم العسكري للأراضي المحتلَّة وسفارته في واشنطن : وكانت الضفة الغربية هادئة . وعلى فرض أن الفلسطينيين كانوا على علم بالعمل المرعب الجاري تنفيذه لحسابهم ، فإنهم لم يظهروا شيئاً من ذلك . وكان التعتيم نفسه سائدا في واشنطن . ولم يرشح شيء من شأنه إطلاع الجمهور الأميركي على الأزمة الراهنة . وأسوأ من ذلك : فقد لزم المخبرون المعتمدون من قبل الإسرائيليين لدى البيت الأبيض ، الصمت نفسه .

وتوقفت عازفة البيانو الشابة ، لدى دخول والدتها الى القاعة .

ـ مناحيم ، إن الرئيس يطلبك من واشنطن .

وشاهدت « حاسّيا » وجه والدها يكْفهِرّ ، وقد وجَّه إليها ابتسامة رقيقة وابتعد بمشية مُتثاقِلة .

وبلغ بيغن مكتبه ، في أقصى البيت ، حيث كان قد أجرى ، صباحاً ، أول حديث تلفونيّ مع رئيس الدولة الأميركي . وقد استمع ، هادىء الأعصاب ، الى الرئيس يَقُصُّ عليه مفاوضاته الصعبة مع القذافي ثم يقترح عليه حلاً لإنهاء الأزمة يتلخَّص في أن الولايات المتّحدة كانت تعرض على إسرائيل ان تضمن بمظلتها النووية حدودها كما كانت في حزيران ١٩٦٧ . وكان رئيس رئاسة المجلس الأعلى للسوفيات قد قبل بإشراك الاتحاد السوفياتي بتلك المبادرة . وكان على الحكومة الإسرائيلية ، بالمقابل ، أن تعلن قرارها الفوري بسحب قواها المسلّحة وإدارتها ومستعمراتها الإستيطانية من الأراضي المحتلّة وأن تعيدها الى الحكم العربيّ .

وكان بيغن قد شحب لدى سماعه هذه الصفقة ، ولكنه حافظ على رباطة جأشه .

ـ بعبارة أخرى ، إنك تطلب مني ومن بلادي ، يا حضرة الرئيس ، أن نُذْعِن لابتزازٍ صادرٍ عن طاغية ؟

وأجاب الرئيس :

ـ إن ما أطلبه منك هو ان تقبل فقط بالحلّ الوحيد المعقول للأزمة الدولية الأكثر مأساويةً التي يواجهها العالم .

ـ إن الحلّ الوحيد المعقول هو الحلّ الذي منعنا الروس من تطبيقه هذا الصباح ، بتواطؤ بلدكم أو بدونه .

وكان الزعيم اليهودي قد تكلم ، كعادته ، بصوت متّزن لم يظهر شيئا من الصخب الداخلي الذي كان يعتصر نفسه .

وردَّ الرئيس :

ـ لو كان تدخُّلك معقولاً ، لكنت أول من اقترحه فوراً . ولكن همِّي الأساسي في هذه الأزمة ، يا سيد بيغن ، هو إنقاذ الحيوات البشرية ، والحؤول دون محْرَقَة ستة ملايين بريء من أهالي نيويورك ـ وهذا يوازي عدد اليهود الذين قتلهم النازيون ـ ومليونين من الليبيين الأبرياء ايضاً .

ـ هل تدرك أنك تطلب منا أن ندوس الأسس نفسها لسيادتنا القومية ، لنخضع لعمل إجرامي لا مثيل له في التاريخ ، من شأنه أن يُدمِّر ، حسبما قلت لي بنفسك هذا الصباح ، أسس السلام العالمي والنظام الدولي ؟

ـ إن اقتراحي لا يتعدّى مُطلقاً على سيادتكم ، يا حضرة رئيس الوزراء ، (وأدرك بيغن حنقَ الرئيس) فليس لإسرائيل أيَّ حق بالسيادة على الضفّة الغربية ولم تمارس إطلاقاً مثل هذا الحق ! إن تلك الأراضي كانت قد أعطيت سنة ١٩٤٧ لعرب فلسطين من قبل الأمم المتحدَّة في الوقت الذي أعطي فيه الشعب اليهودي دولة قومية .

ـ آسف يا حضرة الرئيس ، إن يهودا والسَّامرة لم تكونا قد وُزِّعتا من قبل الأمم المتحدَّة (وكان الإيمان يتجلّ في صوت الزعيم الإسرائيلي) إن تلك الأراضي كانت قد أعطيت ذات يوم من قبل إله أجدادنا وإلى الأبد .

ـ لا يمكنك مع ذلك ، وأنت رجل دولة مسؤول في القرن العشرين وفي العهد النوويّ الحراري ، أن تدّعي إخضاع العالم لتقليد ديني غير أكيد يرجع الى أربعين قرناً .

ـ إن هذا « التقليد الديني غير الأكيد » ، كما تسميه ، قد دعمنا وغذّانا وحفظنا وجمعنا طوال أربعة آلاف سنة . إن حق اليهودي في الإقامة على تلك الأرض ، هو حق لا يجوز التصرّف فيه ، كحق الأميركي في أن يسكن نيويورك او كاليفورنيا .

وغضب الرئيس الأميركي قائلاً :

ـ الحق في الإقامة على أرض شعب آخر . إنك لا تتكلم ، بجدِّية، يا سيد بيغن .

ـ لم أكن قط أكثر جدِّية يا حضرة الرئيس . إنك ، في الواقع ، تريد أن تخضع إسرائيل لديكتاتور تنبذه ، ديكتاتور يضع تحت البحث مبدأ وجودها بالذات . فإذا ألزمتنا بالتخلّي عن يهودا والسامرة لتخضع لديكتاتور كلِّيانيّ ، فإنك تكون ، مرّة ثانية ، قد جعلت من الشعب اليهودي شعب عبيد وتكون قد دمَّرت إيماننا بإنفسنا وبوطننا .

ـ إن إقتراحي يُقدِّم ، بالضبط ، لبلدكم مايطالب به منذ زمن بعيد ، أي الضمان الرسمي لبقائه . وبدلاً من أن يُضعف إرادتكم القومية ، فإن ذلك من شأنه أن يُعزِّزها .

وكانت الطريقة البطيئة والشديدة التدقيق التي كان يتكلم بها الرئيس ، تظهر لمناحيم بيغن الجهد الذي كان يبذله ليبقى مُسيطراً على نفسه .

ـ ضمان بقائنا ! أية ثقة تظنّ أن شعبي سيضع في ضمانكم إذا علم أن اميركا ، الأمة الوحيدة التي تقول عن نفسها إنها صديقتنا وحليفتنا ، قد أجبرتنا على التصرف ضد إرادتنا ومصالحنا وحقنا في الوجود ؟ كما لو أنَّ . . . (وتردّد بيغن لحظة في التعبير عما كان يرغب في قوله ، ولكن معتقداته كانت قويّـة لدرجة انه لم يستطع ان يكبح جماح نفسه) كما لو أنَّ فرانكلين روزفلت كان قد قال لنا سنة ١٩٣٩ : « إذهبوا الى معسكرات النازي ، فأنا اضمن حسن تصرف هتلر . » .

وشعر الرئيس بأن صبره قد تخلّى عنه . بيغن والقذافي : لقد سقط بين إرادتين حديديتين وتعصّبيين دينيين .

ـ يا حضرة رئيس الوزراء ، إنني لا أضع قيد البحث حق إسرائيل في الوجود ، بل حقها في أن تنتهج سياسة تهدف الى ضمّ أرض شعب آخر .

وساد صمت طويل . وكان الرئيس اول من استأنف الكلام . وكان صوتـه حاراً وكاد أن يكون منفعلاً .

ـ إن ميثاق الحماية الذي أقترحه عليك يضمن الى الأبد وجود إسرائيل . إنك بتنـازلك فقـط عن الأراضي العربية التي احتللتموها بقوة السلاح عام ٦٧ ، تكون قد منحت بلدك السلام وأنقذت حياة ستة ملايين نيويوركي . أما إذا أصررت ، رغم كل ذلك ، على رفضك ، فيجب أن تعلم أنني لن أتـرك مواطنيّ يُقتلون دون أن أحاول عملاً أخيراً . وسيكون الأمر الذي سأعطيه ، أشدَّ إيلاماً لنفسي من أيّ أمر سأعطيه في حياتي . وعليه فأنـي أحيطـك علماً ، رسـمياً ، يا سيّد بيغـن ، أنـك اذا لم تخلِ فوراً مستوطناتك في الضفّة الغربية ، فإن قوات الولايات المتحدة المسلّحة ستتولّى هذا الأمر .

وصعق بيغن . لقد انفجر اذن ، في وضح النهار ، ذلك التهديد باللجوء الى القوة ضد إسرائيل الذي كان يشعر أنّه يحوِّم منذ بدء حديثه مع الرئيس الأميركي . وانبثقت رؤيا غريبة من أعماق ذاكرته . لم يكن إلاّ صبيّـاً صغيراً في الرابعةمن عمره ، يرتجف خلف نافذة منزله في لودز في بولونيا ، عندما انطلق حشدٌ من الكوزاك داخل مجبرهم ، وهم يُلوِّحون بهـراوات كبـيرة كالسيوف ويطرقـون رؤوس اليهـود وظهورهم وبدوسون أجسامهم تحت حوافر جيادهم .

وقال بصوت أبحّ ، من الحزن :

ـ حضرة الرئيس ، إن إسرائيل دولة ديموقراطية . فلا أستطيع أن آخذ على عاتقي قبول اقتراحك ـ أو بالأحرى إنذارك ـ أو رفضه . إن حكومتي وحدها تستطيع ذلك . وعليه فسأدعو ، على عجل ، مجلساً وزارياً للانعقاد وسأبلغك قراراته .

وبعدما علّق بيغن السماعة ، طلب من زوجته كأس ماء . وكان يرتجف قليلاً ، فأخذ حبّـة من العلاج الذي وصفه له اطباؤه في حالات الضيق . وما كاد يضع الكأس ، حتى رنَّ الهاتف مجدَّداً . وكان هذه المـرّة وزير الداخلية .

وقال له بعد أن استمع اليه لحظةً :

ـ أهول ! امنعهم من المرور . لا يمكننا أن نـدَعهم يفعلون ذلك ، لا سيا هذا المساء !

***

يهبط الليل باكرا في شتاء نيويورك ، وكان الغسق قد بدأ يلف المدينة ، في ذلك الاثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول . وكان الرجال الأربعة الكامنون وراء نافذة مخبيء الأشياء المسروقه « بنى موسكوفيتز » يميِّزون بصعوبة ، بواسطة مناظيرهم ، ملامح الزبائن الذين كانـوا يدخلـون الى « بروكلين بار أند غريل » ، عند زاوية الشارع .

ودمدم « أنجيلو » :

ـ عجبا ، إذا لم يُسرع هذا العربى ابن القحبة ، فسوف نضطَر إلى زجِّ « بنى » في السيارة مع كـارتون « التمباكس » . (وكان « كارتون التمباكس » هذا أسلوبا قديما تستعملـه الشرطـة يتلخص بإخفاء هوّية المخبر بإلباسه غطاء لا يبرز منه إلا العينـان ، وكان هذا الغطـاء من كارتـون علب « التمباكس » كان له ثقبان) .

ونظر « بنى » الى ساعته ، وكانت تشير إلى الخامسة تقريباً . وتمتم قائلاً :

ـ لا بُـدَّ أنه سيحضر . فهو دائماً هناك عند الساعة الخامسة تماماً .

ودمدم أحد الأشخاص خلف « أنجيلو » :

ـ أعرف شخصـاً يوشك أن يوقع على نفسه الملامة ، إذا لـم يصل ذلك العربي .

وفهم الشرطي الإشارة فالتفت . وكان مدير مكتب التحقيقات الاتحادي المساعد في نيويورك ، هو الذي تكلَّم . وكان رئيسه « هـارفي هودسـون » ، قد أرسلـه الى هنـا لقيادة عملية إلقـاء القبض على العربي ، منذ أن اطَّلع مركز القيادة على تصريحات مخبيء الأشياء المسروقة . وكان عدَّة شرطيين آخرين يروحون ويجيئون امام مكتب السكرتيرة ذات الأهداب الـمُستعارة ، التي كانت تضرب الأرض بقدميها وهي تستمع الى « الترنزيستور » يبثّ أفضل الأغاني واكثرها رواجاً ، غير مكترثة بما يجري حولها .

وكان تعاون مخبيء الأشياء المسروقة تامّـاً . وكان زبونه العربيّ ، الذي كان يأتي كلَّ مساء لتناول « السفن أند سفن » في « بروكلين بار أند غريل » عند زاوية الشارع ، قد اتَّصـل به بواسطـة ساقـي الحانة . وكان قد استأجر منه مسدساً عيار ٣٨ مجهَّزاً بكاتم للصوت ، أعاده اليه في اليوم التالي دون أن يطلق منه النار . وبعد يومين أعلم مخبيء الأشياء المسروقة أنـه كان بحاجـة الى «بلاسـتيك» وإلى بطاقتي اعتماد حديثتين مع أوراق الهوية العائدة لهما . وقد حسبه « بنى » رجلا ثملا . وكان قد طلب منه مئتين وخمسين دولارا ، وهو سعر يفوق التعرفة العاديّـة ، وحصل على ذلك . ثم طلب منـه العربـي ، يوم الأربعاء من الأسبوع الماضي ، عملاً « على القياس » يتلخَّص في سرقة بطاقة ، يوم الجمعة التالي ، من شخص في الثلاثين من العمر ، ربع القامة ، كامد اللون ، غير أشقر ، وكان «بني » قد ابتزَّ منه لقاء هذا العمل خمسمئة دولار .

وكانت هذه المعلومات قد حملت المسؤولين في مركز القيادة على اتخاذ رد فعل سريع . فقد كان من غير المحتمل ، في الواقع ، أن يكون العربي المذكور قد استأجر لنفسه الشاحنة الصغيرة من عند « هرتز » بل كان يبدو أنه وسيط . ولكنـه وحده كان يستطيع ، بلا ريب ، أن يقود الشرطة الى ذلك الـذي كان قد

استأجر الشاحنة . وقد ارتأى مكتب التحقيقات الاتحادي ، في باديء الأمر ، التشدّد في استجواب ساقي الحانة ، ولكن مدير الشرطة ورئيس المفتشين عارضا ذلك ، فتسليط الجهد على الساقي كان يوشك ان « يُشبِّك » المشرب ، وقد تتسرّب بعض هذه الأنباء الى العربي فيتوارى عن الأنظار ، ويؤدي ذلك الأثر الناجح الى الفراغ . ولذلك كان الأفضل نصب شراك .

ولم يكن باستطاعة أيٍّ من روّاد « أونيون ستريت » أن يرتاب بحدوث شيء غير اعتيادي ذلك المساء في الشارع . ومع ذلك ، فقد كان الحيّ مليئاً بالمفتّشين ورجال الشرطة . وكان بعضهم ، وقد تنكّروا بثياب عمال شركة كهرباء « كونسوليدايتد اديسون » ، يشقّون الأسفلت بواسطة المِطرقة ، وكانوا يرتدون العفريتات الزرق ، ويذهبون ، كل بدوره ، الى المشرب لابتلاع جرعة من البيرة . وكانت شاحنة صغيرة ، مَطلية بشعار مُصلّح أجهزة تلفزيون « كوينز » ، واقفة خلف المحل . وكان أربعة مأمورين يراقبون ، من الداخل ، مدخل الخدم العائد للمشرب . وبعيداً عنه كان ثلاثة زنوج ، يظهرون بمظهر مُدمني مخدّرات يبحثون عن الكوكايين ، يرصدون ، وهم على استعداد لإحباط كل محاولة هرب عن طريق الجادة السادسة .

وحتى الساعة ١٧ و٥ دقيقة ، لم تكن هناك اية علامة تشير الى العربي . وكان « أنجيلو » وراء مِنظاريه قد بدأ ينزعج . ولم يكن مدير مكتب التحقيقات الاتحادي اقلّ منه جزعاً ، فانتهى به الأمر إلى أن خاطب الشرطي المولَّج بالحراسة إلى جانب الهاتف :

ـ أطلب مركز القيادة وقل لهودسون إن من الأفضل اقتحام المشرب والقبض على الساقي .

وفيما كان الشرطي على أهْبة التنفيذ ، أعلن مخبّيء الأشياء المسروقة :

ـ ها هو !

وأشار إلى شاب نحيل يرتدي سترة من جلد الخروف كان يمرّ تحت اللافتة الوامضة لبيرة « بادوايزر » ولم يلبث أن توارى داخل مشرب « بروكلين بار أند غريل » . وفي الداخل رنَّ صوتٌ في مُتنصّت الأذن المصغّر لدى جميع رجال الشرطة المنتشرين بين رواد المشرب . وقد استطاعوا ملاحقة العربي حتى وصل الى كرسيه الصغير . وعلى بعد ثلاثة مقاعد ، كان شرطيّ يرتدي سترة عسكرية قديمة وياقة مبرومة ، يُدير جَذلا ، كأساً من البيرة بين يديه . لقد كان « جاك راند » . ودخل « انجيلو » إلى المشرب واستدار ببطء حول الطاولة . وتوقّف خلف العربي الذي كان قد بدأ يشرب بهدوء كأسه من « السفن أند سفن » . وغرز بين أضلعه أنبوب مسدسه عيار ٣٨ ، بدون خشونة ولكن بحزم ، شاهراً أمام عينيه شارته كمفتّش في الشرطة ، وقال بصوت منخفض :

ـ الشرطة ، أخرج معي . نوّد التحدّث اليك .

وقبل أن يجد الوقت للتردّد ، كان راند والعمّال الثلاثة المزيّفون قد قفزوا وأحاطوا به .

وتلعثم العربي قائلاً :

ـ مهلاً ، ماذا جرى ؟

ـ سوف نقول لك ذلك في المفوضية .

***

كانت سيماء اللواء « بارتران » ، كالعادة ، عصيَّةً على الفهم . على أنّه كان يتفجَّر في قرارة نفسه .

وكان « بول هنري ده سار » يتفحَّص منذ أكثر من ساعة صور الفيزيائيين والإرهابيين العرب المنشورة فوق مكتب مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية . والحق أنه لم يكن قد تعرّف بعد على أي وجه مألوف . وكان اللواء لا يرتاب في نيّته الحسنة . فقد كان الرجل مستعداً لكل شيء للتخفيف من نتائج مشاكله الليبيَّة . وأثناء الرحلة في السيارة ، كان « برتران » قد اقتنع ببراءته من الاشتراك في قتل زميله «ألين برفو» «فمصرع العالم المذكور ، وكذلك الطريقة التي نصب بها الليبيون الشرك « لسار » نفسه ، لا بُدَّ ان تكون من صنع استخبارات القذافي ، وقال في نفسه : لقد تقدَّم هؤلاء الأشخاص . ويمكن ان تكون المخابرات الروسية قد أعطتهم بعض الدروس . وينبغي التثبّت من ذلك بعد الانتهاء من قضيتنا .

والتفت نحو المهندس الذي كان يدرس مرَّة ثانية كل صورة .

- لم تتعرَّف بعد على أيّ شخص ؟

- كلا

- طُزْ ، اذن .

وكانت لفافة «الجيتان» قد اهتزّت بين شفتي اللواء . ولقد كان متأكداً من أن جميع المستندات المتوفِّرة ، كانت هناك على مكتبه . ولماذا لا تحيل اليه الوكالة المركزية للاستخبارات كل ما كان بحوزتها ؟ اما « الموسَّاد »(*) فقد زوَّدته حتما بجميع الصور المتوفِّرة لديها : فقد كان « برتران » يرعى منذ حوالي ثلاثين سنة أحسن علاقات الثقة والصداقة مع دائرة الاستخبارات الاسرائيلية . لقد كان مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية حائراً : هل كان عليه أن يُنظِّم صورة نموذجية للعالم الفلسطيني ؟ إنه لم يكن يثق مطلقاً بتلك الوسيلة .

وانقطع عن ذرع مكتبه ورفع سمَّاعة الهاتف .

وكانت التجربة قد علَّمته أنه يجب البحث بين أقرب الناس إليك ، عن الأشخاص الذين يخفون عنك بعض الأشياء في أدق القضايا .

وكان عليه أن يؤلّف عدة أرقام حتى تمكّن من الاتصال بمدير دائرة حماية سلامة البلاد ، « بول روبير ده فيلبريو » ، الذي كان يتعشّى في المدينة ذلك المساء .

وسأل زميله :

- قل لي أيها الصديق العزيز ، ألا يمكن ان تتضمّن محفوظاتك بعض المعلومات عن أشخاص عرب ، فلسطينيين على الأرجح ، متورّطين في قضايا نووية ، وغير متوفِّرة في ملفَّاتي بالذات ؟

وعقب ذلك صمتٌ مُتحيِّر جعل برتران يبتسم .

وأجاب أخيراً « فيلبريو » :

(*) الاستخبارات الإسرائيلية .

ـ أخشى أن لا ينبغي أن اتصل بك ثانية .

ـ لا تحمَّل نفسك هذا العناء ، أيها الصديق العزيز . اتّصل ، بكل بساطة ، بالأمين العام لقصر الأليزة واطلب منه إذن رئيس الجمهورية بأن ترسل لي حالاً كل ما بحوزتك .

وبعد نصف ساعة كان جنديّ درّاج يحُضر من شارع « سوسّه » حقيبة صغيرة الى مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية ، وأخرج منها غلافاً ضخماً مختوماً بالشمع مع العبارة التالية على اللِبْد الأحمر :

« إن مضمون هذا الغلاف يجب أن لا يُفشى إلا بناء على إذن رئيس الجمهورية الصريح ، او في حال غيابه عن ارض الوطن ، إذن رئيس الوزراء » . وكان داخل الغلاف التقرير المُسهب ، الذي بقي سرِّيا ، عن المحاولة الفاشلة التي قام بها الأخوان دجاني لسرقة البلوتونيوم من « كداراش » وطردهما من فرنسا .

واطلع « برتران » و « سار » ، على صورة وليد دجاني .

ـ هل هذا هو رجلك ؟

وشحب المهندس وقال :

ـ أجل ، هذا هو .

وعرض عليه « برتران » عندئذ صورة كمال .

ـ وهذا ؟

وتفحّص « سار » الصورة بانتباه .

ـ إنه يوحي إلـيَّ شيئاً ما . . يبدو أني شاهدته في مختبر الاستخراج .

ـ وهي ؟

وكان « برتران » قد قدَّم له صورة ليلى .

ـ كلا . لم يكن معنا نساء قط .

وأسرع مدير دائرة التوثيق ومكافحة الجاسوسية نحو جهاز الهاتف وأمر :

ـ أعّدوا خط بلينو(*) مع « لانجلاي » (* *) وأعلموا صديقنا « هوايت هاد » أن صور الأشخاص الذين يبحث عنهم أصبحت في طريقها إلى واشنطن .

* * *

لم يكن بوسع أي عالم اجتماعي أن يحشد مجموعة عينات أكثر تمثيلا للمجتمع الإسرائيلي من الجمهور المتباين الذي كان يتراكص ، بمساعدة الليل ، نحو حائط المبكى في القدس ، فقد كان هناك أساتذة فيزياء من « تسنيكون » في حيفا ، وعمال أرصفة يمنّيون من مرفأ أشدود ، ونجّارون من الناصرة ، ونحّاتو

(*) جهاز لنقل الصور

(* *) مقر مركز القيادة العامة للوكالة المركزية للاستخبارات .

الماس من شارع «ديزنغوف» في تل ابيب، وفلاحو المزارع في النقب والجليل. وكان يوجد أيضاً مُغنّ فولكلوري وحجّة عالميّة في سرطان الدم وربّان ومضيفتان من الشركة الوطنية الإسرائيلية «العال». حتى أنه كان يوجد وزير سابق في حكومة بن غوريون. ولقد تجمّعوا من جميع أنحاء إسرائيل، حاملين أكياساً على ظهورهم أو حقائب «سمسونايت» العصرية او حقائب سفر قديمة مربوطة بحبال، وكان بعضهم ينقل القيثارات والمجارف والرفوش. وكان بعضهم يأتون مشياً على الأقدام والبعض الآخر في سيارات خاصة او في حافلات حمراء تابعة لشركة «أغد» او في شاحنات مزارعهم.

وكانوا جميعاً ينتمون الى «غوش امونيم» ـ كتلة الايمان ـ تلك الحركة التي كان مُناضلوها قد نثروا مستوطناتهم «المتوحشة» عبر الأراضي التي أخذتها إسرائيل من الأردن أثناء حرب ١٩٦٧. وكان يجمعهم شَغَفٌ مشترك ورغبة حارّة واحدة في أن يتحقق الوعد الذي قطعه الله لإبراهيم: «سأعطيك وذرّيتك من بعدك الأرض التي انت اليومَ غريب فيها، أرض كنعان».

وكانت تلك الكتلة قد تأسّست غداة نصر «كيبور» (حرب رمضان) المرير عام ١٩٧٣، وكانت تضم تحت رايتها جيلاً جديداً وطرازاً حديداً من الصهيونيين، قَدِم بعضهم من الخارج وكان بعضهم يتمتّع بأوضاع ميسورة، ولكنهم كانوا جميعاً مصمِّمين على أن ينفخوا من جديد في نفس إسرائيل روح الريادة التي فقدتها كما كانوا يعتقدون. ولا يهمّ ان يكون العالم اجمع والعرب وحتى أغلب مواطنيهم قد شجبوا عملهم وحكموا باللاشرعية على مستوطناتهم: فالرجال والنساء المُنتمون الى حركة «غوش اومونيم» كانوا متمسّكين بدينهم حتى الأعماق، وكانوا يعتبرون أنفسهم أولاد «الخلاص»(*) وأنهم، باستعادتهم كل قطعة من أرضهم القديمة، إنما ينفذون وصية دينهم الأكثر قدسية.

واجتاز رتلهم باب يافا ومرَّ تحت جدران برج داود ذات الفُتُحات داخلاً الى المدينة القديمة، وكانوا يستعدُّون لإطلاق إحدى تلك العمليات الخاطفة التي اشتهروا بها، في الوقت الذي كانوا يجهلون كل الجهل الإنذار الليبي الذي كان يتهدّد نيويورك وبلادهم. وكان كل تفصيل قد حُسِب بعناية فائقة في سبيل الحصول على أقصى قدر من التأثير السياسي والعاطفي والإعلامي. وكان اسم العملية المرموز، ذلك الأمر القديم الموجّه من النبي «أوزيه» إلى الشعب اليهودي: «شوفاه اسرائيل»: «إرجع الى بيتك يا إسرائيل» وكان منتصف الليل قد اختير موعداً للعملية لتذكير هؤلاء الرجال والنساء بمثل جدودهم الذين خرجوا، وفقاً لما ورد في تاريخ فلسطين، من غياهب الظلمات ليزرعوا مستوطناتهم على أرض آبائهم. وكانت عملية «شوفاه إسرائيل» ستضيف أربع عشرة نقطة إعمار جديدة عبر الأراضي العربية المحتلّة.

وكانت نقطة انطلاق تلك العملية، هي الجدار الغربي لمعبد سليمان، جدار المبكى، الرمز الصوفي الذي كان اليهود يتطلّعون إليه خلال الفي سنة من الشتات، بحثاً عن الأمل والعزاء.

وكان المسؤول عن «شوفاه إسرائيل»، يعقوب ليفين، يقود سيارته الجيب حتى وسط الساحة.

وكان يشبه بقامته الطويلة وشعره المجعّد الناعم وجبينه الطَلْق ومظهره الجانبي الطويل والمستقيم، محارباً اشورياً، كما يبدو من خلال نقوش بابل القديمة، وكان، وقد بلغ الثانية والثلاثين، قد أصبح وجهاً أسطورياً. وكان قد أبصر النور في نيسان ١٩٤٨ في مزرعة «كفراتزيون» جنوبي القدس، قبل

(*) خلاص البشر.

قليل من سقوطها ، بعد أن اكتسحها الجيش العربي خلال حرب الاستقلال الإسرائيلية . وقد التقطه من بين الأنقاض أحد الجنود البدو . ثم أعيد إلى الإسرائيليين ونشأ في مزرعة أخرى . وقاد ، اثناء حرب ١٩٦٧ ، وكان قد بلغ التاسعة عشرة من عمره ، سريّة من المظلّيين واستعاد المزرعة حيث كان أهله قد ماتوا . وكان أحد زعماء جبهة الايمان ، وإلى جانبه كانت تقف « روث نافون » السكرتيرة المساعدة للحركة . وكانت فتاة طويلة ، ذات مظهر لطيف وملامح رقيقة وشعر طويل مُذهَّب ، وكانت تشبه جسدياً « كاترين دونوف » . وخلافاً لـ« لفين »لـم تكن « روث » من مواليد إسرائيل . بل ولدت في الجزائر الفرنسّية(*) حيث نشأت في جو الحرب المفعم بالخوف والعنف .

وفيما كان المستوطنون يتجـمّعون حول « لفين » ، كان هذا الأخير يوصل أسلاك مكبّر للصـوت نقّال بحاشدات سيارته « الجيب » ، وفجأة اخذ أحد الأشخاص ينفخ في « الشوفر » وهو قرن كبش كان كهنة يشُوع قد استعملوه لدكّ اسوار أريحا .

وأطلق الجمهور صياحاً ، ترحيباً بالعويل العنيف الـذي كان صداه يتـردد في أرجـاء الساحـة . وتقدَّمت عندئذ من الجيب جماعة من المستوطنين يرتدون بنـاطيل الجينـز وينتعلـون الصنـادل ، وكانـوا يرقصون «الغرندل»(**) ويضربون الأرض بأقدامهـم على إيقـاع «هـورا» مَرِحـة. وفي وسـط الدائرة المُدوَّمة ، كان يتقدَّم عجوز نحيل يعتمر قبعة مستديرة ذات حافة عريضة ويرتدي سترة طويلة سوداء رثّة . وكان يمشي بخُطى متردِّدة ، دافعاً خُفاً أمام الأخر ، بمشيةٍ مهتزّة ، وكان يدعمهُ مُناضلان شابان كانت أكتافهما العريضة تزيد من مظهره الهشّ . وكانت لحِيته الطويلة الكثّة تضطرب وفقاً لإيقـاع همهمات الشكر التي كان يتفوّه بها . وكان منظره يحمل على التفكير بناج تائه من عالم اختفى الى الأبد في أفران الغاز في « تربلنكا » و« اوشويتز » ، أو ببطرك لطيف من أحد مجابر اوروبا الوسطى ، يُوزِّع ، عند المساء ، الحكمة والرفاه على أحفاده .

كان الحاخام « زفي يهودا كوك » كل شيء ما عدا ذلك . لم يكن مناحيم بيغن ولا أريه شارون ولا موشى دايان ولا أيّ وجه من الوجوه الأسطورية لإسرائيل الحديثة ، هو الذي كان يُسيِّر عمل مستوطني « غـوش امونيم » ، بـل كان ذلك الحاخـام التسعيني والرسـول العجيب لليهـودية المناضلـة وخلف المحاربين المنتقمين للعهد القديم حيث كان وجد ينبوع رؤياه المسيحية وتبريرها . وقد كان هو مؤسس تلك الحركة وقوتها الروحية المحركة ، وهو الذي كان قد أرسل أتباعه يطالبون بتملك الأراضي العربية ، وهو الذي كان قد أعطى كياناً لتلك الفلسفة التي كانوا تحت شعارها قد عرَّضوا سـلام بلادهـم وسلام العالم للخطر وتحّدوا البلاد العربية المجاورة لإسرائيل وثلاثة رؤساء للولايات المتحدة والإدارة الجماعية للاتحـاد السوفياتي .

وكان الحاخام كوك قد اكتشف رسالته النبويَّة في الصفحات الجليلة لتلمود بابل والقدس وكتابات أنبياء إسرائيل وحكمائها الذي كان قد كرَّس لهم حياة دراسية بكاملها . وعلى غرار أغلب الأفكار التي من شأنها إلهاب الجماهير ، كانت أفكاره تستمدُّ قوتها من بساطتها المُتناهية . فالله كان قد اختـار الشعـب اليهودي ليكشف للبشرية ، عن طريق النبوة ، جوهره وصنيعه . وكان قد أعطى الى ابراهيم والى اولاد إسرائيل أرض كنعان ، ليكرِّس طبيعة الرباطذي الامتياز الذي كان يجمعهم ، حتى تتفتّح الروح اليهودية

(*) اي قبل تحريرها ونيلها الاستقلال

(**) رقصة ريفيّة .

ويُزوِّد شعب الله بالغذاء الروحي والأرض الذي سوف يحتاجه لتأدية المهمة التي فُرِضت عليه .

وتأمّل العجوز المُلْهَم الوجوه المُنتَشِية التي كانت تحيط به . وكان يشعر أن نفسه تحُركها نفحة الأنبياء وشعلة اولئك الذين كانوا قد اضطلعوا ، كما يفعل هو نفسه اليوم ، بالمسؤولية الرهيبة لقيادة الشعب اليهودي على السبل المعتمة والصعبة التي كان الله قد رسمها له .

وصاح كوك في البوق الذي كان يمسكه له لفين قائلاً :

ـ يا أبناء إسرائيل وبناتها ، يا إخوتي واخواتي،ستنفذون هذه الليلة ، باسم الشعب اليهودي بكامله أحد الواجبات الأكثر قدسية في عقيدتنا . فبعد الفي سنة من الغياب ، سوف تُكرِّسون رجوعنا الى قطع جديدة من الأرض المقدَّسة التي أوصى بها الله آباءنا .

وتوقّف ليستعيد أنفاسه :

ـ لا تدعوا احداً يخدعكم او يضلّلكم . هذه الأرض أرضكم . إن الذين كانوا قد أقاموا عليها ، انما فعلوا ذلك اغتصاباً لحقوقكم . (ورفع يداً شبيهة بالرق باتجاه السامرة)يجب ان يعرف الجميع ، مرةً نهائية ، انه لا يوجد هناك أرض عربية ولا كيان عربي . إنها أرض إسرائيل ، ميراث آبائنا الأبدي . وحتى ولو جاء آخرون وأقاموا عليها بغيابنا ، فاننا لم نتنازل عن روابطنا بها وحقوقنا فيها ولم ننقطع عن فضح استيلاء الغرباء الظالم وغير الشرعي على ترابنا .

وقاطع النبيّ العجوز نفسه من جديد . وقد أثارت الحضور رؤى هذا العجوز ، مستنفدا قواه الأخيرة في سبيل تحريض تلامذته على تنفيذ حلمه المُقدَّس . وبالنسبة الى « لفين » ، كان الحاخام « كوك » يبدو ، تلك الليلة ، وكأنه « مبعوث المسيح الآتي أخيراً ليعلن بعث إسرائيل » .

واستأنف الحاخام العجوز قائلاً :

ـ دعوا أولئك الذين يريدون فرض سلام الأوهام في الشرق الأدنى ، دعوهم يحاربوننا . تأملوا كلمة النبي « حزقيال » :«سوف أخلِّصكم من اولئك الذين سيثورون ويتمرّدون عليّ . وسوف أطردهم من الأرض التي اغتصبوها ولن يضعوا أقدامهم في بلد إسرائيل ! » . وإذا ما كان أعداؤنا يريدون السلام في الشرق الأدنى ، فليحترموا اولاً الشريعة الإلهية (وأرهق رئتيه صارخاً) يا أبناء إسرائيل وبناتها ، هلمّوا لنصرة الحق ! (ورفع ذراعيه) هلمّوا وتدثّروا بالمجد ! هيّا ، أقدموا باسم جميع إخوتنا المُشتّتين ! أنتم الليلة أداة مشيئة الله ووسائل نقل نبوءته !

وفيما كان الرجل العجوز يتهاوى برفق على مقعد الجيب ، أطلق الجمهور صياحاً مؤثراً . فدفعت عندئذ النداءات الثاقبة الصادرة عن صفّارة يعقوب لفبين ، المستوطنين الى سياراتهم .

وفيما كانت القافلة ، بقيادة لفين وروث ، تغادر أسوار القدس القديمة وتتغلغل في وادي « سدرون » ، كان ضابطان شابان من الجيش الاسرائيلي يستنفران بالراديو مركز قيادة وحدتهما ، وقد سأل احدهما رفيقه :

ـ هل تعلم أين تنتظرهم قواتنا ؟

ـ على مشارف أريحا .

***

كانت ليلى دجاني تردد ، وقد عيل صبرها : لقد تأخر ! وكانت تشعر بأن عشرات الأنظار كانت ملصقة بها كالعلقات . وكانت الساعة السابعة والنصف مساء وكان الشارع الثاني عشر الغربي مسرحاً لطغمة من الفتيان اللاإجتماعيين الخارجين رأساً من « اورانج ميكانيك » واللواطيين المتمنطقين والمنتعلين جزمات الجلد ، وهم يعرضون أنفسهم لقاء قطعة سندويش أو جرعة كوكايين .

وأخيراً شاهدت ليلى أخاها كمال يخرج من حانة « بيتزا » ، وقد غاصت عمرته ذات المربعات حتى أذنيه وارتفعت ياقة قميصه الجلدي وتأبط علبة كرتون ملأى بالبيتزا . وانزلق كمال الى جانب شقيقته وشرعا ينزلان الشارع الثاني عشر الغربي ، وسأل :

- هل كل شيء على ما يرام في « دوبس فرّي » ؟

وأومأت ليلى برأسها إيجاباً .

- غير أن وليد عاد الى الشرب . وقد ابتاع كمية من الوسكي هذا الصباح .

وضحك شقيقه هازئاً ، وقال :

- دعيه يشرب . فلن يستطيع إزعاجنا بعد الآن ، ولا ريب أنه ارتاح لأنه لم يعد عليه ان يتأمل دميته .

وكان كمال ينظر الى البضائع المعروضة في المخازن الجنسية التي كان يلتحم أمامها جمهور صامت من المستخدمين الصغار في ناطحات سحاب مانهاتن . واستدرج نظرهُ العينين الفحميتين لمراهقة ترتدي تنّورة قصيرة ، كانت تعرض جسدها النحيل في ظلّ باب احد المشارب . ورشقها بابتسامة . وكان قد امتلكها قبل بضع لحظات مقابل خمسة وعشرين دولاراً . وكانت مضاجعته لها آلية وعلى عجل وخلافاً لجميع قواعد الاحتراس التي تعلّمها في طرابلس . وكان يقول في نفسه ، بعد أن انقضّ عليها كالحيوان ، قد تكون هذه المرّة الأخيرة .

وكان يُفكّر وهو يسير : حقاً ، إنني أكره هذه المدينة . ليسوا يهود إسرائيل الذين أكره ، بل الأميركان الشبعانين ، المتغطرسين ، أولئك الناس الذين يلقون الدروس المستديمة على العالم ويحسبون أنفسهم ضمير الكون - وبصق - لماذا نتقيأهم جميعنا ؟ - سواء جماعة « بادر » الذين كان قد عرفهم في المانيا ، او اصدقاؤه في الألوية الحمراء الإيطالية ، أو الايرانيون ، أو اليابانيون القصار الغريبون الذين تدرّب وإيّاهم في سوريا - ما الذي يجعلهم مكروهين منا الى هذا الحدّ ؟

وسأل شقيقته فجأةً :

- ماذا تعملين هذا المساء ؟

- لا شيء على وجه التحديد . لقد استأجرت غرفة في الهيلتون . ولن اتحرك منها حتى الغد ، وحتى حضوري لاصطحابك .

- حسنا .

وكانا لا يزالان ينزلان الشارع الثاني عشر الغربي ، ومرّا امام دكان خردوات يقع في الرقم ٧٤ .

- ما هو الوقت الذي تشير اليه ساعتك ؟

ـ السابعة وست وثلاثون دقيقة .

ـ سوف أجدك هنا عند الساعة الحادية عشرة من صباح الغد . وإذا لم أجدك فسأرجع عند الساعة ١٠/ ١١ ثم عند الساعة ١١/٢٠ . واذا لم أجدك في كل حال ، فسألتحق بالملجأ بوسائلي الخاصة .

ووضع كمال يديه على كتفي شقيقته :

ـ ولكن ، حبّاً بالسماء ، إذا ما حدث شيء ما وأردت إعلامي في المرأب ، فيجب أن تتدبري الأمر لأكون واثقاً من ان الاتصال صادر عنك . لأنه اعتبارا من هذا المساء ، ولدى أقل صوت مشبوه ، سأفلِت جهاز التفجير الآلي .

وضمّ كتف شقيقته ، وقال :

ـ مع السلامة ، كل شيء سوف يجري على ما يرام ، ان شاء الله.

وغاب بين الجمهور ، ليقضي ليلة السهر الأخيرة بين الجُرُذ والى جانب قنبلته المزروعة في قلب المدينة التي طالما اراد تدميرها .

***

ـ نامي هناك ، ايتها الطفلة

وكان القوّاد « انريكو دياز » قد استرخى على أغطية الحرير المُذهَّب واسند رأسه وكتفيه الى جدار البرنيق الأسود ، مُباعداً ما بين ساقيه ، تاركاً ثنيات جلابيته الصقيلة تُغطّيهما حتى منتصفهما . وبفضل المسحوق الذي كان قد شمّه لتوّه ، كان يعوم بلذّة في حالة من النيرفانا وانعدام الجاذبية .

وكانت اثنتان من « بناته » تسترخيان على زاوية من السرير وتستشعران بنشوة « الماريجوانا » التي كانت رائحتها الحامزة تختلط برائحة البخور السيلاني الذي كان يشتعل في مجامر البرونز المثبّتة في الحائط .

أما « ابنته » الثالثة « جنيتا » ، فقد كانت راكعة عند قدميه ، كأنها مُبتهلة أمام كاهنها الأكبر . وكانت فتاة طويلة القامة ، نحيلة الجسد ، في العشرين من عمرها ، يرجع أصلها الى « مينسوتا » ، ويتهادى شعرها الأشقر باضطراب على كتفيها . وانزلقت الى جانبه ، وكانت شفتاها مسمّرتين في برطمة مُقطّبة ، كانت تجعلها تشبه نوعا ما « مارلين مونرو » . وكانت ترتدي بنطالاً للرقص شديد الالتصاق بالجسم ، ذا اخضرار زمرّدي كان رسكو قد اهداها اياه ـ من أموال الدعارة ـ ورافعة نهدين من الدانتيل الأسود بدون حمّالات كانت تنتزعها بنقرة بظفرها أمام زبائنها المُتلهّفين .

وسألها ريكو :

ـ هل علمت ماذا فعل رجلك من أجلك اليومَ ؟

وهزّت أنيتا رأسها .

ـ لقد افتدى سنواتك الخمس في السجن .

ـ يا حبيبي ، انك . . .

ـ ياه . لقد قابلت رجلاً . ثم عملت على سحب الشكوى .

كانت أنيتا على وشك أن تلقي نفسها بين ذراعي رجلها ، عندما نهض هذا الأخير وأمسك بها من شعرها وقلبها الى الخلف .

ـ يا لك من بلهاء ، الَمْ اقلْ لكِ أن لا تسدّدي سلاحك ابداً نحو الزبائن ؟

وتأوهت أنيتا ، وقالت :
ـ ريكو ! إنك توجعني !

وشدَّ القوّاد أكثر فأكثر .

ـ لا أريد ان يأتي رجال الشرطة وان يشخروا حول بناتي . هل فهمت !

ودسَّ ريكو يده تحت الفراش وأخرج منه مدية ذات فُرضَة للتوقيف . وارتجفت أنيتا لرَؤية النصل البّراق الذي تدفّق في الظل الخفيف . وقبل أن تجد الوقت للإتيان بأية حركة ، جعل ريكو النصل يئز على مستوى وجهها .
ـ كان ينبغي أن أشطب شفتيك .

وكان الجزاء التقليدي يوقعه القوّاد على الابنة التي تخالف التعليمات ، هو شطب فمها بالموسى .

ـ ولكن لديّ فكرة أخرى .

وترك المدية تسقط من يده ، ورفع أسفل جلابيته بحركة بطيئة ، سنتيمتراً فسنتيمتراً ، حتى كشف عن عضوه التناسلي الذي كان قد انتصب عند أسفل بطنه .

وكان لا يزال ممسكاً الفتاة بشعرها .

وقال وهو يهزّ بعنف رأس أنيتا :

ـ والآن ، ايتها البغي ، يجب أن تقولي لسيدك كم أنت آسفة لإزعاجه الى ذلك الحد .

وفي هذه اللحظة بالذات ، رنَّ جرس باب المدخل . واصبح ريكو ادكن لدى مشاهدته رجليه باللباس الكاكي المشبك والقبعة السوداء ، يقفان امام الفُتحَة .

وأشار اطولهما برأسه الى السلم وصاح قائلاً :

ـ تعالَ ، هناك مُهمَّة يجب القيام بها .

***

في القدس ، كان فجر الثلاثاء الواقع فيه ١٥ كانون الأول قد بدأ يبزغ خلف أبراج أجراس جبل الزيتون ، وكان مناحيم بيغن يُصغي ، وعيناه نصف مغلقتين خلف نظّارتيه السميكتين ، وقد بدا عليه الإرهاق ، الى سيْل اللعنات التي كان يتبادلها منذ ساعة اعضاء حكومته . وكما كان يتوقّع ذلك ، فان تهديد الرئيس الأميركي كان قد أثار اسوأ عاصفة عرفتها قاعة مجلس الوزراء وزوبعة أشد عنفاً من المناقشات التي كانت قد سبقت حرب الأيام الستة وأكثر شراسة من الاعتراضات التي أعقبت حرب « كيبّور »* وأكثر تحمساً من المناقشات التي كانت قد أدت إلى غارة « عنتيبا » . وقد ترك بيغن الأقوال

(*) حرب الغفران او حرب رمضان ١٩٧٣ .

الملتهبة تتصارع حوله ، وأخذ يحاول إحصاء انصاره بين الأشخاص الأربعة عشر الذين كانوا يتقاسمون وإياه مسؤولية حكم إسرائيل . وكما كان متوقعاً ، فان رد الفعل الأشد ضراوة على التهديد الأميركي ، كان قد صدر عن وزير الإعمار « بنيّ رانان » .

وكان المظليّ السابق قد نهض . وفيما كان يُثير الهواء بقبضتي الملاكم ، كان يُطالب بتعبئة فورية وشاملة لجميع قوى الدفاع الاسرائيلية للتصدّي لأي تدخّل اميركي فوق التراب الوطني . وكان الحاخام « اورانت » ممثل الحزب الديني ، نصيره الأكثر حماساً . اتحاد غريب ، ولكنه رمزيّ الى حد بعيد : المؤمن الصوفي والملحد غير المكترث ، الكنيس والمستوطنة،رجل التوراة المتعلق بتلك الأرض لأن الله كان قد اعطاها الى آبائه،ورجل السيف الذي كانت تلازمه فكرة سلامة شعبه . وكان بيغن يُفكّر ان ذلك الاتحاد كان يُجسِّد قوة إسرائيل .

وكانْ يُدْهِش بيغن أن يرى أن المؤيد الأكثر عناداً لاجراء تسوية مع الأميركان ، كان وزير الداخلية « أهود نيرو » ، احد الصقور الذين كان الرأي العام قد أشركهم دوما باتخاذ المقررات الحكومية الأكثر تطرفاً . وحسب رأيه ، كان ينبغي التمسُّك بتلك الفرصة لتنتزع إسرائيل من الأميركيين والسوفيات ضمانات تجعلها في مأمن من أيّ تهديد . وهذا سوف يسمح بتخفيض العبء الثقيل عن كاهل موازنة الدفاع ، الذي كان يقود البلاد نحو الهاوية ، بشكل أكيد،أكثر من القذافي وقنبلته .

وكان نائب رئيس الوزراء ، عالم الآثار الأصلع « جاكوب شامير » ، ووزير الدفاع القائد الأعلى السابق للطيران ، أريه سلومون ، يريان البحث عن حل وسط . وكان « شامير » قد عرض أن القرار المزمع اتخاذه كان من الخطورة ، بحيث كان يجب دعوة زعماء المعارضة العمالية للاشتراك بالمناقشات حتى يأتي الخيار النهائي نتيجة تفاهم قومي . على أن بيغن ما كان يود ان يقع في ذلك الشرك ، لأنه كان يعي أنه سوف يخسر بالتأكيد السيطرة على الموقف .

اما اللواء يعقوب دوريت ، القائد الأعلى لقوات الدفاع ، فقد اتخذ ، في حصّه ، موقف المنتظر الحذر ، ذلك أنه كان لا يزال تحت تأثير خيبة الأمل التي أعقبت الغاء هجومه على ليبيا في اللحظة الأخيرة . ولكن بيغن كان مقتنعاً بأنه ، بوصفه عسكريا صالحا ، سوف يكون مصمما ، اذا ما حان الوقت ، على مقاومة الأميركان .

كان رئيس الوزراء يستطيع إذن ان يعتمد على خمسة أصوات لمعارضة إنذار واشنطن ، هي أصوات كلّ من : المظليّ رانان ، والحاخام اورنت ، ووزراء المالية والشؤون الخارجية والتربية . وكان ضد رئيس الوزراء كل من وزراء الداخلية نيرو والعدل والطاقة والتجارة . وقد سجّل بيغن بمرارة ان الوزراء الثلاثة كانوا أعضاء في حزبه بالذات . وكذلك كان ضد الرئيس وزيرا المواصلات والعمل اللذان كانا ينتميان الى حزب الإصلاح ، ولما كان شامير وسلومون لم يحدّدا موقفهما ، فان الانقسام واقع حتماً في صفوف الحكومة .

ووضّح بيغن صوته لاسترعاء انتباه المجلس . وكان متأنقاً كعادته : فقد زرّر سترته وأحكم عقدة ربطة عنقه وطوى منديل الجيب بعناية . وكان محافظاً على رباطة جأشه ومسيطراً على نفسه ، كما كان عند الفجر ، عندما تلقّى أول اتصال هاتفي من رئيس الولايات المتحدة .

- إنني أحرص على تذكير كلٍّ منكم بمسؤوليتنا الأساسية نحو البلد والتاريخ : يجب ان نبقى مُتحدين ، فكلما سمح اليهود لأعدائنا او لأصدقائنا بتفريقنا ، فان النتائج كانت تؤدي الى كوارث .

وقاطع رئيس الوزراء ظهور أحد مرافقيه الذي أعلن بتلك الالفة الاسرائيلية التي كانت تُروِّع بيغن :

ـ عذراً ، يا مناشيك ـ هناك مخابرة هاتفية عاجلة للواء دوريت .

وأعلن دوريت ، لدى عودته :

ـ إن قوّاتنا لم تنجح في وقف جميع المستوطنين الذين انطلقوا تلك الليلة من القدس .

وكان الجميع يعرف المهارة التي كان يتميّز بها مناضلو « غوش أمونيم » للافلات من مطارديهم . وقال « دوريت » متأسفاً : « الظلام والظروف » . ولم يكن بحاجة لأن يقول أكثر من ذلك ـ فالحكومة كانت تعلم بأن مطاردة المستوطنين لم تكن تلك المهمّة التي تُثير حماس مجنّدي الجيش الاسرائيلي .

وتصلّب بيغن ، كاظماً غيظه بصعوبة :

ـ أيها اللواء ، إن عجز قواتنا عن إزالة مفعول عملية هذه الليلة ، هو مأساوي . وبعد بضع ساعات سوف يعيد المستوطنون تنظيم صفوفهم ويصيحون معلنين انتصارهم على الملأ أجمع . ولن يحتاج القذافي او الأميركان لذريعة أخرى لينتقلوا الى العمل .

وزايد وزير الداخلية بحدّة :

ـ يجب العمل بسرعة . إن هؤلاء المُتعصِّبين يُعرِّضون الوطن للخطر . لذلك أطلب من الحكومة أن تأمر قوات الدفاع بأن تعمد الى الإخلاء الفوريّ لجميع المستوطنات المزروعة في الأراضي المحتلّة . إن البرهان العلني لذلك التدبير لا بد ان يسمح للأميركان بالشروع بالتفاوض مع القذافي والحصول على إلغاء إنذاره ضد نيويورك . وسنرى فيما بعد اذا كان بالإمكان إيجاد بنود اتفاق يمكن ان نوافق عليه .

والتفت بيغن نحو قائد قوات الدفاع :

ـ أيها اللواء ، هل يمكن الاعتماد على الجيش لإخلاء تلك المستعمرات بالقوة ؟ جميع تلك المستعمرات ؟

ـ وهل سنعطي وحداتنا أسباب العملية ؟

ورفع بيغن حاجبيه ، محُتاراً .

واستأنف اللواء :

ـ لأنك اذا قلت لهم الحقيقة ، فانهم سيرفضون الطاعة ، ذلك ان الجيش هو التعبير عن رأي الأكثرية ، وأيّاً كان شعور الأغلبية نحو تلك المستوطنات ، فان احداً في هذا البلد لن يقبل بأن ننطلق في حرب ضد اليهود ، حتى لإنقاذ نيويورك .

ـ واذا لم نعطِ السبب الحقيقي ؟

فارتبك دوريت ورفع كتفيه .

ـ وحتى في هذه الحال ، فلن نضمن طاعة جنودنا .

وكان غريباً أن يبدو بيغن شبه مرتاح لذلك الجواب . وتَفرَّس في وجه وزير الداخلية :

ـ ألا ترى ، يا أهود المسكين ، أننا ، حتى لو أردنا ذلك ، فاننا لن نتمكن ، على الأرجح ، من التسليم أمام تهديد القذافي ، وإلا أوشكنا أن نجرَّ بلادنا الى حرب أهلية ؟

وكان قد نزع نظّارتيه وأخذ يُقلِّب إطارهما وهو يتحدث :

ـ إنني أعلم انني سوف أُتهم بأنني أنقاد ، أنا ايضاً ، الى أسطورة « حسَّادا » . ولكنني أعتقد مُخلصاً أنه لا خيار لدينا . فينبغي ألاّ نرضخ للقذافي ولا للأميركان .

وزمجر رانان :

ـ إن الأميركان يخادعون . فلن يجسروا ابداً على المجيء الى هنا . وإذا ما فعلوا ، فسوف « نفرمهم » .

وتأمّله بيغن بهيئة جليدية : ـ أودّ أن أفكّر مثلك ، ولكنني أخشى ، مع الأسف ، أن تكون مفرطاً في التفاؤل .

والتفت نحو دوريت متابعاً :

ـ ولكنني أصرّ على أن نقوم بحركة رمزية وأن تخلي قواتنا ، بالقوة اذا اقتضى الأمر ، مستوطنة « ايلون سيشم » ، التي هي مركز قيادة المستوطنين في السامرة . فهناك يقطن جميع رؤساء الحركة . والمبادرة التي اتخذوها مساء أمس تؤلف تحدّياً غير مسموح به في الظروف الراهنة . اطلبْ من سفارتنا أن تبلّغ الأميركان هذا القرار . فلربما نزع ذلك الشّعيلة لعمل ما من جهتهم .

***

أعرب « أنجيلو روكيا » عن دهشته فيما كان يدفع خارج السيارة العربيّ الذي كان قد أوقفه لتوِّه في مشرب بروكلين ، قائلاً : « إن هذا غير ممكن ، لا بُدَّ أنهم يتصوَّرون أنني أحضر لهم الخميني بالذات » . وفي ناطحة سحاب « فدرال بلازا » كان عدة شرطيّين قد اندفعوا ، وأصابعهم على زناد مسدساتهم داخل جيوبهم ، حول الرجلين مُواكبين إياهما حتى المصعد المخصّص لمكتب التحقيقات الاتحادي . وتمكّن أنجيلو عندئذ من تفحّص سجينه على مَهَل .وكان رجلاً في الثلاثين من عمره ، نحيل البنية ، ذا شعر أسود كثيف لمّاع وشارب يخفي شفتين متأنئتين وذقناً مائلاً .

ولما انفتحت الأبواب أمام الطابق السادس والعشرين كان هناك على قرص الدرج : كانتين دوينغ ومدير الشرطة بانيون ، وسالزبوري من الوكالة المركزية للاستخبارات ، وهدسون وال فلدمان وجميع رجال السلطة . وحسب روكيا نفسه ، خلال لحظة ، نجماً كان ذاهباً لاستلام جائزة الأوسكار .

وقذفه مدير الشرطة بالعبارة التالية :

ـ عمل رائع ، هذا أوّل نجاح .

واقتيد العربي ، الذي كان قد صرَّح بأنه يُدعى مصطفى قدّوري ، الى غرفة الاستنطاق التابعة لمكتب التحقيقات الاتحادي ، وذلك بعد أن أُخذت بصماته وصوِّر من جميع الزوايا ، وكانت بُسُط من الموكيت الناعم تُغطّي أرضها . وكان المكان المُخصَّص للمتهم عبارة عن أريكة كثيفة ، زرقاء غامقة

ومُغطّاة بالوسائد . وعلى طاولة أثرية مُنخفضة ، صُفّت بعض الصحف واللفائف وإبريق قهوة وعدد من الفناجين . وأمام الأريكة كان يوجد مقعدان للأشخاص المُكلفين بالاستجواب . وكان هذا الجوّ المرهف من شأنه ان يريح أعصاب الأشخاص الخاضعين لاستجواب دقيق وتجريدهم من اي سلاح .

وكان أقلّ ضجيج أو حكّ عود ثقاب أو تنهّدة تُسجّل آلياً بواسطة مُكبّرات للصوت مدسوسة بين مساند المقاعد . وعلى الجدران كانت بعض المائيات تخفي عدسيات مجموعة من الشاشات . وعلى الحاجز المقابل للأريكة ، أقيمت مرآة ضخمة كانت في الواقع عبارة عن قطعة زجاج بدون قصدير ، ووراء ذلك كانت توجد حجرة مراقبة يستطيع عبرها عشرون شخصاً أن يشاهدوا ويستمعوا الى كل ما كان يجري في غرفة الاستجواب . وكان يحق لأنجيلو روكيا أن يأخذ مكانه فيها ، بوصفه المأمور الذي أوقف العربيّ . وكان يتفحّص ، مبتهجاً ، الوجوه التي كانت حوله .

وهمهم ، وهو يشير بتحفّظ الى فتاة سمراء ترتدي بنطالاً وكنزة صوفيه :

ـ قلْ لي أيها الرئيس ، من تكون تلك الفتاة ؟

وهمس فلدمان :

ـ استخبارات إسرائيلية : موساد .

وأُجلس العربي على حافّة الأريكة ، بعد أن حُرّر من قيوده . وكان شرطيّان يتحركان حوله ، وكان همُّهما انتزاع معلوماته بسرعة أكثر من اهتمامها بتأمين راحته ، الأمر الذي أثار استياء أنجيلو . ولما ظنّ أن الاستجواب قد بدأ ، شاهد النيويوركي أحد الشرطيين يخرج من جيبه ورقة من الكرتون قدّمها للعربي .

وزمجر في أذن فلدمان :

ـ إنهم مجانين ! إننا نُمسك بشخص قد يقودنا الى البرميل ، وهؤلاء البلهاء يطلعونه على هذه البطاقة العاهرة .

ورفع فلدمان كتفيه ، مستسلماً . وكانت البطاقة المستند المطبوع الذي يحمله مفتّشو ومأمورو مكتب التحقيقات الاتحادي . وكانت الغاية منها تذكير كل من يقع في أيدي الشرطة بالحقوق المدنية التي يمكنه أن يتذرّع بها . وهكذا ، فقد كان بامكان العربيّ أن يُصرّ على حضور محامٍ قبل الإجابة عن ايّ سؤال . وتوتّر فجأةً جو حجرة المراقبة . وكان كل واحد يشعر بأن جميع الجهود للعثور على القنبلة توشك أن تتعثّر هناك . فاذا ما طالب العربي بمحامٍ ، فربما تنقضي ساعات قبل التمكن من استجوابه ، وساعات أخرى أيضاً قبل التمكن من عقد صفقة معه والحصول منه على اعترافات مقابل إطلاق سراحه .

ودفع العربي البطاقة : فإنه لم يكن بحاجة الى محامٍ ، ولم يكن لديه شيء يقوله .

وظهر عندئذ شرطيّ شاب في حجرة المراقبة ، وأعلن منتصراً :

ـ لقد عثرنا على بطاقة له لدينا .

وكانت بصماته قد نُقلت الى القيادة العامّة لمكتب التحقيقات الاتحادي في واشنطن ، حيث قابلتها ذاكرة الناظمة الآلية لدى « الأمن الاتحادي » بمئات الألوف من بصمات جميع الأشخاص الذين سبق أن أوقفوا في الولايات المتحدة خلال العشر السنوات الأخيرة . ثم أرسلت تلك البصمات الى « لانجلاي »

حيث كانت الناظمة الآلية لدى الوكالة المركزية للاستخبارات تحتفظ ، في ذاكرتها ، ببصمات جميع الارهابيين الفلسطينيين المنظّمة لهم بطاقات لدى محفوظات أهم دوائر الاستخبارات في العالم . وبعد ثلاث دقائق من إدخالها الى جوف الآلة ، أطلقت هذه الأخيرة إشارة « تُليت » وأعطت بطاقة العربي البيانيَّة .

وكانت تلك المعلومات تشير الى المدعو نبيل سليمان ، مولود في بيت لحم سنة ١٩٥١ ، سبق ان أُلقي القبض عليه لأول مرّة من قبل الاسرائيليين سنة ١٩٦٩ على أثر مظاهرة قام بها تلامذة الكلية العربية في القدس ، وفي سنة ١٩٧٢ أُلقي القبض عليه من جديد بتهمة نقل سلاح وحُكم بالسجن ستة أشهر . ولدى خروجه من السجن ضاع أثره خلال سنة . وقد عزت الموساد هذا الاختفاء ، فيما بعد ، الى إقامته في معسكر للتدريب في لبنان تابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جوورج حبش. وفي سنة ١٩٧٥ تطابقت هويته مع هوية أحد الإرهابيين الاثنين اللذين كانا قد وضعا عبوة ناسفة في سلّة للمؤن في سوق « ماهان يهودا » في القدس . وقد أسفر هذا الاعتداء عن مصرع ثلاث نساء عجائز وجرح سبعة عشر شخصاً . ومنذ ذلك الوقت اختفى المدعو نبيل سليمان في الكون .

وسأل « دوينغ » ، وهو يُقارن الرجل الماثل في غرفة الاستجواب بالصورة المُعلّقة بالبطاقة :

- هل تحـقّقتم لدى نظارة الخارجية ومكتب الهجرة ؟

فأجاب الشرطي الشاب:

- نعم يا سيدي ، لا يوجد لديهم أيّ أثر لهذا الشخص . إنه متخفّ.

وفي غرفة الاستجواب ، كان العربيّ ، مع ذلك ، قد قبل بأن يقول أين كان يقطن : منتشري اوتيل ، ٨٤٤ ، اتلنتيك أفنيو ، بروكلين.

وأمر هودسون :

- أرسلوا بسرعة مأمورَيْن الى هناك .

وكان جلياً ان بيان عنوانه ، كان كل ما يوّد الفلسطيني إعطاءه من معلومات . وأغلق عينيه ، وانطوى على نفسه ، معبِّراً عن عدائه المُحتقِر .

وكان انجيلو يراقبه بانتباه . وكان يقول : إنه صلب المراس ، إنه شخص انتفخ في معسكرات الفدائيين وراح يزرع القنابل في اسرائيل . إنه بالتأكيد شخص غير لوطيّ . وإذا كان رجال الشرطة يعتقدون أن بوسعهم تذويبه بوساداتهم الجميلة وقهوتهم ، فإنهم يخطئون خطأً فادحاً . وحتى الآن ، لم يكن روكيا قد هضم الإذلال الذي عرَّضه له راند ، عند بني ، مخفي الأشياء المسروقة . واقترب من « فلدمان » :

- أيها الرئيس ، تدبَّر الأمر ، كي أتمكَّن من البقاء وإياه وحدنا مدة عشر دقائق . فإنني بالنتيجة ، أنا الذي امسكت بخناقه .

وبعد خمس دقائق ، كان أنجيلو يجلس مكان الشرطيين مُقابل العربي . وكان فلدمان قد طلب تدخّل مدير الشرطة حتى رضي الرؤساء في مكتب التحقيقات الاتحادي بأن يتخلّوا عن طريدتهم ، ولو

موقتاً ، الى مفتش نيويوركي مبتذل . وفي حجرة المراقبة كان التوتّر قد بلغ أوْجه ـ وكان انجيلو يشعر بأن جميع الأنظار كانت مصوَّبة نحوه . وإذا ما فشل فإن رجال الشرطة لن يقدّموا له هدية . لقد كان يعلم ذلك . ورغم العجلة ، فقد قرر أن يأخذ وقته . وبعد أن وجَّه الى العربي ابتسامة أبوية ، أخرج كيس فستق العبيد .

ـ تفضَّل ، أيّها الصديق .

ولما شاهد شعره الأسود يضطرب بحركة خاطفة ، قال في نفسه : إنه مُغلق كالمحار . وانقلب انجيلو الى الوراء وابتلع بهدوء عدة حبّات فستق عبيد .

ـ أنت تعلم يا نبيل أنك لست بحاجة الى محام لتأكل فستق العبيد .

وكان قد أطلقْ اسمه كضربة مطرقة . وشاهد العربي يرتجف . وتهاوى أنجيلو اكثر فأكثر في مقعده وقضم ببطء ما تبقّى من فستق العبيد ، حتى يعطيه الوقت للتفكير في أن هويته الحقيقية كانت قد اكتشفت . ثم انحنى الى الأمام :

ـ أنت تعلم أننا ، نحن رجال الشرطة ، لا نمارس الأساليب نفسها .

وكان يتكلّم بالصوت البهيمي والحميمي نفسه الذي كان قد استعمله بنجاح مع مُخفي الأشياء المسروقة .

ـ إن رجال الشرطة لهمْ أسلوبهم . وأنا لي أسلوبي . أنا كما ترى ألعب لعباً صريحاً وأكاشف من أتعامل معهم بكل شيء .

وصرَّ العربي قائلاً :

ـ لا تتعب نفسك ، فلن أقول شيئاً .

وقهقه انجيلو ، وأجاب :

ـ تقول شيئا ؟ ومن طلب منك ان تتكلم ؟ اسمع ! أريد منك الإصغاء فقط .

وفكّ أزرار سترته ومرّر بلا مبالاة باهميه في فتحات صداره .

ـ حسناً ، فلنحدّد موضوعنا : لقد ألقي القبض عليك بتهمة إخفاء بضائع مسروقة ، وبسبب تلك الرزمة من بطاقات الاعتماد المسروقة التي باعك إياها « بني موسكو فيتز » يوم الجمعة لقاء خمسمئة « تون » . . . (وقاطع أنجيلو نفسه ووجّه ابتسامة وديّة الى العربي) وبالمناسبة ، أقول لك أيّها الصغير ، إنك دفعت ثمناً باهظاً . فإن ذلك لم يكن يساوي أكثر من مئتين وخمسين ، ليس أكثر .

ولو خاطب تمثالاً من الشمع ، لما كان رد الفعل أكثر من رد فعل العربي .

ـ ضعْ في رأسك الصغير ، بأنك لن تخرج من هذه القضية بأقل من ثلاث سنوات . وهذا متوقّف على القاضي . أما بالنسبة لي ، فإني لا أكترث اذا ذهبت للسجن أم لا . إن ما يهمّني ، انا ، هو معرفة الى من سلّمت تلك البطاقات فحسب .

وأصرَّ العربي بالفظاظة نفسها :

ـ أكرر بأنه ليس لديَّ ما أقوله لك .

ـ موافق ، ايها الصديق . إنك لست ملزماً بشيء . لقد قرأتَ منذ قليل ما هي حقوقك .

وكان صوت أنجيلو يحاول ان يبدو مطمئناً وشبه ودّي . وأشار ، وقد استغرق بالتفكير ، الى المرآة الكبرى التي كانت خلفه :

ـ هل ترى هذه ؟ إنها مرآة مُزيَّفة . ويوجد من الجانب الآخر عشرون شخصاً ينظرون الينا : قضاة ورجال شرطة وأناس من جميع الأنواع . حتى ان هناك امرأة تهتم اهتماماً غريباً بسحنتك .

وتوقّف أنجيلو ليفسح أمام فضول العربي مجال الظهور .

ـ إنها تنتمي الى هذا الجهاز الاسرائيلي . . . كيف تدعوه ؟ آه ، اجل ! الموسَّاد .

وقاطع أنجيلو نفسه من جديد بحجّة ضبط ربطة عنقه ، ولكن دون ان يترك فريسته من طرف عينه . وشاهد أخيراً علامة قلق تبدو على الفلسطيني .

ـ حسناً ، فلننظر الآن أين صرنا (وكان صوته قد أصبح فجأةً بارداً ، مُتجرّدا) لقد دخلت البلاد خِلسة ، نحن نعرف ذلك . وليس لديك تأشيرة دخول أميركية . .ونحن لدينا ، تلك المعاهدة مع الإسرائيليين بشأن استرداد الإرهابيين ، بوم ! (وفرقع انجيلو أصابعه) أجل ! هناك شخص في المحكمة يهتمّ منذ الآن بملفّ استردادك . وفتاة « الموساد » تلك لديها طائرة لك ، لك وحدك ، في مطار كندي . وقد قدّرت أنك ستكون على متنها قبل الساعة الثامنة هذا المساء .

وسجّل أنجيلو التغيير المفاجىء الذي بدأ وجه العربي يُعبِّر عنه . وقال في نفسه : لن تمضي بضع دقائق الا ويكون قد وسَّخ بنطاله !

ـ ليس لدينا الخيار ، أيها الصغير . يجب أن نسلّمك الى أبناء عمك في إسرائيل . إننا مضطرون الى ذلك.فليس لدينا ، حقاً ، سبب لإبقائك في اميركا من أجل بعض بطاقات اعتماد بئسة مسروقة !

ونفض قشور فستق العبيد عن صداره وزرّر سترته كما لو كان يتأهب للرحيل .

ـ أنت لا تريد ان تقول لنا شيئاً ؟ هذا حقّك ، حقّك المطلق . ولكن في هذه الحال ، نحن لا نملك اي سبب للاحتفاظ بك .

ونهض انجيلو .

ـ انتظر ، أنا لا أفهم .

ـ مع أن الأمر بسيط . القضية عبارة عن مقايضة . فأنت تقدّم لنا معروفاً ، ونحن نعيد لك المصعد . تجلس الى المائدة ونحوّلك الى شاهد . فنضطر عندئذ للاحتفاظ بك ولا يبقى داعٍ لإرسالك الى اليهود .

وكان انجيلو قد وقف وأخذ يتمطّى وهو يفرقع مفاصله .

ـ إذا بقيت صامتاً ، ماذا نستطيع أن نفعل ؟ إننا ملزمون بتسليمك ، هذا هو القانون .

وأخذ الشرطي يحوم حول العربي .

- لا بدّ أنك تعرفهم أكثر مني ، جماعة الموسّاد تلك . فحسب معلوماتي ، إنهم لا يهتمّون كثيراً ، بالبطاقات الصغيرة كتلك التي أطلعك عليها رجال الشرطة. . . (وترك انجيلو ظلّ ابتسامةيطفو عند زاوية شفتيه) لا سيا عندما تسنح لهم الفرصة لقضاء ساعات طويلة وحدهم على متن طائرة مع عربيّ كان قد دسّ قنبلة في إحدى الأسواق وتسبّب بقتل ثلاث عجائز فقيرات من أهلهم . انت تفهم ماذا أعني ؟ أريد أن أقول إنه يجب ان لا تتوقّع أن يقدّموا لك الشامبانيا في الطائرة .

وتجمّدت ملامح الفلسطيني لدى تذكيره بجريمة القدس .وأطلق :

- حسناً ، ماذا تريد ؟

وجلس أنجيلو من جديد . وقرص برفق طيّات بنطاله وشبّك ساقيه :

- أريد أن أثرثر معك أيها الصغير ، مجرَّد ثرثرة خلال بضع دقائق .

***

أبدت « غريس نولاند » دهشة شديدة عندما شاهدت ابنها « تومي» الذي كان ينتظر أمام باب ثكنة الفرقة السابعة في « بارك افينيو » ، وكان قد انقضى وقت قصير على الساعة السابعة ، مساء ذلك الاثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول ، وكان من المفروض أن تبدأ مباراته للتنس منذ عشر دقائق .

وتذمَّر الفتى بيأس قائلاً :

- أماه! لقد ألغيت المباراة !

وحاولت « غريس » بقبلة تهدئةَ خيبة أمل الفتى الذي كان يراوح من الغضب .

- لأيّ سبب يا عزيزي ؟

- لا ادري . كان الملعب مليئاً بالناس ولكن أحداً لم يدعنا ندخل . حتى أنهم لم يسمحوا لي بجلب راحتي (*) .

وتنهدت « غريس » . حقاً ، إنه نهار فاشل ، فرحلتها الى واشنطن لم تسفر عن شيء ، لأن رئيس البلدية لم يرجع الى نيويورك بواسطة المكّوك المنتظم . كما أن جهودها لانتزاع بعض التفاصيل بشأن إعادة إعمار جنوبي « البرونكس » من ضابط الصحافة ، كانت غير مثمرة . بالإضافة الى التدافع للوصول الى هنا ، وكل ذلك لتعلم أن مباراة ابنها للتنس لن تتم .

- سأحاول يا عزيزي على الأقل استرجاع راحتك .

وتوجَّهت نحو جنديّ الشرطة العسكرية الذي كان يحرس مدخل المبنى .

- ماذا يجري ؟ كان ينبغي أن يتنافس ابني هنا هذا المساء في مباراة تنس !

وضرب الجندي أحد قفازيه بالآخر قائلاً :

- ليس لديَّ أية فكرة عن ذلك ، يا سيدتي الطيّبة . .كل ما أعلم أنني تلقّيت الأوامر بمنع الدخول

(*) الراحة مضرب الكرة

الى المبنى . فثمة تمرين يجري في الداخل في هذه اللحظة .

وألحَّت « غريس » بصوت مُلاطف :

- لا أعتقد بأن ابني سيزعج أحداً إذا ذهب لاستحضار راحته من خزانتها .

ورفع الجندي كتفيه مُتضايقاً .

- ماذا تريدين أن أقول لك ؟ لديّ أوامر . ممنوع الدخول .

وشعرت « غريس » بالغضب يستولي عليها ، فإن ممثلي « نيويورك تايمس » لم يتعوّدوا أن يواجهوا أبواباً مغلقة .

- من هو المسؤول هنا ؟

- الملازم . هل تريدين أن أناديه ؟

وبعد بضع دقائق عاد العسكري الشرطي بصحبة ضابط شاب مبتسم ، ونظر الى « غريس » باهتمام فقالت ، وهي تتكلّف اللطف :

- أيها الملازم ، ما هو الشيء المهـمّ الذي يجري هنا حتى يمنع فتى في الثانية عشرة من جلب راحته للتنس من خزانتها ؟

- لا شيء مهمّ ، يا سيدتي . الأمر يقتصر على إجراء تجربة لدراسة أفضل الوسائل لتنظيف شوارع نيويورك من الثلج وتحديد كيف يمكن للجيش أن يساعد البلدية في حال سقوط كميات كبيرة كتلك التي سقطت الأسبوع الماضي . هذا كل ما في الأمر .

وشعرت « غريس » بخاطر ينير ذهنها . لن يضيع نهارها بكامله ، في نهاية المطاف .

- أنا « غريس نولاند » من « النيويورك تايمس » وإني اقوم بالضبط بتحقيق حول هذه المسألة . وسأكون سعيدة أن أجري مقابلة مع المسؤول عن هذه التجربة ومعرفة مطالعته بهذا الخصوص .

ارتبك الملازم الشاب ، وقال :

- إنني متأسف ، ولكنني عاجز عن إسداء أية خدمة لك بهذا الشأن . فلا دخل لي بكل ذلك . ولست هنا إلا لتأمين حراسة الثكنة .

وكان « تومي » يحدِّق باعجاب بالمسدس المُتدلِّ من حزام الضابط .

- هل إن مسدسك محشوّ ؟

- بالتأكيد ، أيها الصغير .

والتفت الملازم نحو « غريس » فاقترح ما يلي :

- إسمعي ، إذا كان ابنك يشرح لي أين توجد راحته ، فسأسعى لإحضارها له ، وفي الوقت نفسه سأقول للمقدّم إنك تودّين رؤيته .

ولما عاد الضابط الشاب ، كان يتباهى بجعل أسلاك الراحة ترتدُّ على راحة يده ، ووجّه الى تومي الصغير الكلام التالي :

ـ إنها أسلاك مشدودة بصلابة، لا بد أنك لاعب ماهر .

ثم ابتسم « لغريس » وأضاف :

ـ لقد أجابوني بأن كل الأسئلة المتعلّقة بالتجربة الراهنة يجب ان تُوجّه الى المقدم « ماك اندروز » ، ضابط الصحافة في مركز قيادة الجيش الأول . (وقدَّم لها ورقة) وإليك رقم هاتفه .

وكان الضابط يتأمل المرأة الشابة بسذاجة . وأضاف بخجل :

ـ اذا ما رجعت لإجراء أي تحقيق ، فلربما نستطيع أن نتناول القهوة معاً .

ودوّنت « غريس » في دفترها الاسم المسجَّل فوق جيب ثوبه .

ـ بكل سرور ، أيها الملازم . الى اللقاء .

***

كان أنجيلو روكيا يتابع استجواب العربي ، وقد استوى في قلب مقعده ووضع رجليه بلا مُبالاة على الطاولة .

ـ إذن ، كنت تقوم ببعض الأعمال الصغيرة لجماعة سفارة ليبيا لدى الأمم المتحدة ، كيف كانـوا يتّصلون بك ؟

ـ كانوا يتركون رسالة في مشرب بروكلين .

ـ وكيف كنت تحدّد مواعيدك ؟

ـ كنت أضيف أربع وحدات الى تاريخ الشهر وأذهب لأكمن عند الزاوية المكوَّنة من الشارع الملائم والجادّة الأولى ، مثلاً ، إذا كان الموعد بتاريخ ٩ ، كنت أذهب الى الزاوية المكوّنة من الشارع الثالث عشر والجادّة الأولى .

وهزّ أنجيلو رأسه :

ـ دائماً في الساعة نفسها ؟

ـ لا،بين الساعة الواحدة والساعة الخامسة بعد الظهر ، وكنت أضيف ساعة واحدة الى كل موعد ، ثم أعيد الكرَّة .

ـ وهل كنت تلتقي كل مرَّة الشخص نفسه ؟

ـ ليس دائماً . كنت أحمل بيدي عدداً من مجلة « نيوزويك » ، وكانوا هم الذين يقتربون مني .

ـ وكيف جرت الأمور بالنسبة لقضيّتنا ؟

ـ جاءت فتاة ، في المرَّة الأولى .

ـ هل تذكر التاريخ ؟

وتردّد العربيّ .

- ينبغي أن يكون ذلك ، الثلاثاء الماضي ، لأن الموعد كان عند زاوية الشارع الثاني عشر .

- من كانت تشبه ؟

- لا بأس بها . كان شعرها كستنائيا ، قصيراً . وكانت ترتدي معطفاً من الفراء .

- هل كانت من بلدك ؟

وخفض المّتهم عينيه ، شاعراً بالخجل :

- من المحتمل ، ولكنها كانت تتكلم الإنكليزية .

- ماذا كانت تريد ؟

- بطاقات اعتماد حديثة تماماً ، وكان ينبغي أن أحضرها لها في اليوم التالي صباحاً عند الساعة العاشرة .

- وعند ذلك ذهبت للاجتماع بمخفي الأشياء المسروقة .

وهزّ العربي رأسه :

- وبعد ذلك ؟

- سلّمت البطاقات الى الفتاة ، ثم طلبت مني أن نقوم بجولة معاً . وسرنا حتى بلغنا مخزناً لبيع آلات الصور . فطلبت مني أن أدخل الى المخزن وأشتري آلة .

- وقد فعلت ذلك ؟

- ذهبت اولاً الى مرحاض أحد المشارب حيث تدرّبت على التوقيع.وسار الأمر على ما يرام ، ولم يلاحظ أمين الصندوق شيئاً .

وأطلق العربي تنهّدة ، وقد شعر فجأةً بأنه انسحق من جرّاء مدى اعترافه .

- عندئذ قالت لي :«حسناً ، هذا دليل على أن البطاقة كانت صالحة » . وكانت تريد بطاقات أخرى حديثة تماماً وإجازة سوق ، ليوم الجمعة القادم الساعة العشرة صباحاً . وذلك من أجل شخص بين الثلاثين والأربعين ، أسمر البشرة ، داكن الشعر ، وقد أعطتني الف دولار .

- وماذا جرى يوم الجمعة ؟

- جاء رجل الى الموعد ، هذه المرّة . لم أكن قد رأيته من قبل .

وظهر « كانتن دوينغ » عندئذ في القاعة . وبدا على أنجيلو الغضب لمقاطعة استجوابه الذي كان يسير سيراً حسناً .

- عذراً ، أيها المفتش روكيا ، ولكننا نودّ ان يتفحّص السيد سليمان هذه الصور التي وصلت لتوّها من باريس .

وقدّم للعربي صورة ليلى الدجاني التي كان اللواء برتران قد أرسلها بطريقة « بلينو » اللاسلكية الى الوكالة المركزية للاستخبارات ، منذ أقل من عشرين دقيقة .

ـ هل هذه هي الفتاة التي اتّصلت بك ؟

نظر العربي الى الصورة ورفع عينيه نحو الشرطي :

ـ نعم ، هذه هي .

وأطلعه « دوينغ » على صورة وليد الدجاني :

ـ وهذا ؟ هل هو الشخص الذي جاء لاستلام البطاقات يوم الجمعة ؟

وتفحّص العربي الصورة وأشار بإيماءة نفي من رأسه .

ـ وهذا ؟

كان « دوينغ » يُريه الآن صورة كمال . ودرسها العربي لحظة ، ثم رفع رأسه قائلاً :

ـ نعم ، هذا هو .

وفي غرفة المراقبة ، لم يستطع « ال فلدمان » ان يكبح انفجار فرحه ، فرفع ذراعيه نحو السماء ، وصاح :

ـ لقد وقعوا في قبضتنا ، هذه المرّة !

***

لولا خطورة الموقف ، لكان مشهد هؤلاء السادة باللّباس الرسمي حول طاولة مجلس الأمن القومي ، هزلياً . وكان الرئيس ووزراؤه يُصرّون على التظاهر بأن كل شيء كان عادياً ، ولذلك فسوف يلتحقون بزوجاتهم بعد بضع لحظات في حفل استقبال سيقام في القاعة الزرقاء من البيت الأبيض . وسيحضرون بعد ذلك مأدبة بآنية « لينكولن » من الفضّة المُذهّبة ، على شرف عميد السلك الديبلوماسي ، سفير بوليفيا الذي كان يغادر واشنطن . وخلال السهرة بكاملها ، سيتوجب عليهم الأكل والشرب والثرثرة ، كما لو أن أيّ شيء لم يحدث .

وصرّح إيسمان بارتياح : على كل حال ، لا شيء في نشرات الأخبار المسائية ـ سواءً في الراديو أو في التلفزيون ـ يدلّ على أن الصحافة تشتبه بأي شيء .

وتنهّد الرئيس ، فيما كان يفضّ الرسائل الواردة من اسرائيل أثناء ذهابه لارتداء ثوبه الرسمي ، وقال :

ـ ترضية طفيفة .

ثم قال مخاطباً أمين الخارجية المساعد :

ـ يا سيد « ميدلبرغر » . إن مبادرة القدس ليست حقاً كافية .

فأجاب الديبلوماسي ، وهو يكاد يعتذر :

ـ حضرة الرئيس ، لقد كان السفير الاسرائيلي جازماً ، فهذا كل ما كانت القدس مستعدَّة أن تفعله . وأكّد أن الجيش الأسرائيلي لن ينفّذ أبداً أمراً باخلاء المستوطنات كافّة .

ـ وفي هذه الحالة ، لا يترك لنا بيغن الخيار ، إلاّ أن نقوم بذلك مكانه ، أليس كذلك ؟

كانت لهجة الرئيس الفظّة لا تكاد تخفي تأثّره . فالكل كان يعرف كم كان يسوءه الإقدام على مثل هذا التصرّف ، ولكن ما العمل غير ذلك ؟

والتفت نحو مدير الوكالة المركزية للاستخبارات :

ـ تاب ، ما هي نسبة مقاومة الاسرائيليين تدخلّنا بالقوة ؟

ـ حضرة الرئيس ، سوف أقول ٥٠٪ .

وتصلّب الرئيس الى مسند مقعده وأغلق عينيه مسنداً ذقنه في تجويف راحتيه ، كما لو كان مستغرقاً بالصلاة . ولربما كان ذلك الرجل المُتديِّن يُصلّي .

وفتح عينيه فجأةً ، وزمجر ، قائلاً :

ـ تعتصرنا نيران تعصُّبين : التعصُّب اليهودي والتعصُّب الإسلامي . ولن نضحي من أجلهما بحياة ستة ملايين اميركي . وبما أنهما يضطراننا الى ذلك ، فسيكون لنا ردُّ فعل .

والتفت نحو وزير الدفاع :

ـ هربرت ، أريد أن تكون قوة التدخّل السريع مستعدّةً للسفر ، وأن تعطى لذلك مهنة قصوى قدرها ساعة .

وكانت قوّة التدخّل السريع عبارة عن قوة من مختلف الأسلحة كانت قد شُكِّلت سنة ١٩٧٩ تحسُّباً لعمليات فوريَّة في أية بقعة من الكرة .

ثم أمر أمين الخارجية المساعد ، قائلاً :

ـ سيد « ميدلبرغر » ، أريد أن تخُطر ، بمنتهى السرِّية ، الملك حسين والسوريين. وتصرَّفْ بشكل نستطيع معه أن نستخدم مطاراتهم ، عند الاقتضاء ، بمثابة قواعد للانطلاق .

ونهض الرئيس ، وكانت مشيته حازمة وسريعة . وكان قد بلغ الباب ، عندما ناداه مدير مكتب التحقيقات الاتحادي .

ـ حضرة الرئيس ! (وكان وجه جوزف هولبورن ، الهادىء عادة ، يشعُّ حماساً) لقد توصَّل جماعتنا في نيويورك ، لتوِّهم ، الى التثّبت من هوية ثلاثة فلسطينيين متورّطين في القضية . وسيتعقّبهم ، منذ الفجر، أكثر من أربعين الف مأمور .

***

دمدم مدير مكتب التحقيقات الاتحادي النيويوركي ، قائلاً :

ـ يا للنحس !

وكان أحد مأموريه مُنكبّاً على توجيه تقرير له حول زيارة « غريس نولاند » الى ثكنة « بارك أفينيو» .

ما أن حدَّثها ضابط الحراسة عن تجربة إزالة الثلج ، حتى بدت المرأة الشابّة كثيرة الحماس . وقد أخرجت بطاقتها الصحفية وأصرّت على التحدّث الى المسؤول . وللتخلّص منها ، أعطيت، أخيراً ، رقم الخط الذي تستعمله لحماية مفارز « نست » . وهو خط صُوَريّ يُفترض أن يؤدي إلى ضابط الصحافة لدى الجيش الأول ، ولكنّه في الواقع يرُنّ في المقسم الهاتفي للثكنة . والصحفية ، الآن ، عند طرف الخط ، تطالب ببحث كامل عن التجربة الراهنة .

كان « هارفي هودسون » مشدوهاً :

- هل تدرك ما نحن فيه ؟ إن الصحافة توشك أن تكتشف القضية بكاملها ، لأن أحد الفتيان أزعج الناس لاستعادة راحته للتنس !

وكان يشدُّ أطراف عقدته الفراشية التي كانت تتدلّى ، بأسى ، تحت ياقة فاقدة الرونق . وأمر مساعده ، قائلاً :

- كسِّيدي ! قنِّعْ أحد رجالنا بثياب ضابط وأوعز إليه بأن يقف عند باب الثكنة غداً صباحاً للقاء تلك الفتاة ، وليتدبَّر أمره ليلقي على مسامعها خطابا مثيراً لم يسمع أحد مثله حول إزالة الثلج من شوارع نيويورك . أنا لا يهمّني مطلقاً ما سوف يخترع . المهمّ أن تتدبَّر الأمور . فلا نريد أية متاعب ، في الوقت الحاضر ، مع « النيويورك تايمس » .

**

كان الظلام قد خيّم على نيويورك . وكان ذلك الاثنين الواقع فيه ١٤ كانون الأول يوشك ان ينتهي . وكانت سيارة الـ« تويوتا » القديمة تنزلق بمحاذاة خطّ المستودعات المقفر . وكان القوّاد « أنريكو دياز » جالساً على المقعد الأمامي بين مواطنيه الاثنين اللذين كانا قد انتزعاه من سهرة جميلة في سبيل مُهمَّة عاجلة . وإلى اليمين ، وعبر السياج الذي كان يقفل مستودعات « جارسي سيتي » كان يشاهد شريط « الهودسون » البرّاق ، وإلى أبعد من ذلك ، تدفّق أنوار مانهاتن .

وتوقف السائق عند مدخل ممرّ مُقفر يؤدي إلى معسكر كان يبدو مهجوراً . ونزل الرجال الثلاثة من السيارة دون أن يتفوّهوا بكلمة . وكان البورتويكيان اللذان كانا يمشيان أمام ريكو ينتعلان جزمات عسكرية من الكاوتشوك ذات نعال سميكة صنعت خصيصا لأدغال فيتنام . وكانوا يتقدّمون بلا ضجَّة ، كأنهم حيوانات متوحّشة في الغابة . ولما وصلوا الى المعسكر ، أبدى أحد رفيقي ريكو إشارة التعارف فانفرج باب وتدفّقت منه أشعّة نور صادرة عن مصباح جيب . وأمر الشخصُ الذي كان يُمسِك به ، بعد أن تعرّف على الزائرين الثلاثة :

- هيا !

وما أن اجتاز ريكو الباب حتى أدرك سبب مجيئه . وفي داخل القاعة ، كانت تصطفّ خمس كراسي خلف لوح خشبي وضع على منصبين . وعند أطراف تلك الطاولة المرتجلة ، كانت مصابيح بترول تضيء بنورها المترنّح صور « شي غيفارا » و« هكتور غليندز » و« لويس كبرال » المعلقة على الحائط ، وكان هؤلاء الثلاثة مؤسسي جبهة تحرير بورتوريكو . وكانت هذه الحركة البورتوريكية التنظيم الإرهابيّ الوحيد المزروع بمتانة في الأرض الأميركية . وكانت قد نجحت في تثبيت تلاحمها بفضل ممارسات عديمة الشفقة ، من طراز العملية التي كانت على وشك أن تتمّ ذلك المساء . وكان المقصود محاكمة خائن . وارتاح ريكو ارتياحاً شديداً عندما تثبَّت أن المتهم ، وقد أوثق وكُمِّم بشدة ، كان قد أُجلِس على كرسي صغير مقابل للكراسي الخمس .

وكان ريكو ، بوصفه عضواً قيادياً في الجبهة ، أحد قضاة تلك المحكمة الثورية . وقد بذل جهده ليبعد نظره عن عينـي المتهم ، الذي كان يتخبّط ، وقد امتلأ بصره بالشقاء وانتفخت عروق رقبته ، وهو يحاول عبثا عبر كلماته أن يتلفَّظ بعبارات الدفاع .

ولم تكن الدعوى إلا تبريراً طقسياً لجريمة قتل . وكانت موجزة . وكان المتهم مخبراً للشرطة ، جيء به من فيلادلفيا لأنه كان من الأسهل تنفيذ الحكم في « جارسي سيتي » .

وبعد أن ثبت ذنبه ، شرُع في التصويت . فلفظ « القضاة » الخمسة ، الواحد بعد الأخر ، كلمة « إعدام » . ولم يرتفع أي صوت طالباً رأفة المحكمة . وكانـت قيادة الجبهـة تتـألف ، ما خلا بعض الأشخاص ، أمثال « انريكو دياز » ، من مثقّفي البورجوازية الصغيرة ومعلمين فاشلين وطلاب محترفين لم تكن الرحمة تعرف سبيلاً الى قلوبهم .

وعلى الطاولة كان يتصدَّر مسدس ، « والتر » عيار ٣٨ ، أعطاه رئيس المحكمة الى ريكو ، دون أن يتفوه بكلمة . وعمل القوّاد ما كان بوسعه ليكبح رعشةرعـب. وكان المقصـود بذلك أيضـاً عمـلاً طقسياً للجبهة . فالقتل برباطة جأش ، بناء على آمر المنظمة . كان يشكلّ الدليل الحاسم على ولاء المناضل . وأخذ ريكو المسدس ونهض دائراً حول الطاولة ، وكان يكافح حتى لا يرتجف ، وكانت عيناه مركّزتين على داخل القاعة حتى يتجنّب مجابهة نظر ضحيّته ، ثم رفع سلاحه وبحث عن تجويف الصـدغ وشـدَّ على الزناد .

وحصل « طق » .

وسمع ريكو عندئذ ضحكاً مخنوقاً كان يهزّ ضحيته المزعومة . ونظر الى « القضاة » الأربعة خلف الطاولة وكانت وجوههم فارغة كجدران السجن .

وصرَّح رئيس المحكمة :

ـ يوجد خائن في هذه القاعة ، ولكن ليس هو .

وفي الحال برز ستة رجال من القاعة المجاورة ، وطوّقوا ريكو فألقي على كرسي وشُدَّ وثاقه وكُـمَّ فمه . ولم تكن ثمَّة حاجة لدعوى صوريّة ساخرة . فقد تمّت قبل وصول القوّاد « انريكو دياز » .

وسحب الرئيس المشط من المسدس ، وحشاه حسب الأصول برصاصات من عيار ٩ ميلليمترات وأعاده الى مكانه بضربة خاطفة . وأعطاه الى الرجل الذي كان قد انتصب لتوّه امام المحكوم عليه . وكان هذا « بادرو » ، تاجر المخدرات الصغير الذي كان ريكو قد أبلغ اسمه الى مكتب التحقيقات الاتحادي لأنه كان قد أحضر علاجاً الى سيدة عربية كانت تنزل في « هامشير هوس » .

وبدون أيّ تردّد ، صوَّب بادرو الأنبوبة المُثلّجة نحو صدغ من أعطى اسمه ، وحدَّق مباشرة في عيني ريكو خلال فترة طويلة ، وكان يتلذَّذ بانتقامه . ثم انفجر ضاحكاً بوحشية وضغط على الزناد .

***

كان انجيلو روكيا ،منتشياً ، وقد احمرت عيناه من الإرهاق وسحره المنظر الذي كان لا يمـلّ من مشاهدته ويردّد : « لا يمكن أن يوجد شيء اجمل من ذلك ! » وكانت ناطحات سحاب مانهاتن ، التي كانت تخرق الظلمات بنوافذها الذهبية الشبيهة بالمجرَّة ، تبدو له فخمةً أثناء الليل أكثر منها أثناء النهار .

وفي قلب تلك الأضواء الهندسية ، كانت طوابق القيادة العامة للشرطة وطوابق مركز مكتب التحقيقات الاتحادي الأربعة عشر ، تتدفّق بجميع أنوارها . ولم يكن يسمح لأي من المفتّشين أو أيّ من رجال الشرطة الذين ركضوا كل النهار وراء البرميل ، أن يعودَ إلى منزله أو إلى فندقه . فقد كانوا تلقّوا جميعهم الأوامر بأن يُعسكروا في مكاتبهم وأن يكونوا مُستعدّين للردّ على أي نداء . وكان راند وروكيا قد افترقا بعد استجواب العربي وعاد كلاهما الى مركز قيادته العامة ليستريح فيه بضع ساعات .

- وأنت تنام هنا أيضاً .

وعرف أنجيلو اللهجة الحلقية لزميله العجوز « لودويغ » الذي كان يناديه من المكتب المجاور .

- ياه ! إني أؤجل ذلك الى الساعة ٦/٣٠ غداً صباحاً .

وقبل أن يتمدّد على سرير الميدان المرسل من دائرة الحماية المدنية ، كان عليه ايضاً أن يملأ المستندات العديدة التي ترافق حتماً تحقيق الشرطة . ولم يكن من الممكن أن ينتهي نهار بمثل ذلك الإرهاق ، دون تنظيم تقرير نموذج/ د ، د ، ٥/ وبطاقات تتعلّق بجميع الأشخاص المستجوبين والأماكن المُزارة . وكان قد قال لزميله : إن هذا شيء مملٌ ، ولكن الشرطي الصالح هو ذلك الشخص الذي يبقى مهيأً وسط اوراقه .

ورفع أنجيلو أنفه عن ركام الورق والتفت نحو صاحبه :

- أترى يا « لودويغ » ! لديَّ من الأعمال ما يحملني على البدء بها عند مطلع كل فجر ! العمر بلا ريب . . . .

وأجاب زميله ، وهو يحلّ ربطة عنقه :

- وأنا ايضاً . هل تذكر ذلك الرئيس المزعج الذي كان يرهق كاهلنا سنة ٥٢ عندما ألحقنا بالمفوضية التاسعة ؟ قلْ لي ، هل تذكر ذلك ؟

- كيف لا !

فقد كان على أنجيلو ولودويغ ، خلال أسبوع كامل ، أن يذهبا كل يوم عند الساعة السادسة صباحاً ، وأن يقفا ، في طقس قُطبيّ ، على جادة « واست سايد » ، في محاولة للعثور على سائق كان قد لاذ بالفرار بعد أن تسبَّب بحادث مميت . وكانا يستوقفان جميع السيارات . « عذراً أيها السيد ، هل تمرّ من هنا كل يوم ؟ ألم تشاهد ، صدفة ، سيارة تجتاح راجلاً صباح الجمعة » . ولا شك أنهما وجَّها السؤال نفسه إلى الف سائق . وفي نهاية المطاف زوّدهما بائع ربطات عنق بالمعلومات التي مكنتهما من الاهتداء الى المجرم . وتثاءب أنجيلو وهو يتمطّى ، وابتسم لدى تذكرّه الزمن الغابر .

- كل ما تحمّلناه ، كان في سبيل القبض على سائق أرعن .

- تصوَّر ما قد يتجمّع لدينا من المال ، عن طريق الساعات الأضافية ، فيما إذا ما كُلِّفنا ، اليوم ، بقضايا مماثلة !

وقال أنجيلو وهو يطفيء النور :

- لا تحلم يا صديقي : إنهم لن يبذلوا مثل هذا الجهد الكبير في سبيل سائق أرعن مُبتَذل ، يلوذ بالفرار . طابت لَيلتك !

وكان على وشك الرقاد ، عندما رنَّ جرس الهاتف . فمدَّ ذراعه في الظلام ورفع السمّاعة :

ـ يا عزيزتي « غريس » ، لقد طلبتك مرّتين هذا المساء .

ـ وأنا بحثت عنك ، النهار بكامله ! ولكن قلْ لي أولاً ماذا تعمل في مكتبك في مثل هذه الساعة ؟

ـ يا للصحفيين ! إنهم أسوأ من رجال الشرطة فيما خصَّ المسائل الهامَّة .

واتخذ لهجة ساخرة ، وقال :

ـ يجب أن تعلمي يا عزيزتي بأن نهار المفتش لا ينتهي أبداً .

وأطلقت ، وهي تضحك :

ـ بوف !

وأضافت حالاً ، بلهجة الجِدّ :

ـ قلْ لي ، إذن ، يا أنجيلو ، ماذا تخفي عليَّ؟ ماذا يجري ؟ (وكان في صوتها شيء من القلق) .

ـ لا شيء . . . في كل حال لا شيء خطير . مجرَّد عمل كثير ، إذ ينبغي ، كالعادة ، البحث عن ابره في كومة تبن .

وران الصمت ، وسمعها تأخذ نفساً طويلاً من لفافتها . منذ أشهر وهو يحاول إقناعها بالانقطاع عن التدخين .

ـ أنجيلو ؟ (وترددت بضع ثوان) واخيراً سأتمكن من تناول الغداء معك يوم الأربعاء .

ـ ولكن ، كنت أظن أنك . . .

ـ كلاّ ، لقد غيرّت رأيي (وران الصمت من جديد) لقد قرّرت الاحتفاظ بالولد .

وتمتم :

ـ هل أنت جادَّة يا غريس ؟

ـ لا يمكن أن اكون جادَّة أكثر من ذلك .

ـ وهل ترغبين ، إلى هذه الدرجة ، إنجاب ولد آخر ؟

ـ أجل .

وسمعها تسحب بشدة نفساً من لفافتها . ثم عاد صوتها هادئاً وطبيعياً .

ـ ولكن ، اطمئنّي يا ملاكي : إن ذلك لن يُغيرِّ شيئاً من علاقتنا على الإطلاق .

***

ليالي الشتاء باردة في السامرة . وكان رجل الحراسة عند مدخل المستوطنة المتوحشة ، ألون سيشم ،

يتطلّع إلى بزوغ فجر يوم الثلاثاء الواقع فيه ١٥ كانون الأول ، وكان يرتجف من البرد ، وقد أنزل غطاء الرأس المكمّل لقميصه على جبينه وأخذ يضرب الصخر بنعليه . وكانت الشمس قد بدأت تتدفّق من الجبال ، خلف الأردن ، غامرةً الريف بأضواء شاحبة معطرة بالعنبر . وهناك بين التلال الصخرية لجبلَيْ إبل وغريزم ، كانت تستيقظ البلدة العربية القديمة ، نابلس ، سيشام التوارة القديمة . وعلى أبوابها كان يوجد أحد أعرق الأمكنة في التاريخ اليهودي ، وهو السهل الذي أقام عليه ابراهيم مُخيمه لدى وصوله الى أرض كنعان . وهناك ، في ظلّ شجرة بطم ، ظهر له الربّ ، كما يقول الكتاب المقدّس ، وأوحى اليه ان الأرض التي دخلها كانت أرض إسرائيل وأنها سوف تخصّ ذرّيته جمعاء . ثم أقام يعقوب في تلك الأماكن ، قبل أن يجمع فيها يشوع ، بناء على اوامر موسى ، الإسرائيليين ، ويموت فيها .

وبعد أربعة آلاف سنة ، كانت قبضة من المناضلين ينتمون الى كتلة الايمان ، يعودون ليكتبوا على تلال السامرة صفحة جديدة من التاريخ اليهودي . وفي ليل ٩ من شهر « آب » عام ١٩٧٤ ، الذكرى السنوية لتدمير هيكل القدس من قبل فيالق « تيتوس » الرومانية ، كانت مفرزة من المغاوير تحتلّ تلّة غير مأهولة قريبة من قرية القدّوم العربية ، لتقيم عليها مستوطنة من عشر جماعات ، وقد دعاها المستوطنون « الون سيشام » تخليداً للمكان المجاور ، حيث كان الرب قد اعطى إسرائيل الى ابراهيم .

وقد ختم هذا الإنشاء غير الشرعي ، على أرض عربية محتلّة بقوة السلاح عام ١٩٦٧ ، نهاية أشهر عديدة من حرب العصابات بين أنصار جبهة الإيمان وحكومة دولة إسرائيل التي كان يرئسها آنذاك اللواء أسحق رابين . ولم يتردّد تلامذة الحاخام العجوز كوك بتحدّي الأوامر الحكومية بشكل منهجي ، استناداً الى حق اليهود المقدّس في استيطان كامل الأرض التي أوصى بها الرب الى آبائهم . واحتلوا فندقاً في حيرون في يهودا وزرعوا عدة مستوطنات أخرى متوحشة في مناطق بيت لحم وأريحا . ثم أطلقوا مفارز المغاوير باتجاه « سبسبه » ، عاصمة السامرة الأسطورية . وبعد أن اقتلعهم اللواء رابين تسع مرات بواسطة الجيش ، انتهى به الأمر الى الرضوخ وسمح بزرع ثلاثين جماعة متحركة على أكمة « ايلون سيشم » القاحلة . ولكنه رفض كل عون للمستوطنين . فلا ماء ولا كهرباء ولا مدارس للمحتلّين غير الشرعيين لمستوطنة « ايلون سيشم » . ومع ذلك ، فإن مئات ، بل آلاف العائلات تطوّعوا للالتحاق بأول نواة لليهود الذين قرّروا العودة الى السامرة .

وقد أدى السماح بفتح « يشيفا » الى إدخال مزيد من السكان بطريقة خفيّة . وبمناسبة الذكرى الأولى ، في كانون الأول ١٩٧٥ ، ارتقى خمسة آلاف مُتعاطف أتوا من أنحاء البلاد ، الأكمة القاحلة للاعراب عن تضامنهم . وبفضل بعض الألواح ذات الأطر الجاهزة وصفائح الحديد المتموِّج ، أنشأ المستوطنون عنبراً جعلوا منه كنيسهم ، ووضعوا في الوسط المقرأ الطقسي المُغطّى بسجادة من الحرير الأحمر ذات أهداب ومزيّنة بنجمة داود . وقد ثبتوا على محاذاة الجدران رُفوفاً ليضعوا عليها الكتب المقدسة التي قدّمتها عائلة ثرية من تل ابيب الى اليهود الأوائل الذين سيتمكنون من الاقامة في السامرة . وكان بيت القربان من الخشب المذهب ، قد قدم عام ١٩٤٥ من جماعة من الاسرائيليين الايطاليين الى جنود من المفرزة اليهودية ، الذين أعطوه ، بعد خمس وثلاثين سنة ، الى المستوطنة يوم الذكرى الأولى السنوية لإنشائها . اما كتب التوراة الثلاثة المُزخرفة بسخاء ، فقد كانت هدية من أهالي القدس .

ولأجل تأمين حاجاتهم ، في رأس الجبل القاحل ، انشأ الأهالي مصنعاً صغيراً للحدادة كانوا يبيعون انتاجه الى تل ابيب وحيفا . ولكن ظروف الحياة كانت غير مستقرة لدرجة أن عدداً من أرباب العائلات اضطروا الى العمل خارج المستوطنة ، على أن يعودوا اليها للراحة يوم السبت . ومع ذلك فلم تلبث الحياة

أن تنظمت . وقد ولد أولُ طفلٍ في كانون الأول عام ١٩٧٥ . وبدأت الجهنّميّات(*) تزدهر حول الجماعات ، كرمز للارادة النهائية لأولئك اليهود بالتأصل في تلك الأرض . وقد سجّل وصول مناحيم بيغن الى الحكم ، بدء عهد جديد في حياتهم القاسية . فما كاد رئيس الوزراء يُنتخب حتى بادر الى « إيلون سيشام » ، وطمأن الأهالي مؤكدا لهم دعم حكومته . وانتقل من جماعة الى محترف مردداً على مسمع الجميع : « أحبّكم ، احبّكم ، فأنتم أفضل أولادي » . وبالنتيجة بدت المستوطنة الصغيرة تشبه قرية حقيقية . ولم تلبث أن تواجدت مئات من الجماعات تربط بينها تمديدات من المياه والكهرباء وحتى الهاتف . وافتتحت مدرسة ثم مستوصف . ووُسّع الكنيس ، الذي كان قد أصبح ضيّقاً جداً . وأصبحت « ايلون سيشم » ، رويداً رويداً ، المقفز والقيادة العامة لعمليات الاسكان التي انطلقت بها جبهة الايمان في الضفة الغربية ، ثم في الجولان وفي سيناء وحتى في قطاع غزة .

وكما حصل بالنسبة للأعمال السابقة ، فان مركز قيادة العملية ، التي أطلقها عند منتصف الليل ، الحاخام العجوز كوك امام حائط المبكى في القدس ، أقيم في « هادار هااوكل » ، مطعم المستوطنة ، الذي كان عبارة عن تخشيبة طويلة من الاترنيت ذات سقف من الحديد ، كانت تغطي رأس التلّة .

وكان داخل القاعة مُزيّناً بتشكيل مُصور هائل طوله أربعة أمتار وعلوه متران ، ويكشف الساحة الرائعة للحرم الشريف في القدس . ولكن الصورة كانت مُلفّقة . فالأماكن المُقدسة الاسلامية ـ قبة الصخرة التي صعد منها محمد الى السماء والمسجد الأقصى ـ التي تقوم اليوم فوق الساحة والتي تجعل من القدس المدينة المقدسة الثالثة في الاسلام ، كانت قد مُحيت منها واستبدلت بصورة ضخمة لهيكل سليمان اليهودي ، قبل تدميره سنة ٧٠ من قبل « تيتوس » . وفي السماء فوق المنظر ، كان مكتوبا بأحرف ضخمة أمرُ النبي يشوع الى شعب اسرائيل :

« أعدْ بناء بيتك كما كان اولاً » .

وكانت حركةٌ شديدة قد سادت طوال الليل في المستوطنة . وبعد أن قاد يعقوب لڤين وروث نافون جيوشهما حتى مخرج القدس ، عادا الى إيلون سيشم لقيادة العملية بواسطة الراديو . فللمرة الأولى ، في الواقع ـ كان مناضلو جبهة الايمان يستخدمون وسائل قوية للاتصالات المسافية . وكان صانع ذلك الجهاز المُستحدث حاخاماً صنديداً في الخامسة والثلاثين ، أزرق العينين ، أصهب الذقن . وكان « حوئيل بن سيرا » قد وُلد في بروكلين ، وأباً لأربعة أولاد ، وكان ضابطاً للاتصالات في فرقة المظليّين .

وارتفع فجأة نداء في أحد مراكزه :

ـ يعقوب ، يعقوب ، هنا إفرايم ، نحن محاصرون !
ـ أين أنتم ؟
ـ عند الكيلومتر /٦/ من الطريق رام الله ـ أريحا . الجنود يُطلقون النار في الهواء .
ـ تخلّوا عن سياراتكم وتفرّقوا ، ثم أعيدوا تجمُّعكم في مكان أبعد .

وكانت الخطة قديمة وناجعة بقدر الاستيطان اليهودي في فلسطين . ولكن تفرّق الجماعات كان يقترن ، هذه المرّة ، بمظاهرة رمزية . وكما كان العبرانيون يقيمون العلامات الضوئية فوق الأراضي التي كانوا يحتلّونها للتدليل على أنها أصبحت ملكهم ، فان مستوطني « شوفاه اسرائيل » ، كانوا يشعلون نار الجمر حيثما كانوا يمرون عبر الريف في يهودا والسامرة .

(×) جنبة معترشة للتزيين من فصيلة الشّبّيات .

وتفحّص يعقوب لڤين وروث نافون خريطة الأركان بمقياس ١/٢٥٠٠٠ التي كانت تغطّي أحد ألواح المطعم . وشعر الشاب بوجه الاسرائيلية الشابة يلتصق بوجهه . وتعرَّف على عطر الياسمين الذي كان قد تنشّقه أول ليلة مارسا فيها الحب في غرفته في خاتمون ـ القدس .

وسألها ، عن كثب :

ـ هل تذكرين أول الأشياء التي قلتِها لي ؟

ـ لا

ـ لقد قلتِ لي : « إن العمل هو الذي يجمع الرجال وليس الأفكار » . لم أنسَ ذلك قط .

أخذت يده وشدَّتها برفق . ثم علّقا معاً بالدبابيس ، على الخريطة ، أعلاماً صغيرة عليها نجمة داود ، كانت تحدد الأماكن الملحوظة للمستوطنات الجديدة . وفي تلك اللحظة وصل رائد من الجيش مكلّف بتسليم غلافٍ يحمل ختم مكتب رئيس الوزراء الى مسؤولي المستوطنة . وانتزع يعقوب لڤين خاتم الشمع فتعرَّف فوراً على توقيع مناحيم بيغن في أسفل الرسالة ، وقرأها بصوت عالٍ :

« يتوجّب عليَّ ، بكل أسف ، أن أعلمكم أنه ، لسبب يتعلّق بسياسة الدولة العليا ، ينبغي على جميع سكان مستوطنة « ايلون سيشام » إخلاء المستوطنة هذا الثلاثاء الواقع فيه ١٥ كانون الأول قبل الساعة الحادية عشرة صباحاً .

« إن قوات الدفاع الاسرائيلية قد تلّقت الأمر بأن تقدِّم لكم وسائل النقل اللازمة نحو المنطقة المعدَّة لاستقبالكم .

« وفي حال عدم تنفيذ هذا الأمر ضمن المهلة المحدَّدة ، فان قوات الدفاع الاسرائيلية ستعمد الى اخلاء الأمكنة بالقوّة . » .

ورفع لڤين ببطء وجهه الملتحي ، وقد تمكّن كل واحد من أن يرى في عينيه انعكاس ذهوله . والتفت نحو ابراهيم كاتسوڤر رئيس المستوطنة ، قائلا :

ـ يجب تأليب جميع الناس ، يا ابراهيم ، فلن يمسكونا كالكلاب !

***

في مقره الجميل في « غراسي منشين » ، على ضفّة « الإيست ريڤر » ، كان رئيس بلدية نيويورك قد شرع بتناول البيض المخفوق . وكان وجه « أب سترن » مُدمَّراً . لقد اعتزم في النهاية أن يغادر القيادة العامة التحأرضية ، عند الساعة الثالثة صباحاً ، مفضلا الرجوع الى منزله بشكل ظاهر حتى لا يثير فضول الصحفيّين الذين يترقبون دائماً عدم تحفظ المعنيين ، ولكنه ، لم يغمض له جفن طيلة ما تبقى من الليل ، مُجتراً الى ما لانهاية صور الكابوس المرعب الذي كان يلازمه . والآن كان قد بقي أقل من خمس ساعات على انتهاء مهلة انذار القذافي .

وكان اكتشاف الاشعاعات في مستودع « كوينز » وفي الشاحنة الصغيرة التي استعملت في نقل القنبلة ، واليقين بأن احد الفلسطينيين الذي كان قد أسهم في البرنامج النووي الليبي والسائق الذي أتى لرفع حمولة الـ « ديونيسوس » ، إنما كانا شخصا واحدا ـ كل ذلك كان قد أزال نهائيا الأمل المجنون الذي كان « سترن » قد غذاه لا شعوريا خلال تلك الساعات الاخيرة كلها . اجل ، كانت القنبلة موجودة حقا .

وانتزع رئيسَ بلدية نيويورك من افكاره دخولُ زوجته ، وقد لفّت قامتها النحيلة بكيمونو(×) من الأطلس بلون الورد الذابل ، كانا قد اشترياه معا من طوكيو عام ١٩٦٠ . وقال متعجباً :
ـ لماذا أفقت باكرا الى هذا الحد ؟

لم تجب « استير سترن » بل عانقت زوجها .
ـ ميلاداً سعيداً ، يا حبيبي « أب » ، مفعماً بسنوات الصحة والسعادة .

كان « أب سترن » قد نسي ، بسبب هـوْل تلك الساعات المأساوية ، أن ١٥ كانون الأول كان عيد ميلاده الثاني والسبعين .
ـ ممّ تشكو يا عزيزي ؟ لقد سمعتك الليل كله وأنت تتقلب .

دمدم قائلاً :
ـ لا شيء ، لا شيء ، على الاطلاق ،فلم أتمكن من النوم ، هذا كل ما في الأمر .

وأشارت زوجته الى صحته ، بلهجة عتابية وقالت :

ـ لماذا تأكل البيض مع الفطور ؟ أنت تعلم أن الدكتور « موري » قد منعك من تناولـه . فهـو مُـضِـر بسبب الكولسترول الذي تشكو منه .
ـ طُـزْ بالكولسترول !

وغرس « سترن » سكينه ، بغضب مفاجىء ، في قطعة الزبدة ونشر طبقة كثيفـة منها على خبـز محمَّص .

ـ اذا ما مِتُّ بسبب السُّداد ، فصدقيني أن ذلك لن يكون بسبب البيض . متى تُـقلِع طائرتك ؟

كانت « استير سترن » تسافر كل سنة ، في الوقت نفسه ، لقضاء أعياد الميلاد بين أحفادها . وكون القدر سوف يُوفـِّرها ، كان عزاء رئيس بلدية نيويورك الوحيد .
ـ لا أدري اذا كنت أرغب حقا في السفر .

وزمجر ، وهو يضرب الطاولة بقبضته :
ـ ماذا ؟ ما بك ؟ يجب ان تسافري .
ـ لماذا تصر على ذهابي ، الى ذاك الحد ؟ أتكون قد مَللت مني ؟
ـ استير !

وكان في صوته لهجة عتاب . فبعد اثنتين وثلاثين سنة من التفاهم الزوجي التـام ، كيف كانـت تستطيع التفوّه بمثل هذا الكلام ؟
وألحَّ ببساطة :

ـ يجب ان تستقلي طائرتك والا اصيب الاولاد بخيبة امل شديدة .

صبّت « استير » لنفسها فنجان قهوة شربته ، ساهمةً ، جرعات صغيرة . وكان شعرها الأبيض يتماوج ، كشعر ملاك منسي على شجرة قديمة للميلاد .

(×) كيمونو : فستان فضفاض تلبسه النساء في اليابان .

ـ كنت أمزح ، لا ريب في ذلك فاغفر لي (وكانت تنظر الى زوجها بحنان عميق) ولكنني أشعر أن شيئا ما ليس على ما يرام ، يا « أبْ » . هناك شيء يقلقك . ما هو ؟ قل لي ما هو ، أرجوك .

وأطلق « ستيرن » تنهدة . فبعد حياة مشتركة طويلة جدا ، لم يعد من الممكن ان يكون بينهما أسرار .

وأجاب اخيراً :

ـ نعم ، هناك شيء خطير ، خطير جداً . ولكنني لا استطيع ان أقوله لك . أناشدك يا « أستير » أن تستقلي طائرتك.امنحيني على الأقل هذا الفرح . سافري الى ميامي .

ونهضت استير ، فاقتربت من زوجها واخذت وجهه بين يديها المشوهتين بالاعتلال المفصلي .

ـ سواءً أقلت الكثير او القليل عن ذلك الشيء ، فليس ذلك مهما . . . ولكن لما كان ذلك الشيء خطيراً ، فيجب ان ابقى الى جانبك وليس في ميامي .

وخلف شجر الدردار العارية في الحديقة ، شاهد رئيس بلدية نيويورك بزوغ النهار فوق مياه « إيست ريڤر » المغطاة بالضباب .

وفكَّر ، وهو يداعب برفق يديْ زوجته ، كم هو جميل هذا ، كم هو جميل !

***

في مركز القيادة التحارضي حيث كان المأمورون ورجال الشرطة يعملون بلا هوادة ، كانت عملية التحدِّي الجبارة قد غيرت فجأة اتجاهها متّخذة بعداً جديداً . فان تتبُّع خطى جميع العرب الذين دخلوا الى الولايات المتحدة منذ ستة اشهر ، وكذلك التحّقيق في منطقة الأرصفة ، قد تخُليَّ عنهما كليهما . ورُكِّزت جميع القوى الجاهزة حاليا على الفلسطينيين الثلاثة ، في أضخم مطاردة للانسان عرفتها مدينة اميركية .

وكان « آل فلدمان » قد قضى الليل بكامله يُنسِّق مع مكتب التحقيقات الاتحادي عمل قواتهم ، بكامل عديدها ، هذه المرة . ولما كان المشبوهون الثلاثة قد حُدِّدت هوياتهم ، فقد تقرر أن يُلقَى في المعركة بجميع حُرَّاس الأمن في نيويورك الاثنين وثلاثين الفاً . وبغية المحافظة على السر وتجنُّب أية امكانية ذعر ، أُعلن عن الاخوة الدجاني بأنهم قتلة جنديَّيْن درّاجيّن من شرطة شيكاغو . ذلك أن « فلدمان » كان يعلم أن رجال الشرطة يبدون اكبر قدر من الحماس عندما يتعلق الأمر بالبحث عن قتلة زملائهم .

وكانت قد سُحبت عدة آلاف من النسخ عن البطاقات البيانية المتعلقة بالفلسطينيين الثلاثة ، مع صورهم . وعند الفجر كانت هذه المستندات قد وزِّعت على جميع المأمورين الذين حضروا لاستلام مهامهم في جميع مفوضيات المدينة ، بمن فيهم اولئك الذين كانوا قد أكملوا حراستهم الليلية والذين جُندوا لدورة جديدة من العمل . وكانت التعليمات الموجهة الى الجميع واحدة : عليكم ان تدعوا كل شيء هذا الصباح ، اللصوص والنشالون والسائقون الرعناء والسكيرون وتجار المخدرات والبغايا ، إن مهمتكم الوحيدة هي البحث عن الأشخاص الثلاثة قتلة الشرطة الذين زُوِّدتم بصورهم .

ولما كان « فلدمان » مقتنعاً بأن أحد آل دجاني الثلاثة على الأقل سيظهر بين لحظة وأخرى ، فقد نظّم مخططاً عاماً للتحريات بالنسبة لكل مفوضيَّة . وكان المقصود عرض صورة المشبوهين على جميع باعة الصحف ومستخدمي المخازن الكبرى وخدم الحانات وجميع امينات الصندوق في محلات الخدمة الذاتية

وحانات الهمبرغر والبيتزا وجميع بائعي السندويش والبطاطا المقلية ومديري المشارب وخدم المطاعم والمكلفات بالمراحيض وبنات حجرات الثياب وجميع أرباب العمل والمستخدمين والبائعين والقيمين وامينات الصندوق في جميع مخازن الأغذية ، من أحقر بقالة في بروكلين حتى أضخم المخازن الكبرى في كوينز ! وقد اجري الشيء نفسه بالنسبة لباعة الهوت دوغ والأشربة الغازية المتجولين وحراس بيوت الخلاء والحمامات العامة ومديري الحمامات التركية .

وكُلِّف مفتشو الأخلاق بالتحقيق مع البغايا وفي صالونات التدليك والحانات الجنسية وفنادق الدعارة ، ومع رجال المخدرات بين المدمنين ، وإن كان فلدمان يشك بأن ارهابيين على هذا النطاق الواسع يمكن ان ينجرّوا الى اغراءات سالبة للحرية من ذلك النوع . ووُضع بعض رجال الشرطة لدى جميع صناديق المكوس وعند مداخل ومخارج الجسور والانفاق ، مع التنبيه على وجوب تفحص ركاب جميع السيارات . ووُزِّع مأمورو شرطة المترو الثلاثة آلاف على أبواب الشبكة الدوّارة .

وكان « كانتن دوينغ » ، من جهته،قد ارسل آلاف رجال الشرطة للبحث في الفنادق والمنازل المفروشة ووكالات تأجير السيارات . وذهب بعضهم الى الوكالات العقارية لتدقيق عقود الايجار الموقعة خلال الأشهر الستة الأخيرة ، على أمل العثور على مخبأ القنبلة . وعمل البعض الآخر مع اختصاصيي منع الاجرام في كل مفوضية ، فأخذوا يتلفنون الى مئات التجار ليجمعوا منهم أية معلومات حول أيّ حادث غير عادي حصل في حيّهم ، وهناك فئة منهم كانت ترافق مفارز « ناست » وتفتش جميع الأمكنة والعقارات المهجورة بواسطة عدادات « جايجر » وآلات الكشف .

وكان اتخاذ تلك الاجراءات قد أثار نقاشاً حاداً ، وكان التساؤل يدور حول إشراك وسائل الاعلام بالعملية . كان « فلدمان » يريد إبلاغ الاعلام صور الأشقاء الدجاني الثلاثة وأوصافهم : الصحف والراديو وأقنية التلفزيون ، وكان يأمل أن يكسب وقتاً ثميناً باشراك الاهالي في عمليات البحث . ولكن واشنطن ، عن طريق« جاك ايسمان » ، كانت قد أبدت اعتراضاً قاطعاً بهذا الشأن ، ومنذ حادث الآلة الفاحصة والنظارات السود ، كان مساعد الرئيس لشؤون الامن القومي ، يُبدي أشدّ الحذر إزاء القذافي . وكان لديه ما يحمله على التفكير بأن رجل ليبيا لم يرسل الى نيويورك الا فدائيين مُستعدّين ليفجّروا أنفسهم مع القنبلة ، وكان لا يريد المجازفة بحملهم على تفجير القنبلة قبل أوانها ، لو اكتشفوا اسماءهم في الصفحات الأولى من الصحف .

حكَّ « فلدمان » ذقنه ذات الشعر الخشن ، واعد لنفسه فنجاناً من القهوة . فما كان عليه الا الانتظار ، وفيما كان يحتسي ببطء السائل الحار ، كان يبحث عما اذا نسي شيئاً ، وشعر عدة مرات برغبة مجنونة بأن يتلفن الى زوجته في منزلها في « فوريست هيلز » شمالي نيويورك ، ليقول لها بأن لا ترسل الأولاد الى المدرسة وأن تأخذهم الى أبعد مكان ممكن ، وفي كل مرَّة ، كان يكبح جماح نفسه ، وقال في نفسه : إنني اتساءل إذا كان « بانيون » العجوز قد أخبر زوجته .

وهنا دخل مدير الشرطة ، وعيناه مُحاطتان بالزرقة ولونه شاحب . وكان « بانيون » ، غداة تعيينه ، قد ترك مقرّه في « لونغ أيلاند » ليقيم في قلب مانهاتن ، تعبيراً عن مشاعر التضامن مع أهالي نيويورك . وأمام هيئته المرهقة والمفعمة بالبؤس ، خجل رئيس المفتشين بما كان قد فكّر به لتوّه .

وسأله مدير الشرطة ، وقد بدا عليه الارهاق :

ـ ما رأيك ايها الرئيس ؟ هل تتوقّع نجاحنا ؟

وكان « أل فلدمان » دوما ذا طبع متشائم ، وقد ابتلع آخر جرعة من القهوة المرّة في قعر فنجانه ورفع نظرة كئيبة وهو يقول :

- بصراحة ، لا ، يا حضرة المدير ، أنا لا أعتقد ذلك ، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الوقت القليل الباقي امامنا .

****

الفصل التاسع

« بحقّ السماء ، احصلوا لنا على أربع وعشرين ساعة إضافية » .

واكب اثنان من الشرطة العسكرية « غريس نولاند » إلى داخل ثكنة « بارك أفنيو » . وكان ضابط شاب ينتظرها في قاعة الاستقبال . وقد قدَّم نفسه مبتسماً ، وأعلن بتلك الحرارة التي يتسم بها محترف اصيل للعلاقات العامة :

ـ الرائد « ماك أندروز » ، دائرة الصحافة في الجيش . إننا حقا ممتنّون يا سيدتي لاهتمامك بأعمالنا .

وقاد الصحفية ، مندوبة النيويورك تايمس ، الى الممر ، وأدخلها الى مكتب رائع الإنارة . وقال وهو يُقدِّم الضابط ذا الهيئة المرحة ، الذي كان قد وقف عند دخولها :

ـ ها هو الرائد « كالون » ضابطنا للعمليات .

وقدَّم الرجلان مقعدا للمرأة الشابة ، وسأل « ماك اندروز » بتلطُّف :

ـ كيف تحبّين قهوتك ؟

ـ سوداء وبلا سكر . شكراً .

واذ خرج « ماك اندروز » ليحضّر القهوة ، وضع « كالون » رجليه ، بلا اكتراث ، على مكتبه وأشعل لفافة ، ثم أشار الى خرائط منطقة نيويورك التي كانت تُغطي الجدران قائلا :

ـ بالاختصار ، فان الهدف من تجربتنا هو تنظيم بيان بالاسعافات التي سيتمكن الجيش الأول من تقديمها الى مدينة نيويورك ، عند حدوث كارثة طبيعية ، كتلك العاصفة الثلجية في الأسبوع الماضي ، أو عطل عام في الكهرباء أو زوبعة .

ونهض الرائد مشيراً بعصاه الى مختلف إنشاءات الجيش الأول في القطاع .

ـ ولنأخذ قاعدة « ماك غير » الجوِّية ، هناك في « نيوجرسي » . فهي تقدم بلا ريب تسهيلات للاخلاء بطريق الجوّ ، ولكن ليس هذا ما يساعد على ازالة الثلج من الشوارع ، أليس كذلك ؟

أطلق الضابط همهمة رضى قصيرة وتابع شرحه بمنتهى الجديَّة . ودام عرضه نصف ساعة كاملة ، أي الوقت الذي اعتبره ممثل مكتب التحقيقات الاتحادي كافيا لاستنفاد فضول الصحفية الملح حول تنظيف نيويورك من الثلج .

وسألها بالنتيجة :

ـ هل لديك أسئلة حول نقطة معينة ؟

أجابت « غريس » :

ـ أجل ، أود استجواب بعض العسكريين المشاركين في التجربة .

ـ إحم ، ان هذا صعب بعض الشيء في الوقت الحاضر . فجميع المفارز في أوج العمل . ولما كانت مدة التدخُّل تُؤخذ كثيراً بالاعتبار في حساباتنا ، فلن يكون من المناسب إزعاجها ، لأن ذلك سوف يفسد نتائجنا ، ولكن اليك ما استطيع أن أفعله : إذا تفضّلت بالرجوع مساء الغد ، بعد انتهاء

التجربة ، فسأهيىء لك فرصة الاجتماع بمن تشائين من الأشخاص .
- على أن تحصر المقابلة لي فقط .
- العملية محصورة بك .

وفكّرت « غريس » : « هذا حسن جداً » . وشكرت الضابط وهي تقفل دفتر مذكراتها . ورافقها « ماك اندروز » حتى باب الثكنة . وفيما كانا يجتازان الردهة الفسيحة ، حيث كانت تحضر بين حين وآخر لمشاهدة ابنها وهو يلعب بالتنس ، استرعى اهتمام الصحفية أمر . فقد دُهشت لدى مشاهدتها عدداً كبيراً من الشاحنات الصغيرة بألوان وكالتيْ « هرتز » و« أفي » وقد حلت محل الشاحنات ذات اللون الأخضر الزيتوني التابعة للحرس الوطني التي تقف عادة هناك .

- ماذا تعمل هناك هذه الشاحنات المستأجرة ؟ هل تشترك هي أيضا بالتجربة ؟

وتردّد الرائد الذي بوغت ثم قال :
- يعني . . . اننا نستخدمها في نقل المعدات ، فهي تقدم لنا عوْنا تموينياً ، على نحو ما .

واستغربت غريس قائلة :
- ألا يملك الجيش اذن وسائل كافية للنقل ؟
تظاهر « ماك اندروز » أنه بحاجة للتمخُّط ليعطي نفسه الوقت لإيجاد حجَّة مستساغة .

- أكيداً ، يا سيدتي ، الجيش يملك تلك الوسائل،ولكن بسبب حجمها ، فان شاحناتنا العسكرية تتحرك بصعوبة في شوارع المدينة المزدحمة . ويخشى ان تُسبِّب عرقلة سير خطيرة . لذلك ، فإننا نفضِّل استخدام ذلك النوع من السيارات السهلة الاستعمال ، لتجنّب إزعاج الأهالي .

وسُرَّ الشرطي المتنكِّر بثياب رائد بُلقْيته .

وقالت « غريس » بسخرية :
- آه ، أفهم ألاّ يتأخر الجيش عن بذل أية نفقة .

وعند لحظة الانصراف ، تذكرت وعدها عند العشية للشرطي العسكري الشاب الذي كان يتولى حراسة الثكنة .
- أتظن ، أيها الرائد ، أنه يمكن استدعاء الملازم « دالي » ؟ لقد كان في غاية اللطف إزاء إبني مساء امس وأود أن أشكره .

***

كان الرئيس يستشعر لذّة منافع التدليك البارد المُنشِّط . يا لها من بركة تلك الرشّاشة ذات القذف الفائق القدرة ! كانوا يدعونها في البيت الأبيض : « مُنبِّه ليندون » . فقد كان الرئيس « جونسون » هو الذي أنشأها . وكان رئيس السلطة التنفيذية الحالي قد أدى الى مخدعه عند الساعة الرابعة والنصف صباحاً ، ليأخذ لنفسه فترات من الراحة . ولكن ، شأنه شأن رئيس بلدية نيويورك ، لم يغمض له جفن ، وقد تسلّط عليه البحث عن حلّ أعجوبة . عيدي أمين دادا ، الخميني واليوم القذافي . . . ان توازن الكوكب الهشّ كان ، الساعة ، يتفتّت تحت تأثير نزوات هؤلاء المُتعصِّبين الذين أسكرهم الكره . ولكن ، في الأساس ، ألسنا نحن المسؤولين عن أرتقاء مثل هؤلاء المُسوخ - كان يردد ذلك في سرِّه - نحن البلاد الصناعية التي استولى عليها نَهَم البترول الذي لا يرتوي ؟

وكان مدير الخدم قد رتّب لتوّه ، مائدة فطوره المعتاد : كأس من عصير البرتقال وقهوة وبيضتين برشت وخبز محمّص تماماً . وقد جرع عصير الفاكهة واحتسى فنجان القهوة السوداء ، ولكنه لم يقترب من الباقي ، فقد كان عديم الشهيّة ذلك الصباح . وكعادته كل يوم ، ضغط على أجهزة تحريك آلات التلفزيون الثلاث المصفوفة عند أسفل سريره ، ليطلع على الأخبار الصباحية التي تبثّها الأقنية القومية . وأضاء وجهه عندما شاهد زوجته تخطب في جمعية **الفتيان** المعاقين في « الينوا » ، وكان قد طلب منها الاشتراك في تلك الحفلة المنظورة منذ زمن بعيد ، وذلك رغبةً منه في المحافظة على مظاهر الوضع الطبيعي ، ثم عاد بخطى ثابتة الى قاعة الاجتماعات ، وقد انتعش بتلك الصور المؤثرة و**بقناعته** بأنه لم يتسرّب شيء من المأساة الحالية .

وكان جميع أعضاء لجنة الأزمة في القاعة بحالة يرثى لها . وقد حاولوا ، كلٌّ بدوره ، أن يختطف لحظات من الرقاد في مقعده ، ولكن أغلبهم لم يظل صامداً الا بفضل المُسكّنات . وحده جاك ايسمان ، وقد حلق لتوّه ، كان ذا وجه طبيعي تقريباً .

وما أن اتخّذ الرئيس مكانه ، حتى شرح له معاونه لشؤون الأمن القومي المعلومة الوحيدة الهامة التي وصلت اثناء غيابه ، وهي رسالة من الكرملين .

فقد توجّه السفير السوفياتي في طرابلس ، بناء على أمر موسكو ، الى مقر القذافي وناشده أن يمدد مهلة انذاره وان يستأنف المفاوضات مع واشنطن . ولكن رجل ليبيا ظل مُتمسكاً بموقفه ، وأعلن ، حسب رواية الديبلوماسي الروسي ، عن استعداده للموت وترك بلاده تُدمَّر ، في حال عدم استجابة مطالبه . ولما كان المخلصون له والمحيطون به لا يقلّون تصلباً عنه ، كما بدا له ، فلم يكن ثمّة أي أمل بانقلاب يُبدِّل الموقف .

وبعد ذلك قدَّم إيسمان الى رئيس الدولة ثلاثة قادمين جدد الى قاعة الاجتماعات ، وهم ألوية الطيران وجيش البر وجيش البحرية ، المسؤولون عن مشروع طرد المستوطنين الاسرائيليين من الضفة الغربية .

وأعلن الأميرال « فولر » رئيس لجنة اركان الحرب :

ـ حضرة الرئيس ، يجب ان نتخذ بصورة عاجلة عدة مقررات . القرار الأول يتعلق بالفرقة الثانية والثمانين المنقولة جواً والمفرزة الثانية المُدرّعة . وقد أصبحت الطائرات الأولى على وشك الوصول الى منتصف الطريق ،فهل ينبغي أن ندعها تتابع طريقها ؟

وكانت الفرقة الثانية والثمانون المنقولة جواً والمعسكرة في « فوربراغ » في كارولينا الشمالية والمفرزة الثانية المدرعة في معسكر « هود » في التكساس ، قد وُضعتا في حالة التأهّب خلال الليل . وكانت هاتان الوحدتان الكبيرتان تنتميان ، كما يعلم الرئيس ، الى قوة التدخُل السريع التي أنشأها عام ١٩٧٩ للاستجابة الى ضرورات السياسة الخارجية الاميركية . وكان مئة الف جندي من النخبة المُدربين تدريباً خاصاً والمجُهزين أحسن تجهيز ، يمكن إيفادهم ، دون أيّة مهلة ، الى أية نقطة ساخنة ، من الكرة ، وكان هؤلاء الرجال ، قد وُضعوا سرا مرتين خلال ١٩٧٩ ، في حالة التأهّب للتدخل في الخليج الفارسي . المرّة الأولى في العربية السعودية ، على أثر التهديد بالمؤامرة ضد النظام القائم في الرياض ، والمرّة الثانية لاستلام مراقبة المنشآت البترولية الايرانية في عبادان ، إبان الأزمة التي فجّرها أخذ رهائن السفارة الأميركية في طهران .

واليوم، كانت جيوش النخبة تلك، قد نقلت مع **معدّاتها على** متن أسطول جويّ من طائرات «س

« غالاكسي » . وكانت الطائرات تتجه نحو المانيا ، موزّعة الى اثني عشر سربا ، وكان سرب الطليعة قد أصبح الأن بعيداً فوق المحيط الأطنلطي .

وقبل أن يجد الرئيس الوقت للاجابة على سؤال الاميرال تدخل ميخائيل يورك ، رئيس الديبلوماسية الاميركية ، الذي كان قد عاد ليلا من أميركا اللاتينية ، وقال :

- لقد تلقينا ترخيص المستشار « شميدت » . وأصبح بامكاننا ان نستخدم قواعدنا في المانيا كمهابط لطائراتنا .

واستأنف الاميرال « فولّر » :

- القرار الثاني يتعلّق بانزال قوات البحرية التابعة للأسطول السادس . أيها اللواء ، الكلام لك .

وتوجّه لواء القوات البحرية ليضغط على زرّ كشف احدى الشاشات المركّبة في الحائط . وظهرت عندئذ صورة يبثّها « البنتاغون » وتُبيِّن القسم الشرقي من البحر المتوسط وموقع القوة البرمائية للقوات البحرية التابعة للأسطول السادس ، وكانت عبارة عن حاملتين للطوّافات واربع سفن هجومية . وكانت هذه العمارات على بعد عشرين ميلاً بحرياً من الشاطىء اللبناني ، شمالي بيروت تماماً .

- لدينا ثلاث امكانيات يا حضرة الرئيس . الأولى إنزال جيوشنا هنا في منطقة صور ، في لبنان الجنوبي ، أو شمالاً ، في جون جونيه ، الواقع تحت سيطرة الكتائب المسيحيين . والثانية إنزالها هنا قرب اللاذقية ، في سوريا ، أي الى الشمال تماماً . والثالثة نقلها مباشرة بالطوّافات الى الأردن حيث ستكون فعلاً على مقربة من أهدافها . ولكن ينبغي في سبيل ذلك الحصول على موافقة الملك حسين .

وتدخّل أمين الخارجية :

- إن سفيرنا في عمان تحدَّث لتوِّه مع العاهل الأردني ، الذي وافق على السماح لنا بإعادة تجميع وحداتنا على مطاراته ويضمن لنا تكتُّمه التامّ .

وسأل الرئيس :

- وماذا بشأن قوة التدخّل السريع ؟ أية وجهة عيّنتم لها ؟

أجاب الاميرال « فولر » :

- إن المكان الوحيد المناسب سيكون دمشق ، لأننا سنجد في مينائها الجوّية جميع التسهيلات لانزال العتاد الثقيل .

- هل أجرينا اتصالا بالأسد ؟

فأجاب أمين الخارجية :

- لا ، ياحضرة الرئيس. فقد اعتبرنا أن من الأفضل التريث حتى نتلقى منك الضوء الأخضر . علماً بأن علاقاتنا مع الرئيس السوري لا تتّسم بطابع الثقة نفسه الذي تتميّز به علاقاتنا مع الملك حسين .

وتريّث رئيس السلطة التنفيذية بعض الوقت ليراجع في ذهنه جميع معطيات القضية قبل إعلان مُقرراته .

- حسناً ، أيها السادة . فلتواصل وحدات قوّة التدخل السريع طريقها حتى ألمانيا . ولتستعدّ هناك

للإقلاع نحو الشرق الأدنى . خابر سفيرنا في دمشق وقل له ماذا ننتظر من الأسد . ولكن اوصه بأن لا يتّصل به قبل أن يتلقى تعليمات جديدة .

ثم التفت نحو لواء البحرية .

ـ أما فيما يتعلق بك ، فكن مستعداً للانزال في جونيه ، في مرحلة اولى ، ومن الأرجح ان تتلقّى فيها قواتك استقبالاً ودّياً اكثر من منطقة صور حيث قد لا تكون المدفعية الاسرائيلية جدّ مضيافة . وعندما نعلم الأسد ، فإننا سوف ننقلها بالطّوافات عبر سوريا الى الأردن . ولكن في الوقت الحاضر يجب ان يبقى الجميع على متن المراكب . فلا إنزال بلا أمر صريح مني .

وفكّر الرئيس لحظة ، وخاطب ، أخيراً ، أمين الخارجية قائلاً :

ـ أعدّ ، يا ميخائيل ، رسالة الى الكرملين تشرح فيها تدخّلنا وأسبابه . وتصرّف بطريقة تصل بها تلك المعلومات الى علم القذافي ، ووجّهْ رسالة مماثلة الى القائم بأعمالنا في طرابلس ، إذ ينبغي ، مهما كلّف الأمر ، ألاّ نترك أمام القذافي أية فرصة لأيّ تأويل خاطىء لهدفنا ، فيقرّر استعجال تصرّفه . واغتنم تلك المناسبة لاعلام الروس بأننا سوف نكون ممتّنين جداً لهم ، إذا ما استطاعوا ممارسة كل الضغط الممكن على القذافي لتمديد مهلة انذاره بضع ساعات .

واستوضح أمين الخارجية :

ـ والاسرائيليون ؟ ألا ينبغي إخطارهم ايضاً ؟ فاذا ما شعروا بأننا لا نخادع ، فقد ينتهي بهم الأمر الى اخلاء مستوطناتهم بأنفسهم .

وساع الأميرال « فولر » الى الاجابة :

ـ اذا كان لا بد أن نجابه تجربة قوة مع الاسرائيليين فأنا أناهض بشدة أية فكرة ترمي الى كشف نوايانا لهم قبل عدة ساعات .

وخلال فترة الصمت المتّسم بالضيق ، كان كل واحد يرقب ردّ فعل الرئيس .

ـ لا تسترسل مع الأوهام ، أيها الأميرال . فلسنا بحاجة لابلاغ الاسرائيليين العملية التي نعتزم القيام بها ، لأنهم سيكتشفونها بأنفسهم .

***

إنه حقاً عملُ ساعاتيّ .

كان « أنجيلو روكيا » ينتشي وهو يشاهد اختصاصيي المختبر الجنائي التابع لمكتب التحقيق الاتحادي يفكّكون الشاحنة الصغيرة طراز فولكسفاكن ، التي كانت قد استخدمت لنقل القنبلة من الـ « ديونيسوس » الى مخبأها النهائي . وكانت مئات القطع من السيارة تنتشر هناك ، مبعثرة ، على اسمنت أحد مرائب وكالة « هرتز » ، في الجادّة الرابعة من بروكلين .

وكان كل واحد من عيوب الهيكل السبعة والثلاثين ـ خدوش أو ضربات أو صدمات ـ وبعضها لا يكاد يظهر ، قد أحيط بعلامة حمراء . وكانت أقل شظية دهان تُفحص بواسطة مُعدّات للتحليل الطيفيّ ، أُرسلت بالطائرة من واشنطن .

وكانت مفرزة من الشرطيين الاتحاديين قد نظموا بدقة تاريخ السيارة ، وانطلاقاً من عقود الايجارات ، فقد بحثوا عن جميع مُستعمليها خلال الأسبوعين الأخيرين ، وشكلوا معهم خطوط السير التي سلكتها . وكانوا قد استدعوا الزوجين الشابين اللذين كانا قد استأجراها بعد الفلسطينيين لمعرفة ما اذا كانا قد وجدا فيها شيئا ـ غلاف للثقاب او منديل مطعم من الورق او خريطة طرق ـ من شأنه أن يدل على الأماكن التي كان الإرهابيون قد ارتادوها في اليوم السابق .

وكان صمغ الدواليب قد أُخضع للتحليل بالمجهر لاكتشاف أية جُزيئة قد تنبيء بطبيعة الأرض التي ساروا عليها او توقفوا فوقها . وكان بساط السيارة قد اخضع هو ايضا للفحص في محاولة لاكتشاف ما علق به من غبار او أيّ جزء من نِعال آل الدجاني ، على أمل توجيه التحقيق جغرافياً . ولم يُهمل أي شيء . ولما علم الشرطيون الاتحاديون أن أعمال دهان كانت قد أُجريت يوم الجمعة المعنيّ فحصوا بالمكبِّر كل سنتيمتر مربع من الهيكل : فان أي اثر من الدهان نفسه كان من شأنه أن يثبت أن الإرهابيين كانوا بالفعل قد نقلوا قنبلتهم الى مانهاتن .

إن هذا لعجيب ! كان أنجيلو مُغتبطاً من فرط الاعجاب بكل تلك الدقة والضبط والوضوح . غير ان تلك التحرّيات الهائلة لم تسفر عن شيء . وكان لتوِّه قد قضى اكثر من ساعة في مكتب وكالة « هرتز » ، وهو يُدقِّق نتائج التحقيق . وكان من المعلوم أن وليد وكمال دجاني كانا قد حضرا الى الوكالة صباح الجمعة حوالي الساعة ١٠/٣٠ . وقد أفاد المستخدم أنه يذكر أنهما طلبا شاحنة صغيرة لنقل بعض الأثاث . وكانت تلك الدقّة تدلّ على أنهما كانا يعرفان القواعد التي تنظّم استئجار سيارات النقل . فالواقع أنه ، لأجل استعمال هذه السيارة في نقل بضائع من الأحواض ، لم تكن إجازة السوق المسروقة ، التي كانت بحوزة كمال ، كافية ، بل كان سيُطلب منه إجازة نقل تجارية . وكان المستخدم يذكر ايضاً أن زبونيه كانا قد استعلما عن الحمولة القصوى التي كان بإمكان الطراز المطلوب ان ينقلها . وقد بدا عليهما الرضا عندما علما ان الحدّ الأعلى كان ثلاثة أطنان .

وحسب الساعة المختومة على عقد الايجار ، فقد استلما السيارة عند الساعة ١٠/٤٧ ، وكان كمال قد أعادها وحده ، مساء اليوم نفسه عند الساعة ١٨/١٥ بعد اقفال المكتب . وكان حارس الليل قد ردَّ الى الخزّان واحداً وستين ليتراً ونصفاً من البنزين ، وبالنسبة الى الاربعمئة وعشرة كيلو مترات المُسجَّلة على العدّاد ، فان ذلك كان يُمثل استهلاكا متوسطا قدره خمسة عشر ليترا للمئة كيلو متر ،وكان ذلك طبيعيا. وكانت الاشارة الوحيدة الدقيقة التي يملكها المحققون هي الساعة ـ ١١,٤٢ ـ المُسجَّلة من حارس الأحواض على تذكرة رفع البضاعة . هذا تقريباً كل ما كان معروفا . وكانت مفرزة قد أمضت الليل للتثبت ، بواسطة ناظمة المكتب ، من المخالفات المرتكبة يوم الجمعة ضد نظام الوقوف . ولكن ذلك لم يُسفر عن شيء .

كان انجيلو قد خرج الى الباحة . وكان يذرع ، مفكّراً ، الاسمنت المُشقَّق ، محاولاً الإحاطة بمجمل الوضع في ضوء المعلومات الهزيلة التي كانت متوفرة لديه .

ـ يا هذا ، عمّ تبحثون جميعكم ، هنا ، منذ ساعات ؟ هل تبحثون عن قاتل ؟

كان أنجيلو قد تعرَّف على الحارس الذي أعاد اليه كمال دجاني الشاحنة الصغيرة ، ووضع يده ، بودّ ، على كتفه .

ـ أجل ، اننا نبحث عن قاتل ، وبوسعك أن تساعدنا على انقاذ ضحاياه المقبلة . فلنحاول مرَّة أخرى مراجعة ما جرى مساء الجمعة ، أتريد ذلك ؟

ـ انك تمزح ، أليس كذلك ؟ (وكان سخط الحارس جَلياً) لقد سبق أن قصصت كل شيء على زملائك، هناك . كان هذا المرأب ، يوم الجمعة ، ميدان تزلّج قذراً . اليك عني ، لقد اضعت وقتي هكذا بما فيه الكفاية . وداعاً !

واستأنف انجيلو تجوّله البطيء . وتوقّف فجأة . لقد قال الحارس : « ميدان تزلج قذر » . ميدان تزلج قذر . . .؟ أجل ، كيف لا ؟ . . . الأمر معروف : بعد سقوط الثلج ، يتزايد عدد حوادث السير . والحال ، كيف يستطيع العرب قيادة السيارات فوق الثلج ؟ ميدان تزلج قذر . . يجب التثّبت من الأمر حالاً ، فمن يدري ؟ »

***

كانت « غريس نولاند » تبتسم للملازم الشاب الجالس قبالتها ، وقد أخجله الموقف . وكانت تفكِّر : كم أنّ هذا مؤثر ! أكاد اكون أمّه ، ومع ذلك فهو ينظر اليّ نظرة غرام . وكانا قد جلسا حول طاولة ، في متجر كبير في شارع ماديسون ، وكانا يتناولان القهوة والكعك المُحلّى . وقال الضابط الشاب :

ـ ينبغي أن تعرفي أنني لا أنتمي في الواقع الى الشرطة العسكرية ، بل الى المشاة . وما وجودي في نيويورك الا بسبب مُهمّة محض موقتة . .

ـ حظُّك كبير ! إنه لرائع ان تجد نفسك فجأة في نيويورك .

ـ ليس بالقدر الذي تظنين ، تصوري اننا أُوفدنا الى هنا بلا تحذير وأنه لم يُلحظ أيّ شيء لاقامتنا . فنحن نعسكر على الأرض ـ في أكياس للنوم . وأما الطعام ، فيُوزَّع علينا جرايات باردة ، كما في الحرب .

وقالت « غريس » مندهشة :

ـ حقاً ؟ أتريد أن تقول ان الجيش يبذخ في استئجار العديد من الشاحنات ، دون ان تكون لديه الوسائل لتقديم طعام ساخن لكم ؟

ـ ولكن ، ليس هو الجيش الذي استأجر تلك الشاحنات !

ـ ليس الجيش ؟

ـ كلا ، إن المدنيين هم الذين نظموا التجربة الراهنة وهم الذين يستخدمون تلك الشاحنات .

ـ لازالة الثلج ؟

ـ ليست لديّ فكرة عن الأمر . أظن أنهم يملأون الشاحنات بالآلات ، ثم يخرجون الى الشوارع ويتنزّهون بضع ساعات . لا شك انهم يقيسون شيئاً ما ! قد يكون التلوّث .

وأفرغت « غريس » فنجانها ، وقد بدت عليها الحيرة . واخذت ورقة الحساب ودمدمت ، فيما كانت تبحث عن محفظتها :

ـ آه،لقد تبينّ لي أنني نسيت دفتر ملاحظاتي في مكتب الرائد . هل تستطيع أن تعيدني اليه ؟

وبعد عشر دقائق ، كانت تخرج ثانية من الثكنة ، وهي تضم بدفق من حنان يد الضابط الشاب . واستوقفت اول سيارة اجرة كانت تسير ببطء في « بارك اڤنيو » بحثا عن الزبائن .

ودلفت الى السيارة وأخرجت دفترها فسجلت رقماً على عجل . وكانت قد عادت الى الثكنة

للحصول على تلك المعلومة . وكان المقصود رقم تسجيل احدى الشاحنات الصغيرة التي كانت متوقفة هناك .

***

- هل لديك فكرة عن عدد شاحنات ، « هرتز » التي تسير في نيويورك ، في يوم من أيام الأسبوع ؟

كان أنجيلو روكيا قد طرح هذا السؤال على المستخدم ذي الوجه المتبّر ، الذي كان يدير وكالة الجادة الرابعة ، وقد أطلق هذا الأخير صفيراً قصيراً وانقلب في مقعده ليجري الحساب .

- إننا ، هنا ، نُجري أربعين ايجاراً في اليوم ولدينا وكالتان، اخريان في بروكلين ، تضاف اليهما وكالات مانهاتن وبرونكس وكويتز . مما يجعل العدد الاجمالي يبلغ اربعئمة الى خمسئة سيارة على الأقل . و ربما اكثر من ذلك في يوم الازدحام ، لماذا هذا السؤال ؟

- اوه ! لا شيء ، مجرّد تساؤل . .

وكان أنجيلو يتابع ، عبر زجاج المكتب الصغير المزدحم ، حركة شرطة المختبر الاتحادية في المرأب المجاور . وكان يفكر : إنهم يفعلون ما بوسعهم لاستخلاص شيء ما من تلك الخُردة ، ولكن ليس ثمة أمل كبير . إلا إذا كان لديهم الوقت ، الكثير من الوقت . ولكن ، في الواقع ، لم يهتمّ احدٌ بأن يحدد لنا مهلة للعثور على ذلك البرميل المشؤوم . فضلاً عن أن هناك في هذه القضية أشياء كثيرة يخفونها عنّا . بدءاً بتقرير الخبرة ، حول الشاحنة الصغيرة ، الذي أخفاه الشرطيون الاتحاديون بسرعة ، عندما حاولت أن أشتمّ ما فيه . فقد جابهني الشرطي الاتحادي ذو الفم الكبير الذي يديرالمفرزة بكلمة « سرّي » . فما هو هذا الشيء الهام الى هذه الدرجة ، حتى لا يحق لاولئك المكلّفين بالبحث عن البرميل ، أن يطلعوا عليه ؟

التقط انجيلو حبَّة فستق عبيد من جيبه فألقاها في فمه . وكان يفكِّر في عبارة « ميدان التزلّج » وما كان قد استنتج منها . هل كان ذلك الاستنتاج مُتصنّعاً يعوزه المنطق ؟ الثلج ، زائد عربي على المقود يساوي حادثاً . هل أكون الآن كمن يبحث عن الظهر عند الساعة الرابعة عشرة ؟ أو هل أن ثمة ما يجب تقصيه ؟ ونظر الى الشرطيين الاتحاديين وهم يواصلون تحركهم حول الشاحنة الصغيرة . وقال في نفسه : بدلاً من أن أضيع وقتي وانتظر كالأبله أن ينهوا عملهم ، يمكنني أن أجري بعض الاتصالات الهاتفية .

وطلب دليل هاتف ، وقد بدا عليه التقزّز وركّب اول رقم .

- ألو ، المفوضية-الأولى ، أعطني المفتش المكلّف بالسجل اليومي .

اما السجل اليومي فهو السجلّ الذي تُدوّن فيه المفوضيات الاثنتان والثلاثون سيل الجرائم اليومية ، من شكوى امرأة ضربها زوجها حتى جنايات القتل .

وسأل بعد أن اعلن عن اسمه وصفته :

- قلْ لي أيّها المفتش ، ألا تكون ، بالصدفة ، قد سجّلت ، الجمعة الماضي « حوادث « ٦١ » ؟

وحسب اصطلاحات شرطة نيويورك ، كان الرقم « ٦١ » يُطلق على حادث سير سبَّبه شخص لم تعرف هويّته .

***

دفعت « غريس نولاند » باب مبنى النيويورك تايمس وسلَّمت بطرفة عين على الحراس الليليين المسلَّحين الذين كانوا يقومون على مدخل المصاعد . وكان ينبعث من ردهة مدخل الصحيفة الأكثر تأثيراً في العالم ، جوٌ من الوقار الصامت . وفي احدى الزوايا ، كان التمثال النصفي ذو الوجه الصارم لمؤسس « التايمس » أدولف اوكس ، يبدو وكأنه يُذكّر كل من يدخل الى هنا ان معنى الواجب كان أول المبادىء التي كان قد أقام عليها مؤسسته .

وتسلّلت « غريس » عبر متاهة قاعة التحرير راجعة الى زاويتها الصغيرة المزجَّجة ، وكان أول همها ان تطلب الادارة النيويوركية لشركة « أڤي » لتأجير السيارات . وحصلت بسرعة على المعلومة التي كانت تطلبها : فالشاحنة الصغيرة التي كانت قد أخذت رقمها في الشكنة ، كانت تخص فرع « نيوبرنسويك » ، وهي احدى مدن الولاية المجاورة لنيوجرسي . وكان عليها ان تكتشف هويَّة المستأجر . ولما كانت تعلم ان شركة « أڤي » لن تبلِّغ هذه المعلومة الى مراسل مجهول ، فقد لجأت الى حيلة يشجبها بلا ريب مؤسّس صحيفتها الصارم . وأبلغت المستخدمة في وكالة « أڤي » في « **نيوبرونسويك**» :

- **هنا الرقيبة** « لوسي هاريس » من مكتب شرطة الطرق في ولاية نيويورك ، إن أحد مراكزنا للرقابة بالرادار قد سجَّل تجاوزاً في السرعة ارتكبته احدى شاحنات وكالتكم المسجلة رقم ن ج/ ٤٨٧٤٩ وسنكون ممتنين اذا ابلغتمونا هوية وعنوان الشخص الذي نُظِّم باسمه عقد الايجار .

واعتذرت المستخدمة قائلة :

- إن ذلك سيتطلّب ، بلا ريب ، بعض الوقت ، أين يمكنني الاتصال بك ؟

- لا داعي ، أيتها الانسة ، فاني انتظر على الخطّ .

وبعد بضع دقائق ، كانت مراسلتها تبلغها ما يلي :

- حسب اجازة السوق ، المقصود هو جون ماك لينتوك مقيم ١٠٤ كلير ڤيو أڤنيو في لاس ڤيغاس . الاجازة صادرة عن النيڤادا رقم ٤٣٢٧٠١ ، معطاة بتاريخ ٤ أيار سنة ١٩٧٩ وصالحة لغاية ٣ أيار سنة ١٩٨٣ .

خربشت « غريس » هذه الايضاحات على دفترها . واعترتها الدهشة وتساءلت : بحق الشيطان ، ما الذي حملهم على البحث في قلب الصحراء عن خبير في ازالة الثلج ؟

- هل ترك رقم هاتفه ؟

- أجل ، إشارة الدَّلالة ٢٠٢ و٠٠, ٣٠, ٢٩٣ .

وشكرت الصحفية وركّبت حالاً هذا الرقم .

وأجابها أحد الأشخاص :

- هنا قاعدة « ماك غير » الجويّة .

وفهمت « غريس » وقالت : إنه عسكري . وطلبت « جون » ماك لنتوك » .

- هل بوسعك أن تذكر لي إلى أية دائرة ينتمي ؟

- لا ، لقد ترك لي هذا الرقم فقط ورجاني أن أناديه .

- إنني أصلك بالاستعلامات .

ولما لم يكن ثمة أثر للمدعو جون ماك لنتوك في قاعة ماك غير ، فقد وضعت الصحفية المُجمَّعة* وهي تشعر بالخيبة . وهكذا تلاشى حلمها الجميل بأن تفضح تبذيراً جديداً للأموال العامة . وألقت نظرة خاطفة على ساعتها . كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل حسب توقيت نيويورك ، ذلك الثلاثاء الواقع فيه ١٥ كانون الأول ـ الثامنة حسب توقيت لاس فيغاس . وقالت في نفسها : مرّة ثانية ، سأطلب مرة أخيرة ، ثم أتخلى عن الموضوع .

وحصلت ، بواسطة الاستعلامات الهاتفية في لاس فيغاس ، على رقم المدعو جون ماك لينتوك حسب العنوان المدوَّن على عقد أقي . ورنَّ ذلك الرقم الى ما لا نهاية . وكانت « غريس » على وشك تعليق السمّاعة ، عندما أجابها صوت امرأة ، فأعربت من جديد عن رغبتها في التحدّث الى السيد جون ماك لينتوك .

ـ إنني متأسفة ، فهو غير موجود . هل أستطيع أن أزوّدك ببعض المعلومات ؟

ـ هل تعلمين أين يمكنني أن أتصل به ؟

ـ من يتكلّم ؟ أنا السيّدة ماك لنتوك .

ـ عفواً لإزعاجك يا سيدتي ، هنا مصرف « فيرست ناشيونال سيتي بنك » في نيويورك . لقد تلقينا تحويلاً باسم زوجك ، وأنا أنتظر تعليماته . هل تتفضلين بإعلامي أين أستطيع الاتصال به ؟

ـ لا ، لسوء الحظ ، فهو مسافر لبضعة أيام .

ـ متى يعود ؟

ـ بالحقيقة ، لا أدري .

ـ ألا يوجد مكان أستطيع أن أترك له فيه رسالة ؟

وبعد فترة تردّد ، أوضحت السيدة ماك لنتوك :

ـ متأسفة ، إنني لا أستطيع أن أقول لك أين هو زوجي ، إنه في مهمة لحساب الحكومة ، من الأفضل أن تتصلي بمكتبه في « فدرال بلدينغ » في لاس فيغاس .

استولى على الصحفية شعور بالحرارة ، كما يحدث كل مرّة تجعلها غريزتها كمخبرة تشتمّ عملية كبرى .. فالرائد ماك اندروز كان قد قال لها إن شاحنات الايجار كانت تخصّ الجيش ، بينما كان الملازم دايلي قد قال العكس . فأحد الاثنين كان مخطئاً أو كذاباً . وطلبت « فيدرال بلدينغ » في لاس فيغاس ، فأعلن احد الأشخاص في مركز ماك لينتوك .

ـ دائرة الحماية ، هنا توم رايلي .

ودهشت غريس . حماية ؟ حماية ضد أي شيء ؟

ـ السيد ماك لينتوك ، اذا سمحت .

ـ هنا مكتبه ، ولكنه غائب لبضعة أيام .

(×) آلة تليفونية بجهاز وسمّاعة مجموعين معاً .

واعتمدت المرأة الشابة لهجة مسهِّلة ، على أمل أن يحسبها مخاطبها إحدى معارف ماك لينتوك القدامى :

ـ آه ، وما عساه يحمي هذه المرَّة ؟

ـ من يتكلم ؟

كان الصوت جافاً ومتحفِّظاً . وأعادت الصحفية تمثيل مهزلة التحويل المصرفي :

ـ تلطَّف واخبرني أين أستطيع أن اتصل به .

ـ من المستحيل الاتصال به قبل عودته، **فهمته سرِّية** .

وكانت « غريس » مذهولة . ما هو السبب الذي يحمل الحكومة الاميركية على إحاطة موضوع ازالة الثلج من شوارع نيويورك ، بالسرِّية ؟ وبمثل وميض البرق ، أدركت أن الشاحنات لم تكن لها أية علاقة بالثلج ، ولكن لماذا كانت هناك إذن ؟

وفكّرت بجواب انجيلو ، مساء العشية ، « يوم عادي قضاه المحقّق يبحث عن إبْرة في كومة من التبن » ولكن ، بالمناسبة ، ما تراه كان يعمل في تلك الساعة المتأخرة ؟ ورئيس البلدية ؟ لماذا عاد من واشنطن في طائرة الرئاسة ؟ كل ذلك كان جد غريب . . .

وطلبت مرة ثانية مكتب أنجيلو ، ولكنها لم تحصل على أي جواب . وتصفّحت دليل الشرطة النيويوركية السرِّي وركَّبت بعصبية الأرقام لعشرة مفتّشين رئيسيين . ولكن أحداً لم يجب . وبعد دقيقتين ، اقتحمت « غريس ناولاند » مكتب رئيس التحرير ، وهمست في أذنه قائلة :

ـ يجب أن أتحدث اليك فوراً ، فقد أكون ممسكة بخيوط أمر عظيم ، عظيم جداً .

***

كانت هناك مسألةتلازم أكثرفأكثر رئيس بلديةنيويورك ،منذ رجوعه الى مركزالقيادة التحأرضي في « فولاي سكوير » عند الساعة الثامنة من ذلك الثلاثاء الواقع فيه ١٥ كانون الأول . وماذا لو أخطأ ذلك المهرِّج أوغلـثورب بتلويحه بشبح الذعر ليتجنّب إخلاءً كارثيا لنيويورك ؟ ألا تدلّ التجربة ، على العكس ، أن الناس يميلون في بعض الأحيان الى التصرّف إبان المآسي الكبرى افضل من تصرفهم في الحوادث الطفيفة ؟ ألا يفرض عليه واجبه المعنويّ أن يصرخ في وجه مواطنيه أن أهربوا حالا وبأسرع ما يمكن وطالما أن الوقت متاح لذلك ! وبأية وسيلة كانت ! أما الاعتبارات الأخرى ، فإلى الشيطان ! ومن الأفضل إنقاذ بعض مئات من الآلاف على الحكم عليهم جميعا بالهلاك !

وكانت تقارير الساعات الأخيرة المتشائمة تقوي عزيمة رئيس البلديّة في ذلك الإتجاه ، فبعد المرح الذي كان قد أعقب تحديد هوية الفلسطينيين وتجنيد جميع قوى الشرطة ، قبل انتهاء مدة الانذار بأربع ساعات ، ساد جوَّ مركز القيادة التحأرضي إرهاق لا يطاق .

وكان « أب سترن » يملك ، لإطلاق صيحة الإنذار ، جهازاً فريداً في الولايات المتحدة ، هو « الخطرقم ١٠٠٠ » وكان عبارة عن اتصال إذاعي وتلفزيوني مباشر بين مكتبه في القصر البلدي أو مقره في « غراسي مانشيون » ومراقبة محطة الاذاعة والتلفزيون البلدي « دابل يو . أن . واي. سي » وبناء على تعليمات رئيس البلدية ، كان الفنّي القائم بالعمل في المراقبة « دابل يو. أن. واي. سي » يخاطب محطّات

المدينة الثلاث الرئيسية : « دابل يو. إن. بي. سي » و« دابل. يو. سي. بي. سي » و« دابل يو. أي. بي. سي » التي تطلق بدورها إنذاراً يدوّي في جميع المحطّات النيويوركية . وعند هذه الاشارة كان يتوجب على جميع المحطّات النيويوركية ، بصورة قطعيّة ، أن تقطع حالاً برامجها وأن تطلب الى المستمعين أو المشاهدين أن يظلوا متنصتين بانتظار رسالة عاجلة ، وبعد أقل من دقيقتين ، وبعد تحريك « الخط رقم ١٠٠٠ » كان بوسع رئيس البلدية أن يظهر على الشاشات وأن يتحدث في آن معاً على موجات أكثر من مئة محطة ، راديو وتلفزيون . ولم يكن بوسع رئيس الولايات المتحدة نفسه أن يخاطب مواطنيه بهذه السرعة .

وكان « أب سترن » لا يزال يتردد في اتخاذ هذا القرار ، عندما أزّ صوت الرئيس في مكبر الصوت المركز في طاولة الاجتماعات لمركز القيادة التحارضي . وكان اتصال هاتفي مباشر قد انشىء بين المركز المذكور وقاعة المجلس في البيت الأبيض ، وارتجف سترن لدى سماعه اللهجة القلقة لرئيس الدولة الذي كان يسأل بإلحاح عن أخبار مُطمْئِنة بشأن التحرِّيات عن القنبلة . وفكَّر رئيس البلدية بمرارة : إن أمله الوحيد ، الآن ، يتعلق بنا نحن هنا . إن تفاؤله ، العشية ، المتجلِّي بهذه العبارة : « اطمئن ، يا أبْ ، فسوف نتوصّل الى ثنيْ القذافي عن تنفيذ تهديده المشؤوم » كان قد حلَّ محلّه ضيق شديد السواد . وأعلن الرئيس أنه كان قد حاول ثلاث مرات إعادة الاتصال بطرابلس ، ولكن بلا جدوى ، فقد ظلَّ القذافي ثابتاً في رفضه أية مناقشة . وأشار الى التدخّل العسكري المقرر لإخلاء المستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربية . وهنا شحب لون سترن . فلم يكن صهيونيا مناضلا ، ولكن منظور المذبحة بين مواطنيه والاسرائيليين بسبب مؤامرة هذا الليبي المتعصِّب ، كان يخيفه .

وذُهل إذ شاهد « فلدمان » ، رئيس المفتشين الصامت ، يستولي على مذياع الخط المباشر مع البيت الأبيض ، وكان صوته متشنجا من التأثر .

ـ يا حضرة الرئيس ، ليس لدينا أي أمل في العثور على القنبلة ، ضمن المهلة المنظورة ، وربما توصّلنا الى ذلك ، بعد مهلة أربع وعشرين ساعة إضافية . بحقّ السماء ، يا حضرة الرئيس ، إحصلْ لنا على هذه الأربع والعشرين ساعة !

***

خلال يوم الجمعة الماضي وحده بتاريخ ١١ كانون الأول ، كانت السجلاّت اليومية في المفوضيّات الاثنتين والثلاثين ، قد سجّلت خمسة عشر حادث سير ارتكبها أشخاص لم تُحدّد هويّاتهم . وكان هذا الرقم ، الذي يتجاوز بكثير الاحصاءات العادية ، ناتجاً ، حسب تقدير أنجيلو روكيا ، عن تساقط الثلوج التي جعلت الطرق زالقة ، بصورة خاصة .

وكان أحد هذه الحوادث فقط قد أسفر عن جريح في (حالة خطر) ،وكان موضوع تحقيق دقيق. ما باقي الحوادث فقد ورد في السجلاّت بشأنها العبارة نفسها : « عُهدَ بالقضية إلى المفتش أوبانيه » . وكان هذا المفتش ، بالنسبة للغرباء عن الشرطة ، يبدو أكثر شرطيي نيويورك عملاً . ولكنه في الواقع ، كان غير موجود ، بل كان اسمه يعبر عن شعور الشرطة إزاء الحوادث المادّية مع أشخاص لم تحدّد هويّاتهم : أكداس من الأوراق غير المجدية ! وكانت أغلب الشكاوى تصدر عن سائقي سيّارات الشركة الملزمين بالإعلام عن أقل خدش ليتسنّى مطالبة شركات التأمين بالتعويض المستحق ، أو عن ممتهنين مستقلين كانوا بحاجة لمستند يثبت نفقات التصليح ، حتى يصار فيما بعد الى حسمها من التصريح الضريبي . وكان رجال الشرطة ، قديماً ، يُلقون مباشرة في سلة المهملات هذا النوع من الشكاوى ، التي كانوا مع ذلك يتحملون

عناء طبعها على الآلة الكاتبة أمام الضحية ، مع مراعاة الأصول المقتضاة ، وذلك حتى لا تفسد تلك الحوادث الطفيفة الإحصاءات المتعلقة بالجرائم غير المعاقبة . ولكن مكتب التحقيق الاتحادي كان قد اكتشف تلك الممارسة ووضع حدّاً لها . فأصبح اليوم كلّ حادث يرتكبه شخص لم تعرف هويته ، يعطى رقماً ويسجّل في السجلّ اليومي للمفوضيّات . غير أن هذه التصاريح المجموعة بعناية ، كان نصيبها ، في النهاية النسيان .

وعلى الرغم من العجلة الماسّة ، كان انجيلو ، على عادته ، يأخذ وقته ، فبعد أن تلفن ، إلى تسع مفوضيّات وأحصى ستّ حوادث من أصل الخمس عشرة المعلن عنها ، كان . الساعة ، على اتصال مع المفوّضية العاشرة في مانهاتن .

وقد أجابه الشرطي القائم بالخدمة :

- في الواقع ، لديَّ هذا اليوم شكوى من ممُثّل « كولغايت » الذي وجد خدشاً على جناح سيارته .

- حسناً ، ماذا يقول تصريحه بالضبط ؟

وقرأ الشرطي :

- يُصرّح الشاكي أنه يوم الجمعة بتاريخ ١١ كانون الأول ، كانت سيارته من طراز بونتياك الحاملة لوحة ولاية نيويورك رقم ٣٤٩٢٧١ ، متوقفة بين الساعة ١٣ والساعة ١٤ أمام الرقم ٥٣٧ في الشارع التاسع والعشرين الغربي . وعندما عاد ليأخذ سيارته ، تبين له أن الجناح الأمامي الأيسر كان قد أصيب بصدمة . وكان مجهول قد ترك تحت المسّاحة كلمة تقول : « لقد صدمتك شاحنة صفراء ولاذت بالفرار » . وقد تلقّى هذا التصريح بتاريخ ١١ كانون الأول ضابط شرطة « نتال » ، وكلّف بالقضية المفتش « أوبانيه » بانتظار المعلومات التي يمكن أن تعطيها مجراها .

ولم يستطع أنجيلو أن يكبح رغبته في الانفجار من الضحك أمام تلك البيروقراطية الكاملة وقال مُتهكّماً :

- قلْ لي أي نوع من المعلومات تنتظر ، حتى تعطي القضية مجراها ؟

ثم ما لبث ان غيّر رأيه :

- قلت « شاحنة صفراء » .

- هذا ما هو مكتوب .

- اعطني اسم وعنوان ذلك الممثل لكولغات .

***

عند الطرف الآخر من الولايات المتّحدة ، كانت أشعّة الشمس الأولى تُلامس ببريقها المضيء أمواج المحيط الهادئ الخضراء التي كانت تتكسّر على رمال « سانتا مونيكا » . وكان راكض صباحي يصعد نحو دارته القائمة على الصخرة ، عندما سمع عن بعد جرس تلفونه . فأسرع رئيس مكتب النيويورك تايمس في منطقة الشاطئ الغربي . وتعرّف فوراً على مراسله ، من لهجته الحميمية ، التي كادت تكون غامضة .

وقال رئيس التحرير ، ميرون بيك :

- لديَّ شيء هام بالنسبة لك . اتصل فوراً بمراسلك في « لاس فيغاس » ، هناك شخص يدعى

جون ماك لنتوك ، مقيم في « فدرال بيلدينغ ده هاي لاندستريت » ، يعمل في دائرة الحماية ، أريد من مراسلك أن يستعلم عن نشاطات الشخص المذكور وأن يطلبني فورا الى نيويورك .

❊❊❊

علّق أنجيلو روكيا السمّاعة وشتم قائلاً : يا للقذارة ! فقد كان ممثل « كولغات » الذي بُعجتْ سيارته ، يقوم بجولة في المنطقة الغربية من مانهاتن ولن يعود الى مكتبه إلا أثناء السهرة . وقد اقترحت عليه عاملة التلفون أنه إذا ما كان عَجلاً للقائه ، فما عليه إلا أن يذهب إلى مقهى « باسكيوال » في الشارع الخامس والثلاثين ، حيث يذهب الممثلون التجاريون في الحيّ كل يوم حوالي الساعة العاشرة لتناول القهوة والكعك المحلّ .

وأجرى أنجيلو الحساب . أربعمئة « شاحنة هرتز » . ومئات أخرى غيرها ، صفراء ، هي أيضا ، وآلاف السيارات كل يوم في شوارع هذه المدينة . وكل ما عثرت عليه ، هو قصاصة ورق كتب عليها أن شاحنة صفراء بَعجَتْ جانح سيارة متوقّفة . ينبغي أن يكون المرء مازوخيّاً* ليتهيّج على شيء من هذا النوع . ورفع عينيه نحو الشرطيين الاتحاديين للمختبر الجنائي الذين كانوا لا يزالون يتفحصون كل قطعة من الشاحنة الصغيرة .

وفكّر : شرطة مختلفة ، وأسلوب مختلف .

ونهض ، وقد بدا عليه الارهاق ، فاعتمر قبعته متّجهاً نحو المرأب ، وهو يراجع معطيات مسألته . اذا كانت سيارة ممثل « كولغات » قد صُدِمت عند الجانح الأمامي الأيسر ، فلا بد أن تكون الشاحنة الصفراء قد صدمتها من الجانب الأيمن .

وذهب ينظر الى قطع الجانب الأيمن من الهيكل التي جمعتها الشرطة الاتحادية ، فعدّ أربع عشرة دائرة حمراء مُرقّمة . واحدة لكل من نقاط الصدام المُعلّمة . وراجع تقارير التحليل الطيفيّ المتعلقة بكل رقم . ولكن أيّا منها ، مع الأسف ، لم يسفر عن نتيجة حاسمة . وكانت قد سمحت بتحديد نوع الشظايا الناجمة عن ثلاث مساطر مختلفة من الدهان ، اثنتان تستعملهما « جنرال موتورز » والثالثة « فورد » والحال أن تلك الدهانات كانت تنطبق على أكثر من ٥٥٪ من السيّارات التي تجوب المدينة.وضحك أنجيلو ساخراً وقال :

- تلك تسهيلات لا أقدّرها حقّ قدرها !

وسأله أحد رجال شرطة المختبر الاتحاديين :

- هل أستطيع أن أقدم لك أية خدمة أيها المفتش ؟

فشكره أنجيلو قائلاً :

- لا ، كنت ألقي مجرّد نظرة .

- في هذا الحال ، يُستحسن أن تنتظر في المكتب هناك . فسيؤمن ذلك راحتك على وجه أفضل ، كما أننا سنعلمك إذا ما اكتشفنا شيئا يمكن أن يهمّك .

وقال أنجيلو في نفسه : حقاً ، إنهم يرحّبون بي كما يرحّبون بأي مُخدّر في حفلة كوكايين . وكان

(×) من أتباع المازوخية ، وهي انحراف جنسي يلتمس فيه المرء بالعذاب .

حـذر رجال مكتب التحقيق الاتحادي إزاء باقي الشرطيين يغيظه بشكل عجيب . وشاهد عندئـذ زميله جاك راند ، الذي كان يبدو ، هو أيضاً ، أنه يبتعد عنه كما لو كان مصاباً بالطاعون .

وهمس النيويوركي في أذنه قائلاً :

ـ قلْ لي يا ولدي ، هل لك أن تؤدي لي خدمة تافهة ؟

ووضع يده على كتفه منتحياً به زاويةً . ولم يكن موضع بحث ، بالتأكيد ، أن يكشف له ما كان يجول حقاً في رأسه . فقد كان راند شديد الاحترام للنظام. وسوف يخُطر القيادة العامة فوراً طالباً منها يفاد شخص آخر في إثر ممُثِّل « كولغات » . وهذا ما كان أنجيلو لا يريده بأيّ ثمن . وقد نظر الى رائد مباشرة في عينيه . فلا بد أن الشرطي الاتحادي الشابّ كان قادرا رغم كل شيء على بعض التضامن ! . . .

ـ هل بإمكانك أن تُغطِّيني ساعة أو ساعتين (وغمزَ بعينه) هناك شخص غير بعيد أريد أن أراه فتاة لطيفة لم أرها منذ بعض الوقت ، أودّ ان القاها على عجل وأن أسلّم عليها .

بدأ الرعب على وجه راند :

ـ أنجيلو ، هل انت مجنون ؟ (كان مُغتاظاً بصدق) لا يمكنك أن تفعل ذلك . أنت لا تدرك كم هو عاجل وملحّ أن نجد تلك . . .

وكان على وشك أن يلفظ كلمة « قنبلة » ، لكنه استدرك وعدل ، فسأله روكيا :

ـ تلك ، ماذا ؟

ـ ذلك البرميل ، برميل الغاز .

ـ قل لي أيّها الصغير ، ما هو الشيء المفرط في السريَّة حتى تحيط أنت ورفاقك هناك (وأشـار الى المرأب) هذه القضية بهذا السياج من التكتُّم ؟ هل يحتوي حقاً برميلك المشؤوم على الغاز ؟

ـ بالتأكيد .

وتفرّس أنجيلو في وجه زميله ونظر اليه نظرة اختصاصي في الحشرات . وقال في نفسه متقـزّزا : « أنت ايضاً كذاب » ، وكان راند يُلحّ :

ـ إن انسحابك الآن . . . (وفتّش عن أسوأ مثل خطر على باله) يوازي فرار العسكري من الجندية في ساحة القتال !

أطلق روكيا نخيراً وشدَّ أذن الشرطيّ الأتحادي :

ـ لا تغضب يا ولدي ! سوف أسألها إذا كان لديها رفيقة !

* * *

كان « ميرون بيك » رئيس تحرير النيويورك تايمس يذرع مكتبه بعصبيّة . وكان يصل اليه ، عبر الباب المفتوح ، ضجيج قاعة التحرير الفسيحة . وما كادت « غريس ناولاند » تنبئه بشكوكها ، حتى أوفد جميع مخبريه الجاهزين الى المفوضيّات وكلّفهم بجمع أية معلومـات من شأنهـا كشف أي شيء غـير عادي .

وقد أخذوا منذ عشرين دقيقة ، يتلفنون الخبر نفسه : **ما خلا** الحراس من الشرطة ، كانت مفوّضيّات نيويورك الاثنتان والثلاثون مُقفرة عملياً . حتى أن أحد المخبرين توجّه الى القيادة العامة لمكتب التحقيق الاتحادي في « فدرال بلازا » . وكان قد **مُنع من الدخول،** إلا أنه كان قد تمكن ، بواسطة فتيان المصعد ، من الاطلاع على أن المبنى كان قد اقتحمه منذ العشية مئات من المأمورين الذين وصلوا من الأقاليم . ولما كان الأمر قد أثار اهتمامه فقد نزل الى الموقف وأخذ يدقّق . فتبين له تواجد عدة صفوف من السيارات مُسجّلة في الولايات المجاورة لنيويورك . لقد كان جلياً ان مكتب التحقيق الاتحادي يواجه عملية كبرى .

وفيما كان « بيك » يحاول تصوّر سبب تلك التعبئة العامة ، وصل أحد مخبريه الشباب كالإعصار . وكان مبتهجاً باعتزاز المخبر الحديث الذي يُحقِّق أول سبق صحفي له . فقال ، **لاهثاً** ، بعد أن ألقى صور آل الدجاني على مكتب رئيس التحرير :

ـ إليك الحكاية كلّها : لقد أقدم بعض الفلسطينيين على التصدي للشرطة ، لذلك فان جميع رجالها في المدينة جادّون في أثرهم .

وتفحّص بيك الصور الواحدة بعد الأخرى .

ـ من قتلوا ؟

ـ جنديين درّاجيْن من شيكاغو منذ خمسة عشر يوما .

ـ شيكاغو ؟

وكان بيك قد قطّب حاجبيه . منذ متى كانت شرطة نيويورك تبدي هذا القدر من التعاطف أزاء شقيقتها الصغرى في بحيرة « ميشيغن » ؟ **وأمر وهو يرفع سماعة التلفون :**

ـ أحضروا لي « غريس نولاند » بسرعة .

ولدى حضور غريس ، أطلعها بيك على الصور الثلاث .

ـ ها هي إبرتك في كومة من القش . يقال إن ثلاثة فلسطينيين قتلوا شرطيين في شيكاغو منذ خمسة عشر يوماً . ولكن المزعج أنه لم يقع في شيكاغو منذ ثلاثة أشهر مصرع أي من رجال الشرطة . لقد تثبتُّ من ذلك بواسطة مراسلنا .

وكان وجه بيك قد اتخذ هيئة صارمة :

ـ أريد الحقيقة .

ورفع سمّاعة التلفون من جديد . **وطلب باتريسيا** ماك نيت ، ضابطة الصحافة لدى مدير الشرطة . وقد أخذت المخابرة مباشرةً ، لأن كبار موظفي الادارة النيويوركية لم يُعوِّدوا رئيس تحرير التايمس على الانتظار .

ـ باتي . أريد أن اعرف ماذا يجري . فأنا أعلم أن تجربة لإزالة الثلج تجري في ثكنة بارك أفنيو . وأعلم أن جميع رجال الشرطة يطاردون ثلاثة فلسطينيين لسبب غير السبب الذي أعطي لهم . ماذا يجري بالضبط ، يا باتي ؟ أنتم بصدد قضيّة إرهاب فلسطيني هامّة . أريد أن أعرف ما هي .

وران عند نهاية الخط ، صمت طويل مشوب بالقلق .

ـ أنا متأسّفة يا ميرون . ولكنني أخشى أن يتجاوز سؤالك صلاحياتي . هل أنت باق في مكتبك ؟

ـ لن أتحرك منه .

ـ سأطلب من مدير الشرطة أن يطلبك حالاً .

* * *

كان انجيلو روكيا يستنشق روائح السلامي والثوم وزيت الزيتون والفلفل الطازج . وكانت مجرّد تلك الروائح الشهيّة كافية لتحديد هويّة المكان حتى بالنسبة للأعمى : لقد كان محل « باسكيال » ، مقهى الشارع الخامس والثلاثين ، الذي يؤمّه ، وقت الغداء ، الممثلون التجاريّون في « واستِ سايد » وقد أجال أنجيلو نظره في القاعة . وامام الطاولة كانت مصفوفة دزينة كراسي صغيرة مغطّاة بقماش قطنيّ أحمر ، وفي القاع كانت ثمة طاولات متلاصقة ، مُغطّاة بأسمطة من الورق الأحمر . وكان الملاك يقتصر على خادم وحيد ، كان يكدّس الفطائر بعضها فوق بعض ، بحيوية تحاكي حيوية المشعوذ ، وذلك بانتظار إقبال الزبائن وقت الظهر . ووراء الصندوق كانت تتصدر مُعلّمة إيطالية قويّة، مُتّشحة بالسواد ، حيّاها انجيلو بطريقة احتفالية ، رافعاً قبّعته .

ثم أشار برأسه إلى قناني النبيذ الأيطالي المقشّشة المُعلّقة في السقف وطلب ، بلهجته الصقلّية الفضلى ، كأساً من أجود الأنواع .

وفيما كانت تصبّ النبيذ برضى متعجرف ، همس قائلاً :

ـ أيتها السيدة الجميلة ، هل تعرفين شخصاً يُدعى « ماك كيناي » يعمل لدى كولغات ؟

ـ بالتأكيد ، إنه هناك .

وأشارت الى رجل في الخمسين من عمره يرتدي مُشمّعاً أسود ، كان يجلس وحده حول طاولة وهو يرتشف القهوة ، فيما كان يقرأ الـ « وال ستريت جورنال ».وتقدّم انجيلو منه خِلْسةً وأطلعه على شارة المفتّش في قعر يده .

ـ هل تسمح بأن أجلس ؟

ـ تفضّلْ .

وكان ، بأنفه الذي تعلوه نظّارتان بلا إطار ، وصلعه المبتدىء ، أشبه برجل دين منه بوكيل تجاريّ . وقال أنجيلو في نفسه ، قبل أن يعرض عليه ما كان يحمله على بدء حديث قصير معه : « إنه أهل ليطوف بالبقّالات » .

وأجاب الوكيل ، وقد بدا عليه الارتياح :

ـ هذا هو الأمر اذن ! انت تعلم أنني أدليت بكل ما لديَّ في تصريحي عن الحادث .

ـ حسناً ، يا سيد ماك كيناي ، ولكنني بحاجة الى بعض أيضاحات إضافية .

وابتسم أنجيلو ومال إلى مخاطبه وهو يقول له سراً :

ـ أسمع ، إننا نلاحق قضية هامّة جدّاً . وهناك إمكانية ، وإن كانت طفيفة ، إنْ يزوّدنا حادثك بأثر رئيسي ، فهل أنت متأكد تماماً بأن الورقة التي تُركت تحت مسَّاحة الدراءة (*) تشير الى شاحنة صفراء ؟

ـ كل التأكيد (وكان جواب ماك كيناي فورياً) حتى أني اطلعت شرطي المفوضية على لورقة . وشرب أنجيلو جرعة نبيذ .

ـ حسناً ! ولكن ثقْ ، يا سيد ماك كيناي ، أن لا علاقة لك بكل هذا ، غير أن من الأهمية بمكان أن أعرف بالضبط ساعة حصول الاصطدام ومكانه .

ـ كل ذلك مذكور أيضاً في التقرير .

ـ أعرف ذلك ، ولكن أريد تأكيداً مطلقاً ، هل أنت متأكّد تماما أنك أوقفت سيارتك الساعة ١٣ ؟

ـ لا يمكن أن أخطىء بشأن ذلك ، لأنني سمعت عناوين نشرة الساعة ١٣ من محطة « دابليو . سي . بي . سي » تماماً قبل نزولي من السيارة .

ـ حسناً . وما هو الوقت الذي تغيّبت خلاله ؟

ـ فَلْنرَ (وقطّب ماك كيناي حاجبيه وهو يجُهد ذاكرته، وأخذ دفتر الطلبات من محفظته ، وقال ، وهو يقلب الصفحات) لقد زرت ذلك اليوم ثلاثة زبائن ، كان آخرهم المتجر الكبير عند الزاوية ، ولكن تلك الزيارات كانت للمجاملة ، لأن الزبائن يشترون مُباشرة من المركز .غير أني سلّمتُ على المدير وتثبَّت من وضع منتوجاتي في مكانها ودرست أسباب المزاحمة ثم انصرفت. وبالنتيجة لم أترك سيارتي أكثر من نصف ساعة .

وكان أنجيلو يخربش بعض الملاحظات على زاوية صحيفة .

ـ وقد أوقفت سيارتك فعلا أمام الرقم ٥٣٧ في الشارع الغربي التاسع والعشرين .

ـ أنا متأكد من ذلك ، وقد سبق أن دوّنته فوراً .

وكان الرجل قد أحمر قليلاً ، وتساءل أنجيلو : ما الذي يدعوه للكذب ؟ من الواضح أن لا شأن له في هذه القضية ! إذن ، ماذا يريد أن يخُفي ؟ لعلّه ذهب لمضاجعة فتاة بدلا من الاجتماع بأحد الزبائن . لا يمكن المزاح بهذا الشأن مع شركة كولغات . حسناً . فلنحاول التعاطي مع هذا الرجل الطيّب بطريقة اخرى . وأفرغ كأسه جُرعةً واحدة واتَّخذ هيئة مَرحة .

ـ أظن انك تسكن في « هوايت بلاينز » .

ـ أجل ، انت تعرف المنطقة ؟

ـ إنها ضاحية أنيقة . ولقد فكرت ، في وقت من الأوقات ، وعندما كانت زوجتي المسكينة لا تزال على قيد الحياة ، أن اقيم هناك ، في سبيل الهواء الطيب وكل شيء . . . هل أنت متزوج ؟

(*) واقية للريح في السيارة .

ـ أجل ، وعندي ثلاثة أولاد .

ونفح أنجيلو الوكيل ابتسامة ودية ومال إليه من جديد .

ـ يمكنك أن تُصدقني ، يا سيّد ماك كيناي ، عندما أضمن لك أن لا دخل لك في قضيتنا، ولكن أريد تأكيداً مطلقاً بأنك توقفت امام الرقم ٥٣٧ في الشارع التاسع والعشرين الغربي ، فهذا بالنسبة لي أمر رئيسي .

وتملّك وكيل « كولغات » شيء من نفاد الصبر :

ـ ولكنني أضنيت نفسي وأنا اقول لك ذلك . لماذا هذا العناد ؟

ـ لأن ذلك غير صحيح ، يا سيد ماك كيناي ، لقد مررت امام الرقم ٥٣٧ في الشارع التاسع والعشرين الغربي ، لدى مجيئي الى هنا . إنه مستودع مع ثلاثة مخارج للشاحنات . ولم يكن بإمكانك أن تترك سيارتك هناك دقيقة واحدة . لا يوم الجمعة ولا أي يوم آخر .

وكان « ماك كيناي » قد أصبح قرمزياً . وكانت يداه ترتجفان قليلا . وكان انجيلو مشفقاً عليه ، ولكن هذا الشخص كان قد غاظه . لماذا كان يلعب لعبة التخبئة ؟ لا شك أن هناك أمرأة في إحدى الزوايا . ولقد اعتراه الخوف ، عندما شاهد جناح سيارته مبعوجاً . وقال في نفسه إنه من الأفضل أن لا تعرف « كولغات » مكان حصول الحادث بالضبط ، لئلا يُسأل عما كان يفعل هناك .

ـ اسمعْ ، يا سيد ماك كيناي ، يجب أن تعلم أن الإدلاء بتصريح كاذب أمام الشرطة شيء خطير جداً ، إن ذلك قد يسبّب لك مشاكل جدّية مع شركتك . أما أنا فلا أريد أن أسبّب لك أي إزعاج . لأنني متأكّد أنك مواطن شريف وتحترم القوانين . ولكن مرّة اخرى أريد أن اعرف أين صُدِمت سيّارتك .

ورفع ماك كيناي عينيه عن فنجان القهوة ، وسأل قلقاً :

ـ هل ذلك كّله سيكون له أية نتائج ؟

ـ لا ، اقسم لك بشرفي : فكل ما ستقوله لي سيبقى سراً بيننا. أين كنت في الواقع ؟

ـ في شارع « كريستوفر » .

ـ وهل حكاية الشاحنة الصفراء والرسالة صحيحة ؟

وأومأ الوكيل ، وقد انهار ، بالإيجاب .

ـ في أية ساعة ؟

ـ خرجت من السيارة حوالي الساعة ١٢/٠٥ ، بعد نشرة الراديو الأولى للبورصة واشتريت مئة سهم « تلترون » منذ خمسة عشر يوماً . . .

وكان أنجيلو يُصغي ، وهو يجري حسابات سريعة . إن الشاحنة « هرتز » تركت الرصيف عند الساعة ١١/٤٢ ، فإذا ما سلكت نفق « بروكلين بتري » وصعدت الـ « واست سايد » ، فإن ذلك

يستغرق من عشرين إلى خمس وعشرين دقيقة لتبلغ « كريستوفر ستريت » لا أكثر .

ـ كم من الوقت بقيت هناك ؟

وكان الرجل يزداد ارتباكاً :

ـ ليس كثيراً ، يوجد هناك مشروب ، وقد بقيت فيه الوقت اللازم لتناول كأس وتسليم رسالة للخادم ليعطيها لشخص ما ، أي نصف ساعة على الأكثر .

ـ هل تذكر بالضبط الرقم الذي أوقفت امامه سيارتك ؟

ـ لا ، ولكن سيكون بوسعي أن اريك المكان .

***

كان سكان « ايلون سيشام » في السامرة المئتان قد تجمّعوا في مطعمهم بأقل من ربع ساعة . وكانت عيونهم قد تورّمت من النعاس وذقونهم غير محلوقة وشعرهم مشعّثاً ، وكانوا يرتدون المباذل أو الكنزات الصوفية التي لبسوها على عجل . وكان كل ذلك يجعلهم يشبهون جماعة من اليهود قبضت عليهم الشرطة أثناء حملة من حملاتها . وكان بينهم مستورد أحجار كريمة ثريّ وخمس عائلات أميركية وعائلتان فرنسيتان وعائلة روسية،وحتى نقيب سابق في الجيش الياباني كان قد اعتنق اليهوديّة بعد مذبحة اللدّ التي قام بها بعض اليابانيين من الجيش الأحمر . وكان « أوفيرو كازامانسو » قد أبدل اسمه فأصبح هارون بن نون .

وعندما جلس الجميع حول طاولات المطعم الخشبية ، قرأ ابراهام كاتسوفر ،أمين المستوطنة،رسالة مناحيم بيغن ، وانحلّت الوجوه لدى سماعها نص الإنذار . منذ اتفاقات كمب دافيد وقرارات المحكمة الاسرائيلية العليا القاضية بتفكيك بعض المستوطنات المزروعة فوق الأراضي العربية الخاصة ، عاشت مستوطنة ايلون سيشام في جو من عدم الاستقرار . ولكن من كان يتنبأ ان الرئيس المحترم الذي حجّ ، في حزيران ١٩٧٧ ، الى مستوطنتهم المنكوبة وقال لهم : « أحبكم ، فأنتم أفضل أولادي » ، يستطيع ذات يوم ، أن يمنحهم أربع ساعات لإخلاء منازلهم وكنيسهم وثمرة جهدهم ؟! ورفع كاتسوفر ذراعه لتهدئة العاصفة التي كانت تهز القاعة . وعلى رغم الحالة الطارئة العاجلة ، كان يريد أن تحترم الاجراءات الديمقراطية المعتادة ، وأن يتمكّن كل واحد من إبداء رأيه وأن يكون القرار بالإذعان أو عدمه لأمر رئيس الوزراء مكرّساً بالتصويت . وقد صاح ، شاهراً رسالة بيغن :

ـ أيها الرفاق ، تعلمون ماذا أفكّر : إن وجودنا فوق تلك الهضبة ، لا يشكل حقيقة بل هو رمز . فهو يثبت لجميع اليهود الذين لا يزالون وكذلك لجميع الأمم ، أن اسرائيل هي حقاً لنا .

وعلت صيحة بالموافقة . وارتسم على الوجوه تنبُّه مُتحمِّس حلّ محلَّ الذهول . وفي هذه الأثناء نهض من قاع الغرفة ، رجل قصير الشعر مخاطباً أمين المستوطنة :

ـ خذ حذرك ، يا ابراهام! تذكر كلمات مايمونيد: « اذا ما داهمكم خطر حقيقي ، فالمصلحة العليا تقضي بالانسحاب » . وأنا أعتقد أن كل تصدٍّ للجيش سوف يكون محض جنون !

وكان المستوطن الذي تكلّم هو عميد « إيلون سيشام » . كان في السابعة والستين من عمره ، محامياً سابقاً ، في فيينا ، إسمه إسحاق روبان ، وكان الوحيد هنا الذي عرف معسكرات الإبادة النازية . وكانت تلك التجربة المأساوية ودوره إلى جانب بن غوريون إبان حرب الاستقلال عام ١٩٤٨ ، يمنحانه

سلطة غير مُنازع فيها . ولكن أحد الحضور كان قد وقف للردّ عليه . وكان المتكلم هو الحاخام « موسى هوروتز » الذي هدر قائلاً :

- أيها المسكين إسحق ، اعلم أن سلامة أرض اسرائيل المعنوية والمادِّية أهم من خطر المواجهة مع الجيش .

وكان الحاخام « هوروتز » أحد أشرس المدافعين عن أرض اسرائيل . . . . إسرائيل الكبرى التي تضم لبنان وسوريا والأردن والتي فتحها في الماضي يشوع وداود . وبهذه الصفة كان أحد الأنصار الأكثر تعصباً للاستيطان اليهودي في أراضي يهودا والسامرة العربية ، وقبل أن يستقر في « الون سيشام » مع زوجته الأميركية واولادهما الثمانية ، كان قد أطلق عمليات مشهديّة للاستيطان اليهوديّ في الأراضي العربية المحتلّة . وهو الذي كان قد اعتصم ، طيلة أربع سنوات ونصف ، في أحد فنادق المدينة العربية حبرون ، لإلزام الحكومة الاسرائيلية بالسماح له بتأسيس حيّ يهوديّ وسط تِلْك المدينة .

وارتقى طاولة وأخذ يعظ رفاقه ، وهو يجلجل قائلاً :

- أيها الأصدقاء ، لقد حان الوقت لكي لا تصبح التوراة كتاباً موقوفاً على رفوف كنائسنا فقط ، بل ينبغي أن تصبح من جديد كتابا حيا ودليلا لشعبنا المصمّم على تأكيد سيادته على وطن الأجداد ، ذلك الوطن الذي تنطبق عليه قوانينها وتعاليمها ، حتى ولو اقتضى الأمر ركوب أعظم المخاطر .

وقاطع الياباني هارون بن نون قائلاً :

- أعتقد أن من الأفضل أن ندع التوراة بعيداً عن هذه القضية (وكان يتكلّم بصوت الراهب البوذيّ المرتجّ ، وهو يتلو صلاته) ويبدو لي أن نظريات حاخامنا العزيز يجب أن تظل مستقلّة عن الستراتجية السياسية والاعتبارات التكتيكيَّة الحاليَّة . إن الإنذار الذي يُوجِّهه الينا رئيس الوزراء ، مهما كان قاسياً ، لا بُدَّ وأن ينطوي على تعويضات هامّة ، كضمانات السلام ، مثلا ، التي أعتبرها أكثر أهمية للبلاد من وجودنا هنا .

وقفز أمين جبهة الإيمان فوق مقعده . وصاحت الشقراء « روث نافون » قائلة :

- إنك مخطىء يا هارون ! فالاعتقاد بأننا نستطيع الحصول على السلام بترخيص أرض إسرائيل أمام الغرباء ، يشكِّل فخّاً ينبغي أن لا نقع فيه . فأرض إسرائيل ، يا هارون ، هي جسدنا بالذات (وكانت قد زعقت بهذه الكلمات ، مُتوتِّرة الوجه بالإيمان والألم) وكل بلد غريب يدَّعي السيادة على هذا الجسد ، سوف يخلق ظروفاً للرفض ، أي للحرب . فالهلاك أفضل من الرحيل .

وكان ذلك الصراخ قد تدفّق ، وتلقّفته بعض الأصوات وأكّدته بشكل جماعيّ . وحاول يعقوب لفين تهدئة الضجيج . وصرّح « الصبرا »* ذو الملامح المحفورة والخدّين اللّذين اقتحمتهما اللحية والذي كان بعمر دولة إسرائيل ، قائلا بدوره :

- أيّها الرفاق ! نحن أمل إسرائيل ومستقبلها . فغداً ، وبسبب وجود مستوطنات مثل مستوطنتنا هذه ، سوف يؤمّ هذا البلد آلاف بل مئات الآلاف من اليهود ، ولن يحلّوا في مباني تل أبيب ، ولكنهم سوف يأتون إلى هنا لإعادة بناء إسرائيل من الداخل . . والسياسيون الذين يهدّدوننا لن يقووا على

(×) كلمة عبرانية عربية مستمّدة من الصبير ، وتعني مواطناً يهودياً ولد في إسرائيل .

الإرادة التي قادتنا إلى تلك الهضبة ، حتى ولو كان لا بدّ أن تصبح . . . (وبحث في الأنظار عن القوة التي تمكنه من التذكير بالصورة التي كانت تلازم جميع العقول) . . . . حتى ولو كان علينا أن نموت هنا جميعاً كما مات آباؤنا ال « زيلوت » * في مسّادا !

وكان التصميم المُتحمِّس يشعّ من عينيْ الفتى . وأومأ الى « كاتسوفر » بأن وقت التصويت قد حان . فوقف جميع المستوطنين . وطلب أمين السر من الذين كانوا يؤيدون إنذار بيغن أن يرفعوا أيديهم ولم تتحرك ذراع واحدة في المطعم الفسيح المُزخْرف لمعبد سليمان . فأمر « لڤين » المستوطنين عندئذ بإحضار الرشيشات وطلب متطوّعين لنقل الرشاشات ومدافع الهاون الى أماكن الرماية التي كانتْ جاهزة منذ أشهر ، تحسُّباً لهجمات الفدائيين المتوقّعة .

وفيما كانت القاعة توشك أن تفرغ ، ارتقت « روث نافون » طاولة لتنشد ، وخصلات شعرها تتموَّج في الهواء المشبع بالضيق :

« من أعماق القلب وإلى الأبد تنبض الروح اليهودية » وتلقَّف الحضور بكل قواهم أولى كلمات ال « هاتيكڤا » التي كانت ترتفع فوق الرؤوس ، نشيد أمل أبدي لليهود في حالة الخطر ، والتي كانت تحملها ريحُ الشتاء عبر تلال السامرة .

***

شَحُب ميخائيل بانيون ، مدير شرطة نيويورك ، لدى قراءته المذكرة التي قدَّمها له أحد أمناء السر في مركز القيادة التحارضية . واضطرب « هارڤي هودسون » لدى مشاهدة الهيئة الذاهلة لمدير الشرطة فسأله :

- ماذا حدث ؟ لا تقل لي أن ثمّة أيضاً خبراً سيئاً .

وكشَّر بانيون قائلا :

- أسوأ خبر يمكن أن نتلقّاه . ذلك أن جماعة النيويورك تايمس يوشكون أن يُلمُّوا بالموضوع ، وينبغي تحييدهم !

ونهض مدير الشرطة وأخذ يبحث عن زاوية هادئة يستطيع فيها أن يطلب الصحيفة ، دون أن يُزعجه أحد.وفيما كان مدير الشرطة يجتاز الغرفة التي كان أل فلدمان يوجِّه قواتِه منها ، سمعه يُعطي أمراً إلى عامل الراديو قائلا له :

- أرسل حالا عشر سيارات الى زاوية كريستوفر والشارع السابع ، وضعها بتصرف روميو ١٤ !

وتساءل مدير الشرطة ، ماذا يحدث أيضاً ؟

***

كان أنجيلو روكيا ووكيل « كولغات » قد وصلا لتوّهما الى « القلب الحارق » لغرينويش ڤيلاج حيث كان يعجّ حشدٌ من اللوطيين السود والبيض ، المزركشين ، كالأبالسة ، بالجزمات وقمصان الجلد

(×) وطنيّ يهودي من القرن الأول بعد الميلاد ، كان يدعو الى العنف في سبيل الدفاع عن القانون والاستقلال القومي .

الأسود وسلاسل الدراجات الدوّارة في المعصم وخوذ الجنود الدرّاجين ونظارات الطيّارين ، كأنهم أشخاص رواية مسلسلة رديئة . وكان أولئك الرجال الأشداء يصطادون حشداً من المأمورين ، رؤساء وعاديين ، في بذلاتهم الغامقة ، الذين كانوا يهبطون كل يوم وقت الغداء من ناطحات السحاب في « وال ستريت » أو الشارع الخامس ، ليتلذذوا بالنشوة المنبعثة من السلاسل والسياط ، تلك الممارسات التي تخصّصت بها « قاعات الاستقبال » المعدة في أحواض « واست سايد » المهجورة .

والتفت أنجيلو نحو « ماك كيناي » يتقاسمه التقزّز والشفقة . أية قوة عجيبة كان بوسعها ان تقود ربَّ العائلة الشجاع والمنتمي الى « هويت بلاينز » الى هذا الوكر حيث الساديّة والعنف والانحراف . وقال الوكيل بصوت يرتعش من الخوف :

ـ هل تَعِدَني بأن لا تكشف هذا لأحد ؟

وطمأنه أنجيلو بقوله :

ـ لا تقلق . فهذه النزهة ستبقى سراً بيننا .

ـ لقد حصل هذا هناك .

وأشار « ماك كيناي » إلى الزاوية المكوَّنة من شارع « كريستوفر » والجادَّة السابعة .

ـ ذهبت أشرب كأساً هناك ، « عند باتش » وتركت رسالة الى . . . (وكان صوت « ماك كيناي » محطَّماً من الخجل) صاحبي . . . .

وكنس أنجيلو الهواء بيده ، قائلا :

ـ هذا لا يعنيني .

وكان الشرطي يفترض أن تكون الشاحنة الصغيرة قد وصلت من شارع هودسون ، ثم انعطفت يساراً لتصعد فيما بعد شارع كريستوفر . وكان يقول : إذا ما صحَّ افتراضي بفضل هذا الحادث ، فهذا يعني أن برميل الغاز لا بدَّ أن يكون في مكان ما ، في هذه الزاوية بين النهر والجادة الخامسة . لأنه لو كان البرميل على الجانب الآخر من الجادّة الخامسة أي في القسم الشرقي من مانهاتن، لكان الفلسطينيّون قدِموا من بروكلين من الشرق ، سالكين جسر بروكلين .

وهزّ رأسه . كم من المجموعات علينا أن نفتّش !

وراقب طريقة « الصيادين » ، مُنتعلي الجزمات ، الذين كانوا يتقاطعون على الأرصفة ، وبأيديهم سلاسل الدراجات والسياط . لقد كان أغلبهم من المحترفين . وماذا لو كان أحدهم قد وضع الرسالة تحت مسّاحة « ماك كيناي » ؟ لقد أحسن صنعاً عندما طلب نجدة لاستجواب سكان الحي ، على أمل العثور على من شاهد الاصطدام . وهناك أيضاً سيارة « ماك كيناي » . . . ولما كان موقع الصدمة في القسم الأسفل من الجناح الأمامي الأيسر ، فلا بدَّ أن يكون التصادم ناجماً عن ضربة من الرادَّة* . وهذا ليس غريباً ، فقد كان الشارع ممتلئاً بالحفر . فضلاً عن الثلج . الأمر الذي يوجب أن يكون المرءُ شديد البراعة ، حتى يتحاشى الانزلاق وصدم أحد المارّة .

(*) واقية الصدمات في السيارة .

ـ أعدك ، يا سيد ماك كيناي ، بأنني سأسهر على أن لا تعرف شركتك شيئاً عن القضية ، ولكن يجب أن نحضر سيارتك حالاً الى بروكلين . فعلينا أن نقوم بعمل بسيط يتعلق بجناحها . ونحمد الله على أنك لم تُصلحها بعد .

***

كان صوت ميخائيل بانيون الخفيض يتموج عبر الهاتف بقوة «فغنرية »* وكان مدير الشرطة يقول :

ـ وأستميحك عذراً يا سيد بيك لعدم الاتصال بك قبل الآن . فلدينا ، كما تعرف ، قضيّة هامّة جداً .

أجاب رئيس تحرير التايمس ، بنفاد صبر :

ـ أعرف ، ما هو المقصود بالضبط ؟

ـ إن ما سأقوله لك ، يا سيد بيك ، يجب أن يحاط بالكتمان ، لأنني أعلم أن « التايمس » حريصة مثلنا على حماية سلامة أهالي نيويورك . فلدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن ثلاثة فلسطينيين ـ نتولى مطاردتهم ـ أخفوا برميلاً من غاز الكلور في المدينة ، وأنهم يهدّدون بتفجيره إذا لم تتحقق مطالبهم السياسية .

ـ عجباً ، وماذا يطلبون ؟

ـ هذه إحدى المسائل ، أما الآن ، فإن مطالبهم مبهمة ولكنها تتعلّق بالمستوطنات الاسرائيلية في الضفّة الغربية وبالقدس .

وكان بيك يدوّن ملاحظاته وهو يقذف « غريس نولاند » بطرفات من عينه .

ـ تصوَّر الذعر والبلبلة التي سوف تحدثها تلك المعلومة إذا ما عرف بها الجمهور قبل أن نتمكن من تحديد القطاع الذي يتواجد فيه برميل الغاز بالدقّة اللازمة .

ـ حقاً ، يا حضرة مدير الشرطة ، ولكنني أتصور أيضا الخطر الذي يهدِّد السكان .

ـ بالتأكيد ! إنك تذكر الاحتياطات التي اتخذها الكنديون عندما خرج قطارهم عن الخط . ولكن في تلك الحالة ، كانت هناك شاحنة بكاملها من الكلور ! في حين أن من حسن الحظ ألا يتعلق الأمر عندنا الا ببرميل واحد . ولا تزال لدينا جمع الفرص للعثور عليه ، ونحن نرى أنه سيكون من الجنون أن نأمر بصورة عاجلة بالإخلاء العام .

وفيما كان بيك يتحدّث مع مدير الشرطة ، كان قد بدأ يُعِدُّ سلسلة من التوجيهات لقسم التحرير . فقد كان يريد أن تُعِدّ الدائرة العلمية حالاً دراسة حول تأثيرات غاز الكلور ، وأن تجري « غريس » تحقيقاً في أوساط منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك ، وأن يبرق مراسل التايمس في القدس بشأن آخر تطورات برنامج استيطان الاسرائيليين في الأراضي العربية المحتلّة .

ـ إنني يا سيد بيك ، أتصرّف معك في وضح النهار وأناشدك أن نتعاون معاً ، وأطلب إليك بإلحاح

---

(١) نسبة الى فغنر ، المؤلف والملحن الألماني الشهير

ان لا تنشر شيئاً قبل تحديد مكان البرميل - مع علمي بالنفور الذي تُقابل به صحيفةُ التايمس مثـل هذا الطلب .

- يا حضرة مدير الشرطة !. . .

كان بيك يريد أن يوضح شيئاً آخر ، قبل أن يجُيب على طلب مدير الشرطة .

- بالمناسبة ، ماذا يعمل كل أولئك الناس في ثكنة بارك أڤنيو ، مع شاحناتهم الصغيرة المستأجرة ؟

وهل لهم أية علاقة بهذه القضية ؟

فيما بعد ، وعندما يعيد بيك التفكير في هذا الحديث ، سوف يتذكّر تردُّد مدير الشرطة،وسيؤاخذ نفسه لأنه لم يشْتمّ الحقيقة فوراً .

- بالتأكيد . إنها مفرزة من المختبر الاتحادي تساهم في البحث عن البـرميل والسعـي لكشف أي تسرُّب ممكن للغاز . وسأطلعك بنفسي على تقدّم التحقيق . أقسم لك بشرفي . ولكن بحق السماء ، لا تنشر شيئاً قبل أن نكون قد اكتشفنا هذا البرميل المشؤوم ، إذ يجب أن تفكر بالنتائج الخطيرة جداً للذعر المحتوم الذي سوف تحدثه .

- لست في وضع يمكّنني من اتخّاذ مثل هذا التعهد ، يا حضرة مدير الشرطة ، فالأمر من اختصاص إدارتي .

- إنني مستعد أن أحدِّث رئيسَك شخصياً بالأمر .

ولما علّق بيك السمّاعة ، التفت نحو « غريس » قائلا :

- إنها لمخيفة ، حكاية الغاز السامّ تلك . ولكن هل تعلمين أنني ظننت لفترة أن المقصود كان شيئاً أكثر خطورة ؟ لقد اعتقدت أن إرهابياً كان قد توصَّل أخيراً الى وضع قنبلة ذريّة في نيويورك .

كان ميخائيل بانيون ، في ملجأة التحارضي عند أسفل مانهاتن ، قد عاد إلى غرفة القيادة التي كان يتقاسمها مع الشرطيين الاتحاديين .

وقال وقد ارتاح بعض الشيء :

- اعتقد أني دبَّرت الأمر ، ولكن لبعض الوقت . واسأل الله أن يحمينا إذا ما علموا أننـا كذبنـا عليهم .

***

جعل أنجيلو روكيا صفارة البونتياك العائدة لوكيل كولغات تعوي ، حتـى يخـرج ثلاثـة شرطيين اتحاديين من مرأب هرتز في بروكلين .

وصـاح المفتش وهـو يُشـير الى باب المختبـر المُرتجـل حيث فكّك الشرطيّون الاتحّاديّون شاحنـة ڤولكسڤاكن الصغيرة .

- هلاً فتحتم مغارة علي بابا ! لقد وجدتُ شخصاً بعج جناح سيّارته بشاحنة صفراء .

وكان الاستقبال ، كما كان يتوقّع أنجيلو ، غاية في الفتور . فالمسؤول عن المفرزة ، الذي كان ، قبل ساعة ، قد أبعده عن المرأب ، لم يوفّر تهكمه عندما علم أن هذا المفتّش النيويوركي الشجاع كان قد انطلق وراء ذلك الأثر التافه .

وضحك ساخراً وهو يقول :

ـ أهذا كلّ ما وجدت ؟ رَجلاً بعج سيّارته بشاحنة صفراء !

وطلب روكيا باحترام مُكْرَه :

ـ هل تتفضّل بإجراء تحليل طيفيّ للجناح الأمامي الأيسر لهذه البونتياك ؟ فلربما وجدت شظيّة صغيرة من الدهان تسمح بإقامة الدليل على أن هاتين السيارتين سبق ان التقتا.ومع أن الشرطيّ الاتحادي كان يتساءل عما إذا كان أنجيلو يسخر منه ، فقد أدخل البونتياك المرأب ـ المختبر .

وانكبّ خبيران فوراً على العمل . وكان أحدهما يُمرِّر آلة فاحصة معدنيّة رماديّة بمحاذاة الجناح . وقد فكّر أنجيلو بأنها قد تكون قطعة مغناطيس ، وأنه لا بد أن تمتصّ الشظايا المتناهية الصغر المُندمجة في الصفيحة . وقد أثار الأمر فضولَه ، فاقترب وسأل :

ـ ما هذه الآلة ؟

ـ إنها عدّاد « جيجر » .

ـ عدّاد « جيجر » لفحص الدهان ؟

ـ أجل ، إننا نتثّبت ، مهما حدث ، من وجود آثار إشعاع .

وأصبح أنجيلو أدكن اللون . وشعر بركبتيه تخوران وظنّ أنه سينهار على الإسمنت . آه من القذرين ! لقد كانوا يعلمون ذلك منذ البدء ، ولكنهم لم يقولوا لنا شيئاً .

واستند الى الحائط .فشاهد عندئذ راند في حديث طويل مع أحد الفنّيين . إن أوساخ داكوتا الجنوبيّة وكولورادو وواشنطن بربطات عنقهم الضيّقة وأثوابهم من الدكرون (×) ، تُقال لهم الحقيقة كلُّها ، لأنهم ينتمون الى الشرطة الاتحادية . أما أنا ، ابن هذه المدينة ، والذي يقيم جميع أهلي هنا ، فلست موضع ثقتهم !

واقترب من رند ، وربّت على كتفه بشدّة ، حتى أن الشرطيّ الاتحادي الشاب ترنّح من ذلك .

ـ أوقف ثرثرتك ، فالعمل ينتظرنا .

واندسّ في السيارة فصفق الباب بشراسة ، لدرجة أذهلت راند .

وسأل الشرطيّ الاتّحادي وهو يجلس الى جانبه :

ـ ماذا دهاك ، يا أنجيلو ؟

ـ لقد كنت تعلم ذلك منذ البدء ، أليس كذلك ؟

ـ أعلم ماذا ؟

ـ لقد خدعتني مثل الآخرين ، فليس في برميلك القذر غاز الكلور ، بل قنبلة ذريَّة لعينة .

وأدار مفتاح التماسّ فزأر المحرّك .

ـ مدينتي وبيتي وأهلي ، ومع ذلك لم يثقوا بي .

وكان حنقه كلّه ومرارته وإذلاله تنطلق في غضب جامح .

ـ إنهم يثقون بغرٍّ من « لويزيانا » ، خرّيج الحضانة،ولكنهم لا يثقون بي وبالسنين الخمس والثلاثين التي قضيتها في الخدمة .

(×) نسيج من خيوط صنعية شديدة المرونة .

وداس على جهاز السرعة حتى كاد يسحقه وأطلق الشفروليه في انزلاق جامح جعل الدواليب تصرّ ، فاعترى حارس المرأب ذهول عظيم .

***

لم يبق إلا ساعتان ، والقى الرئيس نظرة خاطفة على ساعة قاعة مجلس الأمن القومي ، فأدرك هول الموقف : لم يبق إلا ساعتان وستّ دقائق قبل انتهاء إنذار القذافي . والتفت نحو جاك إيسمان . لقد خطرت على باله فكرة ، قد لا تكون هائلة . ولكن في الحالة التي وصلا اليها ، كان يبغي تجربة كل شيء .

فقال لمستشاره :

ـ أريد التحدّث إلى « أب سترن » .

وما أن تمّ الاتصال مع مركز القيادة التحارضي في نيويورك حتى صاح الرئيس قائلاً :

ـ أبْ ! إن الساعة الرملية تفرغ . وعلينا قريباً أن نمضيَ إلى العمل ، وعندئذ لن تكون ثمّة وسيلة للرجوع الى الوراء .

وأجاب رئيس بلدية نيويورك :

ـ انني أدرك الأمر تماماً ، يا حضرة الرئيس . ولكن ما عساك فاعل ؟

ـ لقد حطّت الطائرات التي تنقل عناصر قوّة التدخّل السريع ، الساعةَ ، في المانيا ، إنها تملأ خزّاناتها وتستعّد للتوجّه الى الشرق الأدنى . ولقد تلقّينا منذ نصف ساعة تأكيد الرئيس السوري الأسد بأنه سيسمح لنا بالهبوط في دمشق . وفي الوقت نفسه ستنزل القوّة البرمائيّة التابعة للأسطول السادس في لبنان ، كما أن وحدات منقولة بالطوّافات ستنزل في الأردن . إن هذه العناصر الثلاثة ستُطبق كالكماشة ، على الضفّة الغربية وتطرد منها المستوطنات الإسرائيلية .

ـ إن الاسرائيليين ستكون لهم ردة فعل ، يا حضرة الرئيس ، ولا تنسَ أنهم يمتلكون ، هم ايضاً ، سلاحاً نووياً . .

وأجاب الرئيس بصوت رتيب :

ـ أعرف ذلك ، يا أبْ ، ولكن قبل المباشرة بمبادرتنا سأكون حريصاً على إبلاغهم ، وإبلاغ العالم أجمع من جهة أخرى ، عن الهدف المحدّد لتلك العملية .

ـ قد يكون ذلك غير كافٍ ، يا حضرة الرئيس .

ـ إذا كان ذلك غير كاف ، فسأطلبِ إلى الكرملين أن يعلمهم بوضوح عن النتائج المحتملة لاستخدام الأسلحة الذريّة . ويمكنك أن تكون متأكداً أنهم سيحملون على محمل الجدّ أيّ تهديد صادر عن الرّوس .

وأطلق « سترن » أنيناً .

ـ يا إلهي ، أليس من أمر آخر يمكن عمله ؟

ـ هناك أيضاً ورقة يمكن أن نلعبها ، يا أبْ . أنت !

ـ أنا ؟

ـ نعم أنت . تلفن بنفسك الى بيغن ، يا أبْ ، حاول أن تُقنعَهُ بأنه يرتكب عملاً جنونياً يرفض طرد جميع المستوطنات من الضفة الغربية .

ـ هل أستطيع أن أقول له إننا على وشك . . . ؟

تنهّد الرئيس وأجاب :

ـ قلْ له ، يا أبْ ، ما تشاء ، ولكن حاول أن تحصل على أن يعلن فوراً بواسطة الراديو أنه بوشر بالاخلاء التام للضفّة الغربية .

***

كان أنجيلو قد اوقف الشفروليه امام الرقم ١٧٨ شارع كريستوفر ، بالقرب من المكان الذي كان وكيل كولغات قد أوقف فيه البونتياك ، يوم الجمعة الماضي . وكان يحمل بيده مِذياعاً ظهرياً (×) ، كما نشر على ركبتيه خريطة مُفصَّلة للحيّ . وكان يراقب عمل الشرطيين الذين كانوا يُمشِّطون القطاع ، بحثاً عن الشخص الذي كان قد وضع الرسالة على رادّة الوكيل . وكانوا يتنقّلون من مجموعة الى مجموعة ويطرقون جميع الأبواب ويدخلون الى جميع المحلات ويستجوبون جميع المارّة .

وتوقّف نظر الشرطيّ لحظة عند ساعة لوحة القيادة . وتساءل : متى ستنفجر تلك القنبلة القذرة ؟ وشعر فجأة برغبة جامحة بالتخلي عن كل شيء والإسراع إلى ضمّ ابنته الصغيرة بين ذراعيه ، تلك الابنة المعذّبة ، المتألّمة ، والتي كان يحبّها ويحملها كالصليب .

وكانت صورة صغيرته ماريا ، وهي تُرتِّل أنشودة الميلاد ، لا تزال تشغل ذهنه . عندما سمع طرقاً على باب السيارة . وكان الطارق أحد الشرطيين بالثياب المدنية ، وكان يقتاد فتى في العشرين من عمره ، مُقولباً في سترة سوداء ضيّقة ، كانت تجعله يشبه راقصَ باليه ، وكان شعره الأشقر مُجعَّداً عند أعلى رأسه ، على طريقة ألفس برسلي . وكان يقود كلب حراسة نحاسّي اللون . وقد طلب اليه الشرطيّ أن يردّد على مسامع المفتّش روكيا ما كان قد قاله له لتوه .

وتحرَّكَ الفتى ، فأجاب :

ـ أجل ، بكل سرور . كنت أقوم بتنزيه « اشوكا » المسكين ، الذي يحتاج ، كما تعلمون ، الى الكثير من التمارين ، أليس كذلك ، يا عزيزي ؟ (وداعب الحيوان) كنت ، إذن ، هناك بالضبط (وأشار الى الجهة الأخرى من شارع كريستوفر ، عالياً قليلاً باتجاه الجادَّة الخامسة) وإذ سمعت فجأةً صوت اصطدام . فأدرت رأسي وشاهدت هذه الشاحنة الصفراء التي كانت تصعد الشارع . وعلى الأثر تابعت سيري ، متحاشياً الانزلاق ، لأن الطريق كانت حقاً ميداناً للتزلج ، وشاهدت بأنه كان قد لامس جناح سيارة كانت متوقّفة هناك .

ـ ووضعت كلمة على الرادّة ؟

ـ أجل ، كان هذا أقلّ ما يجب .

ـ هل كانت الشاحنة تابعة لوكالة هرتز ؟

ـ هذا كثير . . . (وبدا الفتى مرتبكاً) عجباً ، لا أعرف شيئاً من ذلك . هذا ممكن ، ولكنه كان يسير بسرعة ، فلم أتمكن من مشاهدته جيّداً . ثم إنني لا أفهم كثيراً ، كما تعلم ، بأمور الشاحنات .

ـ هل كان أحد سواك بإمكانه أن يشاهده ايضاً ؟

ـ كان ثمة اثنان من أولئك الصّيادين الكريهين الذين يتسكّعون عند الزاوية (وأشار إلى مخزن جنسي الى جانب الشفروليه العائدة الى أنجيلو) .

ـ هل أنت تعرفهما ؟

وظهرت على الشاب علامات الاستياء :

ـ أنا لا أعاشر مثل هؤلاء الأشخاص . (ورفع ذراعه نحو الأرض غير الواضحة عند حدود « واست سايد دريف ») إنهما يعملان هناك في الأحواض المهجورة .

(×) جهاز راديو مرسل ومستقبل صغير يعمل بالبطارية معدّ لكي يحمله المرء ، وبخاصة الجندي ، على ظهره .

وانبثق أنجيلو من السيارة قائلاً :
ـ تعال ، ينبغي أن نعثر عليهما !

***

لم يكن رئيس الولايات المتحدة مخطئاً ، فقد كانت دوائر الاستخبارات الاسرائيلية علمت بالاستعدادات الأميركية بقصد التدخّل في الضفّة الغربيّة ، في الوقت نفسه تقريباً الذي بوشر به بتنفيذ العمليّة . وكان أحد العملاء في القاعدة الجويّة الأميركية في « وايسبدن » في المانيا ، قد أخبر السفارة الإسرائيلية في بون عن هبوط طائرات « غلاكسي س ـ ٥ » التابعة لقوّة التدخّل السريع . كما أن اقتراب القوّة البرمائية التابعة لبحريّة الأسطول السادس ، وقد اكتشفها الرادار اليهودي ، كان يُراقَب بيقظة من الطيران الإسرائيلي . وفي الوقت نفسه ، كان تقرير واف عن النوايا الأميركية قد وصل من مراسل الموساد المزروع في قصر الملك حسين في عمّان ، وكان مقدّماً في الطيران الأردني وعضواً في أركان الحرب الشخصية للعاهل الأردني .

وبعد أن عرض الموقف أمام الحكومة الإسرائيلية ، خلُص يوري أڤيدار ، رئيس دائرة الاستخبارات العسكرية والذي كان ، عند العشية ، قد أحبط قصفَ ليبيا الذري بنقله الخبر الى السفارة الأميركية ـ خلص الى القول :

ـ لم يعد هناك من شك ، فالولايات المتحدة تستعدّ للانقضاض علينا .

وأرعد وزير الإعمار « بني رانان » قائلاً :

ـ يجب إخطار الصحافة العالمية فوراً .وهذا سيسمِّر الأميركان في مكانهم . وسيجبرهم الرأي العام على محاربة القذافي .

وتأمل نائب رئيس الوزراء يعقوب شامير زميله بذهول :

ـ هل جُنِنت يا بنيّ ؟ ! اذا ما علم الأميركان بأن نيويورك توشك أن تُدمَّر بقنبلةهيدروجينيةبسبب مستوطناتنا ، فلن يكون ثمّة أحد يعارض في التدخّل العسكري ضدنا .

وكان يوري أڤيدار قد نهض . وكان وجهه يعبِّر عن السخرية اليائسة .

ـ ألن يكون ممكناً ، ولو مرة واحدة ، أن يعترف بلدنا باخطائه ؟ لماذا لا ننقل بأنفسنا جميع تلك المستوطنات ، بصورة نهائية . وأنا أضمن لكم ان يطيع الجيش في نهاية الأمر .

وأطلق رنان بصوت منخفض :

ـ لقد أخطأنا لأننا لم نتابع هجومنا على ليبيا أمس !

وظلَّ مناحيم بيغن مسيطراً على نفسه والتفت نحو اڤيدار قائلاً :

ـ المصيبة أنّ دوائر استخباراتنا لم تتمكّن من اكتشاف ما كان القذافي يصنعه . ولو أُحطنا علماً بطريقة أفضل ببرنامجه النووي ، لكنّا اتخذنا التدابير المقتضاة ، قبل أن يحصل على قنبلته .

حاول أڤيدار الاحتجاج ، ولكن بيغن قاطعه بحركة من يده :

ـ لقد قرأت جميع تقاريرك . إنك لم تحمله أبداً على محمل الجدّ ، حتى بعد اكتشاف السلسلة الباكستانية ! فقد استمررت على التأكيد بأنه كان لا يمتلك الموارد التكنولوجية ولا البنية التحتية . . . وأنه يكن إلا خدّاعاً و . . .

ودخل أحد امناء السرّ الى القاعة . وخاطب رئيس الوزراء قائلاً :

ـ أرجو المعذرة ، فإن رئيس بلدية نيويورك يريد التحدّث اليك بصورة عاجلة .

***

كان المشهد مُنفرِّاً لدرجة أن أنجيلو شعر بالغثيان : فهناك الرصيف القديم المهجور والمغطّى بالبقايا

والأقذار ، وهناك التخشيبة الكئيبة وما عليها من حفر مُبْتل يشير الى « جمارك الولايات المتحدة » ، وهناك البائس نصف العاري ، ممدداً على الأرض في قاع الغرفة ، وقد تمزّق جذعه وتغطّى بالكدمات ، واتخذ هيئة حيوان مطارد وحوله الصيادان وقد ارتديا قمصاناً من الجلد وأمسك أحدهما بسلسلة دراجة دوارة لا تزال عند طرفي يده . وتقدّم المفتّش خطوة محاولاً الدخول إلى مغارة المتعة الساديّة المازوخيّة ، ولكنه شعر بالتقزّز ، فتوقّف .

وأشار الى الشخص ذي السلسلة وأطلق قائلاً :

ـ **أيّها القابع هناك ، اخرج من مكانك ! فأنا أودّ التحدث إليك .**

وتقدَّم الفتى حتى العتبة ، وهو يجرجر جزمته ، وصرخ ، وقد ساءت هيئته :

ـ ماذا تريد ؟ إن الزبون راشد ومُلقح ، نحن أيضاً قد أصبح لنا حقوق مدنيّة !

وصرخ أنجيلو :

ـ أسكت أيها القذر ! فأنا لا أهتم بما تفعله في الداخل . يوم الجمعة ، شاهد الرفيق هناك (وأشار الى الفتى وكلبه) شاحنة صفراء تبعج سيارة في شارع كريستوفر **ويدّعي** أنك ، أنت ايضاً ، شاهدت ذلك .

أجاب الصيّاد بغطرسة ، وهو يحوِّم سلسلته :

ـ ياه ! (وكان زبونه يئن ، في الظلّ الخفيف ، وقد أسند رأسه بين يديه) .

ـ هل تذكر تلك الشاحنة ؟

ـ ماذا ! إنها شاحنة هرتز ، إحدى الشاحنات الصغيرة العادية .

ـ هل أنت متأكد أنها كانت شاحنة هرتز ؟

ـ ياه ! أنا على يقين من ذلك . ولكن لماذا ؟

وأخرج أنجيلو من جيبه فهرساً بجميع السيارات العمومية التي تؤجرها هرتز في منطقة نيويورك .

ـ هل بأمكانك أن تدلّني من أي طراز كانت ؟

ـ ذلك الطراز .

وبدون تردّد ، وضع سبّابته على صورة شاحنة صغيرة فولكسفاكن ، طراز « ايكونولين » . ونظر أنجيلو بطرف عينه الى راند ، ثم إلى الشخص .

ـ شكراً ، أيها الصغير ، سنعطيك ذات يوم مدالية لحسن سلوكك .

***

فيما كان روكيا وراند يعودانْ بسرعة الى الشفروليه ، على بعد اثنتي عشرة مجموعة من الأبنية ، كان رجل يصعد بهدوء الى سيارة فورد ، مُتوقّفة أمام دكّان خردوات ، في الشارع الثاني عشر الغربي . وأعجب كمال دجاني بالشعر المستعار الأشقر الذي كانت ليلى قد اعتمرته . وكان ذلك الشعر يُبدِّل سحنتها لدرجة أن أيّ شرطيّ لم يكن بوسعه أن يتعرف عليها ، ولو كانت صورتها بين يديه . وأقلعت السيارة بهدوء وانضمّت إلى السير المتّجه صعوداً نحو الجادّة السادسة .

وسألت ، وعينها مُركّزة على المرآة الآرتدادية للتثّبت من عدم ملاحقة أية سيارة مشبوهة لهما :

ـ أيجري كل شيء على ما يرام ؟

ـ كل شيء على ما يرام .

ـ لم يُذع الراديو شيئاً حتى الآن .

ـ أعرف ، فلديّ ترانزيستور .

ـ هل تعتقد أنّ من الممكن أن يرفض الأميركان ؟

ورفع كمال كتفيه ، وقد خلا وجهه من أي تعبير . وظلّ صامتاً ، يتطلّع الى الناس تتدافع على الأرصفة ، حاملة بين أذرعها هدايا الميلاد . وكانت ليلى تشعر بتوتّر في أعصابها .

وقال لها كمال ، وقد تملّكه التوتّر :

ـ من الأفضل أن تركّزي تفكيرك على الطريق . فلا وقت الآن لصدم أحد .

وران صمت طويل . وانتهت ليلى بالقول :

ـ ماذا تشعر أنت ؟

ـ بأيّ شأن ؟

ـ بشأن تلك القنبلة ، حباً بالسماء ! وبشأن ما سيحصل لو رفض الأميركان ؟ ألا ينتابك أيّ شعور ، يا كمال ؟ انتصار ، انتقام ، نَدَم ، أي شيء ؟

ـ لا ، يا ليلى . فقد تعلّمت منذ زمن بعيد أن لا أشعر بشيء .

واعتصم بالصمت من جديد ، مُتطلعا الى منظور ناطحات السحاب التي كانت تتلألأ تحت أشعّة الشمس الشاحبة .

وكانت السيارة تنزلق الآن في السيل الخارج من نيويورك . وأخذ كمال خريطة الطرقات عن المقعد ، بحركة حادّة . وأمرها :

ـ لا تسلكي طريق المرّة الأخيرة .

ـ لماذا ؟

ـ لأني لا أريد أن أمرّ أمام المراكز التي تستوفي رسوم العبور ، فاذا ما كانوا يتعقّبوننا ، فانهم سوف ينتظروننا هناك .

***

في خضمّ النصائح والتهديدات والوعود التي كان مناحيم بيغن قد سمعها منذ أول اتّصال هاتفي مع الرئيس قبل ثلاثين ساعة ، لم يتأثّر بالقدر الذي هزّه نداء رئيس بلدية نيويورك . وكان بيغن قد التقى « أبْ سترن » مرتين : الأولى في نيويورك بمناسبة جمع التبرّعات لإسرائيل ، والثانية في القدس مع جماعة من الصهيونيين النيويوركيين .

وقد ترافع رئيس البلدية بصوت كان يرتجّ من التأثر :

ـ يا حضرة رئيس الوزراء ، اسمح لرجل عجوز يحتفل اليوم بعيد ميلاده الثاني والسبعين والذي كرّس حياته كلها في سبيل رفاه مواطنيه ، أن يوجّه إليك هذا الالتماس . إن ستة ملايين رجل وامرأة وولد غير مسؤولين عن المآسي والمظالم والمصائب التي عانى منها شعب إسرائيل في أثناء نضاله من أجل بقائه ، قد يهلكون لأنك ترفض طرد قبضة من المستوطنين من أرض لم تعد منذ الفي سنة ، شئنا أم أبينا ، ملك اليهود . ولكني لا أناشدك باسم هؤلاء الملايين من الصغار البيض والسود والصينيين الذين تتألف منهم مدينتي ، فحسب ، بل باسم ثلاثة ملايين يهودي ، مثلي ومثلك ، يقطنون نيويورك.فأنت تعلم أنّ عدد اليهود هنا ، يفوق عددهم في بلدكم . وتعلم ايضاً أي نضال يومي نقود لنساعدكم على الدفاع عن حقّكم في الوجود . أتعلم لماذا اختار هذا العربيّ الدمويّ نيويورك لتكون موضوع ابتزازه المرعب ؟ لماذا لم يجعل من واشنطن أو شيكاغو أو لوس انجلوس رهينة لديه ؟ بسببنا نحن ، يا حضرة رئيس الوزراء . إننا نحن هنا ، يهود نيويورك ، على خطّ النار . لا أنتم .

وتوقّف رئيس البلدية ومسح عينيه المبلّلتين بالدموع وجمع أنفاسه . وكان صوته يصل الى بيغن مُشوّهاً بعض الشيء بسبب الصدى

واستأنف أب ستر ن قائلاً :

- إنك رجل مُتديِّن يا حضرة رئيس الوزراء . إنك تعرف توصية التوراة والتعاليم المُقدّسة التي تأمرنا باتباعها ، نحن اليهود. وإذا كانت حياة رجل واحد في خطر ، فعلى الطائفة بكاملهـا أن تهب لمساعدته . إن حياة ثلاثة ملايين يهودي مهدّدة اليوم ، يا سيد بيغن . إنهم موجودون هنا في نيويورك ، وليس هناك في إسرائيل .

***

- قلْ أيها الصغير ، ألا يحسب الإنسان نفسه في كاب كندي ، عشية إطلاق « امسترونـغ » الى القمر !

لم يسبق ان نزل أنجيلو وراند الى مركز القيادة التحارضي في فولاي سكوير ، حيث كان يسود هرجُ حقيقي بسبب حالة الطوارىء . فقد كانت جميع التلفونات ترنّ في الوقت نفسه وكانت الأبواب تُصفق والرجال يدخلون ويخرجون في انقضاض أعمى . وكانت أجهزة الراديو تهدر والمبرقات الكاتبة تطقطق والناظمات تومض .

كان ربّان تلك السفينة الجامحة ، الذي كانت واشنطن تُنهكه بلا انقطاع والذي كان يعي فراغ جهوده ، يحُاول أن يحافظ على رباطة جأشه . ولم يجد كانتن دوينغ مدير مكتب التحقيق الفدرالي ، بناء على إلحاح أل فلدمان ، أفضل من أن يجمع أركان حربه للاستماع الى أنجيلو روكيا وجاك راند .

وقال الشرطيّ الاتحادي بخشونة وهو يشير الى كرسيّ عند طرف الطاولة :

- اجلس أيّها المفتّش وقدّم لنا بإيجاز بياناً عن ذلك التحقيق الماكر الذي حدّثنا عنه رئيسك .

وحلَّ أنجيلو ربطة عنقه وروى قصته : تفكيره بالسفر والتصريح عن الحادث المقدّم من وكيل كولغات،والملاحظة فوق الرادّة والشاحنة الصفراء وتطابق الساعات ، دون ان يهمل بالنتيجة أيّ تفصيل . وأشار على الخريطة الكبيرة لمانهاتن الى طريق الشاحنة الصغيرة المحتمل من رصيف بروكلين حتى اصطدامها بالبونتياك في شارع كريستوفر .

وشدّد قائلاً :

- إذا كانت تلك الشاحنة الصغيرة قد سلكت ذلك الطريق ، فهذا يعني أنها كانت تقصد حتماً تلك المنطقة .

ولاحظ دوينغ قائلاً :

- إذا كانت حقاً هي التي نبحث عنها . ألم تقل لنا انت نفسك ان هناك اكثر من أربعمئة شاحنة هرتز قيد السير !

وانقلب مدير مكتب التحقيق الفدرالي فوق مقعده مرتاباً .

- وانطلقت على ذلك الأثر لأنك تصوّرت أن العرب لا يحسنون القيادة فوق الثلج !

وكان ادعاء الشرطيّ الاتحادي قد أغاظ أنجيلو الى أعلى درجة ، فأجاب ببرودة :

- إن تلك الفكرة تساوي غيرها من الأفكار ! فهل لديك أثر أكثر صحة ؟

وعندئذ سأل « دوينغ » رئيس مكتب التحقيق الفدرالي النيويوركي قائلاً :

ـ هارفي ، متى ستتلقّى تقرير الدهانات المُقارن ؟

ـ بعد نصف ساعة .

أوأشار « دوينغ » إلى أن تلك كانت نصف ساعة زائدة ، فالتفت نحو « فلدمان » .

ـ ما رأيك في كل ذلك ، أيها الرئيس ؟ إن روكيا هو مأمور تابع لك . هل يمكن أن نضع ثقتنا به وأن نُفتِّش القطاع كلّه ؟ وأن نُفتِّش كلَّ شيء ، بيتاً بيتاً ؟

وقبل أن يجد « فلدمان » الوقت للجواب ، كان « دوينغ » يُضيف :

ـ سيكون لدينا مربّع هائل ، يتكوّن من مئتي بيت على الأقل . وينبغي أن نُجنِّد في سبيل ذلك كل جماعتنا . وهكذا ستنصبّ جميع جهودنا في اتجاه واحد ، ولن يبقى احد للعمل في مكان آخر .

واستشار « فلدمان » ساعته :

ـ هل لديك طريقة أفضل لاستخدام الوقت القليل المُتبقي لدينا ؟

ورفع « كانتين دوينغ » عينيه نحو السماء :

ـ ليس لدينا ، في الواقع دقيقة واحدة نُضيعها وليس أمامنا خيار آخر . وليساعدنا الله اذا أخطأنا .

وكان على وشك إطلاق العملية ، عندما شهر « هارفي هدسون » صفحة صفراء من الدليل الهاتفي للمهن .

ـ تريَّث ثانية ، يا كانتين . هناك فرع لوكالة هرتز للتأجير تماماً عند زاوية الشارع الذي حصل فيه الاصطدام . ولا بدّ أن الشاحنات الصغيرة تدخل الى الفرع وتخرج منه طيلة النهار . فلم لا تكون إحداها التي تسبّبت بسحق مُقدَّم السيارة المكتشَفة من روكيا والتي كثر التحدُّث عنها ؟

ران صمت طويل قبل أن ينفجر « دوينغ » ويصيح مُخاطباً فلدمان :

ـ يا إلهي ! كنت ستحملنا على تركيز جميع قواتنا على قطاع واحد ، في حين أن هذا المفتّش العجوز ، العاجز والذي لا خير فيه ، لم يقم بالتحقيقات الأولية !

وقفز أنجيلو على قدميه ، قبل أن يجد فلدمان المسكين الوقت للجواب . وأخرج من جيبه قصاصة صحيفة ملأى بالملاحظات ، وجعل منها كُريَّة وقذف بها رأس دوينغ ، وقد أصبح قرمزي اللون ، وقال مُرعداً :

ـ إليك هذا يا حضرة الشرطي الاتحادي ، وهو عبارة عن بيان بتحرّكات الشاحنات الصغيرة التابعة لذلك المرأب بالنسبة ليوم الجمعة الماضي . ويظهر من هذا البيان أن ثمّة شاحنة خرجت الساعة ١٧/٨ وان اثنتين قد عادتا بعد الظهر .

وتقدَّم أنجيلو من دوينغ ، وقد بدت أمارات التهديد على سحنته :

ـ قد أكون عجوزاً ، عاجزاً ، لا يُرجى مني خير ، يا حضرة الشرطي الاتحادي . ولكنني سأقول لك

من انت ! إنك قذِر ، منافق ! لقد أخفيت عنّا الحقيقة منذ البدء . ولقد زججت بنا في هذه القضية كالعميان ، لأنك لم تكن تثق بنا !

وفرقع أنجيلو أصابعه في وجه جاك راند الذي لم يكن يصدِّق ما كانت تسمعه أذناه .

ـ إنكم تثقون به ، هو . إنه من جماعتكم . إنه مُبارك من واشنطن . أما أنا الشرطي النيويوركي المسكين ، احد الملايين التي سيحيلها برميلكم الى هباء ، فلست جديراً بثقتكم . وعلى كل ، ماذا سيكون تأثير ذلك عليكم ؟ أنتم في منأى في كهفكم ؟ اما نحن ، فوق . . .

ـ روكيا !

ولم يتمكّن صوت مدير الشرطة الحاسم من كبح جماح ذلك الإعصار من الحقد . فقد كان أنجيلو قد أمسك دوينغ بكتفيه ، كما كان قد هزّ ، العشية ، « بني » مخفي الأشياء المسروقة .

ـ إن برميلكم لا يحتوي على غاز الكلور ! بل على قنبلة ذريَّة ، ستنظِّف المدينة والناس معها ! وستختفي مجابر هارلم والبرونكس وبروكلين ، ولن يبقى أمامكم أية هموم تتعلّق بها . ونيويورك بُرمَّتها لن تكون إلا مجبراً كبيراً من الأموات ، عندما تنفجر تلك الأداة !

توقّف أنجيلو ، وهو يلهث ، وكان يشعر بخفقات قلبه بتواتر الغضب الذي كان قد أطلقه لتوّه . ولم يلبث أن هدأ . .

ـ حسناً ، لقد قلت لكم أين يمكن أن تجدوها ، تلكم القنبلة . وسواءٌ أذهبتم إلى ذلك المكان أم لم تذهبوا اليه ، فأنا أسخر من ذلك . لأنني ، من جهتي ، يمكن أن تدسّوا تحقيقكم حيث أفكر ، يا سيد دوينغ ، إنني أسحب احترامي لكم .

وقبل أن يجد أحد الحضور المذهولين الوقت للشروع بأية حركة ، كان المفتّش أنجيلو روكيا قد صفق الباب .

وصرخ هودسون :

ـ راند ! إلحقْ به ! حباً بالسماء ، لا ينبغي أن يؤلِّب المدينة وأن يزعق في كل مكان : « تدبَّروا امركم ، فثمة قنبلة ذريّة سوف تنفجر ! »

***

« كان رئيس الدولة ، حرصاً منه على جمع الآراء كلها ، قد دعا الى الالتحاق بمستشاريه المنهكين ، رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ وزعماء الأكثرية والأقلية في المجلس المذكور ورئيس مجلس النواب . وكان قد أعلمهم سرّاً بتطوّر الأزمة ، وكان يريد الآن أن يشركهم بالقرار الصعب الذي كان على وشك اتخاذه .

وكان رئيس الدولة قد طلب من كل واحد أن يُعبِّر عن رأيه . وكان أمين الخارجية ، الجالس تجاهه ، يُلخِّص بإيجازه المعتاد الرأي شبه الإجماعي .

ـ لا يسعنا ، يا حضرة الرئيس ، أن نسمح بموت أكثر من ستة ملايين أميركي ، لأن أمّة أخرى ، مهما تكن عزيزة علينا ، ترفض أن تُغيِّر سياسة كنا دوماً نُعارضها . فلْنُنزلْ قوات البحريّة مع قوة التدخّل السريع . ولْنُشركْ السوفيات بعملنا حتى نتجنّب ردّ فعل الإسرائيليين ، ولْنُعلمْ القذافي بمبادرتنا ولنتثبّت

من أنه يتابع تطورَها بواسطة سفارته في دمشق . وهكذا سُننقِذ نيويورك ، وحين نُعطِّل ذلك التهديد ، سندخل في مفاوضات معه .

وتنحنح الجميع بالموافقة ،فشكرهم الرئيس . ثم ألقى على الحضور نظرة أضناها التعب وتفحّص الوجوه الرصينة التي كانت تحيط به . وقال لأمين الدفاع :

ـ هربرت ! أعتقد أنك الوحيد الذي لم نستمع اليه .

حلَّ هربرت غرين أسنانه عن أنبوب غليونه ووضع مرفقيه على الطاولة مسنداً ذقنه إلى راحتيه ، كما لو كان مُنسحقاً بما كان يستعِدّ لقوله . وكان قد استشعر تلك الأزمة في قرارة نفسه ، أكثر من أي شخص آخر . فقد كان فيزيائياً نووياً ، وأحد الأدمغة في تلك المجموعة التي وهبت الإنسانية الحسنة والآفة في آن ، ألا وهي إنشطار الذرّة . وكان قد تطلّع بقلق الى العالم المُتمدِّن يُبعثر معارفه في كل اتجاه دون أن يحسب حساب اليوم الذي سيظهر فيه رجلٌ مُتعصّبٌ يُشهر القنبلة الذرّية لفرض إرادته . وقبل أن يتناول الكلام ، أخذ نَفَساً عميقاً .

ـ يا حضرة الرئيس ، إن آخر أزمة عشتها في هذه القاعة كانت أزمة رهائن إيران . ولا تزال محفورة في ذهني أحداث تلك الأيام . وكان بلدنا يحتاج بمرارة الى اصدقائه أثناء تلك الأيام الحالكة . وأسمح لنفسي بأن أذكِّرك بأننا لم نجد بين الأصدقاء سوى إسرائيل ، إسرائيل وحدها هي التي وقفت الى جانبنا . وقد أدار لنا حلفاؤنا التقليديّون ، الأنكليز والألمان والفرنسيون ، ظهورهم ، عندما ناشدناهم ان يتضامنوا معنا . لقد كانوا حريصين على تموينهم بالبترول ، لدرجة أنهم كانوا يُفضِّلون ان يروا بلدنا يُذلّ ودبلوماسيينا على وشك الهلاك ، على ان يقوموا الى جانبنا ، بأيّ عمل من شأنه أن يُغيِّر مجرى حياتهم الهادئة ! تلك لحظات لا أستطيع أن أنساها يا حضرة الرئيس . فهل نُصوِّب اليومَ أسلحتنا الى هذا البلد الوحيد الذي ظلَّ أميناً لنا في المحنة ؟ وذلك بناء على أمر ديكتاتور يكرهنا نحن ومن نُمثِّل ؟ إنني شاطر شعوركم جميعاً بصدد المستوطنات اليهودية في الأراضي العربية ، وكذلك بشأن التصلّب الإسرائيلي . ولكن القضية التي تواجهنا تتعدّى من بعيد مشكلة تلك المستوطنات والقدس ،وحدها . هناك حدٌّ لا يمكن لأي بلد ولا لأي إنسان أن يجتازه دون أن يفقد كرامته واحترامه لذاته . وإني أؤكد أن ذلك الحد ، قد بلغناه .

ولما أنهى غرين كلامه كان الصمت قد جمّد الحضور ، ذلك الصمت المثقل بالمأساة التي كانت تعصر القلوب . ونهض الرئيس وألقى نظرة على ساعة الحائط وقال :

ـ أشكركم أيها السادة ، أودّ أن أنسحب بعض الوقت في الحديقة للتفكير قبل اتخاذ القرار .

***

ما كاد أنجيلو روكيا يخرج حتى حضر شرطيّ وسلّم فلدمان رسالة .

وزأر رئيس المفتّشين قائلاً :

ـ أيها الرب يسوع ! لقد كان روكيا على حق !

وقفز عن كرسيه مندفعاً باتجاه خريطة نيويورك . وأعلن ، وهو يشير على الخريطة إلى نقطة عند أسفل مانهاتن ، قائلاً :

ـ إن أحد مفتّشي الأخلاق استجوب لتوّه بغيّاً تصطاد زبائنها هنا (وأشار الى النقطة على الخريطة) . وقد تعرّفت على أحد الفلسطينيين الثلاثة المدعو كمال ، الذي كان أحد زبائنها مساء أمس .

وسأل « هدسون » قلقاً : هل هي متأكدة من ذلك ؟ إن البنات ، في تلك الزاوية ، يشهدن إقبالاً شديداً .

ـ إنها جازمة بهذا الشأن . ويبدو أنه ، حقاً ، ساديّ مجنون . فقد أشبعها ضربات مُتّصلة .

واستدار « فلدمان » ثانية نحو الخريطة .

ـ ان ذلك المكان يقع تقريباً عند أعلى الجادة الخامسة ، وبالضبط في القطاع الذي دلّنا عليه روكيا . فينبغي أن نبدأ بالتفتيش من هناك وتمشيط كل مكان حتى الهودسون .

وكهربت هذه الكلمات الجماعة الصغيرة التي كانت قواها قد انهارت . وكان هودسون قد أشعل سيغاراً من طراز « روميو وجوليت » . أما بانيون فقد كان يبتسم ابتسامة المراهن عندما يرى أحد جياده يتغلّب على الجواد المرجّح بنسبة مئة ضد واحد .

وسأل دوينغ :

ـ كم يلزم من الوقت لتفتيش كل هذا ؟

وتفحّص فلدمان الخريطة وأجاب :

ـ عشر ساعات . فلنعطِ عشر ساعات ، وأنا أقسم لك بأننا سنجدها ، تلك القنبلة .

***

ولكن ، ذلك الثلاثاء الواقع فيه ١٥ كانون الأول ، لم يكن باقياً إلا ساعة فقط حسب العدّ العكسي . وطيلة خمس دقائق لا تنتهي من النزاع ، كان الرجال المجتمعون في قاعة مجلس الأمن القومي ، قد انتظروا بصمت عودة رئيس الدولة . وحده جاك إيسمان كان قد رافقه الى الطابق الأرضي . ولكن كان قد تركه عند باب الحديقة وشاهده يبتعد عبر الممرّ ، ويداه في جيبيه ، محني الرأس ، مُتأمِلاً ومصلّياً .

وكان واقفاً الآن امام الحضور ، وقد ارتسمت على وجهه علامات الهدوء والتصميم التي تحلّت بها اميركا أثناء الساعات المأساوية لأزمة الرهائن في طهران .

وبدأ بصوت يكاد يكون سرّياً :

ـ أيها السادة ، لقد اتخذت قراري . قد نكون أخطأنا لعدم محاولة إخلاء نيويورك ، مهما كانت النتائج . فليحم الله مواطنينا النيويوركيين . ولكنني رئيس مئتين وثلاثين مليون اميركي . ونحن نواجه عملاً حربياً حقيقياً ضد بلدنا . فاذا ما انحنينا وأذعنّا للابتزاز نكون قد تخلّينا عن حقنا في الوجود ، ونكون قد حكمنا على أنفسنا بالهلاك ، عاجلاً أو آجلاً ، وبشكل أكيد ، كما ستغيب الشمس هذا المساء .

واستعاد أنفاسه .

ـ الساعة الآن ، الحادية عشرة صباحاً . وينتهي إنذار القذافي عند الظهر . وإني آمرك ، أيها الأميرال فولر ، أن تُصوِّب الصواريخ النووية لغواصات البحر المتوسط ، على ليبيا ، الصواريخ كلّها ، واعملوا المستحيل لحماية مصر وتونس من الإسقاطات الإشعاعية . أيّها السيد أمين الخارجية ، أعِدَّ رسائل ، بالأفضلية ، الى السكرتير الأول للجنة المركزية السوفياتية والى القادة الصينيين والى السادة بيغن وجيسكار وهلموت شميتّ والسيدة تاتشر . وليكن إرسال تلك الرسائل في اللحظة نفسها التي سنشنّ فيها عمليّتنا .

وحدّق بالوجه الكئيب لرئيس لجنة رؤساء أركان الحرب .

ـ أيها الأميرال ! إذا لم نعثر على القنبلة ولم نُعطِّلها حتى الساعة ١١/٣٠ ، وإذا ما رفض القذافي تمديد إنذاره ، فإني آمركم بإبادة ليبيا .

***

ـ يا لها من مُفاجأة حسنة ، يا سيد روكيا !

وأدخلت الراهبة القصيرة التابعة لتنظيم سان ڤنسان ده بول في مركز كندي للأولاد المُعاقين ، المفتّش إلى إحدى قاعات الاستقبال .

ـ آمل أن لا يكون ثمّة شيء خطير ؟

ـ لا ، لا ، أيتها الأخت
وكان الشرطي يُقلِّب قبعته ، مرتبكاً .
ـ يجب أن آخذ ابنتي يومين أو ثلاثة لترى بعض الأهل في منطقة « كونكتيكيت » .
واعترضت الراهبة ، قائلة :
ـ آه ! أخشى أن يكون ذلك مخالفاً للنظام . ولا أدري إذا كانت الأم الرئيسة . . .
وألحَّ أنجيلو :
ـ هذا ضروري ، فقد حضرت شقيقة زوجتي من كاليفورنيا لمدّة يومين ، ولم تلتق بعد ماريا .
واستشار ساعته بعصبيّة :
ـ أنا مستعجل جداً ، أيتها الأخت . هلا تفضّلت بإحضار ابنتي ، اذ ينبغي أن أتصرّف بأسرع ما يمكن .
ـ ألا يمكنك الرجوع أثناء السهرة ؟
ونفد صبر الشرطي ، فأجاب :
ـ كلا ! أيتها الأخت ، قلت لك إني مستعجل جداً .
ـ حسناً . تعالَ إذن وانتظر هنا ، ريثما أعدّ حقيبة ماريا .
وقادته الراهبة نحو كُوّةٍ مُزجّجة تشرف على **قاعة الألعاب**. وأحسَّ أنجيلو عينيه تغرورقان بالدموع ، شأنه كل مرَّة كان يأتي الى هناك . وكانت تلك القاعة تشبه قاعات باقي المدارس ، وتحتوي على مسرح للعرائس ومِزلقة (×) ومكعبات ودُمى . وبحث عن ابنته بين جماعة الفتيات الصغيرات . وانقبض قلبه عندما شاهد تلك المخلوقات الصغيرة ، ذات السِحنة المُشوّهة والحركات الخرقاء والعيون الكبيرة المُفعمة بتمرّدٍ غامض .
وشاهد الراهبة تأخذ برفق يد ماريا وتنتزعها من بين رفاقها .
وفكّر أنجيلو مضطرباً : وجميع الآخرين ؟ سأنقذ ابنتي ، أمّا الآخرون . . .
ولما عادت الراهبة مع الابنة وحقيبتها الصغيرة كان المفتّش انجيلو روكيا قد اختفى .

***

شمالي مينسوتا وفي منطقة رَعَوية من الأحراج والمراعي ، وعلى مقربة من قرية اوسكومي ،وعلى بعد بضعة كيلو مترات من الحدود الكندية، تقوم مُفْرَدة× ×حرجيةلا تسترعي الانتباه، تخصّ حكومة الولايات المتحدة . وكان يحرس مدخلها بعض الرجال ، في البزّات الرسمية ، تابعين لدائرة الأحراج والمصائد . وكانت تلك المُفْرَدة تمتد على بضعة هكتارات من الأراضي كثيرة الوديان وتتخلّلها أشجار باسقة وأغراس ومروج وتحيط بها شبكة من الأسلاك الشائكة .
وكان الحراس المسلّحون ينتمون في الحقيقة إلى نظارة الدفاع . أما أسلاك السور الشائكة ، فهي في الواقع هوائي هائل للاتصالات ، يسمح بالتخابر مع غواصات البحرية الأميركية ، مُطلقة القذائف النووية . وكانت المنشأة تعمل ليل نهار أو تستخدم تواترات مُنخفضة أقل بكثير من شريط العشرة كيلو هرتز ، لأن الموجات الطويلة جداً تستطيع وحدها ان تبلغ الأعماق الكبرى حيث تمخر الغواصات . وتجرّ كل واحدة من الغواصات التي تقوم بالدوريات في قاع المحيط ، الهوائي المختص بها ، وهو عبارة عن مجرّد سلك طوله ثلاثة كيلو مترات ، بقدر الأسلاك الشائكة التي تحيط بمفردة مينسوتا .

(×) عجلة على مزلاجين طويلين من معدن .
(× ×) أرض محجوزة في بعض البلدان للسكان المحلّيين .

وعند الساعة ١١/٠٤ بالضبط ، وبعد أربع دقائق من صدور أمر الرئيس بالهجوم النووي ، سجّلت غوّاصتان تغيراً مفاجئاً في البثّ المتواصل الصادر عن السور . وكانت هاتان الغواصتان هما « سوردفيشر » و «باتريك هنري» وكانتا تمخران المتوسّط على عمق عدة مئات من الأمتار ، إحداهما على بعد عشرين ميلاً جنوبي شرقي قبرص ، والأخرى جنوبي صقليا . وأحضر عامل الراديو ، في كل غواصة ، الرسالة المحلّلة الرموز آلياً بواسطة إحدى الناظمات ، الى الضابط المناوب الذي نقلها بدوره الى القبطان .

وفي كلتا العمارتين ، أقدم القبطان ومساعده ، بعد أن استعملا مفاتيح يُكمّل بعضها الآخر ، على فتح الصندوق المحتوي على بطاقات الكومبيوتر المثقوبة . وأدخلا تلك البطاقات في ناظمات القيادة الست عشرة التي تتحكّم بصواريخ « تريدان» الستة عشر التي تتسلح بها كل غواصة .

وكانت بطاقاتَ الكومبيوتر تلك تتضمّن كل معلومات الرمي اللازمة لبلوغ الأهداف الليبية ، مع هامش للخطأ يقلّ عن ثلاثين متراً . وبعد ذلك أجرى الضباط ورؤساء الرمي عشر عمليات لضبط السلامة في سبيل تحرير أجهزة الإشعال .

وعند الساعة ١١/٠٧ أرسلت كل من الغواصتين رسالة الى « مينسوتا » تعلن أن الصواريخ قد سُلِّحت وصُوِّبت على أهدافها .

وكانت الرسالة تقول : « السفينة مجهّزة للدفاع » .

***

في الوقت نفسه ، كانت رسالة ثانية ، صادرة تلك عن موسكو ، تصل الى مركز المواصلات المسافية في البيت الأبيض ، بواسطة الخط الأحمر .

وحسب العادة ، كانت المخابرة منقولة بلغتين : الأولى الروسية ، والثانية الترجمة الإنكليزية الصادرة عن المترجم السوڤياتي .

وهُرع الرئيس الى قرب المبرقة الكاتبة للاطلاع على البرقية شيئاً فشيئاً . وكان أحد مترجمي نظارة الخارجية يقف إلى جانبه للتثبّت من صحة الترجمة السوفياتية والتشديد على فوارق اللغة المستعملة ودقائقها .

ولم يكن ثمّة ، هذه المرّة ، أيّ لبس او تأويل ، فالرسالة كانت موجزة ودقيقة . وقد شعر الرئيس أنه يترنح ، تحت تأثير الانفعال ، فاستند الى كتف المترجم المذهول ، وتمتم :

ـ شكراً ، يا إلهي .

***

كان الهياج قد بلغ ، في مركز القيادة التحأرضي في نيويورك ، حدّه الأقصى . وكان الشرطيون الاتحاديون يزعقون في جميع أجهزة الهاتف . وأمر بانيون تحويل المفوضية السادسة الواقعة في القطاع الواجب تفتيشه ، الى مركز مُتقدِّم للقيادة . وإلى جانبه ، كان فلدمان يُعبّىء الرجال والأعتدة . وعلى بعد بضعة مكاتب ، كان بيل بوت ، رئيس مفرزة التحريات النووية ، الذي اعتاد رباطة الجأش ، يستثير جماعته ، وهو يزعق في المذياع . ومن جهته كان هارفي هودسون يجنّد زُمرة من القضاة الاتحاديين لتنظيم مذكرات التفتيش التي كانت تسمح بدخول المنازل والمكاتب والعقارات ، والتي بدونها لا يجُيز أيّ نيويوركي ، قويّ بحقوقه المدنية ، لرجل الشرطة ان يطأ قدمه عنده .

وكان الهرج والمرج سائدين لدرجة ان أحداً لم يسمع مُكبِّر الصوت المركّز في منتصف قاعة الاجتماعات .

وتثبَّت « أبْ سترن » المَروَّع ، فجأة ان الرئيس هو الذي كان يخاطبه ، فطلب تحويل المخابرة حالاً الى مكتبه . واعتذر قائلاً :

ـ إننا هنا جميعاً ، يا حضرة الرئيس ، في حالة قريبة من الهرع . فنحن نظنّ أن لدينا معلومة عن المكان الذي دُسَّت فيه القنبلة .

وكاد الرئيس أن لايصغي الى ما يقال، لأنه كان لا يزال تحت تأثير انفعالات الدقائق الأخيرة . وقال :

ـ أبْ ، لقد تلقينا ، لتونا ، رسالة من الروس ، ولقد أجبروا القذافي على تمديد مهلة إنذاره ست ساعات . ولدينا من الوقت حتى الساعة ١٨ من هذا المساء .

وانهار رئيس البلدية على مقعده ، وكاد يختنق من السعادة .

ـ ولكن انتبه يا أبْ . ست ساعات ولا ساعة واحدة أكثر . فالسكرتير الأول كان صريحاً : إن القذافي لن يذهب أبعد من ذلك .

القسم العاشر

« لقد خسرتَ أيُّها الخائن ! ومع ذلك ، فستنفجر قنبلتك ! »

كانت المنطقة المراد تفتيشها تغطي مضلّعا رباعيا هائلاً من أسفل مانهاتن يعيش فيه ، وسط تشابك من الأبنية الفخمة والشقق والبيوت الصغيرة ، أكثر من نصف مليون نسمة في النهار ، وقرابة مليون في الليل . وكانت تقوم فيها أحواض « الهودسن » للسفن المهجورة التي كانت ترسو فيها سابقاً عابرات الاطلسي الفخمة « النورماندي » و « أيل دو فرانس » وسفن « الكوين » . وكانت توجد فيها مجموعات منازل يسكنها أفراد البورجوازية الصغيرة في نيويورك ، وأحياء الحِرفيين ، والشوارع الأشدّ حرارة في المدينة بعلبها الجنسية ومقاصيرها التي يُمارس فيها التعذيب السادي ـ الماسوشيّ . كما كان يعيش فيها مجتمع برمّته من الفنّانين والمثقّفين والهيبيين يملأون « غرينوتيش فيلاج » الذي يُعتبر « سان جرمين دو بريه » النيويوركي .

كان زهاء عشرة آلاف شرطيّ باللباس المدنيّ ، هم رجال الشرطة الاتحاديون وأعضاء مفارز التفتيش النووي المتنكّرون بلباس مقوّمي حاسبات شركة الـ « كون اديسون الكتريك » ، يتهيأون للانقضاض على القطاع . وكان « كوانتين دوينغ » ، في مقرّ المفوضيّة السادسة ، ينظّم هذا التفتيش المنهجي كعملية عسكرية حيّاً حيّاً ، وكتلة كتلة ، وشارعاً شارعاً .

كانت الطليعة مؤلّفة من أجهزة مختلطة من شرطة اتحاديين وضبّاط مفارز « النيست » مزوّدين بآلات الكشف . وكان المفروض ان يتفحصّوا بدقّة كل بناية ، من السطح حتى القبو ، من غير ان يدلفوا ، مع ذلك ، داخل المساكن . وخلف هؤلاء البهلوانات ، يأتي المشاة الثلاثة آلاف من الشرطة الاتحادية والمفتّشين ، وقد امتلأت جيوبهم بأوامر التفتيش ، فيتنقّلون من باب الى باب ، منقّبين الشقق والمكاتب والمخازن ، مولين المرائب والمستودعات والأقبية اهتماماً خاصّاً . عمل ضخم ! وكان « ال فلدمان » ، وقد أخذ وزن البرميل بالاعتبار ، قد اقترح ان يُقصر التفتيش على الطابقين الأولين في المباني التي لا مصاعد فيها .

سأل « دوينغ » أركان حربه المجتمعين أمام خريطة « مانهاتن » العملاقة :

ـ من أين نبدأ ؟ هل ننطلق من الجادة الخامسة هابطين نحو « الهدسون » ؟ أم العكس ؟

ـ إن شاحنة « هرتز » الصغيرة ، وفقاً لشهادة العامل ذي الدراجة ، كانت تصعد شارع كريستوفر بأقصى سرعتها حين انزلقت على سيارة « البونتياك » فمن المعقول إذن التفكير بأنها كانت تتجه نحو الجادة الخامسة او ضواحيها . ولو كنت مكانك ، يا سيد « دوينغ » ، لبدأت التمشيط من هناك ، وسأمضي في اتجاه النهر .

كانت جميع الرؤوس قد التفتت مذهولة نحو الشخص الذي تكلّم . كان « انجيلو روكيا » قد عاد ، مميلاً على رأسه لُبادته الرمادية ، متّخذاً هيئة « العرّاب » الذي يصل الى اجتماع مجلس ادارة تعقده « حاشيته » .

قال « دوينغ » متقدّما نحو المفتّش :

ـ آه ، يا سيد روكيا ، أعتقد أني مدين لك ببعض الاعتذارات الجادّة .

- اعتذارات ؟
- تلقّيت الساعة مخابرة تلفونية من مختبرنا في بروكلين ، لقد وجدوا فعلاً على سيارة ممثّلك طراز « بونتياك » آثار دهان عالق من شاحنة « هرتز » الصغيرة !

***

كان أفراد أسرة دجاني ، وقد قُطع عنهم قصداً كل اتصال بطرابلس ، بدافع أمنيّ ، يجهلون التأجيل غير المنتظر لإنذار القذافي . وكانوا قد التحقوا ، كما كان منظوراً ، بملجأهم في « دوبس فيري » على بعد زهاء خمسين كيلومتراً من نيويورك ، وهو بيت صغير أنيق ذو طراز استعماري كانت ليلى قد استأجرته بسبب موقعه المتستّر ، قريباً من الطريق السيّار . وكان المفروض ان ينتظروا فيه الانفجار وان يسارعوا بعد ذلك نحو الحدود الكنديّة .

كان الشقيقان وأختهما مسمّري الأنظار على شاشة التلفزيون ، وللمرة الثالثة ، سأل كمال :

- كم الساعة معك ؟

فأجاب وليد : الثانية عشرة إلاّ ثلاث دقائق .

كانت الثواني تنقضي من غير أن يظهر أيّ من الأشخاص الذين كانوا يأملون ظهورهم على التلفزيون . لا كارتر وهو يعلن للعالم عقد اتفاق جديد في الشرق الأوسط ، ولا حاكم نيويورك وهو يناشد مواطنيه ان يلوذوا بالفرار ، ولا مناحيم بيغن وهو يعلن الانسحاب الاسرائيلي من الأراضي العربية المحتلّة . لا شيء ، لا شيء إلاّ الحلقة البليدة التي تروي حكاية طبيب الأمراض النفسية الذي يعشق إحدى مريضاته .

كانت أصابعهم متشنجّة ، وشفاههم مزمومة . وكانت ليلى تشعر بأعصابها تتخلّ عنها . وقد أنّت تقول :

- لم تسر الأمور ، لقد رفض الاميركان ، وستنفجر القنبلة .

ووضع وليد قدح الويسكي وابتسم لها .

- اطمئنّي ، أيتها الأخت الصغيرة . لا بدّ أنهم لا يزالون يناقشون . وما داموا يناقشون ، فان القذافي لن يرسل إشارة الإشعال .

وانتحبت ليلى تقول :

- ولكن لماذا لم نسمع أيّ بلاغ ؟ ماذا ينتظرون لإخبار الجمهور بأن أنباء خطيرة توشك ان تُعلن ؟ وأن الاميركان والقذافي واليهود والفلسطينيين قد تفاهمواجميعاً ، في آخر المطاف ؟

انزعج كمال من هذا النواح ، فنهض متوجّهاً نحو النافذة :

- هل تعتقد ، يا وليد ، أن بالإمكان سماع الانفجار من هنا ؟

كان قد طرح السؤال باللهجة نفسها التي يطرح بها : « هل تراك تسمع ، يا وليد ، جرس التلفون ؟ »

- لا ، يا كمال ، ولكن لا شك في أننا سنرى برقاً ، ثم سحابة تشبه نبتة فطر هائلة .

كان كمال يراقب أخاه . بالرغم من توتّر هذه الأيام الأخيرة ، كان يبدو على هدوء عجيب . أكان ذلك استسلاماً ، قبولاً قدَرياً لفعله ، بعد جميع ألوان التردّد تلك ، وصراعاته الضميريّة ؟ ام كان ذلك لسبب آخر هو وحده يعرفه ؟

على شاشة التلفزيون ، أعلن المذيع عن تتمة المسلسل في اليوم التالي ، واختفت صورة شمس مشرقة يصاحبها أنين كمان . ليحلّ محلّها سيّد جذلان كان يتناول علبة « سباغيتي » من رفّ أحد المتاجر الكبيرة . وانفجرت ليلى فاقدة الأعصاب .

- سيحل الظهر بعد لحظات ، وهذا ما يعرضونه علينا ! أقول لكم ان المسألة أخفقت ، وقد رفض الاميركيون ! والقنبلة ستنفجر !

- إهدئي يا ليلى ! قليلاً من الوقار ، من فضلك !

قالها كمال بلهجة احتقار ، ثم فتح باب السطيحة ومشى في الثلج حتى الحاجز ، وعيناه مسمّرتان في الأفق .

ونظر وليد مرة أخرى الى ساعته : الثانية عشرة ودقيقة واحدة . لا بدّ أن إشارة القذافي بالراديو كانت قد وصلت عبر هوائيّ سقف المرأب . ولكن شريطه البِكر لم يستطع ان يعطي الأخبار الضرورية لناظمة الصندوق من أجل إطلاق الإشعال . وقد غمرته هذه الفكرة باحساس من أمن عميق لم يسبق له ان شعر به منذ أعوام ، منذ ايام « مايرارغ » السعيدة ، مع زوجته وأولاده كان القلق والشك وعذابات ضميره تصمت أخيراً إزاء اليقين أنه أوتي ، هذه المرة ، شجاعة ان يقوم بما يعتقد أنه كان عليه ان يقوم به .

والى جانبه ، كانت ليلى محنّية الركبتين تحت الذقن ،ممغنطة بشاشة التلفزيون . وكانت تردّد ، من غير كلل ، ان هذه القنبلة لم تنفجر من غير شك ، وانها لم تكن الا وسيلة ضغط ، كما أن ترديد هذه اللازمة كان يملك القدرة على حلّ ما كانوا قد عقدوه ، وعلى أن ينتزعها مما كان يسيطر عليها .

وارتعشت فجأة ، وصاحت وهي تسدّد أصبعها نحو التلفزيون :

- أنظروا :هذه نيويورك! نيويورك ! ان نيويورك ما تزال موجودة !

وكان كمال قد عاد من السطيحة ، فحدج أخته ثم أخاه . وعلى وجهه هيئة غضب بارد جعلتهما يرتعشان .

قال : - إنها الثانية عشرة وسبع دقائق . يجب ان أعرف لماذا لم تنفجر القنبلة !

***

في نيويورك ، كان التفتيش الكبير لأحياء مانهاتن السفلى قد بدأ بشلاّل من الأحداث . ففي شارع « بليكير » وصل مفتّشان في إبّان حفلة مخدّرات . وكان زهاء عشرة مدمنين متمدّدين على فُرش يحلّقون في « نيرفاناتهم » ، في حين كان آخرون يتهيّأون للانضمام إليهم ، مسلّحين بحقنهم . وقد اقتحم الشرطيان الغرفة كالاعصار ، محطّمين الحقن ركلاً بالأقدام، ودسّا أقراص الـ « اس . ال . دي » المخدّرة والهيرويين في جيوبهما ، ثم اختفيا وهما يصفقان الباب تحت أنظار المخدّرين المذهولين . وفي مكان آخر ، وقع أفراد من الشرطة الاتحادية على جلسات قصف وجَلد عظيمة . وقد ذُعر أبطال هذه الأعمال - وجميعهم تقريباً من الموظّفين وعمال المكاتب - خوفاً من الفضيحة ، فلاذوا بالفرار نصف عُراة من النوافذ وسلالم الحريق . وقطعت فرقة أخرى لقاءات أكثر رومانتيكية ، وعراكات زوجيّة ، ومنازعات .

وعند زاوية الشارع الرابع وجادّة « غرينوش » عثر بعض رجال الشرطة الاتحادية على لصوص يحطّمون المخازن أصيبوا بالدهشة حين طُلب اليهم فقط ان يُسلموا سيقانهم للريح . وفي مشرب

« كانتانا » ، أحدث وصول شرطيين تساقط مطرٍ من السلع المختلفة على الأرض : مسدّسات ، مُدى ذات فُرَض للتوقيف ، أقراص للتخدير ، أكياس من الذرور الأبيض ، علب حشيش ، هيروين ، كوكايين وسواها من الأشياء التي كان المهرّبون يريدون التخلّص منها قبل الاقتحام الذي كانوا يخشونه من الشرطة . وقد أخذ هؤلاء المسدّسات والمدى ، وألقوا المخدّرات في المراحيض ، وفتشوا القبو ثم خرجوا كما دخلوا .

وقد اكتشفت أنواع مختلفة من البراميل : دنان قديمة من البيرة والنبيذ ، صفائح من زيت المحرّكات ، منتجات كيمائية ، مُنظّفات منزليّة . بل لقد عُثر في قبو بمنطقة « واشنطن سكوير » على ثلاثة براميل من النفط يرجع تاريخها الى الحرب الأخيرة .

ووُجد كذلك في تسقيفةٍ بـ « كورنيليا ستريت » جسدُ مشنوق بحالة متقدِّمة من التحلّل ، كما وجد في غرفة من منزل بشارع « بدفورد » جسد امرأة عجوز ماتت ، على ما يظهر ، من البرد .

ولما كان كثير من الشقق فارغة ، بسبب أن ساكنيها كانوا في مقر أعمالهم ـ فقد استُنجد « بمطارق » الشرطة البلديّة ، وبأنابيب فولاذية ضخمة محشوّة بالإسمنت تتيح اقتحام الأبواب القاسية أشدّ القسوة . وقد خشي « أب ستيرن » ان يحُكم على مدينته ـ هذه المدينة التي ربما لن تكون بعدُ قائمة بعد بضع ساعات ـ ان تدفع ملايين الدولارات كعطل وضرر على سرقات حقيقية او خيالية ، فطلب ان يعسكر شرطيّ امام كل باب مُقتَحَم . وقد احتجّ بضعة سكان بحقوقهم المدنيّة ليرفضوا كلّ تفتيش ، حتى حين كان رجال الشرطة يملكون التكليف . وقد تلفنوا لمحاميهم ، وحّرضوا الجيران ، وأحدثوا تجمّعات . وقد خوصم بعض الشرطيين من قِبَل اولئك الذين كانوا يسعون الى إنقاذهم .

وعلى سؤال عن أسباب التدخّل ، كان رجال الشرطة قد أعطوا التعليمات بأن يقدّموا الرواية الرسمية عن إرهابيين فلسطينيين كانوا يهدّدون الحيّ ببرميل من الغاز القاتل . وعلى غير ما كان متوقّعاً ، لم يحدث هذا الإبلاغ أيّ ذعرٍ لدى السكان الذين كان التلفزيون والسينما قد عوّداهم على « سيناريوهات » اكثر إثارة بما لا يحدّ .

على أنه حدث في مركز قيادة المفوّضية السادسة ردود فعل مذعورة بين القضاة الذين كانوا قد استنفروا لإصدار تفويضات التفتيش . وقد سارع بعضهم ، بمجرّد إداركهم للسبب الحقيقيّ للعملية الجارية ، الى أقرب غرفة للتلفون ليأمروا عائلاتهم بمغادرة نيويورك على الفور .

وكان التفتيش قد بدأ ليمنح انجيلو روكيا نفسه دقيقة يتمكن فيها من إجراء مخابرة خاصّة ، فقال وهو يضع يده على السماعة حتى لا يسمعه أحد :

ـ هذه انت ، يا غريس ؟ كنت اريد ان اقول شيئا بصدد . . . بصدد ما قلته لي مساء أمس . لقد فكرت . أودّ لو نتزوّج . أتمنّى كثيراً ان يكون هذا الولد لنا كلينا .

***

كان كمال دجاني قد أطفأ التلفزيون بضربة من قبضته . وأمسك أخاه من كتفيه ، فانتزعه من المقعد ورجّه رجّاً عنيفاً :

ـ هل تقول لي أخيراً ماذا فعلت حتى لا تنفجر هذه القنبلة ؟

وأراد وليد ان يتخلَّص ، ولكن قبضة أخيه الحديدية كانت تُسمِّره . وسأل وهو يحاول ان يخفي خوفه :

ـ لماذا تنظر إليّ ، يا كمال ، بهذا القدر من القسوة ؟ انه يوم عظيم ! اذا لم تنفجر القنبلة ، فهذا يعني أننا قد ربحنا ! من المؤكّد ان الإسرائيليين بدأوا يُخلون أرضنا ! وسنعرف ذلك بالتأكيد عمّا قليل ! فلنشرب نخب النصر ، أيها الأخ الصغير !

ومدّ يده نحو زجاجة الويسكي الموضوعة على جهاز التلفزيون ، ولكن كمال أوقف حركته بضربة جافّة . فتصلّب وليد . ولقد منحه الكره الذي أوحاه له أخوه فجأة شجاعة ان يُفرغ جعبته .

ـ أكنت تظن حقا أن هذه القنبلة ستنفجر ؟ أكنت تحسب صدقاً اننا سنتمكن من العودة الى القدس بالسير فوق ملايين الجثث ؟ أكنت تعتقد ذلك ؟

« لا بدّ ان تكون ثمة وسيلة أخرى ، يا أخي . أنا لم أبْن هذه القنبلة لأزرع الذعر . بل بنيتها ليحصل شعبنا على العدل . ليكون مساوياً للآخرين . إن لليهود قنبلتهم ، والاميركيون والفرنسيون والصينيون والهنود والانكليز يملكونها . وللعرب الآن قنبلتهم . وبفضلها ، سيكون بامكاننا ان نتفاوض مع أعدائنا ونستردّ وطننا .

وتوقف لحظة» ، ثم ختم هو يطرِّق كلماته :

ـ كمال ، لا يمكن إقامة العدل على موت ملايين الأبرياء !

كانت نظرات أصغر الإخوة من آل دجاني تشتعل حقداً . وفكرت ليلى ، مذعورة : إنهما عينان للقتل .

ـ خائن ! لقد فهمت كل شيء : لئن لم تنفجر القنبلة . فلأنك نزعت شعيلتها حين ارسلتنا ، ليلى وأنا ، لنتفحّص الهوائيّ على السطح . إن مغص معدتك المفاجىء هو تمثيل ! فحين هبطنا من السطح ، كان المغص قد زال ، وقرحتك قد اختفت أيضاً ، منذ ذلك الحين ! كأنما بفعل السحر ! إشرح لي فوراً ، أيّها الحقير ، ماذا فعلت لتوقف مفعول هذه القنبلة !

كانت يد كمال قد انبثقت كفأس . وتلك اليد التي كانت قد سحقت القصبة الهوائية للفيزيائي الفرنسي « الين بريڤو » في غابة بولونيا ، انقضّت على خدّ وليد ، الذي أرسل صرخة خنقتها كلمة أخرى في صدره . فترنّح مصطدماً بكرسيّ ، وتأرجح على الطاولة في قعر الغرفة . وتدحرجت صحاف وزجاجة ويسكي ثانية وأوانٍ أخرى في ضجّة من زجاج يتحطّم ، وارتمى كمال على أخيه قابضاً على خناقه :

ـ هل تعلم ماذا يحدث في هذه اللحظة ، بسبب غلطتك ؟ إن الاميركيين ، في هذه لساعة يتهيأون ، ولا بدّ ، لتصفية القذافي ! إنهم سيبيدونه لأنه هو تحت رحمتهم الآن ، بسببك أنت ! بسبب خيانتك !

كان وليد يختنق . كان يحاول ، فاغر الفم ، مُنقلب العينين ، ان يتنشّق بعض الهواء . وكرّر كمال :

ـ ماذا فعلت لتبطل مفعولها ؟

وركله بركبته في أسفل بطنه ، فتلوّى وليد ألماً . وهرعت ليلى مستطارة اللّب :

ـ كمال ، توقّف ! إنك توشك أن تقتله ! إنه أخوك !

ـ إنه خائن ! فبسببه لن نعود أبداً الى منزلنا !

كان كمال يَزداد ضراوة تجاه أخيه ، وقد أسكره الغضب . ولم يَرَ ليلى تلتقط زجاجة الويسكي ، ولكنّ غريزته جعلته يستشعر الضربة ، فانحنى الى أمام ، فكان أن أخطأت الزجاجة رأسه وضربت ظهره . وقد فقد توازنه ، بفعل الضربة ، وانهار على المقعد .

نجح وليد في الارتداد ، فقبض على المسدس في جيب سترته . وكان يمسكه بيد مرتجفة حين انقضّ عليه أخوه . ولامست الرصاصة أذن كمال وذهبت تنزرع في السقف. ولم تنطلق رصاصة أخرى . فقد انغرس إبهاما الفلسطيني في قصبة أخيه الهوائية ، فوق جوزة العنق تماماً . وحدث صوت جافّ ،فهزّ تشنُّج وليد ، واذا فمه ينفغر على دفقة من لُعاب .

هدرت ليلى مذعورة :

ـ ماذا فعلت ؟

ـ قتلته .

تأمل كمال ، فترة طويلة أخاه ميتاً على السجادة . ثم ركع أمام الجسد ، فشمّر كمّه ليبرز الوشم على معصمه ، كما لو كان يريد ان يتبادل قَسَماً جديداً مع أخيه .

ـ ان قنبلتك ستنفجر مع ذلك ، يا وليد ! أقسم لك بذلك .ستنفجر. لقد خسرت ، أيّها الخائن !

وفتّش سترة وليد بحثاً عن لائحة الضبط لمختلف العمليات التي لا بدّ منها لإشعال فتيل القنبلة يدويّا ، فعثر على شريط . وسرعان ما عرف فيه الشريط المسجّل في طرابلس .

ـ هذا هو التفسير إذن ! إنه على غاية البساطة : لقد استبدل بشريط طرابلس شريطاً آخر بينما كنّا على السطح .

***

باستثناء ما كانت السيدة دوروتي بيرنز تسمعه في مسلسلات التلفزيون التي كانت تشغل أماسيها كأرمل متوحّدة ، كانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي تسمع فيها طلقاً نارياً . وقد هُرعت خلف ستائرها من القماش القطنيّ المطبّع لتحاول ان تعرف مصدر الانفجار .وسمعت اذ ذاك أصداء مناقشة حادّة صادرة من البيت المواجه . وبعد بضع لحظات ، رأت مجهولاً يدفع امرأة شابّة الى السيارة المتوقّفة أمام الباب . وما لبثت السيّارة ان أقلعت بصخب واختفت باتّجاه الطريق السيّار . ومن غير تردّد ، رفعت السيدة بيرنز التلفون الورديّ عند طاولة سريرها :

ـ من فضلك يا آنسة ، أعطيني مفوضيّة الشرطة .

***

في اللحظة نفسها تقريباً، رنّ جرس تلفون « ميردون بيك » رئيس تحرير « النيويورك تايمس » . وكان مراسله في « لاس فيغاس » يتصّل بشأن « جون ماكلنتوك » ذلك الذي كان قد استأجر واحدة من

شاحنات « افيس » الصغيرة التي اكتشفتها « غريس نولاند » في ثكنة « بارك افنيو » . وأوضح الصحفيّ :

ـ إن هذا السيدّ ينتمي الى تنظيم حكومي أقيم في قطاع محظور بقاعدة « ماك كاران » الجويّة . ودور تلك المفارز ترصُد كلّ مادّة إشعاعيّة اختفت خلال النقل او سُرقت من منشأة نووية او سقطت من السماء كما حصل في اسبانيا منذ بضعة أعوام ، سواء كانت هذه المادّة من الأورانيوم او البلوتونيوم او من قنبلة ذرّية . أما أسلحتهم . . .

كان الراسل ماضياً في تقديم تقريره ، ولكن « بيك » ، لم يكن يصغي بعد ـ وفجأة ، بلا ردّ فعل ، خُيّل إليه أنه أصيب بضربة على رأسه .

لقد حدث ذلك إذن !

***

كان شرطّيان من مفوضية « دوبس فيري » يطرقان باب السيدة بيرنز بعد ثلاث دقائق من مخابرتها .

وقد روت لهم ، وهي مهتاجة ، ما سبق ان رأته وسمعته .

وفيما كان الشرطّيان يعبران الشارع ليفتّشا البيت المواجه ، قال أحدهما لزميله :

ـ لا بدّ أنها تتفرّج على عدد مبالغ به من الروايات البوليسية في التلفزيون !

وإذ لم يجب أحد على رنّة الجرس ، استدارا حول المنزل بحثاً عن آثار ممكنة للكسر ثم عادا الى المدخل . لم يكن الباب مغلقاً ، فأدخل الشرطي الأول رأسه وسأل :

ـ هل هناك أحد ؟

ولم يتلقّ جواباً ، فجازف بالدخول حتى قاعة الاستقبال ، ثم صاح :

ـ يا إلهي ! استدع « شرطة الدولة » ! إن السيّدة الطيبّة لم تحلم !

***

كان « جون روبنسون » ، مدير « النيويورك تايمس » الصارم ، يحدج رئيس التحرير بدهشة . كانت سحنة « ميرون بيك » المتقدة في مثل شحوب قناع الموت . وكان قد جاء يُطلعه على أحداث غريبة كانت تحرّك نيويورك ، وكشف له ما كان قد اكتشفه بصدد « جون ماكلنتوك » في « لاس فيغاس » .

رفع « روبنسون » ، من غير ان ينبس بكلمة ، آلة التلفون طالباً أركان حرب الشرطة . وصرّح لسكرتيره « بانيون » ، مدير الشرطة ، بقوله :

ـ سيّان عندى ، يا آنسة ، **ان أعرف اين هو وماذا يعمل . فأنا أريد ان أكلمه على الفور**. سأبقى على الخطّ حتى تعثري عليه .

وكان لا بدّ من انقضاء بضع دقائق قبل ان يتّصل بميخائيل بانيون في صخب المفوضية السادسة . ولم يكن مزاج روبنسون يسمح له بإضاعة وقته في التحيّات والمجاملات .

ـ سيّدي مدير الشرطة!علمت أنك أخبرت رئيس تحرير جريدتي أنكم بصدد البحث عن برميل من غاز الكلوريدريك مخبّأ في هذه المدينة .

ـ هذا صحيح ،يا سيّدي المدير ، ولن أستطيع أبداً أن أعبّر عن مدى عرفاننا « للتايمس » ، إذا ساعدتنا في إبقاء هذا الخبر سرّياً ما لم نبطل مفعول هذا البرميل .

ـ لقد وضعه إرهابيّون فلسطينيون ، أليس كذلك ؟

ـ بلى ، تماماً .

وبالرغم من التوتّر غير المحتمل الذي عرفته الساعات الأخيرة ، فقد كان صوت « بانيون » حاسماً على عادته .

ـ سيّدي مدير الشرطة ، يؤسفني أن أقول لك إنك قد كذبت علينا . إن ما تبحثون عنه هو قنبلة ذرّية . إن ألوفاً ، وربما مئات من الألوف من النيويوركيين هم في خطر الموت ، وترفضون ان تنذروهم ، أن تنقذوهم بدعوتهم الى الفرار . وتودّون لو أن « التايمس » تفعل مثل هذا ؟ أن تلزم الصمت في حين أن سبب وجودها هو بالضبط أن تخدم هؤلاء السكان ؟

كان « بانيون » مصعوقاً . وقد استدعى شرطيّاً اتّحادياً ومدّ له رسالة خُربشت على عجل :

ـ اتّصل بواشنطن ! اطلب الرئيس ! لقد اكتُشف السرّ !

***

تسمّرت ثلاث سيارات من سيّارات شرطة نيويورك أمام المنزل الذي اغتيل فيه وليد دجاني ، وأضواؤها الدوّارة كانت تدوّم على السطح . وكانت تنتظر ، الى جانبها ، سيّارة إسعاف مفتوحة الأبواب . وكان بعض الجيران والأولاد العائدين من المدرسة متجمّعين ، والذعر يستولي عليهم . لم يكن حادثُ قتلٍ أمراً مألوفاً في شوارع « دوبس فري » الهادئة .

وفي قاعة الاستقبال ، كان رجال الشرطة منشغلين حولَ الجثّة . وكان أثر الرصاصة في السقف محاطاً بدائرة حمراء . وكانت فرقة تابعة لدائرة الهويّة القضائية تسجّل البصمات ، بينما كان شرطيّ يخطّ بالطبشور موقع جسد وليد على السجّادة ، ومصوِّر يلتقط المشهد من جميع الزوايا . وأصدر النقيب المكلّف بالتحقيقات الأولى أمره قائلاً :

ـ انقلوه الى معرض الجثث واطلبوا تشريحاً للجثّة .

وألقى نظرة على شظايا زجاجتي الويسكي التي كانت تملأ الأرض ، حادجاً الجثّة بنظرة احتقار .

ـ أراهن أنه سيعثر في بطنه على قدر من الكحول يكفي لفتح حانة !

وكان أحد الشرطة قد اكتشف جواز سفر وليد في سترته ، فسلّمه الى رئيسه قائلاً :

ـ خُذ ، يا شارلي ، إنه عربيّ !

تفحصّ النقيب الصورة ، فوجد بعض المشقّة في مقارنتها بالوجه الذي شوّهته آلام الاختناق ، وقلّب الأوراق حتى وقع على ختم ضابط الهجرة في مطار كنيدي . ثم قال ملاحظاً تاريخ ١٠ كانون الأول :

ـ يا للمسكين ! لم يُتح له ان يتبضّع لعيد الميلاد ! انني ذاهب الى السيارة لأنقل هذا الى مركز القيادة .

لم تكن شرطة ولاية نيويورك قد أُعلمت رسمياً بالابحاث القائمة في نيويورك ، وكان النقيب يجهل كلّ شيء عن المأساة التي تجري في مانهاتن . وقد أخذ لنفسه وقت إشعال لفافة ، وسحب منها عدّة نفثات ثم تناول مكبّر الصوت لينقل لمركز القيادة في مفرزته التقرير الأول عن جريمة « دوبس فيري » .

***

ساد مركز قيادةالمفوضّيةالسادسة ، بعد جنون إطلاق عملية التفتيش الكبرى ، جوّ من التعب. وكان «أل فيلدمان» رئيس المفتّشين يسوّد تدريجياً ، باللِّبد الأسود على الخريطة ، أجزاء القطاع التي تمّ تمشيطها . ولكن لم تكن لديه أيّة أوهام : فاذا لم تحدث ضربة حظّ غير مأمول ، فإنهم سيُدمّرون جميعاً قبل ان يتاح لأوّل رجال الشرطة ان يبلغوا ضفاف « الهدسون » .

كان فيلدمان يجترّ هذا المنظور المثبّط حين ناوله أحد المفتّشين سماّعة التلفون :

ـ يطلبونك من القيادة العامة التحأرضية في « فولي سكوير » .

كانت القيادة العامة لفولي سكوير موصولة كذلك ، بواسطة جهاز نقل كهربائيّ ، بأركان حرب شرطة ولاية نيويورك ، وكان مفتّش الدائرة قد اهتمّ اهتماماً خاصاً بآخر برقية سقطت على الجهاز ، فقال لفيلدمان :

ـ يشيرون ، ايها الرئيس ، الى وقوع حادثة موت في « دوبس فيري »،عملية قتل بلا شك . والضحيّة عربي يشبه شبهاً غريباً أحد الأشخاص الذين نبحث عنهم . وانا اقرأ لك أوصافه :

« الجنس : ذكر ، القامة : خمس أقدام وعشر بوصات . الوزن : ١٨٥ ليبرة ـ هوية معطاة بجواز سفر لبناني رقم ٢٣٤٦٥١ ، مسلّم في بيروت بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٩ ، باسم ابراهيم خالد ، مهندس الكتروني مولود في بيروت بتاريخ ١٢ ايلول ١٩٤٢ . دخل الى الولايات المتحدة من مطار كندي الدولي يوم ١٠ كانون الاول ٧٩ . شعر داكن مفرّق . عينان **كستنائيتان** . علامات فارقة : شارب رقيق ووشم على المعصم الأيسر يمثّل قلباً وخنجراً وافعى . » .

ـ وشم ! أتقول حقاً وشم ؟

كان فيلدمان مهتاجاً ، فصاح بدويننغ :

ـ اجلب لي الملفّ الذي أرسله لنا الفرنسيون مساء أمس .

وقلّب أوراقه بعصبيّة ، ثم هدر قائلا :

ـ انه هو ! انه هو بالذات ! هو أحد الفلسطينيين الثلاثة الذين خبّأوا القنبلة !

***

كان ريتشارد سنايدر ، رئيس « النيويورك تايمس » ، متوقّفاً أمام نافذة مكتبه ، في الطابق الرابع عشر من البناء المحترم ، وهو يتأمّل ، مُرهقاً ، كلمات رئيس الدولة . وكانت تصعد اليه ، من شِعْب الشارع ٤٣ الضيّق ، ضجّة السير الكثيف ، خليط أصوات نيويورك ، مدينته ، المدينة التي كانت

صحيفة أُسرته تخدمها منذ ثلاثة أجيال .

وقد كانت رئاسة هذه الصحيفة اليومية ، التي كانت تعتبر نفسها ضمير اميركا ، تلقي على كتفيّ هذا الخمسينيّ الطُّهْري مسؤولية معنوية ساحقة . كان يتساءل : أين هو واجبنا اليوم ، أيّ التزام « للتايمس » نحو هذه المدينة ، هذا البلد ؟

واذ عاد الى مكتبه المصنوع من خشب الجوز الثقيل ، تأمَّل على الجدران صفحات « التايمس » ، التاريخية الأولى وصور أبيه وجدّه اللذين كانا قد سبقاه في هذه القاعة . وفُتح الباب ، فأدخلت سكرتيرته « جون روبنسون » ، مدير الجريدة القاسي ، و« ميرون بيك» ، رئيس التحرير و«غريس ناولاند » .

باشر « بيك » ، بحدّته المألوفة :

ـ هل تدرك الأمر ، يا معلّم ؟ إن قنبلة ذرية مخبّأة في قلب نيويورك ! قنبلة تستطيع ان تقتل عشرة او عشرين ألف شخص ويطلب منا مدير الشرطة الاّ نقول شيئاً !

وكان رئيس « نيويورك تايمس » قد جلس شابكاً يديه ، كما لو كان يصلّي .

ـ ليست هي قنبلة ذرية ، ياميرون ، بل هي قنبلة هيدروجينية . وليسوا عشرة او عشرين ألفاً من هم مهدَّدون . بل المدينة برمّتها .

وروى حكاية الاتصال الذي تلقّاه من « الرئيس » .

ـ لقد رجاني ألاّ أنشر هذا النبأ .

وتفحّص رئيس « نيويورك تايمس » الوجوه المذهولة التي كانت قبالته . وكان يعرف شخصياً كلاً من معاونيه ، رغم عددهم . كان يعرف ان « غريس » كانت تعيش مع ابنها في مانهاتن ، وأن « روبنسون » كان يقيم في « الويست سايد » مع زوجته وأولادهما الخمسة ، وان « ميرون بيك » كان يسكن مع زوجته في منزل قديم من الحجر الأسمر في « بروكلين هايتس » وكان هو نفسه يقيم مع زوجته وولديها في قلب مانهاتن نفسها ، على بعد بضع كُتلٍ من مكتبه . كانوا جميعاً يتقاسمون مصير سكان نيويورك .

وأضاف ريتشارد سنايدر ، بلهجة مكثفة ، شبه محمومة :

ـ و « الرئيس » يطلب منا شيئاً آخر : يتمنّى علينا ان نكتم السرّ . . حتى تجاه عائلاتنا .

خنقت « غريس » صرخة : تومي !

وثار مايرون صائحاً :

ـ يا إلهي ! هذا لا يصدّق ! إنه يرجو أن نبقى هنا ، بلا حراك ، بانتظار أن . . . نباد بالحرارة النووية ؟ من غير ان نضع عائلاتنا في مأمن ؟

وشرح رئيس « نيويورك تايمس » أن القذافي كان قد طلب السرّيّة وهدّد بتفجير قنبلة لدى أوّل علامة للاخلاء.

وعاد بيك يصرخ : ـ ولكن لماذا علينا أن نطيع ؟ ما الذي يثبت لنا أن رئيس الدولة يقول لنا

الحقيقة ؟ لن تكون هذه المرة الأولى التي يروي لنا فيها رئيس أكاذيب !

حدج سنايدر رئيس تحرير صحيفته بقسوة :

- ميرون ! ليست المسألة مسألة الرئيس ، ولا القذافي ، ولا مصالحنا الشخصيّة ، بل فقط واجبات « نيويورك تايمس » ازاء سكان هذه المدينة !

أجاب بيك من غير تردّد : - إنها واضحة ! يجب ان نصدر فوراً طبعة خاصّة . لإبلاغ الناس ان نيويورك مهدّدة بالتدمير وحثّهم على الفرار بجميع الوسائل !

- كيف تجرؤ ، يا ميرون على التكلّم هكذا بعد ان أوضحنا لك ان القذافي سيفجّر كل شيء لدى أوّل علامة للإخلاء ! ان المسألة مسألة حياة ملايين من الناس ! مسألة حياة . . .

كان يستولي على « غريس » وجهُ ابنها . كانت على اضطراب شديد ، وقد نهضت ، على وشك ان تطفر .

أجاب « بيك » بجرأة : - إننا نملك الخبر ، وواجبنا الصحفّي هو أن ننشره . ولقد علّمتنا تجربتنا أننا نخسر كل شيء بإخفاء الحقيقة . تذكروا « جون الخنازير »(×) .

التفت رئيس الصحيفة آنذاك الى مديره الذي كان قد لزم الصمت . لقد كانت نصائح هذا الآخر ، ذي الوجه الاستاذي الرصين ، تعينه في جميع الظروف الخطيرة ، على رؤية الأمور بوضوح . والحق ان جون روبنسون ، البالغ أربعة وخمسين عاماً ، هو ضمير « نيويورك تايمس » ، على نحوٍ ما . وقد بدأ يقول ، على بعض الخجل :

- اذا اعتبرنا أن واجبنا إزاء النيويوركيين هو إنذارهم بالخطر ليتمكنوا من إنقاذ أنفسهم ، فلا ينبغي ان نفعل ذلك بواسطة طبعة خاصة . إن « التايمس » لا تستطيع الإفادة من مثل هذا الحدث لتبحث عن سبق صحفي (وسدّد إصبعه نحو مجموعة التلفونات الى يمين سنايدر) ، بل ينبغي لك ، يا معلّم ، ان تتصل بجميع زملائنا في محطات الإذاعة والتلفزيون لكي ينذروا السكان على الفور .

وتوقّف ، وهو يعي خطورة الرأي الذي سيقدّمه ، ثم استطرد بالصوت الملبّد نفسه :

- بعد هذه الملاحظة ، أعتقد أن واجبنا هو ان نقف ، بلا تحفّظ ، الى جانب رئيس الدولة . إن هذه المأساة لا مثيل لها في تاريخ الولايات المتحدة . وستكون « التايمس » عاجزة عن الوفاء بواجبها إزاء الشعب الاميركي اذا خانت ، في موقف خطير كهذا ، ثقة الرجل الذي يحكمنا .

ساد صمت طويل . ونهض رئيس الجريدة مستنداً بيديه على المكتب ، وحدّق بكثافة بمعاونيه الثلاثة :

- أخبرني رئيس الدولة أن الإنذار قد مُدّد حتى الساعة الثامنة عشرة هذا المساء . وأنا أنوي شخصياً

(×) كانت « نيويورك تايمس » قبل بضعة أيام من غزو « جون الخنازير » ، في كوبا ، على علم بالعملية وبالدور الذي كانت المخابرات الاميركية تلعبه فيها . ولم تكن قد نشرت أيّ شيء ، بناء على طلب ملحّ من الرئيس كنيدي . وفيما بعد ، كان لا بدّ لرئيس الصحيفة ولرئيس الدولة من أن يندما على هذا القرار ، لأنهما اقتنعا آنذاك بأن إذاعة ما كان يُهَيأ كان يمكن ان تحول دون تلك المبادرة المفجعة .

ان أبقى هنا ، في هذا المكتب ، حتى تلك الساعة . وأترك لكل منكم حرّية التصرّف وفق ضميره . اذا أردتم الذهاب ، فاذهبوا ! ولكن أفعلوا ذلك بكتمان . وأنا أعدكم وعداً صادقاً أن هذا الأمر لن يُثار بيننا أبداً .

« وما عدا هذا ، فأخشى ألاّ يكون ثمة ما يُعمل غير إعداد جريدة الغد ـ وغير الصلاة لكي يكون ثمة غد .

***

ـ أسرع ، يا نقيب ، إنهم ينادونك من نيويورك !

وأسرع ضابط شرطة ولاية نيويورك الذي كان يواصل تحقيقه في مقتل وليد دجاني بمقصورة « دوبس فيري » ـ أسرع نحو سيارته ، فتناول التلفون الإذاعي ، وأصغى الى آل فلدمان ثم التفت الى معاونه .

ـ إذهب على عجل ، فأحضر لي تلك السيّدة الطّيبة التي رأتهما يذهبان .

وبعد بضع لحظات ، كانت السيدة بيرنز المنفعلة كلّياً بأهمّيتها المفاجئة ، تجلس في سيارة شرطة الولاية ، وتردّ بالراديو على أسئلة دوينغ وفلدمان . كانا قد عرفا ساعة مخابرتها مع شرطة « دوبس فيري » وحصلا بسرعة من السيدة الشجاعة على معلومتين إضافيتين جوهريّتين ؛ وصف الرجل والمرأة اللتين كانت قد رأتهما يخرجان عدواً من البيت ، وكذلك اللون ـ الأخضر الداكن ـ للسيارة التي فرّا فيها .

أعلن فلدمان : ـ انهما الآخران ذاتهما ! ليس في هذا أيّ شك !

وكان بانيون ودوينغ وهدسون وسالزبوري من الاستخبارات يحيطون جميعاً برئيس المفتّشين .

وتوجّه فلدمان الى ضابط الولاية يسأله :

ـ في أيّ اتجاه يمكن أن يمضيا ؟ هل أنتم قريبون من شارع كثيف السير ؟

ـ نعم ، هناك مدخل الى الطريق السيّار على بعد خمسمئة متر من هنا .

ـ أمن هذه الناحية انطلقا ؟

ـ بالتأكيد .

ـ يا نقيب ! أرسل على الفور سيارة الى دائرة مكس المرور . وحاول ان تتأكّد من الأشخاص الذين يوزّعون التذاكر أنّ الفارّين قد عبرا حقّاً من هناك !

في هذه الأثناء ، كان زهاء عشرة من الشرطيين في نيويورك يفتّشون المفوّضية السادسة بحثاً عن خريطة لولاية نيويورك . وانتهى أحدهم الى استخراج خريطة من علبة القفازين في سيارته . ونشرها فلدمان على مكتبه ، وهو يقول :

ـ لا بدّ أنهما فرّا نحو الشمال (ونظر في ساعته) نحن نعلم أنهما انطلقا منذ سبع وخمسين دقيقة ، فهما لم يستطيعا أن يجتازا أكثر من كليومتر تقريباً . (وأشار الى نقطة بين « دوبس فيري » و « ألباني ») ولا بدّ أنهما هنا . يجب إغلاق جميع منافذ الطريق السيّار على الفور . يجب على شرطة الولاية ان تغلق جميع حواجز الدخول ، وأن تطلق جميع فرقها في أثرهما مع أمرٍ بايقاف جميع السيّارات الخضراء . ذلك الرجل

وتلك المرأة هما الوحيدان اللذان يستطيعان إرشادنا الى مكان القنبلة .

بعد أقلّ من دقيقة ، كان أسطول من السيارات والدّراجات البخارية ينطلق من مختلف التجمّعات المحاذية لضفّة الهدسون ، متّجهاً نحو الطريق السّيار .

***

- هل تسير الأمور ؟

عرف انجيلو روكيا في ذلك الصوت المرتفع صوت رئيس بلدية نيويورك ، فقال وهو يشير الى الخريطة بهيئة خيبة :

- **ليس بسرعة . هناك أبنية أكثر مما ينبغي ! وشوارع وناس اكثر مما ينبغي ! ووقت غير كافٍ !**

بدا التبّرم على وجه أب **ستيرن** ، وشدّ بيده الضخمة على ذراع الشرطي .

- لقد راهنّا بكل شيء عليك ، يا مفتّش . فأرجو ، بحق السماء ، ألاّ تكون قد أخطأت !

وابتعد الرجل العجوز ، خافض الرأس ، مقوّس الظهر . كان قد أدرك ان لم يبق ثمة ما يُعمل غير الانتظار . كان مصير نيويورك بين أيدي رجال أمثال روكيا ، وأمثال راكبيدرّاجات شرطة الولاية الذين كانوا يراقبون السّيارات على الطريق السّيار ورجال الشرطة الذين كانوا يقتحمون أبواب أقبية « غرينووش فيلاج » . وكان قد اختلى في احد المراحيض ، ومعدته تتلوّى بالتشنّجات ، حين سمع باب المبولة المجاورة يُفتح .

قال صوت : ـ قُل لي ، يا فرانك ، أتعرف ما الذي يبحث عنه المعلِّمون فوق ؟ أراهنك . . . قنبلة ذرّية !

- هل تمزح ؟

- إطلاقاً . وقد خابرت لتوّيّ « جان » (وكان الصوت قد أصبح تمتمة سرّية كان سيترن يكاد لا يسمعها) فقلت لها أن تأخذ الاولاد وتمضي بسرعة الى أمّها في « الكونكتكوت » .

وأغرقت باقي الكلام ضجّة طرّادة ماء . وفكّر **المحافظ**: كلّ شيء ينهار ، لقد اكتُشف السرّ . **هذه** المرّة . ولن تلبث المدينة كلّها أن تعرف . وسينطلق الذعر ، ذعر أسوأ مئة مرة من الذي كنّا نخشاه . فاذا خرجنا منه ، فسوف يسارع الناس ليعاقبوني عقاباً فظيعاً في « غراسي مانسيون » . وسيكونون على حقّ كامل ! قالها وهو يلبس سرواله .

***

هدر آل فلدمان بالتلفون :

- رقيب، كرّر ذلك مرّة أخرى !

عاد ضابط شرطة الولاية في « دوبس فيري » يقول :

- لقد عرف أحد موظّفي المكس عند مدخل الطريق السّيار العربّيين على الصور التي ارسلتموها لنا

بالراديو . ولكنه قال إنهما كانا متّجهين نحو الجنوب ، وليس الشمال !

وكان جميع افراد الاركان العامة للمفوضية السادسة يتدافعون حول فلدمان .

ـ أنت متأكّد من هذه المعلومة ؟

ـ متأكّد ومتيقّن . إن المكس المعنيّ يقوم على الطريق الهابط نحو نيويورك .

تجلّت الدهشة على جميع الوجوه .

ـ لماذا ، بحقّ الشيطان ، يعودان نحو المدينة وهما يعرفان أنهما على وشك أن تُنسف ؟

أجاب فلدمان : ـ لا شك أنهما بحاجة لأن يعودوا الى قنبلتهما . قد لا يكون الأمر إلاّ كذلك !

انهما يعودان الى قنبلتهما !

دمدم بانيون : ـ اذا تركا « دوبس فيري » عند الساعة ١٢,٢٣ ، فلا بدّ أنهما قد بلغا مدخل المدينة . ومن حسن الحظّ ان السير بطيء في هذه الساعة !

انتزع مفوّض الشرطة التلفون من يدي فلدمان ، وأمر عامل التلفون :

ـ أعطني « سبرنت » !

كانت « سبرنت » الأحرف الأولى لشبكة المواصلات المسافية لشرطة نيويورك ، وكانت تشغل طابقين كاملين من الأركان العامة للشرطة ، وتتعاطى مع المخابرات التسعة عشر ألفاً اليومية على الرقم ٩١١ ، رقم « شرطة النجدة ».وأمر ضابط قيادة « سبرنت » بقوله :

ـ جيم ، يجب ان توجّهوا فوراً نحو قطاع المفوضية جميع الآلات التي تسير : سيّارات الدورية ، سيارات الشرطة ، ركّاب الدراجات البخارية ، سيّارات التصليح ، شاحنات الرافعات . أغلقوا مداخل المحيط الذي يحدّده الشارع ١٤ ، وهستون ستريت ، والجادّة الخامسة والنهر . أغلقوا الحيّ كلّه . أوقفوا المشاة والسيارات عند جميع المداخل ، حقّقوا في الاوراق ، فتّشوا السيارات . إن اثنين من الفلسطينيين الذين نبحث عنهم سيحاولان التّسلّل الى هذا القطاع .

وتابع بانيون لاهثاً :ـ قل للمفوضيات الأخرى، يا جيم ، ان يسيّروا بسرعة جميع قوّاتهم لتعزيز الحواجز . ولترسل مصلحة الطرق جميع الحواجز التي تملكها . أسرع ، يا جيم ! أسرع ، بحقّ السماء !

ومسح بانيون عرق جبينه . لم يكن قد فكّر لحظة بـ « دوينغ » ولا بأفراد الشرطة الاتحادية الآخرين . كانت « مدينته » هو . ووحده ردّ فعل خاطف السرعة كان يمكن إنقاذها .

ـ سيّدي المحافظ !

ما كاد بانيون ينادي أب سيترن الذي كان يعبر الرواق ، حتى حصل بالتلفون على رئيس الاطفائيين .

ـ إن جماعتنا ، **يا باري**، بحاجة الى جميع مطافئك على الشارع ١٤ وهوستون ستريت والجادّة

الخامسة لإغلاق جميع المداخل بأقصى السرعة .

وكان إطفائيو نيويورك يكنّون للشرطة ودّاً شبيهاً بودّ بروتستانتيي « الاولستر » نحوالكاثوليك الارلنديين . وقد طلب رئيسهم توضيحات ، فهدر بانيون :

- لا تناقش ، يا ربي ! نفذ هذا الأمر على الفور ! إنني أعطيك المحافظ.

وفيما كان ستيرن يؤكّد أوامر مدير الشرطة لرئيس الإطفائيين ، كان بانيون يستدعي دائرة الصحافة عنده :

- باتي ، خلال دقيقتين ، ستغرق في مخابرات الصحفيين والاذاعات والتلفزيونات والرهط المألوف كلّه . اقذف لهم بحكاية برميل الكلور .

كان طابقا المواصلات المسافية ، في الاركان العامة للشرطة ، في أوج الضجيج والحركة . وكانت شبكة «السبرنت» مقسمةالى خمس قيادات عامةراديوية تغطّي كل منها واحداً من اقسام نيويورك الادارية . وكان فريق من المُرسلين يراقبون على شاشات الناظمات تنقلات جميع سيّارات الشرطة الراجعة لقطاعهم . وكانوا يستطيعون بذلك ، في كل لحظة ، ان يتابعوا عمل دورّياتهم ، وان يعرفوا اذا كان هذا الحارس قد ذهب يحتسي فنجان قهوة ، او كان ذاك الآخر بصدد القبض على أحد الأشرار . وكان يكفيهم ان يديروا مفتاحين ليستطيعوا إرسال الرجال والسيّارات الى هدف آخر .

وما كادت هذه المفاتيح تُدار في قاعات « السبرنت » الخمس حتى تصادت المدينة كلّها بهدير صفارات الشرطة ، ثم بطنطنة مقطّعة لأجراس سيارات الاطفائيين المتجهين نحو أسفل مانهاتن . وفي بضع دقائق ، غمرت هذه العاصفة المتنافرة الأصوات جزيرة مانهاتن برمّتها . وكانت أضواء سيّارات الشرطة الدوّارةتومض من جميع الجهات. أما الجموع التي كانت مع ذلك تألف أسوأ الهستيريات الصوتية والضوئية ، فقد كانت على الأرصفة تنظر وهي متحجّرة . وما ان بلغت المركبات حدود المحيط الذي تنبغي محاصرته ، حتى وقفت في الشوارع وقفة معترضة ، وأخذ رجال الشرطة يحرفون السير . وفي بضع لحظات ، كما في موجة صدام ، دُبقت ازدحامات هائلة وسط مانهاتن في شلل لا يمكن تفكيكه .

وفي الساعة ١٥,٣٧ ، عرف السكان ، للمرة الأولى القضية . وقطعت محطة تلفزيون و . س . ب . اس برنامجها لتذيع خبراً خاطفاً ، فبدا دويي هول ، المقدِّم المعتاد للأخبار المحلّية ، على الشاشة ، بلا ماكياج ، ليعلن بصوت لاهث ، عن عمليةهامةتقوم بها الشرطةفي قطاع «غرينوش فيلاج» حيث يخشى ان يكون إرهابيونٌ فلسطينيون قد خبّأوا برميلا من غاز الكلوريدريك القاتل . وبعد عشر دقائق ، كان « باتي ماكنايت » ضابط الارتباط الصحفي لمدير الشرطة ، يظهر بدوره أمام آلات تصوير مختلف المحطّات ليدعو السكان الى التزام الهدوء ورباطة الجأش .

***

لكي يعود كمال دجاني الى نيويورك ، كان قد فرض على أخته تغيير خطّ السير . وقد سلكا « روزفلت درايف » بمحاذاة « ايست ريفر » . طريق أطول ولكنه أكثر أمناً . ولم يكونا ، منذ رحيلهما ، قد تبادلا أية كلمة . كانت ليلى تسوق السيارة كالآلة ، متشنّجة الأصابع على المقود ، مليئة العينين بالدمع ، لا تزال تعاني صدمة المشهد الوحشي الفظيع الذي عاشته . وكان التفكير بأبيها هو وحده ما منعها من أن تصدم السيارة بجدار ، وان تحاول الإفلات من هذا الأخ الشيطاني . كانت قد قرّرت ، وقد بلغت ثورة أعصابها غايتها ، ان تدَع قدرها يكتمل .

كان كمال محبوساً في صمته ، يستمع الى الراديو . ولكن الراديو لم يكن قد قال شيئاً بعد . وقد نظر الى موجة السيّارات على طول حافة النهر . كان كل شيء يبدو عادياً . وحتى أنات الصفارات البعيدة التي تندمج اندماجاً حميماً بالعمق النيويوركي الصوتيّ . وعانق نظره المنظر الخارق للعادة : ناطحة سحاب الأمم المتحدة المنتصبة عند حافة الماء بإكليل أعلامها المنتمية الى جميع بلدان العالم ، وسهم بناية « كرايزلر » ، هذا العالم برمّته المكوّن من زجاج وفولاذ والذي كان لا بدّ له ، لولا خيانة أخيه ، ان يتحوّل الى منظر قمري للموت والدمار . كان يفكر : إن هؤلاء الناس يعيشون ، ولكن عرباً ، هم إخواني ، هم آلان ، في ليبيا وفلسطين ، يموتون بسبب هزائمنا . واستولى عليه غضب مفاجىء . فدقّ بقبضته لوحة القيادة . الهزيمة ! الهزيمة ! الهزيمة ! إن الهزيمة تلتهمنا كما يلتهم الدود جثّة . سنكون دائماً فاشلين ، أضحوكة الشعوب !

وجسّ سترته ، ليتأكّد للمرة المئة من أن قائمة الضبط وشريط إشعال القنبلة حقّاً في جيبه . وتذكّر : كان عليه أولاً ان يفتح دليل الرموز ليشعل الصندوق . ثم يستبدل الشريط ـ بالصالح هذه المرّة ـ الذي يحتوي الأوامر للناظمة . وبعد ذلك ، لا يبقى له إلاّ ان يضرب الأرقام القَدَريّة الأربعة ٦٣٦ . ليطلق الإشعال اليدوي . هو بحاجة الى خمس دقائق ، ليس أكثر .

وعَبْر الدرّاعة الزجاجية ، لمح اذ ذاك اللافتة « مخرج الى شارع ١٤ » . فلامس ذراع ليلى :

ـ انتبهي ، هنا !

***

« لقد راهنّا بكل شيء عليك ، ايها المفتّش ! » كانت عبارة محافظ نيويورك تتواثب في رأس انجيلو روكيا ككلّة « فليبر » على الصفائح المعدنيّة لبليار كهربائي .كان مقتعداً كرسيّاً ، ومرفقاه على مسنده ، ورأسه بين راحتيه ، يتفحّص للمرّة التي لا عدّ لها خريطة قطاع الجادة الخامسة التي اقترح ان يبدأ التفتيش منها .

وشرح لراند : ـ اذا كان العربيّان يصعدان من جديد « كريستوفر ستريت » ، فذلك لكي يأتيا حتماً الى هنا .

كان انجيلو يشير الى الشوارع القريبة من الجادة الخامسة حيث لم تكن الأبحاث قد أفضت ، مع ذلك الى شيء .

ـ ذلك انه لو كان مخبأهما قائماً في مكان أكثر انخفاضاً (أشار الى حوافي النهر ، في الطرف الآخر من مستطيل الأضلاع) فما كان لهما أن يصدما سيارة « البونتياك » من طراز « كولغيت » ، بل كانا قد توقّفا قبل ذلك .

قال الشرطيّ الاتحادي مهنئاً ببسمة حارّة :

ـ يسمّون هذا ، عندنا ، « حجّة من الإسمنت المسلّح » !

نهض انجيلو فجأة :

ـ تعال ، يا صغير ، يجب مع ذلك ان نذهب فنحقّق الأمر في المكان نفسه . ربما كنّا قد ضللنا الطريق في مكان ما .

***

حلق أب ستيرن ذقنه ، وغيّر قميصه ، وسوّى بعناية ربطة عنقه . كان قد عاد الى منزله ، في « غراسي مانسيون » ، ليقوم بدوره كرئيس بلدية ، حتى النهاية ، كما لو لم يحدث شيء . كان على وشك ان يترأس كعهده كل ١٥ كانون الأول ، حفلة شجرة ميلاد اولاد موظفي البلدية في القاعة الكبرى من منزله. وكان يرتدي سترته حين دلفت زوجته الى غرفتهما .

ـ تلفنت لي سوفي على التو ، يا أب . كانت قد تلقّت مخابرة من ابنة عم لها في تل أبيب . اذا أردنا تصديق شائعة منتشرة هناك ، فان فلسطينيين قد خبّأوا قنبلة ذرية في نيويورك ! إن هذا ما يشغلك شغلاً جدّياً ، أليس كذلك ؟

نظر رئيس البلدية الى زوجته ، مذهولاً . وفكّر : ثغرة أخرى في السدّ , عمّا قليل تتدفّق الأمواج قال معترفاً : ـ نعم ، هي ذي الحقيقة .

فبدت على زوجته هيئة العتاب :

ـ لماذا لم تُعلموا السكّان ، يا أب ؟

وبهدوء شرح لها ستيرن بالتفصيل أسباب صمته ، وانتهى الى القول وهو يريد ان يبدو متفائلاً :

ـ تبقى هناك ساعتان للعثور على القنبلة . بانتظار ذلك ، تعالَي ، سيفقد الأولاد صبرهم وينبغي ألا يعلم أحد أيّ شيء .

ضمّت استير ستيرن زوجها بين ذراعيها . كانت أطول منه بمقدار رأس ، وهذا ما كان دائماً يسلّيه ويغيظه في وقت معاً .

ـ أعتقد ان الرئيس على خطأ ، يا أب . أنا اومن صادقة بأنك مدين بالحقيقة لسكان مدينتك .

***

كانت السيارة تمضي بالفلسطينيين في الشارع ١٤ باتجاه الجادة الخامسة حين رأى كمال دجاني إكليلاً من أضواء سيارة يدوّم . فأمر ليلى بقوله :

ـ توقّفي !

وكان رذاذ بارد قد بدأ يتساقط،مزيجاً من ثلج ومطر . وقد لمح ، وعيناه ملتصقتان بالدرّاءة الزجاجية ، عدة سيارات للشرطة وشاحنات للإطفائيين وهي تسدّ الجادّة فيما وراء ملتقى الطرق التالي . وكان رجال من الشرطة يحوّلون السير ويفرّقون الفضوليين .

ـ إبقي الى اليمين، فالطريق مسدود مواجهة . . . حريق او حادث .

وكانا ، ما تقدّما ، يبطىء السير ، ويتكاثف الجمهور . وفكّر لحظة بإنزال زجاجه ليسأل أحد المارّة . ولكنه سرعان ما تدارك نفسه : الأمر أكثر مجازفة مما ينبغي ، بسبب لهجته . وفيما كان موج السيّارات يسيل قليلاً قليلاً ، أدرك الأمر .كان ثمة مقطورتا إطفائية هائلتان تسدّان الجادة الخامسة الى اليسار .

وتمتم بمثل ذلك الغضب في الأحشاء الذي كان يحاصره منذ لحظة في « روزفلت درايف » :

ـ انهم يعرفون موضع القنبلة ! اننا نصل متأخرين اكثر مما ينبغي : فقد أغلقوا الحيّ !

قرضت ليلى بضع عشرات من الأمتار حتى الجادّة السابعة . وكانت سيارات شرطة أخرى تسدّ عليها الطريق الى اليسار .

ـ خسرنا ، يا كمال ! فلنقم بنصف دورة ولنهرب ! إنهم بمجّرد ان يعثروا على وليد فسيعرفون هويّتنا . وستراقب الشرطة جميع مراكز الحدود ، وسيقبض علينا .

كان أخوها ينظر امامه باستقامة ، ويداه متقلّصتان على لوحة القيادة .

وتحّولت ليلى الى اليمين في الجادّة السابعة . من الأفضل ان تنتزع نفسها من عرقلة السير ما دام لديها الوقت بعد . وما كادت تتقدّم مئة متر حتى قبض أخوها على معصمها :

ـ قفي هنا ! إنني أنزل .

ـ كمال ، أنت مجنون !

ـ أقول لك قفي ! انني أُتابع على قدميّ .

وفتح الباب حتى قبل ان تتجمّد السيارة بالوقوف . وأطلق نحوها عبارته :

ـ اهربي نحو الشمال ، بأسرع ما تستطيعين .ليَعُدْ أحدنا على الأقلّ ، الى البيت ! مع السلامة يا ليلى ! سأمضي حتى النهاية ، ان شاء الله !

ووثب الى الطريق وضاع في الجموع .

***

دخل أب ستيرن ، وزوجته تتأبط ذراعه ، الى القاعة الكبيرة المزدانة بالأكاليل وبزخارف الزهر الميلادية وبباقات الهدال والبهية . وكانت شجرة ميلاد ضخمة منتصبة في وسط القاعة ، تومض بألف ضوء . وكان يرتفع عند جذعها جبل من العلب المختلفة الألوان .وكان مندوبون نقابيّون من موظّفي البلدية يقودون زهاء خمسين ولداً تتراوح أعمارهم بين السادسة والخامسة عشرة ، وكانوا قد اختيروا من بين أكفأ تلاميذ مدرستهم . وقد صاحوا جميعاً بصوت واحد :

ـ ميلاد سعيد ، يا صاحب السعادة !

توقّف الرجل العجوز ، مترنحاً من التعب والتأثّر ، فأخذ نَفسَه وأجاب بكل قواه :

ـ ميلاد سعيد لكم جميعاً !

ثم شرع في توزيع الهدايا ، أشبه بملك مجوسي يمنح ابناء قبيلته عطاياه . واذ كان يرى جميع هذه الوجوه الفتية المليئة بالحياة والحبور ، كان يستولي عليه اعتقاد يزداد قوة لحظة فلحظة . ونظر الى ساعته . إن مدة الإنذار ستنتهي بعد ساعة . وأحسّ بأنه لا يتمالك نفسه بعد ، فنادى زوجته :

ـ استير ، حليّ محليّ بضع لحظات يجب ان أذهب فأقوم بمخابرة تلفونية .

***

كان كمال دجاني يحثّ خطاه ، مغرقاً عَمْرته حتى مستوى عينيه ، رافعاً ياقة سترته . لا سبيل الى

الشكّ : إن الشرطة تتعقّبنا . لا بدّ أن جاراً قد سمع طلقة وليد النارية فأبلغ الشرطة . ما كان ينبغي لي أن أترك المستودع ! لقد أردت ان أنقذ نفسي . انا كذلك جبان . يجب أن أمرّ بأية طريقة ! ولكن كيف لي ان أتسلّل عبر هذه السدود والحواجز ؟ بأن أتنكّر ؟ بأن أسرق أوراق أحد من الناس ؟ لا يهمّ ، شريطة أن أمرّ ! وجسّ في جيبه مسدّسه من طراز « سميث وفيسون » وشريط طرابلس المسجّل . يجب أن أعود ، بأيّ ثمن ، الى القنبلة !

وتوقّف ليتّخذ وجهته . كان في الجادّة السابعة ، في زاوية الشارع ١٦ . كان المستودع إذن على بُعد أقلّ من اربعمئة متر نحو اليسار . واذ ذاك ، سمع صوت صفارة خلفه , فأدخل رأسه غريزياً بين كتفيه ، وأستأنف السير . لم تكن إلاّ سيارة إسعاف تحمل كلمات « مستشفى سانت فانسنت » مطبوعة بأحرف كبيرة على جانبيها . وتابعها بعينيه فرآها تنعطف الى الشمال على بعد كتلتين من البيوت هناك . وضربته الفكرة كالصاعقة : هوذا حظّي ! الله أكبر !

وعدا حتى الشارع ١٨ . كانت سيارة الإسعاف هناك ، متوقّفة على بعد زهاء عشرة أمتار منه . كان السائق وأحد الممرّضين يُنزلان نقّالة ويدخلان أحد المباني . وفي جزء من ثانية ، أنتظم كلّ شيء في رأس الفلسطيني ، فأخذ انطلاقته وبلغ سيارة الإسعاف ، فصفق بابها الخلفي وقفز الى المقود . كان المحرّك دائراً . الصفّارة ! يا آلهي اين زرّ الصفّارة ؟ انني بحاجة الى الصفارة لأعبر الحاجز ! وكان يربت عبثاً على جميع مفاتيح لوحة القيادة حين وصل راكضاً ، سائق سيارة الإسعاف الذي كان أحد المارّة قد أخبره . وكان الرجل يحاول فتح الباب ، فركّب كمال السرعة الأولى وأقلع .

***

هدر انجيلو روكيا ، وهو يدقّ مقود سيارته « الشفروليه » :

ـ ولكن بكل تأكيد ! هذا هو المكان الذي اخطأنا فيه . أنظر ، ايها الصغير !

كان بدلّ جاك راند على لافتة الاتجاه الممنوع المزروعة عند الجانب الآخر من ملتقى الطرق . كان شارع « كريستوفر ستريت » يصبح اتجاهاً ممنوعاً ابتداءً من هناك .

ـ الأمر بسيط ! لم يكن العربيّان يستطيعان المضيّ باستقامة نحو الجادّة الخامسة . فكان ان اضطرّا الى الانعطاف يساراً ، هناك نحو جادة غرنووش . واذن ، فلا بدّ أنهما خبأا قنبلتهما في هذا المكان !

انعطف أنجيلو نحو الشمال ، واختلط متمهّلاً بالسير في جادة غرينووش . وكان الشرطيّان يتفحصّان الواجهات والمارّة حين أزّ التلفون اللاسلكي .

ـ نداء الى جميع دوريات « مانهاتن سنتر » ! ابحثوا عن سيارة إسعاف لمستشفى سانت ـ فنسانت رقم ٤٣٥ سُرقت امام ٣٦٢ ، الشارع الغربي ١٨ .

أبدى راند تقزّزه :

ـ يا لهذه المدينة التي تُسرق فيها حتى سيارات الإسعاف !

***

كان كمال دجاني قد عثر على زرّ الصفارة . ولدى ظهور سيارته الهادرة ، تراجعت الى الوراء سيارة الشرطة التي كانت تسدّ مدخل « هدسون ستريت » ، وهو شارع موازٍ للنهر ، لتفسح لها ممراً ، ودلف

الفلسطيني الى القطاع الممنوع .وكان يتهلّل والعرق يغرق وجهه ، قائلاً : لقد خسرت يا وليد ! لقد مررت !

كان يعرف تماماً أين هو ، لأنه كان يتبع الآن الدرب الذي كان عدة مّرات قد عيّن موضعه ليحمل القنبلة منذ أحواض بروكلين حتى المكان الذي استأجرته ليلى . واجتاز ثلاثمئة متر ، سالكاً كريستوفر ستريت الى اليسار ، فرأى الموضع الذي كان قد انزلق فيه وصدم سيارة متوقّفة ، ثم صعد الشارع حتى المفرق الذي يصبح الاتجاه عنده ممنوعاً : الطريق نفسه الذي كان انجيلو وراند قد سلكاه لتوّهما .

***

كان رئيس بلدية نيويورك مختلياً في منزله ، يخربش بعصبية بضع كلمات على ورقة . اوه ! لم يكن ثمة خطاب يلقيه ! ينبغي فقط ان يقول للناس ان يغادروا المدينة في اللحظة نفسها ، من غير ان يحملوا شيئاً . ان يدعوهم الى التزام رباطة الجأش ، وان يوصي خصوصاً بالفرار نحو الشمال ونحو جيرسي ، ليفلتوا من إسقاطات الغيمة النووية .

كان يقول لنفسه : لن يُغفر لي أبداً ما فعلت . أما هنا ، في منزلي ، في مدينتي المهدّدة بالدمار ، فأنا المسؤول وليس « الرئيس ».لم يبق وقت للتردد والمراوغة . انني لن أدع سكان نيويورك يهلكون من غير ان أمنحهم فرصة للنجاة .

كان مذياع « الخطّ ١٠٠٠ »الشهير الذي كان يسمح له بالاتصال فوراً بمواطنيه موضوعاً أمامه . وقد فكّ زجاج جهاز الأمن وفتح الاتّصال . وكان يتهيّأ لإطلاق ندائه حين اقتحم عليه الغرفة شرطي اتّحادي ،

ـ الضابط الاتحادي « جون مارفيل » يا صاحب السعادة . هل تنوي إخطار السكّان ؟

صرخ ستيرن ، وقد أكبى وجهه الغضب .

ـ لماذا تتدخّل في ذلك ؟ إنني أنا رئيس البلدية،نعم ام لا ؟

ومن غير ان يتخلّى عن هدوئه ، قطع الشرطيّ الاتحادي التيار عن المذياع :

ـ صدّقني ، يا صاحب السعادة ، أني آسف ، ولكنني تلقّيت الأمر بأن أمنعك من ذلك .

***

لم يكن الراديو يكفّ عن إذاعة الرسائل والتبليغات . القيادة العامّة ، سيّارات الدوريات ، مراكز الحواجز ، شرطة الدراجات ، الشرطة الراجلون مع أجهزتهم « التوكي ـ ووكي » ، الاطفائيون أنفسهم ، كان الجميع يجهدون رئاتهم من فرط الصراخ في خليط من الأصوات المتنافرة كان يبدو أنه يخرج من انتاج ضخم مجسّم الصوت . وفجأة أرهف أنجيلو سمعه . كان ثمة صوت تعلو نبرته على الأصوات الأخرى :

ـ آلو سنترال! هنا الدورية ١٠٧ . معي سائق سيارة الإسعاف التي سُرقت لتوّها . وقد تعرّف في الشخص الذي قام بالسرقة صورة العربيّ الذي نبحث عنه !

قال انجيلو وهو يقذف في فمه حبّة من فستق العبيد :

ـ هل سمعت ، يا صغير ! إنه بارع حقاً ، ذلك الفتى !

ومَا كاد يصدر هذا الحكم التقديريّ ، حتى سُمعت صمارة خلفه . وسحق انجليو دوّاسة المكبح مستديراً . فاذا به يرى على بعد خمسين متراً ، سيارة إسعاف تغادر جادة « غرينووش » لتنعطف يساراً نحو شارع كان قد تجاوزه لتوّه .

- هذا هو !

نطق بكلمته وهو يقبض على رافعة السرعة ليطلق سيّارته الشفروليه في تَزَعْرج تقهقريّ مُذهل .

***

كان راند قد أمسك بمجمّعة التلفون اللاسلكي :

- سنترال ! سنترال ! هنا « روميو » ١٤ ، بسرعة . . .

لم يستطع أن يقول أكثر من ذلك . كان انجيلو قد انتزع السلك . وتأمّل راند ، متحجّراً ، طرف السلك المتدليّ من السماعة وتساءل عما اذا لم يكن انجيلو قد جُنّ . وإذ تخلّص من انشداهه ، صاح :

- انجيلو ، يجب إبلاغ القيادة العامة ، اخبرهم أن سيارة الإسعاف قد عُرفت ، وان يرسلوا تعزيزات، ومفرزة المتفجّرات ، ونخبة القنّاصة ، وأن يحاصروا الحيّ ! اننا لا نستطيع ، يا انجيلو ، ان نذهب وحدنا !

كان روكيا قد بلغ الشارع الذي دلف اليه العربي لتوّه . ورأى سيارة الإسعاف متوقّفة على بُعد مئتي مترٍ تقريباً . وكان مصباحه الدوّار لا يزال مُضاءً . وقد أبطأ سيره واضعاً يده على ذراع راند . كان قد انتهى به الأمر الى ان يألف هذا الشرطيّ الاتحادي الشاب الذي كانت مبادئه في مثل صرامة ربطات عنقه ، وكان لا بدّ من وجود أمثاله ، وإلاّ فأ يّ ماخور تصبح الشرطة !

- اذا استدعينا المدفعيّة ، يا جاك ، فان ذلك المجنون يضغط على الزرّ ، وينسف كلّ شيء ! يجب ان نتأ تّى للأمر كالهررة ، أتفهم ما أعني ؟ ان نحاول الإمساك بخناقه عن طريق المفاجأة ، قبل ان يكون قد شعر بنا .

والتفت المفتّش النيويوركي نحو مساعده ، فيما ظلّ يراقب الطريق . كانت عيناه تلتمعان اهتياجاً .

- ثم إن هذا الشخص ، هو ملكنا . الأرصفة ، « الديونيسوس » ، النشّال ، مخّبىء الأشياء المسروقة. شاحنة « هرتز » الصغيرة ، جماعة « الكولغيت » . . كلّ هذا ، لنا نحن الاثنين . سيكون لديك ما ترويه لاطفالك في « دانفير » . . .

وركّب انجيلو « النقطة الميتة » ، تاركاً الشفروليه تجري بلا ضجّة وفق اندفاعتها . كانا في شارع شبه مقفر ، تحفّه أشجار معرّاة ومبان فكتورية صغيرة أُعيد إصلاحها . وكانت المساكن ، بمقدار ما كان يهبط المرء نحو النهر ، تخلي مكانها لخطّ منخفض من المرائب والمستودعات المهجورة . وكانت سيارة الإسعاف متوقّفة أمام أحدها .

***

كان كمال قد وثب من سيارة الإسعاف . وبضربة من كتفه ، دفع الباب النَخِر ، دالفاً الى الممر ، وراكضاً في قلب المستودع حتى مصطبة المرآب . وكانت القنبلة وصندوق الإشعال التابع لها موجودين .

ونزع رتاج الصندوق ، رافعاً غطاءه . واذ ذاك ، ظهر له في الضوء الخفيف للمصباح الوحيد ، صفيحة لضبط الزرقاء الشاحبة ، بشاشتها الكاتوديّة ، وملامسها ومقرأ الأشرطة .

خمس دقائق ! لم يكن بحاجة لأكثر من خمس دقائق لكي يعوّض خيانة وليد ، فيعيد تجهيز الآلة التي ستُطلق الدفع الكهربائي ، ويضرب رموز الإشعال اليدويّ . وكلّ شيء سيجري على الخطّة المرسومة .

حدثت ضجّة جعلته ينتفض . فأمسك بمسدسه ، مستعدّاً للإطلاق . ولكن لم يكن ذلك إلاّ جرذاً .

***

لامس حذاء أنجيلو دَوّاسة المكبح : فتسمّرت الشفروليه على بعد عشرة أمتار وراء سيارة الإسعاف . وفكّ الشرطيّ أزرار سترته ، وأدخل يده في حزامه فشعر بالأخمص البارد لمسدسه طراز ب ٣٨ . هذا المسدّس ، لم يخرجه كثيراً خلال الأعوام الخمسة والثلاثين من رحلاته البوليسية عبر نيويورك . اما اليوم ، فان الأمر ، مع زبون في مثل تصميم هذا العربي ، يوشك ان ينقلب الى ما يشبه فيلم « وسترن » !

همس لراند قائلاً :

ـ أنا ذاهب اليه . أما انت ، فستختبىء بجانب الباب وتغطّيني . وتتدخّل لدى أوّل نداء مني ، ولكن حاذر ألاّ تطلق نارك في رِدْفيّ !

وبالرغم من ان هذه الأوامر كان مهموساً بها ، فقد كانت تحظر أية مناقشة . وقد نظر الشرطيّ الاتحادي الشاب زميله وهو يخلع حذاءه ، وابتسم حين رأى أن الحرفين الاولين من اسمه ولقبه مرسومان على جوربيه .

ـ افعل مثلي ، يا صغير . فالهرة لا تلبس نعالاً .

نفّذ راند أمره بوداعة . ثم فتحا أبواب السيارة ، بلا ضجّة ، وانزلقا على الأرض التي كانت ما تزال مغطّاة بالثلج .

وأرسل انجيلو الى الشرطيّ الاتحادي غمزة عين كانت تعبّر عن كثير من الأمور .

وأخذت راند الدهشة حين رأى المفتش يقفز على الرصيف ويدلف من الباب النَخِر الذي كان العربي ، في تعجُله ، قد تركه مفتوحاً . وقال راند في نفسه : إنه جَدْيَ حقيقيّ ، الأب انجيلو !

***

كان كمال دجاني قد نفّذ ، من الذاكرة ، العملية الأولى بأن ضغط مجسّ « انطلاق » وركّب رمز المماثلة على الملامس . وقد اشتعلت للتوّ إشارة « ذخيرة المعطيات » . ونشر لائحة الضبط فأضاءها بمصباح الجيب . كانت اللحظة الحاسمة قد وصلت ، اللحظة التي ستمنح الحياة لهذه الآلة العربية للانتقام والعدالة . وتناول الشريط المسجّل في طرابلس الذي يحتوي اوامر الإشعال للناظمة ، ذلك الشريط الذي كان أخوه قد استبدل له ، في اللحظة الأخيرة ، بشريط آخر ، بكر . وفيما كان يمسكه بيده المرتعشة

انفعالاً ، عادت ذاكرته ذكرى لامعة .

كان ذلك في سورية ، لبضعة أعوام خلت ، أثناء عملية تدريب للفدائيين . كانت مفرزته قد عثرت على عش مليء بالعصافير الصغيرة . وكان رئيسهم قد أعطى كلاً من رجاله عصفوراً وأمرهم بأن يخنقوها في أيديهم . وقد منحه لمس هذا الشريط القاتل شعور النشوة نفسه .

أبدل الشريط ، ثم راجع لائحة الضبط قبل أن يضرب على الملامس . وسرعان ما انبسط الشريط الممغنط. انه خلال دقيقة ، سينقل الى ذاكرة الناظمة برنامج الإشعال . ولا يكون على كمال بعد ذلك إلاّ ان يركّب صيغة أخيرة مرموزة لإطلاق الانفجار . وتلك الصيغة ، كان يحفظها عن ظهر قلب : ٠٦٣٦ كيف تراه كان يستطيع ان ينسى تاريخ انتصار اليرموك الذي كان قد بسط السيطرة العربية على وطنه الضائع اليوم ؟

***

للمرّة الأولى ، كان جاك راند في مهنته البوليسية قد عصى الأوامر . كان القلق قد استولى عليه لرؤية زميله في المفرزة يواجه وحده الإرهابيّ ، فعدا بجوربيه حتى نهاية الشارع ودلف الى أول دكّان ليستدعي شرطة النجدة . وقد صرخ امام الزبائن المذهولين :

ـ لقد وجدنا القنبلة ! إنها في مستودع بشارع « فان نست ستريت » عند زاوية الشارع الرابع . أسرعوا ! إن رفيقي هو الآن في الداخل !

***

فجأة ،رآها أنجيلو.كانت هناك ، على بعد ثلاثين متراً ، في الهالة اللاواقعية للمصباح الوحيد ، كتلة سوداء مخيّبة ، تبعث على السخرية تقريباً ، بمظهرها البرميليّ . أمن الممكن حقاً أن تكون نهاية العالم تحتويها هذه الأسطوانة من المطيلة(×) ، وسط هذا الديكور لفيلم بوليسي رديء عُرِض في الثلاثينات ؟ كان المفتّش النيويوركي ينظر ، كأنه منوَّم مغنطيسياً ، في ظلّ زاوية ، ويدُه الدبقة على أخمص سلاحه .

كان العربي واقفاً تماماً أمام القنبلة . وكان منهمكاً يعمل فوق جهاز يشبه ، في الضوء الضعيف ، صندوق ملفّات . وقد رفع انجيلو ذراعه فاستند الى حافة الزاوية ليستطيع ان يطلق النار من غير ان يرتجف . ولكن لم يكن وارداً ان يضغط على الزناد ما لم يبتعد العربيّ عن القنبلة . من يدري ؟ فمن الممكن ان تنفجر . واذ خطرت له هذه الفكرة ، أحسّ في ظهره خيطاً من العرق البارد يسيل . وكان يترقّب اللحظة المؤاتية حين خطا كمال خطوة جانبية . وأخذ أنجيلو نَفَساً طويلاً .

ـ الشرطة ، ولا أدنى حركة !

كان الأمر قد أصدى بقوّة ، حتى أن « راند » سمعه من الشارع اذ كان عائداً نحو المستودع وهو يركض.وقد ظلّ كمال جزءاً من ثانية محجّراً ، قبل أن يرتمي على بطنه ، متجنّباً رصاصة أنجيلو التي ارتدّت على المصطبة الاسمنتية . واندفع العربيّ بصلبه متدحرجاً خلف القنبلة ، فتناول مسدّسه طراز « سميث وفيسون » . وأطلق نصف دزينة من الرصاصات في الاتجاه الذي صدر عنه الصوت . وكان انجيلو قد تقوقع في الزاوية . وإذ سمع « راند » التراشق ، اندفع في الممرّ بلا تردّد ، ونادى بضع مرآت وهو يتنقل

(×) صفيحة من حديد او فولاذ .

من جهة الى أخرى حتى لا يكشف موضعه :

- انجيلو ! أنجيلو ! هل أنت في حالة جيدة ؟

أرغى أنجيلو في داخله : « إنهم رعاة بقر حقيقيّون ، هؤلاء الشرطة الاتحاديون ! » وتأثّر بروح التضامن لدى رفيقه في المفرزة .

وسمع إذ ذاك هدير صفارات واصطفاق أبواب . وكان اصبعه على الزناد ، ولبادته الرماديةمنزاحة الى خلف ، وهو يترصّد الرجل المختبىء خلف القنبلة . كان الفلسطيني قابعاً على بعد اكثر من متر من الصندوق الذي كان يلتمع فيه ضوء أخضر .

كان كافياً ، شعاع النور ذاك الذي أضاء الممرّ حين دفع البابَ القنّاصان المختاران اللذان كانا يرتديان صدرتين واقيتين من الرصاص . وقد لمح كمال الشرطيّ الإتحّادي الشابّ ملتصقاً بالجدار ، فأفرغ مُشطه والتهب رأس جاك راند بالبارود ، فتأرجح الى أمام وتدحرج في بُرَك زيت التفريغ التي كانت تلطخ الأرض . ولكن قبل ان يتاح لكمال ان يعود ليحتمي خلف القنبلة ، كانت رشقتان من الرصاص تسمّرانه على الإسمنت . إنهما القنّاصان المختاران اللذان صرعا الإرهابي الفلسطيني .

وعندئذ وصلت سيارات عديدة للشرطة بضجّة صفّارات مُصمّة . وعلى رأس القادمين ، كان يعدو « بيل بوث » ويهدر بكل قواه :

- لا تقتربوا ! بحقّ السماء ، لا تقتربوا !

***

أتى أنجيلو يركع الى جانب جسد جاك راند . ونظر اليه طويلاً بصمت . ثم مدّ يده وأغمض عينيه على مهل ، وتمتم ، معقود الحنجرة :

- أيها الصغير ، أيها الصغير ! قلت لك إن علينا أن نتأنّى للأمر كالحرة . فلماذا ذهبت تناديهم ؟ لماذا تصرّفت كما علّموك ؟

***

« خزن المعطيات : اوكي » اقشعر بدن بيل بوث حين اكتشف بمنظاره المكبّر ، على الشاشة الكاتودية لصندوق الإشعال ، هذه العبارة المخضرّة .

وأسرّ الى مساعده ، الفيزيائي الألبيني(×) « ديلاني » قائلاً :

- « لاري » . . إن هذه القنبلة على وشك الانفجار !

مع هذا الاثبات ، بدأت أدق عملية تفكيك وأخطرها حاولتها مفارز « نست » . وقد تكشّفت مخاوف « بوث » أنها مبّررة : كانت القنبلة « محميّة ». في محيط من مترين الى ثمانية أمتار بإكليل من المكاشيف المُقاربة . وكان هذا يعني ، بوضوح ، ان دخول أيّ شخص في هذا الحقل المغنطيسي سيطلق انفجاراً آلياً . فكان ينبغي إذن ازالة مفعول القنبلة عن بُعد . وكانت هذه مشكلة لا سابق لها .

(×) متسلّق الألب او أي جبل شاهق .

بعد أن استشار بوث فنّيه ، أسرّ لقائد الشرطة بانيون :

ـ لا أرى إلاّ وسيلة واحدة . ان نقتطع بمدفع « لازر » نافذة في صندوق الإشعال وأن نحاول شيّ الأوامر المختزنة في ذاكرة الناظمة .

كان « ديلاني » يحكّ ذقنه قلقاً :

ـ وإذا كانوا قد كيّفوا ضغط آلتهم ؟

كان الفيزيائي يشير الى خطر إضافي للانفجار . والحق أن في إحداث ثقب في الصندوق خطر إطلاق الغاز الذي ربما كان يؤمّن تكييف الضغط ، والتسبّب على هذا النحو بالإشعال الآلي .

وعند الساعة ١٧,١٦ ، اي قبل خمس وأربعين دقيقة من انتهاء أجل إنذار القذافي ، كان مدفع « لازر » للشاحنة المختبريّة لمفارز « نست » المحمول بالطائرة من « لاس فيغاس » يدخل في العمل . وقد ثقبت الطلقة الأولى ثقباً قطرُه شعرة . وطوال ثلاثين ثانية ، ظلّ بوث وفنّيوه يرشحون بقطرات كبيرة وعيونهم مسمّرة على ميناء مكاشيفهم الغازيّة . وكانوا قد تهيّأوا ، عند أوّل إشارة للتسرّب ، ان يبادروا الى سدّ تلك الثغرة اليسيرة بلَحم أطرافها باللازر .

وأخيراً ، أعلن دولاني بلهجة عزاء :

ـ لا أثر هناك للغاز !

ـ إذن ، نتابع العمل !

وعمد «بوث » الى مدفعه اللازر ، كما يعمد الى منشار حقيقيّ ، ففتح كوّة جانبية من عشرة سنتمترات في جدار الصندوق وشاشته المضادة للإشعاعات الفوبنفسجيّة .

وصاح وهو يكتشف بمنظاره المكبّر غابة الأسلاك **والأدوات** المتناهية الصغر :

ـ يا يسوع الرب ! كيف استطاع هؤلاء الليبيون الملاعين ان يعوا ويحقّقوا مثل هذه الآلة ؟

ولمح في القعر سلكين ضخمين أزرق وأحمر . فقال في نفسه : انهما بلا شك سلكا التغذية الكهربائية . سنقطعهما باللازر . ولكنه عدل عن ذلك سريعا : واذا كان الجهاز قد صُمّم كذلك على أساس إطلاق الإشعال في حال قطع التيّار ؟ الأفضل إذن ان تُشوى ذاكرة الناظمة .

كان ثمة وسيلتان لبلوغ ذلك : إما باصدار أشعة كهرمغنطيسية ، او بإرسال حزمة من الأشعة الفوبنفسجية . وتشاور بوث وفنّيوه بسرعة . إن كل خطأ يمكن بعدُ ان يكون كارثة .

انتهى دولاني الى القول :

ـ لنستعمل الأشعة الفوبنفسجية.صحيح أنها قد لا تكونُ في مثل قوة الأشعة الكهرمغنطيسية ، ولكنها لن تستثير تلك المكاشيف المقاربة ولا تفجّر ، بالتالي ، كل شيء .

بعد سبع دقائق ، كان رجال « بوث » يرسلون ، في فترة خمس عشرة ثانية ، حزمة من الأشعة الفوبنفسجية على صفائح الراتنج التي تحمل ادوات المعالجة المتناهية الصغر التي تكوّن ذاكرة الناظمة . وقد

تبع هذا القصف المضيء صمت طويل ، لا ينتهي ، محمّل بالقلق . ثم انبثق فجأة تلاحق أصوات « بيب بيب بيب » من الصندوق بغير انتظام . وانفجر بوث بضحكة جنونية وقذف قبعته ، قبعة رعاة البقر ، نحو القنبلة وهو يسقط راكعاً هادراً :

- انتهى كل شيء ! لقد جُنّت الناظمة ! ليس هناك حظٌّ على مليار في ان نعثر ثانية على الأوامر الصالحة للإشعال !

***

كان جمعٌ هائل استثاره التراشق وصفارات سيارات الشرطة ، يحاول ان يقتحم حواجز رجال الشرطة . وكان عشرات الصحفيين قد حضروا لتوّهم الى المكان ،متجمّعين حول سيارات محطّات التلفزيون المختلفة . وقد صوّبوا آلات التصوير والمناوير على مدخل المستودع ، متأهّبين لتسجيل التصريح الذي كانت باتريشيا ماكنايت ،ضابطة الارتباط الصحفي التابعة لقائد الشرطة ، تكتبه في سيارتها .

وخرجت سيارة إسعاف من المستودع ، ففتح لها شرطيّان درّاجان ممرّاً اتيح لها ان تسلك شارع « ويست سايد » . كانت تنقل جسديْ جاك راند وكمال دجاني اللذين كانا يمضيان ، جنباً الى جنب ، في رحلتهما نحو معرض الجثث .

اما انجيلو روكيا ، فكان قد تراخى على ظهر احدى السيارات ، ممتقعاً ،مبلّلاً بالعرق . كان يبدو محطّماً . كانت فكرة واحدة تستولي عليه : لماذا كان قد اجتذب « راند » الى ذلك الممرّ ؟ لماذا طلب منه أن يغطّيه ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

اقترب منه شرطيّ زنجيّ شاب ، وعيناه تبرقان إعجاباً :

- عمل جميل ، ايها المفتّش ! يبدو أنك قد أطرته شظايا ، ذلك القذر !

هزّ أنجيلو رأسه نفياً . انه طوال خمسة وثلاثين عاماً ، لم يقتل أحداً .

شقّ قائد الشرطة بانيون دائرة المعجبين وأتى يضع يداً حارّة على كتف المفتّش ، قائلاً بتأثر :

- تهانيّ ، يا روكيا ، إن شرطة نيويورك فخورةٌ بك .

قطع الضابط المكلّف بمفرزة المتفجّرات هذه الدفقات العاطفيّة :

- اعذرني ، ايها القائد ، الا يتوجّب علينا ان نضع حول القطاع لافتات تحذير من الإشعاعات ؟

اذ ذاك ، سمع الرجال الثلاثة ، على بعد عشرة أمتار تقريباً ، التصريح الذي كانت تقرأه ضابطة الارتباط الصحفي لقائد الشرطة امام آلات التلفزيون ومكبرات الاذاعة :

. . . . إن الشحنة المتفجّرة المثبتة ببرميل الكلور قد عُطّلت . وسينقل البرميل فوراً على ظهر شاحنة خاصّة حتى مركز التجارب العسكري في « رودمان نيك » لغاية فحصه وتدميره .

(انتهت)

خاتمة

في ليل ذلك الثلاثاء الواقع فيه ١٥ كانون الأول ، نُقل الجهاز الحراري النووي ، الذي بناه وليد دجاني لحساب معمر القذافي ، بالطائرة الى لوس ألموس ليصار الى فحصه فحصاً معمّقاً .

وبعد أربعة أيام ، كان « هارولد وود » ، مدير المختبر الذريّ ، يؤكّد في تقرير سرّي لرئيس الولايات المتحدة أن الجهاز كان مطابقاً بدقّة للمصوّر والعلامات الفنّية المرفقة بالشريط الذي أُودع البيت الأبيض يوم الأحد ١٣ كانون الأول . كان في الحقيقة قنبلة هيدروجنية من زنة ثلاثة ميغاطون ، وهو ما يعادل مئة وخمسين ضعفاً قوة قنبلة هيروشيما . اما صندوق الإشعال ، فقد دلّ تشريحه على ان فنّيي طرابلس كانوا قدصمّموا كذلك نظاماً لا يخطىء لإطلاق الانفجار عن بُعد .

***

كان ردّ الفعل الأول لأعضاء الحكومتين الاميركيةوالإسرائيلية ، بعد إبطال مفعول القنبلة ، رغبة جنونيّة بإبادة ليبيا ورئيسها على الفور . ولكن ارتكاس الغضب هذا لم يصمد لتحليل بارد للموقف . فقد كانت شبكة الصواريخ النووية التي كان يملكها رئيس الدولة الليبية على طول جبهته الشرقية تتيح له عمليات انتقام تجلب الكارثة لإسرائيل في حال مهاجمة بلده . كانت ساعة الحقيقة قد دقّت بالنسبة لإسرائيل وليبيا . كما كان ، بالنسبة لأميركا والاتحاد السوفياتي ، منذ ثلاثين عاماً ، امتلاك أسلحة الدمار الذرّي يحمل توازناً للإرهاب بين البلدين ومنظور انتحار جماعي في حال قيام النزاع .

***

يوم الميلاد ، أراد رئيس الولايات المتحدة ان يستغلّ الصدمة التي أحدثتها تلك الأزمة في القدس وطرابلس وواشنطن ، فدعا سرّاً مناحيم بيغن ومعمر القذافي الى « كامب ديفيد » بحثاً عن تسوية نهائية للصراع الاسرائيلي العربي .

وقبل ان يسافر بيغن الى واشنطن ، توجّه الى رأس جبل « ايلون سيشام » حيث كان مستوطنو « كتلة الايمان » والجنود المكلّفون بطردهم قد ظلّوا وجهاً لوجه طوال عشرة أيام ، عشرة ايام من غير ان يجرؤ أحد على أخذ المبادرة بإطلاق النار . وكان الوزير الاول قد اصطحب السلطة الوحيدة القادرة على كسر إرادة متعصّبي سكان السامرة اليهود : الحاخام « كوك ».وبعد ثلاث ساعات من أشدّ المناقشات العاصفة في التاريخ اليهودي ، قبل المستوطنون بمغادرة رأس الجبل والإقامة مؤقتاً في مخيّات معسكرإسرائيلي عسكري مجاور .

***

لم تستطع ليلى دجاني ان تنفّذ الأمر الذي أعطاها إياه أخوها وهو يغادرها . هي ايضاً لن تعود الى

فلسطين . ليس في وقت منظور على الأقل . فبعد ثلاث ساعات من تركها كمال على الجادة السابعة ، اعترضت سيارتها الفورد الخضراء دورية من شرطة ولاية نيويورك على الطريق رقم ٩ ، على بعد مئة واربعين كليومتراً من شمال مانهاتن .

وسرعان ما اقتيدت الى قاضي محكمة كنغستون الاتحادية ، وهي أقرب مدينة من مكان اعتقالها ، وجُرّمت ، وفقاً للمادة ١٨ من قانون الولايات المتحدة الجزائي ، بتهمة « الابتزاز النووي » و « الحيازة اللاشرعية للمتفجّرات » .

جريمتان تتعرّض بسببهما لعشرين عاماً من السجن .

***

في واشنطن ، أقيم في باحة الاركان العامة لمكتب التحقيق الاتحادي ، بجادة بنسلفانيا ، احتفال بسيط ولائق لذكرى جاك راند ، بحضور زوجته وأولاده الثلاثة . وكانت المنصّة التي أقيمت للمناسبة ، تغصّ بالوزراء وأعضاء الكونغرس ورئيس العدلية والمدّعي العامّ . وكان الرئيس الاميركي قد أوفد زوجته . وكان قائد الشرطة بانيون والمفتش أنجيلو روكيا يمثّلان شرطة نيويورك . وكان مئات من رجال الشرطة الاتحادية وعائلاتهم يملأون الرواق حول الباحة . وقد بدأ الاحتفال بخفض الأعلام من قبل حرس الشرف في البحرية ، ثم عزفت فرقة موسيقية لحناً دينياً . واخيراً ، تحدّث مرشد للبحرية عن النموذج القدوة في الشرطة الاتحادية جاك راند، « حاثّاً الحضور على الكفاح مع القوى الجديدة من اجل احترام العدل والحق في بلدنا وفي العالم » . وبعد ذلك سلّم جوزيف هولبورون ، مدير مكتب التحقيق الاتحادي ، لأرملة المتوفّى ، الوسام الفضي،أرفع أوسمة الشرطة الاتحادية .

اما كلمة الختام لهذه الأيام المريعة من كانون الأول ، فقد كانت من حق الشرطي النيويوركي انجيلو روكيا خلال حفلة الاستقبال التي أقامها أب ستيرن في مقرّ البلدية ، احتفالاً بزواجه بغريس نولاند وتسليمه اكبر وسام للشرطة « وسام جوقة الشرف »

وحين أبلغه رئيس البلدية ، سرّاً ، نبأ مؤتمر كامب ديفيد ، صاح أنجيلو ، وكأس الشمبانيا في يده :

- يا إلهي ! من كان يعتقد أنه كان لا بدّ من تعريض حياة عشرة ملايين نسمة لبلوغ هذه النتيجة ؟ !

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

هذه الرواية ...

« الفارس الخامس » هو ، في رأي المؤلفين ، العقيد معمّر القذافي الذي يترأس فرسان القديس يوحنا الأربعة المعروفين في « سفر الرؤيا » منبثقاً من أحشاء الجحيم ليصعق العالم .

والقضية المطروحة في هذه الرواية هي التالية : إذا امتلك العرب القنبلة الهيدروجينية ، وقرّروا استعمالها كوسيلة ضغط لاسترداد حقهم في فلسطين ، فكيف يواجه العالم قرارهم هذا ؟ كيف تتصرف الولايات المتحدة إذا وضع ثلاثة فلسطينيين في أحد أحياء نيويورك قنبلة هيدروجينية كلّفهم قائد ثورة الفاتح من سبتمبر بنقلها ، وأنذر الرئيس الاميركي بتفجيرها إذا لم يمارس ضغطه على الدولة الصهيونية من أجل حملها على إخلاء مستعمراتها من الأرض المغتصبة؟

وسواء أكان المؤلفان يحاولان الموضوعية في طرح القضية أم يصنّفان في صفوف أعداء العرب ، فان إطلاع القراء العرب على عملهم يحمل فائدة لا شك فيها .

إن الدرس الذي يرشح من هذه الرواية هو التالي : حين يملك العرب سلاحاً هيدروجينياً مماثلاً للسلاح الذي يملكه أعداؤهم ، فانهم يستطيعون ، من موقع القوة المتكافئة ، أن يُسمعوا صوتهم وأن ينفذوا به الى أعدائهم فيقسروهم قسراً ، ولو بدافع « توازن الإرهاب » ، على التفكير بإعادة حقوقهم المغتصبة .

.. هناك تحفّظات كثيرة على الرواية (يجدها القارىء في المقدمة) ، ولا بد له من التنبّه إليها حتى لا يعتقد أن ما جاء في الرواية حقيقة لا يرقى إليها الشك ...

ثمن النسخة ٥٠ ل.ل. أو ما يعادلها.